تابع الباب الرابع

باب في الجهمية الداروينية واللاهوت التطوري

Evolutionary Theology (Theistic Evolution)

& Creationism

لا يكتمل "المشروع الفكري" لأمثال الدكتور هداه الله، حتى يصبح لديه اعتقاد تفصيلي في صفات رب العالمين وفي أفعاله وعلاقته بالعالم المخلوق! وقد كان أشار في كتابه "خرافة الإلحاد" إلى إرهاصات ذلك الاعتقاد، إذ قال (ص. 60): "ومن ثم فإن عدم الثبات وغياب المطلق من صميم طبيعة العلم. ولا يعني ذلك أن معطيات العلم ذاتية، تختلف من شخص لآخر، فالعلم يعطينا نظرة موضوعية للعالم مكنتنا من أن نتحدث عن نظريات جاليليو ثم نيوتن ثم أينشتاين، وإن كانت هذه النظرة لا تعبر عن الحقيقة المطلقة للوجود." اهـ. قلت: فأنت حين تسمع قوله "وإن كانت هذه النظرة لا تعبر عن الحقيقة المطلقة للوجود"، في مختتم هذه الفقرة المنقولة، فلن تفهم منه إلا أن الدكتور يعتقد أن المعرفة العلمية التجريبية لا تطابق الواقع على الحقيقة كما يتوهمه الناس، وإن كانت تقدم مضمونا موضوعيا في وصف الواقع لا يختلف عليه الناس! فهم كلهم يتفقون على رؤية الواقع على صفة ما، مع أن "ألحقيقة المطلقة" على خلاف تلك الصفة! وإلا فإن كانت النظرة المذكورة لا تعبر عن الحقيقة المطلقة للوجود، فعن أي حقيقة "تعبر" إذن؟ وكيف يقال والحالة هذه إنها معرفة صحيحة مطابقة للواقع في نفس الأمر؟

أقول إن في هذا الكلام إرهاصات لبيان معتقد الدكتور في صفة الباري جل شأنه، لأنه قد صدر عنه فيما بعد كتاب فصل فيه ما أجمله وأبهمه في مثل هذه العبارة! ففي سنة 2015 من الميلاد، نشر الدكتور عمرو كتابا له سماه "الوجود رسالة توحيد"، وهو كتاب جهمي خطير، حاول فيه أن يثبت أن العلم الطبيعي (لا سيما الكوزمولوجيا والبيولوجيا الارتقائية) هو المدخل العقلي الأعلى والأرقى لمعرفة الباري واستنباط صفاته جل شأنه بصورة تفصيلية، وأن الإسلام جاء بجعل النظر في الطبيعة (الذي هو عنده بمعنى التنظير الطبيعي، كما في تأويله قوله تعالى "قل سيروا في الأرض فانظروا" الآية!) هو المدخل لإثبات وجوده وما هو واجب له من الصفات وما هو ممتنع في حقه.

قال الدكتور في تعريفه الموجز بموضوع الكتاب:

> العلم يقرأ كتاب الوجود: لم تكن محض صدفة أن يتوجه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وأيضا خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء، يتأملانها ويستدلان منها على الإله الخالق. ويؤكد ذلك السلوك أن الوجود هو أول رسالات التوحيد، خلقه الله عز وجل على هذه الهيئة ليشير إليه وإلى وحدانيته وأسمائه وصفاته. لذا فإن

الوجود رسالة توحيد تماما مثلما أن الديانات الإبراهيمية رسالات توحيد. وكما أن القرآن الكريم هو "كتاب الله المسطور" فالوجود هو "كتاب الله المنظور" الذي نستنطقه مفاهيم الألوهية التي نزلت الكتب المقدسة لتعرفنا بها، ويخبرنا الله عز وجل في كتابه (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)) الآية. أي أن العلم سيكشف للإنسانية من الدلائل في الكون وفي الأنفس البشرية ما يجعلنا نجزم بأن مفاهيم الألوهية حق. كما تخبرنا الآية الكريمة أن آيات الوجود هي الحجة على صدق آيات القرآن الكريم. ومن ثم فإن القراءة العلمية للوجود تقدم البرهان على صدق المحاور الثلاثة للألوهية (إثبات الوجود الإلهي – الإقرار بالتوحيد – التعريف بما شاء الله عز وجل أن يطلعنا عليه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى). وهذه القراءة للوجود هي مراد المؤلف من هذا الكتاب ...

قلت: قوله بأن محمدا صلى الله عليه وسلم وإبراهيم عليه السلام استدلا على وجود الخالق بالنظر في السماء، ليس مما نقبله من مثله، وانتبه أيها القارئ الكريم لهذه المسألة فإنها مهمة! ذلك أنه في مفهوم الاستدلال هنا إنما يجري على منهجه الجهمي الطبيعي في تأسيس الاعتقاد الغيبي على ما ينتهي إليه الطبيعيون من نظريات طبيعية، في الكونيات وغيرها (وهو ما يسميه بكتاب الله المنظور)، وادعاء أن الاعتقاد الصحيح في الغيبيات إنما يتأسس أساسا عقليا (علميا) من ذلك الطريق! وهذا هو ما كتب الكتاب من أجله، أن يقول للعامة إن الطبيعيين قد بلغوا أخيرا من التطور "العلمي" في تصور الكون وحقيقته وتاريخه ونشأته، ما يلزم العاقل منهم بأن يعتنق أعظم صور الاعتقاد في الصانع تطورا ورقيا كذلك، ألا وهو التوحيد الخالص! وهذا هو التلبيس بعينه، والله المستعان!

فلا يسعني هنا إلا أن أسأل الدكتور هداه الله، وأرجو منه إن وقف على قراءة هذا الكلام يوما ما أن يتأمله ويتدبر فيه بتجرد وروية: لو قدرنا أن كان الله تعالى خلق العالم على غير هذه الهيئة أو الصفة التي هي "آخر صيحة" عند الطبيعيين في تصورهم الميتافزيقي لبنية الكون بكليته وهيئته وقصته ونشأته .. إلخ، أفما يكون في حاله إذن ما يدل العقلاء على أن له ربا واحدا كما تدلهم عليه حاله التي هو عليها الآن؟ أو بعبارة أخرى: ما هي الهيئة التي تتوقع أن يكون عليها العالم لو كان له أكثر من خالق؟؟ ما هي جملة القوانين والثوابت الفيزيائية التي تتوقع أنت أن يجري عليها العالم إن قدر كونه راجعا إلى أكثر من صانع واحد، بحيث لما نظرت "في كتاب الله المنظور" (على حد عبارتك) وجدت عالمنا هذا على غيرها؟؟ لو قدر وجود أكثر من صانع كلهم سواء في القدرة (كل واحد منهم قادر على أن يصنع

عالما كاملا بنظامه السببي الثابت)، لاختلفوا ولتصادمت المشيئات والإرادات في الخلق والتدبير، ولما كان عالمنا هذا إذن "عالما" واحدا منضبطا على نظام واحد، ولا قريبا منه، بل ولما نشأ أصلا على نحو يصفو لصاحبه ومنشئه، إلا أن يفارق صانعه أنداده بصنعته ويذهب بما خلق! وهذا أمر بدهي يعرفه البشر من مبدء النظر، فلا يستند فيه إلى نظريات الطبيعيين كيفما كانت حتى يحكم به ذلك الحكم البدهي المنصرم الذي هو لائق به! ولا يزال المتكلمون والفلاسفة يقررون ما يسمى عند المتكلمين بدليل التمانع أو برهان التمانع بمعان جارية على نحو ما قررنا، من قرون طويلة، من غير أن يكونوا متخصصين في "قراءة كتاب الله المنظور"! فعندما يقال إننا نظرنا بآلة النظر الطبيعي والفلكي فوجدنا العالم مطبوعا على الهيئة الوحيدة والنظام الوحيد الدال على أن صانعه واحد، فهذا يستلزم أن يكون لدى القائل خبرة سابقة بالهيئات الأخرى التي كانت ممكنة له، واعتيادا على فحصها وتحليلها، مع كونها كلها على غير هذه الصفة (أن لها صانعا واحدا)، وهذا ممتنع مقطوع بامتناعه عند العقلاء كافة، خلافا للطبيعيين!

فعلى منهج الطبيعيين الذي تشرب به الدكتور عمرو هداه الله، يجوز عقلا أن يبلغ الإنسان علما نظريا قياسيا يصل به إلى الحكم بما هو جائز وما هو ممتنع من أنواع العوالم والنظم السببية القانونية، على أساس أن العالم القائم وغيره من العوالم الممكنة، إنما تتولد كلها عن جملة من النظم السببية الطبيعية المتقدمة على حادث النشأة (على قول القائلين منهم بالنشأة) التي توصل الطبيعيون إليها في مجالي الكوزمولوجيا والأستروفيزياء! ولهذا تجد أمثال الهالك هوكينغ يكرر مرارا ما معناه أن الصانع – على تنزل منه بتقدير وجوده – ما كان يملك خيارا في صنع العالم على ما هو عليه، وما كان يصح للعالم أن يكون على غير ما هو عليه!! لماذا؟ لأن كوزمولوجيا القوم وخرافتهم الدهرية الفاحشة في استصناع عالمنا على حوادث وأسباب جعلوها خاضعة لبعض نظمه التي ركبها الله فيه، تلك النظم التي هم جارون في تصورها – ابتداء - على مبدأ السببية الطبيعية المغلقة (أن الأسباب كلها إنما هي متولدات عن نظم طبيعية قديمة لا ابتداء لها، فلا موجود في الماضي ولا في الحاضر إلا ما هو بالضرورة خاضع لها)، هذه الكوزمولوجيا ما كان يتصور لتلك القوانين أن تجري على نحو ينشئ عالما غيرها!!

فهم لما قاسوا حوادث أصل العالم على ما يجري فيه من حوادث اعتيادية محكومة بنظام طبيعي معين (مع ما يدينون به من سببية طبيعية مغلقة)، حكموا بالقياس بامتناع خروج تلك الحوادث الابتدائية على غير ذلك الوصف الذي زعموه لها، كما يمتنع – بزعمهم – أن تجري عامة الحوادث الاعتيادية في العالم على غير ما تخضِع به إلى ذلك النظام نفسه! فجعلوا بتلك

المغالطة السخيفة سبب نشأة النظام خاضعا للنظام نفسه! بناء على هذه المغالطة وذلك الدور المنطقي السخيف، نزع الطبيعيون المعاصرون عن رب هذا العالم وصانعه خياره في أن يخلقه كله ونظامه الذي ركبه فيه، من أوله إلى آخره، على ما يشاء مما سوى هذا الذي اعتدناه فيه وعهدناه عليه، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا! وبناء على ذلك التحكم الدهري في قصة النشأة، نشأت فكرة المبدأ الأنثروبي Anthropic Principle كما بسطنا الكلام عليه في غير موضع، فافهم! [1]
قال تعالى: ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ)) [القصص : 68-74]
قال الله تعالى ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ)) [الملك : 3]، فهل كان المخاطبون بهذه الآية في زمان التنزيل يحتاجون إلى النظر في الطبيعيات حتى تقوم عليهم حجة الآية ويحصل فيهم مقصودها على التمام؟؟ على مذهب الدكتور، يلزم الصحابة أن يكونوا كوزمولوجيين أولا، وهو ما يسميه صاحبنا بقراءة كتاب الله المنظور، وإلا فمن أين يأتي إيمانهم ويقينهم في صحة الإسلام، إن لم "ينظروا" في السماء أولا؟! القول "بالنظر أولا" هو مذهب الجهمية فتأمل! وهو هنا: البدء بقراءة "الكتاب المنظور" قبل "الكتاب المسطور"، ليكون الأول هو الدليل على صحة الثاني!
وأما وحدانية الصانع فمعلومة بالفطرة والبداهة، وهي ثابتة في العقل أيا ما كان تصور الطبيعيين لهذا العالم الذي نحن فيه! فمعلوم بداهة أن السماوات والأرض لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا، والحال أنهما على أكمل ما يكون من نظام وانضباط! فمن الذي قال إن العالم ما كان ليجري على نفس هذا الكمال في النظام والانضباط لو كانت صفته أو هيئته أو للدقة: تصور الطبيعيين له، على خلاف ما هو عليه الآن؟؟ هذا من كلام الكوزمولوجيين الدهرية فيما سموه بالمبدأ الأنثروبي Anthropic Principle! قالوا لو قدر أن اختلفت مقادير الثوابت الفيزيائية أدنى اختلاف، لما نشأ هذا العالم على نحو يسمح بنشوئنا ارتقائيا (على حسب أسطورتهم التطورية)! وهذا منهم جهل وتحكم، وهو من مغالطات تصيير عدم العلم علما بالعدم، فحقيقة أنكم لا تعلمون نظاما له ثوابت غير هذه الثوابت التي

عليها عالمنا في تقديركم، فيه حياة كتلك التي في عالمنا، هذه لا تمنع في العقل من وجود ذلك العالم المغاير، الذي فيه – مع ذلك – بشر أمثالنا، كما يريد ربهم وخالقهم ويختار سبحانه! فعلى أي أساس يُنتهى إلى التجويز والمنع هنا إلا مسلمات الدين الطبيعي كالسببية الطبيعية المغلقة Closed Natural Causation؟؟! الذي قال إن الحياة لا توجد إلا إن وجد الماء، هذا على أي أساس حكم بالمنع إلا التحكم بالقياس الطبيعي وتحويل الامتناع الطبيعي إلى امتناع عقلي على أثر القول بأنه لا سبب إلا السبب الطبيعي؟

ثمة سبب غيبي أعلى، خارج عن أسباب الطبيعة، متقدم عليها، لو شاء صاحبه سبحانه لجعل نظام الطبيعة على غير ما تعرفون، ولبدله كله وأنتم لا تشعرون، ولجعل الحياة تنشأ في النار لا في الماء! بل حتى مع كون النظام السببي الطبيعي على ما هو عليه، فقد كان منه في هذا العالم الذي تعرفونه، خلق نوع من الأنواع الحية من مارج من نار، فوالله إنكم لأجهل خلق الله بأفعال الله لو كنتم تعقلون! حتى لو قدر أن كانت نشأة العالم والبشر فيه نشأة ارتقائية تطورية كما يقوله الطبيعيون، لجعل الله نظام الطبيعة ونظام الحياة على نحو متلائم كيفما كان الأمر، ولما امتنع أن توجد الحياة في هذا العالم بسبب اختلاف البداية التي بدأ بها!

ولهذا لا يجوز أن يقال كما يقوله الطبيعيون: لو كان مقدار قوة الجاذبية على الأرض أكبر قليلا مما هو عليه، لزادت حرارتها عن الحد الذي يسمح بوجود حياة، ولما وجدت الحياة من الأساس، أو لو كانت أقل قليلا لانخفضت عما يسمح بوجود الحياة! هذا كله باطل لا يصح، لأن الذي وضع الشمس في فلكها الذي هي فيه حول الأرض لا في غيره، لو أراد يوم خلق السماوات والأرض أن يجعلها أقرب أو أبعد عما هي عليه، مع زيادة الجاذبية أو خفضها عما هي عليه، ومع ذلك توجد على الأرض هذه الأنواع الحية كلها كما هي عليه الآن بحذافيرها بلا زيادة أو نقصان، لما أعجزه ذلك، ولأجرى نظام العالم وسننه كلها تبعا لتلك الإرادة وغيرها من إراداته جل شأنه، وإذن لكانت الثوابت الكونية على خلاف ما ترونه الآن، ولقلتم أنتم حينها كما تقولون الآن إنه ما كان من الممكن أن تنشأ الحياة في العالم إلا بكون ثوابته على ما تجدونها عليه! فليلزم كل امرئ منكم قدره، وليتق الله في نفسه وفي عقله وفيما يقول على رب العالمين! ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [الزمر : 67]

وإنما يصح أن يقال في بيان الضبط المحكم لنظام الأسباب وسنن الطبيعة، إنه لو قدر أن وقع تغير في ثابت من ثوابت الطبيعة أو في قانون من قوانينها (على ما نجدها عليه الآن)، مع بقاء كل ما سواه على ما هو عليه، لفسدت الأرض وما عليها! فلو قدر أن تضاعفت قوة الجاذبية على الأرض في يوم من الأيام، مثلا، مع بقاء حرارة الشمس على ما هي عليه، وبقاء

الحشوة الحية على ما هي عليه في قوة البنية التي يتمتع بها كل نوع وفي الطريقة التي يتحرك بها، وفي مدى تحمل جسومها وأنسجتها الحية لزيادة درجة الحرارة .. إلخ، لاحترقت الأنواع الحية ولهلك بعضها من عجزه عن الحركة والانتقال لشدة الجاذبية! هذا الذي قلناه من تقدير وقوع ما لا يقع بحال، ولكن لعله ونحوه يفيد في بيان كيف تنتظم جميع النظم الطبيعية والسنن السببية الجارية على سطح الأرض في سلك واحد لا يحصل مقصود الباري من خلقه ما خلق إلا به! أما أن يقال إن الحياة ما كانت لتنشأ، والعالم ما كان ليحصل فيه كذا وكذا لولا أن كان القانون الطبيعي على نحو كذا، كما يقوله الكوزمولوجيون الدهرية في إطار ما سموه بالمبدأ الأنثروبي وتابعهم عليه جهال أهل الكتاب لا سيما في أمريكا، فهذا من شرك الطبيعيين، ينزلون صفات الربوبية على قوانين الطبيعة، يجعلونها هي الصانع الباري وهي صاحب الخلق والأمر، وهي ما يترجح به كون العالم على ما هو عليه لا على غير ذلك!

فمن هنا، أيها القارئ المحترم، لزم ألا نسلم للدكتور بصحة قوله: "وكما أن القرآن الكريم هو كتاب الله المسطور فالوجود هو كتاب الله المنظور الذي نستنطقه مفاهيم الألوهية التي نزلت الكتب المقدسة لتعرفنا بها، ويخبرنا الله عز وجل في كتابه (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)) الآية. أي أن العلم سيكشف للإنسانية من الدلائل في الكون وفي الأنفس البشرية ما يجعلنا نجزم بأن مفاهيم الألوهية حق." قلت: إذا كان "العلم" الذي تتكلم عنه يا دكتور هو علم الأحياء الدارويني وعلم الكوزمولوجيا الارتقائية، فلا والله لن يكشف إلا دهرية أصحابه والقائمين عليه، وجهل من تابعهم عليه من أهل القبلة ومن أهل الكتاب من قبل! وليس هذا التنظير الدهري هو "كتاب الله المنظور" أصلا (إن صحت هذه العبارة)، وإنما هو خرف الطبيعيين الدهرية فيما يجعلونه هو واقع هذا العالم وأصله ونشأته وتاريخه وتطوره .. إلخ! وكذلك ليس الاعتقاد الغيبي ولا تأويل النصوص المبني عليه هو "كتاب الله المسطور"، وإنما هو تحريف لكتاب الله الذي نزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

يجب أن يرد على هؤلاء إجمالهم في تلك التقريرات ولا يسلم لهم به، لأن الأمر فيه من إفساد العقيدة ومصادر تلقيها عند المسلمين ما من شأنه لو تركناه أن ينتج لهم دينا جديدا، ما عرفه محمد صلى الله عليه وسلم ولا علمه أحدا من أصحابه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! الطبيعيون يتلقون دينهم من التنظير الطبيعي كما هو معلوم، ولهذا فعندما يقول قائلهم، ممن بقيت له نسبة معلنة إلى ملة من الملل الكتابية، إنه يجب أن نفهم كتاب الله المسطور في ضوء كتابه المنظور، فإنما يقول على الحقيقة: "يجب أن ننبذ فهم الأولين للنص، ونحدث نحن في محله ما يوافق نظرياتنا الطبيعية

المعاصرة في قضايا النشأة وغيرها من أمور الغيب التي ما كان الناس قديما يتلقون فيها شيئا إلا من فهم الأولين لتلك النصوص"!
ولعل كثيرا من القراء لا يعلمون أن هذا المنهج قرره تشارلز داروين نفسه في ختام كتابه "في أصل الأنواع"، ناقلا عن فرانسيس بيكون قوله: "ولذا، وفي الختام، فلا يظنن أحد أو يدعي من خديعة وعيه له أو من تطبيق فاسد للعقل لديه، أن الإنسان يمكن أن يجاوز الحد في البحث أو أن يبلغ المنتهى في العلم بكتاب كلمة الله The book of God’s word، أو في كتاب أعمال الله The book of God’s works، في الإلهيات أو في الفلسفة، ولكن دعوا كل رجل يشق طريقه بنفسه في تطوير الذات وزيادة الفهم في كليهما معا – نقلا عن بيكون: "تطوير التعلم"." اهـ. قلت: فلأول وهلة، يتوهم السامع أن مراد بيكون (وداروين في نقله عنه)، أن يقررا معنى صحيحا وهو أنه ليس لإنسان أن يدعي لنفسه العلم الكامل بكتاب الله (الذي هو عنده كتاب النصارى) ولا العلم الكامل بما في الطبيعة! ليس هذا هو المراد، وإنما المراد أن يقال كما نسمعه من العلمانيين وغيرهم في غير مناسبة لكل من أراد أن يلزم الناس بفهم الأولين للنص الديني: "لا تحتكر الحقيقة ولا تحجر الفهم، لك عقل ولنا عقول!"! المراد إسقاط سلطان الموروث المعرفي على تلك القضايا التي اخترمها داروين بالتنظير الغيبي المحض بغير حق ولا سلطان، ودعوة كل مخالف ممن يتخذ لنفسه مستندا في نصوص الكتاب إلى أن ينبذ ذلك الفهم الموروث نبذ النواة، فتأمل!
وأما "مفاهيم الألوهية"، فإنما نجد أساسها (وليس تفصيلها) في الفطرة التي في نفوسنا، والبداهة التي تقوم عليها عقولنا، من غير أن "نستنطق" ذلك ولا أن نتكلفه، فإذا ما سمعنا الحق الذي جاءت به الرسل، عرفنا فورا وبلا اشتباه – لمن امتن الله عليه بالسلامة من الأهواء الصارفة – أنه الدين الحق الذي يجب اتباع من جاء به والانقياد له، وعرفنا إذن صفات الربوبية التي وجب على المكلف أن يعرفها بتفصيل، وما تقتضيه من أفعال التأليه والعبادة في حقنا! ولا يخفى أن الدكتور يستعمل لفظة "ألوهية" على ما يسميه أهل العلم "بالربوبية"، يجري في ذلك على طريقة الفلاسفة الغربيين الذين ترجم عنهم المصطلح Theism!
والقصد أنه لا مدخل إلى هذه القضية من كلام الكوزمولوجيين ودعاواهم العريضة، ولا ينبني على أقيسة القوم فيها إيمان أو توحيد أصلا، وإنما ينبني عليها الدين الطبيعي، أو الزندقة والجهمية الطبيعية على أحسن الأحوال، نسأل الله السلامة! ولهذا لم يكن مستغربا على الإطلاق أن يفتتح الدكتور الكلام في الكتاب عن اعتقاد المسلمين في الرب جل شأنه بجملة من السلوب الجهمية الفلسفية التي التقطها من كتب الجهمية القدماء، فقال (ص. 77-78):

ويقوم التصور العقدي في الإسلام على عقيدة الإيمان بالله بوصفه الموجود الحق بذاته ... والله ليس بجوهر لأن جوهر الشيء تلحق به وتحل به الحوادث، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وليس بجسم لأن الجسم حقيقته الجوهر، وإذا بطل كونه جوهرا بطل كونه جسما بالضرورة، وليس بعرض، لأن العرض لا قيام له بذاته بل هو مفتقر إلى جسم يقوم به، والله قائم بذاته غير مفتقر إلى شيء. ولا يشبه الله العالم ولا شيئا منه، لأنه لو كان يشبهه للزم إما حدوثه وإما قدم العالم، وكلاهما منتفيان. ولا يقال عنه ما هو لأن ما سؤال عن الجنس ولا جنس له. ولا يقال كيف هو لأن الكيف يستخبر به عن الهيئة والحال ولا هيئة له ولا حال. ولا يقال كم هو لأن الكم يستخبر به عن المقدار والعدد ولا عدد له. ولا يقال متى كان، لأن متى سؤال عن الزمان ولا يجري عليه زمان. ولا يقال أين لأن الذي أين الأين لا يقال له: أين؟ والله ليس في جهة ولا تحويه الجهات في العالم لأن الجهات حادثة وهو الذي خلقها، فلو صار مختصا بجهة بعدما خلقها لكان يتخصص بمخصص وذلك باطل. وهو أيضا ليس خارج العالم لأنه لو كان كذلك لكان محاذيا للعالم، وكل محاذ بجسم إما أن يكون مثله أو أكبر منه أو أصغر، وكل ذلك تقدير يحتاج إلى مقدر، تعالى عن ذلك. وترفع الأيدي إلى السماء عند الدعاء لأنها قبلة الدعاء، كالتوجه إلى الكعبة في الصلاة، وكوضع الوجه على الأرض عند السجود، وإن لم يكن الله في الكعبة ولا تحت الأرض. واستواء الله على العرش حق وصدق عند المسلمين يؤمنون به ويعتقدونه على الوجه الذي أراده الله ولا يشتغلون بكيفيته، كما يشير الاستواء إلى القدرة. ولا يقال عنه لم فعل؟ لأن لم تقال لمن فعل لعلة أو حاجة أو ضرورة، وهو منزه عن ذلك، ولا يمكن للإنسان أن يحيط بطبيعة المقصد الإلهي، فهو لا يستطيع أن يدخل علمه سبحانه.

قلت: هذه السلوب الفلسفية كلها هي أحسن ما يناسب الجهمية المعاصرين كما ناسبت الجهمية الأوائل من قبل، وللعلة نفسها! فمع أن الدكتور لا يقول – بطبيعة الحال - بميتافزياء الجوهر والعرض (وإن كان في نقله ما نقل لم ينتبه إلى ذلك!)، إذ لا يرى العالم مركبا إلا مما يزعم الطبيعيون المعاصرون أنه مركب بكليته، إلا أنه لما وجد في كتب أهل الكلام تلك السلوب والتعطيلات، أعجبه ذلك فنقله بمتعلقاته! ولا يدري الدكتور على ما يبدو سبب قول الجهمية القدماء بنفي معنى الجسم، ألا وهو كونه محلا للحوادث، سبحانه، ولا ما المقصود بكون الشيء محلا للحوادث، وأن ذلك كله راجع إلى برهان الحدوث الذي يقوم على ميتافزيقا الجوهر

والعرض التي لا يقول هو بها ابتداءً، ولو قال بها لاتخذه أقرانه من الطبيعيين الأكاديميين المعاصرين مادة للضحك والتندر!
قوله: "ولا يشبه الله العالم ولا شيئا منه، لأنه لو كان يشبهه للزم إما حدوثه وإما قدم العالم، وكلاهما منتفيان." قلت: نفي المشابهة بإطلاق باطل، كما أن إثباتها بإطلاق باطل، وإنما الواجب الاستفصال. ذلك أن مبدأ الاشتراك المعنوي بين الموجودات في بعض الصفات يقتضي إثبات المشابهة في ذلك القدر على الأقل، أي أنه يدخل في معنى الشبه أو المشابهة على وجه من وجوهه في اللغة! فالله تعالى يشبه الموجودات المخلوقة في مطلق كونه موجودا، وإن كان وجوده هو اللائق به كما أن وجودها هو اللائق بها، فليس وجوده كوجودها! وهو يشبهها في كونه سميعا وهي ذات سمع، وإن كان سمعه لا كسمعها، وفي كونه بصيرا وهي ذات بصر، وإن كان بصره لا كبصرها، وفي كونه حيا وهي ذات حياة، مريدا وهي ذات إرادة، متكلما وهي تتكلم، عليما وهي ذات علم، إلى آخر ذلك. فالمشابهة قد تطلق في لسان العرب ويراد بها المشابهة التامة من كل وجه، بحيث لا يمتاز الشبيه عن شبيهه لا في أصل معنى الصفة التي هي محل الشبه، ولا في كيفيتها وحقيقتها، ولا فيما يتعلق بها من متعلقات أو لوازم، وقد يراد بها المشابهة الناقصة، كأن يكون الشيء شبها للشيء في معنى الصفة التي يشتركان فيها، مع الاختلاف في الحقيقة والكيفية. ولهذا نفى الله تعالى المماثلة ولم ينف مطلق المشابهة، فقال ((ليس كمثله شيء)) ولم يقل "ليس شبهه شيء"، ولهذا قال في المصلوب ((ولكن شبه لهم)) ولم يقل "ولكن مثل لهم"، لأن المماثلة إغراق في المشابهة ومبالغة فيها، والمنفي هو ذاك الإغراق لا مطلق المشابهة أو الموافقة أو الاشتراك المعنوي مع المخلوقين في بعض الصفات. وإثبات المماثلة بين شيئين يجَوِّز القياس بينهما في استنباط ما خفي من صفة أحدهما دون الآخر، خلافا للمشابهة إذا أثبتت في صفات معينة، فلا يقتضي ذلك جواز إثبات مزيد من الصفات لأحد المتشابهين بالقياس على الآخر، إلا إن كان المراد المشابهة التامة من كل وجه. فعلى طريقة أهل العلم وأئمة السنة، لا ننفي المشابهة حتى نستفصل أي الوجهين هو المراد عند المثبت (المشابهة التامة أم المشابهة من وجه دون وجه).
ولا شك أن الفيلسوف الطبيعي يناسبه التعطيل غاية المناسبة، ويخدم أغراضه على أتم ما يكون! ولهذا لم يزل الفلاسفة يتكثرون من السلوب في الإلهيات، يقول قائلهم "العلة الأولى" ليست كذا ولا كذا ولا كذا ولا كذا ولا توصف بكذا ولا كذا ولا كذا .. إلخ، حتى لا يبقى على التحقيق إلا العدم أو ما يقاربه! ولا عجب، فإنه كلما أطلق الفيلسوف لعقله العنان بالتنظير الفاحش العريض في الغيبيات، تعاظم داعيه لتعطيل مزيد من صفات الباري بالغيب من أثر توسيعه دائرة "الطبيعة" التي هي ملعب قياسه ومرتع نظرِه! حتى

إذا ما ضرب لنفسه الحدود والتعاريف الميتافزيقية المعبرة عن أقيسته الفاحشة الشاملة لعموم العالم، كتعريف "الحادث" و"التغير" و"العرض" و"الجسم" ونحوها عند أرسطو، وتعريف "المكان" و"الزمان" و"التزامن" عند أينشتاين، أصبحت معانيها اللغوية مقيدة عنده بالحقائق الكلية المزعومة التي استمدها من قياسه الطبيعي الشمولي Universal Analogy، فلا شيء يسمى عند أرسطو بالحادث إلا أن يكون تقلبا لما يسمى بالعرض على ما يسمى بالجوهر، في إطار خلاء الجواهر المزعوم الذي يشمل جميع موجودات العالم، ولا شيء يسمى بالحادث Event عند أينشتاين إلا أن يكون واقعا كنقطة في الزمكان الوجودي المزعوم Ontological Spacetime، الذي لا يخرج عنه شيء من موجودات العالم كذلك، وهكذا! وإذن فلا تزال المشتركات المعنوية بين صفات الرب وصفات خلقه تُسلب عنه سبحانه سلبا لتلبسها في حدود القوم وتعاريفهم الميتافزيقية بتلك الحقائق الكلية والمعاني القياسية التي قيدوها بها عسفا وتنطعا، وإذن فلا يزال الفيلسوف يعطل ويعطل ويعطل في صفات ربه حتى ينتهي إلى ما لا يتم الدين الطبيعي ولا يستوي لأصحابه إلا به، ألا وهو الدهرية المحضة والنفي المحض، والله المستعان!

تأمل قول الدكتور (فيما جمعه لنفسه من سلوب النفاة القدماء): "ولا يقال عنه ما هو لأن ما سؤال عن الجنس ولا جنس له. ولا يقال كيف هو لأن الكيف يستخبر به عن الهيئة والحال ولا هيئة له ولا حال. ولا يقال كم هو لأن الكم يستخبر به عن المقدار والعدد ولا عدد له. ولا يقال متى كان، لأن متى سؤال عن الزمان ولا يجري عليه زمان. ولا يقال أين لأن الذي أين الأين لا يقال له: أين؟" قلت: لا يقال ما هو ولا من هو ولا أين هو ولا متى فعل كذا ولا متى سيفعل كذا ولا ولا ولا .. فهو إذن عدم محض لا حقيقة له إلا في الوهم، والله المستعان! من الذي قال إن الواحد الأحد واجب الوجود سبحانه لا "جنس" له؟ هب أننا استعملنا لفظة جنس للعبارة عن "جنس الموجودات في الخارج"، في مقابل "جنس المعدومات في الخارج" (أي التي لا توجد إلا تقديرا في الذهن)، ففي أي جنس منهما تعد ربك يا دكتور؟؟ بل يصح أن يقال إن وجوده سبحانه من جنس الوجود الواجب، ولا إشكال في ذلك وإن لم يكن لذلك الجنس من أفراد سواه سبحانه! فما المانع لغة أو عقلا من أن يقال إن الله هو الفذ من نوعه وهو الفريد من جنسه سبحانه، على هذا الوجه الذي ذكرنا، وأنه لا مجانس له ولا مكافئ له؟ بل يجوز أن يقال "ما هو" ويجاب عنها بأنه الرب الباري وحده سبحانه، ثم يفوض العلم بحقيقة ذاته إليه وحده! نقول هو كما عرفناه من كتابه وسنة نبيه وكما دلت عليه الفطرة، ونقف عند ذلك، ولا نجد مانعا من أن يقال بذلك كله أو بعضه في جواب السؤال "ما هو؟"! وكذلك الكيف، نثبت له سبحانه كيفا لا يعلمه إلا هو، وحقيقة لا يعلمها إلا هو، فلا نقول إن معنى

الكيف (الذي يجاب به عن السؤال: كيف؟) منتف عنه ممتنع في حقه لأن إثباته يقتضي المساواة بالمخلوقين، وإنما يقال الكيف مجهول، وهو اللائق بذاته وجوبا، لا غيره، والله أعلم به وحده! فبأي علم نفيت يا دكتور مطلق معنى الهيئة عن الله تعالى، وبأي عقل نفيت مطلق معنى الحال؟ أليس التلبس بالكلام دون الكلام (إذا تكلم سبحانه) أو الإرادة دون الإرادة (إذا أراد شيئا سبحانه) أو الفعل دون الفعل (إذا فعل شيئا سبحانه)، أليس ذلك كله تلبسا بحال دون حال (في اللغة والعقل)؟ وإلا فما معنى الحال الذي تنفيه وكيف نفيته؟؟ والله ما تدري بأي شيء نفاه من نفاه ممن نقلت كلامه، ولو دريت ما عرفت أتوافقه أم تخالفه، والله المستعان!
وكذلك قوله: لا يقال كم هو! فما المانع من أن يقال في جواب هذا السؤال: هو الواحد الأحد الذي لا يتعدد؟ أليس هذا جوابا مناسبا للسؤال لغة وعقلا؟؟ بلى! أليس التوحيد جوابا للسؤال كم ربا في السماء تثبت أو كم إلها تعبد؟ فمن الذي قال إن مجرد السؤال بكم يقتضي التعدد؟؟ وكذلك السؤال بمتى كان! أليس قوله عليه السلام: كان الله ولم يكن شيء قبله، يصلح أن يكون جوابا للسؤال: متى كان الله؟ أليس قولك: "كان الله قبل كل شيء" أو كان الله من الأزل، جوابا صحيحا لهذا السؤال؟ قد أطلنا النفس في الكلام على مسألة الزمانية وجريان معاني الزمان على الرحمن، في غير موضع من هذا الكتاب، فلا نعيد! وكذلك قولهم لا يقال "أين"، فلماذا لم يجب رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الجواب الفلسفي المتحاذق (الذي أين الأين لا يسأل عنه بأين) عندما سألته الجارية أين الله؟ أأنتم أعلم بالله من رسول الله يا أعداء أنفسكم؟؟ نسأل الله السلامة!
قوله: "والله ليس في جهة ولا تحويه الجهات في العالم لأن الجهات حادثة وهو الذي خلقها، فلو صار مختصا بجهة بعدما خلقها لكان يتخصص بمخصص وذلك باطل." قلت: تأمل التلبيس بقوله "لا تحويه الجهات في العالم"، فإنه ما من شك في أن القول بكون الله محصورا بين مخلوقاته باطل لا يخفى بطلانه، ولكن نفي ذلك المعنى لا يستوي بقوله "ليس في جهة" كما هو واضح كذلك! فالجهة إن كان يراد بها مطلق معنى العلو (وهو في اللغة جهة من الجهات ولا شك)، فنسبة العلو إلى الله تعالى مستفيضة في القرآن سواء بالتصريح أو بالاقتضاء، وعليها إجماع المسلمين، فالذي ينفي هذا المعنى أو يبدله، جاهل مبتدع ضال قولا واحدا! ولا يصح أن يقال إن كل ما يوصف بمعاني الجهة فهو حادث، وإنما ينسب الحدوث إلى الحادث الموصوف بها! فمهما حدث حادث بعد أن لم يكن، أو وجد موجود بعد عدمه، فإنه يوجد – بالضرورة – في جهة ما، بالنسبة إلى غيره من الموجودات! فجهة هذا يقال لها – إذن – إنها حادثة وأن الله هو الذي خلق في ذلك الشيء الحادث الاتصاف بها! أما أن يقال "فلو صار مختصا بجهة بعدما خلقها لكان يتخصص بمخصص" فهذا باطل! فإن جميع خلق الله جل وعلا هو

في جهة بالنسبة إلى ذاته العلية بالضرورة، وهي جهة السفول كما دلت عليه الفطرة والسمع، إذ لا يصح في العقل تصور موجود في الخارج لا يمتاز عن غيره من الموجودات بجهة ما، حتى من قال إنه حال في خلقه أو محايث له فهو يثبت له جهة ما، فالذي لا يوصف بجهة البتة هو معدوم في الخارج بالضرورة، ولا يوجد إلا تقديرا في الأوهام! ثم إن نفي الاختصاص بجهة دون جهة في حق الله تعالى مردود عليه! إذ ما عكس الاختصاص بجهة معينة، إلا أن يكون التعميم على جميع الجهات أو النفي بالكلية؟ التعميم على جميع الجهات باطل لأنه يجعل الله هو عين خلقه أو يجعل العالم بعضا منه سبحانه، وهذا باطل! وأما النفي فقد تقدم أن حقيقته العدم! فماذا بقي؟؟

قوله "وهو أيضا ليس خارج العالم لأنه لو كان كذلك لكان محاذيا للعالم، وكل محاذ بجسم إما أن يكون مثله أو أكبر منه أو أصغر، وكل ذلك تقدير يحتاج إلى مقدر، تعالى عن ذلك." قلت: طيب ليس خارج العالم، فهو إذن داخله؟ لا يبقى إلا أن يكون داخله، وإلا فما ليس داخل شيء وجودي معين ولا خارجه، فليس بموجود إلا وهما في الذهن! وهذا بضرورة العقل واللسان! والظاهر أن للدكتور غرضا في الاقتصار على نفي كون الله خارج العالم دون نفي كونه داخله، فلم يقل "لا داخله ولا خارجه" على طريقة من نقل منهم!

ونقول إن كان المقصود بالمحاذاة استقرار الرب بذاته فوق عرشه دون مخالطة، فليكن أن ذات الله محاذية للعالم، مستوية على العرش الذي هو فوق العالم، وأنها أعظم وأكبر من هذا العالم ومن بلايين العوالم معه، وهو ما يعتقده المسلمون بالفطرة والسمع والإجماع، فكان ماذا؟ إنما يقال في الموجود المحاذي إنه مفتقر إلى من يقدر نسبة حجمه إلى حجم ما يحاذيه، عندما يكون الكلام على موجود حادث مخلوق، يخلق بمحاذاة موجود آخر! فالله هو الذي قدر محاذاة العالم لذاته العلية، وهو الذي قدر كونه أصغر منه سبحانه، فما المانع من ذلك في العقل السوي الصحيح؟ الذين نقلت عنهم يا دكتور، يمنعون ذلك لأنه لا يكون في جهة ما ولا في محاذاة أو مجاورة لشيء ما أو علو عليه إلا "الجسم"، ولا يكون الجسم إلا محلا للحوادث التي هي عندهم بمعنى الأعراض تتقلب على الجواهر المزعومة، فأين أنت من جميع ذلك؟؟ لا دراية لك به ولا تعلمه، وإنما أعجبك النفي والتعطيل لموافقته ميتافزيقاك الطبيعية المعاصرة فالتقطته كالببغاء والله المستعان! قوله: "وترفع الأيدي إلى السماء عند الدعاء لأنها قبلة الدعاء، كالتوجه إلى الكعبة في الصلاة، وكوضع الوجه على الأرض عند السجود، وإن لم يكن الله في الكعبة ولا تحت الأرض." قلت: شبهة قديمة عند معطلة القرون السالفة، أنا أجزم بأنه يجد في نفسه من الفطرة الملحة ما يبطلها!

فنحن نتكلم عن التوجه الفطري، لا عن التوجيه الإلهي في القبلة والسجود، وهذا فارق مؤثر قطعا!
والعجيب، ومما يدلك على أنه حاطب بليل في هذا الباب، أنه مع نفيه العلو ووجود ذات الرب خارج العالم، فإنه يثبت الاستواء كما أثبته السلف، إذ يقول: "واستواء الله على العرش حق وصدق عند المسلمين يؤمنون به ويعتقدونه على الوجه الذي أراده الله ولا يشتغلون بكيفيته" اهـ.!! قوله "ولا يقال عنه لم فعل؟ لأن "لمَ" تقال لمن فعل لعلة أو حاجة أو ضرورة، وهو منزه عن ذلك، ولا يمكن للإنسان أن يحيط بطبيعة المقصد الإلهي، فهو لا يستطيع أن يدخل علمه سبحانه." قلت: هذا من مذهب نفاة الحكمة والتعليل، والعجيب أنه يثبت التعليل في نفس الموضع الذي نفاه فيه، إذ يقول: "لا يمكن للإنسان أن يحيط بطبيعة المقصد الإلهي"، فما هو "المقصد الإلهي" إن لم يكن هو تعليل كل فعل إلهي، وهو – إذن – جواب السؤال: "لم فعل"؟؟! ويقول في موضع لاحق من نفس الفصل في نفس الكتاب (ص. 80): "وينظر الإسلام إلى الكون باعتباره محكوما بالغائية Teleology، حيث يرى أن كل الظواهر تحدث من أجل غاية، وأنه لا شيء في الكون يحدث عبثا، فلكل شيء علل، والعلل أو الأسباب متنوعة". اهـ. قلت: فمن نصدق إذن؟ عمرو شريف الذي يثبت التعليل والعلل في كل شيء، أم عمرو شريف الذي يقول: لا نقول "لم فعل كذا وكذا" لأن "لم هذه تقال لمن يفعل لعلة، والله منزه عن ذلك"؟؟
ويواصل الدكتور جمع السلوب والتعطيلات من كتب المتكلمين فيقول (ص. 78): "والله عز وجل .. لا فوق (له) ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا أمام ولا وراء ... لأن هذه الأشياء من إمارات الحدوث، وهو قديم منزه عن جميع الحادثات وعن التغير من حال إلى حال، وهو صمدي لا يقبل التجزؤ والانقسام" اهـ. قلت: ما أقبح هذا التعطيل الذي تواطأت عليه قلوب الجهمية من كل عصر! "لا فوق" يعني أن الله لا يوصف بأنه فوق خلقه، و"لا تحت"، يعني أن الله لا يوصف بأن شيئا تحته، وإذن فلا نصدق كل ما جاء في القرآن من معاني علوه بذاته واستوائه على عرشه وتنزيله القرآن (والتنزيل لا يكون إلا من فوق، فتأمل!) وما جاءت به السنة من نزوله إلى السماء الدنيا في كل ليلة، إلى غير ذلك مما أثبته لنفسه سبحانه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم! كل هذا لابد أنه مجاز أو كلام يقال دون أن تراد حقيقته! تعالى الله عن الكذب على عباده كما يقتضيه مذهبكم، وعن إسماعهم ما لا حقيقة له في الخارج من أمر نفسه العلية، ووصفه نفسه بما تنزهه عنه عقول العقلاء من خلقه، سبحان الله وتعالى على ظنونكم وتخرصاتكم علوا كبيرا! وإذا سمعناه يقول عن نفسه: ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [الزمر : 67] تعين علينا على مذهبكم أن نقول:

ليس له يمين ولاَ له قبضة حقيقية تطوى فيها الأرض والسماء! وإذا سمعناه يقول سبحانه: ((يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)) [الرحمن : 29] أي في فعل يتجدد، يكون حاله أنه يعطي، ثم يكون حاله أنه يمنع، ويكون حاله أنه يقبض وأنه يبسط وأنه يحيي وأنه يميت، وأنه يأمر وينهى ويقضي الأمر، فلا يشغله حال عن حال ولا فعل عن فعل، إذا سمعنا تلك الآية رددنا معناها الظاهر وحرفناه لأن "التغير من حال إلى حال" من أمارات الحدوث، و"تغير الحال" لفظ مجمل يحتمل في معانيه ابتداء الفعل ثم انتهاؤه!! وإذا سمعناه سبحانه يقول: ((وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)) [الطور : 48] ويقول: ((قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ)) [ص : 75]، تعين علينا على مذهبكم أن نقول هذا كله على غير حقيقته لأن الله تعالى "لا يقبل جزء له ولا بعض له"! الجزء والبعض ألفاظ مجملة، فإن أريد بها الأجزاء التي حقيقتها كأجزاء المخلوقين، فهذا قطعا منفي عن الله تعالى، وإلا فعين الله تعالى غير وجهه، ويده سبحانه غير أصابعه، وهذه كلها تدخل في وجه من وجوه معنى البعض من ذاته جل شأنه، وهذا في اللغة لا غبار عليه، ولكنهم أصحاب نظرية ميتافزيقية ملعونة، جعلت مطلق معنى التبعض مما لا حقيقة له إلا أن يكون عرضا من الأعراض، على فلسفتهم في نظرية "الجوهر" و"العرض"! وعلى هذا فقس كل ما عطلوه ونفوه!

هو سبحانه يصف نفسه بإثبات اللفظ على اشتراكه المعنوي فيه مع ما يوصف به من خلقه، فيثبت القدر المشترك مع نفي الاشتراك فيما فوق ذلك من كيفيات وحقائق (صفة الصفة)، وأنتم تكذبونه سبحانه بالنفي المجمل على أثر معن ميتافزيقي متنطع قد جعلتم المعنى المشترك للفظة ملازما له دالا عليه بالضرورة، تنطعا منكم وكذبا على العقل واللغة جميعا، ثم تقولون ننزهه عن مشابهة المخلوقين؟؟ لو عقلتم وصدقتم لنزهتم اللغة عن عبثكم الميتافزيقي أولا، ثم لنزهتم باريكم – سبحانه - عن أن يحدِّث الناس عند وصفه نفسه بكلام ظاهره نسبة النقص الفاحش إلى نفسه، ولقلتم كما قال سادة الأمة وحملة مشكاة النبوة: نصف الله تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، نثبت تلك المعاني كلها على الكيف والحقيقة اللائقة بذاته سبحانه التي لا يعلمها إلا هو ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ)) الآية [الشورى : 11]، ولكنكم، والله، قوم لا تعقلون!

قال الدكتور بعد بيانه اعتقاده في الله تعالى الذي نقلنا بعضه آنفا (ص. 79): "ولا شك أن هذه العقيدة تمثل أرقى ما وصل إليه العقل من تجريد وتنزيه يليقان بالمبدأ الأول الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، بعيدا عن التجسيم والتشبيه والخلط بين ما هو إلهي وما هو إنساني أو طبيعي." اهـ.

قلت: لا والله، على هذا التفصيل الجهمي والتعطيل الفلسفي الذي شحنت به عقيدتك، فقطعا ليست هي أرقى ما "وصل إليه العقل"! كيف يكون

"راقيا" عقل من يؤول به مذهبه إلى عبادة عدم لا وجود له إلا في الوهم؟؟ نحن يا دكتور لا نعبد إلها نثبت صفته بعقولنا، وإنما نعبد إلها نعرفه بما عرف به نفسه وعرفه به رسوله! وإلا فمن كان "العقل" مصدره في تلقي الاعتقاد بالله تعالى فلا بد له من الزيغ والضلال، يصيب دركة من دركاته لا محالة! ولم يزل الفلاسفة يختلقون الدعاوى المعرفية في الغيبيات عامة والإلهيات خاصة ويحسب الواحد منهم أنه قد جاء بما لم تستطعه الأوائل، وبأرقى ما توصل إليه "العقل" – هكذا – من اعتقاد في أمر الغيب وما فيه، فأي مزية هي لك عليهم يا هداك الله؟؟ نسأل الله العافية!

لا يخفى أنه يرى أن ما انتهى إليه العلم الطبيعي المعاصر من دعاوى بشأن الغيب المحض هو مزية عقله هو على عقول من سبقوه من أمثاله من أذناب الفلاسفة عبر تاريخ المسلمين! فهو ما ألف هذا الكتاب إلا ليبرهن على أن "العلم الحديث" قد "ترقى" أخيرا حتى كشف لنا عن تلك الصفات التي هي أرقى ما "توصل إليه العقل" – بحسبه - بشأن رب العالمين!

وقد مر بنا في الجزء السابق كيف أسس الدكتور إثباته وجود الرب جل وعلا على برهان الحدوث الإنتروبي والانفجاري ونحو ذلك! فمن كان هذا مسلكه، كان من غير المستغرب على الإطلاق أن يكون التعطيل ديدنه! فعندما يقال له إن الله يقول في القرآن والسنة إنه فعل كذا وكذا في أيام الخلق الستة، يعين أفعالا معينة، كدحو الأرض وبسطها وإرساء الجبال وخلق النور والتربة وخلق الدواب وبثها في الأرض ورفع السماء وخلق آدم بيديه في الجنة ثم إهباطه إلى الأرض .. إلخ، لم يجد إلا أن يحمل ذلك كله على المجاز أو على التأويل الباطني، مع ما يلائم ذلك من تعطيل الصفات كما مر معك من بيانه عقيدته في ذلك! فإن سئل عن معاني آيات خلق السماوات والأرض وما بينهما في القرآن فلعله يقول كما قال بعضهم: "لقد كان الله يخاطب العرب بكلام يناسب عقولهم، وإلا فلو قال لهم إنه خلق الأرض والسماوات بانفجار عظيم من نقطة ضئيلة متناهية الصغر، ثم أخذ يشرح لهم تفصيل ما اكتشفه الكوزمولوجيون من ذلك لافتتنوا ولما دخلوا في الإسلام"!! وكذلك قال الجهمية الأوائل ولا فرق! مذهبهم هو الأعلم ومذهب السلف هو الأسلم!

والحق أن مذهب جهمية العصر ومذهب أسلافهم هو الجهل بعينه، وما مثل أحدهم إلا كرجل لبس نظارة عدساتها مصبوغة باللون الأزرق، فرأى كل شيء أزرق اللون، ثم خرج يدعو الناس لموافقته في اعتقاد أن الدنيا كل شيء فيها أزرق اللون! فلما قالوا له اخلع نظارتك حتى ترى العالم على ما هو عليه، قال بل أنتم من عليه أن يلبس مثل نظارتي، لأنه لا تُعرف حقيقة العالم إلا بها، وأنتم كلكم تعانون من سوء تأويل لما تأتيكم به حواسكم من صورة للعالم من حولكم! ولا خروج لكم من خداع حواسكم لكم إلا بلبس النظارة! فكذلك هؤلاء، يصرون على ألا يروا الحق حقا، وعلى ألا يجعلوا

الغيب إلا على وفق ما توهموه توهما بأقيستهم الواهية، نسأل الله السلامة! الله تعالى أرسل إلينا رسولا بالعلم الحق وبالقول الفصل الذي ليس يحصل لأحد من البشر سلطان معرفي بشيء مما في الغيب إلا به، وأورثنا ذلك العلم محفوظا رواية ودراية، فضلا منه ومنة، فإذا بهؤلاء الأذناب يقولون بكل وقاحة: بل العلم الأعلى والأرقى بالغيب وبكل ما لا يطاله الحس من هذا العالم وبما يقتضيه ذلك العلم اقتضاء صحيحا في شأن ما وراء العالم، هو ما عندنا نحن وما حققناه نحن بأقيستنا وعقولنا، فما جاء في تراثكم موافقا له قبلناه وما خالفه رددناه رواية أو دراية، ولزمكم أنتم جميعا أن تردوه كذلك! لماذا؟ لأن "العلم قد قال كلمته"، وليس بعد كلمة العلم كلام لأحد! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

صدق الذي قال: ومن يكن الغراب دليله ... يمر به على جيف الكلاب

يقول الدكتور تحت جزء ترجم له بقوله: "صورة الله في القرآن والسنة": "ونحن فيما تبقى من هذا الفصل نتعرض بنظرة تحليلية لأسماء الله وصفاته كما وردت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، حتى يتسنى لنا أن نقارن بها ما توصل إليه العلم من صفات الإله الخالق والحافظ والمدبر للوجود وللنفس البشرية." اهـ. قلت: فأين يا رجل "توصل" ما تسميه بالعلم إلى صفات الإله الخالق؟؟ ومن ذا الذي يجرؤ على الزعم بأن ثمة صفات لله تعالى لم تكن معلومة من قبل للعقلاء كافة بالبداهة الأولى وبالفطرة، ولم تكن تعضدها آيات الله الباهرة في خلقه التي لا يخلو منها ركن من أركان العالم في تجربة الإنسان واعتياده، حتى جاء الطبيعيون المعاصرون أخيرا بما يصح أن يقال معه إنهم قد "توصلوا" أخيرا إلى معرفتها؟؟ من من العقلاء لم يكن يعلم ببداهة العقل وبما تطفح به تجربته الفردية المباشرة من آيات دالة عليه، أن ربه سبحانه هو الرازق وهو المصور وهو المدبر القيوم القائم بأمر كل مخلوق، وهو الذي يكلأ الخلق ويرعاهم سبحانه .. إلخ، حتى جاءته اكتشافات الطبيعيين المعاصرين فعرفته بذلك؟

ثم أين أنت من نظريات القوم وتفسيراتهم الطبيعية لكافة ما بين أيديهم من مشاهدات، تلك التفسيرات التي هي مجمل اعتقاد الدهرية المعاصرين في دينهم الطبيعي، التي منها نظرية داروين الدهرية المحضة التي تزعم أنت فيما تزعم أنها مما يُستدل به على حفظ الله وكلئه لخلقه (مع أنها تقرر نقيض ذلك المعنى رأسا عند كل من فهمها حق الفهم!)؟؟ أنت يا دكتور تريد من قرائك أن يتناولوا التأويل الدهري للمحسوسات عند الطبيعيين، الذي هو دينهم واعتقادهم الغيبي، المؤسس عندهم على مسلمات الدهرية الملاحدة كما أطلنا النفس في بيانه في هذا الكتاب بحول الله وقوته، ليتأولوه هو نفسه بما يوافق اعتقاد المسلمين، أي بنقيضه الصريح، وهذا والله هو الضلال المبين! لو أنك جئتهم بالمشاهدات الصريحة نفسها، كما شاهده الأحيائيون المعاصرون المتخصصون في البيولوجيا

الجزيئية، تحت المجاهر الإلتكرونية الحديثة من نشاط وعمل لآلات جزيئية بالغة الدقة في نواة الخلية الحية – مثلا – ثم قلت إن في هذا لآيات لم تكن معلومة لدى السابقين، لقلنا نعم صدقت ولا شك، وجزاك الله خيرا! ولكن أنت تريد من المسلمين أن يتناولوا تلك المشاهدات وأن يبتلعوا معها تفسيرها الدارويني الدهري عند الطبيعيين، ثم يتفننوا في تأويل ذلك التفسير نفسه والتعديل عليه على نحو يجعله من جملة آيات الله الظاهرة في الأنفس والآفاق الدالة على معاني بعض الصفات الثابتة في الكتاب والسنة، وهذا تلبيس مبين!

لم يزل اللاهوتيون وغيرهم من متفلسفة أهل الملل الكتابية الثلاثة (الإسلام والنصرانية واليهودية) – كما مثلنا عليه في هذا الكتاب – يحاولون الجمع بين دينهم والدين الطبيعي الدهري المعاصر بكل طريق، كما حاوله داروين نفسه في أول أمره، في تزاوج ملعون لا يثمر في كل مرة إلا عن التعطيل والتحريف الفاحش في صفات الرب وأفعاله، حتى يصبح هو ذلك الصانع العدمي الوهمي الذي لا حقيقة لصفاته وأفعاله إلا الطبيعة ونظمها ومجاريها، سبحانه وتعالى علوا كبيرا! وسترى فيما يلي، أيها القارئ الكريم، كيف انقلب الدكتور هداه الله منقلبا كهذا من حيث لا يشعر، وإلى أي شيء أفضت به "قراءته" فيما سماه "بكتاب الله المنظور"، والله المستعان لا رب سواه!

ولا أدري كيف حرص الدكتور – هداه الله – على أن يؤصل ويفصل في مسألة الأسماء والصفات والفرق بين الاسم والصفة، يستقل في ذلك – وفي نحوه من مسائل ذلك العلم الشريف - بالنظر في كتب العلماء المتخصصين في العقيدة، يجمع الأقوال ويستخرج المذاهب ويوازن ويقارن، مع كونه عاميا صرفا في علوم الشرع لا يُعرف بعلم شرعي ولا حتى بالسعي في طلبه؟؟ كيف استجاز أن يرجح ويختار؟ وهل يقبل هو من عالم من علماء الشريعة أن يكتب كتابا في علوم الطب يجمع فيه أقوال أصحاب تلك العلوم في بعض مسائلهم الدقيقة ثم يوازن بينها ويرجح ويختار وكأنه منهم؟؟ كيف صار العلم الشرعي هو أهون العلوم علينا في هذا الزمان ومن الذي صيره كذلك؟؟

ما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

قال الدكتور في كتابه "الوجود رسالة توحيد" تحت باب "خالق المنهج العلمي" (ص. 296)، في محاولة لإقناع قارئه بأن خالق المنهج العلمي لابد أنه هو نفسه "يمارس المنهج العلمي" من باب أولى (!!):

> يعطينا المنهج العلمي درسا في أن تعامل البشر مع الطبيعة لا يتم إلا بجمع المعلومات وإحصائها وتقييمها حسابيا. وبديهي أن تمتع الإنسان بهذه القدرة يتطلب توافرها في السبب الأول الخالق له.
> وقد حرص القرآن الكريم وهو يعرفنا بربنا على إظهار تمتعه عز

وجل بصفات تحقق تعامله مع الوجود بالأسلوب الذي أسماه البشر "المنهج العلمي". لذلك يصف القرآن الكريم الإله بأنه "العليم الخبير" الذي يعلم كل ما في الوجود. السميع البصير – الرقيب، وهي صفات تختص بقدرة الله عز وجل على رصد كل ما يحدث من تغير في الوجود، أي لا يقف علمه على ما خلق في الابتداء. وإذا كان علم الله لا يجد عليه شيء، فلا شك أن اتصاف الله بهذه الصفات جاء من باب تقريب الصورة لفهمنا البشري. المحصي – الحسيب، وهو الذي أحصى كل شيء عددا، وهما الصفتان اللتان تحققان التعامل مع الوجود كميا ورياضيا. وتجمع هذه الصفات كلها صفة "المحيط" المعلم (عمقا واتساعا) بكل شيء في الوجود.

قلت: أولا: هذا الكلام فيه عدوان على رب العالمين وتنقص بالغ من علمه سبحانه، من حيث يتوهم المسكين أنه يعظمه ويرفعه! "فتعامل الإنسان مع الطبيعة" على حد عبارة الدكتور، إنما هو تعامل المخلوق الناقص الجاهل مع غيره من المخلوقات، يستكشفها باستعمال "المنهج العلمي" ليكتسب العلم بها من بعد جهل! "فيجمع المعلومات" ثم يحصيها ثم يقيمها حسابيا .. إلخ! فإذا كان ذلك كذلك، فلا يجوز أن يقال إن تمتع الإنسان بالقدرة على ممارسة ذلك المنهج، يقتضي بقياس الأولى تمتع خالقه بها، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! وإنما يستعمل قياس الأولى في باب العلم بأن يقال إنه إذا كان العلم صفة كمال مطلقا والجهل صفة نقص مطلقا، وكان الإنسان موصوفا بالعلم على وجه النقص، كان اتصاف خالق الإنسان بالعلم على وجه لا نقص فيه، من باب أولى! أما أن يقال: إذا كان الإنسان يجمع البيانات، فمن باب أولى أن يكون الرب صانعه أقدر على جمع البيانات، وإذا كان الإنسان يقدر على الإحصاء والمعالجة الرياضية والحسابية لتلك المعلومات، فمن باب أولى أن يكون صانعه موصوفا بأنه أعظم الإحصائيين والرياضيين على الإطلاق، وهكذا، فهذا غلط عظيم، والله المستعان!

ثانيا: لا يجوز أن يقال "حرص القرآن الكريم"! فالله تعالى لا يوصف بالحرص، وإنما الحرص من صفات المخلوقين! قال الجوهري في منتخب الصحاح: "الحرص الجشع"، وقال ابن فارس في مقاييس اللغة: "وأما الجشع والإفراط في الرغبة فيقال حرص إذا جشع، يحرص حرصا فهو حريص. قال تعالى ((إن تحرص على هداهم))، ويقال حُرِص المرعى إذا لم يُترك منه شيء، وذلك من الباب كأنه قُشر عن وجه الأرض." اهـ. وقال الزمخشري في أساس اللغة: "حرص على الشيء، وهو حريص من قوم حراص، وما أحرصك على الدنيا! والحرص شؤم، ولا حرس الله من حرص. وحرص القصار الثوب شقه، وبثوبك حرصة وأصابته حارصة، وهي من الشجاج التي شفت الجلد، وحمار محرص: مكدح." اهـ. وقال ابن منظور

في لسان العرب: "الحرص: شدة الإرادة والشره إلى المطلوب." اهـ. فسبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.
ثالثا: قولك: "لذلك يصف القرآن الكريم الإله بأنه "العليم الخبير" الذي يعلم كل ما في الوجود." هذا حق ولا شك، ولكن يا دكتور، من كانت هذه صفته فلا يقال عنه إنه موصوف بكمال القدرة على "جمع المعلومات وإحصائها وتقييمها حسابيا"!
رابعا: قوله: "وإذا كان علم الله لا يجد عليه شيء، فلا شك أن اتصاف الله بهذه الصفات جاء من باب تقريب الصورة لفهمنا البشري." قلت: القول بأن علم الله لا يجد عليه شيء، قول مجمل لا يجوز الكلام به على رب العالمين، فلا نثبته ولا ننفيه، والواجب التفصيل، فيقال لا يجدّ عليه معلوم لم يكن له علم سابق بأنه يقع مستقبلا، فهذا ممتنع في حقه ولا شك، وإنما الذي يتجدد في علمه سبحانه هو تعلق العلم بالوقوع، فقبل أن يقع لا يكون علمه به أنه قد وقع، وإنما علمه أنه واقع مستقبلا، فإذا وقع، جدّ لديه سبحانه العلم بأنه قد وقع، ولا يخفى أنهما علمان متفاوتان لا يستويان موضوعا: العلم بأن شيئا ما سيقع في المستقبل، والعلم بأن ذلك الشيء نفسه قد وقع في الماضي، فتأمل!
أما قوله إن اتصاف الله تعالى بهذه الصفات (السميع والبصير والرقيب) جاء من باب تقريب الصورة لفهمنا البشري، فهذا تعطيل وجهمية وباطنية لا تستغرب منه، وهي راجعة إلى أسباب في عقيدته قد بينا بعضها ويأتي معك بيان المزيد منها، والله المستعان! بل الله تعالى سميع بسمع حقيقي، على المعنى اللغوي الظاهر للسمع لا على معنى قريب منه لا يناسب فهمنا البشري، وكذلك يقال في البصير والرقيب وغير ذلك من صفاته، شاء من شاء وأبى من أبى!
خامسا: قوله "المحصي – الحسيب، وهو الذي أحصى كل شيء عددا، وهما الصفتان اللتان تحققان التعامل مع الوجود كميا ورياضيا." قلت: تحققان تعامل من مع الوجود كميا ورياضيا؟؟ يا دكتور الرياضيات هي لغة بشرية الغرض من استعمالها وصياغتها بإجمال هو استنباط القيم المنفصلة المجهولة سلفا بناء على علاقات مطردة بينها وبين غيرها من القيم والمتغيرات، وكذلك الوصول إلى تصور وتقدير الهيئات المتصلة غير المعلومة سلفا، بالتمثيل الذهني والقياس الوصفي على ما هو معلوم! فلا يجوز أن يقال إن الله تعالى "يتعامل مع الوجود كميا ورياضيا"! والظاهر أن الدكتور فهم من معنى اسم الله تعالى الحسيب: أي الذي يشتغل بالحساب والهندسة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! شيء مخجل والله! يا دكتور، الحسيب هو الكافي، فهو يكفي المتوكلين عليه وهو الكافي عن الأعوان والأنصار، ومنه قولنا "حسبنا الله ونعم الوكيل"، وفيه كذلك معنى حفظ الأعمال وكتابتها على العباد وإحصاؤها عليهم (لا بعقد على الأيدي والأصابع ولا

بمعادلات رياضية سبحانه وحاشاه!)، كما في قوله تعالى: ((وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً)) [النساء : 86]
وأنا لا أدري والله، ما شأن من كانت تلك منزلته ودرجته في العلم بأسماء الله وصفاته وبعقيدة المسلمين وبلسان العرب، أن يصنف ويؤلف في الأسماء والصفات؟؟ أنت أستاذ في الجراحة العامة، ما شأنك بالخوض في تلك المسائل يا دكتور؟؟ سبحان الله العظيم! صدق القائل بأبي هو وأمي: إن لم تستح فاصنع ما شئت! قال تعالى: ((وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)) [الأعراف : 180]
قال الدكتور في مقدمة كتابه "كيف بدأ الخلق"، في أسلوب يحاول أن يجعله أدبيا خطابيا على طريقة كارل ساغان وستيفن هوكينغ ونيل ديغراس تايسون وأمثالهم، لعله يكتسب الطابع الديني الذي يرجو هو ومن شاكله أن يطبعوه عليه:

"كان (أي الكون) عدما مطلقا .. لم يكن هناك شيء .. بل لا ينبغي أن نقول هناك، فلم يكن ثمّ هناك .. وفجأة: انفجر شيء ما .. انفجار أعظم. فبزغ الزمان والمكان، وخلقت الطاقة ثم المادة. لقد خرج الوجود إلى الوجود...ثم ظهرت شظية الأرض المستعرة، وأخذ الكوكب الوليد في التبرد... وفجأة تحرك جنين الحياة في أحشاء أمنا الأرض ... ثم انهمر سيل الكائنات الحية من رحم الحياة، حتى جاء الإنسان ... ثم جئنا أنا وأنت..." اهـ.

قلت: قوله: "لم يكن هناك شيء، بل لا ينبغي أن نقول هناك، فلم يكن ثم هناك"، هذا ما محله من اعتقادنا نحن المسلمين في رب العالمين؟ وهل المفترض في المسلم الآن أن يراجع اعتقاده في ربه في ضوء هذا النص "الديني" الطبيعي؟ هذا هو المتعين علينا في دين الدكتور، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله! لم يكن هناك ما يقال له "شيء"، ولا حتى ما يقال له "هناك"، والأمر عدم مطلق، إذن لم يكن ثم ذلك الصانع الذي نؤمن نحن المسلمين بأنه كان ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض! فلا ماء ولا عرش ولا شيء على العرش، ولا شيء على شيء أصلا لأنه ليس ثمة "هناك" قبل الانفجار المزعوم، وإنما عدم مطلق! فإذا نحن ألزمناه بتلك الدهرية المحضة، فلا نتوقع أن نسمع منه في الجواب إلا التعطيل المحض وإثبات الصفة ونقيضها، يقول: لا لا، معنى الوجود والعدم والمكان والزمان وهذه المعاني كلها لا علاقة لها بالرب أصلا! فلا هو شيء ولا لا شيء، ولا هو هناك ولا ليس هناك، ولا موجود ولا معدوم، ولا قبل نشأة العالم ولا بعدها، ولا خارجه ولا داخله .. إلى آخر ما

تلبس به سلفه من الجهمية الأوائل الغلاة من سفسطة فارغة فرارا من إلزامات الخصوم، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثانيا: قوله: "وفجأة انفجر شيء ما"، يناقض ما قدمه عليه من قوله "لم يكن هناك شيء" مناقضة واضحة لا أدري حقا كيف خفيت عليه، لا سيما بعدما صاغها تلك الصياغة! فإذا كنت تنفي الشيئية ومطلق الوجود قبل الانفجار، فكيف تجعل من انفجار "شيء ما" بداية للكون؟! أي شيء هذا الذي انفجر والحال أنه لم يكن هناك شيء البتة، ولا كان هنالك "هناك" أصلا؟؟ هذا الذي انفجر إذن كان شيئا ولا شيء في نفس الوقت، فتأمل! والذي يظهر لي أن هذا التناقض إنما تلبس به الدكتور تأثرا بمناظرات الفلاسفة النصارى المعاصرين أمثال ويليام لين كريغ وألفين بلانتينغا وغيرهما على اليوتيوب، ممن حرصوا كحرصه على قبول ميثولوجيا النشأة الطبيعية بحذافيرها، مع الحرص في نفس الوقت على إثبات الاعتقاد الكنسي بأن العالم إنما خلق من عدم محض Ex-Nihilio (أي لا بالتحويل من شيء آخر)! وهذا اعتقاد النصارى في الحقيقة وليس اعتقاد المسلمين (أعني القول بأن السماوات والأرض خلقت من لا شيء على الإطلاق)! ولا شك أننا نجيز في حق الله تعالى أن يخلق عالما من لا شيء، يقول له كن فإذا هو كائن بلا مقدمات ولا شيء يخلق منه، ولكننا لا نثبت ذلك المعنى لعالمنا هذا، وإنما نؤمن في أصله وخلقه بما جاءت به نصوص الكتاب والسنة، نقف على ذلك ولا نزيد! فأي شيء كان قبل الماء الذي كان عليه عرش الرحمن، ومنه خلقت السماوات والأرض بالتحويل ومن الدخان؟ هذا أمر لا يعلمه إلا الله وحده! ما جاءنا فيه من خبر ولا أثارة من علم، فلا نقول فيه بشيء!

ولكن لأن براهين الحدوث عند اللاهوتيين المعاصرين (البراهين الكونية) تقوم كلها (كما قامت براهين أسلافهم من قبل) على إثبات حدوث الكون بكليته وجميع مادته وأصله الذي جاء منه، حتى يثبت افتقاره إلى محدث أحدثه، ومن ثم يثبت الصانع كما هو مطلوب، كان لزاما أن يُربط معنى الحدوث نفسه ربطا ميتافزيقيا ولغويا بوجود مادة العالم، ويصبح مطلق معنى التحويل والتغيير من مادة إلى مادة، أمرا خاصا بحوادث العالم نفسه، فلا يكون حادثا إلا هذا العالم، ولا يكون متغيرا إلا العالم، ولا يكون الحدوث والتغير إلا في هذا العالم! من هنا ظهرت بدعة خلق العالم من عدم محض عندهم واعتمدتها كنيستهم، مع ما ألزمهم به برهانهم من صور التعطيل التي تلبسوا بها لصفات رب العالمين (كمسألة اللازمانية واللامكانية وغير ذلك مما بسطنا الكلام عليه في موضعه من هذا الكتاب)، وتلبس بها المتكلمون عندنا كذلك لأسباب مماثلة، وإلى الله المشتكى! أي أنه كان مطلوبا أن تكون بداية الكون في الكوزمولوجيا المعاصرة هي بداية كل "شيء"، فلا

طبيعة قبلها ولا مادة ولا شيء على الإطلاق، حتى إذا ما ثبتت لهم تلك المقدمة، انتقلوا إلى القضية التي تليها، ألا وهي تقرير أنه لابد لنشأة العالم من سبب ما، وإذن لابد من صانع!

وقد ترتب على ذلك من تناقضات القوم ما لم يتلبس به الدهرية الطبيعيون أنفسهم! أي أنهم ابتلعوا تناقض أنطولوجيا النسبية العامة التي تأسست عليها الكوزمولوجيا الدهرية المعاصرة، وأضافوا إليه من التناقضات ما لا قائل به قبلهم! ومنها أنهم من جهة يريدون إثبات الباري كسبب أول قبل الانفجار، لكل ما هو مادة وكل ما له حقيقة عينية في الخارج (كل ما يشمله معنى اللفظة "شيء")، ومن جهة أخرى يريدون موافقة النظرية على أن ثمة شيء ما في الوجود قد بدأ الخلق كله بانفجاره! فلو أنهم أثبتوا شيئا ماديا قبل الانفجار الذي هو مبدأ الحدوث نفسه في الكوزمولوجيا المعاصرة، فكيف إذن يصلوا إلى إثبات بداية ما لذلك الشيء نفسه في الماضي من نفس الطريق (طريق الكوزمولوجيا والتصور الميتافزيقي الأكاديمي المعتمد في زمانهم لماضي الكون وتاريخه)؟؟ لا بداية في الكوزمولوجيا الحديثة إلا الانفجار! وإذن فلابد أن يكون الشيء الذي انفجر هذا، مبدوءا هو نفسه بالانفجار نفسه، وهذا تناقض ولا شك، إذ يجعل حادثا واحدا هو بداية شيء ما، وهو نهايته في نفس الوقت (إذ يتحول إلى شيء آخر بالكلية)! فالذي يثبت الانفجار (أو الانتفاخ أو الانتشار أو الاتساع أو التمدد أو ما شئت له من أسماء) يلزمه أن يثبت شيئا وجوديا ما، قد وقع عليه الانفجار، وأن يثبت لذلك الشيء وجودا "قبل" الانفجار، وهو ما تمنعه ميتافزيقا الزمكان نفسها، التي لا تجعل للتركيب اللغوي "قبل الانفجار" أي معنى من الأساس، في سفسطة أينشتاينية كبرى قد أطلنا النفس في بيانها في محلها من هذا الكتاب! فما الذي كان قبل الانفجار، وكان محلا له (ولابد للانفجار من شيء يجري عليه)؟ كان شيئا ما ولم يكن شيئا في نفس الوقت! وكذلك كان قولهم في الباري نفسه تبعا، أنه كان شيئا ولم يكن شيئا معا، كان موجودا ولم يكن موجودا معا، لأن النسبية العامة تمنع من كون شيء ما (موجودا) في الماضي قبل نشأة الزمكان المزعوم، إذ ليس قبل الزمكان قبل ولا ماضي أصلا! وهذا التناقض نظير ما وقع فيه المتكلمون الأوائل من قولهم بأن الزمان عرض والأعراض لا وجود لها إلا أن تقوم بالجواهر، والجواهر حادثة، إذن لا زمان قبل العالم، وإذن فلا يقال في الباري إنه كان قبل العالم، والله المستعان!

ولهذا ترى بعض الكوزمولوجيين كشون كارول وألان غوث وغيرهما، يفرقون بين الزمان الكلاسيكي على عبارتهم (الزمان النسباني الذي هو عنصر من عناصر الزمكان الوجودي عندهم) وبين الزمان الكمومي (الذي لا يرون في

معادلة شرودينغر ما يمنع من تمديده من اللانهاية السالبة إلى اللانهاية الموجبة! فإذا كان للزمان في النسبية معنى بخلاف معناه في ميكانيكا الكم، فلا عجب أن نرى في مذاهب الطبيعيين تنوعات شتى فيما يتعلق بمسألة الحدوث والسببية بناء على ذلك الخُلف الأصيل في ميتافزيقا النسبية! فترى من يقول بأن الزمان الذي ابتدأ في الحقيقة إنما هو زمان هذا الكون كما نعرفه، وليس زمان العالم الطبيعي أو النظام السببي الطبيعي نفسه! فما الفرق بين الزمانين وما حقيقتهما؟ لا تجد كلاما معقولا يقرب من الأذهان، ولا تسمع بعد الطحن إلا الهذيان!

ومع ذلك، يعقد الدكتور فصلا طويلا في كتابه "الوجود رسالة توحيد" يغرق فيه في التنطع على أسماء الله تعالى وصفاته، يحاول استنباطها من تفاصيل تلك الأسطورة الطبيعية السخيفة، جريا على فلسفته الجهمية في استخراج جميع صفات الله وأفعاله من نظريات الطبيعيين! فيجعل اسم الله الباسط (مثلا) بمعنى الذي بسط الكون في الانفجار العظيم، والقابض أي الذي يقبض النجوم فيقلبها ثقوبا سوداء!

لا يزال الدكتور يدندن في جميع كتبه بما يسميه "بالظاهرة المعلوماتية"، وبأن الحياة ظاهرة معلوماتية، وبأن الارتقاء قد يفسر ظهور المادة الحية والأنواع الحية بعضها من بعض، ولكنه لا يفسر ظهور المعلومات التي تحتوي عليها الجينات والدي إن إيه الوراثي، ولولاها لم تكن حياة ولا وراثة ولا تناسخ ولا تطور ولا شيء من ذلك! وهذا الكلام قد يبدو لأول وهلة كلاما قويا دامغا من شأنه أن يحرج أي ملحد، ولكن بقليل من التأمل يتبين لك أنه تفريق بين متماثلات وترجيح بلا مرجح، ولا أساس له في منتهى الأمر إلا التصور الدهري نفسه لكون عملية الخلق آلية داروينية تنسخ "معلومات" الجينوم وتورثها عبر الأجيال! وقد انتهى به الأمر في كتابه الأخير "المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر" إلى تلبيس دين المسلمين بملة الربوبيين الاتحاديين الطبيعيين، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فكأنه يقول للملحد: نعم هي عملية نسخ آلية كما تقول، وهي جارية على آليات داروين كما تعتقد، والكون قد ارتقى من حالة الفوضى المحضة كما هو دينك، وتغير أحوال المجال الكمومي عند الرصد يؤول على تأويل كوبنهاغن كما تزعم، والإنتروبي إذا تركت وشأنها فستهلك الكون لا محالة كما هو إيمانك، كل هذا أوافقك عليه ولا إشكال، ولكن كيف تفسر أنت وجود المعلومات نفسها تحت تلك العملية، وأننا ما زلنا نرى النظم المخلوقة تستحدث في كل مكان بعد أن لم تكن؟؟ هنا نتدخل نحن بإلهنا ونقول إن المعلومات هذه نتاج "تصميم ذكي"، يحصل من طريق "الترجيح الكمومي" (ويأتي معنا الكلام على تلك الضلالة)! الله خلق الفردية المزعومة وركب فيها "معلوماتها"، ثم أجرى آلية التطور الانفجاري وآلية التطور الدارويني على تلك المعلومات حتى يصل بذلك كله إلى ما يريد، كما تبرمج أنت جهاز الكمبيوتر بما تريد!

فما هي "المعلومات" Information هذه يا دكتور وما وجودها عندك؟ وكيف ولماذا لم تعد حوادث نسخ الجينوم نفسها، بل وآليات داروين المزعومة، "معلومات" أو راجعة إلى "معلومات" هي الأخرى؟؟ المعلومات يا دكتور لا تكون إلا في علم صاحبها، يقال للشيء إنه معلوم، عندما يكون لدى الموصوف بالعلم، تصور للمعلوم مطابق لواقعه! ونقيض المعلوم المجهول! قد يكون الشيء موجودا في الأعيان لكنه مجهول غير معلوم لجميع المخلوقين القادرين على اكتساب العلم به مبدئيا! فوجود الشيء نفسه في الخارج قضية، ووجود العلم به (كمعلومة) عند من يعلم به، قضية أخرى منفكة! هذا وجود وذاك وجود آخر مستقل. ولهذا ترانا إذا قلنا في أمور معينة إنها "معلومات"، لم يكتمل المعنى حتى تحصل الإضافة، فيُبين من صاحب المعلومة على وجه التحديد! فمثلا يقال في شيء ما إنه من

"المعلومات العامة"، أي التي يعلمها العوام ولا يمتاز به خاصة الناس! هذا هو المعنى اللغوي لكلمة "معلوم" و"معلومات"، فهل هذا هو المعنى الذي تريده أنت؟

قال الدكتور في كتابه "ثم صار المخ عقلا" (ص. 29):

> الحياة ظاهرة معلوماتية: بعد أن كان العلم ينظر إلى الكون باعتباره ظاهرة فيزيائية، وإلى الحياة باعتبارها ظاهرة كيميائية، أصبح العلم الآن ينظر إلى الوجود (الكون والحياة) باعتباره – في المقام الأول – مجموعة من النظم المعلوماتية، وباعتبار أن المادة والطاقة عنصران إضافيان يترجمان المعلومات إلى وجود مادي ثلاثي الأبعاد. ولا شك أن الطبيعة – دون توجيه ذكي – لا تستطيع أن توفر المعلومات الهائلة المطلوبة لنشأة الكون والحياة. تقوم الحياة على نظام للتشفير ومعالجة المعلومات، إذ يحكم الخلية الحية نظام معجز شديد التعقيد، يعتمد على اختزان المعلومات على هيئة شفرة رقمية يتم تناقلها داخل الخلية، ثم ترجمتها إلى وجود مادي عن طريق بناء البروتينات الملائمة. والقدرة على التشكيل من أهم سمات الحياة، إذ يتم تحويل المعلومات إلى وجود مادي ثلاثي الأبعد يتخذ شكل الكائن الحي، ويمكن تشبيه ذلك بتحويل كلمات نخطها على أوراق نصف فيها بدقة هيئة إنسان إلى رجل حقيقي من لحم ودم.

قلت: من هو "العلم" الذي كان ينظر إلى كذا باعتباره كذا وكذا، ثم تحول إلى كذا؟؟ الطبيعيون لا يزالون ينظرون إلى الكون باعتباره ظاهرة فيزيائية، ولا يزال مجال الكوزمولوجيا والأستروفيزياء تخصصين أكاديميين عظيمين عندهم، وهما من تخصصات الفيزياء! وأما الحياة فهي عندهم كذلك ظاهرة كيميائية وفيزيائية، كانت ولم تزل كذلك! أما وصف الكون على أنه "مجموعة من النظم المعلوماتية"، فهذا ليس إلا قياسا حاسوبيا Computational Analogy تكلفه بعضهم في بعض كتاباته، وليس هو "نظرة العلم" ولا شيء من ذلك! وهو قياس اختزالي وهمي لا نسلم به ولا نرتضيه! إذ لنا أن نسأل الدكتور هنا: ما مستندك في قولك: "المادة والطاقة عنصران إضافيان يترجمان المعلومات إلى وجود مادي ثلاثي الأبعاد"؟؟ هذا القياس الهزلي على الطابعة ثلاثية الأبعاد 3D Printer، من أين جئت به؟؟؟ تقول المادة والطاقة إضافيتان، فإلى أي شيء أضيفتا؟ إلى جهاز "الكمبيوتر الكوني" الذي يحمل "المعلومات" في هارد ديسك عملاق مثلا؟؟ ومن الذي قال إنني حتى أبطل العشوائية الدهرية الطبيعية المزعومة، فلن أجد – كمسلم – إلا أن أقيس العالم بكليته على جهاز كمبيوتر؟

نحن المسلمين نؤمن بأن العالم يجري كل شيء فيه، بطبائعه وأسبابه وسننه الكونية، على أوامر إلهية سابغة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار! فمن جهة كونها "معلومات" فكل شيء في العالم معلوم لرب العالمين قطعا، وكل أمر وكل حادث وكل فعل وكل سبب هو معلوم لله ضرورة، منكشف له أتم الانكشاف وأكمله، بما في ذلك ما تسميه بالمادة والطاقة! فما معنى أنهما "يترجمان المعلومات إلى وجود مادي ثلاثي الأبعاد"؟ كل موجود في العالم هو من معلومات الله، وهو كذلك وجود عيني له حقيقة في الخارج، سواء كان مادة أو طاقة أو غير ذلك، فما وجه القسمة الثلاثية: معلومات وطاقة ومادة؟ لا وجه له إلا أن يحيل الدكتور المعلومات (التي هي بخلاف الشيء المعلوم نفسه) إلى موجودات عينية في العالم، يعالجها العنصران الآخران (المادة والطاقة) ليحولاها من حالتها "العملوماتية" إلى حالتها "المادية ثلاثية الأبعاد"! ولهذا نرجع ونسأله: ما هي المعلومات يا دكتور وما حقيقتها عندك؟

واقع الأمر أن الدكتور إذا أطلق كلمة "معلومات"، لم يقصد بها علم الله نفسه سبحانه، وإنما يريد بها معلومات الإنسان! يقصد مخزون العقل البشري والإدراك البشري لمجريات العالم، هذا الإدراك عنده هو الموجات التي تحصل منها حقيقة العقل (مادته)، وتحصل منها كذلك حقيقة العالم نفسه، فكأن الله تعالى خلق الموجات ثم خلق منها مجموعة من العقول التي هي عقولنا، ثم جعل ما تبقى منها على صفة معينة هي المعلومات الكونية، وبثها إلى أمخاخنا بصورة ما أو بأخرى، فظهر في وعينا وإدراكنا ما نراه على أنه هو الواقع الخارجي والعالم الخارجي! وإذن فليس في الوجود على مقتضى دين الدكتور (ذلك المقتضى الذي لا ينتبه إليه) إلا الله والموجات التي خلق منها العقل والمعلومات، وليست الطبيعة وقوانينها ومادتها وطاقتها إلا ما يصطنعه العقل البشري اصطناعا في إدراكنا من حقائق ذهنية بما يرد إليه دوما وبلا انقطاع من أنواع "المعلومات"! وبهذا يصبح الإله هو مصدر المعلومات (التي هي على زعمه موجات كمومية)، والعقل البشري هو مرجح الاحتمالات الكوانطية لتلك الموجات بمقتضى ما يرد إليه من تلك المعلومات.

قال الدكتور في كتابه الأخير "المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر" [2] (ص. 14-15) تحت عنوان "الثورات المعلوماتية في القرآن الكريم ":

> بعد هذه الجولة العلمية الخاطفة لما مر بالبشرية من ثورات معالجة المعلومات، ربما يكون من المناسب أن نشير إلى الثورات المعلوماتية من المنظور الديني. فالمطالع للقرآن الكريم تقابله – على الأقل – خمس ثورات معلوماتية مرت بالبشرية ككل وبكل

إنسان بصفة خاصة. يقول الحق عز وجل في حديثه عن خلق الإنسان: ((فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ..)) (الحجر: 29)، لقد كانت هذه النفخة هي الثورة المعلوماتية الأولى للبشرية، والتي فيها زود الإنسان بالروح، التي هي الكيان المسؤول عن نشاطاته الروحية والعقلية والمعلوماتية. وعن الثورة المعلوماتية الثانية في تاريخ الإنسان، يخبرنا القرآن الكريم بأن الله عز وجل ((علم آدم الأسماء كلها)) (البقرة: 31)، أي علمه التجريد والترميز للموجودات، الفعلية والمعنوية، وهذه ثورة في الآليات، فالتجريد والترميز هما أول وأهم مراحل معالجة المعلومات. وتمثل الثورة المعلوماتية الثالثة ثورة في المحتوى، فقد حدث التواصل بين السماء والأرض، وأطلع الإنسان من خلال الرسالات السماوية على عوالم غيبية ما كان له أن يدركها بنفسه، كما تمت الإجابة عن جميع الأسئلة الوجودية التي تشغل باله. ثم جاءت الثورة المعلوماتية الرابعة، وهي ثورة في الآليات أيضا، إذ كلف الإنسان بقراءة كتاب الله المنظور مثلما كلف في الثورة الثالثة بقراءة كتاب الله المسطور. وقد أخبرنا الله عز وجل عن هذه الثورة بقوله: ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)) (فصلت: 53). بذلك ندرك أن الآفاق والأنفس مصدر معلوماتي إضافي للإجابة عن الأسئلة الوجودية، وذلك عندما يدرك الإنسان ما وراءها من معان. والثورة المعلوماتية الخامسة، هي ثورة خاصة بكل إنسان على حدة، وعنها يقول الحق عز وجل: ((والله أخرجم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون)) (النحل: 78)، أي أن كل فرد منا يوضع في أول طريق المعرفة، ويتحمل مسؤوليته في تحصيل المعلومات. بهذه الثورات المعلوماتية الغيبية الخمس، تتكامل النظرة إلى ارتقاء الإنسان في سلم المعلوماتية.

قلت: تأمل كيف يتفنن هذا الرجل في تلبيس القرآن بكل شطحة تحمله عليها أهواؤه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فلعله لما أكثر من الكلام عن فلسفة "المعلوماتية" هذه، قيل له: أين تجد هذا المعنى في القرآن؟ فجاء بهذا الهذيان، والله المستعان! فليست هذه جهمية تطورية وحسب، وإنما هي جهمية تطورية "معلوماتية"، من النوع الذي يروق لهواة البرمجيات ونظم المعلومات! وهكذا هم الجهمية! يأتيك أحدهم بما يحلو لك ويلذ ويطيب من أنواع المعاني والمفاهيم والعقائد والنظريات والفلسفات من نصوص القرآن والسنة، يستخرجه لك استرضاء واستمالة، إذا رأى أنك لا ترتضي دينا يقول بخلاف ذلك، رجاء أن تشهد له بالعقل والعلم والثقافة

والتفتح والاستنارة .. إلخ! فإن كنت لا ترضى إلا بالتطور الدارويني، وكان له طمع في إرضائك، وفي تبرئة نفسه من تهمة أن دينه يناقض التطور الدارويني، تفلسف من أجل أن يقنعك بأن الإسلام هو دين الدراونة وملاذهم، وبأن داروين نفسه أوشك أن يموت موحدا على السنة، فيتخذها برهانا لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، يقول لك: لقد وجدناها في القرآن من قبل داروين نفسه بما يربو على الثنتي عشر قرنا!! وإن علم لديك استعدادا لقبول شيء من التعديل والإضافة لنظرية داروين على طريقة بيهي، جاءك بنظريته كبرهان لإثبات "المصمم الذكي"! وإن كان له هوى في استمالتك والتزلف إليك، وكنت لا ترضى بمن يعترض على نظرية الانفجار الكبير ولا تراه على شيء، بل تعده من الجهال خفاف العقول، رأيته يتفلسف من أجل أن يظهر دينه الذي يحب أن يظهر بين الناس على أنه يدين به، ولا يتصور نفسه مفارقه من أجل تلك النظرية، يظهره موافقا تمام الموافقة للانفجار الكبير، بل لعله يأتيك منه ببرهان كلامي لإثبات حدوث العالم، ثم يستخرجه (أي معنى النشأة الانفجارية) من القرآن لإثبات صدق النبوة، وإذا بالانفجار الكبير لا تنتفي عنه دعوى مخالفة القرآن وحسب، بل إنه يصبح أعظم وأهم دليل في هذا الزمان على صحة القرآن نفسه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! وإن كان له هوى في استمالتك واستجلاب قبولك، وعلم أنك لا ترضى بدين يخالف الديموقراطية، وكان هواه مانعه من التبرؤ من دين المسلمين لصالح الديموقراطية، رأيته يفرغ الوسع لإقناعك والناس بأن الإسلام هو دين الديموقراطية، وأنه أمر بالديموقراطية وحث عليها في مواطن شتى، وأن الخلافة الإسلامية على عهد أبي بكر وعمر كانت أعظم دولة ديموقراطية عرفها التاريخ، كما سلكه عبد الرحمن عبد الخالق وياسر برهامي ومن شاكلهما!! وإن كان له هوى في استمالتك وأنت ماركسي لا تقبل إلا ما يوافق فكر ماركس، رأيته يمركس الإسلام، يقول إنه دين العدالة الاجتماعية، الذي جاء بالحرب على "الرأسمالية"، وليعيد توزيع أرزاق الخلق على السوية، ولا يجعل الناس طبقات ولا منازل، ويسعى في السنة والأثر بالتحريف والتشويه حتى يقنعك بأن هذا هو الدين الذي علمه محمد صلى الله عليه وسلم لأصحابه، كما سلكه المودودي وصاحبه سيد قطب، عاملهما الله بعدله!! وهكذا كل فلسفة تعظم في عين صاحبها الجهمي، ويرى أنه لا نفقة له بين الناس ولا علو على أكتافهم إلا بأن يظهر أنها من دينه وأن دينه يقول بها ويدعو إليها، أيا ما كانت، فستراه يتفلسف غاية الوسع في تلبيس الدين بها، يأتي من أجل ذلك بالعجب العجاب!

تأمل قول الدكتور: "بعد هذه الجولة العلمية الخاطفة لما مر بالبشرية من ثورات معالجة المعلومات، ربما يكون من المناسب أن نشير إلى الثورات المعلوماتية من المنظور الديني." قلت: هذه هي أيها القارئ المحترم

فتأملها! أي بعدما فرغنا من تقرير "العلم" وما انتهى إليه "العلم" وما به كمال "العقل" في هذا العصر.. إلخ، فلعله "يكون من المناسب"، بالنظر إلى كون هذا الكتاب كتابا يفترض فيه أنه يروج لدين المسلمين وينتصر لهم على "الماديين" الملحدين، أن "نشير" إلى بضاعتنا هذه "من المنظور الديني"! نخوض ما شئنا في أقوال الفلاسفة المعظمين لدينا، ننتقي منها ما نظن أنه المعتمد في أكاديمياتهم العصرية وأننا لن نسلم من اتهامهم إيانا "بإيمان السفهاء والمقلدة" إن رددناه عليهم، فنستعرضه لكم ونقرره تقرير المعظم المستحسن له، ثم بعد ذلك – لا قبله - ننظر ماذا في الدين، وما الذي يقوله الدين، ونحن على يقين من أنه سيوافق ذلك لا محالة، أيا ما كان، وأن كل فهم موروث للنص بخلافه فهو فهم فاسد مردود على صاحبه ضرورة، قد جاء "العلم" أخيرا بما يرده على أصحابه!

هذه هي الجهمية، وهذا هو لبها وجوهرها، وهكذا تنبني المعرفة وينبني الدين نفسه عند الجهمية، والله المستعان لا رب سواه! الرجل اعتنق التطور الداروينى واعتنق ميتافزيقا المعلوماتية هذه أولا، ثم ذهب "يشير إلى فلسفة التطورية المعلوماتية من المنظور الديني"، أي يستنطق بها النصوص استنطاقا!! فكما أن لدينا من تراث الجهمية القدماء، الجهمية الاعتزالية بفرقها، والجهمية الأشعرية بطوائفها وما شاكلها، فاليوم صار لدينا الجهمية الطبيعية بطوائفها (الإعجازية بشعبها والانفجارية والتطورية المعلوماتية الشريفية والتطورية الشاهينية والتطورية القسومية والتطورية التصميمية وغيرها) والجهمية الماركسية والجهمية الليبرالية الحقوقية والجهمية الديموقراطية التعددية، وما تفرع عن جميع ذلك من طوائف ونحل شتى! وهو ما يرجع جميعه إلى هذه الآفة نفسها، آفة الافتتان بمصادر التلقي المعرفي لدى الفلاسفة الأكاديميين المعظمين في كل عصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قوله: " فالمطالع للقرآن الكريم تقابله – على الأقل – خمس ثورات معلوماتية مرت بالبشرية ككل وبكل إنسان بصفة خاصة. " قلت: يا عدو نفسك، أنت في تقديمك لذلك الكتاب الخبيث، وحيث سطرت فيه هذا الكلام، ما كنت قد تكلفت بعد حتى ولو محاولة تعريف "المعلوماتية" هذه بل ولا حتى "المعلومات" على نحو ترجو معه ضبط ذلك المعنى الذي هجمت على القرآن مستنطقا إياه به! فإذا انطمس معنى "المعلومات" تحت الإجمال الفاحش، فكيف بمعنى "الثورة المعلوماتية"، وأي جرأة على كتاب الله أقبح من هذا؟؟ نسأل الله السلامة! الثورات هنا على أي حال، إنما يقصد بها "طفرات" معينة في عقيدته التطورية الارتقائية! فأولها عنده هي تطور الإنسان من القردة العليا، باكتسابه "نفخة الروح" التي زعم

اختصاصه بها، فكانت تلك "الطفرة" عنده مفتاحا لاكتساب الإنسان القدرة على التعلم، التي زعم – أيضا – اختصاصه بها عمن سواه من أنواع الدواب، وهذا كله كذب في كذب وجهل في جهل كما بسطنا الكلام عليه في هذا الكتاب. ثم يتقرمط على قوله تعالى ((وعلم آدم الأسماء كلها)) فيجعله بمعنى "علمه التجريد والترميز للموجودات، الفعلية والمعنوية"، وهذا كلام فلسفي لو لم يكن فيه من دواعي الرد والإبطال إلا الإجمال لكفى!

فإن كان المقصود بالتجريد، القدرة على التفريق بين الكليات والجزئيات، أو تصور المعاني الكلية في الذهن، فهذا نثبته نحن المسلمين للإنسان كما نثبته لأنواع الدواب، إذ نثبت لجميع الدواب والطيور والحيتان منطقا (لغة) لا كلغاتنا وتسبيحا لا كتسبيحنا! ولا يكون للكائن العاقل منطق ولغة إلا كان لديه بالضرورة تفريق بين الكليات وأفرادها، كما رأيناه في كلام الهدهد لسليمان عليه السلام! فحسبك بقول الهدهد لسليمان فيما حكاه القرآن: "إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء"، فاللفظة "كل شيء" هنا معنى كلي كما لا يخفى، إنما يتوصل إليه القائل به من استقراء أفراده في الخارج! أي أن الهدهد نظر وتأمل في ملك تلك المرأة فوجد لديها أفرادا من كل نوع من أنواع المتاع والمقتنيات، فلما أراد أن يصف نتاج ذلك الاستقراء أطلق معنى كليا مجملا مجردا عن التفصيل، وقال "أوتيت من كل شيء"! فإذا كان هذا هو التجريد، فمن الواضح أنه ليس مما اختص به آدم عليه السلام في تعليم الله إياه الأسماء كلها! وأما الترميز فإن كان المراد منه مطلق استعمال الرمز للإشارة إلى معنى معين، فهذا هو أساس اللغة والمنطق وما في معناهما عند جميع الأنواع، بل إن الطبيعيين الدهرية يثبتون صورا من الترميز الصوتي عند الدلافين والحيتان والأورانغوتان وغيرها، فليس هذا أيضا من العلم الذي اختص به الإنسان! وإنما علم الرب آدم أسماء الأشياء كلها، ثم تحدى الملائكة بأن يذكروا شيئا من تلك الأسماء التي خصه بتعليمها له مما لا علم لهم به فما استطاعوا، فأظهر بذلك قدرة آدم على أن يتعلم من العلم ما به يقوم بالغاية التي خلق من أجلها، وأنه قد يعلمه ربه أمورا لم يعلمها ملائكته، على ما لتلك الملائكة من منزلة وفضل عنده سبحانه!

ولهذا لا نعجب عندما نقرأ قول الدكتور في موضع لاحق (ص. 204 - 205): "يرجع ملفن كلفن الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء الحيوية، ما وصفنا من انتظام الكون إلى الإله الواحد الذي أنشأه ويديره بنظام متناسق، حيث إن العشوائية أو آلهة متعددين يديرون الكون كل بقوانينه كان سيؤدي إلى انهياره. ونرجع هذا الإيمان بالتوحيد إلى زمن المصريين القدماء، أما كلفن فيرجعه إلى العبرانيين الذين بعث فيهم أبو الأنبياء إبرهيم عليه السلام.

وعلى كل فإن القول بالتوحيد كان الأصل التاريخي لإدراك أن الكون منظم، ومن ثم "فالتوحيد" هو أساس العلم الحديث." اهـ. قلت: هذا على أساس أن آدم عليه السلام ومن جاء بعده من الأنبياء والرسل قبل زمان إخناتون لم يعرفوا التوحيد، بل كانت عقولهم على دين الرجل أحط (معلوماتيا وتطوريا) من ذلك!! ولا عجب أن يكون هذا اعتقاد من جعل آدم عليه السلام سليلا للقردة العليا!! والله إن كلفن المذكور هذا لأقرب بكلامه إلى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من هذا الرجل! فتأمل إلى أين أنت ماض بأتباعك يا دكتور!! سلم يا رب سلم!!

والقصد أن سبب تفوق آدم وذريته على غيرهم من الأنواع الحية في الأخذ بأسباب الدنيا إنما يرجع إلى التعليم الإلهي ثم التسخير السببي، أي تسخير الله تعالى جملة عظيمة من أسباب الأرض والسماء (التي منها عامة أنواع الدواب) لبني آدم بما ركبه فيهم من خلقة جسدية وطباع نفسية لم يركب مثلها في غيره، ولم يسخر لهم من الأسباب ما سخره له، وبما علم أباهم آدم من قبل من أسماء لا قبل للملائكة بتعلمها واستعمالها أصلا، وليس إلى اختصاصهم بمبدأ اللغة والمنطق وبمطلق القدرة على "الترميز والتجريد"، ولا بنفخة الروح في آدم عليه السلام، كما هو اعتقاد الدكتور! جميع الدواب لها أرواح، ولها أنشطة روحية وعقلية ومعلوماتية! أليس ما لديها من معارف بشأن الواقع الخارجي معدودا من جملة "المعلومات" التي تتمتع بالقدرة على تعلمها؟؟ لا شك أنك إن وجهت هذا السؤال إلى الدكتور فسيقول: "بلى لديها معارف ولا شك، ولكن ليس هذا هو ما أقصده بالمعلومات!" ثم تراه يتحفك بتعريف ميتافزيقي تحكمي بارد يثبت به "المعلوماتية" في نفس الإنسان وينفيه عما سواها من أنفس الدواب!

قوله: "وتمثل الثورة المعلوماتية الثالثة ثورة في المحتوى، فقد حدث التواصل بين السماء والأرض، وأطلع الإنسان من خلال الرسالات السماوية على عوالم غيبية ما كان له أن يدركها بنفسه، كما تمت الإجابة عن جميع الأسئلة الوجودية التي تشغل باله" قلت: فأي شيء في دينك كان تعليم آدم الأسماء كلها يا رجل؟؟ ألم يكن آدم نبيا مكلما في عقيدتك؟؟ أول البشر لم "تشغل باله" أسئلة "وجودية"، أول البشر أهبط وعنده من الفطرة والعلم السابغ الذي يوافقها ما يغنيه ومن تبعه من ذريته عن السؤال! وإنما بدع الاشتغال بتلك الأسئلة وصيرها "معضلة كبرى"، كل فيلسوف سوفسطائي جاحد مستكبر يكره أن يخضع رقبته لبشر مثله قد اصطفاه الله وجعله نبيا أو رسولا من عنده!

ولكن بالنظر إلى داروينية الدكتور، فلا بد له من اعتناق نظرية تطور الأديان بصورة ما أو بأخرى (وسيأتي معك بحول الله تعالى بيان انتصاره لها)، بحيث

يصبح أول اتصال للبشر بالوحي (بعد حصول "النفخة" في رحم أنثى من إناث الهومينيد على عقيدة الدكتور) مجرد مرحلة من مراحل ذلك التطور التدريجي، أو "ثورة" على حد عبارته! وإلا فماذا كان يصنع "الهوموهابيليس"، مثلا، الذي هو سلف "الهوموسابينز"، أو "النياندرثال" (الذي هو عندهم من بني عمومته) إذا ما وجد نفسه خائفا من الغيب وما فيه يوما ما، وبأي شيء كان يحتمي؟ وماذا كان يصنع وأي شيء كان يخطر في ذهنه إذا ما انتزع الموت عزيزا لديه؟! يلزم على داروينيتك يا دكتور، أن تنظر في أبحاث الباليونتولوجيين والأركيولوجيين الدراونة أمثالك فيما إذا كانوا قد عثروا على آثار لممارسات دينية أو "شبه دينية" (على أيما تأويل مالوا إليه فيما يعثرون عليه! [3]) وشعائر دينية في أسلاف الإنسان المزعومين، فإن وجدوا شيئا أثبتَه وجعلته دليلا على ظهور الدين والعبادة في القردة العليا، وإلا جعلت من عدم العلم علما بالعدم كما هو مسلكهم!

قوله: "ثم جاءت الثورة المعلوماتية الرابعة، وهي ثورة في الآليات أيضا، إذ كلف الإنسان بقراءة كتاب الله المنظور مثلما كلف في الثورة الثالثة بقراءة كتاب الله المسطور. وقد أخبرنا الله عز وجل عن هذه الثورة بقوله: ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)) (فصلت: 53)." قلت: قرمطة فوق قرمطة، وضلال من بعد ضلال، والله المستعان! تقدم بيان أن الآية لا يراد بها هذا التنطع الذي ذهب إليه هو وأقرانه، ومع ذلك جعل الرجل ذلك التأويل الجهمي عنده أصلا من أصول الدين! ولا عجب أن يفعل، ولابد أن يفعل، فعلى هذا التأويل، تصبح الآية مدخلا عريضا يلبس به على المسلمين اعتماد بضاعة الطبيعيين في غيب النشأة، وجعلها المصدر الأول من مصادر تلقي الاعتقاد في تلك الأبواب، وهو عين المطلوب!

فلما أصبح المراد منها، تكليف المخاطبين بالرسالة بأن يطبقوا المنهج الطبيعي الدهري في قياس الغيب المحض على ما في الشهادة من أجل التوصل إلى نظريات في مسألة النشأة، واتفق أن كانت دعاوى الطبيعيين في ذلك الباب وليدة القرون الثلاثة الأخيرة (إذ لم يعرف عندهم قول بالنشأة أصلا، لا للكون ولا للأنواع الحية، قبل كانط ونظرية النبيولا في القرن الثامن عشر الميلادي)، لم يجد الدكتور بدا من أن يجعل التكليف المزعوم بممارسة البحث النظري الطبيعي في تلك الأبواب تكليفا جديدا لم يأت به نبي قبل محمد صلى الله عليه وسلم! وإذن يصبح هو الخطوة الأخيرة في "تطور الدين"، إذ يصبح لدى البشر – وللمرة الأولى في تاريخ الكتب السماوية، كتابان للعلم بالخلق وغيوبه وما يتعلق به من صفات وأفعال إلهية، بعد أن كان كتابا واحدا لا غير: كتاب الله المسطور وكتابه المنظور

(على حد عبارة الدكتور)! وبما أن "الكتاب المنظور" هذا يقدم لنا "العلم الحديث" والأدلة الأقوى معرفيا عند الدكتور ومن شاكله من جهمية الطبيعيات، فإن الخطوة الأخيرة في تطور الدين، تصبح في الحقيقة التحول بمصادر التلقي من أن تكون هي نصوص الوحيين، إلى أن تكون هي نظريات الدهرية الطبيعيين، التي تصبح هي أساس كل فهم وكل تأويل لتلك النصوص!

وعليه تكون حقيقة تاريخ التطور المزعوم للدين هي الابتداء بالوثنية ومحض التمثيل (كما في تصورات القوم لما يسمى عندهم بالأديان البدائية Primitive Religions)، والانتهاء إلى الملة الطبيعية المحضة، مرورا بخطوات من نفي الصفات والأفعال والتعطيل، ويصبح هو حاصل وحقيقة ما يسميه الدكتور "بارتقاء الإنسان في سلم المعلوماتية" وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال الدكتور في الحلقة السابعة من حلقات برنامج جديد له على اليوتيوب سماه "بالمعلوماتية برهان الربوبية الأكبر"، وهو نفس عنوان كتابه الجديد في التأسيس لتلك النحلة الربوبية الاتحادية الطبيعية المعلوماتية الجديدة Informational Naturalist Pandeism الذي تقدم النقل منه:

> احنا هاننطلق في الرحلة، في تدرج الفكر الفيزيائي بين النماذج المعرفية، من خلال رحلة جون ويلر. جون ويلر عالم الفيزياء النظرية الكبير، اللي طرح في سيرته الذاتية اللي نشرها عام 1999، مقولته الجميلة جدا: في البدء كانت المعلومة It from Bit، بدل في البدء كانت الكلمة، اللي هي كلمة موجودة في سفر التكوين في التوراة. جون ويلر بيؤول لنا إنه مر بتلات مراحل في انتماؤه الفكري بالنسبة لبحثه عن البنية الأساسية للكون. المرحلة الأولى هي اللي بيسميها Everything are particles، اللي هم الجسميات هي كل شيء. ده بعد ما أبهره الجسيم اللي يتشاف في مكانين! وأبهره التواصل Entanglement بين جسيمين تبعد عنهم سنوات ضوئية، بدون رابطة أو شفرة. فاعتبر إن الجسيمات هي بنية الكون. دي في مرحلته الأولى.
>
> ثم جاءت مرحلة أخرى اعتبرها Everything are Fields المجالات هي كل شيء. بدل الجسيمات أصبحت المجالات، بعد ما النسبية قالت له إن المادة هي طاقة، والطاقة هي مادة، وأن العالم عبارة عن حقول ومجالات كهرومغناطيسية. ده الزمكان نفسه، الزمكان نفسه حقول ومجالات. ثم جاء المرحلة الثالثة اللي

بيحيى فيها الآن معنا واحنا بنشاركه هذه الحياة، Everything is Information، المعلومات هي كل شيء! وقع في قبضة المعلوماتية، بعد أن افتتن بأعجوبة الكوانتم، إن الإنسان له دور في تشكيل العالم، أصبح معلومات الإنسان هي التي تشكل العالم. وزاده ثراء، اطلاعه على الشفرة الوراثية، وعلوم الجينوم، وبالتالي أصبح المرحلة التي يحيا فيها الآن جون ويلر ونحن نحيا فيها معه، أن المعلومات هي حجر الأساس في الفيزياء! هذا الرأي مش رأيه لوحده، يعني فيه علماء كثيرين منهم كيت ديفلين اللي بيقول ينبغي أن نعتبر المعلومات مكون أساس في الكون زي المادة والطاقة، يبقى الكون (وعلى الشاشة كتبها: الوجود) ثلاثة عناصر أولية: مادة + طاقة + معلومات!

قلت: تأمل كيف استحسن الدكتور كلمة ويلر "في البدء كانت المعلومة" وفرح بمشابهتها لمفتتح سفر التكوين في العهد القديم، ثم قل لي بربك كيف لا يكون الرجل على دراية بأنه في مقام تأسيس لاعتقاد جديد في أمر غيبي محض لا يجوز لعاقل فضلا عن مسلم أن يقبل فيه مصدرا معرفيا إلا الوحي المنزل من رب العالمين؟! الدكتور يستحسن أن يأتي فيزيائي من الفيزيائيين ليكتب كتابا يضعه في محل سفر التكوين، يفتتحه بقوله "في البدء كان كذا وكذا"، فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا إليه راجعون! ما يدريه، جون ويلر هذا أو غيره، أي شيء كان في بدء العالم؟؟ أأشهده الله خلقه أو خلق عالم مثله حتى يقيسه عليه، أو اتخذه لنفسه عونا في الخلق والتكوين؟؟ سبحان الله وتعالى عما يصفون! ((مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً)) [الكهف : 51] هذه الإطلاقات الغيبية تعجب الفلاسفة الدهرية لأنهم يريدون إهدار تلك الكتب الدينية الموروثة كلها وإحداث بضاعة من أكياسهم هم في محلها! هم إنما أسقطوا سفر التكوين بغير مستند إلا أقيستهم الكوزمولوجية، وهم ساعون في إسقاط القرآن نفسه بنفس المستند يا دكتور، فلا تفرح!

بأي عقل ودين قبلت من ذلك المتفلسف المتعاظم قياسه العالم بكليته على برنامج كتب على جهاز كمبيوتر بلغة البت والبايت، فكان أول ما خلق فيه هو البت Bit؟! وبأي سلطان معرفي أو عقلي يطمع أحدهم في أن يتوصل "لمعرفة" البنية الأساسية للكون؟؟ ما يدريه أن هذا الذي عده مكونا أساسيا، لا يتكون هو نفسه بدوره من مكونات أخرى من نوع آخر (كما تحول الفيزيائيون أخيرا إلى القول بأن أصغر مكون للمادة Most Fundamental Component ليس هو الذرة ولا الكوارك ولا ما هو أصغر

من ذلك من الجسيمات، وإنما هو الموجة الكوانطية أو المجال الكوانطي Quantam Field)؟؟ مهما دقق الإنسان في فحص ذلك الحيز الضئيل من العالم المفتوح لفحصه وتدقيقه، ومهما بلغ به درك حسه وبلغت به أدواته وآلاته من سعة الاطلاع على أرض هذا العالم وسمائه، فلا يملك ولا يحق له البتة أن يطلق التعميمات الكونية بشأن العالم بكليته، أنه يتركب من كذا وكذا، كما بسطنا الكلام عليه في الباب الثاني من هذا الكتاب وتوسعنا فيه بما نرجو أن يكون قد حصل به المقصود! وقبل أن يطلق التعميم، فإنه ليس له أن يتكلف قياس الغائب على الشاهد دون أن تكون لديه خلفية معقولة من التجربة والعادة بالأشباه والنظائر! ومن الواضح الجلي أن أحدا منا لم يسبق له أن رأى عالما من العالمِين وهو يخلق، فوجده أشبه ما يكون ببرنامج من برامج الكمبويتر، ابتدأ الخالق كتابته بالبِت أو البايت، وجعل أساس خلقته كله من أوله إلى آخره هو تلك المعلومات البرمجية! فأي شبيه لديه وأي نظير يقيس عليه؟؟ لا شيء إلا تنطع الفلاسفة وتعاظمهم بعقولهم ودخولهم فيما لا قبل لهم به، والله المستعان!

لاحظ أيها القارئ الكريم أن الدكتور يريد أن يقنعك بنظرية مفادها أن ما يسميه هو ومن نقل عنهم بالمعلومات Information هو المكون الأساسي للعالم (أو من المكونات الأساسية للعالم)، كما يعتقد الفيزيائيون أن المادة والطاقة هما المكون الأساسي للعالم! وإذن فالمعلومات تلك هي عنده شيء عيني خارجي، كما في تشبيه البت Bit Metaphor الذي أعجبه غاية الإعجاب! ذلك أنه لا يقصد في الحقيقة جملة معلومات الباري بشأن العالم (التي أمر القلم بأن يكتبها في اللوح المحفوظ، فكتب كل ما هو واقع إلى يوم القيامة)، وإنما يقصد معلومات البشر المخلوقة في أدمغتهم! يقول: "بعد أن افتتن بأعجوبة الكوانتم، إن الإنسان له دور في تشكيل العالم، أصبح معلومات الإنسان هي التي تشكل العالم." قلت: فلا تأويل كوبنهاغن الذي يستند إليه الدكتور في مقالته يصح أو يقبل، ولا القول بأن "معلومات الإنسان هي التي تشكل العالم" يقبله العقل أو يقره الدين! فأين كانت تلك "المعلومات" قبل أن يخلق البشر؟؟ إن شبهناها بالبيانات المبرمجة على قرص الكمبيوتر الصلب، فأين كان ذلك القرص قبل خلق الإنسان؟؟ معلومات الإنسان إنما اكتسبها الإنسان (خلقت في نفسه) بعد خلقه في رحم أمه لا قبل ذلك! اللهم إلا ما كان من ثوابت فطرية في الروح اكتسبها البشر في عالم الذر كما جاء به الخبر، ومن الواضح أن هذا ليس ما يقصده الدكتور "بالمعلومات" التي هي مكون أساسي للعالم، وإنما يقصد وصف العالم نفسه وما يجري فيه، وما في الدي إن إيه وجينومات الأنواع الحية .. إلخ! فكيف تكون هذه "معلومات" للإنسان أو لدى الإنسان، حتى يقال "معلومات الإنسان هي التي تشكل العالم"؟؟ ثم ما مبلغ معلومات الإنسان

مهما بلغت حتى تكون هي التي تشكل العالم؟ ثم ما معنى "تشكل العالم"؟ هل تؤمن يا دكتور بأن الإنسان هو الذي يخلق العالم بمعلوماته؟؟ أم ترى أن العالم لا حقيقة له في الخارج أصلا، وإنما هو ما يدركه كل إنسان منه في صورة "معلومات"؟؟

دعنا نستطلع كتب الدكتور ومقاطع الفيديو التي تكلم فيها في هذه القضية لنرى أي عقيدة غيبية بدعية أخرى انتهى إليها تحت راية "المعلوماتية"!

يواصل الدكتور في الحلقة نفسها فيقول:

> جيه ناس كانوا أكثر حماسا للمعلومات! كريستيان فون باير، أستاذ الفيزياء الألماني، وتشارلز سيف، أستاذ الفيزياء الأمريكي، بيقولوا لأ، مش المعلومات مكون مع المادة والطاقة، ده المعلومات هي البديل عن المادة والطاقة. هي المادة والطاقة عبارة عن إيه؟؟ عبارة عن معلومات! الإلكترون ده عبارة عن إيه؟؟ مش معلومات بتبين سرعته وكتلته وشحنته، وتفاعله مع الأشياء الأخرى؟ دي كلها معلومات مجسدة في هيئة المادة! فالطرح المطروح الآن هو أن المعلومات هي البديل عن المادة، وأن المادة ليست إلا معلومات مجسدة. وده اللي جعل برنارد سترومباخ عالم المعلومات الألماني يقول مقولة أنا هاقرأها لكم: "من يستطيع أن يتعرف على مصدر المعلومات، فقد امتلك مفتاح تفسير بنية وسلوك وأحداث العالم!" ومن مازالوا يحدثوننا عن المادة والمذهب المادي بتوجهاتهم القديمة، دول أصبحوا خارج الزمن وخارج التاريخ!

قلت: خبرني بربك أيها القارئ الكريم، كيف يستوي في العقل السوي الصحيح أن يقال: الإلكترون هو معلومات تبين سرعته وكتلته وشحنته؟؟ الإلكترون، حقيقته الوجودية في الأعيان هي بعينها حقيقة المعلومات عنه الموجودة في ذهني وذهنك! أو بعبارة أخرى: العلم هو عين المعلوم! فخبرني بربك كيف يستقيم في العقل التسوية بين عين الشيء وبين العلم بصفته؟؟ بأي عقل يجعل الشيء المعين أيا ما كان، والمعلومات التي تصفه عند العالم به، حقيقة وجودية واحدة في الأعيان؟؟ أنت يا دكتور لا تستوي وجوديا بالمعلومات التي نعرفها عنك! المعلومات موجودة في الأذهان، وأنت موجود في الخارج في الأعيان، وهذا واضح لكل من له عينان! فلا يصح أن تكون حقيقتك موجودة في أذهاننا دون الخارج، ولا أن تكون حقيقة معلوماتنا عنك أنها موجودة في الخارج كما في أذهاننا!

هذه الميتافزيقا المنخرمة (ميتافزيقا "المعلومات المجسدة") هذه لا تقل خرفا عن ميتافزيقا الجوهر والعرض اليونانية، بل لعلها تزيد كما سيأتي

معك! ذلك أن المعلومات عند غيت هذا ليس المقصود بها العلم عند الصانع بصنعته وبكيفية تشغيلها! وإنما هي على وفق القياس الحاسوبي Computer Metaphor الذي عممه على جميع الموجودت، نظام برمجي وجودي ملازم لكل موجود من موجودات العالم، فلا يحصل لذلك الموجود وجود في الخارج ورجحان لحالته التي هو عليها على غيرها، إلا بعمل ذلك النظام تحت آلة ما تشغله، كما تشغل الحواسب برامجها، وكما تشغل الخلية الحية البرنامج الوراثي المخزون في نواتها! فالإلكترون – مثلا – هو نتاج عمل "برنامج معلوماتي" موجود في الخارج، عملت عليه آلة معينة، فأحدثت هيئته في المادة التي يتركب منها، انطلاقا من تلك المعلومات! وهكذا يقال في تلك المادة نفسها وفيما تتركب منه! فعلى ميتافزيقا الدكتور وأستاذه الذي قلده، يلزم أن نكون أنا وأنت والدكتور وجميع البشر، بل وكل نظام مادي حيوي أو غير حيوي، "برامج حاسوبية مجسدة"، على جميع مستويات المادة التي نتركب منها، يعمل كل برنامج منها على مستواه الوجودي Ontological Scale تحت آلة تشغله، بصورة ما أو بأخرى! ولهذا القياس الميتافزيقي السخيف من اللوازم والمقتضيات الفاسدة ما نبينه بحول الله تعالى فيما يأتي معك، والله المستعان!

يصرح الدكتور في الحلقة الثامنة من نفس البرنامج المذكور بأنه استمد أصول "فيزياء المعلومات" هذه أو "البراديم المعلوماتي" كما يسميه من مهندس ألماني يدعى فيرنر غيت Werner Gitt [4]، وضع نظرية سماها بنظرية المعلومات الكونية Universal Information Theory. يقول الدكتور:

> اللي أدرك هذا التقصير (يعني في اقتصار نظريات المعلومات قبله على التنظير الرياضي الحاسوبي، بعيدا عن الميتافزيقا)، وكان مهم قوي عنده قضية المعلومات كنموذج معرفي لفهم الكون، كان المهندس المعلوماتي الألماني فيرنر غيت، اللي هو كان بيعمل الرئيس الأسبق لقسم تكنولوجيا المعلومات في المعهد الفيدرالي الألماني للفيزياء والتكنولوجيا. قدم نظرية، في كتابه، إيه كتاب جميل جدا، أنا رجعت له كتير في كتابي، In the Beginning was Information، في البدء كانت المعلومة! قدمه سنة 1994، وقدم فيه نظرية اسمها نظرية المعلومات الكونية Universal Information Theory، مش Mathematical، لأنه بيتناول المعلومات من الجوانب المختلفة، مش بس الجانب الإحصائي، جوانب الم ... ما هو أصل المعلومة، أنا لما باكلمك بالتليفون، باقول لك رسالة، أنا أقصد أنقل لك معنى، أنا أقصد، باستخدم لغة

معينة، باحافظ على قواعدها أو لأ، أنا باطلب منك طلب أفعال تعملها، أنا عندي غاية في بالي عايز أوصلها لك من وراء هذه المكالمة،

وفي مقدمة كتابه "المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر"، يبين الدكتور السبب الذي دعاه لاعتناق فلسفة المعلوماتية تلك، وتأليف كتاب كامل في الدعوة إليها، بعد أن كان يتخذ من كلام أصحاب التصميم الذكي (في كتابه "كيف بدأ الخلق وغيره") مدخلا لإثبات وجود الباري، فيقول (ص. 19-20):

فإذا بدأنا باصطلاح المعلوماتية في عنوان الكتاب، كدال أكبر على خالقية الإله للوجود، تجد أني قد تناولته في بعض فصول كتبي السابقة، وكان ذلك من خلال تبني أشمل لمفهوم "التصميم الذكي" باعتباره الدليل الأكبر على البربوبية، ليس فقط في إطار العلم المعاصر بل وأيضا في إطار علم الكلام الإسلامي وعلم اللاهوت المسيحي. وفي الوقت الذي مال فيه الميزان إلى المعلومات باعتبارها بنية الوجود الأساسية، بدأت سلبيات مفهوم التصميم الذكي في الظهور. فقد استأثر الخلقويون الرافضون للتطور الكوني والبيولوجي بالاصطلاح، وضمنوه مفاهيم دينية كادت تسقط حجيته، لعل أهمها أن القول بالتصميم الإلهي يحتم اتصاف منظومة الوجود بالكمال، وهذا يتعارض مع ما في الوجود من نقائص، وكان ذلك مدخلا قويا للماديين لنفي الوجود الإلهي، أما التصميم الذكي التطوري، وهو النظرة لنشأة الوجود من خلال مفهوم المعلوماتية، فيتقبل أن يكون الكون متطورا لم يبلغ الكمال بعد، وفي نفس الوقت فهو يدل على احتياج منظومة الوجود إلى مصدر معلوماتي مطلق الذكاء. لذلك كان اصطلاح المعلوماتية في صدر عنوان الكتاب هو الأصوب من مفهوم التصميم الذكي والأحكم دلالة.

قلت: هذا الكلام خطير للغاية، ويبين لك مدى تلبس الدكتور بنفس الداروينية الدهرية التي صال وجال في كتبه القديمة محاولا التبرؤ منها! فقد كان الدكتور يستعين بكلام بيهي وأصحابه في التصميم الذكي لما كان يراه نظرية طبيعية صرفة، غايتها أن تكون طريقا لإثبات "مصمم ما"، قد أحدث بعض النظم المعقدة التي لا يمكن للآليات الداروينية أن تفسرها بالطفرة والانتخاب وحدهما! ثم لما وجد المجتمع الأكاديمي الغربي تزداد نقمته على تلك النظرية يوما بعد يوم، وتزداد نسبة أصحابه إلى الاعتقاد الديني، ورأى ميل كثير منهم إلى القول بأن التصميم ليس مجرد آلية من آليات التطور، بل إنه هو الطريق الوحيد للخلق، ولا يمكن أن يوجد في

العالم نظام إلا وهو بالضرورة أكمل من أن يكون ناشئا عن التطور الدارويني بعشوائيته الوجودية التي لا تنفك عنه، مال عن تلك النظرية وتملص منها، واكتفى في مسألة "الذكاء" فيما وراء النشأة بما تثبته نظرية غيت في المعلوماتية الكونية! فهو لا يريد نظرية أو نحلة لاهوتية طبيعية تقرر أن الخلق الإلهي كامل محكم لا نقص فيه، لأن هذا لا يقوله من يعتقد أن الكون وما فيه من أنواع المخلوقات الحية لا يزال ماضيا إلى مزيد من التطور، وهو ما لا مفر لكل قائل بكوزمولوجيا الانتفاخ العظيم وببيولوجيا التطور من سلف مشترك من القول به! فالدكتور يعتقد اعتقادا جازما بأن الكون لا يزال "يخلق" إلى اليوم (إذ لم تزل أجرامه تتوسع وتنتفخ وتتباعد على اعتقاده)، وأن الأنواع الحية لم تبلغ أكمل ما يتصور بلوغها إياه إلى اليوم (إذ لم تزل آليات التطور الدارويني تعمل في العالم كما كانت قبل بلايين السنين بزعمه)! وقد بينا في نقضنا انتصاره للتطور الموجه في كتابه "كيف بدأ الخلق" كيف أنه ملزم بإثبات كثير من العبث والنقص المشين في تقدير الباري - سبحانه وتعالى علوا كبيرا - لبنية وهيئة بعض الأنواع الحية، في مجرد تصحيحه مبدأ الترقي والتطور من أصل منحط، وكيف أن نظرية التصميم الذكي يلزمه من قبولها (على صيغها التي حررها بيهي في كتابه الصندوق الأسود وغيره) تصحيح العشواء الداروينية الوجودية نفسها التي زعم أنه يناهضها! فالحمد لله الذي أشهده على نفسه في هذا الكلام بما ألزمناه به مرارا وتكرارا في هذا الكتاب من التلبس بالعشواء الوجودية الدهرية التي لا مفر لكل قائل بالتطور الدارويني من اعتناقها!

الرجل يصرح بأن الصانع الذي يؤمن به لا يصح أن يكون قد خلق العالم على أحسن وأكمل ما يحصل به مقصوده من خلقه من أول يوم، كما في قوله تعالى: ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ)) [الملك : 3]، لأنه لو قدر أن كان قد خلقه كذلك من الابتداء، كاملا لا نقص فيه ولا عيب بحال من الأحوال، لما كان من وجه للمضي في تطويره وترقيته (كما يزعم أنه جار الآن)! والمعنى نفسه يقال في آدم عليه السلام، كما في قوله: ((لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)) [التين : 4]، إذ يقال له: أحسن تقويم هذا حصل عندك كما أخبر رب العالمين أم لم يحصل؟ فإن قال حصل، بطل قوله باطراد التطور إلى الآن، وإن قال لم يحصل، تلبس بالرد على القرآن! والحال أن الرجل مؤمن بأن الكون كان ولم يزل "يتطور"، فما المخرج إذن؟ لا مخرج إلا السعي في التلبيس على المسلمين بإيهامهم بأن الخلق بالتطوير من أصول منحطة، أكمل وأليق برب العالمين من أن يخلق العالم من أول يوم على أكمل ما تحصل به الغايات والمقاصد الإلهية من خلقه!

فكيف يبدأ في تحقيق ذلك المطلب؟ بإلهاء الناس بفلسفة المعلوماتية الكونية هذه، التي تثبت شيئا وجوديا غير مادي يملأ العالم اسمه المعلومات، وتوجب أن يكون مصدره ذكاء غير مادي مثله! فلا علاقة للنظرية بالكيفية التي جرت عليها تلك "المعلومات" ولا بالكيفية التي خلق بها العالم، والظاهر أنه يتوهم أنها لا علاقة لها بصفة المصدر الذكي الذي تثبته ولا تقتضي فيها إثباتا أو نفيا! والواقع أنها تقتضي من التعطيل في صفات الباري ما لا يقل فسادا عن مقتضيات نظرية التصميم الذكي (التي ما فر منها إلا لميل أصحابها إلى القول بكمال العالم بزعمه، والله المستعان!)! فمن أبى إلا أن يتخذ تلك النظرية طريقا لإثبات الصانع السبينوزي أو الأينشتايني، أو الصانع الأرسطي (العقل الفعال الذي لا صفة له إلا أنه العقل الذي انبثق منه العالم ولم يزل ينبثق من الأزل) مثلا، ما فلن يجد فيها ما يمنعه من ذلك أو يوقعه في شيء من التناقض! بل سيأتي معك بحول الله تعالى في هذا المبحث بسط الكلام على اللوازم الاتحادية الخبيثة في تلك النظرية، وموقف الدكتور منها، والله المستعان! ولا أكاد أرتاب ولا يساورني الشك في أن الدكتور قد بات يدرك أن القول بوحدة الوجود الطبيعية هو الأليق بتلك الخلطة الميتافزيقية الطبيعية الخبيثة التي لم يزل يطبخها في كتبه طبخا، ولكنه لا يجرؤ على التصريح بذلك!

فقوله في النقائص المزعومة في خلق الله تعالى للكون، الملجئة (في دينه) للتطوير: "وفي نفس الوقت فهو يدل على احتياج منظومة الوجود إلى مصدر معلوماتي مطلق الذكاء"، هذا هو غاية ما أمسى الدكتور يريده حتى يصحح ميتافزيقاه التطورية! فنظام العالم لابد عنده أن يكون ناقصا مفتقرا إلى التطوير، حتى يكون "محتاجا" إلى ربوبية الرب "مطلق الذكاء"، وإلا كان الرب لا عمل له! وهذا الكلام باطل قطعا، إذ لو كان حقا "مطلق الذكاء" كما يزعم أنه يعتقده، لما جعل الأصل في صنعته أنه يخلق النوع ناقصا عن أكمل ما يرام في صفته وهيئته حتى يأتيه التطوير بعد التطوير!

ولا يلزمنا تعطيل الرب عن العمل كما يعرض بكلامه، إن قلنا بأن كل نوع يخلق كاملا فيما تحصل به غايات باريه من خلقه من أول يوم بلا تحسين أو تطوير نوعي، بل إنه هو الذي يلزمه بتطوريته تلك تعطيل باريه عن العمل في خلقه على التحقيق، وليس من يقولون بكمال الخلق! ذلك أن ربوبية الباري سبحانه ليست تكميلا لنقائص وقعت في خلقه الأول، أو إصلاحا لمفاسد لم يمكنه أن يجتنبها بأن يخلق الخلق على أكمل وأضبط ما ينبغي من أول يوم، سبحانه وتعالى علوا كبيرا عن تلك المذمة وعن ذلك التشبيه بالصانعين من خلقه! وإنما تتجلى ربوبيته سبحانه في كمال الخلق وتمامه وانضباط كل شيء فيه في موضعه الصحيح بقدره الدقيق بلا زيادة ولا

نقصان، وفي كونه سبحانه كان ولم يزل يقوم على أمر العالم يمسكه أن يزول، بما فيه من طبائع مركبة في الأشياء وسنن لتأثيرات تلك الطبائع وغير ذلك من أمور لا يحصيها فيه أحد سواه سبحانه، فلا يقع فيه شيء إلا بأمره النازل على ملائكته جل شأنه! فهو كامل في الخلق، كامل في القيام به وبأمره سبحانه، لا يخلق المخلوق إلا على أكمل ما يتم به المقصود من خلقه من أول يوم! فإن لم يكن ذلك الكمال في تحقيق الغايات والمقاصد الإلهية حاصلا إلا بأن يخلق هذا المخلوق المعين أو ذاك على هيئة أنقص من غيره من نظائره في عادتنا، كما يكون في الفرد الواحد يخلق فاقدا لعضو من الأعضاء التي لا يكمل خلق الفرد من نوعه إلا بها، لزم أن يخلق ذلك الفرد ناقصا معيبا بذلك العيب بعينه لا بغيره، وكان خلقه سالما من ذلك العيب – إن قدرنا وقوعه - نقصا مناقضا لكمال الحكمة الإلهية! أما أن يخلق النوع نفسه ناقصا أو قاصرا (في صفاته النوعية) على نحو يلجئ إلى تحسينه وتطويره والتعديل عليه خطوة بعد خطوة، فهذا دأب الجاهل العاجز فيما يصنع، وهو نقص عظيم يتنزه عنه سبحانه! [5]

هذا هو الكمال الذي يجب على كل مسلم عاقل أن يثبته لربه سبحانه في صفة الخلق والبرء والتصوير! ولكن الدكتور لا يريد ذلك الكمال ولا يثبته لربه كما تقدم، وإنما يريد عالما قد ركبت فيه "معلومات تطورية" ثم حفظت فيه سنن التطور المزعوم لتمضي قصته ابتداء من أحط البدايات وأغرقها في العبثية والفوضوية كما جاء في أسطورة التطور الكوزمولوجي وأسطورة النشأة البيولوجية بحذافيرهما عند الطبيعيين الأكاديميين، على نحو يزعم أنه إنما يظهر في العالم منجما على حوادث متتابعة (فيما نتوهم نحن تتابعه بإدراكنا الذهني) بسبب "تدخل الإله" المستمر في نظام الطبيعة بالترجيح الكوانطي (بحسب أسلمته هو وصاحبه محمد باسل الطائي لتأويل كوبنهاغن كما مر التعليق عليه في محله)!

ظلمات بعضها فوق بعض، نسأل الله السلامة!

ثم إنه يصرح كما ترى بأن حجية نظرية التصميم الذكي تسقط إن قيل "باتصاف منظومة الوجود بالكمال"، وهو ما يعني إدراكه لوجوب ثبوت العنصر العشوائي ليكون مقدمة يتأسس عليها "برهان التصميم الذكي" كما سماه في كتابه "كيف بدأ الخلق"، إذ لا تعرف النظم غير القابلة للاختزال عند بيهي، إلا بمقارنتها تجريبيا بنظم قابلة للاختزال، أي موصوفة بأنها نتاج بدايات ناقصة منحطة لم تزل تتطور على آليات داروين! فإذا كان ذلك كذلك، تبين لك تناقض الدكتور إذ ظن أن التصميم الذكي عند بيهي وديبمسكي يدعم موقفه في نفي العشوائية الوجودية عن دعوى تطور الأنواع كلها من أصل مشترك!

والعجيب أن الدكتور يزعم أن "المعلوماتية" كما يسميها قد صارت هي الأنموذج المعرفي الجديد المعتمد عند الطبيعيين المعاصرين Normal Science أو البارادايم الحالي في مختلف العلوم الطبيعية، وهذه أماني وأوهام ولا شك! قال في كتابه المذكور (ص. 20): "وفي الباب الثاني تحت عنوان "المعلوماتية" نناقش المعلوماتية باعتبارها النموذج المعرفي الجديد الذي استقر عليه العلم في النظر إلى البنية الأساسية للوجود." اهـ. والحق أن كلام من نقل عنهم الدكتور من الفيزيائيين ومن شاكلهم في ميتافزيقا المعلومات ليس إلا تأملات فردية، لا تأثير لها على "البارادايم" السائد عند الأكاديميين الغربيين (وهو تابعهم المخلص الوفي!) فيما يتعلق بالبنية الأساسية أو المكون الأساسي الذي تتركب منه موجودات العالم. ونظرية غيت هذه التي فرح بها لا يلتفت إليها أحد منهم البتة، بل ولا التفت إليها حتى كبار فلاسفة اللاهوت النصراني في أمريكا وأوروبا ولا دعوا إليها ولا أشاروا إليها ولو إشارة!

والدكتور كما لا يخفى، لا يفرق بين مسمى البارادايم الميتافزيقي Metaphysical Paradigm ومسمى النظرية الكلية الميتافزيقية Metaphysical Theory! فلا يلزم من ظهور نظرية ميتافزيقية معينة واستحسان كثير من الباحثين والمنظرين لها، أن تتحول تلك النظرية إلى بارادايم أكاديمي تستمد منه الأصول النظامية الكلية لكافة ممارسات البحث والتجريب والتنظير في ذلك المجال الذي ينتمون إليه، أي تصبح هي أساس العلم المعياري Normal Science في ذلك المجال، كما عبر عنه كوون! ففي مستهل القرن الميلادي العشرين، وفي سنة 1905 الميلادية يوم وضع أينشتاين نسبيته الخاصة، ونشرها في الأوساط الأكاديمية رسميا، لم تكن فلسفته الميتافزيقية في حقيقة الزمان والمكان والزمكان الوجودي الخفي المزعوم قد بلغت أن تكون هي البارادايم السائد في ميتافزيقا العالم كما هي الآن، وإنما كانت نظريته الفردية التي أخذت خلال العقود التالية في اكتساب مزيد من الرواج والشعبية حتى لم يكد يمر نصف القرن العشرين الميلادي وقد صارت هي بالفعل التصور الوجودي السائد للزمان والمكان والعلاقة الرابطة بينهما! وإنما صارت "بارادايم" ذا سلطان شامل عند الطبيعيين لا مجرد نظرية مستقلة، بعدما تتابعت أقلام الأقران على التأسيس على تعريفاتها الميتافزيقية الكلية، لا سيما بعد أن قامت عليها كوزمولوجيا الانفجار الكبير على يد الراهب جورج ليميترا في العشرينيات! فلا يقال إن البارادايم السائد أكاديميا قد تحول أو تبدل، إلا إذا تم للنظرية الميتافزيقية نظير ما تم لميتافزيقا أينشتاين من صيرورة تعريفاتها وتصوراتها الوجودية الكلية هي الأساس في تنظير الأقران كافة! وما حصل نظيره من قبل للميتافزيقة الميكانيكية النيوتونية خلال العقود التي أعقبت

ظهورها! فحينئذ، وحينئذ فقط، يقال إن "ثورة علمية" ما (على حد اصطلاح توماس كوون الذي لم يحسن الدكتور فهم كلامه) قد وقعت واستتب أمرها!

وواقع الأمر أن "فيرنر غيت" هذا، المهندس الألماني صاحب تلك النظرية، الذي رفعه الدكتور إلى عنان السماء، وعده من جملة مجددي العلوم أصحاب الثورات العلمية الكبرى، لا يختلف عن الدكتور كثيرا في كونه عاميا في فلسفة العلم وفي أصول الطريقة التجريبية، ومع ذلك اقتنص الدكتور كتابه واستند إليه للسبب الذي تقدم نقله من كلامه، ولأن فيه – كما يأتي - ما يخدم غايته الاتحادية الصوفية الطبيعية، والله المستعان!

فمثلا يعرّف غيت في محاضرة له مرفوعة على اليوتيوب، القانون الطبيعي Law of Nature كما يلي: "تقريرات دقيقة مبنية على اكتشافات جرت من خلال الملاحظة والتجريب، وتم تأكيدها Verified بصورة تكرارية، ولم تنقض في يوم من الأيام Never Contradicted." وهذا التعريف لا قائل به قبله، ولا ينطبق على شيء مما بين أيدي الطبيعيين مما يقال له "قانون طبيعي" Law of Nature، لا في العلوم الطبيعية ولا الإنسانية ولا أي علم من العلوم التجريبية! فصحيح أن القوانين الطبيعية هي تقريرات مبنية على الملاحظة والتجريب، وصحيح إنها تم تأكيدها وتعضيدها بالمشاهدة بعد المشاهدة، إلا أنه لا يصح أن يقال أو يشترط في تعريفها أنها لم تنقض في يوم من الأيام! ولا أدري كيف لم ينتبه – وهو من أشد المعادين النصارى لنظرية التطور تدينا - إلى كون ذلك التعريف يمنع من وقوع المعجزات التي هي على دينهم: خرق لقانون الطبيعة!

والصواب أن يقال في الدعوى القانونية الطبيعية إنها أي وصف لعلاقة نظامية مطردة Regularity بحيث إذا حصلت حوادث معينة أو ظهرت أحوال معينة لشيء ما تحت ظروف وشروط معينة، توقعنا بأرجحية قوية أن تحصل حوادث أخرى ملازمة لها، أو أن تظهر أحوال أخرى ملازمة لها. وبنحو هذا الذي ذكرنا، قال عامة أصحاب المعاجم والموسوعات الفلسفية المعاصرة! وقد تكون الدعوى المطردة أقل حظا في توارد المشاهدات على تعضيدها، أو أكثر تعرضا لمداخل الإجمال Ambiguity في صياغتها، أو أوسع نطاقا More Universal مما يدعمه استقراء العادة عند من وضعه، فلا يزيد على أن يقال إنه شبه قانوني Lawlike! وانتبه إلى أننا نقول "الدعوى القانونية الطبيعية" Claim of Natural Law أو Lawlike Claim حتى نؤكد على أن المقصود بالتعريف إنما هو ما يظن الباحث التجريبي قانونيته، فيطرده على الواقع في حدود علمه، وإلى غاية ما تنتهي إليه عادته وتجربته، وغاية ما يبلغه الباحث في ذلك، في أحسن الأحوال، ومهما أصاب في وصفه الواقع هو التقريب Approximation، لا أكثر!

ولكن لأن غيت هذا يريد أن يؤسس دعوى قانونية طبيعية جديدة يتخذها مستندا طبيعيا لإثبات الصانع إثباتا ضروريا Necessary Proof، على طريقة أصحاب اللاهوت الطبيعي والكلام الطبيعي، كان من غير المقبول أن يتصور لدعواه القانونية انخراما ولو من باب الإمكان، وإلا جاز أن يقال له إن قانونك هذا ينطبق على جميع أفراد مقدمة قياسك الشمولي إلا الفرد المعين الذي تريد أن تثبت دخوله تحته، فلا نسلم لك بالقياس فيه، من غير أن نتهم بالتناقض في ذلك! ففي مستهل محاضرة من محاضراته يقول غيت:

> كيف نبطل الأفكار الباطلة في العلم التجريبي؟ دعوني أبدأ بمثل من الرياضيات. ترون هذه المعادلة ؟ هذه المعادة باطلة، لأن قانونا من قوانين الرياضيات قد خولف Violated! والمعادلة الصحيحة هي هذه: ! هذا مهم جدا في العلم Science، أن نعرف ما هو الوضع الغلط وما هو الوضع الصحيح. دعوني أضرب مثلا آخر في الفيزياء. المياه تجري إلى أعلى في مسار منحدر، ثم تنتهي إلى النزول في شلال (لترجع إلى نقطة ابتداء المسار لتجري فيه من جديد إلى أعلى وصولا للشلال وهكذا)! فهل هذا ممكن أم لا؟ هذا باطل False لأن قانون حفظ الطاقة قد خولف! فهي عملية مستحيلة. أو مثال آخر من الكيمياء. ترون هنا معادلة تفاعل كيميائي $NaOH + HCL = NaCl + H_3O$ والمعادلة باطلة لأن قانون stoichiometry قد خولف، ترون في المعادلة مكتوبا H_3O والصواب أن تكون H_2O! والآن دعوني أصل إلى مثال من البيولوجيا! "تطور الإنسان على أثر عملية ارتقاء طويلة". وهذا غلط، لأن قانونا معينا قد خولف! ولكن السؤال هو: هل لدينا هذا القانون؟؟ سوف نكتشف معا قوانين الطبيعة التي تعطينا الجواب الصحيح! هذا ما أريد أن أعرضه عليكم في هذه المحاضرة.

قلت: هذا الجمع للأمثلة يكشف لك اختلاط مفهوم الرجل للقانون الطبيعي، وأنه ليس من أهل هذا الشأن أصلا! فأولا ليست الرياضيات علما تجريبيا Empirical Science! وإنما يعتمد أصحاب العلوم التجريبية شيئا اسمه الدليل أو الاستدلال التجريبي أو الطريقة التجريبية Empirical Evidence / Empirical Argument / Empirical Method /، وهي طريقة في محاولة اكتساب المعرفة بشأن الواقع الخارجي تعتمد على تأويل المشاهدات المتحصل عليها بطريقة نظامية Systematic Observation، فالكيمياء مثلا موضوعها استكشاف أنواع المواد وأحوالها وطبائعها وما تتركب منه وما يقع بينها من تفاعلات وتأثيرات متبادلة. فكان لزاما أن يصبح

الاستدلال بالمشاهدة النظامية الممنهجة، واستقراء نتائجها ووضع الفرضيات لتفسيرها، ركنا ركينا في تلك الصنعة الطبيعية، إذ لا يوصل إلى نوال ذلك المطلب المعرفي إلا من ذلك الطريق! والفيزياء تجري تحتها عشرات بل مئات الموضوعات الفرعية التي ترجع كلها – إجمالا – إلى البحث في طبائع الأشياء، والنظم السببية الطبيعية، وهو ما يلجئ الفيزيائي – مهما صال وجال بعقله في النمذجة النظرية والرياضية – لاستعمال المدخلات الحسية المنظمة! ومع أن بعض فروع ومجالات البحث الفيزيائي قد تكون أكثر تعويلا على التجريب والمشاهدة من غيرها، إلا أنها لا يقال لها "الفيزياء التجريبية" أو "الإمبريقية" وإنما يقال الفيزياء التطبيقية Applied Physics، تمييزا لها عن الفيزياء النظرية Theoretical Physics! [6]

ولهذا قلنا في غير موضع إن الطريقة التجريبية ليست هي العلم الطبيعي، وإنما هي من الطرق التي يستعان بها في العلوم الطبيعية، وهي الطريقة التي أسسها العرب المسلمون كما بينا، مستصحبين في ذلك مبدأ التسخير الإلهي، واغتصبها الفلاسفة الطبيعيون أصحاب الأكاديمية الغربية المؤسسة على قواعد فلاسفة اليونان، فأصبحت تستعمل في خدمة مطالب نفعية صحيحة مستحسنة تارة، وفي خدمة فلسفات الطبيعيين وعقائدهم الغيبية تارات وتارات، يطلبون منها ما لا يجوز – في العقل ولا في النقل – استعمالها في إثباته أو نفيه البتة! فترى التجارب والمراصد تصمم وتنفق فيها الأموال الطائلة في سبيل إثبات صحة فرضيات غيبية محضة في علوم طبيعية زائفة لا ينفع فيها التجريب والحس ولا يشبع ولا يغني من جوع! وهو أمر ما عرفه العرب والمسلمون إلا بعدما صاروا يستوردون العلوم الطبيعية من أكاديميات الغرب في القرون المتأخرة، والله المستعان!

فالمثل الأول في كلام غيت ليس علما تجريبيا البتة، وليس قانونا طبيعيا أصلا، وإنما هو قانون رياضي قَبلي A-Priori Mathematical Rule، يثبت بالمنطق الصناعي Synthetic Logic، فتعرف صحته وجوبا بمجرد تطبيق جملة من القواعد الصناعية البدهية! فإذا جاء أحدهم بخارق لذلك القانون، كان غلطه ظاهرا بداهة، باديا ضرورة، ولم يكن له أن ينتصر لنفسه أو لموقفه! وأما المثال الثاني، فليس بطلان الدعوى فيه ضرورة عقلية قبلية كما في المثال الأول! وإنما نرد تلك الدعوى لما فيها من خرم للعادة التي وصفها الطبائعيون بقانون واحد أو أكثر، مع الإقرار بالجواز العقلي لأن تصح في يوم من الأيام! ولهذا يصح أن يقال في المثال الأول إن الدعوى باطلة False على اصطلاح الفلاسفة المعاصرين، ولا يصح في المثال الثاني أن يقال False ولكن يقال إن مطابقتها الواقع ضئيلة الاحتمالية للغاية Highly Improbable / Unlikely.

والعجيب أن غيت يتكلف في كتابه (ص. 40) تصنيفا للقوانين الطبيعية من حيث ما سماه بأساسيتها Fundamentality، فيقول إن من القوانين ما ينطبق على جميع الجزيئات التي تتركب منها المادة، كقانون الطاقة بزعمه، فيستحيل انخرامه استحالة مطلقة، خلافا لفئة أخرى سماها بالقوانين الإحصائية، أي التي يتصور اختصاص بعض الجزيئات بها دون بعض، ويضرق المثل عليها بعملية التآكل الإشعاعي Radioactive Decay، وهذه مغالطة ولا شك، إذ جميع القوانين الطبيعية في معرفة أصحابها إنما تقوم على تعميم الاستقراء Generalizing indiction على النوع محل ثبوت النظامية المزعومة claimed regularity، فإن كان الاستقراء مستغرقا (ولا أقول تاما) كان انخرامه أضعف (احتماليا) بكثير مما هو دونه في قوة الثبوت الاستقرائي، ولكن يظل ثبوت هذا وذاك ثبوتا احتماليا لا ضروريا Necessary، إلا إن سمينا اطراد العادة بثبوت تلك القوانين ضرورة طبيعية Natural Necessity خلافا للضرورة العقلية Rational Necessity، مع تقرير أن الضرورة الطبيعية ليس انخرامها من المحالات كما هو الشأن في الضرورة العقلية! والقصد أن غيت يخلط في المفاهيم الأساسية للقوانين Laws والمبرهنات Theorems والنظريات Theories تخليطا واسعا!

وفي محاضرة أخرى يضرب غيت المثل على أن ما يسميه بالمعلومات هو شيء وجودي عيني غير مادي أو على عبارته "ليس جزءا من المادة" بتجربة تخيلية Thought Experiment إذ يقول إننا لو جئنا بروبوت يمشي على أرجل آلية، وكان مركبا فيه حاسوب صغير مبرمج ببرنامج فيه كافة المعلومات التي تعرف ذلك الروبوت كيف يمشي، فلو أننا قمنا بمحو ذلك البرنامج من ذاكرة الروبوت، فلن يبقى فيه ما يجعله يقوم بالوظيفة التي من أجلها صنع! فقال: لو أننا قارنا وزن الروبوت قبل محو البرنامج وبعد المحو، لوجدناه كما هو. وإذن نستنج أن المحتوى المعلوماتي الذي محي من عليه، ليس له وزن ولا كتلة، بالمفهوم الفيزيائي للوزن والكتلة! ويقال لهذا: أنت قفزت إلى نسبة الصفات الفيزيائية لما سميته بالمحتوى المعلوماتي، بوصفه عنصرا أوليا للوجود Fundamental Element كالمادة والطاقة عند الفيزيائيين، من قبل أن تعرفه تعريفا واضحا يجعل للكلام عليه قيمة ومعنى! فلا شك أن أي ترتيب مخصوص لموجودات مخصوصة على نحو مخصوص، إنما يكون جاريا على غاية وقصد ما عند من قام بذلك الترتيب، فيكون لدى صاحب ذلك الترتيب "معلومات" عنده بالقصد والغاية والأسباب التي يخضع لها ذلك النظام والأسباب التي بها يسلك المسلك المراد منه لا غيره.

فإن كان هذا هو المقصود بالمعلومات، فليس لها وجود إلا في نفس صانع الروبوت وذهنه، وليس لها وجود عيني أصلا (لا مادي ولا غيره) حتى نجري تجربة لننظر هل "المعلومات" لها وزن وكتلة أم لا! فالبرنامج الحاسوبي، بناء على هذا الترتيب، ليس هو المعلومات نفسها، وليس هو عليما بتلك المعلومات ولا مدركا لها ولا هي "معلومات له"، ولا ثم من أعلمه بها Informed it، ولا شيء من ذلك! وإنما هو ترتيب مخصوص لوحدات كهربية دقيقة Bits محفوظة كإشارات كهربية ثابتة في شريحة من أشباه الموصلات، متصلة بجهاز مخصص للتعامل معها (الحاسوب)، بحيث كلما مرت آلة ذلك الجهاز على ذلك الترتيب في الشريحة، انطلقت إشارات الكهرباء منه إلى أجهزة مخصوصة لتجعلها تسلك سلوكا مخصوصا، بما يجري جميعه على طبائع المواد وأسبابها!

فما الذي يحدث (فيزيائيا) عندما نمسح البرنامج من على الشريحة؟ يتغير ترتيب الشحنات على الشريحة لتصبح على نحو لو قرأه الحاسوب لم يخرج منه بشيء! فإذا كان ذلك كذلك، فمن الطبيعي ألا يتغير وزن الروبوت لا بالزيادة ولا بالنقصان، اللهم إلا إن قست التغير في وزن مجموع الشحنات الكهربائية في أشباه الموصلات الذي ينشأ من تحول الشريحة من حال وجود البرمجة إلى حال عدمها! [7] فالمعلومات على هذا القياس ليست كيانا وجوديا في الأعيان، وإنما هي موجودة في ذهن المخلوق أو في علم الخالق، وإنما يوجد في الخارج نظام مخلوق فيه ترتيب للمادة على نحو مخصوص، بحيث يحصل منه بآلة مخصوصة، ترتيب معين للحوادث المطلوب حصولها من ذلك النظام كسلوك له، بناء على الطبائع المركبة في تلك المادة.

وإذن فالموجود العيني (أنطولوجيا المعلومات) ليس إلا ترتيب المخلوقات بناء على معلومات معينة عند من قام بذلك الترتيب، وهذه حقيقة كل مخلوق وكل مصنوع على أي حال، سواء كان نظامه جاريا على برمجة حاسوبية (نوعا) كنظام الدي إن إيه مثلا، أو لم يكن كذلك، فيقال إن أجزاءه ووظائفه مركبة ومرتبة كلها على ما هو حاصل سلفا في علم من خلقه أو صنعه (ما هو "معلوم لديه") من غايات يتوصل إليها بذاك النظام المصنوع بعينه دون غيره، ومن الطرق الموصلة لتلك الغايات! ومع ذلك يصر "غيت" ومن وافقوه ومن تابعوه على ميتافزيقا المعلومات عنده، على إثبات شيء وجودي غيبي مستقل في الخارج عن مادة النظام الحاسوبي نفسه، بحيث يكون هو "المعلومات غير المادية" التي بسببها صار برنامج النظام على ما هو عليه لا على غيره، ويكون ناشئا عن إرادة Will صاحب النظام وصانعه "الذكي"، وبحيث يكون كذلك – وانتبه - صفة للعالم نفسه (كمكون أساسي

لنظامه المخلوق) Fundamental Component بصورة ما أو بأخرى، كما أن المادة والطاقة من مكوناته الأساسية! فما هو ذلك الشيء الوجودي الغيبي الغامض Mystical Ontological Entity الذي يثبته القوم كمكون أساسي للعالم ولكل مخلوق فيه، وبأي سلطان قالوا به من طريقهم أو من غيره؟؟ هذه القضية مهمة للغاية، على دقتها، لما يترتب عليها من لوازم ومقتضيات غيبية فاسدة يأتي معك بيانها بحول الله وقوته عند التأمل في "قوانين المعلومات الكونية" هذه التي قررها غيت في كتابه وفرح بها الدكتور فرحا عظيما، والله المستعان!

فمن الواضح ابتداء أنه إذا جُعلت تلك المعلومات أمرا غير مادي موجودا في علم الصانع، وجعلت كذلك وفي نفس الوقت خصيصة أساسية من خصائص العالم Fundamental Property، منه خُلق كل شيء فيه، لزم أن يكون علم الصانع (الذي هو صفة ذاتية له) صفة للعالم المصنوع كذلك، أو عنصرا وجوديا من عناصره التي يتركب منها، وإذن لزم أن يكون الصانع هو عين المصنوع أو جزءا منه بصورة ما أو بأخرى، وهو مذهب وحدة الوجود الطبيعية Naturalistic Pantheism، فتأمل!! قال الدكتور عمرو في كتابه "المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر" (الذي لو صدق لسماه: المعلوماتية بدعة الربوبيين الكبرى!!) (ص. 209):

> ومن ثم تصبح منظومة الوجود كالآتي: (المعلومات ← قوانين الفيزياء ← المادة) إن هذه النظرة الجديدة إلى منظومة الوجود (في البدء كانت المعلومة) قادرة على أن تجيب عن كل ما طرحنا في هذا الفصل من تساؤلات حول قوانين الطبيعة، المعلوماتية: 1- تجيب عن السؤال: لماذا كانت القوانين هكذا؟ فالمعلومات قد شكلت قوانين الطبيعة قصدا على هذه الهيئة، 2- تفسر ما تتسم به قوانين الطبيعة من دقة وانضباط وقابلية للتغير، فالمعلومات التي شكلت قوانين الطبيعة قد حددت ذلك، 3- تفسر الارتباط بين الكون وبين قوانين الطبيعة، فالمعلومات حددت أن تتم نشأة الكون عن طريق قوانين الطبيعة، 4- هي "نافخ النار" [8] الذي فعل قوانين الطبيعة، وألزم الموجودات باتباعها والانقياد لها، 5- حددت القوانين الثابتة الأعلى التي شكلت هذا الكون، وربما أكوانا أخرى، وجعلت قوانينها على هذه الهيئة، 6- هي النموذج الأعلى الموجود خارج الزمان والمكان [9] (الأفلاطونية)، والذي صيغت قوانين الطبيعة تبعا له.

قلت: المعلومات هي التي شكلت القوانين، وقصدت تشكيلها، وحددت ذلك، و"نفخت النار" فيها، وألزمت الموجودات باتباعها والانقياد لها، وحددت

القوانين العليا التي خلق بها الكون، بل وأكوان أخرى، وهي – فوق ذلك كله – الموجود الأعلى "خارج الزمان والمكان"، الموصوف بأنه مطلق لانهائي في الكون، فبالله أي شيء تكون تلك المعلومات – إذن – في دين عمرو شريف ومن نقل عنه، إلا عين الرب الباري الذي هو خالق كل شيء؟؟ المعلومات التي هي المكون الأساسي (غير المادي) للعالم بحسب غيت، هي نفسها خالق العالم، وهي العقل الفعال الأرسطي، وعالم المثل الأفلاطوني، والمصمم الذكي التطويري عند دمبسكي، والوعي الكوني عند شيلدريك وبنروز، وكل ما ضربه فيلسوف من فلاسفة الغرب من خرف بشأن رب العالمين في يوم من الأيام، هي ذلك كله!! [10] فهذا أيها القارئ الكريم، هو شرك القائلين بوحدة الوجود الطبيعي، أولئك الدهرية القائلين بمنبع وجودي كلي لنظام العالم، هو من العالم نفسه كأصل بنيته الأولية الذي يقوم عليه ونهاية سلم الأسباب فيه، أولئك الفلاسفة الذين جاء عمرو شريف بدينهم ينقله عنهم نقل التلميذ المقلد، لينشره في المسلمين على أنه هو "برهان الربوبية الأكبر"، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

فالمعلومات هذه على عقيدة الدكتور، شيء وجودي غير مادي محايث للعالم، مبثوث في جميع موجاته الكمومية، تترجح به أحوالها وتنهار به موجات الاحتمالات الوجودية المزعومة على ما يوافق قوانين نيوتن وأينشتاين في كل مرة، تحت تأثير عين الراصد البشري، كما في تأويل كوبنهاغن، فإذا ما حصل الرصد تجسدت تلك المعلومات فصارت هي مادة العالم، فماذا كانت قبل الرصد إذن، وإلى أي شيء صارت بعده؟ علم الله الذي هو صفته سبحانه؟ أم هي شيء من خلق الله، قياسا على "بتات" الحاسوب بشري الصنع، أم هي جملة المعارف التي تتراكم لدى البشر في أذهانهم؟ [11] أم أي شيء هي على دينه؟ الكلام كما ترى مداره على إحدى خصلتين لا ثالثة لهما، إما أن تكون هي الله نفسه أو صفة من صفاته، وإذن كان المذهب الذي يدعو إليه الدكتور (تحت اسم الطبيعية المتألهة Theistic Naturalism) اتحادا طبيعيا Naturalistic Pantheism، وإما أن تكون شيئا قد خلقه الباري وترك له أمر العالم بكليته، وإذن فهي الخالق الفعلي، والمكون الآمر صاحب القصد والإرادة والفعل من دونه، ولا يزيد هو على أن يكون صانعها ومبتدئها (ويدخل في ذلك القول بجعلها هي معلومات الإنسان نفسه)، وإذن كان الدين الذي يدعونا إليه هو شرك الربوبيين الطبيعيين Naturalistic Deism، لا ثالث لهذين الاعتقادين، وكلاهما كفر محض، والدكتور يجمع بين ما يقتضيهما جميعا على تقلب واضطراب ظاهر كما ترى، ولهذا نسبناه إلى مقالة الربوبية الاتحاديين الطبيعيين المتألهين Pandeistic Naturalistic Theists.

هذا مع أنه يقول بما حاصله أن تلك المعلومات التي خلقت العالم كله وبها قيام كل شيء ونظامه، هي مصدر نظام "موجة الاحتمالات"، التي لا تترجح لها حالة على حالة إلا في وعي الإنسان وإدراكه، وذلك تمشيا مع الكوزمولوجيا الغالبة على الدهرية المعاصرين، القائلة بأن الانفجار الكبير إنما وقع بكل تفصيلاته بسبب تقلب كمومي Quantum Fluctuation في شيء وجودي كمومي كان متقدما على وجود العالم الفزيقي الذي نعرفه! وهذا القول يقتضي جعل الإنسان شريكا للباري في صنع العالم نفسه (وللمعلومات كذلك على القول بمخلوقيتها)، إذ لا يُخلق شيء في الوجود إلا ما يقيسه الراصد حين يرصده ويقع في وعيه (بناء على تأويل كوبنهاغن لميكانيكا الكم)، مع جعل المعلومات هذه صفة للصانع والمصنوع جميعا كما تقدم! أي أن المعلومات الإلهية (التي هي على هذا القول الموجة الكمومية، أو للدقة: احتمالاتها وما هو راجح منها) لا تصبح هي عين العالم ونظامه تحقيقا (وهو ما يعبر عنه الدكتور "بالتجسد") إلا بأن يجعلها الراصد البشري كذلك، وإذن يصبح وعي الإنسان الراصد، والمعلومات التي حصلت له عند الرصد، هما خالق العالم على التحقيق، فلا تخلق تلك المعلومات شيئا إلا بعدما يرصدها الراصد الذي يكون إذن شريكها في الخلق والتكوين، فيجسدها ويصيرها بمجرد الرصد أمرا ماديا حادثا مخلوقا، نسأل الله السلامة! [12]

ثم إننا بالتأمل في القياس البرمجي أو الحاسوبي هذا الذي أسس عليه "غيت" ميتافزيقاه، نقول إنه لا يكون النظام المخلوق موصوفا "بالمعلوماتية" (على قول غيت إن المعلومات هي ما يكون على القرص الصلب للكمبيوتر في الروبوت، بحيث إن محوناها فقد الروبوت وظيفته)، إلا أن يكون قد ثبت أن فيه آلة معينة تقرأ ترتيب تلك المادة المرتبة على نظام مخصوص بما يسميه الرجل "بالمعلومات"، كالشحنات الكهربية المرتبة على هيئة سلسلة من تكرار الواحد والصفر يقرؤها معالج الكمبيوتر من على سطح القرص الصلب! وإذن فلابد – على مقتضى القياس - من شيء يناظر القرص الصلب المسجلة عليه المعلومات (في كونه وسيطا حاملا)، وشيء يناظر المعالج الذي يقرأ تلك المعلومات، ووحدات منفصلة من مادة ما ترتب ترتيبا معينا على القرص الصلب أو ما يناظره، بحيث إذا ما قرأه المعالج تسبب في إحداث الحوادث المطلوبة على الترتيب المطلوب، وهو ما يتحصل به موضوع "المعلومات" ويتحقق برنامجها في النظام بكليته!

فبأي عقل وبأي دليل يقال إن "المعلومات" مكون أساسي في كل موجود من موجودات العالم، وأنه لا يجري فيه نظام سببي مطرد إلا بالمعلومات و"القوانين الطبيعية للمعلومات" (على حد عبارة غيت في مقدمة كتابه)، بل

لا يحدث فيه حادث إلا بالمعلومات المبرمجة سلفا، جريا على هذا القياس الحاسوبي الساذج؟ بأي سلطان يقال إن الله تعالى ما خلق العالم بكليته إلا كحاسوب كبير، كما سماه الدكتور عمرو (تبعا لمن قلدهم) "بالحاسوب الكمومي" Quantum Computer كل نظام فيه يعمل عمل البرنامج الحاسوبي، الذي تمثل مادته بدورها حاسوبا أدق تجري عليه برامج أدق نزولا من حاسوب المجرة إلى حواسب الذرات والكواركات، حتى يقال إن الصواب أن يقال "في البدء كانت المعلومة" وليس "في البدء كانت الكلمة" كما جاء في سفر التكوين؟؟ الكلمة (التي هي على ديننا كلمة "كن") ليست هي عين المعلومة على أيما وجه ذهب غيت في أنطولوجيا المعلومات لديه كما هو واضح، فمن أين له بهذا الزعم في الكيفية التي بدأ الله بها خلق العالم بكليته؟ هل على دينه أن كلمة التكوين إنما هي بيتات Bits كتبها الباري على قرص صلب في مكان ما في الغيب، مثلا، ثم خلق آلة تقرأها وتطبقها حاسوبيا؟؟ أي هراء هذا؟؟ وبأي سلطان يقال إنني أنا وأنت – أيها القارئ الكريم – والدكتور وغيرنا من البشر، برامج حاسوبية خلقت بالبرمجة على حاسوب عملاق؟؟ وما الفرق - ميتافزيقيا - بين هذا القياس الهزلي السخيف، وبين قول من يقول إننا كلنا لا نعدو أن نكون عناصر برمجية في محاكاة حاسوبية عملاقة Simulation على غرار لعبة Simcity صممها طالب من الطلبة المنتمين لنوع من المخلوقات الفضائية الأعظم تطورا في العقل والعلم، في معمل من معامل المدرسة التي يتعلم فيها؟

يعجن الدكتور عقائد الفلاسفة الدهرية المعاصرين في الغيبيات من الربوبية والاتحادية وغيرهم عجنا، يضرب بعضها في بعض ضربا من أوهى ما يتصور في كتابات الفلاسفة وأشباههم كما ترى، بما يصل به إلى اختزال خالقه وباريه في "مبرمج ذكي"، صنع حاسوبا عملاقا ثم برمجه ببرنامج عملاق، ثم تركه ليعمل استقلالا بقوة تلك المعلومات المخلوقة اللامادية الجبارة والوعي الكوني الجبار، وهو في نفس الوقت متحد معه "لاماديا"، ماثل تحت كل جسيم من جسيماته في المستوى الكمومي يرجح "بالتدخل الإلهي المستمر والآني" بين احتمالات الموجات الاحتمالية المزعومة، بما يجري على حسب تلك المعلومات، فليست تلك هي والوعي الكوني المزعوم إلا أعظم خلقه الذي هو في نفس الوقت صفته هو نفسه! فهو إله الربوبيين وهو نفسه – في نفس الوقت! – إله الاتحاديين، وهو كذلك – وسبحان الله! – إله المسلمين!! وهو في دينه خالق المعلومات ومصدرها، وهي كذلك صفته الذاتية التي لا يثبت له وجود ولا فعل ولا علم ولا إرادة إلا بها! يجمع الرجل بين الملل الطبيعية فيما ينقل عن أصحابها في نقولات مطولة لا يبالي بما فيها من كفر وشرك وإلحاد، وما في ذلك الجمع من تناقض صارخ،

ثم يأتي في نهاية الفصل ويقول في سخافة قلّ نظيرها: "سبحانك ربي، رب العزة عما يصفون!!" قلت بل سبحانه وتعالى علوا كبيرا عما تصف أنت وأمثالك ومن نقلت عنهم يا عدو نفسك! فصدق والله الذي قال، بأبي هو وأمي، "إذا لم تستح فاصنع ما شئت"!

تأمل إلى أي اعتقاد خرافي هزلي صار هذا الرجل من كبره وإصراره على التمسك بعقيدة التطور الدارويني الموجه والزعم بأنها لا تخالف اعتقاد المسلمين في صفة باريهم وفعله، وبأنها هي العلم الذي لا علم بعده، وقل الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من الناس! بدأ الرجل في كتبه الأولى باحثا بيولوجيا جهميا داروينيا، ثم صار فيلسوفا ربوبيا اتحاديا زنديقا، ثم الله أعلم إلى أي شيء ينقلب غدا، وعلى أي ملة يختم له، في "رحلة العقل" التي جمع لها الأتباع ألوفا مؤلفة على صفحته في الفيس بوك، نسأل الله السلامة! هذه هي نهاية من أبى إلا أن يؤسس اعتقاده في صفات الباري وأفعاله على نظريات وخرافات وأوهام الفلاسفة في غيب الزمان والمكان، كما هو منهج الدكتور وغاية "مشروعه الفكري"، فتدبروا يا أولي الألباب!

قال غيت في كتابه (ص. 47) فيما سماه بالمبرهنة (1) Theorem 1: "القيمة الأساسية Fundamental Entity المسماة بالمعلومات Information هي كيان غير مادي (ذهني Mental). ليست هي خاصية للمادة، وإذن فجميع العمليات المادية الصرفة Purely Material Processes تستبعد تماما كمصادر للمعلومات." [13]

قلت: فما معنى أنها "ذهنية"؟ القسمة الصحيحة بإجماع العقلاء هي أن يقال "ذهنية" أو "عينية" (خارج الأذهان)، وليس "ذهنية" أو "مادية"! فالحقيقة الذهنية إنما تحصل في أذهان البشر أو غيرهم من المخلوقات إما من فطرة مركبة في نفوسهم ابتداء أو من أثر تعرضهم للواقع الخارجي، وإذن فليست هي عنصرا أساسيا "عينيا" (في الخارج) من عناصر الطبيعة كالمادة والطاقة! فإذا كان ذلك كذلك، فما معنى أن يقال إن جميع العمليات المادية الصرفة تستبعد تماما كمصادر للمعلومات؟؟ إذا كانت المعلومة هي الحقيقة الذهنية التي تطابق الحقيقة الواقعية (مادية كانت أو غير مادية) في نفس العالِم أو العارف بها، فلابد أن تكون العمليات المادية وغيرها وجميع الحوادث الواقعة تحت إدراك وحس ذلك الفرد الموصوف بالعلم أو المعرفة، من جملة "مصادر المعلومات" في حقه هو بعينه!

فإذا كانت المادة والطاقة وأحوالهما، وغير ذلك مما سواهما، إنما هي الأمور التي تصبح "معلومة" في ذهن العالم بها، من حيث المبدأ، فلا معنى إذن

للكلام عن "المعلومات" دون تعيين الكيان الموصوف بالعلم بها! وجميع نظريات المعلومات التي وضعت فيما قبل هذا الرجل، واستعان بها في كتابه، إنما وضعت في دراسة المعلومات البشرية، أي التي تحصل في نفوس البشر، ويقوم أصحابها – تبعا – بترميزها لإعداد تطبيقاتهم الحاسوبية ونحوها من نظم صناعية تستعمل الطبائع والسنن الطبيعية المعروفة للبشر في تشغيلها على نحو "مبرمج" ومرتب سلفا. هذا هو موضوع ما يعرف بنظرية المعلومات Information Theory بالأساس. ولكن لأن "غيت" يريد أن يقرر "قانونا طبيعيا" أو حقيقة كوزمولوجية خارجية (كصفة لازمة للعالم نفسه أو للطبيعة نفسها أو للكون نفسه) ينتصر بها على نظرية التطور، على غرار فلسفة ويليام دمبسكي وغيره، لزم ألا يكون محل المعلومات في تنظيره هو الذهن البشري، إذ الذهن البشري هو محل نظرية داروين نفسها كذلك وهو منبعها، والذي يقول إن ذهنه يرى العالم منظما مصمما، فخصمه يقول إن في ذهنه أن العالم دارويني! فالعبرة بما في الأعيان لا ما في الأذهان! لذا لم يجد "غيت" بدا من أن يجعل محل "المعلومات" هو العالم الخارجي نفسه، حتى يصح أن يقال إن قوانينها قوانين طبيعية Laws of Nature تتعارض مع فكرة التطور Evolution، ومن ثم يصبح إثباته بطلان التطور إثباتا علميا طبيعيا Scientific Falsification، جاريا على ما تفلسف في القسم الأول من كتابه ليجعله هو الحد الأدنى في معايير إبطال النظريات في العلوم التجريبية (إذ قال إن أقل معيار يثبت به بطلان نظرية ما، هو أن يتبين كونها مصادمة لقانون طبيعي ما)!

فخلاصة المسألة أنه يريد أن يقول إن في الأنواع الحية "معلومات" وجودية خارجية، تثبت لها بموجب قانون طبيعي مفاده كذا وكذا، ولا يمكن أن يكون لتلك المعلومات "مصدر" إلا الخالق الذي يثبته الكتاب المقدس عند النصارى، وإذن يثبت بطلان التطور! لهذا تحولت "المعلومات" من حقيقة ذهنية إلى حقيقة عينية في الخارج، بل إلى عنصر من عناصر الكون، بمنزلة المكون الأساسي Fundamental Component للطبيعة نفسها! فإذا استحضرنا ما هو متقرر في البداهة، وشهد به غيت نفسه في "المبرهنة" المنقولة آنفا، من كون المعلومات حقائق "ذهنية"، لزم من ذلك أحد لازمين لا ثالث لهما: إما أن يكون العالم أو الكون موصوفا بأن له "ذهنا" يختزن المعلومات، وتكون "المعلومات" هي ما يحصل لذلك الذهن من العلم بموضوع ما، ويكون صدورها عن ذلك الذهن هو الحاكم لنظام المادة والطاقة، المسؤول عن خلق الأنواع كلها، وإما أن يكون الموصوف بالعلم هو "الكلمة" Logos (التي هي المسيح في دينه) كما يريد غيت إثباته، وإذن يصبح صانع العالم عنصرا من عناصر العالم نفسه كالمادة والطاقة، يخضع للقانون الطبيعي كخضوعهما!! فهما لازمان أحلاهما مر، الأول يثبت صانعا

ربوبيا Deistic Creator والثاني يجعله اتحاديا Pantheistic Creator، وكلاهما شرك محض، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وكما جعل غيت المعلومات منسوبة إلى المسيح عليه السلام، جعلها الدكتور منسوبة إلى الله تعالى (وإن كان يجعلها كذلك منسوبة إلى الحاسوب الكوني المزعوم على نظرية سيث لويد وبول ديفيز)، وذلك من خلال كلمة التكوين! فهي عنده "الكلمة" التي ذكرها "غيت" في كتبه! قال في "المعلوماتية" (ص. 96): "إن هذا المفهوم (يعني المعلوماتية) ليس جديدا، بل نحن نتبناه كقضية إيمانية. فالقرآن الكريم يخبرنا بأن الله عز وجل يخلق كل شيء "بكلمة" "كن"، كما تخبرنا التوراة أن الأصل كان "الكلمة". إن الكلمة شفرة للمعنى، تواصل، أمر، معلومة لها قدرة خلقية. إن الكلمة هي الأصل، فإذا كانت المادة/ الطاقة تتبع المخلوق، فالكلمة تتبع الخالق. لذلك فنحن نؤمن أن الوجود في الأصل كان وجودا معلوماتيا في علم الله، ثم تجسد بكلمة "كن" في الوجود المادي المحسوس، وبذلك أصبحت المادة تجسد الوجود المعلوماتي غير المادي. إن ذلك يعني أن الوجود كله موجود "حادث" في الكون المادي المحسوس، لكنه في نفس الوقت موجود "أزلي" في علم الله القديم، فحاشا أن يجد على علم الله علم." اهـ.

قلت: أولا العموم في قوله تعالى: ((إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [النحل : 40] يخصصه قوله تعالى: ((قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ)) [ص : 75] وما ورد في السنة أنه سبحانه قد خلقه بيده، وهي أربعة مخلوقات، جمعها ابن عمر رضي الله عنهما في الأثر الذي صح عنه أنه قال: "خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان" وهو أثر صحيح تلقته الأمة بالقبول وله حكم الرفع لأن مثله لا يقال بالرأي. وقد استعمله الأئمة المتقدمون رحمهم الله في إثبات صفة اليد لله جل وعلا ردا على الجهمية السابقين، وها نحن اليوم نستعمله في إثبات حصول الخلق من الله تعالى بغير كلمة التكوين، ردا على الزنادقة المعاصرين، والحمد لله رب العالمين!

ثانيا: قوله "الكلمة شفرة للمعنى" فلسفة باردة لا نقبلها، لا سيما وقد علمت ما عند الرجل من اختراع ميتافزيقي كوزمولوجي متنطع في معنى لفظة شفرة Code! ثالثا: قوله "معلومة لها قدرة خلقية" هذا من شرك الاتحاديين الطبيعيين، إذ ينسب القدرة على الخلق الإلهي لشيء قد سبق منه أن عده عنصرا أساسيا من عناصر الطبيعة نفسها، كالمادة والطاقة! فالمعلومات على ميتافزيقا "غيت" شيء ذهني Mental، وهي كذلك شيء عيني "غير مادي" في الخارج، يتكون منه كل شيء ولا يخلو منه شيء! فإذا

جعلت هي العلم الإلهي القديم، كما في قول الدكتور: "الوجود في الأصل كان وجودا معلوماتيا في علم الله، ثم تجسد بكلمة كن في الوجود المادي المحسوس... إلخ"، أصبحت المعلوماتية التي يثبتها غيت في مادة العالم كمكون أساسي قائم بها، هي صفة العلم الإلهي نفسها بعدما "تجسدت" بكلمة التكوين!

فإذا انضاف إلى ذلك ما قرره الدكتور في غير هذا الموضع في مسألة كلمة التكوين من كونها أمرا "لا زمانيا"، أي لا ترد عليه معاني الماضي والحاضر والمستقبل، بالنظر إلى خروج الرب وأفعاله عن معاني الزمان عنده بالكلية، أصبحت كلمة التكوين نفسها قديمة لا ابتداء لها، كانت ولم تزل، وصار العالم قديما لا ابتداء له (وإن كنا نحن نتوهمه حادثا)، يجري على مثل ما انتهى إليه أرسطو من القول بعالم قديم لم يزل ينبثق من "العقل الفعال" من الأزل، بالنظر إلى كونه لا ترد عليه معاني التغير والحركة في ميتافزيقاه من الأساس! فإذا فهمت هذا، فتأمل في قول الدكتور: "إن ذلك يعني أن الوجود كله موجود "حادث" في الكون المادي المحسوس، لكنه في نفس الوقت موجود "أزلي" في علم الله القديم"! الوجود موجود حادث وهو في نفس الوقت موجود أزلي! هو نفسه بعينه! فإذا كانت كلمة التكوين هذه لا زمان لها، فلم تكن في الماضي ولا هي كائنة الآن ولا تكون في المستقبل، لزم اتحاد الوجودين (الوجود في العلم الإلهي والوجود في المادة) بلا تفاوت زماني بينهما، وتم بذلك الغرق في وحدة الوجود وقدم العالم معا، نسأل الله السلامة!

يمضي غيت في كتابه بعد ذلك، إلى تقرير تسع وعشرين تعريفا وتوصيفا ميتافزيقيا إضافيا لما يسميه بالمعلومات الكونية Universal Information، يصوغها بشروطها وموانعها بحيث يجعل من كل سلسلة من العناصر المادية لها تكرار نظامي، وارتباط سببي ظاهر بين ذلك التكرار وبين أنواع معينة من الحوادث، بحيث يمكن "تشفيرها" (أي توصيفها بأكواد Codes على طريقة تشبه اللغة البشرية)، نظاما "معلوماتيا" يدل بالضرورة على وجود "عقل ذكي" هو الذي قام بالتشفير! وبصرف النظر عن حقيقة أن غيت يسمي تلك التعريفات الثلاثين "مبرهنات" Theorems (بما يدل على عدم إلمامه بمعنى كلمة "مبرهنة" كما تقدم)، ويجعلها في قوة القوانين الطبيعية تحكما، فإن العاقل لا يملك إلا أن يسأله: إذا كان حصول تلك المعلومات على هذه الصفة لدى الإنسان بشأن نظام حيوي ما (أن يكون قابلا "للتكويد" كشفرة الدي إن إيه مثلا)، هو الدليل على كونها "معلومات كونية" أي أن مصدرها هو الرب الخالق، فما هو مصدر ما سواها

مما يصح – كذلك – وصفه بالمعلومات، وإن لم يخضع لشروطك، ولا تعرف أنت له شفرة تحكمه؟؟

ما هو الكود أو الشفرة التي تربط في علم الإنسان، ربطا سببيا، بين أنماط معينة في الطبيعة وبين حركات الكواكب مثلا، أو نظام الجسيمات تحت الذرية، أو حتى الهيئات التي تكون عليها كريستالات الجليد، كنظير ما هو مشاهد في العلاقة بين بنية نواة الخلية وصفات الكائن الحي الذي تتكون منها أنسجته؟؟ لا كود ولا شفرة ولا شيء من ذلك! فما الموقف إذن؟؟ على ميتافزيقا الرجل، يلزمنا أن نعتقد أن ثمة ارتباطا ما من ذلك الصنف في الطبيعة يجب أن يأتي يوم في المستقبل ويكتشف، أو بالأحرى "يشفر"، كما شفرت تلك الارتباطات المذكورة في نواسخ الخلية الحية، وإلا كان ذلك خلقا بلا معلومات، وهو يؤمن بأن المعلومة هي ابتداء الخلق كله، وبأن التشفير هو مسلك الصانع في كل ما صنع، وهو الكلمة التي بدأ منها كل شيء! [14] وهذا ولا شك تحكم باطل في الكيفية التي يخلق الله بها ما يريد، ويسير بها نظام العالم، ومآله شرك الربوبية والقول بالخالق الربوبي Desitic Machine Maker الذي خلق آلة عملاقة فيها شفرات حاسوبية تنظم كل شيء، ثم ترك الأمر ليجري على ذلك النظام آليا!

وحتى وإن لم يكن هذا هو متعلق غيت في تلك القضية (أن كل ما في العالم من حوادث له شفرة ولغة!)، فإن مجرد الاعتقاد بأن الشفرة الوراثية (التي ما وضعناها نحن البشر إلا كفرض نظري ناشئ من تتبع العلاقات السببية الظاهرة بين بنية جزيئات الحمض النووي في الخلية، وبين عمل الخلايا في التناسخ في الجسم الواحد، وحفظ الصفات الوراثية عبر الأجيال) لابد أن تستوعب (مع ما يرتبط بها بيوكيميائيا من وظائف عضوية أخرى تحكم عملها خارجيا Epigenetically) جميع ما يكون عليه الكائن الحي من صفات وهيئات، استيعابا سببيا كاملا، هذا شرك في الربوبية، يحيل نواة الخلية إلى شريك للباري في الخلق والتدبير، وهو من الحتمية اللابلاسية والانغلاق السببي الطبيعي النيوداروينى الذي يرجو غيت أن يدلل على بطلانه "بمبرهناته" تلك! فالقول بأن الشفرة الوراثية "لغة" محال أن تتخلف حروفها وألفاظها عن أداء "معانيها" في كل مرة، على أساس أن المتلقي يجب أن يفهم "رسالة" المرسل المبنية بتلك الشفرة نفسها في كل مرة، هو قول مغرق في تلك الحتمية المادية نفسها التي يظن غيت أنه ينتصر عليها، والتي كانت هي مستند الدهرية الطبيعيين في جعل القانون الطبيعي هو الخالق من دون الله!

فإذا قيل إن المعلومات (على تلك الشروط التي حررها غيت) هي عنصر كلي من عناصر بناء العالم، كالمادة والطاقة، لزم أن تكون هي الصانع

نفسه، وأن يكون صانعا متحدا مع العالم الذي صنعه، كمنبع ميتافزيقي لا ينقطع لتلك المعلومات! أليس قد جعلها الرجل حقيقة ذهنية لا عينية؟ فإذا كان محلها هو "عقل الإله" على حد عبارته، أو "العلم الإلهي القديم" على حد عبارة الدكتور عمرو، وكانت كذلك مبثوثة في جنبات العالم وهي المكون الأساسي "غير المادي" لبنية العالم نفسه، لزم الاتحاد والحلول كما تقدم. وقد أكد الدكتور ذلك اللازم وأغرق فيه بما جاء به من خلط بين تلك النظرية ونظرية سيث لويد المسماة بالحاسوب الكوني، التي يأتي معك الكلام عليها فيما بعد بعون الله تعالى!

والقصد أن ميتافزيقا المعلوماتية الكونية هذه تتأرجح في المقتضى بين الربوبية الطبيعية المعلوماتية Informational Naturalist Deism والاتحادية الطبيعية المعلوماتية Informational Naturalist Pantheism، عند التدبر والتحقيق! فخبرني بربك، أي فائدة ترجى من استعمالها للتدليل على وجود "عقل ذكي" هو الذي بث المعلومات في العالم، وكيف يرتضي المسلم نظرية توصل إلى ذلك الاعتقاد؟؟ لا شك أن من يعتقد أن المسيح هو تجسد اللاهوت في الناسوت، وأن الروح التي فيه والكلمة التي في التوراة (وهي المشار إليه في قوله تعالى: ((إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ)) الآية [آل عمران : 45]) هي من صفات الله الذاتية، وأن "الروح القدس" تحل في العالم (مع كونها هي الأقنوم الثالث) كما هو اعتقاد غيت، هذا لا يمانع من القول باتحاد الصانع والمصنوع، ومن جعل المعلومات هي الخالق والمخلوق، أو صفة من صفات الخالق الذاتية تتركب منها بنية المخلوق! فالحلول أصل في دينه على أي حال! لكن ما بال من يقول إنه من المسلمين، كيف استقام في دينه ذلك المعنى الميتافزيقي الطبيعي "للكلمة" و"المعلومة"؟؟ نسأل الله السلامة!

لا شك أن ما ذكره غيت في الكتاب من امتناع ترتيب الشفرة الجينية على نحو خلاف ما هي عليه بحيث يكون على هذا الإحكام في الاقتصاد وتقليل الطاقة المستهلكة في الخلية الواحدة لنسخ الدي إن إيه وغير ذلك مما ذكر، ولا شك أن ذلك من آيات الله تعالى في خلقه، ولكنه لا يريد أن يقرر ذلك المعنى الجلي الظاهر كآية من آيات الله، وإنما يريد أن يتخذه مقدمة لبناء ما يزعم أنه قانون طبيعي Natural Law يثبت بطلان مبدأ التطور الدارويني بإثبات أنها تخرمه! وأنا لا أدري والله كيف لم ينتبه الدكتور عمرو إلى ذلك الموقف المضاد للتطور الذي تبناه غيت وما وضع النظرية إلا انتصارا له! الذي يقول بالتطور الموجه لا يستقيم له الجمع بينه وبين تلك النظرية، إذ التطور يبدل الشفرة بالطفرة ويغير اللغة نفسها من نوع إلى نوع، تغييرا لا تسمح به "مبرهنات" النظرية عند التأمل! [15] ولكن ليس هذا هو أول تناقض يقع في عقائد الدكتور ولن يكون آخره، والله المستعان!

لقد أطلت النفس في هذا الكتاب في الرد على ترهات وخزعبلات هذا الرجل ومن نقل عنهم كما لم – وغالبا لن - أسلكه مع غيره من جهمية الطبيعيات في زماننا [16]، حتى أبين للقارئ الكريم خطورة ومآل ما انتهجه من طبيعية منهجية محضة، وافق فيها الفلاسفة الدهرية أصحاب تلك النظريات التي اقتحموا بها الغيبيات المطلقة وأسسوا بها ميثولوجيا الملة الدهرية المعاصرة التي أبى هو إلا أن يتمسك بها وينشرها في المسلمين على أنها هي الاعتقاد الصحيح الواجب اعتناقه على المسلمين في زماننا،

ضاربا عرض الحائط بإجماعات الصحابة والسلف الأول ومنهج أهل السنة في فهم كتاب ربهم! فمحال أن تتخذ لنفسك عقيدة مفادها التسليم بصحة مسلمات الدهرية الطبيعيين الوجودية الكلية وتزعم أنها لا تقتضي نفي الصانع كما هو دينهم، تؤسس مصادر التلقي المعرفي في الغيبيات عندك عليها، ثم تتوقع أن تنتهي إلى نفس الدين الذي بعث الله به رسله، وإلى نفس الاعتقاد الذي علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه!! هذا محال! ولن تجد في أدبيات الجهمية والفلاسفة الطبيعيين المعاصرين من المنتسبين إلى قبلتنا ما هو أظهر دليلا وأعظم آية على ذلك من كتابات هذا الرجل، ومن المراحل التي مرت بها في رحلة عقله! فالحمد لله الذي جعله آية وعبرة لمن يعتبر!

أصل الآفة، كما أرجو أنك صرت تراه الآن ظاهرا جليا أيها القارئ المحترم، ليست في قوله بالتطور الموجه وحسب (الذي لا يزال الأكثرون من دعاة المسلمين وطلبة العلم لا يعرفونه إلا به)، ولكن في استكباره وإبائه وإصراره الطويل على المعاندة والتفلسف والعلو بعقله لنصرة ذلك النظام الاعتقادي الدهري الصرف، ومن ثم اضطراره لالتزام بعض لوازمه وغفلته عن بعضها الآخر، بما انتهى به – تحقيقا – إلى اختراع ملة دهرية طبيعية صرفة، في إطار سعيه الحثيث في أسلمة دين داروين وملة الكوزمولوجيين التطوريين! ولا عجب، إذ لا يُنتصر للدين الدهري وبعض معتقدات أصحابه، إلا بأصول الدين الدهري نفسه ومصادر تلقي تلك المعتقدات عندهم! هذا ما أصر الدكتور – عبر سنوات طويلة من تمسكه بداروينيته – على ألا يراه ولا يعترف به، فانظر إلى أين صار به! لا يزداد الجهمي تأليفا وتفلسفا في الانتصار لبدعته إلا تعاظمت عليه البدع وتراكمت فوق رأسه، ولم يزدد بذلك كله إلا بعدا عن الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وإغراقا في الباطل الذي التقط منه بدعته وتشبعا به، فتأمل! هذه سنة الله الماضية في هؤلاء، لا تبديل لخلق الله! وإني لأكاد أجزم بأنك لو لقيت الدكتور قبل عشر سنوات أو عشرين سنة وسألته عن رأيه في "الدين الطبيعي" (سواء على نحلة الربوبيين أو نحلة اللاأدريين أو الاتحاديين الطبيعيين) لتبرأ منه بكل حزم، ولقال إن التطور الموجه لا يقتضيه ولا يوصل إليه، فتأمل كيف هو اليوم يدعو المسلمين إليه صراحة، على صورة من صوره، يقول إنه لا يعارض "الدين" (يعني دين الإسلام الذي لا يزال ينتسب إليه!) ولا يخالف "العلم"، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال الدكتور في مقدمة الحلقة الثانية عشر من سلسلته "المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر" تحت عنوان "الكون حاسوب كمومي": "العلم دايما في النظر إلى الكون، بيتبنى نموذجا معرفيا يتماشى مع المفاهيم العلمية

السائدة وقتها! نموذج معرفي يعني بيشبهه بيها، بيبص للكون كأنه كده! فعندما ظهرت الآلة البخارية، كانوا ينظرون إلى الكون باعتباره آلة بخارية، من منظور طاقات الكون وتفاعلها مع بعض! لما ظهرت قوانين نيوتن الدقيقة، الحاسمة، الحتمية، وفي نفس الوقت كانت بدأت الساعات ذات البندول يعني تخترع وتصمم وكلام من ده، فقد شبهوا الكون بالساعة الدقيقة، واعتبروا الإله هو صانع الساعات! عندما دخلنا في الإيرا Era أو في عصر الحاسوبات الكمبيوتر، شبهوا الكون بأنه حاسوب! إيه، بس هانكتشف دلوقتي هو مش تسبيه بقى زي الآلة البخارية وزي الساعة، لأ، ده الكون حاسوب بالفعل!! الكون حاسوب، وحاسوب كمومي! Quantum Computer بالفعل!" اهـ.

قلت: هذا الكلام يدلك – أولا - على سطحية تناول الدكتور لمسألة الأساس الميتافزيقي للأقيسة الكلية Universal Metaphors التي تقوم عليها البارادايمات المختلفة لدى الفلاسفة الطبيعيين والميتافزيقيين عند تنظيرهم في وصف الكون بكليته، تلك البارادايمات التي لم تزل تتبدل وتتغير في كل بضعة قرون بما يسمى بالثورات العلمية، وهو ما يظهر لك جليا في تعليقه على كتاب "بنية الثورات العلمية" لتوماس كيون، حيث قال في مقطع له بعنون "بنية الثورات العلمية": "في كتابه بنية الثورات العلمية، الفيلسوف الأمريكي فيلسوف العلم الكبير، توماس كون، بيتكلم على الصراع والاختلاف في وجهات النظر حول النظريات العلمية، وبيتكلم بالتحديد، كان بيتكلم عن نظرية التطور، فبيقول إن الاختلاف والصراع في النظريات العلمية لا يكون عادة صراع بين أدلة علمية، مش ده بيقدم دليل علمي وده بيقدم دليل علمي، للأسف كثيرا ما يكون الصراع صراعا بين أيديولوجيات، ده متبني الفكر المادي، وده متبنى طرح ديني، وده متبنى طرح علمي صرف، و و إلى آخره!" اهـ. قلت: هذا والله كلام أحد رجلين لا ثالث لهما: رجل قرأ كتاب توماس كيون ولم يفهم منه شيئا، أو رجل لم يقرأه أصلا! ولكم وددت – والله – لو أنه قرأ الكتاب المذكور بروية وفهمه حق الفهم، فلو أنه فعل، فإن لم يخرج منه إلا بزوال تلك الثقة المطلقة في إجماعات الأكاديميات الطبيعية على صحة مبانيهم الميتافزيقية ومطابقتها الواقع كيفما اتفق لها في أي عصر من العصور أن تكون، لكفى! والكتاب في الحقيقة يؤسس لطرح غير مقبول منهجيا، كما بينا ذلك في غير موضع من كتابنا هذا بحول الله تعالى، في إطار ما طرحناه من الكلام عليه في كل سياق بحسبه، فلسنا ننصح بقراءته إلا من كان صحيح المنهج سليم التأسيس في اعتقاد ومنهج أهل السنة في الغيبيات والتجريبيات، ولكن القصد بيان أن الدكتور يتشبع بما لم يعطه في هذه البابة بالغة الأهمية، وتلامذته يتابعونه

على كلامه فيها على أنه هو المرجع الأعلى الواجب تقليده في فلسفة العلم، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! [17]

هذا أولا، وأما ثانيا، فلا يخفى ما في كلامه من التحكم الميتافزيقي المتعسف في ترجيح ما سماه "بالنموذج المعرفي" القائم على تشبيه الكون بكليته بجهاز الكمبيوتر العملاق، على ما سوى ذلك التشبيه من تشبيهات ميتافزيقية كونية أخرى، كتشبيه حبات الرمال في أنموذج ديموكريتوس الذري، أو تشبيه الصلصال الذي يتشكل على هيئة بعد هيئة في ميتافزيقا الهيولى والصورة عند أرسطو، أو تشبيه الآلة الميكانيكية المغلقة في الأنموذج النيوتوني أو تشبيه البحر المائع الذي يسبح فيه كل شيء في أثير لايبنيتز، أو تشبيه النسيج المطاطي الطوبوغرافي في أنموذج أينشتاين .. إلخ!

هذه القضايا المنهجية يا دكتور هي لب النزاع بيننا معاشر المسلمين وبين الطبيعيين الماديين، وهي قضايا ضاربة في أصل مفهوم العلم وحقيقة المعرفة نفسها، بل وفي مفهوم الدين، إذ بفهمها يتبين للمسلمين حقيقة النزاع بين أصول دينهم وأصول ملل الطبيعيين كافة على اختلافها Naturalist Doctrines! القياس الكلي للكون ومجموع التعاريف الميتافزيقية المتفرعة عليه يا دكتور، هو ما يتبدل ويتغير من بارادايم إلى بارادايم عبر ما يقال له "الثورات العلمية" كما بينه كون في كتابه، وليس "الأيديولوجيات الدينية أو غير الدينية"! أصحاب تلك "النماذج المعرفية" (على حد عبارتك) جميعهم فلاسفة طبيعيون أقحاح، تحركهم أيديولوجية دهرية طبيعية كلية يقال له الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism، وهي تلك الأيديولوجية (أو للدقة: الطريقة الدينية) التي بها يستجيز (من الأساس) الباحث في الطبيعيات مبدأ أن يأتي للكون (هكذا) بقياس أو تشبيه ما، يشمله بكليته ويستغرق كل جزء منه بلا تفصيل، ولا اعتبار لغيب كوني خارج عن حدود ذلك التشبيه أو القياس البتة! وهذا ما يتعين على المسلمين في هذا الزمان أن يفهموه فهما دقيقا، وأن يتعلموا كيف يتعاملون – في ضوء فهمهم له – مع تلك الأقيسة والتشبيهات، التعامل اللائق بها، وفقا لمنهجهم المعرفي كمسلمين لديهم مصادرهم المعتمدة بالعقل والنقل والإجماع لتلقي المعرفة بالغيب وما فيه! أما أن يقال هكذا بكل سهولة، إن الأنموذج الحاسوبي الكمومي هو الحق وقد تبين ذلك وثبت أخيرا، فوالله لا يجوز ولا يحل ولا يصح لمتصدر في الكلام في فلسفة العلم وفي محاضرة شباب المسلمين في علاقتها بدينهم وتأثيرها على عقيدتهم، أن يكون هذا هو حظه من التحقيق فيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

يا دكتور إن الترجيح بين تلك التشبيهات على أساس من "التماشى مع المفاهيم العلمية السائدة وقتها" على حد عبارتك، لا أساس له إلا الذوق العام General Preference في إطار فلسفة معرفية لا تصحح النظرية الغيبية الجديدة إلا بالنظر في مدى موافقتها للبارادايم السائد أيا ما كان Coherentism، ومدى خضوعها للهوى والمزاج الأكاديمي السائد الذي اتفق له الغلبة في هذا العصر أو ذاك! فلما كان الناس مفتونين بالمحرك البخاري، كانت نظرتهم للعالم على أنه آلة بخارية عملاقة! وكذلك لما صاروا مغرمين بجهاز الكمبيوتر صار الكون حاسوبا عملاقا! فما الذي رجح تشبيه القائلين بالحاسوب على تشبيه القائلين بالساعة أو الماكينة حتى رفعت عنه صفة التشبيه من الأساس؟؟ وكيف لا يكون تشبيها، حتى وإن كنت تراه هو أوفق الأوصاف للكون بكليته؟؟ هل رأيت بعينيك أو تزعم أنهم قد رأوا هم بأعينهم الكون بكليته فوجدوه جهازا حاسوبيا حقيقيا، فيه قرص صلب وفيه معالج معلومات وفيه برامج مخزونة على القرص، تعمل كلها كما يعمل الحاسوب، أو حتى كما يعمل الجينوم في الخلية الحية؟؟ أبدا، لم يكن لك ذلك ولا يزعمونه هم لأنفسهم! فأي شيء هذا إذن إلا أن يكون ضربا من لعب الصبيان ومن العبث بعقول البشر في فلسفة الميتافزيقا الطبيعية التي يظنها العامة والجهلاء علما رائقا رفيعا مع أنها ليست من العلم والمعرفة في قليل ولا كثير؟؟ وأي لعبة جديدة يتعين علينا أن ننتظر أن يفتتن بها هؤلاء السفهاء غدا، في "ثورتهم العلمية" التالية، حتى يأتونا بناء على فتنتهم بها "بنموذج معرفي جديد" يشبهون فيه الكون بها؟؟ سبحان الله!

يا دكتور، علم المسلمين وبين لهم أنهم لا يلزمهم إسقاط العلم والنفع الصحيح للعلم التجريبي إن هم جردوا آحاد دعاواهم المعرفية الاستقرائية الطبائعية وفرضياتهم التفسيرية فيها، من ذلك الأساس الميتافزيقي الدهري الطبيعي، وأن عليهم كمسلمين أن يجتنبوا الإطلاقات الكونية الفاحشة من حيث المبدأ المعرفي نفسه، إن كنت صادقا في طلب صيانتهم من الدهرية والإلحاد، ولست ممن يتبغون الرياسة العلمية وصرف وجوه الفلاسفة وكبار النظار إليه! بين لهم عوار تلك الطريقة الفلسفية الفاحشة في تصور الكون بكليته بأنواع الأقيسة والتشبيهات، وأن الصواب الاقتصار في القياس والنمذجة على الإطارين المكاني والزماني الذين انحصرت فيهما عادة المنظر التجريبي، بعيدا عن مسلمات الاطراد الكوني المطلق، إن أردت لهم السلامة من مصارع الفلاسفة الطبيعيين وذرائع دهريتهم! أما أن تجعل الدهرية المنهجية هي أساس المسلمين ومنهجهم في تلقي المعرفة بغيب السماوات والأرضين، ثم تقول لهم دعونا نخلص نظريات العلوم من "تأويلاتها الدهرية"، فهذا كلام من لا يدري أين مكمن الدهرية في ميثولوجيا

الطبيعيين على الحقيقة، ولا يعقل – إلى الآن – حقيقة العدو الذي يتعين عليه أن يتصدى له، وهو يزعم – مع ذلك – أنه قد أثخنه بل صرعه صرعا، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال الدكتور مستعرضا نظرية الكون الحاسوبي هذه:

> الكلام اللي أنا هاطرحه دلوقتي، ده من خلال طرح "سيث لويد"، سيث لويد أستاذ الهندسة الميكانيكية وفيزياء الكم في "إم أي تي" MIT، ولد عام 1960، من كتابه Programming the Universe، عام 2006، بيقول إيه سيث لويد؟ نقرأ: إن كل جزيء، وكل ذرة، وكل جسيم تحت ذري في الكون، يطرح احتمالات يتم معالجتها كموميا، ومن ثم، فالكون قادر، أو هذه العملية قادرة على إبداع أشياء هائلة في الكون من خلال المعالجات الكمومية! يعني إيه؟ يعني بيطرح احتمالات. هل بيطرح معلومات؟ لأ! أصل المعلومات هي اللي بتختار من بين الاحتمالات! تقليل الاحتمالية! المعلومات تقدير الأنسيرتينيتي Uncertainty، تقليل الاحتمالية! فعشان المعلومة تبقى معلومة، لابد من عامل مرجح، اللي هايختار من بين .. لابد من الترجيح، من بين الاحتمالات اللي بيطرحها كل جسيم وكل ذرة وكل جسم تحت ذري، و.. ووو إلى آخره.

قلت: أولا، قوله "الكون قادر على إبداع أشياء هائلة في الكون"، الذي رجع عليه – تحسينا وتزيينا - بقوله "هذه العملية قادرة .. إلخ"، حقيقته الظاهرة الجلية – مهما تفنن في محاولة تزيينها – هي شرك الربوبية وشرك الصفات ولا شك، وهو إغراق في الاعتقاد الربوبي الطبيعي Naturalistic Deism، أو إن شئت فسمه بالربوبية المعلوماتية Informational Deism! أو الربوبية التدخلية إن شئت Interventionist Deism وهي القول بصانع أنشأ كونا يخلق نفسه بنفسه ويدير نفسه بنفسه، مع كونه يسمح لصانعه بالتدخل إذا شاء، ليحوله بذلك التدخل من برنامج حاسوبي جار إلى برنامج آخر قد سبقت برمجته فيه كذلك! وهذه، أيها القارئ المحترم، هي عقيدة الربوبيين الذين عطلوا الباري عن قيوميته وعن أمره وتدبيره بكلمة التكوين، وعن سلطانه السابغ على كل حادث من حوادث العالم، وأشركوا به بعض النظاميات السببية المطردة التي أذن لهم باكتشاف طرف منها في ملكوته ابتلاء واختبارا، بل جعلوه عاجزا عن تغييرها أو تعطيلها أو تجاوزها دون أن يفسد العالم بكليته ويهدم نظامه هدما، ثم أخذ بعضهم (حفاظا على نسبته إلى الملة الكتابية التي كان في الأصل منتسبا إليها) يحاول التماس المداخل التي يمكنه من خلالها أن "يتدخل" في النظام دون أن يفسده، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!

فعندما يقول الدكتور (ص. 441): "وبذلك (أي بفكرة الترجيح الكمومي المزعوم) ففي وجود المادية المغلقة، يصبح التدخل الإلهي الدائم إمكانية قائمة، لا تستدعي افتراض أن الإله قد أحيل إلى المعاش بعد أن خلق الكون!" فلا نعد ذلك منه إلا ذرا للرماد في العيون، ومحاولة للتخلص من تهمة هو يعلم أنها لاحقة به لا محالة!! وكذلك لا عبرة بقوله قبل ذلك (ص. 440) تحت عنوان بالغ الاستفزاز "فيزياء وليست غيبا": "وإذا كان الإله يستطيع أن يدخل المعلومات عن طريق معجزة (فخالق القوانين لا يخضع لها)، فالدرس المثير من هذا الفصل أن الإله يمكن أن يدخل المعلومات في الكون دون اللجوء إلى المعجزات." اهـ. قلت: كل هذا من أجل أن تثبت أن "الإله" يستطيع أن يفعل ما يريد؟؟؟ الحمد لله على نعمة الإسلام والعقل! أي معلومات هذه التي يدخلها الإله أصلا؟ أهي شيء غير مادي يركبه في موجة الاحتمالات المزعومة؟؟ أم هي عندك شيء ركبه في أول الخلق في عالم الغيب، في كلمة واحدة خلق بها كل شيء خلقا آنيا، ثم لم نزل نحن نرى ترجيحاته الكمومية المزعومة وكأنه يخلقها خلقا بعد خلق، وإنما هي عنده أمر واحد في أول الزمان على طريقة الربوبيين (وهو تأويله الربوبي لكلمة التكوين)؟؟ وكيف يستقيم أن يكون له في دينك ترجيحات أو أفعال أصلا على ميتافزيقا الزمكان التي أخرجته بها من جنس المعاني الزمانية والتتابع الزماني بالكلية؟؟ ثم ما معنى المعجزة عندك وأنت تزعم أنه ليس في العالم أسباب إلا السبب الطبيعي والترجيح الكمومي المزعوم لسلاسل الأسباب الطبيعية؟؟ المعجزة عند أمثالك ومن هم على دينك هذا، التي هي على تعريفكم الفاسد لها: تعطيل لنظام العالم، غايتها أن تبقى أمرا ممكنا عقلا، وأما الوقوع، فلابد أن تمنعوا من مجرد تقدير أن تكون قد وقعت على التحقيق وإلا لزم زوال توازنات الطاقة في ميتافزيقاهم الدهرية لقوانين الديناميكا الحرارية، ولأن العادة والحس والميثولوجيا التاريخية الكوزمولوجية والجيولوجية والبيولوجية التي تعتنقونها لا تدل عليه! فراجع أصول الديانة الطبيعية التي نقلتها للناس يا دكتور إن كنت لا تدري أن هذا هو ما يلزمك فيها!

سبحان الله وتعالى علوا كبيرا عن خرفكم وحطكم عليه وعلى ملكه وسلطانه!!

قال (ص. 442): "وإذا كانت المعلوماتية هي التي تسمح ببزوغ أحداث جديدة، فإن هذه الأحداث تشمل بعض الاختلال في انتظام الكون، وهو اختلال مطلوب لتفسير كل مشاهد القصة ولإنفاذ قدر الإله، لذلك فإن قدرا من عدم الانضباط ومن الكوارث الطبيعية لازم لعملية الخلق المستمر للكون وليس ضدها. وإذا كان جيل علماء القرن التاسع عشر المتشائمون

قد اعتادوا على التركيز على عشوائية نشأة الكون وحتمية مساره الفيزيائي، فقد واجهتهم معضلة كأداء! فالكون تبعا للقانون الثاني للديناميكا الحرارية ينبغي أن يتجه إلى الموت من خلال الإنتروبيا، ومع ذلك وفي نفس الوقت هناك شيء جديد يبزغ باستمرار هنا وهناك، ولا شك أن ذلك وإن كان يتعارض مع مفهوم التصميم الذكي الخلقوي، فإنه لا يتعارض مع مفهوم المعلوماتية باعتباره أداة التصميم الذكي التطوري، الذي يقوم فيه العامل المرجح (الإله) باختيار الاحتمالات التي تدفع منظومة الوجود إلى التطور بدلا من الفناء." اهـ.

قلت: فالاعتقاد الذي يدعو المسلمين إليه إذن، هو القول بأن الفوضوية والعشواء الوجودية المحضة التي يقول بها الدهرية الطبيعيون، هي التفسير السببي المباشر للكوارث الطبيعية ولغيرها مما يجده الناس في الأرض من مكاره، ثم القول بأن تلك الفوضوية إنما ترجع إلى كون الخلق خلقا تطوريا، يقوم فيه العامل المرجح بمواجهة تيار الفوضوية الإنتروبية الكاسح باختيارات تطفرية تدفع "منظومة الوجود" للترقي بدلا من الضياع التام! وإلا فلو كان الخلق "تصميما خلقويا"، لما استطعنا تفسير تلك الكوارث والمكاره! فأنا أستحلفك بالله أيها القارئ الكريم، هل هذا قول المسلمين؟ هل هذا اعتقاد رجل يتقي الله في نفسه وفيمن يقرؤون كتبه؟؟ جواب "معضلة بزوغ الخلق الجديد هنا وهناك" التي استعضلها الدهرية في القرن العشرين [18] بالنظر إلى أصل الدين الدهري الطبيعي القائل بالفوضوية والعشوائية الوجودية، هو اتخاذ ذلك الأصل نفسه آلية إلهية في خلق العالم، فإنا لله وإنا إليه راجعون! فالحاصل أيها القارئ المحترم، هو أن الرد الأمثل على النحلة الدهرية الطبيعية عند عمرو شريف، والطريقة المثلى لحماية أولادنا وبناتنا منها، إنما هو ابتلاعها وهضمها ثم إخراجها في هيئة "إسلامية"، ولا حول ولا قوة إلا بالله! [19]

ونقول: إذا كان الدكتور يحيلنا إلى كتاب "سيث لويد" هذا (وهو فيزيائي دهري طبيعي جلد!)، فدعنا، أيها القارئ الكريم، نرجع إليه لنرى ما يقول! قال سيث هذا في مقدمة الكتاب، بعد أن قرر أن حقيقة الكون هي أنه حاسوب عملاق، كل جسيم فيه يحمل معلومة Bit تخبره بالسلوك المتعين عليه أن يسلكه، كما تحمل نواة الخلية معلوماتها الوراثية (أي في تشبيههم الساذج للعلاقة بين الجينات والخلايا الحية بالعلاقة بين البرنامج الحاسوبي والأطراف الحاسوبية Terminals):

> إن هذا (يعني القول بأن الكون حاسوب عملاق) يستدعي السؤال التالي: ما الذي يحسبه الكون؟ والجواب: إنه يحسب نفسه! الكون يحسب سلوكه هو نفسه. فبمجرد أن بدأ الكون، شرع في

الحساب. وفي البداية كانت الأنماط التي ينتجها (بحساباته المزعومة) بسيطة simple، تحقق الجسيمات الأولية وتنشئ القوانين الأساسية للفيزياء Fundamental Laws of Physics. ومع الوقت، ومع معالجته (أي الكون) المزيد والمزيد من المعلومات، أفرز الكون المزيد من الأنماط الدقيقة والأكثر تعقدا، بما يشتمل على المجرات والنجوم والكواكب. والحياة واللغة والوجود الإنساني، المجتمع والثقافة، كل تلك الأشياء تدين بوجودها للقدرة الذاتية Intrinsic ability للمادة والطاقة على معالجة المعلومات! إن القدرة الحاسوبية للكون تفسر واحدة من أعظم الألغاز في الطبيعة: كيف يمكن للنظم المعقدة Complex Systems كالكائنات الحية أن تنشأ من قوانين فيزيائية أساسية بسيطة. هذه القوانين تمكننا من التنبؤ بالمستقبل، ولكن فقط في صورة احتماليات، وفقط على مقياس ضخم large Scale. إن الطبيعة الحاسوبية الكمومية للطبيعة تملي علينا أن تكون تفاصيل ذلك المستقبل موصوفة ذاتيا بعدم القدرة على التنبؤ بها Intrinsically unpredictable. فإنما يمكن حسابها بحاسوب بحجم الكون نفسه! وإلا فالطريق الوحيد لاكتشاف المستقبل هو الانتظار لرؤية ما يحدث في الواقع.

قلت: فالرجل (سيث هذا) يقرر عقيدة طبيعية محضة مفادها أن الكون هو الذي خلق نفسه وجميع ما فيه، بداية من القوانين الطبيعية الأساسية، بأن "حسب نفسه" كالكمبيوتر Computed Itself! وهذه هي نفسها مسألة الانبعاث Emergence أو "الخلق الذاتي" التي خصص لها الدكتور عمرو فصلا في كتابه الجديد "المعلوماتية"! ومن قرأ كتاب سيث المذكور) فسيجد الرجل ينتصر لفكرة أن ذلك البرنامج المعلوماتي نفسه الذي انبثق منه الكون "حاسوبيا"، إنما نشأ نشأة عشوائية (فليس يراه عاملا غير مادي كما يجعله الدكتور)! خذ على سبيل المثال قول "سيث" في ص. 59: "الحواسب آلات بسيطة Simple Machines، تعمل بإجراء عدد صغير من العمليات الهينة Trivial operations تكررها المرة بعد المرة. ولكن على الرغم من بساطتها، فإنها تقبل أن تبرمج على نحو ينتج أنماطا تتمتع بأي قدر مرغوب من التعقد complexity، والبرامج نفسها التي تنتج تلك الأنماط لا تحتاج إلى أن تتمتع بأي نظامية ظاهرة apparent order، بل قد تكون مجرد سلاسل عشوائية من البيتات random sequences of bits. ويلعب هذا الإنتاج العشوائي للبيتات دورا محوريا في إنشاء النظام في الكون، ولكن ليس بصورة مباشرة كما تصوره بولتزمان" اهـ. وقوله في نفس الصفحة: ""إن الكون يحتوي على بيتات عشوائية Random Bits

يمكن إرجاع أصولها إلى التقلبات الكمومية Quantum Fluctuations في أعقاب الانفجار العظيم. وقد رأينا كيف تستطيع تلك البيتات العشوائية أن تعمل عمل البذور Seeds لتفاصيل مستقبلية future detail (يعني في أسطورة الارتقاء الكوزمولوجي المزعوم) بداية من مواضع المجرات ووصولا إلى مواضع الطفرات في الدي إن إيه DNA. هذه البيتات العشوائية، التي قدمتها ميكانيكا الكم، قد قامت (من حيث المعنى) ببرمجة السلوك اللاحق للكون." اهـ. فالبرمجة عند سيث هذا هي تأويله لما يزعمه الكوزمولوجيون من العلم بالتولدات السببية التي نشأ عنها كل شيء في العالم! أليس الكون بكليته يرجع عند القوم لتولدات الأسباب الطبيعية، تحت القانون الطبيعي، تأثيرا على جسيم كوانطي ظهر في "تقلب كمومي" في الخلاء الكمومي Quantum Vaccum غير المتناهي؟ أليست هذه هي الفردية التي يقبلها الدكتور من القوم ويقرهم على الطريق الذي وصلوا منه إلى إثبتها أصلا للكون نفسه؟؟ فبنفس ذلك الطريق، يلزمه أن يقبل من سيث لويد نظريته (أو على الأقل يجوز كونها هي الصواب والحق في نفس الأمر) في نشأة ما سماه بالمعلومات أو البيتات! فليست هي إلا تتابع الآثار الحتمية لجملة الطبائع التي استقلت بخلق الكون على ملته!

ولكن يظن الدكتور أنه بنقله عن هذا الرجل وإحالته عليه - يأتينا بشرك الدهرية الطبيعيين، يقلبه إلى شرك الربوبيين، ثم يقدمه للجهال من شبابنا على أنه حجة "العلم الحديث" ضد الإلحاد ولصالح الدين - أنه قد جاء المسلمين أخيرا بما يجب عليهم أن يعتقدوه في صفة ربهم والكيفية التي خلق بها السماوات والأرض، وما كانوا ليعلموه لولا أن "سار الطبيعيون في الأرض ونظروا" فتوصلوا إلى الكوزمولوجيا والبيولوجيا التطوريتين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! إن الميتافزيقا التي جوزت لسيث لويد هذا قياس الكون بكليته على الحاسوب الكمومي، مدارها على الحتمية السببية اللابلاسية أو الانغلاق السببي الطبيعي الذي زعم الدكتور أنه بريء منه، إلى جانب الاختزالية الوجودية الطبيعية Naturalistic Ontlogical Reductionism! فهي تُرجع جميع حواث العالم – سببيا – إلى سلوك الجسيمات الكوانطية وحدها، وتحصر جميع الأحوال الممكنة وجميع العوالم الممكنة، في جملة الأحوال المختلفة التي يمكن (نظريا) أن يكون عليها مجموع الإلكترونات في جميع أنحاء الكون في كل لحظة، ولا ترى الترابط بين أحوال العالم الدقيق الكوانطي وأحوال العالم الكبير إلا نتاجا لتطور كوزمولوجي طويل الذيل اتفق أن تلاءمت خطواته بعضها فوق بعض، فأنشأت ثوابت الكون وقوانينه على نحو سمح "للمعلومات الكوانطية" بأن تعمل عملها! وكل ذلك راجع سببيا إلى فراغ كمومي سابق (في الزمان الافتراضي!!) على فردية الانفجار التي ظهرت فيه! والقصد أن النظرية تأسست على مسلمة

ميتافزيقية دهرية محضة مفادها أن جميع مجريات العالم (التي بها صار على ما هو عليه) مرجعها إلى ما يمكن تسميته بالحتمية السببية الكوانطية Quantum Determinism، فلا يجمع بينها وبين القول بالانفتاح السببي للكون (على حد عبارة الدكتور) إلا متناقض، حاطب بليل، لا يدري ما يجمع لنفسه من عقائد الطبيعيين ونظرياتهم!

وبقبوله نظرية سيث الحاسوبية هذه وتعديله عليها، يقع الدكتور – كعادته - في الجمع بين متناقضين (ميتافزيقيا) من حيث لا يشعر، فقد صرح من قبل بأنه يعتنق ميتافزيقا فيرنر غيت القائلة بأن المعلومات في العالم إنما هي مكون ثالث غير مادي يوجد فيما وراء المادة والطاقة، يقوم "الكون" بمعالجته كما يصنع معالج الكمبيوتر، ولكن بطريقة غيبية مجهولة، ليتجسد ذلك المكون الغيبي أو ذلك المحتوى المعلوماتي (على أثر تلك المعالجة المزعومة) في المادة والطاقة والحوادث المترتبة على نشاطهما المادي المحسوس. ولكن يبدو أنه لا ينتبه إلى أن قوله بنظرية سيث (الكون حاسوب يحسب نفسه بنفسه ويبدع جميع ما يحدث فيه) يلزمه بقبول ما قرره سيث في النقل الآنف من كون المعلومات صفة ذاتية للمادة والطاقة نفسها، مركبة في كل جزء منها على المستوى الكمومي، كما يقال في معلومات البرامج الحاسوبية المحملة على الأقراص الصلبة، التي لا وظيفة لأجزاء الحاسوب إلا تشغيلها، دع عنك استعمال سيث تلك الميتافزيقا في تفسير نشأة الحياة تحت ثلة من القوانين الفيزيائية البسيطة على حد عبارته! وبهذا الجمع بين معلوماتية غيت وحاسوبية لويد المعدلة، يجتمع في اعتقاد الدكتور القول بوحدة الوجود المعلوماتية Informational Pantheism والربوبية المعلوماتية Informational Deism في نفس الوقت، ففي محل القول بأن الكون هو المتفرد بخلق نفسه وتقديرها "حاسوبيا" عند سيث، يجعله الدكتور شريكا للرب في خلق نفسه وإبداعها، فكأن الرب ما زاد على أن خلق في الكون القدرة على الانبعاث الذاتي وعلى أن يبدع نفسه بنفسه، وهذه ربوبية طبيعية محضة، يخلطها الدكتور باتحادية غيت لينتهي إلى هذا الخليط الذي ذكرنا!!

وهذا في الحقيقة تخليط عشوائي عريض بين المذاهب والنحل الميتافزيقية قلّ نظيره في تاريخ الفلسفة! ذلك أن أئمة الفلاسفة المتخصصين في الفلسفة، الذين كانت لهم دراسة نظامية للعقليات وما يتعلق بها، وإن كانوا أئمة في السفسطة وفي اختراع العقائد الواهية، إلا أنهم مع ذلك مدققون نبهاء (غالبا)، يفرغون الوسع في فحص أفكارهم وآرائهم وفي التوفيق بين بعضها وبعض، فرارا من التناقض الظاهر الذي من شأنه إذا ظهر أن يصرف عنهم الناس، وأن ينصر عليهم الخصوم من الأقران! أما صاحبنا الدكتور،

فمن كثرة ما جمع في كتبه من نظريات الطبيعيين ومذاهبهم الميتافزيقية المتضاربة، على قلة باع في التدقيق والتمحيص فيها، وقراءة لا تجاوز مستوى العامي المتثقف في علوم الاعتقاد وعلوم الدين عامة، فهو لا يدري ولا يشعر بأن قارئه لا يخرج من كتاب من كتبه بنفس الصفات والأفعال الإلهية التي يخرج بها من غيره مما كتب، وإن كان الخيط الجامع بينها جميعا والقاسم المشترك الأعظم فيها هو محض التعطيل والشرك الطبيعي، والله المستعان! ولهذا لا يكاد يتهمه أحد بشيء مما يظهر في كلامه في موضع من المواضع من الباطل تصريحا أو اقتضاء، إلا أجاب بأنه لم يقصد ذلك وما خطر له ببال، وبأنه قد قرر خلافه في عدة مواضع من كتبه وأن الناقد إنما أتي من سوء فهمه أو سوء طويته أو كليهما معا! فالرجل لا يكاد يلتفت إلى قضية اللزوم والاقتضاء هذه إلا فيما ندر، وغالبا ما تجد ذلك فيما نقل عمن انتبهوا إليها ممن ينقل عنهم، مع أن العقلاء مطبقون على أنه إذا بطل اللازم بطل الملزوم ضرورة ووجوبا! ولهذا لا يفتأ ينقل النظرية تلو النظرية (على ما فهمه منها)، دونما التفات إلى ما قرره صاحبها في كتابه المنقول منه نفسه، من التزام لوازمها الاعتقادية ومتعلقاتها الفلسفية التي نجزم بأن الدكتور لو قوبل بكثير منها لرفضها بكل حزم! ولم لا؟ أليس قد أصر أشد الإصرار من مؤلفاته الأولى على أن نظرية داروين لا تقتضي طعنا في رب العالمين ولا تعطيلا لصفاته، بل ولا يقتضي قبولها إثبات العشواء الوجودية الدهرية التي هي ركنها الركين وأصلها المتين؟؟

والنكتة المنهجية هنا في هذا الموضع، تظهر بسؤال الدكتور عن السبيل إلى الجمع الأنطولوجي بين النظريتين المنقولتين، أو إن شئت فقل "الخرافتين الميتافزيقيتين": الزعم بأن المعلومات كيان وجودي غير مادي منفصل عن المادة والطاقة، وهو كذلك مكون أساسي للعالم كالمادة والطاقة قد بدأ منه خلق كل شيء، من الكوانطا إلى المجرة، والزعم بأن المعلومات إنما هي نظام قانوني طبيعي ملازم للبنية الأساسية للمادة والطاقة ملازمة كمومية، لا تزيد على أن تكون وصفا للفعل الإلهي الترجيحي الفيزيائي المزعوم! والجواب: لا سبيل على الإطلاق، لأن الأولى تصور صانعا قد ركب شيئا وجوديا عينيا اسمه المعلومات في أصل بنية العالم، وتركه لتنبع منه جميع الموجودات وجميع الطبائع والقوانين (كما هو اعتقاد غيت)، والثانية تصور صانعا لم يزل يضرب الإلكترونات بالقياس الكمومي Quantum measurement فيوجهها إلى حيث يريد، معتمدا في إنفاذ مراداته تمام الاعتماد على طبائعها وخصائصها الفيزيائية (على ما أحدثه الدكتور في نظرية لويد من تعديل)، ولا حقيقة للمعلومات إذن إلا أن تكون هي وصفنا نحن وتصورنا نحن البشري لتلك الأمور! فمن الواضح أن الفعل الإلهي في كلتا النظريتين مختلف غير متفق، لأن مفهوم المعلومات أو المعلوماتية أو

"البيت" فيهما ليس بمتحد! فإن لم يمكن الجمع، وأراد العاقل أن يرجح، فبأي شيء يرجح؟؟ الجواب: لا شيء على الإطلاق، لأن كلتا الخرافتين ضرب من الهذيان الميتافزيقي يُتكلف فيه القياس في الغيبيات المحضة على نحو ما أنزل الله به من سلطان!

ونقول: ما أكثر ما عاث المخرفون فسادا في ميتافزيقا الكوانطم هذه على أثر تأويلات الطبيعيين الهزلية السخيفة لها، النابعة من مغالطاتهم في تصور الحالة الأنطولوجية لموضوع معادلاتها (هل هو موجة أم مجال أم جسيم أم خليط من جميع ذلك، أم ماذا؟)! فإذا كنا مشبهين الكون بكليته بجهاز كمبيوتر عملاق، تجري فيه عمليات حاسوبية مذهلة تفوق العقل، تمضي مطردة على كل جزء منه آناء الليل وأطراف النهار، فأي محل أنسب لحشر تلك العمليات ولوازمها الوجودية من عالم الكوانطا العجيب، الذي قال فيه بعضهم "من زعم أنه قد فهم ميكانيكا الكم فاعلم أنه لم يفهمها"؟؟ لا عجب على الإطلاق من أن يصبح عالم الكوانطم هذا (على سخافة التأويلات الدهرية الفلسفية لما يرصده الفيزيائيون فيه) ملعبا لكل دجال عابث، أو صوفي خرف!

فسيث هذا بدلا من أن يثبت عالما غيبيا فيه الباري جل شأنه مستو فوق العرش والسماوات، وفيه ما للباري من مخلوقات غيبية في السماء والأرض وأسباب غيبية وملائكة تنزل بالأمر منه وتعرج إليه، تنهض بأمر العالم وبما هو مشاهد فيه من حركات وحوادث وأحوال، تراه يحيل تلك الغيبيات كلها إلى برمجة حاسوبية كوانطية توجد في الأعيان وجود الصفة الذاتية في المادة والطاقة نفسها، فلا حقيقة لها إلا جملة طبائع الجسيمات تحتالذرية والمجالات الكمومية على ما هي عليه! بينما يحيلها غيت إلى صفة ذاتية لكيان غيبي غير مادي محايث للمادة والطاقة والمجال الكمومي، يملأ الكون على غرار نظرية الأثير، ثم يقول إنه هو إرادة الرب وعلمه (معلوماته)، ذلك الرب الذي يلزم على مذهبه أن يكون حالّا في العالم حلول الأثير في الفضاء، أو أن يكون العالم كله أو بعضه (العنصر المعلوماتي المزعوم على الأقل) صفة من صفاته الذاتية كما بينا آنفا، سبحانه وتعالى علوا كبيرا!

تأمل مبلغ التخليط الفلسفي في قول الدكتور في كتابه "المعلوماتية: برهان الربوبية الأكبر" (ص. 425): "يتبنى كثير من الفلاسفة القدماء والمعاصرين وجود "مبدأ معلوماتي أعلى"، يسري في كل شيء في الوجود، يطلقون عليه تارة "العقل الكلي"، وتارة "الوعي الكوني" ويسود مفهوم "الحكمة Wisdom" أو "الكلمة Logos" الذي يكمن في الكون ويشكله – في الطرح الديني، فيقابلنا في النصوص العبرية والمسيحية المبكرة، وفي

الإسلام (كن فيكون)، ومع الفلاسفة الدينيين وغيرهم. فما نظرة العلم إلى مفهوم الوعي الكوني؟ الوعي الكوني حقيقة علمية." اهـ.

قلت: الله أكبر! تأمل "كوكتيل" العقائد الفلسفية الوثنية الذي يختمه لك الدكتور بختم الحقيقة العلمية هكذا بكل سهولة، وقل إنا لله وإنا إليه راجعون! كل النحل الفلسفية التي أثبتت صانعا ما، وكذلك كل الملل الكتابية التي ألّهته، أرادت به نفس الشيء! فبالله هل هذا كلام عقلاء؟؟ هذا تصريح بتصحيح دين الفلاسفة الدهرية الاتحاديين، القائلين بقوة ذاتية في الكون هي التي تخلقه وتحركه وهي التي يتم بها تعليل كل شيء فيه! وهو كذلك تصحيح لدين الدهرية الربوبيين الذين قالوا بقوة فائقة غيبية لا حقيقة لها ولا عمل إلا أن كانت منبعا انبثق منه نظام الطبيعة فخلق كل شيء! وهو كذلك تصحيح لدين النصارى القائلين بأن المسيح (أو الكلمة Logos في نصوصهم المحرفة) هو المصدر الأعلى للمعلومات والخلق! وعلى قرمطة الدكتور في قوله تعالى "كن فيكون"، تصبح كلمة التكوين المذكورة في القرآن هي جميع ذلك وزيادة! فبالله هل هذا ما به يحصن المسلمون ضد الإلحاد وفلسفات الإلحاد؟؟ سلم يا رب سلم!

ولا يفتأ الدكتور في النقل عن الفلاسفة الطبيعيين يقرر مفهوم "الوعي الكوني" هذا، فيقول: "لا يقف القول بالوعي الكوني أو العقل الكوني عند الفلاسفة الكبار، بل شاركهم الإقرار بذلك الكثير من كبار العلماء الطبيعيين، وللاستشهاد على ذلك أعود إلى أحد كبار العلماء المحايدين الذين لا تحركهم الأيديولوجية الدينية ولا المادية، وهو أستاذ الفيزياء الرياضية الكبير "اللاأدري" بول ديفيز" اهـ. قلت: تأمل قوله "المحايدين الذين لا تحركهم الأيديولوجية"!! هذا هو بيت التلبيس في كتاب الدكتور أيها القارئ الكريم فانتبه! الرجل ينقل الدين الطبيعي لقرائه على أنه علم طبيعي "محايد" و"لا تحركه الأيديولوجية"، يحسب أنه يحارب الإلحاد ولا يدري أنه يؤصل للملة الطبيعية الدهرية، والله المستعان! يأتي إلى كلام الفلاسفة الطبيعيين الدهرية المعاصرين القائلين بوعي كوني أو عقل كلي أو كون يعي ويحسب ويخلق ويدبر، يخرجه عن حقيقته (أنه اعتقاد ديني دهري طبيعي صرف Naturalistic Religious Belief)، ليعرضه على أنه كلام علمي Scientific knowledge! وإذا بالواحد من أولئك الفلاسفة الذين تابعهم الدكتور على تلك العقائد الدينية الطبيعية المحضة، يعظم أبلغ التعظيم ويقال فيه – كذبا وجهلا وتلبيسا - إنه "من كبار العلماء المحايدين الذين لا تحركهم الأيديولوجية الدينية ولا المادية"، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ويساق كلامه مساق البراهين "العلمية" الساطعة، والحجج الفيزيائية الباهرة في الانتصار لتلك الملة الخبيثة التي اعتنقها الدكتور تبعا

لديفيز هذا وأمثاله! فيبدأ بنقل تقريرات اعتقادية دينية صرفة، ينقلها على أنها كلام علمي فيزيائي منضبط، وليست من الفيزياء ولا من العلم في قليل أو كثير! وعلى رأسها قول ديفيز هذا: "إذا كان المخ وسطا يتمثل / يتجلى فيه العقل الإنساني، فإن العالم الفيزيائي كله يمكن أن يكون وسطا يتمثل / يتجلى فيه عقل إله طبيعي" اهـ.! والدكتور ينقل مقرا موافقا، بل داعيا قراءه للتأمل في "عظمة" هذا "اللاأدري" الكبير إذ توصل إلى هذا القياس، نسأل الله السلامة!

ولعلك لو سألته ما وجه كون هذا الكلام "علميا" Scientific عنده، لأجابك بحماس قائلا: "ألا تراه يقيس الكون بكليته على المخ البشري، على نفس طريقة من سبقوه من فلاسفة الطبيعيات الكبار الذين قاسوه بكليته على البحر الساكن تارة، وعلى الماكينة تارة، وعلى النسيج المطاطي المنحني تارة، إلى غير ذلك! فإذا جاء أخيرا من ينتقي له قياسا يثبت به ما يصلح أن نجعله نحن مدخلا للقول بالصانع، فكيف لا نقبله؟؟" قلت: فعلى هذا المنطق، لا مانع من قياس الكون بكليته على المخ البشري، الذي هو نفسه قياسه على الحاسوب، ولكن مع إثبات روح حية لها وعي وإرادة واختيار وفعل! فإذا ما حصل ذلك الإثبات، لم يبق إذن إلا أن يجعل ذلك الوعي وتلك الروح هي الذات الإلهية أو العلم الإلهي (أو إن شئت: المعلومات)، وإذن يخرج المرؤ – على منهج الدكتور – من الإلحاد ويصبح "مؤمنا"! وإذن فلا ينقص ديفيز هذا إلا أن يقول إن هذا الوعي أو الإله الطبيعي الذي يثبته هو الله الذي نؤمن نحن به، فيصبح بذلك مسلما كامل الإيمان حسن الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولهذا يعقب الدكتور ويقول (ص. 426): "هذا رأي علمي لعالم لاأدري فيزيائي عظيم، إنه إقرار واضح بأن الوعي الذكي يقف وراء الوجود، وهو أيضا وقوف على ضفاف الإقرار بالربوبية، ولا أدري إن كان بول ديفيز فعلها أم ليس بعد." اهـ.!

قلت: وهنا (مسألة "رأي علمي" هذه) هي مربط الفرس فيما يتعلق بالمنهج المعرفي، فتأمل أيها القارئ المحترم! هذا النوع من الأقيسة الكونية الغيبية الفاحشة الذي يراه الدكتور ومن تشبع بنحلتهم، رأيا علميا، ومسلكا مقبولا معتبرا في التنظير العلمي الطبيعي Scientific Theorization، هو في الحقيقة من معالم الدهرية المنهجية الفلسفية Methodological Naturalism التي هي مصدر التلقي المعرفي الأوحد في أمر الغيب وما فيه في دين الدهرية الطبيعيين! كانت كذلك عند نيوتن، وكانت كذلك عند أينشتاين، وكانت كذلك عند ديفيز وعندك أنت تبعا يا من تتابع الدكتور وتوافقه في فلسفته! وبمثل هذا انتصر داروين نفسه، كما بيناه في موضعه، لطريقته في وضع الفرضيات الغيبية المحضة في تفسير

أصول الأنواع، إذ قال ما حاصله أن هذه هي طريقة الفلاسفة الطبيعيين الكبار من قبله، كلهم قاسوا المغيبات المطلقة على ما في الشاهد ووضعوا بذلك فرضيات تفسيرية صارت نظريات اليوم معتمدة أكاديميا، قال (ما معناه) "فإذا أنكرتم علي مبدأي في الافتراض والتنظير فانكروا نظيره عليهم كذلك إن كنتم فاعلين، وإلا تناقضتم"! قلت: وها نحن نحرر بفضل الله تعالى وعونه منهج المسلمين في الرد والإنكار عليك وعليهم جميعا، تحريرا قد بات من الواجبات المتعينة على من يقدر عليه، ثم بيانه للمفتونين بالطبيعيات في زماننا من شباب المسلمين، والحمد لله أولا وآخرا! ينظر الدكتور ومن تابعهم إلى تلك الأقيسة على أنها "علم" ومعرفة، فيقبلون نظيرها (إذا أعجبهم وراق لهم) كما قبلوها بلا تردد، وننظر نحن إليها – هي نفسها - بوصفها دين دهري باطل، وخرف طبيعي محض، فنرد نظيرها كما رددناها ولا كرامة! هذا الخلط المهلك بين الدين الطبيعي والعلم الطبيعي، والزندقة المحضة التي كان ولم يزل يفرزها ذلك الخلط في أمثال الدكتور عمرو، هو الذي من أجله ألفت هذا الكتاب، والله المستعان لا رب سواه!

ثانيا: يتفلسف الدكتور من جهته في محاولة الدمج والتلفيق، معدلا على النظرية بإدخال الفعل الإلهي متمثلا في دور "المعلومات" في النظرية في مسألة "الترجيح الكمومي"، التي يجب في هذا المقام أن نستوقفه لنسأله ما المقصود بها عنده على وجه التحديد؟؟ يجيبك الدكتور بالتلبس بتأويل كوبنهاغن المتهافت، ذلك التأويل الوحيد الذي تكون فيه سحابة الاحتمالات المعرفية حالة وجودية ماثلة في الأعيان لا في الأذهان، تنتظم على هيئة موجة يوجد فيها الجسيم في كل موضع من مواضعها في نفس الوقت، حتى إذا ما وقع القياس أو الرصد Measurement، انهارت الموجة الاحتمالية بالكلية ولم يبق الجسيم عند الرصد إلا في حال معينة من الأحوال الكثيرة التي كان من المحتمل وجوده فيها في نفس الوقت! "فالترجيح" عند الدكتور إنما هو انهيار الموجة Wavefunction Collapse على ميتافزيقا كوبنهاغن! وقد صرح من قبل كما مر معك باعتقاده احتمالية الواقع الكمومي أنطولوجيا، وأن الاحتمالية تتطلب "مرجحا" وأن المرجح لابد أن يكون هو الله (كما عند باسل الطائي الذي أخذ عنه ذلك المعنى)! فخبرني بربك، إن كنت تؤمن بأن الله هو البصير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فمتى وكيف يحصل ذلك الرصد، الذي هو عند الفيزيائيين عملية فيزيائية اقتحامية، يتحول بها الواقع الكمومي من واقع غير مرصود بالنسبة لآلات الراصدين، إلى واقع مرصود؟! وهل كانت الموجة الكمومية واقعة تحت بصر الله تعالى قبل "الترجيح" المزعوم أم لم تكن كذلك؟ إن قلت نعم كانت واقعة تحت بصره ولا شك، قلنا لك، فما هو "الترجيح" هذا إذن الذي تثبته للرب وما معناه؟؟ [20] التحول الكوانطي الذي

تتعلق به، إنما هو عند الفيزيائيين "الرصد" Observation الحاصل لهم بأدواتهم التي يستعملونها من أجله، فما هو عندك، فيما تنسبه إلى رب العالمين هكذا جزافا، أنت وصنوك الطائي؟؟ وكيف وبأي منطق يكون مجرد الرصد أو الإبصار عاملا سببيا في تغيير صفة الشيء المرصود نفسه، إلى حد أن يقال إن للراصد البشري دورا في صياغة الواقع المحسوس بمجرد الرصد، بل حتى قال بعضهم: "أنا مرصود إذن أنا موجود" I’m observed, therefore I am؟؟ يا رجل دع عنك هذا العبث واتق الله!

يقول: "لما اتكلمنا عن نظرية الكوانتم، البعض بيقول إنها بتنكر السببية، وتنكر الحتمية، إحنا أثبتنا أو طرحنا، ونقلا عن أخونا الفاضل، الأستاذ الدكتور محمد باسل الطائي، إن لأ، فيزياء الكم قائمة على عامل مرجح! يعني عكس ما الناس تظن! تنفي السببية لتثبت عاملا مرجحا هو السبب!" اهـ. قلت: تأمل قوله: "البعض بيقول إنها بتنكر السببية"، ثم مضيه ليقول تقريرا إنها "تنفي السببية"! وكذلك قوله "تنفي السببية لتثبت مرجحا هو السبب" وقل لي بربك كيف لا يكون هذا كلام رجل مضطرب متناقض متهافت، ينفي السببية ويثبتها في نفس الوقت، بل وفي نفس الجملة؟! المرجح عند الفيزيائيين إنما هو سبب فيزيائي يا دكتور، وهو الرصد أو المشاهدة نفسها Measurement، وإثباته عند جميع الفيزيائيين إثبات للسببية التي زعمت أنها منتفية في عالم الكوانطم "عند البعض" حتى تجعل الفعل الإلهي المباشر (أو التدخل كما يسميه) بديلا لها في خرافة كوبنهاغن! فالذي حصل هنا أنك تناولت ميتافزيقا الدهرية الطبيعيين الخرافية، ثم تأملت فيها حتى وقعت على ما بدا لك أنه متسَّع (أنطولوجيا) لإثبات الإله الفاعل بصورة ما أو بأخرى، على طريقتهم في التفسير الطبيعي التي سبق أن زعمت من قبل أنك تمنع من إعمالها في الإلهيات والغيبيات! فليت شعري ما هي الإلهيات وما هي الغيبيات عندكم، وأين تنتهي الطبيعة ليبدأ ذلك الغيب الذي تزعمونه، وأنتم لا تثبتون شيئا خارج العالم أصلا ولا شيئا قبله (تأسيسا على ميتافزيقا الزمكان النسبانية كما صرح به الدكتور في غير موضع في قوله إن الإله لا تجري عليه معاني الزمان والمكان)؟؟

أنتم متطفلون على دين الطبيعيين، ترقعونه ترقيعا، تصطنعون منه ملة مختلطة ماسخة لا هي اعتقادهم ولا هي دين المسلمين! فصدق وربي من اتهمكم من الطبيعيين الدهرية بالتنطع على ملتهم وعقيدتهم الغيبية لحشر آلهتكم في "فجواتها"! لقد جعلتم – أنت ومن على شاكلتك – رب العالمين شيئا لا تثبت له الصفات والأفعال ولا تنفى عنه إلا بحسب ما تسمح به النظرية الطبيعية الغيبية السائدة في "الكنيسة الطبيعية" كيفما اتفق لها أن تكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون! مع أنه كان حريا بكم، كما هو منهج أهل

السنة والموقف اللائق بكل مسلم، أن تتصدوا بكل حزم لخرافات القوم وتجاوزاتهم الغيبية، وأن تكسروا صنم القياس الميتافزيقي المحض الذي لم يزل الدهرية يتلقون منه دينهم واعتقادهم الغيبي من عصر ما قبل سقراط في القرن الرابع قبل الميلاد، لا أن تنقلوه إلينا وتنشروه بين المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال (ص. 426) - أو لعله بول ديفيز هو الذي قال، وهو ينقل نقل الببغاء! - معلقا على التنزل مع "الماديين" بالقول بأن القوانين الطبيعية هي التي وجهت نشأة العناصر الأولية المادية كما وجهت انتظامها في منظومات: "وإذا كان هذا المنظور يبدو بسيطا مستساغا، بل وجذابا للماديين، فإنه يقودنا إلى عكس ما يشتهي الماديون! إنه يقودنا إلى دحض المذهب المادي، الذي يقول بأن ليس من الكون إلا المادة! كما يثبت مفهوم الوعي الكوني باعتباره مفهوما علميا يمثل الحقيقة الوجودية الأصلية التي تسبق الوجود." اهـ.

قلت: تأمل تعريف المذهب المادي عند ديفيز الذي نقله الدكتور كما هو، وكان منتهى "مشروعه الفكري" هو السعي في إبطاله، متوهما أنه بذلك يهدم الإلحاد والدهرية! إنه ذلك المذهب الذي يقول أصحابه: "ليس من الكون إلا المادة"! ونحن نسأل الدكتور: سلمنا لك بانهدام هذا المذهب، وتنزلنا بقبول ظهور "أدلة علمية" على أن الكون فيه ما هو مادة وفيه ما ليس بمادة (على ما في لفظة "مادة" هذه من إجمال غير مقبول)، فكان ماذا؟؟ من الذي قال إن القول بوجود أشياء غير مادية في الكون يستلزم بطلان الدهرية والاعتقاد بأنه ليس في الوجود إلا الكون نفسه أو الطبيعة (بعنصريها المادي وغير المادي)؟؟

غاية ذلك المذهب "اللامادي" الذي فرحت به يا دكتور، أن يدعو الطبيعيين الدهرية لأن يستوعبوا في تنظيرهم وميتافزيقاهم التفسيرية نوعا من الموجودات الطبيعية غير مادي، كدعوى الوعي الكوني الكامن في المادة، ودعوى المعلوماتية الوجودية التي هي عنصر ثالث من عناصر الطبيعة، ونحو ذلك مما نقلته في كتابك، وانتهت القضية! ولهذا لا نعجب عندما نرى من الفلاسفة الطبيعيين المغرقين في الإلحاد من يقول بالثنائية الوجودية Dualism، مثلا، فيثبت عنصرا غير مادي للعقل البشري والوعي الإنساني، وينفي – مع ذلك – كونها شيئا غيبيا يبعث في الآخرة ويحشر ويحاسب .. إلخ! وترى الواحد من هؤلاء منخرطا في البحث التجريبي المعملي رجاء أن يثبت وجود ذلك الوعي "غير المادي"، بل وأن يثبت كونه يبقى بعد موت الإنسان، مع كونه لا يؤمن بالغيب ولا باليوم الآخر (وقد نقل الدكتور عن بعض هؤلاء بالفعل، منتصرا بهم على "الماديين")! فغاية هؤلاء الطبيعيين غير

الماديين Non-Materialist Naturalists ومنتهى مذهبهم أن يكون الدهري الطبيعي قائلا بشيء وجودي لامادي كما يقول بالمادة، لا بشيء وراء الطبيعة نفسها، لأنها تبقى لا وراء لها عندهم كما هو أساس دينهم! وهذه هي عقيدة جميع من نقلت من كتبهم في تلك القضية على التحقيق، الملحد العظيم فلان واللاأدري الرائع فلان .. إلخ! فالواقع أنك "تحارب طواحين الهواء" يا دكتور كما يقولون! وكل هذا الضجيج الذي ملأت به آذان أتباعك طوال السنوات الماضية، لا ينتهي إلى هدم الإلحاد كما تزعم! بل ينتصر على مذهب دهري طبيعي معين، لصالح مذهب دهري طبيعي آخر على الحقيقة! ينقل الملاحدة من إلحاد ينفي الصانع فيما وراء الكون، إلى إلحاد يجعله هو الكون نفسه، أو عنصرا لاماديا مستغرقا في بنيته الوجودية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

هذا، أيها القارئ المحترم، هو "علم الكلام الجديد" الذي انتهى إليه الدكتور، وهو ماض الآن في الدعوة إليه في كل محفل! كل هذا من أجل أن يظل ملتزما – تبعا لمن قلدهم – بالطريقة العلمية Scientific Method في الإثبات والنفي، يبدأ أولا من ميتافزيقا الطبيعيات ثم يؤسس عليها اعتقاده في الإلهيات، كما هي طريقة الفلاسفة الطبيعيين منذ زمان طاليس ووصولا إلى ديفيز هذا! لا يهم أن يكون الإله الذي يثبته هذا عقلا فعالا أو حاسوبا كموميا أو مخزنا معلوماتيا أو وعيا لاماديا كامنا في الكون، المهم أن يكون الطريق إلى إثباته هو "الطريقة العلمية" التي لا تصبح الدعوى الغيبية دعوى "علمية" (أي دعوى معرفية Knowledge Claim) في الأكاديمية الطبيعية الغربية، إلا بها!! فإن لم تكن هذه بحذافيرها هي العلموية Scientism التي يتبرأ منها الدكتور في كل مناسبة، والتي هي ذريعة الدهرية الطبيعيين وترسهم الذي يتترسون به لخرافاتهم الغيبية ينسبونها – كفيما كانت - إلى العلم والطريقة العلمية، فليس في الأرض علموية!

ثم بالله كيف يُتصور ألا يعقل الدكتور معنى قول ديفيز "كما يثبت مفهوم الوعي الكوني باعتباره مفهوما علميا يمثل الحقيقة الوجودية الأصلية التي تسبق الوجود" الذي نقله إما بلفظه أو بمعناه مقررا له مقرا عليه؟؟ الحقيقة الوجودية الأصلية التي تسبق الكون، هي الوعي الكوني (الذي هو مبثوث في كافة أجزاء الكون نفسه)، فأي شيء هذا إلا أن يكون تقريرا صريحا للملة الربوبية الاتحادية الطبيعية Naturalistic Pandeism (وهي الاعتقاد بأن مكونا ما من مكونات الكون، كان موجودا قبل الكون نفسه، فأنشأه وابتدأ نظامه وركب فيه معلوماته ثم لم يزد على أن صار هو المحرك الكوني الكامن الذي به يخلق الكون نفسه ويدير نفسه بنفسه)؟؟ نسأل الله السلامة!

تأمل أيها القارئ الكريم في هذه النقاط (ص. 427)، وخبرني بربك من أي ملة تأتي وعلى دين من تصح: "رابعا: حتى هؤلاء الذين يتحدثون عن تطور قوانين الفيزياء، أمثال عالم الفيزياء النظرية الأمريكي لي سمولين، فإنهم يسلمون بوجود مجموعة من القوانين الأولية الأعلى (قوانين بدئية) التي وجهت هذا التطور. وقد عبر الفيزيائي اللاأدري العظيم بول ديفيز عن هذه القوانين الأولية البدئية بقدرة المادة على التنظيم الذاتي، كما عبر عنها الفيلسوف الملحد العظيم توماس ناجل بالقوانين الطبيعية الغائية غير المادية. خامسا: من ثم فإن تلك القوانين البدئية وأيضا القوانين الفيزيائية لابد أن تكون موجودة مسبقا حتى تشكل الواقع لا أن تبزغ منه." اهـ. قلت: كيف يستوي في عقل المسلم العاقل السالم من أهواء الفلاسفة، التسوية بين اعتقاد ديفيز هذا (اللاأدري الكبير العظيم الألمعي ... إلخ!!) واعتقاد المسلمين؟؟ ألا يعقل هذا الرجل حقيقة الملة التي ينقلب إليها من يقبل القول بأن العالم قد خلقته هو وقوانينه، قوانين أولية عليا "بدئية" لا مادية متقدمة على وجوده، أو القول بأن المادة فيها قدرة على التنظيم الذاتي، هي التي خلقت كل شيء؟؟ أحقا يراد من المسلمين الآن أن يتلقوا الاعتقاد في صفة ربهم جل شأنه من الاأدري العظيم والملحد العظيم (وتوماس ناغل هذا لمن لا يعرفه، من كبار مؤسسي المدرسة الوضعية المنطقية في القرن العشرين!)؟؟ أهذا ما تنقلب إليه دعوة الداعية الجهمي فيما يزعم أنه حربه وجهاده ضد الإلحاد؟؟ سلم يا رب سلم! [21]

قال: "سادسا: إن القوانين الأولية البدئية (التنظيم الذاتي والقوانين الطبيعية الغائية غير المادية) التي وجهت إنشاء هذا الكون ينبغي أن تنطوي على الذكاء والغائية، وإلا ما أخرجت هذا الكون الدقيق المتوازن القائل للتنبؤ." قلت: ما معنى أن تنطوي القوانين على الذكاء والغائية؟ الذي تنقل عنه يا دكتور، يجعل الذكاء والغائية صفتين ذاتيتين لذلك الوعي الكوني المزعوم، ويجعلهما غيره وصفا ذاتيا للقوانين "البدئية" المزعومة، حتى يخرج من معضلة التسلسل، فيثبت صانعا قديما هو عين المصنوع، كله أو بعضه! فما معنى "القوانين الغائية غير المادية" هذه التي تقرهم عليها؟؟ وهل تثبت أنت شيئا اسمه "القوانين اللاغائية المادية" حتى تميز هذا الصنف المزعوم عنه بما وصفت؟

ليس القول بقوانين مادية وقوانين لاغائية إلا قول الدهرية نفاة الصانع، وليس القول بقوانين "لامادية" وقوانين "غائية" من نوع القوانين الطبيعية إجمالا، إلا قول الدهرية الاتحادية الطبيعيين، الذين يثبتون صانعا هو عنصر من عناصر الطبيعة نفسها! وسواء هؤلاء أو هؤلاء، فكلا الفريقين يعتقدان في القوانين الطبيعية (سواء جعلوها مادية أو غير مادية) اعتقادا مثاليا

أفلاطونيا، وإن نفوا ذلك عن أنفسهم! فعندما يقال في القانون إنه هو الذي يفعل كذا وكذا، أو يخلق كذا وكذا، فإن هذا إنزال للنظام السببي الإلهي الذي يجريه الرب سبحانه بما ركبه في مخلوقاته من طبائع، منزلة الرب نفسه، ونقل صفات الربوبية إليه من دون الله، وهو ما يقتضي تحويل تلك القوانين إلى موجودات عينية تتصف بصفات ذاتية، ومن ثم يأتي منهم من يقول "بقوانين مادية" لها فعل وخلق وتدبير و"قوانين غير مادية" لها غايات وحكم ومقاصد!

وإلا فما هي الحقيقة الوجودية لجريان تلك السنة الكونية التي تسمى "بقانون الجاذبية" (مثلا)؟ ليس لدينا من العلم بها – نحن المسلمين – إلا أنها أمر الله تعالى ملائكته بالغيب بتحريك الأشياء القريبة من الأرض على نحو مخصوص مطبوعة عليه تلك الأشياء والأرض نفسها في أصل خلقتها (ولا ندري ما حقيقة ذلك الطبع ولا كيف تحفظه الملائكة في محاله فلا نخوض في ذلك!)، فتجتمع الأسباب بأمر الله تعالى في كل مرة (التي منها تحريك الملائكة) اجتماعا تاما، تتحقق معه كافة الشروط السببية وتنتفي كافة الموانع (التي لكل منها ملائكة موكلة به)، لحصول أثر الطبع (الذي هو السقوط) فيحصل في محله حتما، تبعا للمشئية الإلهية، بلا تخلف! فما يصير السبب سببا والطبع طبعا إلا من عمل الملائكة بالغيب بأمره سبحانه (الذي هو نفسه كلمة التكوين التي تفلسف عليها الدكتور فجعلها هي "المعلومات الكونية" و"الوعي الكوني" المزعوم)! فإن شاء رب العزة تبارك وتعالى أن يعطل تلك الطبائع في شيء ما، أمر ملائكته بما يقطع أسباب ظهور أثر الطبع، بل وبما يعكس ذلك الأثر (كانقلاب النار من الحر إلى البرد)!

هذا غاية ما يسعنا أن نقرره في حقيقة ما يجري بالغيب في إطار تلك السنة النظامية الكونية التي نسميها بقانون الجاذبية، وليس لنا أن نتنطع عليها بالقياس (في الإثبات والنفي الوجوديين)، إلا أن يقال إننا نقيس الأثر الظاهر لذلك الطبع على ما يناظره في تجربتنا حتى نتمكن من توصيفه رياضيا بصورة تقريبية تعيننا على الانتفاع منه (كما سبق نظير ذلك من نيوتن وكيبلر وغيرهما)، ولا نعمم ذلك القياس على جميع أنحاء العالم إذ لا نملك ذلك، وإنما على ما هو داخل تحت عادتنا الحسية منه، حيث سبق لنا رصد جريان تلك السنة نفسها، فنجد سببا معقولا لاعتقاد اطرادها ثم. فإذا جاءنا أينشتاين بمعادلة للأسطح الانحنائية (جيومتري ريمان) ولحركة الأجرام وتثاقلها عليها، واكتشف أنها تصف جميع الظواهر الجذبية الواقعة تحت الحس وصفا دقيقا، قبلنا ذلك منه ولا إشكال، ورددنا عليه تمديده القياس على جميع أنحاء العالم حتى زعم في 1917 الميلادية أن الكون هيئته كذا، وأن القانون يؤثر عليه بكليته على نحو كذا وكذا، وأخذ يتلاعب بما سماه

بالثابت الكوني إضافة وحذفا بلا مستند إلا الوهم والخيال! ولا نقبل منه زعمه أن السبب الغيبي لتلك الظاهرة هو وجود سطح منحني خفي في الكون يؤثر على جميع الأجسام، وإن كنا قد قبلنا توصيفه للأثر الظاهر لما في الغيب من أسباب الجاذبية بتلك المعادلات المبنية على ذلك التصور عنده. فمشابهة الأثر المحسوس للأثر المحسوس لا يلزم منها مماثلة المؤثر للمؤثر، وهذا معلوم في بداهة العقل [22]! أي أن تلك الموافقة فيما يظهر من هيئة الحركة لا يلزم منها في نفسها صحة ذلك الزعم الأنطولوجي بشأن حقيقة ما في الغيب والكيفية الغيبية التي بها تنطيع الأجرام السماوية على تلك الحركة. فأيما قياس جاء به أينشتاين في تأويل المشاهدات لتعضيد دعواه الأنطولوجية الغيبية فلا يلتفت إليه (كقوله إن انحناء شعاع الضوء على أثر كتلة الجرم الذي يمر بجواره، دليل على خضوع كل من الجرم والشعاع لتأثير ذلك السطح المنحني الخفي المزعوم)، ولا يضيرنا في الانتفاع من معادلاته (في إطار المنهج الذي بسطنا الكلام عليه في هذا الكتاب) خرفه ومن تابعوه في تصور حقيقة ما يسمى بالزمكان وتأثيره في الأشياء!

والقصد بيان أنه ليس "قانون الجاذبية" هذا شيئا وجوديا عينيا يفعل ويخلق وينظم، وإنما هو طبع تحفظه الملائكة الموكلة به في محله بأمر الله تعالى، وتجريه على تنظيم رب العالمين وتقديره، فإذا قيل إن الأرض تجذب وإن من طبعها "الجاذبية" فلا ينبغي أن يُفهم من ذلك استقلالها بالتأثير الجذبي كما كان اعتقاد الطبيعيين قبل أينشتاين، أو استقلال ما يسمى "بمطوية الزمكان" بالتأثير الجذبي كما هو اعتقادهم اليوم تبعا لأينشتاين! وإنما نجيز أن توصف بأن من طبعها الجاذبية جريا على أسباب غيبية تمضي بأمر الله، ولا تزال مطردة إلا أن يشاء الله! فليس القانون موجودا عينيا تنسب إليه صفات الذوات، وإنما هو اطراد السنة الإلهية بجعل الأسباب أسبابا على ما تقدم، سواء كان موضوع تلك الأسباب والمسببات والطبائع والآثار شيئا ماديا أو غير مادي! وأما الغاية والإرادة والحكمة والتعليل فذلك كله عند الباري جل شأنه، وحده لا شريك له!

هذا هو اعتقاد المسلمين في القوانين، خلافا لدين الدهرية الذي أخذ عنه صاحبنا هذا عقيدته! وما أكثر ما زلت الأقدام في هذه المسألة (مسألة الطبائع والأسباب) من تشبع الخائضين فيها بفلسفات الميتافزيقيين الطبيعيين كيفما اتفق لها أن تكون على عصرهم، والله المستعان! فغلا من غلا حتى نفى الأسباب والطبائع بإطلاق وقال "لا مؤثر إلا الله"، ومن نسب التأثير لغيره كفر، فجحد بذلك ضرورة العقل والحس والعادة بل وصريح النقل كما بينه أئمتنا رحمهم الله تعالى كابن تيمية وابن القيم وغيرهما، ومنهم من غلا في المقابل فجعل القوانين الطبيعية خالقا مع الله أو من

دون الله، تستقل بالتأثير في المادة كيفما اتفق، ثم قال على دين الربوبيين إن الله هو الذي بدأ ذلك الأمر، فاستوعبها بعلمه ولم يستوعبها بقدرته ومشيئته وخلقه (كما هي مقالة القدرية قاتلهم الله)! كل من تكلف التنظير في ذلك ضل وزاغ لا محالة، لأنه غيب عظيم الله أعلم به، فلا نقول فيه إلا بما جاء به السمع تصريحا واقتضاء ولا نجاوز ذلك قيد أنملة ولا أقل من ذلك! فمن لم يعجبه ذلك المنهج، ولم يكفه ما جاء به السمع وما تتابعت قرون المسلمين على فهمه منه، فليس منا ولسنا منه، ونقول له ولأمثاله، قولوا ما شئتم، ((لكم دينكم ولي دين))!

تأمل كيف رتب الدكتور على ما تقدم أن قال: "سابعا: معنى ذلك أن الذكاء ذو القصد (الغائي) هو عامل سببي أولي يوجه تشكيل وسلوك المادة، وليس من إنتاجها (كما يدعي الماديون)." اهـ. قلت: إذن فالذكاء ذو القصد الغائي هذا، على كلامه الآنف، هو نفسه ما سماه ديفيز "بالتنظيم الذاتي" وما سماه غيره "بالقوانين الغائية غير المادية"، التي هي عندهم شيء وجودي عيني "غير مادي" يملأ جنبات الكون! فأي شرك وأي إلحاد فوق هذا؟؟! نسأل الله العافية! ولا يكتفي الرجل بذلك، بل لابد من "تسليك" ميتافزيقا الكوانتم في المسألة وحشرها فيها حتى يبدو الكلام "علميا"، فتراه يضيف: "ثامنا: وأيضا إذا رجعنا إلى ما أثبتناه في الباب الثاني من أن الظواهر الكونية لا يكون لها وجود إلا إذا أدركها الوعي وجعلها – قصدا – حقيقة، عندها ينبغي الإقرار بوجود حالة من الوعي الكوني النهائي تكون هي المدرك الذي يجعل الكون الفيزيائي كونا موجودا." اهـ. قلت: فلا مفر إذن في دين الدكتور من جعل جميع الحوادث ترجع إلى "ثالوث طبيعي مقدس" Pandeistic Trinity يتركب من "أقانيم" ثلاثة: الوعي الكوني النهائي أو المعلومات الكونية، والوعي البشري، وشيء ثالث لا داخل العالم ولا خارجه، تنبع منه تلك المعلومات وذلك الوعي الكوني والبشري معا"! يقول: "تاسعا: من ثم فإن ادعاء الماديين بأن مادة الكون تولد ذكاء كونيا يصبح هو الآلية المدركة (أي المولدة) له! هو تعارض منطقي صريح." اهـ. قلت: الله أكبر! إذن ينتقل الملحد من اعتقاد أن مادة الكون تولد "الذكاء الكوني" الذي يدركها، إلى اعتقاد أسبقية الوعي الكوني الطبيعي والقانون الغائي اللامادي هذا في الوجود على المادة التي تنشأ عنه، فيصير ملحدا اتحاديا ربوبيا بعدما كان ملحدا ماديا، ثم يجد الدكتور وأمثاله يستقبلونه استقبال الأبطال الفاتحين، يقولون له: "أحسنت صنعا وهنيئا لك الإيمان"، وإن لم يقل يوما ربي الله! فإنا لله وإنا إليه راجعون!

ثم لا يجد مفرا من أن يقول: "عاشرا: كذلك ينبغي النظر إلى الوعي والذكاء الإنساني، القادر على إدراك (تشكيل) الكون عند كل شخص،

باعتباره حالة من الوعي المستمد من وعي أعلى." اهـ. قلت: وإذن يصبح الوعي الإنساني هو نفسه الوعي الكوني المزعوم، وهو نفسه الوعي الإلهي، وهو كذلك ما به يحصل خلق الكون وتشكيله، فيصير الإنسان شريكا لربه في السمع والبصر والعلم والقدرة والخلق والبرء والتدبير جميعا، من حيث لا يشعر!!

ثم قال "إن حجية هذه المفاهيم المتسلسلة قوية منطقية، مما دفع العديد من كبار العلماء إلى الإقرار بالوعي الكوني وراء الوجود." اهـ. قلت: أكمل الكلام يا دكتور، وقل: فصاروا ربوبيين يثبتون صانعا طبيعيا "لاماديا" صنع العالم من داخله ثم تركه وشأنه، أو اتحاديين طبيعيين يؤمنون بأن العالم قد خلق نفسه! فهذا هو ما أقروا به تحقيقا، وصرحوا به فيما نقلته عنهم وأقررت لهم به تبعا، ثم جئتنا بدينهم تدعي بكل برود أن هذا هو رب المسلمين وإلههم المعبود، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ثم إنهم لم يقولوا بالوعي الوكني "وراء الوجود" (الذي هو في عامة كتابات الدكتور بمعنى العالم أو الكون، فلينتبه لهذا)، وإنما أثبتوه مكونا أساسيا في بنية العالم نفسه، فغيبهم الذي يثبتون فيه ذلك الذكاء الطبيعي المزعوم إنما هو غيب العالم في إطار الطبيعة، ذلك العالم الذي استغرق الوجود كله عندهم، وليس محلا فيما وراءه، وهو كذلك عند الدكتور الذي لا يثبت شيئا خارج الزمكان المزعوم، ولا يقول إن لله عرشا قد استوى عليه فوق الكون، لأنه ليس فوق الكون فوق عنده! وقد رأينا من أولئك الذين أتحفنا الرجل في كتبه بالنقل عنهم، من يصرح بأن ما سموه بالعلم الطبيعي إذا ما أدخل ذلك الشيء اللامادي المزعوم في جملة نظرياته وقوانينه فلن يكون أمرا "فائقا للطبيعة" بعدئذ، بل يصبح أمرا "طبيعيا" كغيره من موضوعات العلم الطبيعي، وهو المطلوب! وقد نقلت أنت بنفسك كلام روبرت شيدلريك بهذا المعنى فيما تقدم التعقيب عليه، فكفاك تلبيسا وتدليسا يا دكتور واتق الله! وهل يقال للوعي المزعوم إنه "كوني" إلا والمراد منه أن الموصوف به هو الكون نفسه، وصفا ذاتيا له، وليس لشيء فيما وراءه؟؟

تأمل كيف يمضي الدكتور بعد ما تقدم ليضع تقريرا لعقيدته في "الوعي الكوني" هذا على نفس الوتيرة التي استعرض بها مبرهنات "غيت" المزعومة في كتابه، فيضع كل واحدة منها في مربع تأكيدا وتضخيما، يقول (ص. 428): "الوعي الكوني بالمنظور العلمي، هو الحقيقة الوجودية الأصلية التي تسبق الوجود، والتي تولدت منها كل الأكوان. هذا الوعي هو مدرك كل الاحتمالات الممكنة، ومخرج بعضها إلى الوجود تبعا للمبادئ التي يضعها في الاعتبار. إن هذا الوعي هو المصدر المعلوماتي الأعلى وراء نشأة الكون." اهـ. قلت: كذبت بقولك "كل الاحتمالات الممكنة" فهي على مذهب بور

وهايزنبرغ (تأويل كوبنهاغن الذي قلدتهما أنت وتابعَهما صاحبك الطائي عليه)، احتمالات واقعة كلها قبل الرصد، متداخلة متراكبة وجوديا Ontologically Sueperimposed بعضها فوق بعض، بحيث يكون الجسيم على الحال ونقيضها معا في نفس الوقت، حتى يتم الرصد، فتنعدم الحالات الأخرى كلها إلا الحالة المرصودة! هذا هو الترجيح الكمومي الذي صدعنا به الدكتور، يجعله هو "آلية" الذكاء الكوني في خلق الكون! وهو خرافة ترجع إلى مغالطة الاحتمالية الوجودية Ontological Probability التي أشبعناها نقضا في هذا الكتاب وغيره. ولو صدق الدكتور لقال: الوعي الكوني بالمنظور الديني الطبيعي الربوبي الاتحادي Naturalistic Pandeistic وليس "بالمنظور العلمي" Scientific! وتأمل قوله "تولدت منها"، فهذه هي حقيقة الخلق عنده، تولد شيء طبيعي مادي من شيء طبيعي غير مادي متقدم عليه وجوديا، جريا على ما سماه نقلا عن أساتذته الذين تشرب بدينهم "بالقوانين البدئية"! فإن كان الفيلسوف الطبيعي ولابد مثبتا صانعا ما بالغيب، فلابد أن يكون هو ذلك الشيء غير المادي الذي لم تزل المادة "تنبثق" منها ابنثاقا Emerges، كمقالة أرسطو في العقل الفعال الذي لم يزل العالم ينبثق منه من الأزل وجوبا!

ينتقل الدكتور بعد ذلك إلى خرافة أخرى يعدها من أظهر القضايا "العلمية" التي تترتب على جميع ما تقدم منه تأسيسه في كتابه الخبيث هذا، فيقول (في برواز مربع جديد) (ص. : "إن الوعي الكوني يحتاج إلى كيان واع غير مادي." فهذا الكلام ينقض أوله آخره، إذ الكونية في قوله "الكوني" تجعله صفة للكون نفسه، بما فيه من مادة وغير مادة، وإذن يكون الشيء الواعي هو الكون نفسه، وليس كيانا آخر مغايرا له مباينا له! لا سيما وقد تقدم أن الدكتور يعتنق ميتافزيقا الزمكان النسبانية، فلا يثبت لصانعه أي صفة تقتضي معاني "المكانية" أو "الزمانية"! فإن لم يكن ربه في العالم ولا خارج العالم، وكان الاعتقاد هو إثبات ذلك الوعي الكوني في الكون، يُجعل شيئا موجودا غير مادي يوصف به الكون نفسه، فماذا بقي إلا أن يجعل الكون نفسه هو الواعي وهو الخالق، مع جعل "وعيه" أو "معلوماته" الكامنة فيه هي الموصوفة باللامادية؟ هذا هو اعتقاده الذي لا براءة له منه إلا بإعلان التوبة من هذا الكتاب والتراجع عن جميع ما قرره فيه من عقائد، والله المستعان لا رب سواه!

ثم يعلق الدكتور قائلا: "وهذا يتماشى مع ما سبق أن أثبتناه من أن المصدر المعلوماتي الأول – الإله – ينبغي أن يكون غير مادي." قلت: وكذلك لما تشبع الجهمية القدماء بنظرية الجوهر والعرض اليونانية وما ترتب عليها من تعريف ميتافزيقي متنطع للحدوث، قالوا ينبغي ألا يكون الإله محلا للحوادث،

لأنها لا محل لها إلا الجواهر المخلوقة، فما أشبه الليلة بالبارحة! صدعت رؤوسنا بمسألة "غير مادي" هذه يا دكتور وكأنك إن أثبتها فقد قهرت الملحدين قهرا وكسرتهم كسرا!! فما المقصود بالمادة أصلا؟؟ هلا تكرمت وتفضلت علينا بتعريفها أولا، قبل أن ترفع عقيرتك بمحاربة من زعموا أنه ليس في الوجود إلا ما يوصف بأنه مادة؟؟ فإنه – والله – لا يحل للمسلم أن يثبت أو أن ينفي معنى المادة أو المادية عن رب العالمين نفسه، حتى يقف على حقيقة مقصودكم بتلك اللفظة، كما منع أئمتنا رحمهم الله تعالى من نفي معنى الحدوث عن أفعال الله تعالى ومن إثباته دونما استفصال ممن يستعمل تلك اللفظة في حقه عن حقيقة مقصوده! فإن كان المقصود بالمادة كل ما له وجود قابل – مبدئيا – للدخول تحت الحس، فوجود الله تعالى إذن داخل في معنى المادة ضرورة! أليس قد أسمع موسى عليه السلام كلامه بصوته وكلمه تكليما، سبحانه وتعالى؟ فهذا حس أم ليس بحس؟؟ أليس قد ثبت في الحديث المتفق عليه الذي أجمعت الأمة على تصحيحه أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة؟ فهذا دخول تحت الحس (وإن اختلفت حالة حواسنا وكيفية عملها يومئذ عما هي عليه الآن) أم ليس كذلك؟! فلإن كان هذا هو معنى المادية، فلا يجوز نفيها أصلا عن رب العالمين!

أما إن كان المقصود بالمادي أي الموصوف بصفات تشترك في معانيها مع شيء من موجودات العالم (كالصفات التي تتعلق بمعاني الزمان والمكان مثلا)، فهذا لا حقيقة لنفيه عن رب العالمين إلا نفي وجوده سبحانه بالكلية وتصييره عدما! فإن مجرد صفة الوجود نفسها يشترك فيها الباري جل شأنه اشتراكا معنويا – وجوبا وبداهة – مع جميع موجودات العالم! ولولا أن تنطع أينشتاين على مطلق معنى الزمان والمكان فجعلهما عنصرين في موجود عيني لا يخرج عنه شيء من الموجودات والحوادث في الأعيان البتة، ما وجد الدكتور ما يجوّز في عقله تعطيل رب العالمين عن مطلق السؤال عن صفاته وأفعاله بأين وبمتى، وكذلك فلولا أن تنطع أرسطو من قبل على مطلق معنى الحركة والتغير فقال إنه لا حقيقة لهما إلا ما نتوهم حصوله من تقلب أحوال الجواهر المعلقة في خلاء العالم (بتقلب ما سماه بالأعراض عليها)، أو ما يحصل من تقلب الهيولى المزعوم من صورة إلى صورة، لولا هذا ما وجد الجهمية القدماء ما يجوز في عقولهم تعطيل رب العالمين عن مطلق حدوث القول منه بعد القول والفعل بعد الفعل والتقلب من حال إلى حال ومن شأن إلى شأن سبحانه! عطله السابقون عن كل معنى منسوب إلى لفظة "جسم" في ميتافزيقاهم الطبيعية، على أساس أن الجسم إنما هو ما يكون من موجودات العالم الخاضعة لنظريتهم الكلية، واليوم يعطله هؤلاء عن كل معنى منسوب إلى لفظة "مادة"، أيا ما كان تعريفها عندهم،

ولنفس السبب الميتافزيقي الفاسد! وكما سمونا معاشر أهل السنة من قبل بالمجسمة (من الجسم) على أثر ذلك العبث الميتافزيقي الذي تشبعوا به، فلا تعجب إن رأيت المعاصرين يسموننا بالممددة (من المادة) مثلا [23]، وإن كنت أرى المعاصرين بالجملة أضعف علما وأخف عقلا من أن يسلكوا نظير ما سلكه أسلافهم من خلف الأمة في معركتهم مع أهل الحديث، كاختراق المعاجم اللغوية بتعاريفهم الجديدة، ومنافسة طوائف المتكلمين المسيطرين على جامعات الشريعة! ومشايخ الأشاعرة المعاصرين لن يقبلوا – في الغالب – من جديد الكلام ومن التعريفات الميتافزيقية الجديدة إلا ما كان موافقا، أو أمكن التوفيق بينه وبين ما تربوا عليه في كتب أئمتهم، بصورة ما أو بأخرى! [24] ولكن هذا لا يعني أن خطر جهمية الطبيعيات المعاصرين هؤلاء وإفسادهم لدين المسلمين بما ينشرون وما يدعون الناس إليه من النظريات والعقائد في الجامعات وفي الكتب المطبوعة في بلادنا ليس كخطر أسلافهم! فإن أكثرهم أساتذة جامعيون أصحاب رأي مسموع وشأن مرفوع ولهم تلامذة وأتباع ينشرون أفكارهم على أنها هي "العلم" وما انتهى إليه العلم، وما لا يليق بمن يماري فيه إلا اسم الجهل، وحسبك أن تطالع صفحات القوم على الفيس بوك لترى مصداق ما أقول، قاتلهم الله جميعا وكفى المسلمين شرورهم!

فإذا كانت النظرية التي يضعها الفيلسوف الطبيعي والميتافزيقي تتلاعب بالمعاني الكلية الأساسية في لغات البشر للزمان والمكان والتغير والحركة والحدوث والصورة والجسم والخلق والتكيف والتطور والمعلومات والوعي وغير ذلك من معاني كانت تعرف قبل ذلك في اللغات البشرية معرفة أولية قبلية مجردة من تلك النظريات والأقيسة الغيبية الخبيثة، لزم بالضرورة كل من يقبل تلك الحدود والتعاريف كما هي، أن يتلاعب بصفة وفعل الصانع الذي يثبته إن كان ولابد مثبتا، وأن يصطنع لنفسه اعتقادا إلهيا جديدا يلائمها وإلا تناقض بين أيدي الأقران والأتباع، وهو ما يكرهه أحدهم لنفسه كما يكره أن يفقد بصره! هذا ما سلكه من قبل أرسطو ونيوتن وأينشتاين، ويسلكه اليوم غيت وديفيز وسمولين وغيرهم، والدكتور تبع لهم جميعا، يريد أسلمة دينهم بكل طريق! تغيرت النظرية المتنطعة المتهافتة المعتمدة أكاديميا لحقيقة "الواقع" (هكذا!) عند فلاسفة الغرب، وبقي المرض الخبيث في قلوب المفتونين من بني جلدتنا بأكاديميات القوم كما هو، نسأل الله السلامة!

فما هو الشيء "المادي" إذن؟ هل المقصود الشيء الذي تجري عليه قوانين الطبيعة؟ إن كان كذلك، فهو منتف عن رب العالمين قطعا، ولكن هذا يقتضي إسقاط نظرية الوعي الكوني ونظرية المعلومات الكونية كذلك،

وكل هراء كوني جئت به في هذا الكتاب! ذلك أنك تنقل إلينا تنظير من يجعل المعلومات موجودا عينيا غير مادي، ويضع له من القوانين ما يجعله من جملة قوانين الطبيعة! وكذلك يصنع صاحب نظرية الوعي الكوني، يريد أن يدخل ذلك الوعي المزعوم تحت قوانين الطبيعة، كروجر بنروز الذي يرى أن الوعي نفسه من حيث المبدأ ظاهرة طبيعية لابد وأن تكون لها قوانين طبيعية يرجو الوصول إليها من طريق ميكانيكا الكم! وهكذا كلام من قال بالقوانين البدئية الغائية، فهي أصلا قوانين طبيعية عنده، تحكم نظاما طبيعيا يعتقد هو أنه قد انبثقت منه هذه القوانين التي نعرفها، التي خلقت وشكلت العالم كما نعرفه على وفق كوزمولوجيا الانفجار المزعوم! أما إن كان المقصود الأشياء التي تتركب منها أجزاء العالم، فهذا منتف عن الله قطعا، ولكنه إذن يخالف مفهوم "غيت" للمادة، لأن المعلومات عنده من جملة العناصر التي يتركب منها العالم، إلى جانب الطاقة، والمادة التي هي قسيم الطاقة في استعمال الفيزيائيين!

فلا تفرح بنفي معنى المادية عن ربك جل وعلا يا دكتور، وأنت لا تدري أصلا أي شيء نفيت! وبمثل ذلك العبث في المجملات، جاء تقرير الرجل للقضيتين التاليتين المبروزتين في مربعين في الكتاب، حيث قال في الأولى (ص. 429): "إن العقل هو المكون الأساسي للواقع النهائي، وأنه سابق لكل الكيانات الفيزيائية"، وقال في الثانية (ص. 430): "الوعي الكوني هو الكيان الوحيد الذي لا يمكن أن يخرج إلى الوجود المدرَك أو أن تصبح على غير طبيعته، إذ أنه لازم لإدراك بقية الاحتمالات كلها." اهـ. قلت: فما معنى "المكون الأساسي" وما معنى "للواقع النهائي"؟؟ على نظريات من نقلت منهم يا دكتور، فإن المكون الأساسي للواقع Fundamental Component of Reality معناه أنه لا يخلو منه شيء من الموجودات في الواقع الخارجي على الإطلاق! فإن كان هو عندك صفة من صفات الإله الذي تثبته، لزم الاتحاد! وإلا فما هو "الواقع النهائي" هذا أصلا؟؟ وما معنى "لا يمكن أن يخرج إلى الوجود المدرك" هذه؟؟ ما معنى الخروج منه عندك حتى تقول بالخروج إليه؟؟ هل المقصود الدخول في جملة الموجودات التي يمكن إدراكها في العالم؟ فما المقصود إذن بإدراكها، هل المقصود الإحاطة بها أم دون ذلك، وهل المقصود ببعض الحواس أم بكلها؟؟ وما معنى "أن تصبح على غير طبيعته"، التاء في تصبح تعود على ماذا؟؟ وطبيعة من؟؟ عبث في عبث وتعمية محضة، وتلاعب بالألفاظ لا أول له ولا آخر، يضربه الدكتور في وجه القارئ، ثم يأتي بكل سماجة ليقول تحت المربع، ذرا للرماد في العيون: "سبحانك ربي عز وجل"!! قلت: والله ما عدنا نعرف من "ربك" هذا الذي تسبحه في نهاية كل فصل، فقطعا ليست هذه هي صفة رب العالمين الذي يعبده المسلمون، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

يقول في مقطع الفيديو الذي نقلنا منه آنفا:

> وقلنا إننا اجتهدنا ودورنا على العوامل المرجحة، الأماكن اللي بيمارس فيها الترجيح في العمليات الكمومية! قلنا إذا كان عملية كذا، قدامها احتمالات ألف وبه وجيم ودال، بس، ليه لإن الاحتمالات دي مش لانهائية، إيه اللي اختار أنهم يبقوا الأربعة دول بس؟ لابد من عامل مرجح! وإذا كانت الأربعة دول، لما ييجي يتم الاختيار بينهم، ممكن يتم اختيار الاحتمال اللي نسبته أقل، واحد في المية، ويسيب اختيار خمسين في المية، اختيار الواحد، وترك الخمسين في المية، يحتاج لعامل مرجح! وقلنا بردو لما بنيجي نرصد الظاهرة، اللي بيسموها انهيار الدالة الموجية، نرصد الاحتمال، عشان تبقى ظاهرة تخرج إلى الوجود، دايما بتخرج، تتبع قوانين نيوتن! ليه الاحتماليات بتاعت الكوانتم في العالم الدقيق، لما نيجي للعالم الكبير تتبع قوانين نيوتن؟ عاوزة عامل مرجح! يبقى القضية إن الكون كحاسوب كمومي..

قلت: إذن القضية بإيجاز هي أن العالم احتمالي فوضوي محض من حيث الأصل على المستوى الكمومي، وأن الموجة الاحتمالية تنهار على ما ترجحه "المعلومات الإلهية" لجسيماتها حال الرصد! وإذن يقيم الدكتور "المعلومات" (من حيث هي كيان وجودي غير مادي في الأعيان) مقام الراصد البشري عند بور وهايزنبرغ، ويجعل انهيار الموجة الكوبنهاغني تجسدا لتلك المعلومات التي كانت من قبل "غير مادية"! إلى أن قال: "دعونا من هذا كله! إذا اعتبرنا إنه حاسوب كمومي، من الذي صنعه؟ من الذي برمجه، إنت اللابتوب بتاعك لو واحد قال لك ده اتوجد كده لوحده، أنت مش هاتصدقه! لابد من صانع ومن مبرمج!" اهـ. قلت: فيا رجل، أما كان يكفيك أن تقول من أول الأمر، وقبل التلبس بتلك الخرافات الميتافزيقية الفاسدة، إن الكون لا يمكن إلا أن يكون له صانع، كما أن اللابتوب الخاص بك لم يوجد لوحده، بل لابد من صانع صنعه، وتنتهي القضية عند هذا؟! لماذا يلزمنا حتى نقرر ذلك المعنى البدهي الظاهر الذي انتهيت أنت نفسك إلى المحاججة به بعد طول لجج، أن نقدم له بهذا الهرف الميتافزيقي السخيف، في دعوى المعلومات غير المادية المتجسدة، وفي دعوى الحاسوبية الكوانطية الكونية، وغير ذلك مما حرره الملحد العظيم واللاأدري الجليل والربوبي الكبير .. إلخ؟! الجواب: حتى يأتي الكلام على هوى المفتونين بتلك النظريات، ويصبح المتكلم صاحب سبق في بيان أن نظريات الفيزياء فيها ما يثبت الصانع، خلافا لما يزعمه الطبيعيون! أليس قد قال في غير مناسبة بما معناه أنه لا يرى في "علم الكلام" التراثي مادة تصلح لإقناع الشباب

المعاصر بأن العالم حادث، ومن ثم بوجود الباري، على أساس أنها كانت لغة العصر قبل عشرة قرون، ولم يعد أحد من الفلاسفة يتكلمها اليوم؟ فلنأت إذن بمادة كلامية جديدة لعلها تصلح!

يقول:

> مش كده وبس، مين اللي بيلزم موجودات الطبيعة بالمعلومات اللي بتخرج من الحاسوب الكمومي؟ الحاسوب الكمومي بيخرج معلومات، طيب مين اللي بيلزم موجودات الطبيعة بيها؟ هنا فيه معنى في منتهى الجمال، طرحه مولانا أبو حامد الغزالي في كتاب العلم في إحياء علوم الدين، لما جيه يتعرض لمعنى "الخالق، البارئ، المصور"، فقال: الخالق باعتبار العلم الإلهي بما يخلق وبهيئة ما يخلق! عامله زي إيه، ولله المثل الأعلى، المهندس، عنده تصور عن تصميم العمارة اللي هايبنيها، طول ما هي في ذهنه، هنا اعتبار، ولله المثل الأعلى، هنا مفهوم الخالق! البارئ، أخرجها للوجود! يبقى الخالق، الوجود في العلم الإلهي، البارئ، أنا برأتها، البير أنا فحتتها، زي ما قاله سيدنا عمر، بمعنى أخرجها إلى الوجود! المصور أن يكون البرء الإخراج للوجود، تبعا للعلم الإلهي! مش مخالف! ده لما ييجي الخالق البارئ المصور مع بعض، إنما لو جيه الخالق لوحده؟ عملية الخلق على بعضها، الثلاثة مع بعض!

قلت: فما معنى قولك "المعلومات اللي بتخرج من الحاسوب الكمومي"؟ هل نفهم من هذا، أن مصدر تلك المعلومات لديك (التي هي مرحلة الخلق والتدبير الإلهي على دينك) إنما هو الموجة الجسيمية الكمومية في المادة؟ هذا يجعل من التدبير الإلهي والعلم الإلهي الكاشف بجميع المخلوقات صفة ذاتية للموجة الكمومية نفسها، يكون فيها كما يكون التصميم في ذهن المصمم في المثال الذي ضربته، وإذن يكون الله هو الموجة أو تكون الموجة صفة لله، والله المستعان! فإن قال: أنا لا أزعم أن المعلومات هي علم الله الذي يكون في نفسه، وإنما أزعم أنه "تكويد" لذلك العلم كما يكون في جينات الكائن الحي، قيل له إن الواقع الكوانطي فيما قبل لحظة الرصد والقياس، على مفهوم مدرسة كوبنهاغن التي تنتمي أنت إليها من حيث لا تشعر، لا يجعل للمادة حالة يمكن أن تناظر حالة الجينات التي تحمل أكوادا تجري عليها عمليات كيميائية معينة في الخلية، بل يجعلها حالة تحمل الكود وخلافه بل ونقيضه معا في نفس الوقت! ثم إن "فيرنر غيت" يزعم أن المعلومات "غير مادية" وأنت توافقه في هذا! وقد وقع في كلامك السابق أن الاحتمالات ليست هي المعلومات، وإنما المعلومات أمر إضافي

هو الذي يترجح به الاحتمال الصحيح! فأي شيء تكون إذن تلك المعلومات وما محلها وجوديا، وما علاقتها بالمجال الكمومي ودالة الموجة؟؟

ثم يرجع الدكتور وينقض ما أسسه في قياس الحاسوب هذا فيقول: "هذا الطرح في الحقيقة، ويعني طرح العامل المرجح، الذي هو الخالق البارئ المصور، طرح في منتهى الإبداع ومنتهى الأهمية، يجعل عامل مرجح في كل عملية كمومية بتحصل، على المستوى تحت الذري، متابع، رب العزة لم يضع قوانين زي ما الناس بقى اللي مش فاهمة في الكوانتم، يضع القوانين وسابها تشتغل! ده في كل ترجيح كمومي بين الاحتمالات، يد الله موجودة هي التي ترجح! الله عز وجل في الوجود، ما أقول ملاصق للوجود، الوجود .. يعني.. مالهاش وصف! هذا هو معنى الله عز وجل القيوم!" اهـ.

قلت: يا دكتور، إذا كانت الاحتمالات الكمومية تكون في الموجة أو المجال الكوانطي لا يمتاز فيها شيء عن شيء، حتى يأتي الرب – على عقيدتك – و"يتدخل" ليرجح أحد الاحتمالات على غيرها، فيصبح هو الذي يحدث وهو الذي يقع لا غيره، فما معنى أن يقال إن ثمة "حاسوب كمومي" تخرج عنه "المعلومات غير المادية" التي بها يجري الخلق وتجري جميع حوادث العالم؟؟ لا معنى على الإطلاق، وإذن تسقط نظرية "المعلومات الحاسوبية الكوانطية" هذه على أم رأسها! فالمفهوم إذن هو أن موجات الاحتمالات الكمومية هذه لا معنى لها، ولا يكون لها علاقة بما هو واقع في العالم حقيقة حتى "يرجح" الرب ما يرجحه فيها، بصورة ما أو بأخرى [25]! وهذا التصور في الحقيقة فيه أيضا، وكما تقدم، أحد لازمين لا ثالث لهما، إما تعطيل لصفات الله تعالى وإما اتخاذ مصدر تلك الموجة الاحتمالية الوجودية شريكا له في الخلق! فإما أن يكون جريان الموجة الكوانطية هذه على ما تجري عليه في الطبيعة أمرا لا فعل لله فيه ولا خيار، حتى يحصل "الترجيح" المزعوم من قبله، إذ "يتدخل" الإله بمشيئته ليجريها في العالم بالترجيح من بين الخيارات المتاحة أمامه لكل جسيم، فتنهار موجة الاحتمالات الوجودية إذن ويبقى الخيار الذي اختاره الله! وإذن فيكون الفعل الإلهي واحدا من علل الحدوث (كما أن القياس الكوانطي الذي يقع من الإنسان في المعمل يكون سببا من أسباب وجدان الجسيم على ما يوجد عليه حال الرصد) وليس هو تعليله التام أو سببه الكافي! وهذا عبث يقتضي كما ترى جعل النظام الطبيعي (المعلوماتي بحسب عبارته هو ومن نقل عنهم) المنتج لتلك الاحتمالات كلها وللقوانين التي تحكمها، شريكا لله في الخلق والبرء و"الإنتاج" و"الإحداث"! وإما أن يكون قد خلق تلك الاحتمالات الوجودية المزعومة كلها دون غاية أو حكمة، وهو لا يريد منها في كل مرة إلا حالة واحدة فقط، "يتدخل" من أجل أن يعدم جميع الأحوال الأخرى المخالفة لها! وهذا لازمه نسبة العبثية

واللاغائية والفوضوية إلى أصل الخلق الإلهي، كما بينا مرارا في هذا الكتاب أنه مقتضى مفهوم الخلق بالتطوير عند هؤلاء، ويقتضي إخراج أكثر خلق الله من سلطانه وعلمه وحكمته، بما يوجب عليه أن يرجع فيما بعد "ليتدخل" فيه ليجريه على مشيئته! وكلا اللازمين كما ترى أخبث من أخيه! وأما نحن المسلمين فنقول بجزم وقطع منصرم، إن الله لا يخرج شيء في الأرض ولا في السماء عن سلطانه وعلمه وإرادته طرفة عين ولا أقل من ذلك، حتى يكون خلقه "بالتدخل الإلهي" أو "الترجيح" من جملة اختيارات! وأنا لا أتصور والله كيف يمكن أن يكون قد خفي هذا المعنى الشركي الطبيعي المدمر، والتعطيل الدهري الخبيث على عمرو شريف وعلى باسل الطائي من قبل وعلى جميع من تابعهما، وكيف استساغ الدكتور عمرو أن يحيل قراءه على أولئك الدهرية الأقحاح الذين قرروه في كبتهم بكل أريحية، نسأل الله السلامة!

فإن تنطع الدكتور أو بعض أتباعه علينا فقال: ولكن أنا لا أقصد هنا بالترجيح إلا ما يقصده الفلاسفة بقولهم إنه لا يحدث حادث إلا بمرجح، قيل له: هذا المعنى يجري على كل حادث، فلا يحدث شيء في العالم إلا كانت مشيئة الرب هي التي ترجحه على عدمه وعلى خلافه وجوبا، وهذه مسألة بدهية ولا شك! ولكن ليس هذا ما يريده الفيزيائيون بالترجيح الكوانطي الذي به تنهار دالة الموجة عندهم Wavefunction Collapse (بحسب تأويل كوبنهاعن)، وإنما يقصدون به عملية القياس الرصدي التي إذا وقعت، تحول الواقع الكمومي بزعمهم من وجود الجسيم في جميع المواضع المحتملة له وجودا حقيقيا على احتمالات متفاوتة، إلى إسقاط جميع الاحتمالات المخالفة للوضع الذي يرصد عليه تحقيقا حال الرصد! أي يتحول الواقع بذلك من الاحتمالية الوجودية لأحوال شتى يوجد الجسيم فيها جميعا في نفس الوقت، إلى حال واحدة متعينة لا يُحتمل وجوده على خلافها ولا يتوقع رصده في غيرها!

هذا التحول هو مقصودهم بالترجيح على أثر القياس، ذلك الترجيح الخرافي الذي ضرب شرودينغر مثل القطة الشهير للتنبيه إلى تناقضه، وهجم عليه الدكتور الطائي (وعمرو شريف على أثره) بكل سذاجة ليجعله "ترجيح الإله" وفعله في الخلق والبرء والتصوير، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فإذا جعلتم هذا هو الترجيح، فمن الواضح أن ما كان قبله من حال الموجة الاحتمالية المزعومة ليس محلا للترجيح، وإنما يحصل الترجيح "بهدمها"، وإلا لم يكن له معنى على مذهب مدرسة كوبنهاغن! فكفاكم تمحلا في خرافات القوم وتشبعا بها واتقوا الله في دينكم وفي المسلمين!

لا أدري والله من المستفيد من هذا العبث والهذيان الميتافزيقي الطبيعي والضلال البعيد الذي أغرق فيه هذا الرجل أتباعه، ولم يزل ماضيا في المزيد منه، كلما وقع على نظرية ميتافزيقية أعجبته عند الطبيعيين، ورآها تمهد لقبول الكوزمولوجيا الانتفاخية والبيولوجيا التطورية، التقطها ولبسها بدين المسلمين تلبيسا، نسأل الله السلامة! فلا المسلم يزداد إيمانه بتلك النظريات، ولا الملحد الطبيعي المتمسك بأصول الطبيعيين يقبل منه نظرياته هو ومن نقل عنهم، فضلا عن أن يترك إلحاده من أجلها! وإنما تخترع نحلة جديدة وعقيدة بدعية ما أنزل الله بها من سلطان، يظن بها أصحابها خدمة العلم والدين، وما هي إلا هدم العلم والدين جميعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! ولا يقبلها منه إلا ثلة من شباب غرّ لا عقل لهم ولا علم بعقيدة المسلمين، أعجبهم ما فيها من مصطلحات الطبيعيين، فحسبوها هي العلم الموافق للدين، وهي المذهب الدامغ للملاحدة وهي الحق المبين، والله المستعان لا رب سواه! فهل تنشأ الفرق الجهمية وطوائف الزنادقة، بل والملل الدهرية الفلسفية، عبر قرون المسلمين إلا بمثل هذا؟؟ نسأل الله العافية!

هذا الاعتقاد نهايته، أيها القارئ الكريم، أن يقال إن المجال الكمومي الكوني أو الفراغ الكمومي Quantum Vacuum قديم أزلي، ولم تزل فيه قوة لامادية كامنة (أو قوانين غائية عليا كما نقله الدكتور عن "اللاأدري العظيم" بول ديفيز، كما يلقبه، وعن توماس ناغل "الملحد الكبير"" مؤسس الوضعية المنطقية في القرن الماضي) تخرج عنها إرادات "ترجح" سلوك الجسيمات في ذلك المجال الكوني، فتحرك كل متحرك، ومنها إرادة خلق الزمان والمكان من فردية الانفجار المزعومة، فهي في حقيقتها "عقل فعال"، أو إن شئت فقل "معلومات لامادية فعالة"، تتصف القوانين الفيزيائية كلها بأنها من صفاتها الذاتية، إذ هي يدها التي بها لا بغيرها تخلق وتبطش، ولا يتصور لتلك اليد وجود، ولا للعقل الذي يحكمها، إلا في إطار المجال الكمومي القديم، ونظامه السببي الطبيعي! وإذا بنا ننتهي إلى تقرير ملة أرسطو الاتحادية الطبيعية، ولكن بمذاق الكوانطم ونظرية المعلومات! فتأمل كيف يخرج عمرو شريف الملاحدة من إلحادهم، ليرجعهم إليه من جديد ولكن من باب الإسلام وتحت راية الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله! يأتي بنظريات أولئك الدهرية الربوبيين والاتحاديين السفهاء، ثم يزينها بقوله "قال ربي" و"فعل ربي" و"صنع ربي" و"سبحانك ربي" .. إلخ، فتصبح هي الدين الحق، وإنا لله وإنا إليه راجعون! [26]

فالدكتور بعدما كان يومئ ويعرض تعريضا في كتبه السابقة على هذا الكتاب، قد بات الآن يصرح بأنه يدعو المسلمين إلى دين الفلاسفة

الطبيعيين المتألهين Theistic Naturalists، الذي هو خليط بين عقيدة داروين من جانب، وعقيدة أنتوني فلو، وبول ديفيز وفيرنر غيت وسيث لويد وروبرت شيلدريك وغيرهم من الدهرية الطبيعيين المتفلسفين (المنتسبين منهم إلى النصرانية وغير المنتسبين) الذين استعملوا طريقة التجريبيين والطبائعيين Scientific Method في تقرير الاعتقاد الغيبي بوجود قوة كونية ذكية أو وعي كوني لامادي كامن هو من العالم كالروح من الجسد، يفترضونه كما افترضت من قبل فرضية الفراغ الوجودي المطلق وفرضية الأثير وفرضية الزمكان وغير ذلك من موجودات يزعم القائلون بها استغراقها جميع جهات المكان والزمان! [27] فأنا أستحلفكم بالله يا أتباع الدكتور، هل هذا هو الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعلمه أصحابه؟؟

المفترض أن الدكتور يؤمن بأن مصدر القوانين الطبيعية كلها هو الله جل وعلا، أليس كذلك؟ تأملوا إذن قوله (ص. 207): "يتساءل اللاأدري بول ديفيز: هل يمكن أن نضع نظرية للقوانين الفيزيائية؟ يقصد بول ديفيز بتساءله أننا بدلا من اعتبار أن قوانين الفيزياء هي السوبر سلحفاة في أعلى برج السلاحف [28]، ونقبل ذلك كبديهية لا نتساءل حولها، هل يمكن أن نحرك هذا المفهوم (البديهي!) خطوة لأعلى، بأن نتساءل: لماذا كانت القوانين هكذا؟ من أجل أن يجيب بول ديفيز عن هذا السؤال، اختار أن ينطلق من مقياس قابل للاختبار والتكذيب، حتى يكون طرحه علميا." اهـ. قلت: فهل هذا كلام من يؤمن حقا بأن الله رب العالمين هو مصدر تلك القوانين، الذي إنما جعلها كذلك تبعا لإرادته ومشئيته وحكمته سبحانه؟؟ عندما تعتمد الطريقة الطبيعية Scientific Method في تناول ما فوق تلك القوانين وما وراءها وجوديا بالافتراض والتنظير، فبالله أي نوع من الأسباب والمصادر تتوقع أن يثبت لديك من تلك الطريق، إلا أن يكون مصدرا أو موجودا طبيعيا (نوعا)، أو جملة من القوانين العليا المناظرة لتلك القوانين (كما انتهى إليه ديفيز ضرورة)؟؟ إن إقرارك الرجل على المنهج نفسه (الذي هو منهج الدهرية الطبيعيين في الإثبات والنفي في الغيب وما فيه، أو ما يسمونه بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism) يقتضي – في حقك وفي حقه - نفي العلة الأولى غير المادية التي تزعم أنك تؤمن بها، ويوجب التلبس بالتسلسل الدهري في الأسباب الطبيعية! ولولا هذا المنهج وتلك الطريقة في بحث المسألة، ما اختار الرجل البقاء على لاأدريته!! فكيف وبأي عقل قبلت أنت التلبس بمنهج الدهرية المحض في إثبات ما تزعم أنه يهدم على الدهريين دينهم؟؟ سبحان الله العظيم!

إنني أسأل الدكتور في هذا المقام، وحق لكل عاقل من أتباعه أن يسأله: ما الذي لأجله بقي بول ديفيز هذا لاأدريا، واخترت أنت – في المقابل - أن تؤمن بإله حي ذي علم وإرادة، نزل الكتب وأرسل الرسل (فيما تحسب أنه دينك على أي حال)؟؟ إن جميع ما في كتابه الذي نقلت منه ما نقلت وأحلت عليه قراءك، يؤسس لملة الرجل واعتقاده، لا لدين المسلمين، ومعلوم أن موافقة كاتب ما على جميع المقدمات التي أسس عليها دينه في كتاب من كتبه، وعلى جميع المصادر المعرفية التي انتهت به إليه في ذلك الكتاب، تقتضي موافقته على ذلك الدين نفسه ضرورة وبداهة! فإنه لا تفسد النهايات إلا من فساد البدايات! ففي أي شيء تخالف أنت بول ديفيز يا دكتور، وعلى أي أساس (معرفي) خالفته؟؟ انشد من الأشعار ما شئت في القرآن وجمال القرآن وحلاوة الإيمان والإسلام، وانقل من القرآن ما شئت أن تنقل، وسبح الرب ما بدا لك، لن يغني ذلك عنك شيئا حتى تتبرأ بكل صراحة وحزم من تلك الملل الدهرية التي دعوت الناس إليها، أصولا وفروعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ينبغي أن يكون واضحا أن البِت Bit هذا إنما هو طريقتنا البشرية في صياغة لغة رمزية معينة للعبارة عن سلسلة من الأوامر الآلية للحاسوب، تجزّئ تلك الأوامر كلها إلى مجموعات من تلك الوحدة الصغرى للسهولة، وتعالجها بقراءة تلك المجموعات على نفس الوجه بنفس الطريقة في كل مرة. فالمعلومات الحاسوبية – على هذا الاعتبار – إنما هي صياغتنا البشرية القاصرة لجملة محددة من العلاقات بين الشحنات الكهربائية نرجو إذا تعرض لها معالج الكمبيوتر على الترتيب الذي رتبناها به، أن يكون لذلك أثر سلوكي معين نستهدفه من البرنامج في كل مرة!

فمن حيث المبدأ، لا يسعنا حتى نقرر تلك العلاقات على نحو يناسب أغراضنا، إلا أن ننتهي إلى مستوى معين من مستويات التحليل للنظم الكونية، نعرف الشيء المحسوس على ذلك المستوى على أنه مجموع لوحدات بنائية معينة Building Blocks / Units of Analysis متساوية تمام التساوي في كافة الخصائص الواقعة تحت الدرك البشري، مع تجاهل بناء تلك الوحدات نفسها واعتبارها لا بناء لها ولا تجزئة، كما نضطر إلى تجاهل قطر النقطة Point عندما نرسمها على قطعة الورق في إطار عملية من عمليات التحليل الجيومتري، حتى نتمكن من بناء العبارة الجيومترية أو الرياضية التي تحصل بها المصلحة المرجوة من التوصيف الرياضي. فليس أمامنا من مناص من أن يكون العالم المفترض المراد بناؤه حاسوبيا، مبنيا بكليته من تجميعات معينة لتلك الوحدات النهائية غير المتجزئة، كوحدة البيكسل مثلا Display Pixel، التي تتكون الصور المعروضة على الشاشة

من مجموعها. فلولا أن توصلنا إلى فكرة من جهتنا لتحليل وتفكيك الصورة إلى تلك الوحدات الضوئية الدقيقة المتساوية، ما استطعنا أن نصنع شاشة تظهر لنا تلك الصور!

بيد أننا نعلم يقينا أن الواقع كما نراه ليست صوره وهيئاته مركبة من تلك الوحدات المنفصلة أو ما يناظرها، وإنما نبصر الأشياء متصلة غير منحلة إلى تلك الوحدات المتساوية التي لا تتحلل ولا تتجزأ! فإذا أخضعناها لمزيد من الفحص، وجدناها تتركب من نظم دقيقة تبدو وكأن كل نظام منها عالم وحده، فقد نبلغ أن نكتشف بعض وجوه العلاقة السببية بين الطريقة التي رتبت بها تلك النظم (كالجزيئات والذرات مثلا) وبين بعض العوامل المادية المؤثرة عليها، وما ينشأ عن ذلك التأثير من تغير في هيئة الجسم المركب من تلك النظم، ولكننا نقطع – مع ذلك – أن فهمنا وتصورنا لتلك العلاقات وتفكيكنا للأجسام إلى تلك النظم الدقيقة يظل عملا اختزاليا محضا مهما انكشف لنا من الأمر ما انكشف، فلا نقول فيه إلا بغاية ما يسعنا تصوره من التحليل والتفكيك والربط بين مخرجات ذلك التحليل سببيا، مصداقا لقوله جل شأنه ((وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) الآية [الإسراء : 85] فبأي عقل يستجيز أحدنا أن يقيس ذلك النظام الفائق لعقولنا وتصوراتنا في الكيفية التي يجري عليها وفي نظم الأسباب الغيبية العاملة فيه (التي هي في حقنا غيبية قطعا، رضينا أم أبينا) وفي بنائه المذهل الذي لا يبدو لنا منه إلا كما يبدو لراكب البحر من سطح جبل الجليد Tip of the Iceberg، على تلك الفكرة الهزلية المتواضعة التي نفكك بها الأشياء الكبيرة إلى مكونات دقيقة متساوية تكون هي الغاية والنهاية في التفكيك والتحليل، حتى نتمكن من توصيفها – رياضيا – بتجميع أجزائها الدقيقة على هذا النحو أو ذاك؟؟

لقد تكلم الدكتور عمرو في جملة الأسئلة الفلسفية التي أثارها في حلقة من حلقاته (كما سيأتي معك نقله والتعليق عليه) عن مستويات الوجود التي ذكرها جون لوك في بعض تأملاته، يقصد بها مستويات التحليل الذهني للموجودات المحسوسة، فقال ما معناه إننا لا نملك ما نقدم به أحد تلك المستويات على غيرها من حيث معنى الوجود، لمجرد أنه هو الأقرب لإدراكنا الحسي. وبعيدا عن سفسطة لوك في هذه القضية، إلا أننا نسأل الدكتور ونقول: فبأي عقل إذن قبلت من أصحاب ميتافزيقا الحاسوب الكوني هؤلاء زعمهم الاختزالي الشنيع الذي قرروا به جعل العالم كله قائما على هذه الوحدة الأولية أو تلك، كقيام الصور على شاشات حواسبهم على التركب من البيكسلات الدقيقة؟ كيف مع أنك تعلم وهم يعلمون أن الواقع على المستوى الكمومي فيه من التداخل الظاهر بين أحوال الاتصال (فيما يشبه أن يكون موجة أو مجالا) والانفصال (فيما يشبه أن يكون جسيمات)

في مكونات المادة ما لا نجد له نظيرا على شيء مما في عادتنا الحسية على مستوى المقياس البشري المعتاد! يظهر الشيء نفسه على هيئة جسيم منفصل في أحوال، ثم يظهر على هيئة مجال متصل غير متجزئ في أحوال، ثم يرصد كما لو كان جسيمين متعالقين Entangled (فيما يظهر لنا منه) في أحوال أخرى، ومع ذلك لا يزال الفيزيائيون مصرين على مواصلة اختزال المادة في ذلك المستوى الغامض إلى كوانطات Quanta على طريقة الجزء الذي لا يتجزأ! لماذا؟ لأنه يجب أن يُجعل العالم بكليته مركبا من مكون أولي واحد يتركب منه كل شيء ولا يتركب هو نفسه من شيء، حتى يشبع الفيلسوف الدهري غروره ونزقه في بناء نظرية ميتافزيقية كونية تقدمه بين الناس على أنه هو الذي اكتشف أخيرا حقيقة العالم وجميع ما هنالك، وعرف الكيفية التي بني بها كل موجود، وتوصل إلي جواب الأسئلة الوجودية الكبرى، وإذن فعلى جماهير الناس أن تتبعه إن أرادت العلم بما هنالك مما لا تطاله حواسهم القاصرة! ثم إذا به يقعد نفسه ويقعده أتباعه مقاعد الأنبياء، يتكلم في الغيب وما فيه بالقياس فوق القياس، والناس تأخذ منه وكأنه وحي السماء، ولا حول ولا قوة إلا بالله! يجب أن يثبت أصحاب الميتافزيقا المعلوماتية هذه "للمعلومات الكونية" سقفا في الدقة الحوسبية لا تجاوزه واحتمالات منحصرة (نظريا) في حدود لا تتخطاها، حتى يأتي أحدهم ليزعم أنه قد وقف أخيرا على تصور نظام المعلومات الكونية، التي هي معلومات رب العالمين التي بها يدبر أمر العالم بكليته آناء الليل وأطراف النهار، وأنها في نهايتها ليست إلا حاسوبا كوانطيا عملاقا، يعالج وحدات الكوانطا (التي يتركب منها الواقع بزعم بلانك ومن بعده) كما يتعامل الحاسوب البشري مع وحدات البِت Bits على طريقة آلان تورينغ في الحوسبة Turing Compuational Theory، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فإن كنتم يا هؤلاء لابد مختزلين خلق ربكم معرفيا عند التحليل لمصلحة الفهم والتصور ولاكتساب ما كتبه الله لكم من رزق بتسخير الأشياء لنفعكم، فالزموا قدركم واعترفوا بحدودكم ولا تبلغوا من الوقاحة ما به تزعموا أن علم الباري والكيفية التي خلق بها العالم وبها يدبر أمره ويحكمه، هي كما تحسب حواسبكم ما تطلبونه منها بمعالجة البيتات أو البيكسلات أو الكيوبيتات وهذه الأشياء! هذه وقاحة في التصور، وخفة في العقل وعدوان على رب العالمين عظيم، لا تليق إلا بدهري ملحد! ولازمها تحويل الاختزال المعرفي الذي لا نملك مفرا منه في تناولنا للموجودات من حولنا بالبحث والتنظير والتحليل، إلى اختزالية وجودية تختصر الواقع نفسه في حدود تلك التصورات البشرية القاصرة، فتسقط قصورنا البشري في العلم بالواقع وتصوره، على الواقع نفسه موضوع التصور، كما في قوله تعالى: ((بَلْ كَذَّبُواْ

بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)) [يونس : 39]!

يجب أن يفهم الدكتور عمرو وأتباعه أننا معاشر المسلمين لا نقبل مبدأ التنظير في الغيبيات من الأساس، لا أننا نعارض هذه النظرية بالذات أو تلك! فليست معركتنا مع ميتافزيقا أرسطو لصالح ميتافزيقا أينشتاين، أو مع ميتافزيقا الماديين لصالح ميتافزيقا المثاليين، أو مع ميتافزيقا الفوضى الكونية لصالح ميتافزيقا المعلوماتية الكونية أو نظرية الحاسوب الكوني، وإنما نعلن الحرب على مبدأ التنظير الميتافزيقي نفسه من الأساس، وعلى اعتقاد أصحابه أنه ينشئ "علما" Science ويفيد معرفة Knowledge! نرفض كل نظرية ميتافزيقية مهما عقد أصحابها من الاتفاق الأكاديمي عليها ما عقدوا، ونناصب العداء كل من تسول له نفسه أن يلتقط من تلك النظريات ما يزعم أنه به ينتصر على الدهرية الملاحدة ويؤسس قواعد اليقين عند المسلمين! هذا هو ما لأجله حاربنا، معاشر أهل السنة والحديث، الجهمية السالفين بنظرياتهم الميتافزيقية التي أسسوا عليها الدين والعقل جميعا فيما مضى، وهو ما من أجله نحارب اليوم الجهمية المعاصرين على اختلاف نظرياتهم، حربا لا نفرط فيها ولا نداهن ولا نتساهل، والله المستعان لا رب سواه! قيسوا ما شئتم فيما هو محسوس وما هو قابل للقياس، إن كنتم فاعلين، فهذا ما به يحصل ما يرجى من طريقكم من نفع للناس! وأما غيب السماوات والأرض فلا معرفة فيه إلا في قال الله وقال الرسول، على فهم تلامذة الرسول، وإن رغمت أنوفكم! وما جاوز ذلك فخرف وهذيان مهما زينتموه بالتجارب والمراصد والمعادلات، والله المستعان!

بالغ الدكتور في إحالة مطلق وجود الواقع الخارجي على الإدراك الذهني في عامة كتبه إلى حد أن قال في كتابه "ثم صار المخ عقلا" (ص. 24):

> وأخيرا – وليس بآخر – هل تعلم أن الوجود الحقيقي لكل الموجودات من حولنا ليس إلا موجات، وأن أمخاخنا هي التي تحول هذه الموجات إلى صور وألوان وأصوات وروائح؟؟ سألني أحد المهتمين بالقضايا الفلسفية حول الوجود، إذا سقطت شجرة في غابة ولم يكن بها أحد، هل تصدر الشجرة صوتا؟! إنه يقصد بسؤاله أن الشجرة ستصدر موجات، لكن لا يمكن إدراكها كأصوات إلا إذا كان هناك إنسان يقوم مخه بتحويل هذه الموجات إلى أصوات. أجبته، إذا لم يكن هناك إنسان فلن يكون هناك غابة! بل يكون هناك موجات مختلفة الأطوال، وتحتاج للمخ ليحولها إلى صور وأجسام محسوسة وأصوات وروائح...، أي يحولها إلى غابة مادية! هذه باختصار إحدى وظائف المخ الأساسية.

قلت: هذا الكلام يقتضي أحد لازمين، كلاهما كفر محض، نسأل الله السلامة! إما أن يكون الرب سبحانه معدوما لا وجود له في الخارج، وإنما هو وهم في أذهاننا، بالنظر إلى كوننا لا نصل إلى إدراك ذاته من طريق تلقي "الموجات"، وإما أن يكون الرب هو عين الطبيعة، فيكون إدراكها هو إدراكه لأنه ليس بخارج عنها ولا بمنفك منها! ووجه ذلك أنه يقول:

- لا حقيقة لوجود أي شيء من الموجودات الخارجية إلا الموجات، أو الحقيقة التي عليها تلك الموجات.
- أمخاخنا نحن هي التي تحول تلك الموجات إلى موجودات مادية واقعية بمجرد الرصد.

فإما أن يكون الله معدوما البتة، لا وجود له في الخارج على الإطلاق، لأن الدكتور لم يره ولم يسمعه ولم يحس به من طريق الموجات الواردة إلى مخه، كما أن كل ما لا يحس به هو نفسه ولا يدركه مخه فهو – على هذا الكلام - معدوم انعداما حقيقا لا نسبيا! وهذا غير وارد لأننا نراه يثبته وينتصر لإثباته كموجود حقيقي في الأعيان لا في الأذهان! وإما أن يكون الله هو حقيقة تلك الموجات التي تدخل إلى مخه من طريق الحس، فيكون وجوده محصورا في ذلك القدر من الموجات الذي يتلقاه هو وغيره في حواسهم فيترجموه على أنه كذا وكذا من الأشياء المحسوسة، ولا وجود له إلا ذلك! أي أنه على مذهب المثاليين القائلين بواقع خارجي له صفة مخالفة تماما لما نتوهم نحن أنه صفته، فلا وجود لما نرصد من الأشياء وصفاتها إلا في أذهاننا من أثر تعرضها لذلك الواقع الموحد المزعوم!

وهذا الإفراط في القول بالمثالية أو المذهب المثالي في فلسفة العلم Idealism لا يجد صاحبه – عند التأمل - ما يحجزه عن أن ينتهي إلى القول بالسوليبسية Solipcism ذلك المذهب الذي بلغ أصحابه في خرفهم ومرضهم العقلي أن قالوا بعدم الواقع الخارجي إلا في أذهانهم (أي لا موجود إلا ما في ذهن أحدهم)! فيقول قائلهم إن البشر من حوله كلهم وهم في وهم، ولا عقل في الوجود إلا عقله، ولا إدراك على الحقيقة إلا إدراكه، ولا واقع إلا ما يدركه هو حال إدراكه! وهؤلاء اضطر أقرانهم من الفلاسفة إلى عدهم من جملة المرضي العقليين بالنظر إلى أن اعتقادا كهذا من شأنه – إن حمله صاحبه على محمل الجد وعمل بمقتضياته – أن يحيل صاحبه إلى التهاون بكل قيمة يعظمها مجتمعه والتهاون بأرواح البشر من حوله واعتقادهم أوهاما لا فرق بين الحفاظ على أرواحهم وبين إهدارها!
ثم إن قول القائل: ليس الوجود الحقيقي إلا موجات، ونحن إنما نتوهم تلك الصور والهيئات التي نراها توهما، عند تراكب تلك الموجوات في إدراكنا، هذه مغالطة يقال لها مغالطة التركيب عند المناطقة المعاصرين، حيث يسوى بين الشيء وجزئه، فتصبح حقيقة الشيء الذي تتركب مادته من جسيمات، أنه هو تلك الجسيمات لا غير! الإنسان يتركب من أعضاء، إذن الموجود في الحقيقة ليس هو وإنما تلك الأعضاء! والأعضاء تتركب من خلايا، وإذن فليس موجودا في الحقيقة إلا الخلايا الحية، لأننا نتركب من خلايا حية! فأي شيء أنت؟ أنت كومة من الخلايا الحية! هذه حقيقة وجودك! ولكن الخلايا تتركب من جسيمات وجزيئات كيميائية! إذن حقيقة وجودك هي تلك الجزيئات! ليس موجودا في الحقيقة إلا الجزيئات! ومع مزيد من الفحص، نجد أن الجزيئات تركب من جسيمات دقيقة بالغة من ضآلة الحجم ما يجعل المسافات بينها مسافات فلكية! وإذن يقال إن أكثر حجم الواحد منا هو العدم الفاصل بين الجسيمات (مع أنه ليس بعدم أصلا ولا هي جسيمات إلا في رصد الراصد في أحوال مخصوصة) وإذن فلا وجود أصلا وإنما الواقع عدم في عدم!! وهذا صرح بمعناه لورانس كراوس وغيره من مخرفة الطبيعيين في غير مناسبة! فهذا الخلط بين الشيء وبين ما يتركب منه، أو ما اخترنا نحن أن نقسمه إليه من أجزاء وأقسام وأبعاض يبدو وكأنه قد تركب منها، في معنى الوجود نفسه، خلط مغالط سخيف لا ينطلي إلا على خفاف العقول! وإنما تعلق به الدهرية الطبيعيون من شدة حرصهم على تحقير قيمة الوجود البشري، مقارنة بأنواع الحيوانات والجمادات، نكاية في أهل الملل الكتابية!
قال الدكتور في (ص. 89): "إن التأمل في مفهوم عصبونات المحاكاة، يطرح على بال المرء خاطرا مثيرا. إن هذه الخلايا العصبية تجعل البشر جميعا كأنهم شخص واحد، يتعلمون "فعليا" من بعضهم البعض، ويجعل ما اكتسبه الفرد من خبرة "حقيقية" للآخرين، كما يجعلنا نستشعر "فعليا" ما

يشعر به الآخرون من سعادة أو معاناة. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى". ولا شك أن مفهوم "عصبونات المحاكاة" في حاجة إلى المزيد والمزيد من البحث العلمي ومن التأمل الفلسفي." اهـ. قلت: فلأول وهلة، يظن القارئ غير الملم بأصول الدكتور وفلسفته الميتافزيقية واعتقاده الاتحادي، أنه يقول كلاما طيبا ينتصر به لكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم! ولكن حقيقة الأمر كما ترى أن الرجل صاحب مشروع فلسفي اتحادي طبيعي خطير، يريد به أن يؤسس اعتقادا اتحاديا صوفيا داروينيا مختلطا على أساس من نظريات وأبحاث الطبيعيين، فلن يدع نصا من النصوص في الكتاب والسنة تظهر له صلته بمطلوبه إلا تجهم عليه ليجعله دليلا من أدلته! ولهذا تراه يدعو القارئ لمزيد من البحث العلمي و"التأمل الفلسفي" في تلك المسألة التي أوردها من مباحث الطبيعيين فيما يتعلق بالإدراك الحسي وتأثيره على المخ، لعله يحصل للناس مزيد من التوسع في مسألة "كأنهم شخص واحد" هذه، وكيف أن التعلم ينتقل بينهم "فعليا" والخبرات المكتسبة تكون "حقيقية" والشعور "حقيقي" .. إلخ، فهذه الألفاظ كلها على ميتافزيقا الدكتور لها معانيها الخاصة الجارية على نظريته الأنطولوجية الاتحادية في معنى الحقيقة، من حيث الفرق بين "الوجود المطلق" والوجود الوهمي الشبحي (على اصطلاح الصوفية) الذي لولا أن ركب الرب في أمخاخنا القدرة على فك شفرته المعلوماتية المركبة لبقيت موجودات العالم كله عليه، أي على حالتها الوجودية العدمية المزعومة (على الأقل على معنى العدم الكوانطي الموجي الكوزمولوجي)!

وترى ذلك المعنى أكثر صراحة ووضوحا في قوله (ص. 90): "وأخيرا صرنا نعرف أن أدمغتنا تتواصل تواصلا مباشرا، يجعل ما يحدث في دماغك يتردد صداه في دماغي، وأن نشاط خلايا مخك العصبية تتجاوب معه خلايا مخي بنشاط مماثل، حتى صار البشر جميعا كأنهم كائن واحد." اهـ.

وقال في نفس الصفحة: "صرنا نعرف أننا نتاج نشاط قشرتنا المخية، وأن أجسادنا يمكن أن تتبدل صورتها في مخيلتنا، وليست بالموجود المطلق الذي لا يتبدل من المهد إلى اللحد." اهـ.

وقال في (ص. 322):

> الموجودات المحيطة بنا في حقيقتها ليست إلا موجات ذات أطوال مختلفة. وتستقبل أعضاء الحس هذه الموجات وتحولها إلى نبضات كهربائية تنتقل داخل المخ، حتى تصل إلى المراكز المقابلة، التي تقوم بترجمة النبضات إلى أصوات وصور وألوان ومجسمات و...

> معنى ذلك أنه بدون هذه المراكز ووظائفها فليس لهذه المدركات وجود على الهيئة التي نحسها!! ومن ثم يؤدي عطب بعض هذه المراكز إلى "إنكار" وجود هذه المدركات، إلى درجة أن ينكر الإنسان وجود ذراعه أو نصف جسده أو نصف الوجود الخارجي. وعلى العكس، يؤدي النشاط التلقائي لهذه المراكز إلى أن يشعر الإنسان – مثلا – بوجود ذراعه المبتورة! باختصار، إن هيئة الوجود من حولنا، وكذلك إدراكنا لأجسامنا، ما هو إلا حصيلة نشاط مراكز قشرتنا المخية.

قلت: فهنا يقرر الدكتور عقيدته المثالية بأن الواقع الخارجي ليس إلا موجات كمومية محملة عليها معلومات غير مادية، بحيث إذا تلقتها حواسنا، قرأت تلك المعلومات فحولتها إلى أشياء منفصلة ومتصلة، لها تلك الصور والهيئات والصفات والأحوال التي ندركها! والحق أن الفيزيائيين وإن كانوا يقولون إن بنية المادة الأساسية Fundamental component of Matter هي الكوانطا الموجية الجسيمية، ذلك الشيء الذي لا يعلم على وجه التحديد ما حقيقته إلا أنه يسلك مسلك الموجة تارة والجسيم تارة، إلا أن ما رصدوه وما أجروا عليه معادلاتهم لا يقتضي هذا الخرف الصوفي الباطني الذي لا يقره العقل ولا العلم ولا الدين! وإلا فعلى أي أساس تتفاوت "أطوال" تلك الموجات التي يزعم أن الوجود الخارجي الفيزيائي لا حقيقة له إلا هي؟؟ وعلى أي أساس تثبت للموجات أطوالا قبل إدراكها أصلا إذا كانت دون أن تدرك لا هيئة لها ولا لشيء تقارن به أو تقاس عليه خارج الذهن؟؟
في حلقة من حلقات برنامجه على اليوتيوب المسمى "في البدء كانت المعلومة: أنا لا أدرك ما أدرك!"، استعان الدكتور بكلام بعض الفلاسفة المثاليين للانتصار لنحلته تلك فقال:

> بعد كل هذه الجولة من اللقاءات حول ورطة المادية ومفهوم المعلوماتية وحول الكون والحياة، آن الأوان لأن نضع بعض النقاط على الحروف، وهايكون ده من خلال تلات لقاءات تحت عنوان في البدء كانت المعلومة. إذا عدنا إلى حلقات "ورطة المادية" وما انتهينا إليه من نزع مفهوم المادية عن المادة، فهذا النزع يضعنا في مواجهة عدد من المشكلات. تنبه لهذه المشكلات الفيلسوف التجريبي جون لوك، اللي كان معاصر للفيزيائي العظيم نيوتن، لوك بيقول إيه؟ ما حقيقة ما يرصده الفيزيائيون ويعتبرونه مادة؟ هو إيه؟ هو إيه؟ أنت بترصد قوس قزح مثلا، ما حقيقة قوس القزح؟ ده انعكاس ألوان مش .. على إيه .. على جزئيات المياه بعد المطر، ده مش أقواس ملونة! فما حقيقة ما يرصده الماديون ويعتبرونه مادة؟

قلت: بهذا الكلام، يكشف الدكتور لأتباعه أن هروبه إلى المثالية الاتحادية الكوانطية المعلوماتية الحاسوبية الهجينة هذه التي انتحلها لنفسه، إنما كان هو مخرجه من "ورطة المادية" كما سماها! فإذا كان أصل الداء هو اعتقاد الملاحدة أن "العلم" قد أثبت أنه لا موجود إلا المادة، فلنأتهم نحن بحجة مفادها أن "العلم" نفسه قد أثبت أنه لا وجود للمادة أصلا، وأنما هي وهم في وهم، وأن الواقع إنما هو شيء كلي غامض منبعث من "الموجود المطلق"، تلتقطه إدراكاتنا البشرية فتحوله إلى هذا العالم الذي ندركه من حولنا، وأن تجارب الصوفية الدراويش هؤلاء الذين طالما سخروا منهم، هي الحق المطلق الذي بدأ "العلم" أخيرا في الاعتراف به! هذا هو علاج المادية والمخرج منها عند عمرو شريف، فإلى الله المشتكى وإنا لله وإنا إليه راجعون!

هذا السؤال الذي طرحه جون لوك وطرحه غيره من الفلاسفة من قبله ومن بعده، وفرح به الدكتور فرحا غامرا، لا قيمة له ولا فائدة، وإنما هو ضرب من التنطع الفلسفي والسفسطة التي لا طائل تحتها! وهل يتنطع الفلاسفة والفيزيائيون بتكلف وضع النظريات الميتافزيقية (وإن شئت فقل الخرافات أو الشطحات) في أصل العالم ومنشئه وبنيته الأساسية وجوهره الكلي وهذه الأشياء، إلا جوابا عن ذلك السؤال؟ السؤال "ما حقيقة كذا وما حقيقة كذا؟" إن كان المقصود منه ما وراء الظاهر من حاله وصفته، فلا نملك نحن البشر في جوابه إلا أن نقول: الله أعلم! نحن إنما نملك أن نصف الأشياء على ما يظهر لنا من صفاتها! وهذه مسألة يكره الفلاسفة الاعتراف بها، لأنهم إن فعلوا، انقطع عليهم الطريق للتلاعب بعقول الخلق والتسلط عليهم بنظرياتهم وأقيستهم الواهية! فنحن نعلم – بتلك البداهة والضرورة التي أهدرها الدكتور، وليس "الحدس" كما يسميه – أن الأشياء التي تدركها حواسنا، موجودة في الخارج على الحقيقة، وأننا لا نتوهمها، وأنها على تلك الصفة التي تظهر لنا منها! هذه القضية لو لم يحصل في نفوسنا العلم البدهي الجازم بها لفقد الحس قيمته، ولذهب العقل ذهابا كليا، نسأل الله السلامة! فإذا كنا نرى الأشياء تتركب من أجزاء (مثلا)، أو تقبل التفكيك إلى أجزاء، وكل جزء منها يمكن تفكيكه إلى أجزاء أدق، كان من السخف المحض أن يقال إن "حقيقة" الأشياء كلها ترجع إلى جزء جوهري لا يتجزأ، هو الذي منه يتركب كل موجود! لماذا هو من السخف المحض؟ للإجمال الظاهر في لفظة "حقيقة" هذه أولا، ولأن العقل يمنع من الانتهاء إلى جزء له امتداد حقيقي ومع ذلك لا يمتاز بعضه عن بعض ولو نظريا! ولأن الحس والعادة ليس فيهما الاطلاع على جوهر واحد من نوع واحد يتركب منه "كل شيء"!! فإن قالوا إننا نقصد بالحقيقة ما هو أعمق من هذا وأبعد، قيل لهم: لستم إذن إلا طالبين في الجواب من الأقيسة ما هو أسخف وأوهى، بلا سلطان ولا أثارة مِن علم، وإنما بمحض التحكم بالهوى والمزاج!

فقول الدكتور: "أنت بترصد قوس قزح مثلا، ما حقيقة قوس القزح؟ ده انعكاس ألوان مش .. على إيه .. على جزئيات المياه بعد المطر، ده مش أقواس ملونة!" قلت: بل هي أقواس ملونة على الحقيقة ولا إشكال في عدها كذلك! هي أقواس ملونة "على الحقيقة"، بل لن نُبعد إن قلنا إن علمنا بكونها على هذه الصفة على الحقيقة أقوى من علمنا بأنها تتركب من جزيئات ماء تعكس الأضواء وتكسرها وتنشرها كما يقع من منشور الضوء الزجاجي! فإن الوصف الأول وصف للشيء على ما نعلم أنه عليه حقيقة، فيما تفيدنا به حواسنا فائدة صريحة لا تأويل فيها! فالذي نراه بأعيننا هو قوس ملون في السماء يقينا! وأما الوصف الثاني فوصف مظنون مفترض لما يجعلنا نرى الشيء نفسه على الوصف الأول أو لما ينشأ عنه ذلك الإدراك الحسي من أسباب! فبينما يجوز في العقل أن نتحول عن نظرية الوصف الثاني في يوم من الأيام إلى نظرية أخرى، فلا يجوز في العقل الزوال عن الوصف الأول إلا بزوال اللغة نفسها والعقل معها وسقوط الثقة في آلة الحس نفسها! فإذا سلمنا بصحة الوصف الثاني، كانت هذه حقيقة القوس كما أن الوصف الأول هو حقيقته، ولا تعارض ولا إشكال! ونقول إن له كذلك من الحقائق والصفات ما الله به عليم! فما وجه أن يقال – إذن – إن هذا الذي نراه ليس هو حقيقة القوس ولا من حقيقته، إلا أن يكون تحكما فلسفيا متنطعا في معنى كلمة "حقيقة" نفسها، يصرفها إلى معنى باطني Esoteric لا تحصل له في المعقول أصلا؟؟

إن أصر الفيلسوف على أننا مهما وصفنا ما نراه ومهما دققنا في وصفه وتصور كيفيته، فليس ما انتهينا إليه هو حقيقته الباطنة، قبلنا منه كلامه إن كان يقصد بذلك تلك الصفة أو ذلك السبب الغيبي المحض الذي لا يصل إليه إدراكنا وعلمنا مهما علمنا، وإذن كان الجهل بتلك الحقيقة الغيبية والتفويض فيها هو كمال العلم على التحقيق! فعلى هذا المعنى للحقيقة نقول: الله أعلم ما حقائق الأشياء المحسوسة وما وراءها مما لا وصول إليه من طريقنا! ونقبل منه كذلك إن كان يقصد أن للكيفية والسبب صفة على خلاف ما ظنناه وأننا قد نقف عليها في يوم من الأيام فنراجع أنفسنا إذن ونصلح غلطنا! أما أن يكون مقصوده هو تغليط حواسنا كلها، ونسبتنا جميعا إلى الوهم والهذيان أو الهستيريا الجمعية، إذ نرى جميعنا الشيء الذي نراه على صفة هو في الحقيقة على خلافها، فهذا كلام من ذهب عقله، وحق مثله أن يلقى في مصحة عقلية، لا أن يتخذه الناس إماما!

يواصل الدكتور بث شبهاته الفلسفية السوفسطائية فيقول: "هذا السؤال هايطرح المشكلة الثانية: احنا بنرصد بملاحظاتنا! ما حقيقة ملاحظاتنا؟ ما حقيقة الكيان المسؤول عن الملاحظة؟ يجيب جون لوك ويقول: إنها حواسنا وأمخاخنا! وهذه الكيانات في حد ذاتها، مادة! أي أننا نرصد الظاهرة من داخلها! نرصد ظاهرة المادة بمادة! وهذا لا يعطي رصدا حقيقيا!" اهـ.

قلت: ما الإشكال في رصد الظاهرة من داخلها؟؟ وهل للمخلوق رجاء أن يرصد شيئا من موجودات العالم إلا من داخل العالم؟؟ هل يطمع لوك في أن يقعد على عرش الرحمن في يوم من الأيام، حتى يتمكن من "رصد الظاهرة من خارجها" مثلا؟؟ إي وربي هذا ما يطمعون فيه، وهذا ما بلغ بهم كبر نفوسهم المريضة أن يتصوروا العالم بكليته وكأنه قد حصل لهم بالفعل! يقعد أحدهم متكئا على أريكته، باسطا رجليه، يدخن غليونه، ثم يسأل نفسه: لو كنت خالقا عالما كهذا العالم، كيف كنت أخلقه؟ ثم تراه يضع النظريات في وصف الكون وكأنه هو خالقه تحقيقا، أو وكأن خالق الكون رجل مثله، قاس كقياسه حتى يخلقه، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا!
فقول الدكتور "وهذا لا يعطي رصدا حقيقيا" يلزم منه هدم الطريقة التجريبية كلها، لو تأمل فيه! إذ ما فائدة التجارب والمعامل والمراصد والتليسكوبات والميكروسكوبات إن لم يكن ما تمدنا به "رصدا حقيقيا"؟؟ وأي شيء يكون الرصد الحقيقي إذن ومن يصل إليه؟ هنا يأتيك الجواب "الصوفي" فيقال: لا يصل إليه إلا من بلغ بالتأمل الروحي درجة "وحدة الشهود"، فهذا من يبلغ أن يرى العالم على حقيقته، يرصده "رصدا حقيقيا"! فما نقول إلا: حسبنا الله ونعم الوكيل! مع أنه على فلسفة الدكتور، تكون وحدة الشهود هذه تجربة مادية، إذ هو لم يصل إلى إقناع قرائه بحقيقة وقوعها إلا باستعمال مواسح المخ التي تكشف مواطن النشاط العصبي في الدماغ! وهو نفسه يسميها بالظاهرة البيولوجية، يزعم أنها ركبت في الجينوم البشري "بالتدخل الإلهي في قصة النشأة الداروينية"! فإن كان ذلك كذلك، لزم أن يكون ذلك الإدارك – أيضا – إدراكا للمادة بالمادة، أو "رصدا لظاهرة المادة بمادة"، على حد عبارته، وإذن، لزمه أن يجعله هو كذلك رصدا غير حقيقي!
ثم مضى ليقول: "المشكلة الثالثة اللي طرحها جون لوك: لماذا نعتبر أن ملاحظاتنا تمدنا بالمستوى الأولي من الوجود أو من الحقيقة؟ يعني إيه المستوى الأولي؟ أنا لما بأرصد كتاب.. الورقة اللي قدامي دي. أنا بارصدها ورقة! لأ، ده في حقيقتها، هي جزيئات، والجزيئات دي ذرات، والذرات دي موجات طاقة! فليه بنعتبر إن اللي احنا بنرصده ده هو المستوى الأولي للوجود؟" اهـ.
قلت: سفسطة فوق سفسطة، والله المستعان! لا قيمة ولا معنى ولا وجه في العقل السوي لتقسيم الوجود إلى مستويات أو الحقيقة إلى مستويات على هذا النحو المتنطع! فالورقة حقيقتها أنها ورقة، وحقيقتها كذلك أنها تتركب من جزيئات، ومن حقيقتها أن جزيئاتها تتركب من ذرات، ومن حقيقتها أن ذرات جزيئاتها تتكون من كذا وكذا، إلى آخر ما يبلغه البشر من تدقيق في صفاتها وكيفياتها! هذه كلها صفات إن ثبتت عندنا في حق الورقة معرفيا، كانت من حقيقتها وصفتها ولا تعارض ولا تزاحم ولا إشكال! وإذن

فما المقصود بالمستوى الأولي للوجود؟؟ جميع تلك الصفات مرصودة ثابتة ثبوتا لا مدفع له، فهي إذن "موجودة" على الحقيقة، من جملة صفات الورقة، فما وجه تقسيم ذلك الوجود إلى مستويات؟؟ ليس إذن إلا تقسيما لمستويات الإدراك الحسي على الحقيقة، فيقال إننا نرى الورقة بالعين المجردة كورقة، فإن دققنا البصر بأدوات مساعدة، رأيناها تتكون من جزيئات دقيقة، فإن دققنا الإبصار رأينا الجزيئات تتكون من أدوات أدق، وهكذا (يعني إن سلمنا بأن ثبوت المستوى الذري يبلغ أن يكون ثبوتا حسيا مباشرا، خاليا من التأويل وطبقات التنظير Theory ladenness، وليس الأمر كذلك)، وإذن فإن قيل إن المستوى الأول هذا إنما هو الوصف الأول الذي يتبادر إلى مداركنا الحسية بادي الرأي دون تمحيص وتدقيق، قلنا لا بأس إذن ولا مشاحة في الاصطلاح! وأما إن قيل إن الواقع قد يكون على خلاف ما ندركه بحواسنا جميعا وما نبصر بأعيننا وأدواتنا بالكلية، وأننا كلنا واهمون مخدوعون، بدليل أن الورقة عند التدقيق فيها نجدها تتركب من كذا وكذا، فهذا دور منطقي وسخف واضح!

ثم قال: "السؤال الرابع والأخير: هل ما نلاحظه هو حقيقة المادة، أم بعضا من تأثيراتها في الوجود؟" اهـ. قلت: كلام باطني لا حقيقة له إلا التلاعب بالأسماء! يا أخي ما تراه من واقع العالم بصورة مباشرة بحواسك، ليس إلا جزءا من موجودات العالم بالضرورة! ولا يلزم أن تكون جميع موجودات العالم مركبة من مكون واحد من نوع واحد، فضلا عن أن تكون كلها ناتجة عن تأثير ذلك المكون، لا أنها هي هو أو مركبة كلها منه! فسمه المادة أو سمه الطاقة أو سمه العفريت أو ما شئت، هو في النهاية شيء وجودي أنت تدرك منه بعض صفاته وتغفل عن بعضها الآخر، وهذا أمر بدهي لا غرابة فيه! أما أن يقال إن ما نسميه بالمادة (بهذا الإجمال) قد يكون بعض تأثيرات المادة في الوجود، فما هي المادة إذن، وأي شيء هو "الوجود" هذا الذي تؤثر فيه؟؟ وكيف تقف على إثباتها هي نفسها معرفيا وإثباته هو (استقلالا عنها)، إذا كان غايتك أن تثبت ما يفيدك به إدراكك الحسي، والفرض أنه لا يدرك ذلك على أي حال؟ لا يثبت ذلك النوع من المزاعم إذن إن قدر له الثبوت إلا بالسمع، والواقع أنه لا سمع، فانتهت القضية، ورجع الأمر إلى إثبات ما تفيد به الحواس على ما هو عليه، في حدود قدراتنا البشرية على الرصد والتحليل، ودون تعميم كوني فاحش ما أنزل الله به من سلطان، ثم نقول لكل سفساط كجون لوك ومن تابعوه: اخسأ وابلع لسانك، فلن تعدو قدرك!

ثم قال: "دي أسئلة طرحها جون لوك، وقبل جون لوك من خمس وعشرين قرن من الآن، ديموقريتوس، فيلسوف المذهب الذري! بيؤول إيه؟ بيؤول: إن إدراكي للمادة ينطلق من إدراك الحواس! نفس ما قاله جون لوك! إذن المادة مجرد استنتاج للحواس! ومن ثم، إن للعقل دور إيجابي في تشكيل

مظهر الأشياء، على الهيئة التي تدركها ملاحظاتنا. يا سبحان الله! للعقل دور في تشكيل الهيئة التي نرصد بها ما حولنا! ده اللي أثبتته الكوانتم والنسبية بعد كده!" اهـ.
قلت: لا والله لا أثبتته ولا نفته ولا أضافت إلى القيمة المعرفية الواهية لذلك الهراء شيئا البتة! بل انضاف إلى خرف الفلاسفة الميتافزيقيين القدماء، خرف جديد بنفس المضمون للفلاسفة الطبيعيين الميتافزيقيين المعاصرين، ظلمات بعضها فوق بعض! وأنا لا أدري، الذي يشكك في حواسه هذا، ويعتقد أنها تخدعه في كل ما تفيده به من وصف للواقع الخارجي، أو يعتقد أن الأصل فيها التوهم والانخداع، ما ظن هذا المسكين مخروم العقل بربه الذي ركب فيه تلك الآلة؟؟ الأصل عند العقلاء الأسوياء من المسلمين – وانتبه لهذا فإنه مهم - أن آلة الحس التي ركبها فينا رب العالمين تصور لنا الواقع على ما هو عليه، لا على خلافه! فنحن نبصر الأشياء الواقعة تحت أبصارنا في العالم على ما يبصرها عليه ربنا تبارك وتعالى الذي وسع بصره كل شيء، ونسمع الأصوات التي تصل إلى أسماعنا على ما يسمعها عليه رب العالمين سبحانه، الذي وسع سمعه الأصوات كلها، فالذي يزعم أن الواقع الخارجي لا تحصل له صفة إلا في أذهاننا، أو أن عقولنا تخلق الهيئة التي نرصد عليها ما حولنا، لزم ألا يكون للأشياء التي هي حولنا هيئة موضوعية صحيحة في نفسها، تكون في سمعنا وبصرنا كما هي تحت سمع الرب سبحانه وبصره! بل لزم أن يكون ما في الخارج هلام لا هيئة له، وأن يكون إدراكنا لها على ما ندركه من الهيئات وهما نتوهمه!
وهذا باطل بالعقل والفطرة والسمع كذلك، فالله تعالى يتفضل علينا بنعمه في القرآن فيقول: ((الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)) [البقرة : 22]، فعلى مذهب المثاليين فليس في الخارج لا أرض ولا فراش ولا سماء ولا ماء ولا ثمرات ولا شيء من ذلك، وإنما يوجد شيء عدمي واحد لا حقيقة له (وهو ما سماه الدكتور على مذهبه بالمعلومات) تستقبله أمخاخنا فتصوره لنا على أنه أشياء متعددة متمايزة، لكل شيء منها اسمه وصفته وحده وكيفيته .. إلخ، على غرار معالجة جهاز الكمبويتر لبرنامج من البرامج المخزنة عليه! فلا يكون الواقع الذي نعرفه إذن إلا افتراضا في الأذهان، لا حقيقة في الأعيان!
ولا يخفى أن من يعتقد هذا الاعتقاد فقد كذب رب العزة تبارك وتعالى الذي أثبت وجود تلك الموجودات في الأعيان حقيقة، وامتن بها على بني آدم أعظم الامتنان! وقال تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)) [الأنعام : 97] فعند المثاليين لا نجوم ولا ظلمات ولا بر ولا بحر، وإنما هي موجات لا صفة لها ولا هيئة قبل حصول إدراكها عندنا! وقال تعالى: ((هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ

لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)) [يونس : 67]، وهؤلاء يقولون ليس الليل إلا ما توهمنا أمخاخنا بأنه ليل، وكذلك السكن والنهار وجميع ما يقع تحت الأبصار، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وقال سبحانه: ((وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [النور : 45] وأما عند هؤلاء فلا شيء يخلق من الماء أو يمشي على الحقيقة لا على البطن ولا على الرجلين ولا على أربع، إذ لا شيء يجري إلا في ذهن أحدهم! وقال جل شأنه: ((وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ)) [النحل : 80]، فعند هؤلاء لا بيوت ولا سكن ولا جلود ولا أنعام ولا ظعن ولا إقامة ولا أصواف ولا أوبار ولا أشعار ولا أثاث ولا متاع، لا شيء من ذلك له حقيقة في الخارج كما أخبر رب العالمين، وإنما هي موجات قد ركبت في أمخاخنا القدرة على توهم كونها على هذه الهيئات والصفات، خلافا للواقع! وقال تعالى: ((وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)) [النحل : 81]، وعند هؤلاء لا ظلال ولا جبال ولا أكنان ولا سرابيل ولا حر ولا بأس ولا شيء إلا أن ندرك نحن شيئا ما فنتوهمه في أمخاخنا كذلك، وإلا فإن قدر أن أغمض البشر كلهم أعينهم في لحظة واحدة، انعدم كل ذلك واختفى من الوجود بالكلية!

يقول الله تعالى: ((الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ)) [يس : 80] وهؤلاء يقولون: بل ركب في أدمغتكم ما به تتوهمون شجرا أخضرا ونارا قد جُعلت منه! تلك النعم السابغة التي جعلها الله لنا جعلا وامتن علينا بها أعظم الامتنان فيما ندرك من حولنا، إنما هي "مجرد استنتاج للحواس" لا غير! ويقول: ((إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)) [فصلت : 30]، وأما هؤلاء فيقولون لا ملائكة تتنزل، بل لا ملائكة توجد أصلا لأنها لا تقع تحت الرصد، وإنما يؤول ذلك ونحوه بأن يقال هو كناية عن رحمة الله مثلا أو نحو ذلك! بل كل فعل ذكر الله تعالى في القرآن أو ذكر رسوله أنه يفعله في اليوم والليلة، فهو عندهم لا يفعله على الحقيقة وإنما يوهمنا بأنه يفعله، كما في قوله جل شأنه: ((يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)) [السجدة : 5] وقوله: ((قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ)) [يونس : 31] وقوله: ((اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)) [الرعد : 2] وإذا سمعنا قوله تعالى: ((يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ)) [سبأ : 2] تعين علينا – على دين هؤلاء - أن نفهم أنه يعلم ما يوهمنا بأنه يلج في الأرض وما يوهمنا بأنه يخرج منها .. إلخ، لا أن ذلك يقع حقيقة!

كل هذه المعاني ونحوها في القرآن لا حقيقة لموضوعها في الأعيان، فإما أن يكذبوا بها صراحة أو يتقرمطوا عليها جميعا ليجعلوها ضربا من المجاز الذي لا تراد حقيقته! بل إن الواحد منهم يلزمه أن يعتقد أن القرآن نفسه لم ينزل على الحقيقة، والنبي عليه السلام لم يبعث على الحقيقة، وإنما حصل ذلك كله في الأذهان لا في الأعيان! فأي كفر وأي زندقة أعظم من هذا؟؟ نسأل الله السلامة!

ولا عجب أن نجده يستطرد فيقول: "الفلاسفة المثاليون، منهم بيركلي، اللي بيتهموا بأنهم بيقولوا مافيش وجود وإن العقل هو اللي بيصوره، لأ هم ما بيقولوش كده! هم بيقولوا إن الوجود تعبير عقلي لحقيقة .. فيه حقيقة للأشياء، مش مافيش! إحنا بنرصدها تبعا لتشكيلات عقلنا لها! سبحان الله! شوف يعني .. الفلسفة عندما تكون فعلا دقيقة، وعميقة، إزاي ديموقريتوس وجون لوك وبيركلي كلهم تنبهوا إلى المفهوم اللي أثبتته النسبية والكوانتم بعد كده!" اهـ. قلت ليس يوجد من يتهم المثاليين، لا في الأولين منهم ولا في الآخرين، بأنهم يقولون إنه "مافيش وجود" (هكذا) يا دكتور! وإنما يتهمون بأنهم يقولون إن الموجودات إنما توجد في الأذهان لا في الأعيان (كما هو قولهم حقيقة)! وهو ما يلزم منه (كما التزمه أكثرهم) إثبات شيء ما في الأعيان، ألا وهو ذهن الواحد منهم على الأقل! ولهذا سفههم وسخّف قولهم (على اختلاف مذاهبهم) سائر العقلاء، وليس الماديون الملاحدة وحدهم كما يصوره الدكتور!

فجورج باركلي هذا، على سبيل المثال، القس الأيرلندي الهالك في القرن الثامن عشر الميلادي، كان يؤمن بمذهب سماه الفلاسفة فيما بعد بالمثالية الفردية Subjective Idealism، يقول بأن الوجود ليس فيه على التحقيق إلا عقل الإله القديم وعقول البشر الحادثة، وأن الواقع المحسوس ليس إلا ما يدركه الواحد منهم حال إدراكه إياه، فلا وجود للواقع (لا جملة ولا تفصيلا) إلا في مجموع عقولهم! أي لا وجود إلا لما هو واقع تحت الرصد، فإذا لم يوجد من يرصد الشيء، لم يوجد، أو على عبارته اللاتينية Esse est Percipi! وبما أن جميع الأشياء تقع تحت "رصد الإله" طوال الوقت، فهي موجودة ما دام ثم من يراها [29]! وهذا ولا شك تناقض وسخف من القول وخلف في العقل، إذ لا معنى لأن يقال إنه لا وجود للواقع الخارجي إلا ما

تدركه عقولنا، ويقال في نفس الوقت إن العالم الخارجي موجود بصرف النظر عن عقولنا وإدراكنا لأن الإله الصانع "يرصده" في كل وقت!! هذا يثبت القول وينفيه معا!

ولا شك أن مجرد الزعم بأن حواسنا تخدعنا إذا أخبرتنا بأن ما نراه من أجسام من حولنا، بل وما ندركه من أجسامنا نحن أنفسنا إذا فتح أحدنا عينيه وصوب نظره إلى يده، كل ذلك إنما هو وهم ذهني لا حقيقة له في الخارج، أو إدراك للأشياء على خلاف حقيقتها، هذا القول باطل بالبداهة والفطرة والضرورة وبإجماع العقلاء! بل إنه ينقض بعضه بعضا، لأنه إن كان الواقع الخارجي بالنسبة لأحدنا ليس إلا عمليات ذهنية تخلق في ذهنه هو، فليس لديه – إذن – أساس في العقل لإثبات العقول الأخرى من حوله، ولا حتى لإثبات الصانع نفسه، الذي جعله بيركلي مصدر الوعي والإدراك! بل إنه يلزمه أن يعتقد أن عقله – أيا ما كانت حقيقته – هو الذي يوهمه بكل شيء، من غيرما أساس لإثبات شيء خارج الذهن أو نفيه، ولا لفرقان بين دعوى مطابقة للواقع في الأعيان ودعوى مخالفة! فإذا كنت لا أرى لك حقيقة خارج ذهني، وأنت لا ترى لي حقيقة خارج ذهنك، أو تراني صنيعة عقلك وأراك أنا صنيعة عقلي، فلا حقيقة إذن لوجودي ولا لوجودك ولا لعقلي ولا لعقلك ولا لشيء أصلا! فأي عقل يبقى في مذهب كهذا؟؟ لا عقل ولا دين ولا شيء على الإطلاق، وهو مذهب نهايته القول بالتوحدية (السوليبسية Solipsism) كما أسلفنا! ومع ذلك يستحسن الدكتور مذهبه ويدفع عنه نقد النقاد بأنهم لم يفهموه فهما صحيحا، والله المستعان!

ثم يمضي الرجل ليقول:

> الكلام ده بيذكرني بموقف، يعني بييجي من أعماق الذاكرة، حصل لما كنا طلبة في ثانوي. أنا كتبته في بعض الكتب. إيه، مدرس الفيزيا بتاعنا، بيسأل الفصل: لو فيه غابة، مافيش فيها كائن حي، وسقطت شجرة، هل تصدر صوتا؟ لو فيه غابة، مافيهاش أي كائن حي. وسقطت الشجرة، هل تصدر صوتا؟ إحنا ما فهمناش قوي. فرد يعني علينا! هو يبدو إنه كان قاري حاجة عن المذهب المثالي ومبسوط منه، قال لأ! أصل هي هاتصدر موجات! اللي بيرصد الموجات دي كأصوات، آذان الكائنات الحية! مافيش كائن حي، يبقى مافيش صوت، هيبقى فيه موجات! فيبدو إني يعني كنت باتفلسف من صغري فقلت له يا أستاذ، لو مافيش كائن حي، مش هايبقى فيه غابة من أصله! لأن اللي بيرصد الموجات ويراها كغابة، هو الإنسان، العين والمخ البشري، أو بتاع الكائنات الحية! يبقى كان ضروري يكون فيه كائن حي، عشان يرصد هذه الموجات، كأصوات أو كغابة أو أو إلى آخره!

قلت: يا مسكين، هذا الكلام الذي تعده جوابا بارعا، وتفخر بوقوعه منك في صغرك "تفلسفا"، يلزمك منه نفي الصانع بالكلية! فتأمل إلى أي نهاية صار التخليط الفلسفي الميتافزيقي برجل متصدر للرد على الدهرية نفاة الصانع، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ذلك أنه إذا كانت القاعدة أنه لا موجود إلا ما هو واقع تحت الرصد، لزم ألا يكون للباري وجود أصلا، لأنه لا يراه أحد في الدنيا ولا تدركه الحواس! فإن قال ولكنه عندي هو السبب الأول والعلة الأولى لوجود الحواس نفسها ووجود ما تدركه أيا ما كان، قلنا له: فأي شيء يحجزك عن القول بأن عقلك أنت هو الموجود الأزلي الواجب الذي لا موجود غيره في الأعيان، وأنه يوهمك بأنك ولدت بعد أن لم تكن شيئا، ثم مررت بما مررت به من تجارب وخبرات فيما توهمت أنه عالم خارجي حقيقي كامل الأركان، ويوهمك فيما يوهمك به كذلك بأنه ثمة كائن حي خارج عنه، بائن منه، هو الذي صنع فيك تلك الإدراكات كلها؟؟ إذا كانت بداهة تصديق الحس فيما يخبر به عن الواقع الخارجي (من حيث الأصل) قد زالت، فما الذي يمنع من زوال جميع البدهيات تبعا؟؟
ثم إن لنا أن نسأل الدكتور هذا السؤال: تلك الغابة المذكورة، إن سلمنا بأنه ليس من البشر من يراها ولا من يسمعها، فهل تؤمن بأن الله يراها ويسمعها أم لا تؤمن بذلك؟ إن قلت لا أؤمن بذلك، نفيت الباري أو عطلته عن السمع والبصر إما بإطلاق أو بتقييد! والتقييد هو أن تعتقد أنه لا يسمع إلا ما تسمعه أنت حال سماعك له، لأنه لا يوصف شيء بأنه مسموع أصلا إلا أن يكون واقعا تحت سمعك أنت، ولا يبصر إلا ما تبصره أنت حال إبصارك له، لأنه لا يوصف شيء بأنه مبصَر إلا أن يكون واقعا تحت بصرك أنت، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! وإذن فبصرك أنت (الذي تكون حقيقته إذن عملية ذهنية محضة) هو البصر الحق الذي لا يقدّر بصرٌ غيره لكائن آخر إلا أن يكون وهما في ذهنك، وكذلك في السمع! وإذن لزمك أن تجعل وجود الباري وجودا ذهنيا في عقلك أنت لا في الخارج، ما دامت صفاته كلها لا تتحقق واقعيا إلا في ذهنك على أي حال! بل لزمك أن تخلع صفات الربوبية على نفسك أنت، وأن تصبح أنت الرب والرب أنت، لأنه لا موجود إلا ما تدركه أنت في عقلك! ومن ثم يؤول الأمر إلى وحدة الوجود المثالية بصورة ما أو بأخرى! وإن قلت أؤمن بأن الله يرى الغابة ويسمعها في كل حين، بطل قولك إنه إن لم يرها إنسان لم توجد، وهو المطلوب! والقصد على أي حال، بيان أن إبطال مذاهب المثاليين هؤلاء أمر لا أقول إنه يحسنه الفلاسفة من كل نحلة ولا يتعذر عليهم، بل يحسنه حتى الصبية الصغار، إن فهموه على وجهه! ومع ذلك يلتقطه الدكتور ويراه هو المخرج والعلاج الجذري الناجع لمرض المادية الدهرية، والله المستعان وإنا لله وإنا إليه راجعون!

ثم يقول: "بالرغم من التساؤلات اللي طرحها جون لوك، والمشكلات اللي طرحها، وجعلته يطلق صيحته الشهيرة: "أنا لا أدرك ما أدرك"، أنا لا أدرك ما أدرك، بيقابلنا أنصار المادية العلمية Scientific Materialism، أنصار المادية العلمية قالوا لأ، مافيش كلام من ده، كل الكلام ده ما يلزمناش، إحنا بنرصد الواقع! أنت شايفه مادة شايفه كرسي أخضر شايفه، هو حقيقته هكذا، مش حاجة تانية! طبعا هذا الكلام رد عليه كل ما قلناه في الحلقات السابقة، واللي هانقوله لسه في الحلقتين الجايين!" اهـ.

قلت: فخبرني بربك أي عقل يبقى لرجل أخذ يصيح: "أنا لا أدرك ما أدرك"؟؟! هذا ينادي على نفسه بذهاب العقل، كالذي يقول: أنا لا أرى ما أرى، أو لا أسمع ما أسمع، وليس أنا هو نفسي ولست أنت هو أنت نفسك، وليس شيء هو نفسه .. إلخ! ولو صدق هذا لقال: أنا لا أعقل ولا أميز، ولو أن أهله وأصحابه أرادوا الإحسان إليه لحجروا عليه ولأودعوه في مصحة الأمراض العقلية! وأما قول الدكتور بأن خصوم المثالية هم من يسميهم بأنصار المادية العلمية، فهذا الكلام لا علاقة له بأدبيات الفلاسفة المعاصرين في تلك المسألة (اللهم إلا على تعريف باركلي للمادية الذي يبدو أنه أخذه عنه)، فالمثاليون يقابلهم الواقعيون Realists وليس الماديون Materialists! والواقعيون هم من يقولون بأن الوجود الخارجي في الأعيان وجود مطلق لا تأثر له مطلقا أو على الأقل من حيث الأصل، بعمليات الإدراك البشري! ولسنا نقول بمذهبهم ولا ننتصر له، وإنما نأخذ منه الحق وندع الباطل، كغيره من مذاهب الفلاسفة، إن تعرضنا له!

والقصد من ذكرهم بيان أن المادية ليست هي ضد المثالية كما أوهم الدكتور نفسه وأتباعه! بل فقد يكون المادي الدهري واقعيا وقد يكون مثاليا، كما هو الشأن في عامة فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين الميلادي الذين تناقشوا تلك القضايا في بلاد الغرب! فلما جعل الدكتور قول الواقعيين هو قول من سماهم بالماديين، جعل من المادية العلمية (التي يفترض أنه يناصبها العداء) أن يقال إن الذي نرصده هو الواقع الخارجي تحقيقا وليس وهما في أذهاننا، وأنك إذا كنت تبصر كرسيا أخضر، فثمة كرسي أخضر في الخارج حيث رصدته على الحقيقة لا توهما في ذهنك! هذا القول البديهي يجعله الدكتور – من سفسطته وتخليطه - هو قول "الماديين العلميين" كما سماهم، مع أنه ليس مما يختص به الماديون ولا مما يتفقون عليه، بل وليس هو ما يمتاز به الواقعيون عن المثاليين، وإنما هو قول العقلاء كافة إلا الدكتور وأمثاله من المثاليين الغلاة"، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وفي الحلقة التي تليها، تحت عنوان "ماذا أرصد؟" يجتهد الدكتور في محاولة إقناع أتباعه بأن الذي يرصدونه بأعينهم وآذانهم في كل مرة يبصرون شيئا ما أو يسمعون شيئا ما، ليس هو "المادة" وإنما هو أثر المادة

أو "توقيعاتها" في البيئة المحيطة! يريد أن يقول إنه ليس في الواقع (خارج الأذهان) مادة أصلا، وإنما يوجد في الخارج "معلومات"، تجعلنا إذا تلقيناها، "رصدنا" ما نتوهمه بعقولنا مادة تؤثر في مادة، أو أشياء تؤثر في أشياء! فإن سألناه: أين في الخارج تكون تلك "المعلومات" التي صيرتها أذهاننا أشياء تؤثر في بعضها البعض؟ فلن يجد إلا أن يقول إنها كيان "غير مادي" منبثق من "الموجود المطلق المتوحد"!

فلهذا قال "ده اللي يخلينا نقول إن اللي احنا بنرصده على الحقيقة عبارة عن معلومات، عبارة عن محصلة معلوماتية لتأثيرات مختلفة" قلت: قد تقدم بيان فساد أنطولوجيا المعلومات عند الدكتور عمرو، تبعا لمن قلدهم فيها! ثم قال: "وفي الحقيقة بترجع قدرة الأشياء على التأثير على بيئتها، تبعا لكمية ونوعية المعلومات. مثلا، فيه معلومات تقول إن فيه موجات كهرومغناطيسية طولها كذا! دي يخليني أرصد الشيء كأنه مصباح مضيء! الموجات الكهرومغناطيسية دي أنا بارصدها كمصباح مضيء. فيه معلومات بتخلي هذا الشيء، بتتنقل لي المعلومات دي، إن فيه موجات طولها كذا ديسيبل، فتخليني أسمع لهذا الشيء صوت! يبقى تأثير الشيء في البيئة، اللي أنا بارصده، يتوقف على كمية ونوعية المعلومات!" اهـ. قلت إن كانت المعلومات عنده بهذا المعنى الذي ذكر، فهذه معلومات الإنسان ونظرياته في تسمية وتصور النظم السببية الجارية من حوله، الواقعة مفرداتها تحت حسه وعادته! فهي على هذا الوصف، معلومات تنشأ في عقل الإنسان تبعا لدراسته الظواهر المحسوسة، لا أن الظواهر نفسها محل التوصيف في تلك المعلومات، إنما تنشأ في الواقع بسبب وجود "المعلومات" المتقدم عليها! هذا خلف عقلي بين، يضع العربة قبل الحمار كما يقولون! المعلومات (على هذا المعنى) تحصل بسبب الإدراك، ولا يقال إن الإدراك هو الذي يحصل بسبب المعلومات! لست أتمكن من سماع الصوت بسبب أني علمت أن طول موجاته كذا ديسيبل، ولا أرى الضوء إذا رأيته على أثر علمي في نفسي بأن فيه موجوات طولها الموجي كذا وترددها كذا، وهذا واضح جدا، وإنما يحصل السمع ويحصل الإبصار أولا، ثم يتكلف الإنسان توصيف ما يسمع وما يبصر، فتحصل إذن "المعلومات" على هذا المعنى، فتأمل!

ثم قال الدكتور في مقطع تحت عنوان "المادة جسد المعلومات": "ثم في اللقاء الثاني بينا إن ما نرصده هو تجسيد لمحصلة المعلومات التي لها علاقة بالحقيقة، لكنها ليست الحقيقة ذاتها. يبقى المادة عبارة عن تجسيد لمحصلة معلوماتية لها علاقة بالحقيقة." اهـ. قلت: من الواضح لمن له أدنى اتصال بطرائق العلماء أن قوله "تجسيد" وقوله "محصلة المعلومات" وقوله "لها علاقة بالحقيقة" وقوله "الحقيقة ذاتها"، هذه كلها ألفاظ وتراكيب مجملة حسبك حتى نفضح عوار بضاعته وخواءها وأنه ليس على شيء أصلا، أن تطالبه بتفصيلها وتعريفها على نحو يندفع معه كل اشتباه وكل إجمال

ويتحقق به علم صحيح ثابت لا ينقض بعضه بعضا ولا يناقض ما هو راسخ في نفوس العقلاء من بدهيات أولية ومعارف فطرية! فستجد حينها أن الرجل دونه إلى ذلك خرط القتاد، على عادة كل فيلسوف وكل متكلم! وإنما هي شقشقات يملأ بها أحدهم فمه حتى يتوهم السامع أن في الأمر فلسفة عميقة الغور إن لم يعقلها فالعيب في عقله هو لا في عقل صاحبها! هذا التلاعب بالمجملات من الكلام والإغراق فيها من أخبث مسالك الفلاسفة، وهو ما حق على كل عاقل يحترم عقله أن ينبذهم من أجله وحده نبذ النواة، والله المستعان! فالذي عنده علم حق ظاهر دليله، واضح مستنده، لن يلجأ لتلك الطريقة الملتوية في مخاطبة الناس، وإنما سيفصح عن المعاني التي لديه إفصاحا واضحا محددا يحصل به في ذهن السامع تصور محكم دقيق لا لبس فيه! وهذا ولا شك هو المتعين على كل من تصدر للكلام في تلك الأبواب الخطيرة التي أقحم فيها الدكتور رأسه، وإلا ضاع العلم وانمحق الحق وصارت الأمور عبثا في عبث، ونعاقا في نعاق، والله المستعان!

فقوله "ما نرصده هو تجسيد لمحصلة المعلومات التي لها علاقة بالحقيقة"، ينبغي أن يستوقف معه ليسأل: ما المقصود بما نرصده وما معنى الرصد هنا؟؟ إن كان المقصود الإبصار، فلا يجوز للعقلاء أن يختلفوا في أن ما يتفقون عليه من صفات الأشياء كما تفيدهم بها أبصارهم، حق مطابق للواقع، وأن الأشياء الواقعة تحت أبصارهم إنما انتهوا هم إلى الاتفاق على وصفها بتلك الصفات (ومن ثم حصول ما تحصل لديهم من "المعلومات" بشأنها) بناء على ما إبصارهم ما أبصروه من حقيقتها في الخارج! أي أن الشجرة – مثلا - تكون حيث هي في محلها من العالم، فيتوارد الناس على إبصارها على صفتها التي هي عليها، فيتفقون على العبارة عن معاني تلك الصفة بما في لغتهم مما يناسبها من الألفاظ، فتصبح تلك التراكيب اللغوية لديهم هي "المعلومات" المتعلقة بتلك الشجرة!

فإذا فهمنا معنى الإبصار والرصد فهما صحيحا، انكشف بطلان ما يريده الدكتور من بقية المجملات في تلك العبارة من تنظير ميتافزيقي باطني واه! فلا يزال العرب يقول أحدهم رأيت الشجرة، يقصد بذلك أنه قد حصل له من إبصارها ما يفيده بالعلم بصفتها (في حدود قدرته على الرصد والإبصار بطبيعة الحال)، فهذا هو معنى الإبصار وهو معنى الرصد الذي لا نقبل من الدكتور أن يتفلسف علينا بخلافه! فإذا كان ذلك كذلك، فما معنى أن يقال "تجسيد لمحصلة المعلومات التي لها علاقة بالحقيقة"؟ بل الذي نبصره هو صفة الشيء الواقع تحت الإبصار على الحقيقة، لا أن "له علاقة" بالحقيقة! العقل والفطرة والبداهة تقضي بهذا، وتقضي بالحكم على من خالفه بذهاب العقل نفسه، لا أن هذا هو مذهب الماديين أو الواقعيين أو غيرهم من طوائف الفلاسفة! حتى الصبي الصغير إن جئت به وأعطيته زهرة حمراء وسألته ماذا ترى، وكان يعلم أن هذا الشيء اسمه زهرة، وكان يعلم

أن هذه الصفة يقال لها لون، وأن هذا اللون يقال له الأحمر، فلن يجيبك إلا بأنه يرى زهرة حمراء اللون! فلو قلت له: بل ما تبصره هو تجسيدك أنت للمعلومات، وهو تجسيد له "علاقة بالحقيقة" ولكن ليس هو الحقيقة نفسها، لما زاد على اتهامك في عقلك! بل يعلم كما يعلم كل عاقل أن الذي يراه هو الزهرة على حقيقتها (بصرف النظر عما لا يظهر له من تفصيل تلك الحقيقة وكيفيتها)، والذي عنده من توصيف لتلك الحقيقة هو المعلومات التي اكتسبها بشأن التوصيف اللغوي لتلك الحقيقة، ذلك التوصيف الذي يتفق معه عليه كل عاقل ذي عينين! فتبقى هي في الخارج على ما عليه من صفة موضوعية ثابتة هي حق في نفسها، ويبقى ما لدى الصبي من علم ذهني بها ووصف لغوي مطابق لما هي عليه، حق في نفسه، ولا يقال إنه يبصر "تجسيدا" لذلك العلم الذي حصل له، وأن ذلك التجسيد "له علاقة بالحقيقة"!!

والواقع أن أصل الفساد في مفهوم "المعلومات" نفسه كما بينا! فهي عند غيت – الذي نقل عنه ميتافزيقاه حذو القذة بالقذة، شيء وجودي خارجي في الأعيان (منفك عما في الأذهان) وصفه بأنه غير مادي، وبأنه لبنة أساسية لفيزياء العالم Fundamental Building Block، كما أن المادة والطاقة لبنتان أساسيتان. فكما حول أرسطو الأعراض إلى عنصر من عناصر الواقع الخارجي، لا تحصل للأجسام والجواهر في العالم صفة ولا حالة تعرف بها إلا بحلوله بها وتقلبه عليها، وكما صير نيوتن الخلاء Space جسما في الأعيان Substance لا نهاية له ولا صفة إلا ما تتصف به الأجسام التي تتحرك فيه من صفات وأحوال وتغيرات، وكما شيّء أينشتاين في ميتافزيقاه الزمان والمكان وجعلهما عنصرين لشيء وجودي حادث في الأعيان يؤثر في الأجرام السماوية ويتأثر بها، فكذلك صير غيت "المعلومات" عنصرا "غير مادي" موجودا في الأعيان استقلالا عن أذهاننا، لا يحصل للعالم نفسه وجود في الخارج إلا بمعالجة المادة والطاقة له بصورة ما أو بأخرى، ثم قال إنه نتاج إرادة الصانع The Creator!

وإذن فعلى فهم الدكتور، وتنظير من قلده في ميتافزيقاه، يلزم أن تكون المعلومة القائلة بأن أشعة الضوء التي لها ترددات كذا وكذا المعنكسة عن أجزاء مختلفة من جسم معين، قد سقطت كلها على قرنيتي (مثلا)، هذه المعلومة موجودة وجوديا عينيا مستقلا بنفسه خارج ذهني وخارج جميع الأذهان، من قبل أن تحصل في نفسي أو في نفس أحد من البشر! فإذا دخلت إلى مخي من خلال الحواس، "تجسدت" بأن أوهمني مخي (كما يوهم غيري حال الرصد) بأني "أبصر مقعدا أخضر في وسط الغرفة"! فبهذا يحصل للمعلومة "جسد"، أو ما نتوهم نحن جسديته وماديته (الكرسي الأخضر في وسط الغرفة)! وهذه والله من أسخف وأوهى فلسفات المثاليين على الإطلاق، لأن المعلومة على هذا المعنى لا حقيقة لها إلا أن

تكون عمل العقل البشري على أثر الإدراك، الذي لا يوجد إلا في ذهن الإنسان، تبعا للإدراك، فلا يقال إنها توجد في الأعيان استقلالا (محمولة على متن موجة كوانطية أو غير ذلك) فتدخل إلى أمخاخنا عبر حواسنا فتتحول إلى هذه الصورة أو تلك لأجساد وحوادث (نتوهمها حقائق في الأعيان مطابقة لما ندركه مع أنه ليس ثم في الخارج إلا "موجات المعلومات المزعومة")، إلا على سبيل التناقض والخرف البارد الذي تمجه العقول!

وقد بينا فيما مر معك أنه إذا كانت "المعلومات" موجودة في الخارج وجودا غير مادي، منفصلا عن موضوعها المادي الذي تعبر عنه، مستقلا عن أذهان البشر كافة، فلا يتصور إلا أن تكون هي علم الباري الذي هو صفة لذاته سبحانه، لأنه لا يقال "معلومة" إلا بأن تكون منسوبة إلى الإنسان أو إلى الرحمن أو إلى غيرهما مما يتصور حصول العلم في نفسه! فإن لم تكن منسوبة إلى الإنسان، وإنما يثبت لها وجود غير مادي في الأعيان من قبل حصول الإدراك عند الإنسان، لم يبق إلا أن تكون هي علم الرحمن، وإذن، فعلى قول غيت والدكتور عمرو بأنها هي المكون الأساسي للعالم، المركب فيه تركيبا أساسيا كما يقال في المادة والطاقة، بل لسنا نبصر إذا أبصرنا إلا "معلومات متجسدة"، لزم ألا تكون تلك الأشياء التي تدخل إلى إدراكنا إلا صفة الباري نفسه التي هي من ذاته جل شأنه، وإذن لزم القول بوحدة الوجود! وقد مر بك أن الدكتور يقول بوحدة الوجود على أي حال، إذ يثبت الذات الإلهية على أنها هي الحقيقة المطلقة المتوحدة التي لا يمتاز فيها شيء عن شيء، وليس في الوجود على الحقيقة شيء سواها! فالحق أن الرجل لا يبالي ماذا نثبت وماذا ننفي، ولا يبالي أي تقسيم ميتافزيقي هلامي يتبناه أتباعه، طالما كان تقسيما ينقض على الماديين مذهبهم بأي صورة من الصور! فالوجود كله عنده (العيني والذهني على السواء)، وهم في وهم على أي حال، ولا حقيقة له إلا الله، سبحان الله وتعالى عما يقول علوا كبيرا.

والآن يدعونا الدكتور لأن نؤسس ديننا كله واعتقادنا كله على ميتافزيقا الموجة المعلوماتية المتجسدة في الأذهان هذه، كما أسس المتكلمون الأوائل دينهم واعتقادهم وصفة الباري عندهم على ميتافزيقا الجوهر والعرض اليونانية، جهمية جديدة في محل الجهمية القديمة! وهو ماض – فعلا – في إلقاء المحاضرات في كل مكان من أجل دعوة المتكلمين وطلبة العقيدة والفلسفة لأن يتبنوا مشروعه الخبيث هذا، والله المستعان وإلى الله المشتكى.

ثم يقول:

> الماديين المنصفين هايقولوا خلاص إحنا اقتنعنا، إن الوجود ثنائية، مادة ومعلومات. المادة بنقيسها إن لها كتلة. والمعلومات ليس لها كتلة. ويدونا مثال زي الفلاشة بتاعت الكمبيوتر، الفلاشة لها كتلة،

مهما تحشيها بمعلومات وزنها مش هايزيد، فالمعلومات ليس لها كتلة! يبقى دول حاجتين إيه، مختلفين، وهذه ثنائية. والمعلومات بتحتاج لوسط مادي ليحملها. تبقى القضية إيه، حسمت! يبقى فيه معلومات، وفيه مادة! بنقول لهم لأ برضو! مش يعني بنصل معاهم لحل وسط، لأ! ده المادة نفسها، اللي هي الحاملة، هي في حد ذاتها معلومات! الحاسوب، الكمبيوتر، اللابتوب اللي انتوا شغالين عليه ده، عبارة عن إيه؟ فكرة كانت معلومات في عقل المصمم! وبعد كده صممها، آجي أكمل يقول لك: ما هو صممها باستخدام مادة، بلدائن و و إلى آخره، نقول له أيوه ما هي كل هذه اللدائن هاتنتهي إلى أنها في الآخر إيه؟ مش إلكترونات وبروتونات ونيوترونات؟ نمسك الإلكترون، هو الإلكترون عبارة عن إيه؟ عبارة عن معلومة: سرعته كذا! معلومة: شحنته كذا! معلومة: نصف قطره كذا! معلومة .. يعني حتى هذا الإلكترون هو مجموعة من المعلومات. يعني الحامل للمعلومات هو في أصله معلومات! عشان كده بنقول إن المادة هي جسد للملومات تتجسد فيه! ....

إلى أن قال: "وهذا لا ينتقص من قيمة المادة، واحترامنا لها، ولكن مش هانعتبرها كيان حسي مجرد هو أساس الوجود، ولكن هاننظر للمادة كشيء ندركه من خلال تأثيراته أو توقيعاته في الوجود التي أثبتنا أنها عملية معلوماتية، لأنها تقوم على استبعاد الاحتمالات الأخرى" اهـ.

ثم قال: "ومن ثم فالمعلومات تتجسد في المادة وتصبح المادة هي تجسيد للمعلومات." اهـ.

قلت: من جديد يتناقض الدكتور من حيث لا يشعر، ويغرق نفسه وقراءه في مغالطة جعل العلم هو عين المعلوم! لا يزال العقلاء الأسوياء يفرقون بين العلم والمعلوم، فيقولون إن العلم دعوى بشأن الواقع تحصل في نفس من يوصف بالعلم، وتكون موافقة للمعلوم، لا أنها تكون هي نفس المعلوم! فنزاعك يا دكتور ليس مع الماديين أصلا، وإنما هو مع عموم العقلاء من بني آدم خلا المثاليين والدراويش من أمثالك! فالعقلاء كافة يقولون إن ما تدلهم عليه حواسهم من الأشياء العينية المحسوسة وصفاتها وهيئاتها موجودة في الخارج تحقيقا، وأن وجودها منفصل عن وجود إدراكهم فيهم وعن وجود العلم بتلك الأشياء في نفوسهم إذا حصل الإدراك! وهم جميعا مطبقون على أن العلم بالشيء قبل أن يدركه أحدهم بحواسه، موجود في نفس كل من سبق أن أدركها بحواسه من المخلوقات من قبله، في كل منهم بحسبه، وموجود من قبل ذلك على سبيل الكشف التام من الأزل عند الباري جل شأنه! فالعلم بالشيء الموجود في الأعيان الخاضع للحس، يكون في نفس كل عالم به بحسبه، فيكون في كل مخلوق (بعد حصول الإدراك لديه) علما ناقصا بنقصه، لائقا بذاته وقدراته وحواسه، حادثا بعد أن لم يكن! ولا ندري

كيف تصور عقول الدواب والأنواع الحية الأخرى ما تدركه حواسها من صفات الأشياء، وكل من زعم أن لديه علما بذلك فهو واهم ليس لديه إلا التنطع على أمر لا نعقله!
ولكننا مع ذلك نقطع بأنهم يعلمون من حقائق الأشياء ما يحتاجون إلى العلم به، علما يشتركون معنا في موافقته الواقع في نفس الأمر من حيث المعنى الذي يثبت في نفوسهم بشأنه! فلا يقال مثلا إن الخفاش يدرك الأرض سماء والسماء أرضا، أو إن الكلب يرى القطة فأرا والديك حمارا، أو إن القرد يشعر بالبرد حرا، ويجد في الحر برودة .. إلخ! فهم جميعا يوافقون الواقع في جملة المعارف (المعلومات) الحاصلة في نفوسهم بشأنه من حيث الأصل، كما أننا نوافق الواقع في نفس الأمر، وإن اختلفت طريقة الإدراك وطريقة التعقل في ترجمة مدخلات ذلك الإدراك، وطريقة المنطق في العبارة عن تلك المدخلات! ولا يجوز للمسلم أن يعتقد خلاف ذلك لما يلزم عنه من نسبة العبث وسوء التقدير إلى رب العالمين! ومما نستدل به على ذلك من كتاب الله تعالى أن الهدهد لما خاطبه سليمان، اتفق معه على وجود بلقيس وعلى وجود عرشها وعلى حقيقة سجودها وقومها للشمس كما أخبر بها سليمان، وكذلك النملة عندما حصل لديها العلم بأنها رأت سليمان وجنوده، كان علمها مطابقا للواقع بالضرورة، فيقال إن المعلومة التي مفادها مجيء سليمان وجنوده حصلت لديها (بحسبها وبحسب إدراكها وحواسها) وحصلت كذلك لدى كل إنسان اتفق له أن رأى سليمان وجنوده حيث رأتهم تلك النملة! فلا يقول عاقل إن سلميان كانت حقيقته هي تلك المعلومة التي دخلت إلى مخ النملة، أو إن عرش ملكة سبأ كانت حقيقته هي المعلومة التي حصلت في نفس الهدهد، وحصل نظيرها في نفس سليمان!
فعلى أي حال، لا يقال في شيء إنه "معلوم" أو "معلومة" إلا بناء لما لم يسم فاعله، أي لفاعل العلم، الذي نثبت في نفسه العلم! وفي الانكليزية كذلك لا يقال Information إلا من الفعل to Inform أو To be Informed أي يعلِم (بالكسر) أو يعلَم (بالفتح)، فلا انفكاك له كذلك من إثبات مصدر للعلم ومتلق له! فلا تكون الدعوى المعرفية (التي يقال لها هنا المعلومة Information) إلا قضية موجودة في نفس الموصوف بالعلم، خلافا للمعلوم نفسه الذي يكون وجوده في الأعيان إن كان موضوع المعلومة شيئا عينيا، ويكون وجوده في الأذهان إن كان موضوع المعلومة شيئا ذهنيا، كعلمنا مثلا بأن الواحد نصف الاثنين! فالكليات لا حصول لها في الخارج وإنما تحصل في الأذهان، وتتحصل الأفراد الداخلة تحتها في الأعيان كما هو معلوم!
هذا يا دكتور هو كلام العقلاء كافة في العلاقة الوجودية بين العالم والمعلوم و"المعلومة"، على اختلاف محل العلم (الموصوف بوجود العلم في نفسه)، نفرق تفريقا صارما بين الشيء العيني موضوع المعلومة الموجود في

الأعيان، وبين المعلومة نفسها التي توجد في نفس العالم به، وليس هو مذهب الماديين أو الواقعيين!
فصحيح إن الحاسوب قبل أن يصنع كان "معلومات في عقل المصمم"، لكن هذه المعلومات لم تكن هي عين الحاسوب نفسه، لا قبل التصميم ولا بعده، ولا يقول بذلك عاقل! وصحيح إن مادة الحاسوب بعض تصميمه وتصنيعه تتكون من لدائن ومعادن وإلكترونات وبوزيترونات .. إلخ، لكن هذه المكونات للمواد التي تركب منها الحاسب (الحزيئات وذراتها) إن سلمنا بكونها على ما نتصوره لها من حقائق في الخارج، وجب أن نعتقد أنها كانت موجودة في الخارج في تلك المواد من قبل أن يصنع منها المصمم حاسوبه، وأنها لا يتوقف وجودها على تلك الهيئات والصفات على حصول العلم لدى المصمم أو غيره من البشر بها، وإنما خلقت على تلك الهيئة، فأدركها من أدرك وغفل عنها من غفل! فإن حصل لدى المصمم علم بأن مادة الحاسوب تتكون من كذا وكذا، كانت لديه "المعلومة" بذلك، وإلا لم تكن لديه وكانت لدى غيره، أو لم تكن لدى أحد من المخلوقين على الإطلاق، كل ذلك لا تأثير له على وجود موضوع المعلومة نفسه في الخارج من حيث هو!
كل هذا على اعتبار أن المراد بالمعلومة، ما يكون في نفس الذات العالمة من تصور لما في الواقع. فإن أطلقت لفظة "المعلومة" وأريد بها ترتيب معين للإلكترونات والشحنات على وسيط مغناطيسي كما يكون من ترتيب الشحنات على القرص الصلب في الكمبيوتر، بحيث تعمل آلية الكمبيوتر على ترجمته إلى سلوك ميكانيكي معين، أو أريد بها ترتيب معين للأحماض الأمينية في نواة الخلية الحية، بحيث تعمل آليات حيوية معينة وماكينات جزيئية دقيقة في الخلية على ترجمته إلى هيئات وصفات معينة للخلايا الحية، فإما أن يكون المقصود بالمعلومات حالئذ تلك الإلكترونات المعينة أو تلك الأحماض الأمينية المعينة المرتبة على ذلك الترتيب المعين، الذي هو صفة لها، وإما أن يقال إن المعلومات هي العلم بترتيبها وبما يراد من كونه على هذا النحو، الذي هو موجود بالضرورة عند من صنعها، وقد يحصل لغيره! فعلى الوجه الأول، وعلى هذا الوجه وحده (إرادة الشيء المعين الموصوف بالترتيب أو الطبع محل البحث)، تكون المعلومات شيئا متعينا في الخارج! ولا تكون، مع ذلك، هي عين العلم الذي عند صانعها، كما هو واضح لكل عاقل! وقد بينا أنه لا يصح ولا يجوز الزعم بأن العالم بكليته تحصل فيه الحوادث وتخلق فيه المخلوقات على أثر "آلية" كمعالج الكمبيوتر الذي يحول البرنامج الإلكتروني إلى سلوك ميكانيكي، أو كالماكينات الجزيئية التي تقوم ببناء الخلية الحية عند نسخها على ما في الشريط الوراثي من "معلومات"!
والقصد أنك بمجرد أن تفك الإجمال في لفظة "معلومات" يظهر لك فورا ما يجب على العقلاء أن يقولوا به، وتنكشف مخالفة مذهب الدكتور لكلام

العقلاء في ذلك، والله المستعان!

في كتابه الخبيث (ثم صار المخ عقلا)، وكما هو متوقع، يبذل الدكتور جهدا جهيدا في الفصلين التاسع والعاشر منه في محاولة إقناع القارئ بأن أحوال الصوفية والدراويش ليست هلاوس مرضية ولا أحوالا شيطانية ولا خرفا وضلالا من حيث الاعتقاد المصاحب لها عند أصحابها، وإنما هي نتاج لنشاط سوي وصحيح لنظام عصبي معين في مخ المتصوف، يوصله إلى حالة "وحدة الشهود" والإحساس المباشر "بوحدة الوجود" أو "الوجود الموحد" كما عبر عنه، على نحو لا يكتفي بمحاولة إثباته علميا وحسب، بل ويجعله دليلا على أن الواقع المادي المعتاد إنما هو حالة ذهنية معينة قد ركّب الباري في عقول البشر من أساليب التعامل مع "موجات المعلومات" كما يسميها ما يمكنهم من التسامي عليها والانتقال إلى إدراك أسمى منها، يرى معه الإنسان حقيقة الوجود الموحد المزعوم (الذات الإلهية التي هي حقيقة كل شيء، ولا وجود على الحقيقة إلا تلك الذات وما يصدر عنها من "معلومات" و"عقول" تدرك تلك المعلومات)! فكأنما يقول للقارئ: إن أردت أن ترى الله بعقلك ونفسك وشعورك، وأن تدرك حقيقة ما قررناه من طريق النظريات الطبيعية والمعلوماتية بشأن حقيقة الوجود الخارجي كما تدرَك كافة المحسوسات، بل فوق ما تدرك المحسوسات، فعليك بالتصوف والترقي في طبقات أصحابه، حتى تعمل تلك الآليات العصبية المركبة في مخك تركيبا من أجل هذه الغاية، على النحو الذي يوصلك إلى نوالها، ويكسبك قطعا يقينيا لا ريب فيه، بوجود الباري وبأنه هو الحقيقة المطلقة التي لا مدفع لها! وهذا محض إضلال وزندقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

عقد الدكتور فصلا (الفصل التاسع) ترجم له بقوله: "بيولوجيا التصوف"! بدأ فيه بذكر تجربته الصوفية القبورية في أيام الصبا، وكيف أنه تربى بين دراويش ضريح الحسين وتشبع بكتب مشايخهم وأورادهم وأفكارهم، وإن لم يكن في ابتداء أمره يفهم كثيرا من مصطلحاتهم. وأخذ الدكتور ينقل بعض أقوال الصوفية من كتبهم وأشعارهم، معقبا عليها إقرارا واستحسانا، مقررا وحدة الوجود تحت اسم "وحدة الشهود"، حيث قال (ص. 239): "وتدور الكثير من حكم "ابن عطاء الله السكندري" حول معاني الفناء ووحدة الشهود، فنجده يقول: "ما حجبك عن الله وجود موجود معه، إذ لا شيء معه، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه"." اهـ. فهذا هو عين وحدة الوجود حتى على اصطلاح الصوفية، والدكتور يقره ويسميه "بوحدة الشهود". ثم قال: "وعرفت بعضا مما يقصد عبد الكريم الجيلي حين وصل إلى حال شاهد فيه أن الله عز وجل بالنسبة للوجود كالماء بالنسبة للثلج، فالثلج ليس إلا الماء (وحدة الشهود). وما الكون في التمثال إلا كثلجة ... وأنت لها الماء الذي هو

نابع. وعرفت بعضا مما يقصده سلطان العاشقين عمر بن الفارض، حين يتحدث عن الوجود كما شاهده وهو في "فنائه"، فامتزجت روحه بحقائق ومعان ومشاعر قامت بغير ثوب مادي!" اهـ.
والتحقيق أن وحدة الشهود عند الصوفية إنما هي التجربة الشعورية التي تتجلى بها حقيقة وحدة الوجود المزعومة للعارف الصوفي، فلا تنفك وحدة الوجود عن القائلين بوحدة الشهود، بل هي حقيقة موضوع الشهود المزعوم عندهم، إذا ما تدبرت أحوالهم وأقوالهم وأورادهم، على اختلاف طرقهم وفرقهم. فلا يغررك زعم كبرائهم - ذرا للرماد في العيون - بأنهم إذا قالوا بوحدة الشهود فإنما يقصدون حالة نفسية وشعورية معينة يمر بها السالك فينقطع شعوره وحواسه عما حوله من المحسوسات والمشهودات حتى يصبح كأنه لا يسمع إلا الله ولا يبصر إلا الله ولا يشهد إلا الله! فمع أننا لو سلمنا لهم بأن هذا ما يكون عليه حالهم إذا ما وصلت بهم شياطينهم وتوهماتهم إلى تلك الحالة، فلن يكون أحدهم على أحسن أحواله إلا مبتدعا ضالا يكذب على نفسه وعلى ربه وعلى حواسه، ويدعي أنه يسمع الله ويراه ولا يسمع ولا يرى شيئا سواه وهو كاذب قطعا! وغايته إن كان يرى شيئا خارما لعادته، أن يكون من فعل الشيطان وتلبيسه، وتلاعبه بإدراك ذلك الخرافي المتمخرق، لا أن يكون ذلك من عمل المخ السوي الصحيح كما زعمه الدكتور!
فقد أجمع المسلمون على أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا، وقد سأل موسى كليم الله ربه أن يراه في الدنيا فبين له ربه أنه لا يقدر على رؤية الله ولا يطيقها بأن تجلى للجبل فجعله دكا، كما في قوله جل شأنه: ((وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)) [الأعراف : 143] ومع ذلك يزعم هؤلاء في نطاعة وسماجة أنهم يرون الله ويشهدونه شهودا يقطعهم عن رؤية غيره وشهود غيره، والله المستعان! فهل هم أكرم منزلا عند الله من موسى عليه السلام؟؟ فإن قالوا لا نقصد الرؤية الحسية وإنما نقصد حضور القلب وانقطاعه عما سوى الله، كما يكون من أحدنا إذا انقطع بوعيه وشعوره عن كل شيء من أجل أن يجعل قلبه وذهنه منخرطا في أمر معين، قلنا لهم: كذبتم، ليست هذه هي الحالة التي ترغبون أتباعكم في بلوغها إذا ما ترقوا في منازل السالكين في طرقكم! فلو كان ما تسمونه بالشهود على ما تقولون، فأي مزية وأي فضل وأي منقبة تكون للعارف إذا بلغ ذلك، وما الذي يلجئه لسلوك طريقتكم دون غيرها حتى يحصل له ذلك؟ أنتم تعدون السالك في أي طريقة من طرقكم البدعية بأنه سيكون له من العرفان بالله ما لا يحصل لمن دونه من السالكين، وأنه لا يبلغ الشهود إلا وينكشف له من حقائق

الأشياء ما لا ينكشف لغيره، فأي شيء هذا الذي ينكشف له، ويجهد في الترقي في طبقاتكم ومنازلكم حتى يحصل له من طريقكم، إن كان الأمر لا يزيد على تدريب النفس على تصفية القلب والذهن عند ذكر الله تعالى وتحقيق الخشوع في العبادة، كما كان يحققه سلف الأمة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم؟؟ بل تعدون السالك بأنه ستنكشف له حقيقة الوجود نفسه، ويحصل له مزيد من "العرفان بالله"، وبأن ذلك لا يحصل إلا من طريقتكم وأورادكم وبدعكم!

خذوا على سبيل المثال قول ابن عجيبة في شرحه على متن الحكم لابن عطاء:

"معرفة الحق هي شهود ربوبيته في مظاهر عبوديتك، أو تقول هي الغيبة عن الغيرية بشهود الأحدية." ثم قال: "والفناء هو أن تبدو لك العظمة فتنسيك كل شيء، وتغيبك عن كل شيء، سوى الواحد الذي "ليس كمثله شيء"، وليس معه شيء. أو تقول :هو شهود حق بلا خلق، كما أن البقاء هو شهود خلق بحق... فمن عرف الحق شهده في كل شيء، ولم يرَ معه شيئاً، لنفوذ بصيرته من شهود عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح، ومن شهود عالم المُلك إلى شهود فضاء الملكوت. ومن فني به وانجذب إلى حضرته غاب في شهود نوره عن كل شيء ولم يثبت مع الله شيئاً." اهـ.

قلت: فنهاية الفناء (الذي يحصل بالشهود) ألا تثبت مع الله شيئا، وأن ترى أنه "ليس معه شيء"! فيصبح هو كل موجود، وتصبح الموجودات الأخرى أوهاما وخيالات وأشباحا لا حقيقة لها! فتوحيدكم يا هؤلاء ليس هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وإنما التوحيد عندهم ألا ترى في الوجود غيره، تنظر إلى يدك فتقول هذه هي الله، وتنظر إلى نفسك في المرأة فتقول هذا هو الله، والمرآة نفسها هي الله، وليس في الجبة والسروال إلا الله، بل يبلغ أحدهم أن ينظر إلى حمار – أعزكم الله – فيقول هذا هو الله، ، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! فهو في تلك الحال الشيطانية لا يرى إذا رأى شيئا، بزعمه، إلا الله!

أو خذ قول علي حرازم براده في "جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني" (ص. 13) في بيان درجات السالك في طريقة شيخه الهالك: "إلى أن ينتقل إلى المشاهدة وهي الاستهلاك في التوحيد وغاية المشاهدة ينمحق الغير والغيرية، فليس إلا الحق بالحق للحق عن الحق فلا علم ولا رسم ولا عقل ولا وهم ولا خيال ولا كيفية ولا كمية ولا نسبة انتفت الغيرية كلها" اهـ. والتوحيد هنا هو توحيد الوجود الذي "ينمحق فيه الغير والغيرية"، فيصبح العارف هو عين المعروف والخالق هو عين المخلوق، الذي ليس في الوجود غيره! وقوله في نفس الكتاب في ثمرة الشهود المزعوم، التي هي "دخول الحضرة الإلهية" (ص. 17): "فإن من دخلها غاب عن الوجود كله فلم يبق إلا الألوهية المحضة حتى نفسه تغيب

عنه، ففي هذا الحال لا نطق للعبد ولا عقل ولا هم ولا حركة ولا سكون ولا رسم ولا كيف ولا أين ولا حدود ولا علم، فلو نطق العبد في هذا الحال لقال: لا إله إلا أنا سبحاني ما أعظم شأني، لأنه مترجم عن الله عز وجل". قلت: فحري لقائل هذا الكلام أن يحشر مع فرعون الذي قال: ((أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)) الآية [النازعات : 24] وقال: ((مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)) الآية [القصص : 38]، فإنه على دين رؤوسكم وكبرائكم، يكون فرعون الذي لعنه الله في القرآن صادقا في توحيد نفسه بأنه هو الإله الحق والرب الأعلى، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فما هذا إلا غيض من فيض، ولولا ضيق المقام لزدناكم! والحاصل أنكم لا تقصدون بوحدة الشهود على التحقيق إلا انكشاف الحقيقة (التي هي وحدة الوجود) للسالك في طريقتكم، وهذا هو العرفان وهو علم الحقيقة وغير ذلك من مصطلحاتكم والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والواقع أن تلك الحالة التي يصفها الصوفية المنتسبون إلى قبلتنا، هي نفسها التي يصفها الروحانيون Mystics في جميع الملل الوثنية والشركية، كل منهم في دينه! ويسميها الدكتور بالتوحد المطلق، ترجمة لمصطلح Absolute Unitary Being عند أندرونيوبرغ ويوجين داقيلي، الباحثين الذين نقل عنهما الدكتور بحثهما في تلك المسألة! قال (ص. 240): "بعد هذه الجولة من مكاشفات ومشاهدات الصوفية المسلمين، ينبغي أن نذكر أن هذه المشاعر والأحاسيس والمشاهدات، والتي يسمونها أحوالا ومقامات، ليست حكرا على صوفية المسلمين القدامى والمحدثين، بل يشاركهم فيها اليهود والنصارى. وقد عرف الألماني المعاصر جون تولر الصوفية بأنها "الغرق في بحر الألوهية والشعور بالتوحد معها ومع كل الوجود، في لذة سماوية عظمى". ويصف الفيلسوف الألماني مالفيدا فون مايز ينبورج عام 1900 تجربته الشعورية الصوفية قائلا "كنت وحيدا على شاطئ البحر، وشعرت بأنني قد عدت من عزلة الذاتية إلى الوعي بالوحدة مع الجميع، تجمعت الأرض والسماء والبحر في انسجام في عالم واحد شاسع شعرت بنفسي متوحدا معه". اهـ.

ثم قال: "وقد سبق هؤلاء جميعا الهندوس، الذين اعتبروا أن ما يشاهدونه من وجود واحد، إنما يعني وحدة وجود حقيقية وليست وحدة شهود، وقد صارت بمثابة المحور الأساسي في عقيدتهم." اهـ. ثم أورد نصوصا من كتب الهندوس المقدسة لديهم فيها التصريح بوحدة الوجود.

والسؤال الذي يجب أن نطرحه على الدكتور في هذا المقام هو: كيف يا دكتور لا ترى في هذا الذي ذكرته من اتفاق أهل الملل كافة من مشركين ووثنيين وغيرهم على تحقيق "وحدة الشهود" الصوفية واختراق حجب الغيب كلها، كيف لا ترى في ذلك ما يقتضي تصحيح ملل المشركين والكفار كافة؟!

إذا جعلت كشف أستار الغيب (كما تزعمه الصوفية) وتحقيق الاتصال

المباشر بالرب سبحانه و"التسامي" فوق المحسوسات كلها كما سميته، أمرا راجعا إلى قدرة ذاتية في المخ البشري يشترك في الوصول إليها جميع أهل الملل على السواء، فقد صححت بذلك أديان المشركين كافة، وأسقطت حجاب الغيب نفسه عن رب العالمين سبحانه وتعالى علوا كبيرا، إذ يصبح الباب إذن مفتوحا على مصراعيه لكل مشرك فاجر ووثني داعر أن يدخل في تلك الحالة العقلية "التحشيشية" الخبيثة التي تغنى بها مشايخك من الصوفية سكرا وذهولا، ليكون في "وحدة" مع الرب على الحقيقة، وليصح فيه ذلك التأويل الحلولي الفاسد (الذي يلزمك على صوفيتك أن تقول به) لقوله تعالى في الحديث القدسي "كنت يده التي يبطش بها وعينه التي يبصر بها ورجله التي يمشي بها، ولإن سألني لأعطينه ولإن استعاذني لأعيذنه" أو كما قال عليه السلام!!
فإذا كانت حالة وحدة الشهود هذه هي غاية ما يطمع أن يبلغه المريد السالك في طرق الصوفية من اتصال برب العالمين ومن خصوصية لديه (حتى قال قائلهم إنه قد انكشفت له في ذلك الفناء المزعوم أسرار الكون، وأقعده الله على عرشه وأسمعه جميع الأصوات وأطلعه على كل شيء ... إلى آخر ذلك الهذيان والكفر المبين)، الذي يفترض أنه إنما عرفه ووصل إليه من دين محمد صلى الله عليه وسلم، فهل يرفع الله أشد المشركين إغراقا في الشرك وفي عبادة الشيطان وفي سبه وشتمه آناء الليل وأطراف النهار، إلى منازل الأولياء الصالحين المقربين، التي يفترض أن المسلم لا يبلغها إلا بعدما يبلغ الغاية في التعبد والتنسك والانقطاع والتقرب إليه بالنوافل والأذكار والأوراد .. إلخ؟؟ ما حاجة المسلمين إلى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إذن، لو صح أن كانت تلك المنزلة مما يتصور بلوغه لسائر أهل الملل، يبلغونها وهم على شركهم وكفرهم بعد طول دربة ومران على التأمل والتدريب الروحي وتصفية الذهن .. إلخ؟؟ هذا يقتضي القول بوحدة الأديان وتصحيح ملل الشرك، وتكذيب الرسول وتكذيب رب العالمين والحط عليه، وغير ذلك من الكفر المحض، نسأل الله السلامة! [30]
وهو مقتضى مذهب من قلدتهم يا دكتور في التماس التفسير الطبيعي (البيولوجي) لتلك الحالة التي هي – كما ذكرت ونقلت – أمر مشترك بين جميع أهل الملل، مطروق على أيما اعتقاد كان طارقه، مسلوك على أيما دين كان سالكه، فلا فضل فيه لمسلم على كافر، ولا قيمة فيه لشيء مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما هو أمر بيولوجي صرف! فالمعرفة فيه – إذن - لا تحصل من طريق الوحي الصحيح، وإنما من مصادر الطبيعيين وأقيستهم ونظرياتهم، فلا يثبت أحدهم الغيب إن أثبته إلا من تلك المصادر، ولا ينفيه إن نفاه إلا منها، فهذا من تلبيس دين المسلمين بدين

الصوفية القبورية الاتحادية من جانب، وبدين الطبيعيين الدهرية من الجانب الآخر، ضلالا فوق ضلال، وظلمات بعضها فوق بعض، نسأل الله السلامة!
والواقع أن أهل الملل الشركية والوثنية يمرون بتلك التجارب فعلا وتحقيقا، كما يمر بها المخرفة الدراويش المنتسبون إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم!
ومعلوم أن القائلين بوحدة الوجود، لا يبالون بالقول بوحدة الأديان وبتصحيح ملل الشرك والمشركين، ولا يرون بذلك بأسا البتة، بالنظر إلى كون اعتقادهم يقتضي أن يكون كل وثن يعبد في الأرض هو الله نفسه، إذ يقولون إنه لا موجود على الحقيقة إلا الله! فإذا كان الساجد لبوذا عندهم كالساجد للقبر كالساجد للصليب، كالساجد لله تعالى في مسجده، كل هؤلاء يعبدون نفس الإله في الحقيقة، فلا إشكال إذن في إثبات أن البوذي والهندوسي واليهودي والنصراني قد يصبح أحدهم من أولياء الله المقربين وهو على دينه أيا ما كان، وإذا مات دخل الجنة! ولهذا اقترن القول بوحدة الأديان بالقول بوحدة الوجود اقترانا تلازميا، وكان أصحابه ملاحدة على التحقيق، يعبدون الطبيعة من دون الله، يرون في التوحد معها والامتزاج بها في تأملاتهم الصوفية غاية ما يرام من جميع الأديان! وإذا كان الإنسان قد ركبت في مخه آلة إذا استعملها بالتدريب النفسي على أيما دين شاء، وصل بها إلى غاية المرام والمطلوب منه، ألا وهو التوحد مع العالم وإدراك حقيقة أن الأشياء كلها ليست إلا شيئا واحدا في الحقيقة، والموجودات كلها ليست إلا موجودا واحدا، فما فائدة نصوص الأديان نفسها وما الحاجة إلى الأنبياء والمرسلين أصلا؟؟ كل الأديان إذن سواء في كونها لا تزيد على أن تكون مدخلا مما لا ينحصر من مداخل النفس البشرية للوصول لتلك الحالة التوحدية المطلقة، التي يسميها نيوبرغ (والدكتور تبعا) بالحالة الوجودية التوحدية المطلقة Absoulte Unitary Being (AUB)!
ومن هنا جاء تأسيس أولئك الطبيعيين الذين نقل عنهم كلامهم (فيما سموه ببيولوجيا التصوف Biology of Mysticism) لما سموه بالثيولوجيا العصبية Neurotheology [31]، حتى تصبح كلمة الطبيعيين في جميع أمور الدين هي العليا، وأبحاثهم هي المرجح بين عقائد أهل الملل، إن كان من ترجيح! وتصبح جميع النصوص الدينية سواءً وبلا قيمة في تحقيق المعرفة في نفس الأمر! وتصبح نهاية الأرب من الدين وثمرته المرجوة هي تلك الحالة الوجدانية "الروحية" التي يحصل عليها المرؤ بتنشيط مواضع معينة من المخ على نحو مخصوص، ويصبح الإله God هو ذلك الوجود المطلق المزعوم الذي يشعر المتصوف (من أيما ملة كان) بأنه يمتزج به ويفقد معه الشعور بذاته! وكل ذلك بناء على تأويلات اختزالية فاحشة (على عادة الطبيعيين في كافة القضايا الوجودية الكبرى التي اقتحموها بآلتهم) لما يظهر على

مسوحات المخ Brain Scans من تغير لتجمع الدماء في هذا الموضع من الدماغ أو ذاك!! فبناء على ما أثبتته أبحاث نيوبرغ هذا وأصحابه من كون الروحانيين (الصوفية) من أهل الملل كافة على اختلاف عقائدها يمرون بنفس التجارب ويصفونها بنفس الوصف وتظهر في أمخاخهم على مسح المخ نفس المواضع النشطة، استنبطوا أنه إن صح أن كان موضوع تلك التجارب عند هؤلاء جميعا، كيانا وجوديا غيبيا على الحقيقة، لوجب ألا يكون "شخصا" Personal موصوفا بصفات الذوات الحية الفاعلة المريدة، كما يعتقده المسلمون واليهود والنصارى، لأنه لو كان كذلك، للزم أن تكون ولايته ومحبته مقصورة على أهل ملة واحدة بعينها دون غيرهم من أهل الملل، بينما يكون مصير من كفر بتلك الملة ولم يدخل فيها، ما تثبته تلك الملل الثلاثة للكافر بها من اللعنة والطرد من رحمته في الآخرة! ولو كان الأمر كذلك، لما جاز أن تصبح تلك التجربة الصوفية الاتحادية العميقة Profound Pantheistic Experience على نحو ما يصفها سائر من مروا بها، أنهم يشعرون جميعا على اختلاف مللهم وعقائدهم، بالتوحد التام مع كل موجود، وبأنهم يصبحون وإلههم شيئا واحدا مطلق الوجود، بل لزم أن تكون مقصورة على أتباع "الدين الحق" الوحيد، فلا يحظى بها أحد غيرهم! وإذن تصبح أبحاث الثيولوجيا العصبية البدعية هذه Neurotheology مفضية إلى نفي إله المسلمين وإله اليهود وإله النصارى جميعا، وإثبات الإله الاتحادي الفلسفي العدمي الذي يقول به الوثنيون من بوذية وهندوس واتحادية طبيعيين وغيرهم، الذي لا حقيقة له إلا أن يكون هو الطبيعة نفسها!

قال نيوبرغ وصاحباه في الكتاب المشار إليه (ص. 142-143):

> لقرون طويلة، كان وجود ذلك الواقع (يعني الواقع المزعوم الذي يتبصر به متصوفة أهل الملل) مدعوما فقط بمزاعم الصوفيين. وكان العلم ينفي تلك الدعاوى بصورة تقليدية. ولكن عملنا هذا يوصلنا إلى القول بأن الاتحاد الروحاني الذي يصفه الصوفيون، يبدو، في صورة الوجود الأحادي المطلق Absolute Unitary Being، مساويا - على أقل تقدير - في واقعيته لأي تجربة أخرى من تجاربنا البشرية. فإن الالتزامات النيورولوجية والفلسفية لهذه القناعة تجعله من الواضح أن ذلك الوجود الأحادي المطلق من شأنه أن يكون حالة من التوحد المطلق Ulttimate Union والأحادية غير المتفاضلة Undifferentiated oneness، أو مستوى وجوديا plane of existence تذوب فيه جميع درجات التفاضل (بين الموجودات) وتصبح المقارنة بينها ممتنعة.
>
> ففي حالة الوجود الأحادي المطلق، لا يستَشعر (عند من تعرض عليه تلك الحالة) إلا الوحدة الكاملة والصافية لجميع الموجودات، أو لجميع المعدومات. فلا شيء يمكِن التفريق بينه وبين غيره، فلا

يمكن إدراك الأفراد ولا الأشياء كأعيان مستقلة عن بعضها البعض. ولا يمكن للذات المعتزة بنفسها Egotistical Self أن توجد (في تلك الحالة)، لأنه إذن لا يكون ثم (في الوجود) شيء آخر بخلافها تعرف نفسها بالتميز عنه! وبنفس المنطق فلا يمكن للإله God أن يفترق عن تلك الأحادية المطلقة ككائن مستقل يمكن التعرف عليه، كشخص معين personalized being، فإن القيام بذلك يكون إدراكا لإله أدنى من أن يكون وجوده حقيقة مطلقة Absolutely Real. وعليه فإن إدراك الواقع المطلق هذا يقتضي أن يكون الإله أكثر من مجرد كائن معين قابل لأن يعرف Knowable being، وأن يكون واضحا لدينا أن كافة التشخصيات للإله Personifications of God ليست إلا محاولات رمزية لتصور ما لا يمكن تصوره.

ولكن لا يعني ذلك أن التصورات التشخيصية للإله لا معنى لها، أو أنها بالضرورة باطلة. وإنما نقول إن حالة الوجود الأحادي المطلق تفرض على كل من يتعرض لها، الإدراك بأن الإله الذي يمكننا أن نعرفه ليس إلا وميضا لواقع روحاني أعلى، ربما على نفس النحو الذي يدل به شعاع الضوء الواحد على مجد الشمس. فعلى هذا تكون جميع التجسدات المتشخصة للإله Personalized Incarnations متجذرة في إدراك واع لواقع أعظم، وهو أعمق وأجمل شعور بالحقيقية Realness يمكن للعقل أن يستشعره. ففي ذلك الواقع المطلق، الذي يقع فيما وراء الوجود المادي والتجربة الفردية، تذوب وتتلاشى جميع النزاعات، ويتحقق الوعد الأصيل Fundamental Promise لجميع الأديان، ألا وهو نهاية المعاناة كلها وتصبح الوحدة والمتعة أبديتين.

قلت: تأمل كيف تفلسف وغرق في الخرف والهذيان، من يزعمون أنهم باحثون تجريبيون "موضوعيون" من أجل أن يخرجوا باستنباط "ثيولوجي" من نتائج أبحاثهم! مع أننا نجزم بأن المسوح المخية Brain Scans التي شاهدوها لم يظهر عليها تحقيق شيء من تلك المزاعم الفاحشة العريضة التي تكلموا بها، ولا ما يقتضيها من قريب ولا من بعيد! غاية ما تدل عليه تلك المسوح، هو اشتراك جميع هؤلاء المخرفين الضلال في استجابة أمخاخهم لعامل سببي معين حال تشبعهم بتلك العقيدة الاتحادية وسعيهم في الوصول إلى الشعور بها! وسواء كان ابتلاؤهم بأن كان ذلك العامل السببي عاملا ذاتيا في نفوسهم أو في أمخاخهم يرتبه الرب تعالى على تشبعهم بتلك الاعتقادات الشركية الإلحادية اللعينة جزاء وفاقا، كما في قوله تعالى ((وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ)) [البقرة : 88] وقوله: ((فِي قُلُوبِهم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا

كَانُوا يَكْذِبُونَ)) [البقرة : 10] وقوله: ((فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)) الآية [المائدة : 13] وقوله: ((فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ)) [التوبة : 77] وغير ذلك مما في معناه، أو كان السبب عاملا غيبيا راجعا إلى عمل الشياطين وتلبسها بهم (وهو ما يظهر لي والله أعلم) بما كسبت أيديهم من الكفر والشرك وبما عبدوها من دون الله، فهو على أي حال سبب راجع إلى شركهم جميعا وكفرهم المبين!

يستدرجهم ربهم إلى الإغراق في الشرك والإلحاد بتلك الأحوال، على اختلاف مللهم الشركية (بما فيهم الصوفية القبورية المنتسبين إلى الإسلام) كما يستدرجهم بالظهورات الشيطانية Apparitions حيث تأتيهم الشياطين فتتمثل لهم في صور معبوداتهم، وتبدو وكأنها تجيب دعاءهم وتواسيهم وتثبتهم وكذا، وهم يصدقون ذلك لإصابته أهواءهم، بل يعدونه المعجزة الدامغة والحجة البالغة على صحة دينهم!

فالذي يزعم أن ما يراه البوذيون – مثلا – في تأملاتهم الوثنية هو ما يزعمونه من توحد مع الواقع المطلق المزعوم، هذا كالذي يصحح دعوى النصارى – مثلا – أنهم إن رأوا العذراء تتجلى لهم على سطح كنيسة من كنائسهم فإنما هي مريم ابنة عمران تأتي لتزورهم على الحقيقة كما يعتقدون، كلا القولين تصحيح للكفر، وتصحيح الكفر كفر، نسأل الله السلامة!

هذا ما ندين به نحن المسلمين من حيث الحقيقة الوجودية لما يقع لهؤلاء النوكى من متصوفة أهل الملل! وأما ذلك الهذيان الذي يزعمون أنهم يرونه فلا عبرة به البتة عند العقلاء! فليشعر أحدهم لا أنه قد توحد مع الإله، بل ليشعر أنه قد صار هو الإله نفسه، وأنه إن قال للشيء كن فسيكون، فكان ماذا؟؟ هو وثني مشرك خرف، مثله كمثل مدمن الحشيش والبانغو وأحماض LSD، الذي يتعاطى تلك المخدرات، ثم يوهم نفسه إذا غاب عقله أنه يطير في الهواء ويمشي على الماء وأنه يرى نفسه في عالم غير عالمنا! فعندما يتساءل هذا الباحث وأصحابه في كتابهم عما إذا كانت تجارب هؤلاء وما يزعمون أنهم يرونه هو حق مطابق للواقع وجوديا أم هو مجرد تصويرات وتخييلات في أذهانهم، فإننا نقول لهم وبكل حزم، بل هي قطعا تصويرات وتخييلات في أذهانهم ولا كرامة! ولكن ليس هذا هو الجواب الذي يريد هؤلاء الباحثون الطبيعيون أن يسمعوه، لأنهم يريدون في الحقيقة إبطال دين الإسلام خاصة والأديان المنسوبة إلى وحي السماء عامة، تلك الأديان التي جاء فيها رسل بأوامر ونواهي إلهية هم مطالبون بالخضوع لها ما امتدت بهم أعمارهم! هم ما ألحدوا أصلا ولا اعتنقوا الملة الطبيعية إلا فرارا من تلك الفكرة المبغضة إلى قلوبهم العفنة المنتنة!

لذا تجد نيوبرغ وأصحابه يواصلون التنظير "الثيولوجي" الاتحادي الخبيث فيقولون (ص. 143):

بعبارة أخرى، فإن التجسدات المختلفة للإله إنما هي تأويلات مجازية لنفس الحقيقة الروحية، تلك الحقيقة التي يدركها الصوفيون من أهل الأديان في وجودهم التوحدي المطلق. فعندما ندرك أن أي مفهوم معين للإله إنما هو قطعة من ذلك البازل العظيم Larger Puzzle، المؤصل في فهم صوفي لما هو حقيقة جوهرية Fundamentally Real، فإن جميع الأديان تصبح إخوانا، وجميع الاعتقادات تصبح حقا، وجميع تجسدات الإله يمكن فهمها كواقع حقيقي. ولكن إن رفضنا تلك الرؤية الكلية، إن تعلقنا بصورة الإله ككائن حرفي قابل لأن يعرف Knowable، له وجود مستقل ومنفصل عن بقية الواقع، فإنه يبقى لدينا، على أحسن الأحوال، ذلك الإله الذي يصفه لويس في قصيدته بالمجاز الأعرج Limping metaphor، كرمز لا يمكن أن يكون هو ما عليه الإله. وعلى أسوأ الفروض، نكون قد صنعنا إلها يقودنا بعيدا عن الوحدة والتعاطف الإنساني، ويحدو بنا إلى التفرق والنزاع.

ومن حيث الأثر على التاريخ البشري، فإن مفهوم الإله المتشخص Personalized God ليس بالضرورة مفهوما سلبيا. ففي كتاب "تاريخ الإله" تقرر كارين أرمسترونغ أن وجود إله كهذا، قد كان له إسهامات إيجابية عظيمة في الثقافة الغربية. "لقد ساعد الإله المتشخص من يعبدونه على أن يعلوا من قيمة الحقوق الفرد المقدسة وعلى أن يطوروا لأنفسهم تقديرا لقيمة الشخصية الإنسانية المنفردة" وتقول "فإن التقليد الديني اليهودي النصراني ساعد الغرب على التحصل على الإنسانية الليبرالية التي تعتز بها غاية الاعتزاز" ولكن نفس هذا الإله، يمكن أن يصبح عبئا ثقيلا للغاية، بحسب أرمسترونغ. فمن الممكن أن يتحول الإله المتشخص هذا إلى مجرد وثن ننحته على صورتنا نحن، على قولها، فيصبح انعكاسا لحاجاتنا المحدودة، ولمخاوفنا ومطامعنا. فمن الممكن أن ندعي أنه يحب ما نحبه نحن ويكره ما نكرهه نحن، وأنه يغرس الأحكام المتعصبة بدلا من يحملنا على تجاوزها.

قلت: فلهذا وجب أن يحول الإله God عند كل من أراد أن يعبده من أهل الأديان التي تثبته، إلى تلك الصورة الاتحادية الطبيعية العدمية، التي حقيقتها نفيه بالكلية والاكتفاء بإثبات وجود مطلق في محله هو جميع الموجودات مجتمعة (أو وعي كوني تحتها أو عقل فعال أو نحو ذلك من العقائد الدهرية الطبيعية التي جوزها الدكتور في حق ربه في كتابه الأخير كما مر معك)، مع إثبات كونه سببا في بداية الكون كوزمولوجيا وبداية الحياة بيولوجيا عند من يشتهي ذلك! فما دام أهل الملل تثبت كل طائفة منهم لنفسها إلها "متشخصا" (وهو اصطلِاح الدهرية المعاصرين في وصف الصانع الحي ذي

الإرادة والفعل) تزعم أنه هو الباري الذي خلق العالم بعلم وحكمة، وخلق فيه البشر لغاية تعبدية يريدها منهم وأنزل عليهم تكليفا وأمرا ونهيا وحكما، وجعل لهم بعد الموت حسابا وثوابا وعقابا، يثيب من جاء منهم بما أحبه وترك ما أبغضه ووالى من أحبهم وبرئ ممن أبعضهم، ويعاقب من خالف ذلك، ما دام الإله الذي يعبده أهل هذه الملة أو تلك على تلك الصفة، فهو عندهم (كما عند سائر الدهرية) مصدر كل شر وفساد ودمار في الأرض، ولا سبيل أمام الإنسانيين Humanists الطامعين بجعل الحياة الدنيا مرتعهم وجنتهم، إلا أن يستدرجوا هؤلاء "المشخصين" للإله إلى القول بذلك الوجود التوحدي المطلق المزعوم عند صوفيتهم ودراويشهم وجعله هو حقيقة الرب الذي يعبدونه، ومن ثم جعل سائر الصفات والأقوال والأفعال التي يجدونها منسوبة إليه في كتبهم مجازا لتقريب التصور لا أكثر! فبهذا، تضرب جميع الأديان في خلاط الوحدوية المطلقة المزعومة، على ما سموه بالثيولوجيا العليا Megatheology، ويصبح الدين مجرد حالة عارضة من السكر وتخدير الوعي يلجأ إليها الإنسان من آن لآخر ليدغدغ مشاعره وليتخفف من ضغوط الحياة وأعبائها، فتشبع له تطلعاته الغيبية وأسئلته الوجودية كلها، وتشعره بتلك اللذة الأخروية الغامرة التي أنبأت بها الأديان كافة، ثم تتركه وشأنه يصنع بنفسه وبحياته ما يحلو له!

أليسوا قد رأوا على مواسح المخ Brain Scans / MRI تشابه جميع "الروحانيين" والصوفية من أهل الملل فيما يظهر من نشاط أمخاخهم عند تلبسهم بتلك التجربة التي يتفقون في وصفها على أنها توحد واتحاد مع كل شيء، وفناء للذات وزوال لها باندماجها مع وجود مطلق لا يمتاز فيه شيء عن شيء؟ فلابد إذن من دعوتهم جميعا لقبول تلك الثيولوجيا التوحدية الجديدة كبديل لأديانهم المتعددة التي تفرقهم ولا تجمعهم!

خلاصة الأمر يوجزها المؤلفون في قولهم (ص. 144): "إن الإله الذي تصفه أرمسترونغ هو إله إحراق الساحرات ومحاكم التفتيش والحروب المقدسة، والتطرفات الأصولية Fundamentalist intolerances، وما لا يحصى من صور الاضطهاد الديني الأخرى، التي تمارس كلها تحت الزعم الواثق بالمباركة الإلهية. فالسلطة التي بها تمارس تلك الشنائع إنما تنبع من ظن المؤمنين بأن إلههم هو الإله الوحيد الذي يستحق العبادة، وأن دينهم هو الدين الوحيد الذي يوصل أصحابه إلى الحق. فبوصفهم الشعب المختار، يصبح لهم الحق، بل يجب عليهم أن يقاوموا أعداء الإله، وهي الصفة التي بها يصفون من يرونهم أفرادا أقل قداسة وأدنى في مرتبة الإنسانية، لأنهم لا يوافقونهم في عقائدهم موافقة حرفية." اهـ. قلت: وإذن فلابد أن يكون أبطل الأديان على الإطلاق وأبعدها عن تلك الملة الاتحادية الوثنية الشرقية التي يؤسس لها هؤلاء، هو ذلك الدين الذي يقوم قياما كاملا على التوحيد المحض، الذي لا يدخله الإنسان إلا بأن يشهد بأنه لا إله إلا الله، ولا معبود

بحق سواه، ثم يسلم حياته لرسوله صلى الله عليه وسلم ويخضع وينقاد له أتم الانقياد، يوالي من والاه ويعادي من عاداه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! [32]
ولكم تمنيت لو كان هذا الكلام الشنيع قد مر على الدكتور في مطالعته ذلك الكتاب الخبيث دون أن ينتبه إليه، لولا أني رأيته ينقل كلام كارين أرمسترونغ هذا دون عزو وبتحريف بارد، في حاشية في كتابه "ثم صار المخ عقلا" في صفحة 264، حيث قال: "ترى كارين أرمسترونج أن فكرة تجسيد الإله عند المسيحيين قد أدت إلى مصائب عديدة: التكفير – الأصولية الممقوتة – الحروب الصليبية ... إذ اعتقد المجسدة أن إلههم فقط هو الإله، وأنهم شعب الله المختار، وأنه راعيهم والباقون رعيتهم، وهم حزب الله والباقون حزب الشيطان. وترى كارين أن عدم قبول دين الآخر إنما هو ظاهرة ثقافية سببها الجهل والخوف، والنعرة القومية والاعتراض على الآخر." اهـ. قلت: طيب فما موقفك أنت من هذا الكلام يا دكتور؟؟ نقول إن المرأة لم تتكلم عن التجسيد Anthropomorphism (الذي هو على حد عبارته: جعل الإله على هيئة جسدية قريبة من البشر) أصلا، وإنما تكلمت عن التشخيص Personalization أي مطلق جعل المعبود "شخصا"، كائنا حيا يأمر وينهى ويحب ويكره ويريد ويفعل.. إلى آخر ما نثبته لله تعالى من صفات الربوبية وأفعالها، بصرف النظر عن "هيئته"، هل هي مكيفة على كيفية الجسد البشري عند من يثبتونه "شخصا" أم لا! فعندها أن مجرد اعتقادنا أن الرب له إرادات وأفعال وأقوال كما يكون من "الأشخاص"، هذا عندها هو منبت كل شر وكل رذيلة! وهذا واضح حتى في الجزء الذي لم تحرفه من كلامها في قولك نقلا عنها: "إذ اعتقد المجسدة أن إلههم فقط هو الإله، وأنهم شعب الله المختار، وأنه راعيهم والباقون رعيتهم، وهم حزب الله والباقون حزب الشيطان"، فمن الواضح أن هذه الاعتقادات عند أصحابها من أهل الملل الكتابية (ومنها الإسلام) ليست راجعة إلى "التجسيد" كما وصفته أنت، وُجد أم لم يوجد، ولكن إلى دعوى أهل هذه الملة أو تلك أن الرب الصانع قد أرسل رسلا وأنزل كتبا وبشر المؤمنين بالجنة وتوعد الكافرين المعرضين بالنار! هذا ما يترتب عليه اعتقاد أهل الملة أن كل إله سوى إلههم هو معبود باطل، وكل من يرفض النص الذي ينسبونه إليه فهو هالك، وليس كونهم يقيسون هيئته على أجساد البشر!
ولهذا استند نيبورغ وأصحابه إلى كلامها في تقرير أنه لا مخرج من ذلك "الداء" التاريخي الاجتماعي إلا بنفي كون الصانع "شخصا" بالكلية، فلا يكون له رسل ولا كتب ولا أوامر ولا نواهي ولا أولياء ولا أعداء ولا يوم آخر ولا جنة ولا نار ولا شيء من ذلك! فهما ما نقلوا كلامها في كتابهم إلا كمرجح لكون الصانع المزعوم – إن ثبت - كيانا وجوديا مطلقا لا صفة له ولا حقيقة له إلا أن يكون هو كل شيء، وكل شيء هو، كما تزعمه الروحانيون والصوفية،

وكتفسير لكون الروحانيين من جميع أهل الملل يشتركون في إمكانهم الاتحاد والاندماج معه واختراق حجاب الغيب وصولا إليه كما يزعمون، دون أن يمنع هو منهم أحدا من جهته فيعجزه عن ذلك أو يحجبه عن نفسه!
والخلاصة أن المرأة تقول: ما دام أهل تلك الملل يرون إلههم هو الإله الحق وما سواه من المعبودات باطل، فسيظل في الأرض حروب وكراهية وتعصبات دينية، ونيبورغ وأصحابه يجعلون من ذلك مستندا معياريا لدعوة أهل الملل كلهم للاكتفاء في باب الدين بمحاولة تحقيق تلك التجارب "الروحية" التي يندمجون فيها مع ذلك الصانع التجريدي المطلق، وأن يصححوا – من ثم – كافة الأديان والملل أيا ما كانت صفة الإله (أو الآلهة) الذي يعبدونه، وأن يجعلوا الخلاف مع أصحابها خلاف تنوع لا خلاف تضاد، حتى يحصل لهم السلام الإنساني الشامل المأمول، وتصبح الدنيا هي جنة الوثنيين التي يحلمون بها في سكراتهم!
فهل حقا لم تفهم وجه كلامها وكلام من نقلوه في كتابهم يا دكتور، أم أنك تحرفه عمدا؟؟
وكل هذا لماذا؟؟ لأجل أن تقول إن في المخ "آليات بيولوجية" للتعامل مع "الروحانيات" لا يمكن أن تكون قد ارتقت داروينيا، ومن ثم لا مناص إلا القول بالتطور الموجه أو التطوير الإلهي؟؟ نسأل الله السلامة!
هذه أيها القارئ الكريم، هي ثمرة "طبعنة" الشعائر الدينية، واستخدام المنهج الإمبريقي في دراسة الممارسات الدينية عند أهل الملل والحكم عليها ثيولوجيا! وهي السبب في تسمية نيوبرغ كتابه الذي نشر فيه هو وأصحابه نتائج تلك الأبحاث وتأويلاته الثيولوجية لها "لماذا لن يزول الإله (من أمخاخنا)؟" Why God won’t go away، لأنه يرى تلك التجربة العليا التي تتغنى بها أنت ومشايخك من دراويش القبورية، مجرد نظام بيولوجي مركب في أمخاخ البشر، يوصَل إلى تشغيله بشيء من التأمل مع اعتقاد جازم بوجود مطلق يقوم مقام الإله! وإذن تصبح صفات الإله وأفعاله وحقيقة الدين وغايته وتكاليفه ملعبا للترجيح بتأويل الومضات الحمراء على شاشات مواسح المخ Brain Scanners المرصودة حال التعرض لتلك التجربة كما يقف أحدهم على مخرجات المرقاب الطيفي Spectroscope في تحليل الموجات الكهرومغناطيسية الوافدة من الفضاء البعيد، فتراه يخرج منها بأصل الكون وتاريخه وبنية نجومه ودرجة حرارة أسطحها، وتواريخ مولدها المزعوم وتاريخ هلاك الكون المتوقع، وما إذا كان حول هذا النجم أو ذاك كواكب فيها كوكب شبيه بالأرض ويصلح لسكن الإنسان أم لا .. إلخ!! كهانة عصرية لا فضل لها على كهانة الأولين إلا فيما ينفقه أصحابها من أموال طائلة على المعامل والمراصد والتجارب التي تصمم من أجل الإتيان بمشاهدات تُجعل مادة للتأويل بما يخدمها، وما يستعمل في بنائها من

أقيسة على نظم سببية مطردة قد ثبتت صحتها بالاستقراء المباشر في عادة الناس!
فخبرني بربك كيف يكون هذا البحث البيولوجي الضال الضايع (غاية وطرحا وهدفا ومنهجا وتأويلا) دليلا على وجود الرب الذي نؤمن به نحن المسلمين، الذي يفترض فيك يا معالي الدكتور أن تكون داعية إليه؟؟ هنا يجيبك الدكتور بالزعم بأنه (أي ذلك المطلب البحثي عند هؤلاء) يبطل دعوى الدراونة أن العقل البشري قد نشأ بالتطور الداروني! أليس هو كلاما لباحثين طبيعيين يثبتون "إلها ما" ويقرون الصوفية على مضامين تجاربهم الروحية، خلافا لغيرهم من الطبيعيين الذين يتخذونها هزوا ويجعلونها ضربا من الهذيان أو الصرع أو الهيستيريا المرضية؟ إذن فليؤت به في مقام إقناع الملاحدة العرب بأن العلم يدعم الدين ولا ينافيه، بقطع النظر عن حقيقة ذلك الدين الذي ينتهي إليه الناس على أثر ذلك! فبئست الدعوة تلك والله وبئس الداعي، نسأل الله السلامة! [33]
قال الدكتور (ص. 274): "إن ذلك يطرح مجموعة من الأسئلة الصعبة، طرحنا بعضها قبلا، وهي: إذا كان المخ قد تم تطويره ليساعدنا على البقاء (كما يقول الداروينيون) فلماذا وكيف اكتسبت هذه الآليات التي تؤدي إلى فناء الذات وإلى هذه المشاعر غير المفيدة من الناحية العملية؟! وما هو التحدي التطوري الذي واجه المخ البشري لتستجد فيه هذه الآليات؟ وما هي الفائدة التطورية التي تحققها مشاعر التسامي الروحي؟ إن التطور الداروني عملي وقصير النظر، ليس له أي منظور مستقبلي، لذلك يستبقي الصفات المستحدثة التي تخدم البقاء بشكل مباشر وفوري، وما سوى ذلك فيتم استبعده من جينات الكائن. لذلك من الصعب بل من المستحيل تصور الفائدة التطورية التي قد يحققها التسامي والتواصل مع حقائق غيبية أكبر من وجودنا المادي، ومن ثم لا يمكن تحميل الانتخاب الطبيعي مسؤولية إنشاء وتدعيم هذه الآليات العصبية المعقدة خلال تطور الإنسان." اهـ.
قلت: هذا كلام من لا يدري شيئا عن طرائق الدراونة الأكاديميين الطبيعيين في تأويل كل مشاهدة بما يوافق نظريتهم، بل هو كلام من يظن أن الانتخاب الطبيعي هو الطريق الوحيد في النظرية لنشأة الصفات الجديدة في الأنواع الحية، وبقائها في الحوض الجيني عبر الأجيال! عجبت حقا من قوله (وهو الذي ألف كتبا يشرح للناس فيها نظرية التطور وآلياتها): " لذلك يستبقي الصفات المستحدثة التي تخدم البقاء بشكل مباشر وفوري، وما سوى ذلك فيتم استبعده من جينات الكائن." فأين عند الدراونة الدهرية أو غيرهم من القائلين بالتطور على أيما مذهب كانوا، وجدت يا دكتور أن ما سوى الصفات الخادمة للبقاء بشكل مباشر وفوري فإن التطور يستبعده من

جينات الكائن؟؟! هل هذا كلام من قرأ يوما في نظرية التطور؟ هل قرأت كتاب "في أصل الأنواع" نفسه يا دكتور؟؟ سبحان الله!

ومع ذلك، دعنا نسلم تنزلا بأن الأمر عند الدراونة الدهرية كما صوره الدكتور، أنه لا يحصل التطور إلا بزيادة صفات تخدم البقاء Survival بصورة ما أو بأخرى، أو تتغلب على "تحدي تطوري" معين، وما سوى ذلك فإنه يستبعد من الحوض الجيني! فكيف يصنع الدكتور إن قال الدراونة الدهرية إن تلك الأنشطة المخية الصوفية هذه إنما انتخبتها الطبيعة حال ظهورها من طريق الطفرة العشوائية، بالانتخاب الجنسي Sexual Selection، وذلك بسبب أنها تجعل صاحبها أصفى ذهنا (فيما يعتقدونه) وأشد تعلقا بالأرض وحبا للحياة، وأعظم انتماء لمجتمعه عامة ولأهل ملته خاصة، وغير ذلك من ثمرات سيكولوجية وسوسيولوجية مزعومة عند الصوفية من أهل الملل، ترفع – بالجملة – من احتمالية حصوله على أنثى يستولدها؟! لن يعجز القوم عن اختراع التأويلات والتفسيرات الداروينية السوفسطائية السخيفة لأي سلوك يسلكه أي كائن حي يا دكتور، أو أي نظام حيوي أيا ما كان، كما تكلفوه في جميع ما زعموه دليلا على صحة نظرية التطور نفسها، جريا على مغالطات منهجية قد أطلنا النفس في بيانها في هذا الكتاب بما لا مزيد عليه ولله الحمد! فمن خفة العقل وقلة العلم وضعف التحقيق، أن يتوهم أحدهم أن تعجيز الدراونة عن تفسير هذه الظاهرة البيولوجية أو تلك، يمكن أن تقام به الحجة عليهم سواء لنقض النظرية بكليتها أو لنقض جزء منها أو دعاوى معينة عند أصحابها! من كان الخرف في الغيبيات أصل دعواه يا دكتور، لم يعجزه شيء عن التفريع عليه بمزيد من الخرف، فتأمل!

ولا نستغرب حقيقة من جنوح الدكتور عمرو إلى تصحيح خرف الصوفية ودروشتهم ومخاريقهم، كما جنح إليه كثير من متكلمة القرون السالفة! [34] فهذا أبو حامد الغزالي – على سبيل المثال – بعدما ملأ الدنيا غبارا وصخبا بفلسفته ونظرياته وبراهينه الكلامية، غفر الله له، أدرك في النهاية أن زعمه بلوغ اليقين من تلك الطريق الخبيثة إنما هو وهم في وهم، وكذب على النفس صريح! فزينت له نفسه وشيطانه أن يرتمي في أحضان المتصوفة ومشايخهم وأن يستغرق معهم في أحوالهم، لعله يؤتى من "الكرامات" والخوارق ما يرجع النوم إلى عينه الكليلة والطمأنينة إلى نفسه المستوحِشة وبرد اليقين إلى قلبه الغارق في تكافؤ البراهين وتجاذب الأدلة! فإذا اجتالته الشياطين فآتته من الخوارق ما طمع فيه، أصبح هذا هو غاية المراد ومنتهى المطلوب في تحصيل اليقين! والواقع أن الدكتور عمرو بدأ بالتصوف أولا، ثم تلبس بالكلام والجهمية الطبيعية لاحقا، فكان من غير المستغرب منه على الإطلاق أن يتخذ من المحتوى العقدي والفلسفي الذي اختزنه في نفسه من صباه وتربى عليه من نعومة أظفاره، منطلقا لبناء تصوره

الميتافزيقي الطبيعي! ولعله وجد في تصحيح طرق الصوفية (ولو مبدئيا) ما يصلح لأن يكون هو طوق النجاة الذي قد تلجئه إليه الحاجة يوما ما، إن قدر أن انقلبت الكوزمولوجيا والبيولوجيا في المستقبل رأسا على عقب! ولأنه صاحب منهج طبيعي وضعي فلسفي لم يزل متمسكا به منتصرا له في جميع كتبه، فلم نره ينسب خوارق الصوفية إلى ما وراء الطبيعة وإلى ما لا علاقة للعلوم التجريبية به البتة، بل سلك مسلكا يجعلها هي حقيقة الطبيعة نفسها، التي تنكشف للصوفي بسبب آليات معينة مركبة في جهاز المخ البشري نفسه، يمكن اختبارها وإثباتها في المخ بأدوات البحث التجريبي!

قال الدكتور في كتابه "ثم صار المخ عقلا" (ص. 242): أما ما نقرأه في تجارب وخبرات الصوفية فلا يحمل (من منظورهم) أي غموض أو تشويش. إنها بالنسبة لهم ليست آراء أو فلسفة، ولا يشوبها السحر ولا قراءة الأفكار، إنها إدراك واع لتواصل حقيقي للإنسان مع المطلق (الإله). إن تجربة الصوفية عروج روحي، يدور حول التسامي فوق الذات والوجود المادي، ويحقق الشعور بالتوحد مع الكلي المطلق. وهذا هو الخيط الذي ينتظم التجارب الصوفية جميعها، في الماضي والحاضر، وفي الشرق والغرب." اهـ.

قلت: فيا دكتور، هل هم عندك، هؤلاء العارفون السالكون، الأقربون إلى الله بزعمك، كذبة دجالون، أو واهمون مخدرون، يكذبون إذا زعموا أنهم قد رأوا حقيقة الوجود وأنه كل واحد لا يتجزأ، وأنهم هم والرب وكل شيء في العالم قد صاروا شيئا واحدا، أو "وجودا مطلقا" كما يسمونه وكما تسميه أنت، أو تخدعهم عقولهم وتريهم باطلا لا علاقة له بحقيقة ما في الغيب، أم ترى أن ما يزعمونه حق في نفسه مطابق للواقع؟؟

حقيقة الأمر، أيها القارئ المحترم، أن الدكتور كعامة المتصوفة والطرقية الدارويش، إن سألته عن وحدة الوجود، رأيته ينفيها بكل حزم وصرامة، ويقول لا أراها ولا أقول بها، معاذ الله! بل الرب عندي رب والعبد عبد، ولا أجعلهما شيئا واحدا! ثم إن سمعت كلامه في تصحيح حالات "وحدة الشهود" المزعومة عند مشايخه وأقطابه والعارفين والسالكين والدراويش الذين تشبع بكلامهم، كما في الفقرة المنقولة آنفا، وجدته يثبتها ويصححها ويراها حالة روحية سامية يتصل فيها السالك أو العارف المزعوم بربه جل وعلا، فيكشف له من الأسرار ويفيض عليه من "الفيوضات" و"العلم اللدني" ما لا يحصل لغيره، إلى آخر ما نقلنا بعضه من كلامه! فمن أعجب العجب، أنه يأتي بعد هذه الفقرة مباشرة، ليقول تحت عنوان "الشريعة والتصوف":

> يختلف المتدينون في قبول تلك المعاني الصوفية البليغة، والتي تدور حول أن العابد قد تمر عليه أحوال يتلاشى فيها شعوره بذاته (الفناء)، وقد يشاهد كأن كل ما في الوجود قد تلاشى، وأنه لم يعد ثم إلا الله عز وجل، عِند ذلك قد يشعر العابد أن كل ما حوله هو

الله، ويصبح مشاهدا أن الوجود هو الله، والله هو الوجود (وحدة شهود)، وقد يشعر أن الله عز وجل قد حل في هذا الوجود، أي تلبس به (حلول)، أو أنه قد اتحد به (اتحاد).

ثم قال:

أصدقك القول، قارئي الكريم، كانت هذه المفاهيم (في مرحلة من حياتي) تنشيني، فقبلتها، باعتبار أنها مشاهدات لقوم غاب إدراكهم للوجود، في لحظات سكر وفناء، فلم يعودوا يشاهدون إلا الله. أما حقيقة الأمر فنأخذها من العقيدة والشريعة التي تؤكد على مفهوم الإثنينية: "رب" و"عبد" – "خالق" و"مخلوق". ويوضح الإمام عبد الحليم محمود (شيخ الجامع الأزهر الأسبق، والقطب الصوفي الكبير) أن الخطأ الذي جعل للكثيرين مآخذ على الصوفية، أهمها أن بعض المتصوفين الفلاسفة قد اعتبروا أن ما يشاهده الصوفية (وهم في حال سكرهم) من غياب لذواتهم وللوجود المادي، هو حقيقة الوجود (أي لا موجود إلا الله، فالله هو الوجود والوجود هو الله)، فقالوا بوحدة الوجود التي يقول بها الهندوس، وصاغوا في ذلك النظريات الفلسفية التي هي خروج عن العقيدة والشريعة الإسلامية، فالوجود ليس ذات الله عز وجل لكنه خلق من خلقه.

قلت: هذا الكلام، يفهم منه تكذيب مزاعم كافة "العارفين" و"الأولياء" والأقطاب وغيرهم، الذين لا يتلبس أحدهم بتلك التجربة إلا رجع ليقول "لقد رأيت الله حقا، وانكشف لي كل شيء، وعلمت أنه ليس في الوجود إلا الله، وأن الله هو كل شيء"! بل إنه يذهب إلى أبعد من هذا، فينقل في الحاشية من نفس الصفحة كلاما عن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله من غير عزو ولا ذكر للمصدر، والظاهر أنه منقول كله من كتاب "طريق الهجرتين وباب السعادتين" لابن القيم رحمه الله مع قدر من التصرف، وفيه نفي معنى الفناء الصوفي عن أكمل الخلق صلى الله عليه وسلم، حتى في أكثر أحواله قربا من ذات الله تعالى في رحلة المعراج، وبيان أن أكمل صور الفناء عند الصوفية هو أنقصها عند عقلاء المسلمين!

فالذي ننتظره من الدكتور، إذن، أن يجعل وحدة الشهود هذه (على ذلك المعنى الخرافي الذي هو منتهى السالكين وغاية العارفين عند الصوفية كافة) تجربة شيطانية وثنية، يلبس بها على هؤلاء المتمخرقين الجهال ما يجعلونه – كفرا وزندقة - هو علم الحقيقة ومنتهى العرفان بالله، الذي لا ينال إلا ببلوغ تلك المقامات العليا، سبحان الله وتعالى عما يصفون! ومع ذلك، نراه يمضي لينتقل إلى الكلام على العلاقة بين "العلم" (السيكولوجيا) وبين ما سماه "بالمشاعر الصوفية"، فيجتهد في نفي التهمة العقلية والنفسية لا عن الصوفية المنتسبين إلى الإسلام وحسب، بل وعن كل من زعم من أهل الملل الأخرى أنه مر بنظير تلك التجربة، من نساك القوم

وكهنتهم ورهبانهم!! قال (ص. 245): "ربما يكون من الصعب علينا – ونحن المغمورين في الحياة المادية والتأويلات العلمية – أن نتصور المشاعر الصوفية التي تبدو لنا بعيدة كل البعد عن الحقيقة. ولكن من أجل أن نمهد لفهمها وتفسيرها ينبغي أن ندرك أنها تحدث لنا جميعا وفي أوقات كثيرة! فالإنسان بطبيعته كائن متسام، قادر على الفكاك من أسر الإدراك الحسي والتفكير المنطقي. ألم يحدث أن "غبت عن نفسك" مع قطعة موسيقية حالمة، أو أخذت بعيدا مع خطبة بليغة أو مع منظر طبيعي خلاب. هل مررت بتجربة حب أحسست معها بالغياب عن الذات والاندماج في ذات أخرى؟"
اهـ. قلت: إن صح ما تقول، وكانت الطريق إلى التواصل مع "الوجود المطلق" كما تسميه مطروقة لكل من هب ودب، بصرف النظر هل دينه أو قربه من الله عز وجل، فكيف يكون الأمر راجعا إلى فناء أو شهود أو غير ذلك مما يزعم الصوفية أنها حقيقة ما يمرون به في تلك الأحوال؟ وما حقيقة ذلك "التسامي" إذن على ديننا نحن المسلمين؟؟
هنا يدرك الدكتور أنه في ورطة وجودية تفسيرية ليست بالهينة، فيقول (ص. 244) تحت عنوان "الطب النفسي والمشاعر الروحية": هل هذه الخبرات مواقف يشاهد فيها الصوفي عالما حقيقيا متوحدا لا ماديا، يعلو عالم المادة الذي نحيا فيه؟ أم أنها "توهمات" نتيجة لخلل نفسي أو عقلي؟ فالطب النفسي يعرض بعض الحالات التي يمكن أن يستشعر فيها المرضى مشاعر دينية قوية، وتتدرج هذه الحالات من الإجهاد والتوتر إلى الخلل العقلي. وأشهر الحالات صرع الفص الصدغي للمخ وانفصام الشخصية (الشيزوفرينيا). ففي هاتين الحالتين يشعر المريض بهلاوس بصرية أو سمعية ذات توجهات دينية." اهـ.
قلت: بناء على ما تقدم من تحرير الدكتور للموقف الشرعي من المزاعم الوجودية الغيبية والميتافزيقية الوثنية التي يزعم أصحاب تلك الأحوال الصوفية أنها تنكشف لهم في "شهودهم"، المتوقع الآن أن نرى الدكتور يوافق النفسانيين ويميل إلى اعتبار تلك الأحوال نوعا من الخلل العقلي، الناشئ عن أسباب قد تكون غيبية وقد تكون عصابية عضوية، ترجع بدورها إلى تلك الإيحاءات والأهواء التي يغرق الصوفية فيها أنفسهم، تطلعا للوصول إلى حالة يصبح الواحد فيها هو وإلهه الذي يعبده شيئا واحدا، سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! فإذا كانت وحدة الوجود خرافة وضلالا مبينا (وهي كذلك قطعا) فلابد أن يكون هؤلاء كلهم مخرفين أو مهلوسين كما يقوله النفسانيون، أليس كذلك؟!
ومع ذلك يرجع الدكتور ليقول (ص. 245):

> وإذا كان علماء النفس يلوذون بالتفسيرات المرضية لهذه الظواهر، فقد أثبتت عدة دراسات أن هذا الرأي غير صائب، ومنها تلك التي نشرت عام 1997 بعنوان Delusional Disorder

(Sever&Rabin)، وأظهرت الدراسة أنه إذا كانت التوهمات المرضية تتفق مع التجارب الصوفية في أن كليهما يحتوي على أفكار ومشاعر غير عادية، مع إحساس بالانفصال عن العالم الواقعي، فإن هناك فوارق جوهرية بينهما، أهما:

1- إن الذين يمرون بهذه التجارب الصوفية يتمتعون بمستوى من الصحة النفسية أعلى من المعتاد، فهم عادة أقل عرضة للتوتر، ودوافعهم الذاتية أقوى من الآخرين، ويتمتعون بنظرة أفضل للواقع، مع وضوح الرؤية تجاه أهدافهم الحياتية، بالإضافة إلى ذلك، يكون هؤلاء على علاقة أفضل مع الآخرين وأكثر اهتماما بهم، فكيف نرجع تجارب هؤلاء الأشخاص الروحية إلى الخلل النفسي؟!

2- كثيرا ما تكون الهلاوس المرضية مصحوبة بأعراض مرضية أخرى، كالتشنجات الصرعية، وهذه ليست موجودة في التجارب الصوفية.

3- إذا كانت التجارب الصوفية والهلاوس المرضية تشتركان في استشعار نشاطات سمعية وبصرية ودينية وغيرها، فإن وصف كل من الفريقين لتلك للنشاطات يختلف تماما عن الفريق الآخر، فالصوفية يصفون تجاربهم بأنها مثيرة ومليئة بالبهجة، ويستخدمون في وصفهم ألفاظا مثل "التسامي" و"الكمال" و"الحب"، بينما يكون المرضى عادة في فزع شديد من هلاوسهم الدينية.

4- يختلف موقف كل من الفريقين من تجاربهم، فالمرضى يشعرون بالأهمية وبالعظمة، وتتورم ذواتهم، فيعتبرون أنفسهم رسلا من الإله يحملون رسالة سماوية إلى البشر، ويشعرون أن لهم قدرات روحية على شفاء المرضى، وفي المقابل نجد الصوفية يعصف بهم التواضع والهدوء النفسي لإدراكهم قلة شأن الإنسان في مواجهة الوجود المطلق.

5- نتيجة للذة التي يستشعرها الصوفي في تجربته الروحية، فإنه يشتاق إلى هذه المشاعر ويسعى دائما (بالعبادة) لتكرارها. وبعد التجربة يكون قادرا على إطلاع الآخرين على تجربته، ويكون قادرا على التعامل بصفاء مع المجتمع، أما المرضى فإن تجاربهم تكون لاإرادية وتصحبها المعاناة، وتجر ضحاياها تدريجيا إلى المزيد من العزلة الاجتماعية.

قلت: تقدم أن الدكتور ليس أمامه إلا أحد خيارين لا ثالث لهما: إما أن يصحح عقيدة وحدة الوجود نفسها، تأسيسا على أن الذين انتهوا إليها من حالات الفناء التي مروا بها، لابد وأنهم من خيرة الأولياء الصالحين الذين لا يُتصور في أحدهم أن يخزيه ربه ويتركه ليغرق في الوثنية والزندقة والكفر المحض، وهو الذي جاءه بأسمى مشاعر الحب والإجلال والتجرد من الدنيا

كلها من أولها لآخرها (فيما تزين لهم أنفسهم أن يعتقدوا أنه مسلكهم على الحقيقة)، وإما أن يبطلها ويكذب سائر من عظمهم الصوفية من أصحاب تجارب الفناء والشهود تلك، يرميهم كلهم عن قوس واحدة بالكفر والزندقة، وبأنهم قد زينت لهم أهواؤهم الخبيثة تأويل تلك الحالة النفسية والشعورية العجيبة التي يمرون بها في خلواتهم وتأملاتهم الوثنية على أنها أعلى منازل العارفين والمقربين إلى رب العالمين!
فإنه إن صح أن كانت تجارب هؤلاء من جملة كراماتهم ومناقبهم الدينية، فلابد أن تكون مزاعمهم الوجودية الغيبية بشأن ما يستشعرونه فيها صحيحة مطابقة للواقع، لأن الله إذن يكون قد أكرمهم بها وفضلهم على غيرهم بأعلى مراتب الولاية الخاصة كما يزعمون! وإذن يقال – بلغة النفسانيين – إن أحوالهم وتجاربهم تلك ليست مرضية ولا عصابية ولا هي هلاوس ولا توهمات، لأن كلامهم فيما يصفون به تجاربهم تلك ليس فيه خارم للعقل ولا ما يقتضي الحكم عليهم بأنهم واهمون مخرفون! ولكن لا العقل ولا الشرع يجيزان تصحيح تلك المزاعم التي جاء بها هؤلاء (وجاء بنظيرها الروحانيون والمتصوفة من جميع أهل الملل على السواء)! نحن نقطع بأن ما يزعمون أنهم شهدوه وأنه انكشف لهم، باطل وخرف وكذب على الله تعالى! فما المتعين علينا الآن نحن المسلمين العقلاء؟ المتعين أن نقول إن هؤلاء ليسوا أهلا لأن يكرمهم الله تعالى بشيء أصلا، ما داموا لا يجدون في دينهم واعتقادهم ما يحجزهم عن القول بوحدة الوجود الوثنية! فإن كانت أحوالهم التي مروا بها قد انخرمت فيها العادة تحقيقا، ولو على الأقل بالنسبة لأحدهم، فلابد أنها من مخاريق الشيطان أو من تهاويل النفس وإيحاءاتها وأوهامها، أو منهما جميعا! ولا عبرة في ذلك بما يجدونه من لذة أو متعة أو صفاء نفس أو تواضع أو حسن معاملة للناس أو غير ذلك من أمور مادية يستند إليها النفسانيون الغربيون في نصب معيار الصحة النفسية بعموم Normalcy Criterion! فإنك لا يقبل منك وصف إنسان بأنه "مريض نفسيا" حتى يكون مقبولا منك – من الأساس – معيارك في الحكم على إنسان ما بأنه سوي نفسا صحيح عقلا! وهذه من مواطن النزاع المنهجي الكبير بيننا معاشر المسلمين وبين الأكاديمية النفسية الغربية، كما بسطنا الكلام عليه في غير هذا الكتاب! فقول من نقل عنهم الدكتور في تلك الفوارق المزعومة بين المريض النفسي وبين الواحد من هؤلاء المتصوفة لابد من نقده بناء على ما نعلم نحن المسلمين علما يقينيا منصرما بأنه حقيقة الأمر!
فأولا قولهم: "إن الذين يمرون بهذه التجارب الصوفية يتمتعون بمستوى من الصحة النفسية أعلى من المعتاد، فهم عادة أقل عرضة للتوتر، ودوافعهم الذاتية أقوى من الآخرين، ويتمتعون بنظرة أفضل للواقع، مع وضوح الرؤية تجاه أهدافِهم الحياتية، بالإضافة إلى ذلك، يكون هؤلاء على علاقة أفضل مع

الآخرين وأكثر اهتماما بهم، فكيف نرجع تجارب هؤلاء الأشخاص الروحية إلى الخلل النفسي؟!" فيقال: ما معيار الحكم على "مستوى الصحة النفسية" عند هؤلاء؟ قلة التعرض للتوتر أمر يتوقف الحكم عليه على تصور تعريف "التوتر" والمراد به على وجه التحديد، فإن كثيرا من أحوال المؤمنين عند استحضارهم خشية الله وتعالى والندم والإنابة والتوبة والخوف من العاقبة وغير ذلك، يقال لهم: إن جلدكم أنفسكم على هذا النحو يمرضكم ولا يفيدكم بشيء، فالواجب على المسلم في هذا المقام أن يستفصل عن تعريف التوتر عند هؤلاء قبل أن يقبله أو يرده!

وأما كون دوافعهم الذاتية أقوى من الآخرين، فليس دليلا على أن صاحب تلك الدوافع صحيح العقل والنفس! ألا ترى أن القاتل المتفنن بغير حق (السفاح) Serial Killer واللص المحترف زعيم عصابة اللصوص، يتمتعان بدوافع ذاتية من أقوى ما أنت راء عند أحد من الناس؟؟ من الواضح أن مجرد التمتع بالدوافع الذاتية القوية لا يكون علامة على صحة النفس وسلامة العقل دون النظر إلى موضوع تلك الدوافع نفسها! ولا يمتنع أن يكون لدى الإنسان دوافع قوية في جوانب حسنة صحيحة من حياته ومعاملاته مع الآخرين، مع كونه في نفس الوقت صاحب عقيدة خرافية فاسدة حق لأصحابها أن يتهموا على العقل أبلغ الاتهام، كما هو الشأن فيمن اتفق له اتفاقا أن تحلى بحسن الخلق وقوة الدافع في بعض جوانب الخير من الدهرية الطبيعيين مثلا، الذين ينكر أحدهم أن يكون لخلقته خالق ولصورته مصور ولوجوده في العالم غاية عند من أوجده! هذا بمعاييرنا مريض عقلا مهما أحبه أصحابه ومهما ألفه الناس واستحسنوا فيه من الأخلاق كذا وكذا! وكذلك يقال في "النظرة الأفضل للواقع"، و"العلاقات الأفضل بالآخرين"، أفضل وفقا لمن وبحسب من وبناء على أي معيار في المفاضلة، ومن الذي قال إن حسن العلاقة بالآخرين يمنع من إثبات المرض العقلي والنفسي من حيث المبدأ، وما الذي يلزمنا بقبول ذلك المعيار منه؟؟

وأما وضوح الرؤية تجاه أهداف حياتهم، فلا يمتنع أن تكون الأهداف نفسها باطلة متناقضة مصادمة لأوليات العقل، كالذي اتخذ من إثبات أن الواقع الخارجي لا حقيقة له في الخارج (مثلا)، رسالة لحياته يتلذذ بأن يبذل فيها وقته وجهده!

ونظير ذلك يقال في قولهم: "نتيجة للذة التي يستشعرها الصوفي في تجربته الروحية، فإنه يشتاق إلى هذه المشاعر ويسعى دائما (بالعبادة) لتكرارها. وبعد التجربة يكون قادرا على إطلاع الآخرين على تجربته، ويكون قادرا على التعامل بصفاء مع المجتمع، أما المرضى فإن تجاربهم تكون لاإرادية وتصحبها المعاناة، وتجر ضحاياها تدريجيا إلى المزيد من العزلة الاجتماعية"، فهنا المعيار في الحكم على ما إذا كانت التجربة نفسها تجربة صادقة (أي صدق من تعرضوا لها فيما زعموا أنهم تعرضوا له) ليس هو

الموقع المعرفي والعقلي الصحيح من مضمون التدربة نفسها، وإنما حال أصحابها من حيث التواصل الاجتماعي وحسن معاملة الآخرين! فمن اعتبره المجتمع إنسانا طبيعيا فهو صحيح نفسيا، وإلا كان مريضا يحتاج إلى العلاج!
والحاصل أن هذه كلها قضايا معيارية لا يكون الكلام النفساني علميا ولا تكون له أي فائدة حتى تتقرر بوضوح وتنصب لها أدلتها اللائقة بها!
وثانيا قولهم: "كثيرا ما تكون الهلاوس المرضية مصحوبة بأعراض مرضية أخرى، كالتشنجات الصرعية، وهذه ليست موجودة في التجارب الصوفية."
فيقال: لا بأس، فلتكن هذه النوعية من الحالات من نوع قليل الوقوع من أنواع الهلاوس المرضية، وليس من ذلك الكثير المشهور الذي تصاحبه الأعراض الأخرى، فكان ماذا؟ لماذا يلزم أن تكون هذه الحالة داخلة تحت صنف كلي قد سبق لكم أن صنفتموه من قبل من أنواع المرض النفسي؟
وثالثا قولهم: "إذا كانت التجارب الصوفية والهلاوس المرضية تشتركان في استشعار نشاطات سمعية وبصرية ودينية وغيرها، فإن وصف كل من الفريقين لتلك للنشاطات يختلف تماما عن الفريق الآخر، فالصوفية يصفون تجاربهم بأنها مثيرة ومليئة بالبهجة، ويستخدمون في وصفهم ألفاظا مثل "التسامي" و"الكمال" و"الحب"، بينما يكون المرضى عادة في فزع شديد من هلاوسهم الدينية" فيقال: ليست العبرة بما إذا كان صاحب "التجربة الدينية" سعيدا مبتهجا أو حزينا مكروبا من أثر تلك التجربة، وإنما العبرة بما إذا كانت الأدلة تصحح مزاعمه بشأن ما شهده في تلك التجربة وجوديا أم تكذبها! فالذي يتصور له شيطان – مثلا – فيرعبه ويؤذيه، هذا لا يتهم بخفة العقل والمرض النفسي إلا عند من يكفرون بالغيب ولا يؤمنون بوجود الجن والشياطين أصلا! أو يؤمنون بها ولكن لا يعتقدون جواز ظهورها وتصورها للبشر في صور تؤذيهم وتخيفهم، كما عند المعتزلة والعقلانيين ونحوهم! هؤلاء لن يسمعوا من أحدهم دعوى أن شيطانا قد ظهر له في بيته على هيئة مخيفة، إلا اتهموه بأن في مخه وجهازه العصبي خللا ما، يجعله يتوهم إبصار ما لا وجود له في الخارج على التحقيق! أما مبدأ أن يصاب الإنسان بالرعب بسبب أمر شهده هو ولم يشهده غيره، فلا يلزم أن يكون مريضا في عقله لمجرد تكذيب غيره من الناس لإمكان أن يرى هو حقا ما زعم أنه رآه، وإنما العبرة بالدليل على جواز أو امتناع أن تحصل تلك المشاهدة أو تلك الظهورات التي زعم أنه رآها! ولا يزال الطبيعيون الماديون يتهمون أهل الملل كافة بالهلوسة اتهامات بالجملة في كل ما يزعمون حصوله لهم أو بين أيديهم من خوارق العادات، حتى لو اشترك المئات بل الآلاف منهم في مشاهدة أمر خارق للعادة في نفس اللحظة، أبى هؤلاء إلا أن يؤولوه على أنه هلوسة جماعية، لماذا؟ لأن اعتقادهم الغيبي يمنعهم من تصديق دعوى مخالفيهم في الدين بأنهم قد رأوا ما زعموا أنهم رأوه على الحقيقة!

ورابعا قولهم "يختلف موقف كل من الفريقين من تجاربهم، فالمرضى يشعرون بالأهمية وبالعظمة، وتتورم ذواتهم، فيعتبرون أنفسهم رسلا من الإله يحملون رسالة سماوية إلى البشر، ويشعرون أن لهم قدرات روحية على شفاء المرضى، وفي المقابل نجد الصوفية يعصف بهم التواضع والهدوء النفسي لإدراكهم قلة شأن الإنسان في مواجهة الوجود المطلق."
فيقال: ليس هذا بلازم! فليس الذي ينتفخ على الناس استكبارا بسبب اتصال فاسد أو متوهم بشيء غيبي، بأحسن حالا في ميزان العقل الصحيح من الذي يخرج من دعوى غيبية مشابهة بانكسار نفس وتواضع بين الناس! ثم إنه ليس كل من يدعي النبوة وحمل الرسالة السماوية إلى البشر يشعر بالضرورة "بتورم الذات"! وأما القدرة الروحية الذاتية على شفاء المرض، فلا يزال الدراويش والمجاذيب يتبرك بهم السفهاء من الناس حتى إن أحدهم ليطلب من المجذوب أن يبول عليه، أعزك الله، طلبا للشفاء!
والعجيب أن الدكتور تنبه إلى ما في هذه الجزئية عند أصحاب البحث المنقول منه، من تعريض بإبطال نبوة الأنبياء كافة، وبأنهم كلهم مرضى مهلوسون متعاظمون على الخلق، وأنهم لم يتصلوا بوحي من السماء ولا شيء من ذلك وإنما صورته لهم نفوسهم المتوهمة المريضة، ومع ذلك اعتمدها وعدها نقطة من نقاط التفريق بين الصوفي والمريض النفسي!
فقد قال في نفس الصفحة: "وإمعانا في التفكير المادي، وفرارا من الإقرار بعوالم الغيب (الميتافزيقا) يتجه بعض الباحثين إلى اعتبار أصحاب الرسالات العظمى من الأنبياء والرسل ضحايا لنوبات صرع الفص الدماغي، باعتبار أنهم يرون صورا ويسمعون أصواتا" [35]! قلت: فإذا كان هؤلاء أصحاب تفكير مادي في الحكم بالصحة النفسية والمرض النفسي، فلماذا قبلت منهم تفريقهم في جميع النقاط التي فرقوا فيها بين الصحيح والسقيم عقلا، من غير أن يأتوك بتعريفاتهم ومعاييرهم الواضحة في ذلك الشأن؟ ثم دعنا نسألك يا دكتور، وأرجو أن تتدبر في هذا السؤال جيدا: إن كنت ترى أن هؤلاء مبطلون في زعمهم أن الأنبياء لم يروا شيئا غيبيا ولم تنكشف لهم حجب الغيب ولا اتصلوا بشيء في الغيب ولا شيء من ذلك، فتنفي عنهم معنى المرض العقلي والنفسي بإثبات صحة ما زعموا أنهم رأوه في نفس الأمر، فإن أنت سلكت المسلك نفسه مع الصوفية، فما الذي يترتب على ذلك؟؟ من الواضح أنك إذن تكون قائلا بوحدة الوجود، مصححا مزاعمهم في نفس الأمر! فإن لم يكن هؤلاء مهلوسين مخرفين أو كذبة دجالين في زعمهم أنهم رأوا الله واتحدوا به، فلا يبقى إلا تصديقهم وقبول زعمهم، وهذا واضح!
ومع ذلك يقول الدكتور: "مما سبق (بالإضافة إلى أبحاث تجريبية حديثة سنذكرها فيما يلي) يتضح أن التجارب الروحية ليست نتاج أمخاخ/ عقول

مرضية، ولكن تشارك فيها أمخاخ/عقول سوية تماما، تتوق إلى مستويات روحية عالية، باستخدام آليات بيولوجية عصبية حقيقية وسوية." اهـ. فهل هذا كلام من ينفي وحدة الوجود ويراها كفرا ووثنية هندوسية وتنقصا شنيعا من رب العالمين؟ أبدا والله! هذا كلام من يصحح مزاعم هؤلاء النوكى ويصحح عقولهم وأحكامهم على ما مروا به من تجارب "روحية" يصفها بأنها "عالية المستوى"! ولا يملك المتصوف إلا أن يصنع كصنيع الدكتور في الحقيقة لأنه إذن لا يكون أمامه من بديل إلا تكفير كافة أكابر الطرق الصوفية ونقض النهاية العليا والغاية العظمى التي لا يسلك القوم طريقا من طرقهم إلا طمعا في الوصول إليها، وهو بطبيعة الحال موقف لا يتصورونه لأنفسهم طرفة عين!

ثم إن هذا الكلام (وكل ما في الباب من استناد الدكتور إلى أبحاث الطبيعيين في تلك المسألة، سواء نيبورغ أو غيره) يوافق الدهرية الطبيعيين في المطابقة بين عمل العقل والنفس والروح من جانب، وبين عمل المخ والجهاز العصبي من الجانب الآخر (وهم عامة الدهرية الطبيعيين المعاصرين القائلين بالأحادية Monistic Philosophy of Mind)! فمع أن الدكتور يزعم أنه يثبت روحا بالغيب، إلا أنه لا ينتبه إلى أن قبوله لتلك الأبحاث الدهرية الطبيعية (التي ما قبلها إلا لأنه رأى فيها دفاعا عن الصحة العقلية للمتصوفة من أهل الملل) يلزمه باختزال العقل إلى المخ، والروح والنفس إلى مجموع الشبكات النيورونية الكهربية في المخ، بل ويلزمه كذلك اختزال جميع "التجارب الروحية" إلى مجرد نشاط كهربي يمكن إحداثه وتكراره عند الطلب بأسباب مادية لا علاقة لها بما في الغيب البتة! وهذا بالضبط ما يذكره في الفقرة التالية، إذ يقول "فالعلماء يمتلكون الآن جهازا صغيرا يقوم بتنشيط مراكز المه المختلفة باستخدام المجال المغناطيسي، وقد قام عالم النفس الكندي د. مايكل بيرسنجر باستخدام الجهاز لتنشيط أجزاء مختلفة من الفص الصدغي للمخ، يقول مايكل لقد شعرت بالإله لأول مرة في حياتي." اهـ. قلت: فأي شيء يكون ذلك الإله الذي شعر به مايكل هذا إذن يا دكتور؟ لا يعدو أن يكون مجرد دغدغة كهربية لذلك الموضع المذكور من مخه! ليس في الأمر إذن غيب ولا حجب غيبية ولا شيء من ذلك البتة، ولا يحتاج من يريد أن يلقى ربه كفاحا إلى أكثر من استعمال ذلك الجهاز المذكور حتى "يشعر بالإله" ويخرج وقد تأسس له دينه على ما يجده في تلك الجلسة أيا ما كان، ولا عليه بعد ذلك بالنصوص ولا بالكتب ولا بالتراث والعلم الديني ولا بشيء من ذلك البتة! أليس قد استقبله ربه استقبال الفاتحين، بل واندمج له وجوديا وكشف له كل شيء؟؟ من يحتاج إلى الدين ونصوص الدين وبضاعة المرسلين مع هذا الاتصال العميق مع الرب نفسه، ذلك الاتصال الذي لم يزعمه لنفسه نبي من الأنبياء ولا رسول من الرسل ولا جرؤ علي ادعائه لنفسه ملك من الملائكة؟؟ بل يصبح علماء الدين هم

المطالبين بأن يجلسوا على يدي صاحب ذلك الجهاز، بصرف النظر عن دينه وملته، ليسألوه عما سمع وما رأى، لعلهم "يأتيهم اليقين" كما أتاه، والله المستعان!

فصدق من قال: شر البلية ما يضحك!!

ويكرر الدكتور الترويج لأبحاث أندرو نيبورغ، ذلك المجرم الاتحادي الخبيث الذي يدعو إلى الثولوجيا العصبية Neurotheology كما مر معك! يقول:

> في محاولة للإجابة عن هذه التساؤلات، أجرت مجموعة من الدارسين الجادين في مركز الدراسات الروحية والعقلية بجامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة، بقيادة د. أندرونيوبرج (رئيس المركز وأستاذ الأشعة التشخيصية) على مدى العشرين عاما الماضية أبحاثا رائدة في مجال الروحانيات والمشاعر الإيمانية، لمعرفة ما إذا كان لهذه المشاعر علاقة بوظائف المخ. أجريت الأبحاث على مجموعات من العبّاد من ديانات مختلفة (بوذيو التبت، الهندوس، راهبات الفرنسيسكان، المسلمون)، وكان الباحثون يطلبون منهم الانغماس في تأملاتهم الروحية، حتى إذا وصلوا إلى ذروة التأمل، قاموا بحقنهم بمادة مشعة تتركز في مناطق المخ النشطة، ثم صوروهم بكاميرا خاصة، وهي التقنية التي تعرف باسم SPECT. عندما ناقش الباحثون العباد البوذيون فيما يشعرون به وهم منغمسون في تأملاتهم، من بدايتها إلى أن يصلوا إلى ما سموه ذروة الإشراق الروحي، قالوا: في البداية يتلاشى العقل المدرك، فينخفض القلق والخوف والرغبات، ويبزغ جزء أعمق وأبسط من النفس، ونستشعر أن هذا الجزء العميق هو ذاتنا الحقيقية. وقالوا إنهم لا يستخدمون اصطلاح الذات الحقيقية كاصطلاح مجازي، لكنها وجود حقيقي، بل هي حقيقة وجودهم. ومع استمرار التأمل، يشعرون أن هذه الذات الداخلية ليست وجودا منفصلا، لكنها جزء من الوجود الكلي.
>
> وعندما حاول العباد البوذيون تلخيص ما شعروا به، استخدموا تعبيرات مميزة مكررة، كثيرا ما يستخدمها الصوفية: أشعر بالخروج من الزمان، أشعر بالوقوف على أبواب اللانهاية، أشعر أنني جزء من كل إنسان وكل شيء في الوجود، وأضافت راهبات الفرنسسكان أنهن قد صرن قريبات جدا من المسيح، بل وامتزجن به، وأن هذه لذة لا تعادلها لذة. ولعل من أوضح ما قيل وأكثره تعبيرا عن التوحد مع الوجود، ما ذكره د. جيمس أوستن، وهو من مساعدي د. راماشاندران، وفي نفس الوقت من ممارسي عبادة التأمل البوذية. يقول: "يتلاشى شعوري بالوجود المادي الشخصي، وأشعر بالانفصام عن العالم المادي حولي، أرى الأشياء على

حقيقتها، يختفي الإحساس بالأنا وبنفسي وبتملكي للأشياء، لم يكن للزمن وجود، يتملكني شعور بالخلود والديمومة، تختفي مشاعر التوق والنفور والخوف من الموت والرغبة في تلميع الذات". [36]
قلت: فإما أن الدكتور لم يقرأ كتب الرجل قبل أن يروجها للناس على أنها "أبحاث رائدة"، وإما أنه قرأها ومر بما نقلناه منها أنفا، ولم ير – مع ذلك – مانعا من الترويج لها! فإن كان لم يقرأ (وأشك في ذلك) فتلك جناية، وإن كان قد قرأ فالجناية أعظم، وإلي الله المشتكى! [37] فإن اعتذر لنفسه بأن يقول: أنا أعلم أن نيوبورغ يرى أنه إن صح وجود الصانع أو ما يقوم مقامه في الغيب، فلا يمكن إلا أن يكون هو الوجود التوحدي المطلق AUB كما يسميه، ولكنني لا أوافقه على هذا الاعتقاد بطبيعة الحال، وإنما أردت أن أبين أن أدوات البحث التجريبي Empirical Research قد أثبتت أخيرا أن المخ البشري مركب تركيبا مخصوصا من أجل الدين! فيقال له: وهل يرتاب عاقل في أن المخ مركب تركيبا ملائما "للدين"؟ هذه مسألة لا تحتاج إلى إثبات تجريبي! ثم أي دين هذا الذي "أثبت" هؤلاء أن المخ معد إعدادا مخصوصا من أجله؟ إنه دين الوثنيين الاتحاديين وليس دين المسلمين الموحدين! إنه ذلك الدين الذي لا فرق فيه بين أن تعبد الله رب العالمين أو تعبد المسيح عيسى بن مريم أو تعبد الأرض أو الشمس أو حتى أن تعبد نفسك، فهذه كلها مجازات عن حقيقة واحدة زعموا أنهم هم الأعلم بها! والدليل أنك أيا ما كان الإله الذي تعبده، فستصل إلى نفس النهاية بعد طول تأمل!
فهذه الحالة التي يمر بها هؤلاء الخرافيون السكارى، التي نشطت مواضع معينة في "الفص الصدغي الدماغي" لديهم، لم يأت بها رسل الله عليهم صلوات ربي وسلامه، ولم يعرفها الصحابة والتابعون، ولا علاقة لها بدين الإسلام أصلا! ولا ينبني عليها إلا الوثنية والإغراق في الكفر! فما الذي يترتب على القول بأن هذه المسألة تدل على أن الله خلق المخ البشري على نحو مخصوص من أجل أن ينخرط معه في تلك "العلاقة الروحية" المزعومة؟؟ هذا يقتضي تصحيح دين الوثنيين وإبطال دين التوحيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله!
ولا شك أن لهذه المسألة ارتباطا وثيقا بداروينية الدكتور، لا يقتصر على المنهجية الكلية التي سلكها في هذه البابة بعموم (مسألة خلق العقل البشري) وحسب، بل يرتبط بالبناء الاعتقادي التفصيلي لديه كذلك، ذلك البناء الذي هو سبب تأليفه هذا الكتاب "ثم صار المخ عقلا"! فهو يؤمن بالبدعة الشاهينية في منشأ العقل البشري، إذ يرى أن المخ البشري بدأ في بداية الأمر مخا من أمخاخ القردة المنحطة، ثم أخيرا وبعد ملايين السنين، حصل "تدخل إلهي" ما، بخلق آليات معينة في ذلك المخ المنحط، أصبح بها

إنسانا (بعد أن كان "بشرا"، على بدعة شاهين)، وولد بها "آدم" أخيرا من أم وأب هما من جملة القردة العليا! فلما كان منهجه في جميع تلك الغيبيات منهجا طبيعيا محضا، كان لزاما عليه أن يأتي "بدليل علمي" على أن في المخ شيء ما يرتبط ارتباطا وثيقا بالنشاط الديني في الإنسان، ولا يمكن - مع ذلك - [38] تفسير وجود ذلك الشيء في أمخاخنا بالعشوائية الداروينية! من هنا، حمل الرجل على عاتقه مهمة أن يبحث في تصانيف الطبيعيين والتجريبيين في مجال النيوروبيولوجي والعلوم العصبية والمجالات ذات الصلة عن مادة تجريبية تصلح لأن تكون مستندا لذلك المطلب الدارويني التطويري الشاهيني لديه! فكلما وقع على مخرف من مخرفة التأويل العصبي Neurological Interpretation الوثنيين هؤلاء وأعجبه تأويله للوصلات العصبية المطبوعة على مواسحه المخية، جاء بكلامه على أنه "الدليل العلمي" الذي "ظهر أخيرا" على أن المخ لا يمكن أن يكون قد "صار عقلا" إلا بالتطور الموجه و"التدخل الإلهي" في جينوم القردة العليا المزعومة، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

إلى أن قال (ص. 249-250): "وتتخذ طقوس التأمل عددا من الأشكال لتحقق عددا من الأهداف، فبعضها يعتمد على استبعاد جميع الأفكار وإلغاء التركيز على أي شيء (ويسمى ذلك بالأسلوب السلبي)، ويعتمد البعض الآخر على التركيز الشديد على هدف محدد، كالكعبة أو شمعة متقدة أو وردة، أو على تأمل بعض النصوص المقدسة أثناء الصلاة (ويسمى ذلك بالأسلوب النشط)، ويستعمل البعض هذه الطرق جميعا في آن واحد. والهدف من هذه الطقوس هو أن يسكن العقل الواعي، وتسكن الحواس فتقل المدخلات إلى منطقة تربيط التشكيل OAA مما يؤدي إلى هدوء نشاطها، ويعرف ذلك بالإغلاق Deafferentiation. ومع استمرار طقوس التأمل تنشط آليات الإغلاق بشكل أكبر، عندها يتلاشى الإحساس بالذات وبالوجود من حولنا، ويتم الشعور بالممازجة مع حقيقة أكبر من الوجود المادي، وهو ما يعرف "بوحدة الشهود/ الوجود"." اهـ. قلت: فوحدة الوجود إذن مرادفة عندك لوحدة الشهود كما هو واضح من كلامك، وسواء هذه أو تلك، فكلاهما تشترك فيه جميع الملل الوثنية بلا استثناء، بما في ذلك عبدة القبور والأولياء!

ثم قال الدكتور (ص. 251): "ويصف المتصوفة هذه اللحظات بأنها فناء شامل: فناء الذات والوجود، فناء الزمان والمكان، لا أفكار، لا أحاسيس، لا كلمات، وتصفها ديانات الشرق الأقصى بأنها حالة من الوعي الخالص (النيرفانا) ويصفها العاملون بمركز الأبحاث ببنسلفانيا بأنها حالة من العقل الخالص. إنها ليست أوهاما أو هلاوس، إنه نشاط عقلي سوي يحدث بشكل متتال في مراكز معينة في المخ، وقد نشطه في البداية محاولة مقصودة

لتهدئة العقل الواعي." اهـ. قلت: فإن لم تكن أوهاما، فهي إذن حقائق! ما يزعمه هؤلاء في تلك اللحظات أنه يحصل لهم (من إسقاط أستار الغيب والاندماج مع جميع الموجودات في الذات الإلهية) ليس أوهاما ولا هلاوس ولا خرافات، والدليل أن بعض المواضع في المخ، المسؤولة عن إشعار هؤلاء بما يشعرون به، تضيء بالأحمر على الماسح المخي SPECT في أثناء تلبس هؤلاء بتلك الأحوال! فما أحسنه من نظر وما أبدعه من استدلال!!
ثم قال: "الصوفية المسلمون قد يركزون على الكعبة أو الشيخ الصوفي، وقد يركز بعضهم على الله عز وجل. المسيحيون قد يركزون على المسيح أو أحد القديسين أو على صليب. أما البوذيون فيركزون على ترنيمة مقدسة أو شمعة مشتعة أو إناء صغير به ماء." اهـ. قلت: الله أكبر! وإذن فجميع الملل تؤدي إلى العرفان الصوفي! بل لو أني ركزت على نعلي – أعزك الله – واستغرقت في التأمل في راحة القدم التي أشعر بها وأنا أرتديه، فلعلي أصل كذلك إلى الفناء في "الوجود المطلق"! هي على أي حال "آلية بيولوجية"، تدخل إليها من أي مدخل تشاء! فالطريف أن الدكتور نفسه يقول (ص. 252): "فعلى سبيل المثال، إذا كنت عائدا إلى بيتك بعد أسبوع عمل مجهد بدنيا وذهنيا ونفسيا، وقررت أن تأخذ حماما بطريقة متميزة تحقق لك الاسترخاء، ثم غمرت نفسك في حوض الاستحمام المملوء بماء دافئ معطر، فأنت بذلك تقوم بسلسلة من الطقوس التي تنشط في البداية جهاز السكون الذي ينشط منطقة فرس البحر، فتنشط آلية الإغلاق التي تقلل المدخلات إلى منطقة تربيط الإدراك، فتبدأ بالإحساس بحالة من الصفاء الممتع. ومع استمرار الموسيقي الإيقاعية يزداد نشاط جهاز السكون، فيزداد الصفاء وتبدأ في التوحد مع الموسيقى." اهـ.
قلت: لا تعليق ......!!
العجيب أنه يأتي بعد ذلك ليرد على "الدراونة" (يعني الداروينيين الدهرية المصرحين بدهريتهم) في قولهم إن هناك مراكز ودوائر عصبية مشتركة بين النشاطين الجنسي وهذا النشاط (الذي لا يزال يسميه "بالديني") خاصة في الجهاز العصبي اللاإرادي والجهاز الحوفي، وفي ربطهم بين بلوغ الذروة الجنسية عن طريق التنشيط الإيقاعي المنتظم وبين ما يسميه "بالتسامي الروحي"، فيقول: "هناك فوارق بيولوجية عصبية جذرية تنفي الأصل المشترك للمشاعر الجنسية ومشاعر السمو الروحي، فالنشوة الجنسية متعة جسدية في المقام الأول، مسؤول عنها مركز بدائي وهو منطقة تحت المهاد، وتكون مصحوبة بتعميق الشعور بالذات، أما نشوة السمو الصوفي الروحية فهي غير مادية وتعتمد على مراكز عصبية عليا تقع في القشرة المخية (الفص الأمامي ومناطق التربيط)، وتكون مصحوبة بالشعور بفناء الذات." اهـ. قلت: حيرتنا معك يا دكتور! ألست قد ضربت لنا بنفسك أمثلة تدلِ على أن تلك الحالة الشعِورية التي تسميها بالتسامي الروحي، قدِ يمر

بها أي إنسان في الاستمتاع بأمور حسية لا علاقة لها بالغيب ولا بالدين أصلا، كأن يصل إلى "وحدة شهود البانيو" أو "وحدة شهود أوبرا عايدة" مثلا؟؟

ثم يقول في خلاصة الفصل (ص. 254): "إن إدراك الوجود المادي والوجود الغيبي الذي يستشعره الصوفية يرجع إلى نفس الآليات العصبية، ومن ثم فإن ما يستشعره الصوفية لا يقل مصداقية (من ناحية القابلية للرصد) عن الوجود المادي." اهـ. قلت: وإذن فالمفترض الآن أن نستنبط من "قابلية الرصد" بالمواسح المخية التي توصف بها تلك العمليات الإدراكية الذهنية الصوفية كما توصف بها عمليات إدراك العالم المادي، ورجوعهما إلى "نفس الآليات العصبية"، أن ما يدركه المتصوفة حال فنائهم لا يقل "مصداقية" ولا واقعية عن الواقع المادي الملموس! فأي شيء يفهم من هذا الكلام إلا تصحيح ما يزعم هؤلاء أنهم يدركونه وجوديا، ألا وهو وحدة الوجود والتوحد مع ما يسمونه "بالوجود المطلق"؟! رجعنا إذن إلى إثبات ما زعمت الجزم ببطلانه لمخالفته العقيدة والشريعة، فتأمل!

لا شك في أنهم في تلك الأحوال تنقدح في أمخاخهم أنشطة عصبية معينة تغيبهم عن الواقع، وتفقدهم الإحساس بأجسامهم وحدودها وبالموجودات من حولهم وبالزمان والمكان .. إلخ، وأنهم يتلذذون بذلك الإحساس بالنظر إلى ما تحملهم عليه عقائدهم من تأويل وجودي غيبي يجعل من تلك التجربة العجيبة غاية العلو في مراتب الدين، كل منهم على حسب ملته، ولكن كل ذلك لا يلزم منه عند العقلاء التسوية بين تأويل الصوفية لمدخلات الإدراك المعتادة من العالم المادي الملموس في أحوالهم الاعتيادية، وبين تأويلهم مدخلات الإدراك التي تحصل لهم في تلك الأحوال التأملية، من حيث مطابقة التأويل نفسه للواقع! فإنه ليس كل ما يدركه العقل في كل أحواله يكون مطابقا في تأويله للواقع بالضرورة! وحسبك أن تتأمل في ظاهرة التوهم البصري Optical Illusion (في النوع الإدراكي منها Cognitive تحديدا) وظاهرة البارايدوليا Pareidolia عند النفسانيين لترى مصداق ما نقول! فإذا كانت العين تبصر أحيانا ما لا حقيقة له في الواقع، وهي في كامل وعيها، جريا على ميل اعتقادي معين (كما يرى بعضهم أحيانا لفظ الجلالة في سحابة أو على ثمرة خيار!) فمن باب أولى ولا شك أن يكون ذلك الواقع الوثني الاتحادي الذي يزعم هؤلاء أنهم يشعرون به في حال انفصال وعيهم وشعورهم عن الواقع الخارجي، توهما وهذيانا لا حقيقة له! وهذا القدر قد اعترف به هؤلاء الباحثون الذين نقل عنهم الدكتور أبحاثهم، لأنهم مع كونهم أصحاب ميول وثنية اتحادية لهم هوى "إنساني" Humanist interest في نشر وحدة الأديان والترويج لها كما رأينا، إلا أنهم في الأصل طبيعيون دهرية وضعيون، فلا غرض عندهم ولا هوى في تصحيح أي دعوى وجودية غيبية معينة مما يزعمه أصحاب تلك التجارب الشعورية على اختلاف أديانهم في تأويلهم ما يشعرون به، خلافا لصحابنا الصوفي الذي لا يزال

متعلقا بالأضرحة وبأهداب العارفين المزعومين والمجاذيب والدراويش! فبينما لم يزيدوا هم على أن قالوا إن تجارب هؤلاء "يجوز" (مجرد الجواز) أن تكون إدراكا لواقع غيبي فائق لا ندركه في أحوالنا الاعتيادية، لم يجد هو إلا أن يومئ بكونها كذلك، لأنه يعلم أن نفي واقعية تلك الدعاوى و"مصداقيتها" عند الصوفية والتصريح بذلك فيه تكذيب لمن لا يسعه (على عقيدته) تكذيبهم! ولكنه في نفس الوقت يدرك ما في التصريح بالتصديق من تصحيح لعقيدة وحدة الوجود الوثنية، ولذلك تراه يتلاعب بالعبارة، فيجعل النتيجة التي ينتهي إليها هي أن الإدراكين والشعورين (إدراك الوجود المادي، وإدراك الغيبيات التي يزعم الصوفية إدراكها) متساويان في المصداقية "من ناحية القابلية للرصد"! ولكن ينسى الدكتور أو يتناسى أن الدهرية لم يكذبوا القوم في زعمهم بأنهم شعروا بفناء الذات وذهاب الفوارق بين الموجودات من حولهم .. إلخ، شعروا به شعورا، وإنما كذبوهم (كما نكذبهم نحن) في تأويلهم ذلك الشعور عندهم تأويلا وجوديا اتحاديا! فإنه إذا سقط التأويل الغيبي الصوفي وقيل بتكذيبه كلية، لم يكن ثمة فرق بينهم وبين كل مهلوس وكل سكران وكل شارب للحشيش والبانغو، وهذا ما لا يقبله الدكتور، ومن ثم تراه يتناقض فينفي وحدة الوجود تصريحا ويثبتها لزوما واقتضاء، والله المستعان!

ثم يأتي في مختتم الخلاصة ليقول بكل سهولة: "لذلك أكرر مرة أخرى، إن المخ البشري قد أعد قصدا من أجل التواصل مع هذه العوالم، وإن هذا دليل على الألوهية وعلى المصدر السماوي للأديان."! اهـ. فما نقول إلا: إنا لله وإنا إليه راجعون! أي عوالم يا دكتور؟؟ عوالم الشرك والوثنية وذهاب العقل والهذيان؟؟ ثم ألوهية من يا دكتور على وجه التحديد التي يثبتها هذا الأمر، والمصدر السماوي لأي أديان؟؟ كل الآلهة وجميع الأديان؟؟ ثم أي مصدر سماوي هذا الذي تريد أن تلزم خصومك بقبوله "للأديان" (!) وقد أثبتّ لهم بنفسك أن تجربة الفناء تلك ليست متقيدة بالدين أصلا ولا مقصورة عليه، ولا فرق فيها بين دين ودين، بل ولا بين وثني وملحد؟؟

ثم ينتقل الدكتور بعد ذلك إلى فصل ترجم له بقوله "علم الألوهية" (!!)، يفتتحه بنقل فاسد عن "دوغلاس آدم" ثم يعقب عليه بقوله: "إذا كان الكون من الأشياء المستعصية على فهم العقل الإنساني، فليس هناك شيء أكثر استعصاء على الفهم والتصور من أن هناك وجودا لعالم غيبي يستوي على عرشه الإله، في مستوى وجودي آخر، أكثر حقيقية من الوجود المادي الذي نحيا فيه." اهـ. قلت: ما معنى يستعصي على الفهم هذه، وما طبيعة الفهم المقصود هنا؟ إن كان هو الفهم الذي قصده دوغلاس في قوله الذي تعقبته بهذا الكلام [39]، فليس هذا علما مما يجوز لعقلاء البشر أن يطمعوا – مجرد الطمع – في أن يصلوا إلى اكتسابه في يوم من الأيام! ولكن لأن الفلاسفة

الطبيعيين الدهرية لا يرون غيبا ولا صانعا ولا شيء، ولا يرون العالم إلا ملعبا لتلك القوانين السببية العمياء التي توهموا أنهم قد استتب لهم أمر العلم بها، فقد أصبح حلم كل متهوك فاجر من هؤلاء أن يبلغ في يوم من الأيام من العلم بتلك القوانين ما يمكنه من أن يخلق لنفسه "كونا جديدا"، أو أن يعدل على هذا الكون كما يحلو له! فهؤلاء يستعصي عليهم نوال مطلوبهم ولا شك، فإن جئتهم بدعوى الغيب، استعصى عليك أنت أن تقنعهم بها أصلا، وما ذاك إلا لأنهم على شرطهم الدهري الفاجر، لا يقبلون إلا ما يمكنهم إجراؤه على أصولهم المعرفية الفاسدة، فيختزلوه إلى أسباب طبيعية يتصورون لأنفسهم القدرة على التوصل إلى الإمساك بناصيتها في يوم من الأيام!

ثم ما معنى "في مستوى وجودي آخر"؟ ما هو "المستوى الوجودي" هذا وعلى أي أساس أثبت وجود ربك فيه؟ وما معنى أن يكون ذلك المستوى موصوفا بأنه "أكثر حقيقية" من الوجود المادي الذي نحيا فيه؟؟ وهل صفة الحقيقية من الصفات التي يتصور في معناها التفاوت أصلا، حتى يقال في شيء إنه حقيقي (وجوديا) أكثر من شيء آخر أو أقل منه؟ الجواب عند الصوفية المتفلسفين أمثال الدكتور: نعم، فقد دلتنا مقامات "وحدة الشهود" على أن وجود الرب وجود مطلق، فهو أكثر حقيقية من وجود غيره من الموجودات!

والحق أن الشيء المتعين في الخارج إما أن يكون موجودا حقا أو غير موجود، فليس يعقل أن نقول في موجودين قد سبق منا إثبات وجودهما في الأعيان، إن أحدهما أكثر "حقيقية" More Real من الآخر! ولا نقبل منهم قولهم "وجود مطلق" أو "الموجود المطلق" دون تفصيل! فإن كان المراد منه أن وجوده سبحانه قائم بنفسه لا بغيره مثلا، أو أنه هو الوجود الأكمل الذي لا نقص فيه، فليس له ابتداء ولا انتهاء ولا شرط له ولا قيد، فهذا حق ولا شك! ولكن ليس هذا ما يقصدونه "بالوجود المطلق"، وإنما يقصدون أن معنى الوجود نفسه لا حقيقة لإطلاقه إلا في الذات الإلهية! وهذا باطل قطعا، وإلا فما حقيقة الموجودات الأخرى إذن، وهل يثبتونها أم لا؟ إن كانوا يثبتونها فلا تفاوت في مطلق معنى الوجود لكل ما أثبتنا وجوده تحقيقا، وإن كانوا لا يثبتونها فلا تفاوت كذلك لأن ما لا وجود له أصلا لا يقال له إن وجوده "أقل حقيقية" من وجود غيره! ولكن لأن الصوفية والوثنيين الاتحاديين يشتد عندهم الشعور الجارف بتلك الحالة وتعتصر نفوسهم الرغبة الدينية الملحة في تصحيح مدلولها الغيبي عندهم وجوديا، فإنهم يجعلون تلك المدلولات التي تنصرف إليها نفوسهم في "فنائها" عند ذروة تلك التجربة، هي الواقع الحقيقي True Reality الذي عليه العالم الخارجي، وما سوى ذلك، فتشويش أو وهم أو سراب .. إلخ!

وقد شبه أندرو نيوبرغ هذه المسألة في كتابه الذي نقلنا منه آنفا، بالعلاقة بين الكمبيوتر والبرامج المحفوظة عليه. فعندما تعمل تلك البرامج فإنها

تكون موجودة واقعيا، ولكنه وجود تابع لوجود أعظم منه، أو "أكثر أساسية منه"، ألا وهو وجود الجهاز نفسه! فإما أن يكون وجود تلك العوالم الغيبية التي يزعم الصوفية أنهم يتصلون بها كوجود جهاز الكمبيوتر وأما الواقع المادي الملموس فوجوده تابع كوجود برامج الكمبيوتر، وإما أن يكون العكس هو الصحيح! وبالنظر إلى الاعتقاد الديني العميق الذي ينطلق منه كل متصوف وكل روحاني من أهل الملل إلى تلك التجربة، فإنه لابد أن يصبح الوجود الغيبي الاتحادي عندهم هو الأصل وهو الحقيقة، وما سواه وهم لا حقيقة له أصلا، أو مجرد وجود إضافي (فيما يسميه الصوفية بعالم الأشباح) يشوش على الوجود الحق ويخفيه إلا عن أعين الخاصة من الناس! ولا شك أن في هذا التشبيه تلبيسا واضحا، لأنه سواء الحاسوب أو البرنامج المخزونة عليه فكلاهما وجود حقيقي لا وهم فيه، خلافا لما ينتهي إليه الصوفية من جعل وحدة الوجود هي الوجود الحق، وما تبصره الحواس في عادتها هو الوهم الذي لا حقيقة له! فعندما يقال إن الصوفية يلتمسون في العالم المادي منزلة وجودية وسطى بين الحقيقة والوهم، كما تراه في عبارة الدكتور "أكثر حقيقية"، فهذا كلام فارغ لا ينصرف عند العقلاء! ومع ذلك، يتكلف الدكتور في هذا الفصل محاولة إثبات ذلك التفاوت الفاسد عقلا في معنى الوجود نفسه باستعمال نظريات الطبيعيين، فلا يزيد على أن يثبت وحدة الوجود من حيث يزعم أنه ينفيها!

قال (في ص. 257): إن بديهياتنا العقلية تخبرنا أن لا شيء أكثر واقعية من الأرض الصلبة التي نسير عليها، ومن الكرسي المريح الذي نجلس عليه، لذلك فإن هذه البديهيات ترفض مفهوم الغيب غير المادي. ولكن بعضا من التأمل يرينا أن الأمر ليس بهذه البساطة، فآليات التسامي التي تطلعنا على عالم الغيب آليات عصبية حقيقية، لا تقل مصداقية عن وظائف المخ الإدراكية الأخرى. ومن ثم فالحديث عن هذه العوالم ليس حديثا لا معنى له." اهـ.

قلت: تأمل كيف يصرح هنا بما خنس عن التصريح به آنفا عندما قيد الكلام بقوله "من حيث قابلية الرصد"، فيثبت للصوفية أن ما سماه "بآليات التسامي" عندهم يحصل لهم به الاطلاع على عالم الغيب كما يزعمون، وأن ما يزعمون أنهم يرونه في تلك الأحوال هو واقع لا تقل "واقعيته" عما ندركه من موجودات وصفات للأشياء في عالمنا المادي! وإذن فنحن واهمون إن ظننا أن هذه الأشياء المادية من حولنا لا شيء "أكثر واقعية" منها! ولا شك في بطلان قوله "إن بديهياتنا ترفض مفهوم الغيب غير المادي"! فلو صح هذا للزمك يا دكتور أن تثبت للطبيعيين الدهرية بدهية موقفهم المكذب بالغيب وما فيه! بل نثبت الغيب ببداهة العقل، ولكن إثبات الغيب بمقتضى الفطرة (كما عليه العقلاء من المسلمين وغيرهم) شيء، والزعم بإمكان الاطلاع عليه واستكشافه عن طريق التأمل واليوغا وتلك

الأشياء، شيء آخر بالكلية! ولا يلزمنا أن نثبت الثانية حتى تسلم لنا الأولى من تكذيب المكذبين وجحود الجحدة من الماديين!
يقول الدكتور (ص. 257):
ونستطيع أن نفكك هذه المعضلة إلى ثلاثة تساؤلات:

1- هل استشعار الإنسان للأحاسيس الروحية والتواصل مع المطلق (الله عز وجل) نتاج للنشاط الكهروكيميائي للمخ؟ الإجابة العلمية (والصحيحة) ببساطة هي: نعم.
2- هل يعني ذلك أن الله عز وجل فكرة في عقولنا، وأن ليس له وجود حقيقي خارجها؟ الإجابة العلمية (والصحيحة) ببساطة هي: لا.
3- هل يعني ذلك أن العلم لا يستطيع أن يثبت أو ينفي وجود الإله؟ الإجابة، بل يستطيع.

قلت: ليست معضلة والله إلا عند الصوفية الاتحادية المتمخرقين من أمثالكم! فأنتم من تصرون على التمسك بالنقيضين معا: إثبات أنه لا موجود بحق إلا الله، وإثبات وجود العالم الخارجي (المادي كما تسمونه) في نفس الوقت! هذا ما صيّر مسألة "الوجود" معضلة كبرى بالنسبة لكل صوفي متفلسف مخرف، وإلا فمعنى الوجود (الذي نثبته لله تعالى ونثبته كذلك لجميع مخلوقاته، ما نشهده منها وما هو غائب عنا) واضح عند أهل السنة لا لبس فيه ولا إعضال! نعم يستشعر مخرفتكم وكأنهم يتواصلون مع الله (ولا يجوز أن يقال "المطلق" لأنه ليس من أسماء الله الحسنى ولا يسمى الله إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم!)، ولكنه وهم بالضرورة وهذيان بالضرورة، لأن الله تعالى قال صراحة في كتابه ((وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)) [الشورى : 51]، وهؤلاء يزعمون أن الحجاب ينزاح عنهم ويتواصلون مع الله فوق ما كان للأنبياء والرسل عليهم صلوات ربي وسلامه! فهذا تكذيب صريح للقرآن، نسأل الله السلامة!

خلص دينك واعتقادك أولا يا دكتور من فكرة أن الله تعالى ينكشف عنه الحجاب في نفوس وعقول مشايخك، وأنهم يتواصلون معه على الحقيقة كما يزعمون، إن أردت أن تزول تلك المعضلة التي أنت غارق فيها، تريد أن تغرق معك قراءك من شباب المسلمين فيها! ولكن الرجل يريد أن يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون، يجمع بين أمرين لا يدري أن أحدهما ينقض الآخر! يريد من جهة أن يتخذ لنفسه اعتقادا وسطا في مسألة الكشف الصوفي هذه يقر به أصحابه على ما يزعمون أنهم يرونه، ويسلم مع ذلك من التهمة بوحدة الوجود، ويريد من الجهة الأخرى أن يستغل مسألة الفناء والكشف هذه في إثبات وجود الله من طريق علوم الأعصاب ونحوها! كل ذلك في إطار مشروعه الخطير في تأسيس الاعتقاد الغيبي التفصيلي على نظريات الطبيعيين الغيبية، تحت شعار "قراءة الوجود" أو "كتاب الله المنظور" كما يسميه تلبيسا!

قال الدكتور (ص. 258) في إطار التأسيس والتأصيل الفلسفي لما يريد، وتحت عنوان "العلم المادي والوجود الغيبي":

الوجود الخارجي والداخلي .. يحدد العلم نوعين من الوجود الحقيقي، الوجود المادي الموضوعي الخارجي (وهو العالم المحيط) والوجود العقلي الذاتي الداخلي، وهو الهيئة التي يدرك عليها الإنسان الوجود الخارجي. فالكرسي الذي أمامك مثلا له وجود خارجي، وله وجود في عقلك عندما تراه وتتحسسه وتجلس عليه وتفكر فيه. ولا شك في أن هذين الوجودين حقيقيان وأن معظمنا يستطيع تقبل وجودهما في وقت واحد، ولا شك أيضا في أنهما مختلفين عن بعضهما البعض، لكن أيهما هو الأصل الذي يتوقف عليه الآخر، أي أيهما هو الحقيقة القصوى (حقيقة الحقيقة)، ومن ثم يكون الآخر هو التابع؟ لقد شغلت قضية الحقيقة الموضوعية والحقيقة الذاتية (وما زالت) الفلاسفة لقرون عديدة، ولا يعنينا هنا الدخول في خلافات الفلاسفة، ولكن يعنينا علاقة الآلايات البيولوجية العصبية بنظرتنا للوجود وكذلك باستشعارنا للألوهية.

قلت: أولا تقسيم الموجودات إلى موجودات في الأذهان وموجودات في الأعيان ليس من مكتشفات العلم الطبيعي حتى يقال "يحدد العلم نوعين من الوجود الحقيقي"! هذه قضية بدهية أولية يعرفها العقلاء من قبل أن يظهر شيء يقال له "فلسفة"! ثانيا: إن كان المقصود بلفظة "ذاتي" في هذا السياق ترجمة اللفظة الانكليزية Subjective، فلا يصح في العقل إطلاقها على نوع الوجود الذهني، بما يفهم منه أن جميع الموجودات الذهنية ذاتية! فالذاتية على هذا الوجه يكون معناها عدم التقيد بشرط مطابقة ما في الخارج. ولا يخفى أن كل دعوى معرفية لا تطابق ما في الخارج فهي جهل أو كذب! فإذا كانت الموجودات الذهنية تشمل المعارف والتصورات كما تشمل الانطباعات والأهواء والميول والغرائز والتفضيلات الفردية والأذواق .. إلخ، كان في إطلاق القول بفردية أو ذاتية نوع الوجود العقلي إجمال لا يجوز قبوله. ثم إن القول بفردية أو ذاتية الوجود الذهني على هذا المعنى المطلق، يقتضي القول بالمثالية المطلقة Idealism، وهو المذهب القائل بأنه ليس ثمة وجود خارج عن الأذهان أصلا! وبيان ذلك أنه إذا كانت جميع الأحكام على ما في الخارج ناتجة عن أذهان لا تتصور الواقع الخارجي إلا بصورة فردية ذاتية (غير موضوعية)، فإنه يصبح مجرد الحكم بوجود شيء ما في الأعيان أمرا فرديا ذاتيا لا طريق للجزم بصحته من بطلانه مهما اتفق عليه الناس! والواقع أن سيغموند فرويد كان أول من تعامل مع العقل على أنه يخلق لصاحبه تصورا ذهنيا للعالم لا يطابق الواقع الخارجي إلا اتفاقا! وكان ذلك عنده مبنيا على اعتقاده بأن العقل البشري ممروض بطبيعته، وأن العقل الباطن (الذي كان يراه بيتا لكل غريزة مكبوتة وكل عقدة نفسية مخزونة مِن الصبا) هو الذي ينشئ ذلك التصور الذهني لصاحبه من أوله إلى

آخره، متأولا مدخلات الحس كلها على هواه ومزاجه! وهذا ولا شك إفراط في أمر العقل الباطن وما يجري فيه، وتفريط في قدرة العقل البشري على استعراف الواقع الخارجي على ما هو عليه، وفي قدرة الإنسان على أن يرقى بحياته وبشخصيته فوق منزلة البهيمية التي أنزله فرويد إياها، وليس ها هنا محل البسط في هذه المسألة على أي حال!
قول الدكتور: "ولا شك في أن هذين الوجودين حقيقيان وأن معظمنا يستطيع تقبل وجودهما في وقت واحد،" قلت: فما حكمك إذن يا دكتور على من لم يدخلوا عندك في ذلك "المعظَم" الذي يستطيع تقبل وجود الحقيقتين في وقت واحد؟ الصواب أن يقال إن البشر الأسوياء يتقبلون وجودهما على السواء، وأن من أنكر أحدهما فهو مكابر مسفسط، أو مخبول ذاهب العقل! ولكن واقع الأمر أن الوجودين ليسا على منزلة واحدة عند الدكتور كما هما عند العقلاء الأسوياء! ولهذا يقول: "ولا شك أيضا في أنهما مختلفين عن بعضهما البعض، لكن أيهما هو الأصل الذي يتوقف عليه الآخر، أي أيهما هو الحقيقة القصوى (حقيقة الحقيقة)، ومن ثم يكون الآخر هو التابع؟" قلت: هذا الكلام راجع إلى بدعة الصوفية في توهين وجود الواقع الخارجي المحسوس في مقابل الوجود الغيبي المطلق الذي يزعمون أنه قد انكشف لهم! وهي تلك المفاوتة في أصل معنى الوجود نفسه، التي عبر عنها أندرو نيوبورغ بمثال الكمبيوتر وبرامجه الذي ذكرناه وتعقبناه فيما مر معك!
ولا شك أنه من محض السخف والسفسطة أن يُطرح السؤال: أي "الوجودين" هو الأصل الذي يتوقف عليه الآخر، أو أيهما يتبع الآخر، فما دام في العالم بشر يعقلون، فسيكون في عقولهم وجود ذهني، وهو ما يقتضي بداهة ألا يكون ذلك النوع من الوجود (الحقائق الذهنية في عقول بني آدم) قد وجد إلا بعد خلق آدم وذريته! ولكن ليس هذا هو السؤال الذي يريد الدكتور أن يطرحه في الحقيقة! ليس السؤال: أي الوجودين أسبق من الآخر أو متقدم عليه، دع عنك ذلك التركيب السخيف ("الحقيقة القصوى" و"حقيقة الحقيقة") الذي لا معنى له إلا في ذهن الدكتور ومن تشرب بمشربهم، وإنما السؤال الفلسفي الذي عجز الدكتور عن صياغته هنا هو: هل الصواب أن يقال إن الموجودات الخارجية المحسوسة بالفعل أو بالقوة إنما هي عمل ذهني محض، فلا وجود لها إلا تبعا لوجود الذهن، أم يقال إن الموجودات الذهنية هي التابعة للوجود الخارجي المحسوس المتوقفة عليه القائمة به؟ وهو سؤال فاسد أيضا! فمع أنه ليس في العقل ما يجيز أن يكون العالم المحسوس وهما في أذهاننا نشترك كلنا في توهمه، أو ينفرد به أحدنا فلا تكون لوجودنا كلنا من حقيقة إلا أن نكون من أوهام عقله وخيالاته، إلا أنه لا يصح كذلك – في المقابل - إطلاق القول بأن ما في الأذهان من حقائق وموجودات، ناشئ كله عن تأثير الوجود المادي المحسوس، ولا حتى في باب الدعاوى المعرفية! فالفطرة – مثلا – وما فيها من معارف متعلقة

بالموجودات المحسوسة، ركبت في نفوسنا ونحن في عالم الذر، من قبل أن نخلق في أرحام أمهاتنا أصلا! وهي قضايا تدخل بجملتها في معنى الموجودات الذهنية والحقائق الذهنية كما هو واضح! فبأي وجه يقال إن الموجودات المادية أو الحسية هي التي أنبتت الموجودات الذهنية لدينا، فيكون جميع ما في الأذهان تبعا لما في المحسوسات من الأعيان؟؟ لا يستقيم ذلك إلا على دين الطبيعيين الدهرية الماديين نفاة الغيب الذين لا يرون العقل والمعرفة إلا جملة من الأنشطة النيورونية والمخية التي تتكون في كل دماغ تبعا لتجارب صاحبها الحسية وحسب!

والقصد أن الدكتور أقحم نفسه في قضية فلسفية سوفسطائية لا يدري يمينه من شماله فيها، إذ يحسب أنه يتكلم "بالعلم" لا "بالفلسفة"! يقول: "لقد شغلت قضية الحقيقة الموضوعية والحقيقة الذاتية (وما زالت) الفلاسفة لقرون عديدة، ولا يعنينا هنا الدخول في خلافات الفلاسفة، ولكن يعنينا علاقة الآلايات البيولوجية العصبية بنظرتنا للوجود وكذلك باستشعارنا للألوهية." اهـ. قلت: وهل يعد إثبات أو نفي العلاقة بين "الآليات البيولوجية المادية" وبين حصول الوجود الذهني والحقائق الذهنية عند البشر و"نظرتهم للوجود"، إلا ضربا من التفلسف ودخولا في تلك الخلافات الفلسفية القديمة بمذهب الطبيعية المنهجية الوضعية الذي أنت غارق فيه؟؟ هذه، أيها القارئ الكريم، من آفات الوضعيين الطبيعيين المعاصرين (ومن تبعهم من الطبائعيين من أهل الملل الأخرى)، يأتي أحدهم إلى مسائل عقلية وفلسفية محضة، يخوض فيها خوض الفلاسفة المبتدئين، على مذهب فلسفي ومعرفي فاسد هو لا يدركه ولا يدري بأنه غارق فيه، ثم يقول بكل سهولة: أنا لا أتفلسف ولا يعنيني خلاف الفلاسفة، وإنما جئتكم في المسألة بما يحسمها أخيرا من "العلم الحديث"! فلا عرف هذا ما العلم، ولا فهم ما الفلسفة، ولم يعدُ أن يكون مقلدا ذنبا يرى نفسه أستاذ الجيل ومفكر العصر، وإلى الله المشتكى!

ثم هل من النصح لله ورسوله والمسلمين أن يأتي من يزعم أنه داعية إلى الله تعالى يريد هداية الحياري والضائعين لسبيل الحق المبين، فيورد على قرائه قضية فلسفية سوفسطائية بالغة الخطورة على عقل المسلم ودينه، ثم يقول بكل سهولة "ولا يعنينا هنا الدخول في خلافات الفلاسفة"؟؟ لا يعنيك؟؟ فلماذا أوردت المسألة إذن ولماذا ذكرت النزاع، وما النفع المستفاد من ذكره؟؟ ما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

قال الدكتور ص. 260: "إن كل هذه الأشياء (يعني الموجودات المحسوسة في الخارج) وقدرتنا على تخيلها وكذلك المشاعر التي تصاحبها ما هي إلا نشاط كهروكيميائي، فإذا كنا سننكر أن ما نرصده في تجاربنا الروحية وجود حقيقي، لأنه مجرد نشاط كهروكيميائي، فسيكون علينا أن ننكر الموجودات السابقة باعتبارها أيضا (بالنسبة لنا) نشاطا كهروكيميائيا، فوجود كلا

الوجودين بالنسبة لنا هو رصد لما يقوم به الدماغ." اهـ. قلت: رجعنا إذن إلى إثبات وحدة الوجود التي "يرصدها" أصحاب تلك التجارب الروحية، على أنها "وجود حقيقي"! فهل يدرك الدكتور لأي الدعاوى ينتصر بهذا الكلام؟؟ ثم إن ما يُرصد في المخ في حالة شعور صاحب المخ بشيء ما، ليس دليلا في مجرده على مطابقة موضوع شعوره نفسه للواقع، وإلا لزم ألا نرصد شيئا في أمخاخ المهلوسين والحشاشين والمرضى العقليين، ونحن نعلم بالقطع وهاء وبطلان ما يزعمونه بشأن الواقع! فما الموقف إذا جوزت تلك المشاهدات على مواسح المخ (من حيث التأويل) أمرا تحيله ضرورات العقل وترده ضرورات الدين (وهو في هذه الحالة: صدق دعاوى هؤلاء الدراويش أنهم يرون كذا ويتصلون بكذا وكذا ويتحدون اتحادا حقيقيا مع ما يسمونه بالوجود المطلق)؟

أما قوله "فوجود كلا الوجودين بالنسبة لنا هو رصد لما يقوم به الدماغ" فهذا كلام مجمل فاسد! فإن كان المقصود بقوله "وجود كذا هو كذا" أي ما يثبت به وجوده وينتفي به عدمه في معرفتنا، فلسنا معاشر العقلاء ننتظر قراءات مواسح المخ حتى تدلنا على وجود العالم الخارجي المحسوس وجودا حقيقيا! وكذلك فلسنا ننتظرها حتى تدلنا على أننا نشعر بكذا وكذا! من زعم أنه يشعر بالسعادة أو النشوة أو صفاء النفس والذهن أو كذا، ولم يكن لدينا داع لتكذيبه، صدقناه، لأنه لا أحد أعلم منك أنت بشعورك بما تشعر به! فلو أنك اتصلت علي الآن وأخبرتني بأنك تشعر وكأنك تحلق في السماء فوق السحاب، شعورا تاما مستغرقا لجميع حواسك، لم أجد داعيا لتكذيبك في دعوى وجود ذلك الشعور لديك، وهو ما أتوقع أن أرى له أثرا في نشاطك المخي والعصبي بطبيعة الحال، إن قدرنا قياما بفحص مخك حال حصول الشعور لديك! أما مطابقة موضوع الشعور نفسه للواقع من عدمها، فقضية أخرى، لا تثبت ولا تنتفي بمجرد ذلك! فلربما عرفت أنك تتعاطى مادة مخدرة معينة توهمك بذلك الذي ذكرته توهما، فتشعر وكأنك تطير محلقا في السماء مع كونك جالسا في بيتك! ولربما كنت تخاطبني وأنت محمول في الهواء فعلا وتحقيقا، فيصدق شعورك إذن في مطابقته الواقع! والقصد أن الدعاوى الوجودية فيما يتعلق بما في الإدراك والوعي، فيها وجودان: وجود في الأذهان (يُحدث في الدماغ نشاطا يمكن رصده) ووجود مطابق له (موضوعا) في الأعيان، ولا يلزم من ثبوت الأول ثبوت الثاني، ولا من انتفاء الأول انتفاء الثاني!

وبهذا نرد على ما حرره الدكتور بعد ذلك من قوله:

وهذا يتركنا مع أحد احتمالين:

> الأول: أن التجارب الروحية التي نستشعرها ليست إلا نشاط كهروكيميائي للمخ، وليس لها وجود خارجي، ويشترك معها في ذلك الوجود المادي، لذلك فإن أنكرنا الأولى (التجارب الروحية)

ينبغي أن ننكر الثانية (الوجود المادي)! والثاني: أن للتجارب الروحية وجودا حقيقيا، وأن عقولنا قد زودت بالقدرة على إدراكه، مثلها في ذلك مثل الوجود المادي، لذلك إن أقررنا بالثاني علينا أن نقر بالأولى! وإذا كان العلم لا يستطيع الترجيح بين الاحتمالين، فإن تقنية كاميرا SPECT التي عرضناها تكون قد أمدتنا بطريقة جديدة للنظر إلى التجارب الروحية. إن حالة التسامي التي يتم الآن تسجيلها تصويريا، والتي يسميها صوفية المسلمين "وحدة شهود" (دون أي خروج عن العقيدة) ويسميها الآخرون "وحدة وجود"، والتي تحدثنا عنها في الفصل السابق، يصفها جميع من يعاينونها بكلمات تكاد تكون متماثلة، إنها حالة الوحي الخالص، إنها حالة من الشعور بأن الوجود شيء واحد لا تفاصيل فيه "وجود غيبي متوحد مطلق"، إنه شعور لا يمكن وصفه بالعقل، إن الوجود ليس موجودا وليس معدوما، إنها حالة لا زمان فيها ولا مكان، ولا إدراكات حسية ولا وجود مادي فيها.

قلت: فما معنى "الوجود الحقيقي" للتجارب الروحية؟؟ يتبين لك ذلك من قوله في الاحتمال المستبعد "إن التجارب الروحية ليست إلا نشاطا كهروكيميائيا وليس لها وجود خارجي"، فالمراد بالوجود الحقيقي إذن تصحيح موضوع تلك "التجارب" فيما يزعم أصحابها أنهم يتعرضون له من كشوف روحية غيبية! ليس فقط تصديقهم في زعمهم بأنهم يشعرون بانكشاف الغيب لهم، بل تصديقهم في زعمهم بأن الغيب ينكشف لهم على الحقيقة! وهذا ما لا نجد له تصريفا إلا أن يكون تصحيحا لعقيدة وحدة الوجود الوثنية التي لا يخرجون من تلك الأحوال إلا وهم غارقون فيها! ولهذا لا نملك إلا أن نضحك من قول الدكتور: "التي يسميها صوفية المسلمين وحدة شهود دون أي خروج عن العقيدة، ويسميها الآخرون وحدة وجود!" ونقول: إن كان المقصود بالعقيدة، عقيدة الصوفية الدراويش المفلسفة عباد القبور، فلا خروج على "العقيدة"! وأما إن كان المقصود عقيدة أهل السنة والجماعة، فليس عند أهل السنة "وحدة شهود" على هذا المعنى البوذي النيرفاني الذي لا يطلقها أحد من الصوفية إلا وهو يريده! وإنما نقبل قولهم "وحدة شهود" عندما يكون مرادهم منها أن العابد المسلم يوحد الله تعالى في مقصوده من كل عمل ويحقق الإخلاص وحسن المراقبة والإحسان، الذي يعني أن يكون في كل أحواله عابدا لله كأنه يراه، لا في حالة السكر والتأمل والهذيان هذه التي ما أنزل الله بها في دينه من سلطان! فالله تعالى لا يرضى لعباده أن تذهب عقولهم ولا أن يغيب وعيهم عن العالم، لا تعبدا ولا غيره! وكيف يكون من العبادات ما يذهب بالعقل إذا كان العقل هو مناط التكليف أصلا؟؟ يقول الدكتور: "ومن المدهش (والمتناقض) أيضا أن الوصول إلى هذه الحالة يتم عن طريق رحلة في أعماق الذات، وعند

الوصول إليها يكون هناك انعدام للإحساس بالذات! أي ينبغي استخدام العقل من أجل تجاوز العقل" اهـ.!
فأين يا من تزعم أن تلك الحالة لا تخالف الشريعة والعقيدة، تجد في كتاب الله أو سنة رسوله ما يدل على مشروعية استعمال العقل في إذهاب العقل نفسه وتجاوزه؟؟ وهل بعد العقل إلا السفه والخرف والجنون؟ نسأل الله السلامة!
ثم أي ترجيح يُطلب بين هذين الاحتمالين يا دكتور، من "العلم" أو من غيره، وقد جعلت أولهما التسوية بين الواقع الخارجي المحسوس والواقع الذهني في الانتفاء بالكلية، وفي كونهما نشاطا كهروكيميائيا في المخ لا أكثر؟؟ لا يملك القارئ إذن إلا أن يقبل الاحتمال الآخر الذي تركته محصورا بينه وبين الأول، وهو أن لموضوع "التجارب الروحية" وجودا حقيقا، تدركه العقول كما تدرك الواقع المادي الحقيقي (على المعنى الذي فهمناه من كلام الدكتور للوجود الحقيقي!)! وإذن لزم أن يكون ما يسميه القوم بالوجود المتوحد المطلق هذا حقيقة وجودية تدركها آلة المخ كما أن كل موجود محسوس في الخارج له وجود حقيقي تدركه نفس الآلة!
ولهذا ينتقل الدكتور في الجزء التالي إلى تناول ذلك "الوجود المتوحد المطلق" المزعوم، فيما ترجم له بقوله "الوجود الغيبي المتوحد المطلق تصوير عقلي أم حقيقة وجودية.." (ص. 261) فيقول: "ذكرنا أن علوم المخ والأعصاب تبين أن الشعور "بالوجود المطلق" – الوعي المطلق – العقل الكلي – وحدة الشهود – وحدة الوجود، مثله مثل الوجود المادي، تقف وراءه آليات عصبية بيولوجية سوية، ولا شك أن وجود هذه الآليات يؤكد أن هذه المشاعر ليست توهمات ولا هلاوس." اهـ. قلت: نفس المغالطة من جديد (في الاستدلال بنتائج المواسح المخية SPECT)، والتأكيد على أن وحدة الوجود (التي كان قد فرق بينها وبين وحدة الشهود قبل فقرة أو فقرتين من نفس الصفحة) هي وحدة الشهود، وهي نفسها الوجود المطلق الوثني وهي العقل الكلي الفلسفي .. إلى آخر ما يسميها به أهل الملل! وتأمل كيف قال في الصفحة التي تسبق هذه مباشرة إن "العلم" لا يستطيع الترجيح بين الاحتمالين، ثم يأتي في هذه الصفحة لينقض كلامه ويقول: "ولا شك أن وجود هذه الآليات يؤكد أن هذه المشاعر ليست توهمات ولا هلاوس، ولعله سيصبح من أعظم إنجازات علوم المخ والأعصاب أن تتوصل إلى معيار للحكم في هذه القضية، هل ما تخبرنا به عقولنا هو من توليد آلياتها العصبية أم أنها تنقله لنا عن وجود خارجي حقيقي." اهـ. قلت: تناقض في التأصيل وتناقض في التفريع واضطراب في المنهج ما بعده اضطراب، وضياع في الاعتقاد مبين! تأمل كيف يفتتح الصفحة الواحدة بتقرير ما، ثم يختتمها بنفيه، ثم يفتتح الصفحة التي تليها بإثباته، ثم يكرر إثباته في آخر الصفحة نفسها

بعدما نفاه هو نفسه في وسطها، وهكذا في كل صفحة من صفحات هذا الباب تقريبا!
وبالنظر إلى أن موضوعه في هذا الجزء (الوجود المتوحد المطلق) موضوع فلسفي محض، سوفسطائي محض، فلا نتوقع - من قبل أن نقرأه - إلا أن نجده إغراقا في السفسطة، من جنس ما ذكر قبل قليل أنه لا يريد الخوض فيه من خلافات الفلاسفة! فيبدأ أولا بالنظر فيما وضعه الفلاسفة من معايير للحكم على وجود شيء ما بأنه وجود حقيقي! ومع أنه يعلم أنه ليس من العقلاء من يفتقر إلى معيار كلي يأتي به من فيلسوف من الفلاسفة من أجل أن يحكم في كل مسألة من مسائل الإثبات والنفي الوجودي بما يناسبها من أنواع الأدلة، إلا أنه لا يجد مفرا من الإتيان بتلك السفسطة لأن مطلوبه نفسه مطلوب سوفسطائي محض! فيذكر أن أهم معايير الفلاسفة في التفريق بين الوجود الحقيقي والمتوهم، هو أن الوجود الحقيقي يبدو أكثر وضوحا من الوجود غير الحقيقي! ومع أنه من الواضح أن كلمة "أكثر وضوحا" مغرقة في الإجمال، فوق ما تعانيه كلمة "حقيقي" نفسها في هذا التقرير، وأن هذا "المعيار" لا ينضبط (على التسليم تنزلا بأن المسألة تفتقر إلى معيار فلسفي كلي مطرد)، إلا أنه يستند إليه لينصر القول "بحقيقية" الوجود المتوحد الذي يشعر به الصوفية في "تجاربهم الروحية"، فيقول: "وإذا أخذنا الأحلام كمثال، فإننا وإن كنا نستشعر أثناء الحلم كأن ما نراه عالم حقيقي، إلا أننا عقب استيقاظنا نستشعر أنه أقل وضوحا مما ندركه في حالة يقظتنا التي نعتبرها المقياس والمعيار للحقيقة. ينطبق نفس الشيء على أحلام اليقظة والهلاوس. وإذا حكمنا هذا المعيار، نجد أن الذين مروا بهذه التجارب الروحية (عبر التاريخ وعبر الجغرافيا) يخبروننا أن مشاعرهم ومشاهداتهم كانت أكثر حيوية ووضوحا وأكثر إقناعا من وجودهم المعتاد!" اهـ. قلت: الله أكبر! لا يهم ما في تلك المشاهدات المزعومة من كفر ووثنية هندوسية (كما وصفها به الدكتور نفسه في موضع متقدم) وحط على رب العالمين عظيم! المهم أنها كانت أكثر حيوية ووضوحا وإقناعا لأصحابها من وجودهم المعتاد، وإذن فعلى هذا المعيار الساقط السخيف يصبح المتعين علينا أن نصدقهم في زعمهم التوحد مع ذات رب العالمين واختراق حجب الغيب كلها، نسأل الله السلامة!
ثم يستشهد الدكتور بكلام بعض الطبيعيين الدهرية المعاصرين في بيانهم شعورهم بتلك الوحدة المزعومة حال تأملاتهم الطبيعية المحضة، ومنه قوله (ص. 262): "ويقول عالم فيزياء الكم الشهير شرودنجر عن الشعور بوحدة الوجود: إن حياة كل منا ليست وجودا منفصلا، إننا جميعا مكونات لوجود واحد. فعندما ألقي بنفسي على الأرض أحس أنني في رحم أمي، أنا منها وهي مني". اهـ. قلت: فهذا واحد من كبار علماء الكوانطم الملحدين يقرر لنا شعوره بوحدة الوجود (أو إن شئت فسمها بوحدة الشهود!)، فماذا بقي

بعد ذلك من حجة عند من ينكرونها؟؟ الله أكبر! بل "حتى العالم الملحد كارل ساجان" لا يجد مفرا من الاعتراف بهذا الشعور على لسان بطلته إيلي أرواي في قصته التواصل Contact"، قلت: بطلة من أبطال رواية كتبها الملحد كارل ساغان تعترف بالشعور بوحدة الوجود، فأي دليل أظهر من هذا على حقيقة "وحدة الوجود"؟؟

ثم يقول: "إذا كانت تجربة الشعور بالوجود الغيبي المتوحد المطلق تبدو لمن يعايشونها أكثروضوحا وأكثر حقيقية من الوجود الخارجي الموضوعي والوجود الداخلي الذاتي، فإن الذات الإنسانية بل والوجود كله لا يكون إلا جزءا من هذا الوجود الواحد. إن فهمنا لآليات عمل المخ وتمكننا من تصوير نشاط مراكزه يؤكدان أن هذا الوجود لا تقل حجيته عن العالم المادي الذي نعترف به. وإذا كان من الصعب تصور هذا الوجود الواحد المتسامي أو وصفه، فلا مفر من محاولة تذوق الشعور به، ولا يكون ذلك إلا بالحد من الانشغال بالذات وبالعالم المحيط كما ذكرنا في الفصل السابق" اهـ. قلت: وإذن فقد "أثبت العلم الحديث" صحة عقيدة وحدة الوجود الصوفية الفلسفية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثم يأخذ الدكتور في محاولة إثبات أن "الذات الإنسانية" ليست إلا سرابا ووهما على الحقيقة! فيقول: هذه الذات التي ينبغي أن نرتحل معها حتى يتم تجاوزها، كيف يبدأ شعورنا بها؟ إننا جميعا نبدأ الحياة بأمخاخ/ عقول ليس فيها شعور بالذات، وتتطلب نشأة هذا الشعور تكوين ونضج عدد من الدوائر العصبية في أمخاخنا." اهـ.

قلت: هذا إغراق في المذهب المادي الأحادي في فلسفة العقل Monism القائل بأن العقل والنفس لا حقيقة لهما إلا أن تكونا جملة من الدوائر العصبية في أمخاخنا! ولا يزال الدكتور في كل مناسبة في هذا الكتاب يقرن بين المخ والعقل هكذا (المخ/ العقل) أو (أمخاخ/عقول) وكأنهما شيء واحد! فليت شعري كيف يصنع الدكتور بقول الله تعالى: ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) [الحج : 46] وبقوله تعالى: ((وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)) الآية [آل عمران : 154] وبقوله تعالى في المنافقين: ((هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)) الآية [آل عمران : 167] وقوله تعالى: ((فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ)) الآية [المائدة : 52]، إلى غير ذلك مما لا يأتي فيه ذكر للقلب إلا جُعِلَ محلا للفقه والعقل والعلم والإيمان والنفاق .. إلخ؟ لن يتلقاه إلا بالتجهم والقرمطة يقينا! سيقول إن هذا كله مجاز جار على عادة العرب في نسبة هذه الأمور إلى القلب لا إلى الدماغ! قلت: وهذا باطل قطعا لأنه لو صح أن كانت تلك الأعمال النفسية والعقلية كلها

محلها الصحيح في الدماغ لا في القلب، لما جاء القرآن بخلاف الواقع لمجرد أن العرب كانوا يقولونه! والحق أننا لو قدرنا أن اتفق للطبيعيين في يوم من الأيام أن اكتشفوا في عضلة القلب – مثلا – نشاطا عصبيا كالذي في المخ، لما توقعنا إلا أن نرى هذا الذنَب التابع وأمثاله يرجعون لما أجمع عليه المسلمون من تأويل تلك الآيات بأن القلب هو المحل الحقيقي لعمل العقل وعمل النفس، يتبدل موقفهم إلى ذلك القول لا لأن المسلمين أجمعوا عليه، ولكن لأن الطبيعيين قد انتهوا أخيرا إليه، فإلى الله المشتكى وإنا لله وإنا إليه راجعون! صحيح إن الطفل الصغير يولد لا يعلم شيئا، ولكن لا يمنع ذلك من أن نفسه وروحه قد ركبت فيها تلك الفطرة التي إذا حصل له اكتمال المدارك الحسية واستواء المخ ومن ثم تعلم اللغة، أدرك تلك المعارف الفطرية في نفسه وأدرك كيف يعبر عنها بلسانه، وكيف يقبل مقتضياتها إذا عرضت عليه! ولهذا قال عليه السلام إنه ما من مولود إلا يولد على الفطرة! فلو صح مذهب الأحاديين الذي يراه الدكتور (مع أنه يثبت الروح كوجود غيبي في مواضع أخرى على عادته في الجمع بين القول وما يقتضي نقضه) لبطل هذا الحديث، إذ أين تكون الفطرة هذه منه إذن، إذا كان يولد بمخ ليس فيه شعور بالذات؟؟ وأي شيء تكون تلك الأنفس التي أخرجها الله من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم بربوبيته لهم في عالم الذر كما في قوله تعالى: ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)) [الأعراف : 172] وأين كانت أمخاخهم وشبكاتها العصبية في تلك الحال؟؟

فبعد أن يسوق الدكتور إلى قارئه نظرية مادية صرفة في مسألة تفسير نشأة الشعور بالذات لدى الصبية الصغار، يتحفه بنظريات الماديين – أيضا – في تفسير ظاهرة "الفناء الصوفي"، ثم يزينها بتأويل باطني لآية من كتاب الله، ويرى أنه بذلك قد جاء بفتح مبين، نسأل الله السلامة! قال (ص. 263):

> إن هذا السيناريو البيولوجي (الأرجح) لبداية الشعور بالذات يبرز عددا من المفاهيم: - إن الشعور بالذات "إظهار لشيء كامن إلى الوجود" – إن الذات ليست هي العقل، فالعقل هو الذي يمدنا بالمدخلات (مثل الضحك) التي تظهر الذات الكامنة – إن إغلاق المدخلات عن منطقة تربيط الإدراك OAA، كما في التجارب الصوفية، يؤدي إلى تلاشي الشعور بذواتنا، ولكن يظل العقل نشطا، ومن ثم نظل على وعينا، بينما تتلاشى ذواتنا (فناء الذات) ويتلاشى معها النظر إلى الوجود باعتباره الوسط المحيط (فناء المحيط)، فتكون النتيجة حالة من الوعي الخالص، المجرد من الشعور بالذات، والشعور بالآخر، ومن ثم يصير الوجود كليا متوحدا لا وصف له، لا

حدود له، بلا بداية ولا نهاية، بلا مكان ولا زمان، وإذا كان هناك بقايا من الشعور بالذات فقد يشعر المرء أن هذا الوجود هو ذاته الحقيقية. ويفهم بعض الصوفية المسلمين هذا المعنى من قول الحق عز وجل ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)) [النور : 39] فهم يرون أن ذواتهم كأعمالهم "سراب"، حتى إذا تمعنوا في النظر إليها تلاشت، عندها يجدوا الله عز وجل، أي عند تلاشي الذات ثَم الله عز وجل (ووجد الله عنده). وفي هذا المعنى يقول الكاهن البوذي Leslie Kuwamara "إن الطريق لتعرف حقيقتك هو فناء ذاتك"، ويقول الحكيم التاوي "ليبو Lipo" "إن التخلص من ذواتنا المتوهمة هو الطريق لمعرفة الوجود الحقيقي".

قلت: فالمفترض فينا الآن أن نسمع أن "العلم" (الأرجح!!) قد "أبرز" صحة هذا الخرف والهذيان، فنخر للأذقان مسَلّمين مذعنين، والله المستعان! قوله: "إن الشعور بالذات إظهار لشيء كامن إلى الوجود"، هذا محض أماني، فالقوم لا يثبتون شيئا كامنا أصلا، ولا غيب عندهم فيما وراء المخ! وإنما تكلفوا تلك التفسيرات المادية من أجل أن يجعلوا نشوء الذات الإنسانية في نفس الصبي الصغير كنشوء نوع البشر نفسه، عملية مادية طبيعية محضة! فكيف يكون كلامهم قد "أبرز" هذا المفهوم الغيبي الذي ذكره الدكتور، وما وجه ذلك؟ النظرية التي ذكرها الدكتور على أنها "السيناريو الأرجح" تقول إن شعور الإنسان بذاتيته واستقلالها عما حولها من الموجودات إنما يرجع ابتداؤه في نفسه إلى تفريق المخ بين الأثر المدرك لسلوكه، والأثر الناشئ عن سلوك غيره، من خلال تتبع تلك المسالك والآثار الداخلة إليه عبر حواسه! فهي تجعل الوعي تابعا للسلوك وليس والعكس كما تقتضيه البداهة! يسمع الصبي صوته يصدر عن تحريكه حنجرته فيعلم أنه صوته هو لا صوت غيره! والصواب الذي لا شك فيه أن مبدأ فرقان الصبي بين أفعاله وأفعال غيره، وآثار تلك الأفعال وآثار غيرها من أفعال الآخرين، هو أمر فطري جبلي غير مكتسب، إنما تكتسب القدرة المادية على إدراك المحسوسات في المخ والتفريق بينها بنمو الحواس وآليات الإدراك الحسي، فإذا ما دخلت مدخلات الحس، جرت لدى الصبي الصغير على ما هو مركب في فطرته ابتداء من فرقان جبلي بين الذات وغيرها، وبين آحاد الموجودات المحسوسة، لا أن الصبي ينتظر إدراك ثمرة قوله وفعله حتى يتعلم أن قوله هو قوله لا قول غيره، وفعله هو فعله لا فعل غيره! ولو كان الأمر كما زعموا، لما وجد الصبي أساسا في نفسه لمعرفة حدود نفسه وذاته، أين تنتهي وأين يبدأ ما سواها من الموجودات، بل ولما

عرف كيف يلتقم ثدي أمه ليتغذى منه وهو بعد مولود حديث الولادة لا يسمع شيئا ولا يبصر شيئا البتة (كما تفترضه نظريات القوم)!
على أي الأحوال، فقد التقط الدكتور تلك النظرية التي اقتحم بها أصحابها أمرا لا قياس له في تجربتهم البتة (أعني نشأة الوعي بالذات Self-Consciousness لدى الصبي الصغير) [40]، ثم أخذ يؤسس عليها ما لا علاقة لها به أصلا!
قوله: "إن الذات ليست هي العقل، فالعقل هو الذي يمدنا بالمدخلات (مثل الضحك) التي تظهر الذات الكامنة" قلت: يا دكتور تعريف العقل وتعريف الذات لا يستفادان من تلك النظرية كما هو واضح، وإذن، فمن حق قارئك أن يسألك من أين جئت بتلك التعريفات، وما معنى قولك "المدخلات التي تظهر الذات الكامنة"؟؟
قوله: "إن إغلاق المدخلات عن منطقة تربيط الإدراك OAA، كما في التجارب الصوفية، يؤدي إلى تلاشي الشعور بذواتنا، ولكن يظل العقل نشطا، ومن ثم نظل على وعينا، بينما تتلاشى ذواتنا (فناء الذات) ويتلاشى معها النظر إلى الوجود باعتباره الوسط المحيط (فناء المحيط)، فتكون النتيجة حالة من الوعي الخالص، المجرد من الشعور بالذات، والشعور بالآخر، ومن ثم يصير الوجود كليا متوحدا لا وصف له، لا حدود له، بلا بداية ولا نهاية، بلا مكان ولا زمان، وإذا كان هناك بقايا من الشعور بالذات فقد يشعر المرء أن هذا الوجود هو ذاته الحقيقية." قلت: كل هذا يشعر به من يشعر به وهو يعلم أن مخه يتوهمه وهو جالس في محله، فمهما استغرق في ذلك الشعور، فهو كالذي يشعر وكأنه يحلق في السماء وهو يعلم أنه في محله على الأرض، أو كالذي يلبس – مثلا – عدة الواقع الافتراضي VR Gear فينخرط في واقع افتراضي يستوعب ويستغرق كل حواسه Deep immersion وهو مع ذلك يعلم أنه توهم وليس بحقيقة، وأنه بمجرد أن يخلع تلك العدة من على رأسه فسيرجع كل شيء إلى نصابه الصحيح! ولكن لأن أولئك الاتحاديين المخرفة حريصون غاية الحرص على إقناع أنفسهم وغيرهم بأن ما تفضي إليه تأملاتهم العميقة من توهين شعورهم بالواقع الخارجي، يرجع سببه الغيبي إلى اتصال حقيقي بجميع الموجودات واندماج بها، وليس الأمر مجرد شعور وكأنه كذلك، تراهم يصدقون أنفسهم ويتكلمون بما مفاده أن ذواتهم وأجسامهم قد "تلاشت" بصورة مؤقتة وأن العالم من حولهم قد اندمج معهم على الحقيقة! فعندما "يصير الوجود كليا متوحدا لا وصف له، لا حدود له، بلا بداية ولا نهاية، بلا مكان ولا زمان" على حد عبارة الدكتور، فلابد أن يكون العاقل الذي يتعرض لذلك الشعور قاطعا جازما بأنه وهم لا حقيقة له، مهما وقع له من حس وشعور، لأن افتراق الموجودات بعضها عن بعض، وامتياز ذاته عنها، لا سيما عن خالق السماوات

والأرض جل شأنه، هو أمر بدهي فطري معلوم بضرورة العقل! فهذا الذي يمر بتلك الأحوال في ذهنه ويتعرض لها، يعلم في باطن نفسه بمقتضى الفطرة والبداهة أنه واهم وأنه لا حقيقة لما يرى، ولكن لأن أهواءه تحمله حملا على القبول والتصديق، فلن تراه إلا قائلا بذلك الخرف! ولو أننا فتحنا الباب لشعورنا وتأملنا الفردي ليوهمنا بصحة أمور نقطع ببداهة العقل وضرورته ببطلانها، لما كان أحد أحق ولا أليق باسم الجنون وذهاب العقل منا، والله المستعان! والعجيب أنه لا يزال عامة الناس (من غير الصوفية) يستعملون لفظة "المجذوب" كمرادف للفظة "مجنون"، أو ذاهب العقل، ومع ذلك يجعل الدكتور همه في هذا الكتاب أن يقنعنا بأن المجاذيب هؤلاء في غاية الكمال من العقل على الحقيقة، بل قد بلغوا من العقل منتهاه، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

قوله: "ويفهم بعض الصوفية المسلمين هذا المعنى من قول الحق عز وجل ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)) [النور : 39] فهم يرون أن ذواتهم كأعمالهم "سراب"، حتى إذا تمعنوا في النظر إليها تلاشت، عندها يجدوا الله عز وجل، أي عند تلاشي الذات ثَم الله عز وجل (ووجد الله عنده)" قلت: هذا والله من أقبح من أنت راء كذبا على الله واجتراءً على القرآن! الآية ظاهرة واضحة في إحباط كافة أعمال الكفار في الدنيا، وأنها لا تنفعهم ولا تجزئ عنهم شيئا يوم القيامة مهما عظمت ما داموا قد هلكوا على الكفر! فيشبه جل شأنه قدومهم على أعمالهم يوم القيامة بالمسافر في الصحراء يرى السراب في الأفق فيرجو أن يجد فيه ما يروي ظمأه إذا وصل إليه، فإذا انتهى إليه لم يجده شيئا، وهلك على ظمئه، فكذلك الكافر لا يجد عمله شيئا لأنه ما طلب بشيء منه الجزاء من ربه ولا قال يوما من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين، بل يقدم على ربه بعد عمر أفناه في العمل وطول الأمل، فيحاسبه على كفره جزاء وفاقا! هذا هو معنى الآية بإجماع المسلمين! وهو معنى من الظهور والجلاء بما لا يُلجأ معه إلى كتب التفسير حتى أقل العامة في زماننا هذا حظا من اللسان العربي [41]، ومع ذلك يستحسن الدكتور تأويلا باطنيا عجيبا لا أدري من أين التقطه ولا كيف استحسنه، والله المستعان! بأي دليل يا دكتور يقال إن الله تعالى أراد بأعمال الكفار هنا، "ذوات العارفين"، وأراد بوجدان الله تعالى عند السراب، انكشاف الذات الإلهية للعارفين المزعومين حال الفناء؟؟ على هذا يصبح لكل أحد أن يخترع لكل آية من المعاني ما يحلو له، وذلك هو منتهى الزندقة! وهل يعقل – أصلا – أن تكون الآية في وصف أحوال أقرب الأولياء إلى الرب سبحانه (كما يزعمون أنها منزلتهم عند الله)، ويكون اللفظ فيها، مع ذلك، وصفا لأعمال أبعد الخلق

عنه وأبغضهم إليه؟؟ ينزل القرآن بلفظ ما ويكون المراد الحق نقيضه أو نحوا من نقيضه؟؟ ويحكم يا هؤلاء أما تستحيون؟؟ وعند الدكتور أن الآية ليست في وصف أحوال الصوفية المنتسبين إلى ملتنا وحسب، بل إنها كذلك تقرر قدوم "المتأملين الروحانيين" على الله واستقباله إياهم وانكشافه لهم جميعا وفناءهم فيه على السواء، بصرف النظر عن دينهم واعتقادهم فيه، وإن كانوا كهنة بوذيين أو حكماء طاويين!! فأي زندقة أعظم من هذا؟؟ سلم يا رب سلم!

وأخيرا ينتهي الدكتور إلى بناء الاعتقاد في ذات الرب وصفاته على ما قدم به من كلام في الفناء الصوفي ومن كون "الوجود المتوحد المطلق" المزعوم هذا أمرا وجوديا حقيقيا، فيقول تحت عنوان "مع الألوهية: من سمات الألوهية":

> تتفق ديانات الشرق والغرب في أن من أهم سمات الألوهية "العجز عن إدراك حقيقتها" The Unknowableness، وعبر عن ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه بقوله "العجز عن الإدراك إدراك" [42]. وبالرغم من اتفاق الديانات في هذا المفهوم، فإنها تختلف في النظرة إلى الإله، فبينما تنظر إليه ديانات الشرق الأقصى باعتباره "قوة" مطلقة، نجد اليهودية والمسيحية تبالغان في "تجسيده" في هيئة قريبة من البشرية. أما في الإسلام، فالله موجود "متمثل" أي له وجود حقيقي وله أسماء وصفات ولكنه غير متجسد، وليس من عالم المادة لكنه متصل به، وله غاية من خلق الوجود والإنسان، لذلك يتواصل معنا من خلال الرسل والكتب السماوية. وفي نفس الوقت، فإن تصوير الله عز وجل في هيئة منعزلة عن الوجود، إنما هو انتقاص من الكمال المطلق للإله. لذلك يقول القرآن الكريم عن الله عز وجل ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير))، أي أن القرآن نزه الله عز وجل عن أن يكون كأي شيء من الأشياء (ليس كمثله شيء)، وفي نفس الوقت يثبت له عز وجل صفات كالتي نستخدمها عند الحديث عن الإنسان (وهو السميع البصير) مع الاختلاف كيفا وكما)، وفي هذا الوصف المزدوج يقول الصوفية (تنزيه وتشبيه).

قلت: أولا، لا يجوز هذا الإطلاق المجمل Unknowableness في حق الرب سبحانه، الذي نقله الدكتور من بعض كتب الغربيين وترجمه إلى "العجز عن إدراك حقيقة الألوهية"! فالتفصيل أن الإنسان يعلم صفات ربه على المعاني التي جاء بها الوحي، ويجب عليه أن يعلمها، كما أنه يجب عليه أن يتعلم كيف يتأله ربه كما يحب سبحانه ويرضى، يوحده توحيد الألوهية، وأما الذي لا يدركه الإنسان ولا يجوز له السؤال عنه فهو كيفية الصفات، وليس "حقيقة

الألوهية"! فلا يجوز ذلك التخليط في المصطلحات عند الكلام على رب العالمين! صحيح إن الحقيقة هي الكيفية عند أهل العلم بدين الله تعالى، إلا أن الألوهية على اصطلاحهم هي أفعال التأليه من جهة العبد، أي هي ما يوصف به العبد حين يتخذ لنفسه إلها، وأما صفات الرب سبحانه الموجبة لتأليهه فهي ما يقال له عندنا "الربوبية"! وقد كان التخليط في المصطلحات الشرعية عند الكلام عن الله تعالى سببا في كثير من الطوام عند جملة من المفكرين العقلانيين المعاصرين الذين دمروا أجيالا من شباب المسلمين، أمثال سيد قطب ومحمد قطب وغيرهما، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثانيا: من أين لك بأن ديانات الشرق والغرب تتفق في هذا الذي زعمت بهذا الإجمال أنهم يتفقون عليه؟؟ ثم سلمنا بأنها تتفق، فكان ماذا؟ هل أنت داعية للدين الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، أم لما اتفقت عليه الأديان؟! نسأل الله السلامة!

ثالثا: قوله: "أما في الإسلام، فالله موجود متمثل أي له وجود حقيقي وله أسماء وصفات ولكنه غير متجسد، وليس من عالم المادة لكنه متصل به، وله غاية من خلق الوجود والإنسان، لذلك يتواصل معنا من خلال الرسل والكتب السماوية" اهـ. قلت: لا يجوز الإخبار عن الله تعالى بالمجملات! ما معنى "موجود متمثل"؟؟ يقول: أي له وجود حقيقي وله أسماء وصفات ولكنه غير متجسد! فما معنى "متجسد" هذه التي تنفيها بكل أريحية؟؟ ولو قلنا لك إنه قد ثبت في نصوص الوحيين أن لله وجها وعينا ويدا وأصابع، تقبل ذلك منا أم ترده على أنه "تجسد"؟؟ على جهمية الدكتور، الجواب معروف! ثم ما معنى "متصل بعالم المادة"؟؟ هل الاتصال هنا بمعنى التداخل والتمازج، بحيث إن قلنا لك إنه منفصل عنه بائن منه رددت ذلك علينا، أم المراد بالاتصال غير ذلك؟؟

رابعا: قوله: "وفي نفس الوقت، فإن تصوير الله عز وجل في هيئة منعزلة عن الوجود، إنما هو انتقاص من الكمال المطلق للإله." قلت فمرة أخرى نقول ما المقصود بالاتصال وما المقصود بالانعزال؟؟ فبالنظر إلى ما تقدم من الدكتور تقريره من القول بوحدة الوجود، هل نفهم أن الانعزال المنفي هنا المقصود منه البينونة الذاتية عن الخلق والعلو عليهم؟ يأتي الدكتور بعد ذلك بآية الشورى (ليس كمثله شيء) بما يشعرنا بأنه يثبت معنى السمع والبصر لله إثباتا حقيقيا على الكيفية اللائقة بذاته سبحانه، كما يثبته له أهل السنة! ولكن يتبين لك بمواصلة القراءة، وبما تقدم نقله من تصريحه بالتعطيل، أن الأمر في دين الدكتور ليس كذلك على الحقيقة!

قال الدكتور تحت عنوان "التواصل المباشر مع الإله": "إن ما يصفه الصوفية والفلاسفة وأثبته العلم عن الوجود الغيبي المتوحد المطلق، هو المستوى الأعلى من الوجود، الذي يختفي فيه التمايز والكثرة، ويستشعِره

المرء عند تلاشي إحساسه بذاته وبالوجود المادي، وقد يكون ذلك أحد معاني قول الحق ((ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر)) (التكاثر: 1، 2) أي أن رؤية الكثرة في الوجود المادي قد شغلتنا عن رؤية الوجود الغيبي المتوحد." اهـ. قلت: فهل تعدد صفات الله تعالى ينتفي أيضا في "الوجود الغيبي المتوحد المطلق" هذا أم يظل لكل صفة استقلالها الوجودي وتميزها عما سواها من صفات الإله عندك؟ إن قلت يظل لكل صفة استقلالها الوجودي الحقيقي، فليس السمع هو عين البصر، وليس البصر هو عين الكلام، وليس الكلام هو عين النزول أو الاستواء أو العلو .. إلخ، أبطلت بذلك معنى التوحد المطلق هذا، لأن أصحاب تلك التجارب مجمعون على أن "الوجود المطلق" الذي يشعرون به ليس له صفات أصلا، ولا يمتاز فيه شيء عن شيء! ولهذا لا أحسبك إن أردت أن تجيب عن هذه المسألة إلا أن تقول كما قاله من نقلت عنهم ذلك الاعتقاد (كنيوبورغ وأرمسترونغ وغيرهما) أن تلك الصفات كلها إنما هي مجاز وتقريب للمعنى، وليست معانيها على ما يتبادر إلى الأذهان في الحقيقة!

ثم إن قول الله تعالى ((ألهاكم التكاثر)) لا علاقة له البتة عند المسلمين بما تأولته به في قرمطة جهمية فجة! التكاثر هنا يا دكتور المراد منه جمع المزيد من ملذات الدنيا، كما في قوله تعالى: ((اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)) [الحديد : 20] فهو يلهي الناس عن عبادة الله تعالى حتى يزوروا المقابر! ولو كان المعنى الذي تريده هو المطلوب، لقال: "ألهتكم الكثرة" أو "توهمتم الكثرة" أو نحوا من ذلك، وليس "ألهاكم التكاثر"! ولكن من الذي يبالي؟؟ أليست الآية فيها معنى "الكثرة" بعموم، وأنها تلهي الناس؟؟ فلنأت بها إذن دليلا على أن "الاندماج الروحاني مع الوجود المتوحد المطلق" هو المخرج وطريق السلامة من ذلك اللهو!

ويتكلف الدكتور في هذا السياق ما يتوهم أنه نفي للانكشاف الكلي لذات الله عز وجل للصوفية في تأملاتهم البوذية، يريد أن ينزه الله عز وجل عن أن تنكشف ذاته العلية في معامل الطبيعيين لأولئك الوثنيين الذين أجرى عليهم نيوبورغ وأصحابه تجاربهم، فيثبت ما أراد أن ينزهه عنه ويضيف إليه طامة أخرى هي شر من أختها، إذ يقول (ص. 266): "بل نقول إن هذا التسامي الروحي والشعور بالوجود الغيبي المتوحد المطلق الذي يستشعره المتصوفون في جميع الديانات هو معاينة لله عز وجل (حاشا لله)، لكنه شعاع من النور يعرفنا بوجود النجم المتفجر، وفي نفس الوقت، يؤكد أن أصل الديانات واحد. وإن كان كل امرئ يستشعر هذه الحقيقة تبعا لمعتقداته، فيستشعرها المسلم باعتبارها الله عز وجل، ويستشعرها المسيحي باعتبارها المسيح، والبوذي باعتبارها العقل المطلق، ويكون ذلك

بالنسبة لكل منهم دليلا مطلقا على صحة عقيدته، فكل منهم قد عاين ما يعتقد أنه إلهه." اهـ.
قلت: أولا: قوله "لكنه شعاع من النور يعرفنا بوجود النجم المتفجر" هذا ليس فيه نفي لرؤية الذات الإلهية أو معاينتها، وإنما هو أسلوب أدبي متنطع لا يفهم منه إلا أن الذي يعاينه هؤلاء وإن لم يكن هو جميع الذات، إلا أنه شيء من صفاتها الذاتية، قد مثله وشبهه بالنور المنبعث من النجم! [43]
ولكن لا يخفى أن نفي معاينة الله مع إثبات معاينة شيء من صفات ذاته تناقض، لأن صفات الذات من الذات، وأنت عندما ترى وجه رجل ما من غير أن ترى بقية جسده فإنك تكون قد رأيته وعاينته على الحقيقة، كما نؤمن نحن المسلمين بأن وجه الله تعالى (ولله المثل الأعلى) يكشف للمؤمنين في الدار الآخرة للمؤمنين، فلا يحيطون بذاته جل وعلا وإنما ينكشف لهم شيء من صفاتها الذاتية! فهل يقال في ذلك إلا أنهم يرونه على الحقيقة؟؟ والقصد أن الدكتور حاول أن يتحذلق بأسلوب أدبي حتى يخرج من المأزق فلم يستطع!
ثانيا: قوله "وفي نفس الوقت، يؤكد أن أصل الديانات واحد" هو الطامة الأخرى التي أضافها إلى مصيبة انكشاف الذات الإلهية، فما زاد الطينة إلا بلة! فمن شدة إصراره على جعل تلك التجربة الوثنية الشيطانية انكشافا حقيقيا لشيء من صفات الرب سبحانه، تلبس الرجل بتصحيح أديان المشركين والوثنيين كافة كما هو لازمه الذي لا انفكاك له منه! والظاهر أنه تنبه لما في ذلك من كفر محض، فحاول أن يلتمس أسلوبا لصياغة المسألة يخرجه من تلك المصيبة! فلا أدري من الذي أوهمه بأنه لو قال إن "أصل الديانات واحد" فإنه بذلك يسلم من تصحيح كافة أديان المشركين؟! فلا يخفى أنك عندما تقول إن "أصل الديانات واحد" وأنت تريد بذلك تصحيح موضوع الكشف الصوفي الذي يزعمه أهل الملل الوثنية والشركية لأنفسهم (أنهم رأوا رب العالمين سبحانه، بصورة ما أو بأخرى)، فهذا لا فرق بينه وبين أن تقول: "إن الديانات كلها توصل إلى الولاية الخاصة لرب العالمين"، إلا التلبيس بالعبارة الأولى وإلى الله المشتكى! ولهذا لا يجد الرجل بدا من أن يواصل فيقول "وإن كان كل امرئ يستشعر هذه الحقيقة تبعا لمعتقداته، فيستشعرها المسلم باعتبارها الله، ويستشعرها المسيحي باعتبارها المسيح، والبوذي باعتبارها العقل المطلق، ويكون ذلك بالنسبة لكل منهم دليلا مطلقا على وصحة عقيدته، فكل منهم قد عاين ما يعتقد أنه إلهه". اهـ.
قلت: فما دينك أنت وما اعتقادك؟ هل تعتقد أن الذي عاينوه هو رب العالمين حقا كما يزعمون جميعا على اختلاف مللهم؟ أم تكذبهم جميعا إلا المنتسبين إلى قبلتنا؟ هم يعدون ذلك دليلا مطلقا على صحة عقيدتهم، فأي شيء تعده أنت؟ كل منهم يعتقد أنه قد عاين إلهه، فما اعتقادك أنت في

حقيقة ما عاينوه؟؟ إن قلت إنهم كلهم قد عاينوا نفس الشيء على الحقيقة، فقد جعلت الله تعالى بذلك هو المسيح ابن مريم، وهو العقل المطلق البوذي وهو وثن كل مشرك، وهذا هو الكفر المحض قولا واحدا! وإن قلت إنهم كلهم واهمون لا يرون إلا هلاوس أو تخييلات شيطانية، إلا المنتسبين منهم إلى الإسلام، لزمك إسقاط الاستدلال بتجارب ومشاهدات نيوبورغ وغيره على ما تريد من حيث المبدأ نفسه، فتأمل!
لاحظ، أيها القارئ الكريم، أن الدكتور كان ينقض في آخر الصفحة ما أسسه في أولها، وهنا وصل الأمر به إلى أن صار ينقض في نهاية الفقرة الواحدة ما أسسه في أولها، والله المستعان! فهو يقول في أول الفقرة "لا نقول إن التسامي الروحي هو معاينة لله (حاشا لله)"؟! ثم يقول بعدها بثلاثة أسطر بالعدد: "فيستشعرها المسلم باعتبارها الله عز وجل"، فأي شيء هذا إن لم يكن نقضا لما أسسته أولا؟؟

ينتقل الدكتور بعد ذلك إلى قسم جعل عنوانه "بيولوجيا إدراكنا للألوهية"، ثم أخذ فيه يأتي بنظريات الطبيعيين المعاصرين في علوم الأعصاب وغيرها في تتبع الأنشطة المخية والعصبية المرتبطة بالاعتقادات والميول والمشاعر والأقول الدينية المختلفة، يصححها كلها دون أن ينتبه إلى ما يقتضيه ذلك من تحويل الدين والإيمان الذي هو عمل روحي محله القلب، إلى عمل مادي صرف محله المخ والشبكات العصبية! وإذن يصبح الكفر والإلحاد مرضا مخيا عصبيا، يجوز أن نرجو في المستقبل أن يأتي الباحثون البولوجيون بعلاج عضوي له (أو على دين الطبيعيين، يصبح مبدأ التعلق بالدين نفسه، مرضا يرجى علاجه بالعقاقير أو صدم المخ كهربيا)! وما أسهل أن يضغط الداعية على زر ينشر إشعاعا ما في الجو أو غازا ما أو سائلا يضعه للناس في شرابهم، وإذا بهم قد أصبحوا جميعا مؤمنين كإيمان أبي بكر وعمر!! فلا ندري والله أنضحك أم نبكي من هذا الهذيان ومن متابعة الدكتور لأصحابه عليه!
يا دكتور، الدين والمعتقد الديني وعمل القلب في العبادة وتقلبه في الأهواء وتحوله من ملة إلى ملة، هذا كله إنما هو عمل قلبي روحي غيبي محض، فإن قدر أن تلازمت بعض الأعمال القلبية مع آثار عضوية لتلك الأعمال في مواضع معينة من المخ، لم يصح اعتقاد ترتب الأعمال القلبية نفسها سببيا على تلك التغيرات في المخ، وإنما لابد وأن العكس هو الصحيح بالضرورة! هذه مسألة تدل عليها الفطرة والبداهة، فكل عاقل يجد في نفسه بجلاء أنه لم ينته إلى الاعتقاد الذي انتهى إليه بسبب عضوي ما! ولكن لأنه تربى عليه في الصغر أو اختاره لنفسه عند الوعي والتمييز! فإن اختار أن يغيره ويتحول عنه، لم يكن ذلك راجعا إلى سبب عضور كيميائي أو غيره، كما يعرف ذلك من نفسه بداهة ويقينا، وإنما يرجع إلى أمر معنوي غيبي ينقدح

في قلبه! ولو صح أن كان السبب عضويا على التحقيق، لأرسل الله رسله بخلاف ما بعثهم به من الهداية العقلية الذهنية المعنوية، بل لبعثهم بأساليب العلاج البيوكيميائي! ولكن لو صح أن كان الأمر كما يقولون، لما كان من فائدة للتفاهم والكلام والمناقشة والمباحثة بين البشر، وإنما يفرض على الناس فرضا أن يغيروا أفكارهم وميولهم واعتقاداتهم، من طريق المعالجة بمركب كيميائي أو بإشارات كهرومغناطيسية على مواضع في المخ!

ونقول مهما بحثت عند الطبيعيين في مسألة العلاقة بين العقائد والأقوال والأفعال الذهنية والقلبية الدينية من جهة وبين المخ ودوائره العصبية من جهة أخرى، فلن تجد فيما بين أيديهم إلا إثبات التعلق الظرفي correlation بصورة ما أو بأخرى، على ضعف ظاهر Spuriousness واشتباه كبير، وعلاقات في أكثرها لا تبلغ حتى أن تكون تعلقا ظرفيا صحيحا، بالنظر إلى ما في منهج النيولرولوجيين من اختزالية بالغة في نظرية الشبكات العصبية أو المراكز العصبية نفسها (يعني في مجرد الفرض بأن نشاط المخ إنما هو تواصل كهروكيميائي بين المراكز العصبية Synapses)! فإذا كان معلوما أن التعلق الظرفي لا يقتضي السببية Causation، فكيف والتعلق الظرفي نفسه غير مسلّم، ثم كيف والسببية على التصور الدهري الأحادي Monist Worldview للعلاقة بين المخ والعقل، فاسدة لا تصح ولا تقبل، وتقوم على ميتافزيقا الدهريين وطبيعيتهم المنهجية؟ فهذا المسلك في الحقيقة (استعمال البحث في العلاقات العصبية المخية Neuroscience في دراسة العمل العقلي عند أتباع الملل المختلفة فيما يتعلق بالدين) هو من أسخف وأفسد ما عند الطبيعيين من علوم زائفة Pseudoscience، وإن رغمت أنف الدكتور عمرو! وأسخف وأفسد منه ولا شك، تلك البدعة التي اخترعها أندرو نيوبورغ في كتابه وسماها بالثيولوجيا العصبية Neurotheology، التي ظن الدكتور بالغلط – وكما حرره في مختتم الفصل - أنها هي هذا الصنف من الأبحاث الذي يدرس المواطن المرتبطة بالأفعال والأقوال والمشاعر الدينية في مخ الإنسان! هذا يسمونه نيورولوجيا الدين Neurology of Religion وليس الثيولوجيا النيورولوجية! الثيولوجيا العصبية هي ما تكلفته أنت يا دكتور في كتابك الخبيث هذا، حتى انتهيت إلى نظير ما انتهى إليه نيوبورغ في كتابه من تصحيح أديان المشركين وتصحيح نسبة مزاعمهم بشأن الغيب في "تجاربهم الروحية" إلى رب العالمين، نسأل الله السلامة!

قال الدكتور (ص. 266): "إذا طلبت من طفل في أي مكان في العالم أن يرسم صورة للإله، فغالبا سيرسم رجلا مسنا ذا لحية بيضاء طويلة، كالذي رسمه مايكل أنجلو في سقف كنيسة السيستين، ومع التقدم في السن يكتسب الإنسان القدرة على التجريد، فيعبر الكبار عن الإله بصور متعددة، فيرسمون سحابا أو دوائر، أو انفجارات شمسية وأحيانا مرايات." اهـ.

قلت: بهذا الهراء، يتوصل من نقل عنهم الدكتور إلى القول بأن تجريد الرب سبحانه من كافة المعاني المشتركة بينه وبين البشر De-personalization هو غاية النضج العقلي وكمال الفكر! بل وأكمل منه وأبلغ في "النضج" و"الاستنارة"، الانتهاء – أخيرا – إلى نفي وجوده بالكلية، والله المستعان!
فنقول: يا هؤلاء لا يطلب من طفل أن يرسم صورة للإله إلا كان مجرد الطلب إفسادا لعقيدته وفطرة التوحيد لديه! فإنه يقينا لن يكون للرب صورة ولا هيئة ولا كيفية معينة في نفسه حتى يحصل منكم أنتم إلزامه بأن يتخيل له صورة ما، يجيب بها طلبكم، فحينئذ، وحينئذ فقط لا قبل ذلك، يقيس الصبي المسكين حتى يجد ما يرسمه! ولهذا لا نكتفي بأن نقول إن هذا الصنف من الأبحاث – إن قدر وقوعه فعلا – باطل بطلانا قطعيا في دلالته على أن "الأطفال" (هكذا) يتصورون الرب على تلك الصورة، بل نقول كذلك إنه بحث لا أخلاقي، يفسد دين المبحوث وعقله، والله المستعان! وأما الكبار ممن يطلب منهم الطلب نفسه، فهم كذلك يجدون أنفسهم مضطرين لتكلف إخراج صورة ما من أذهانهم لذات الرب من غير أن يكون قد سبق منهم ذلك، بيد أنهم قد ينتبهوا إلى ما لم ينتبه إليه الصبي من امتناع أن تكون يد الرب على هيئة يد الإنسان، ووجهه كوجهه، وساقه كساقه وعينه كعينه .. إلخ، فيميلون عن القياس على جسم الإنسان إلى القياس على غيره! فهم متلبسون بالقياس لا محالة، ما داموا قد تكلفوا تصوير ذات الرب سبحانه! فليس في الأمر نضج ولا نمو عقلي ولا شيء من ذلك، وإنما هي فطرة يلوثها الباحث في الصبيان والكبار على السواء، مع اكتشاف شيء من الانتباه والتحرز عند الكبار لا غير! والواجب تربية الصبية الصغار على ما يصقل فيهم فطرتهم ويبعدهم عن القياس في الغيبيات مطلقا، فضلا عن الإلهيات، لا أن يعطوا ورقة وقلما ويقال لهم ارسموا لنا ربكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!
قال الدكتور "بذلك (يعني بتعلم الطفل الدين) يدخل الأطفال عالما جديدا، يستوي الله على قمته، ويعمل المخ بهمة ونشاط لترسيخ المفاهيم الجديدة، فتتشكل دوائر عصبية جديدة، وتمحى دوائر أخرى، وتبرز تفاعلات عصبية ذات وصلات عديدة." اهـ. قلت: إلى هذا الحد الكلام صحيح لا غبار عليه، ولكنه يثبت بطلان منهج النيورولوجيين الطبيعيين في جعلهم وجود تلك الدوائر في المخ هي السبب في وجود الاعتقاد الفلاني لدى هذا المبحوث أو ذاك وليس خلافه من المعتقدات! فلا شك أن السلوكيات الحسية التي تترتب على كل اعتقاد تختلف باختلافه، ومن ثم تختلف الدوائر العصبية التي تنشأ في المخ تبعا لذلك الاعتقاد، كأن يصبح المؤمن – مثلا – مائلا للشعور بالراحة واستكانة النفس عند سماع القرآن، خلافا للملحد الذي يصبح مائلا للغيظ والنقمة وغير ذلك من أمور لها بطبيعة الحال آثار عصبية وحسية

مخالفة تمام المخالفة لما يكون عند المؤمن! ولكن من الواضح أن تلك الأنماط العصبية والعادات السلوكية والشعورية والمزاجية المرتبطة بها في المخ، إنما تتغير تبعا لتغير الاعتقاد في النفس، وليس العكس! وقد يكون الإنسان مضطرا لمغالبتها مغالبة شديدة عند انقداع الدافع في قلبه لتغيير معتقده، كأن يضطر – مثلا – إلى تغيير عادة التدخين بعدما انتصر على هوى نفسه في استحسانها، فيقابله في مخه أنماط عصبية معينة كانت تحمله بصورة عفوية من فرط الاعتياد، على إشعال السيجارة كل صباح وكل ليلة! فإذا حملته تلك الأنماط العصبية على مزيد من التلبس بتلك العادة، غالب نفسه على مخالفتها حتى تذوب تلك الأنماط بصورة تدريجية وينشأ غيرها في محلها! ولهذا تشق بعض العبادات (كالوضوء مثلا) على من يتكلفها لأول مرة من غير سابق عادة، وتسهل للغاية بل وتصبح سجية وعادة عند من لا يتصور لنفسه حياة بدونها! ولهذا أثبت علماؤنا كراهتين في النفس لا يلزم أن يستويا في المؤمن: الكراهة الطبعية والكراهة الشرعية! فالطبع ابتلاء كما أن الميل والهوى الذي ينشئه في النفس ابتلاء قطعا! ذلك أن المخ إذا انطبع على طابع ما وعادة ما، لم يسهل تغييرها (لا سيما مع طول المكث على تلك العادة)، ولكنه لا يمتنع، ولا يكون التغيير إذا وقع تبعا لأسباب مادية عضوية، بل يجب أن يكون الدافع منقدحا في محل ما خارج عن المخ وعن الجهاز العصبي نفسه بالكلية، خلافا لما يعتقده الطبيعيون الدهرية!

قال الدكتور (ص. 268): "تمتد الدائرة القفوية الجدارية Occipito – parietal Cirvuit بين فصي المخ القفوي والجداري، وهي التي تشعرنا أن للإله وجودا حقيقيا خارج أدمغتنا". اهـ. قلت: قوله "هي التي تشعرنا" هذا فيه إجمال غير مقبول! فالإشعار إن كان المراد به قيام الاعتقاد في النفس، فذلك لا علاقة له بتلك الخلايا في المخ، ولا يلزم من مجرد عمل تلك الدوائر بصورة صحيحة أن يوجد الاعتقاد في القلب بوجود الله في الخارج، كما لا يلزم من تعطلها وجود الإلحاد وإنكار الرب في قلب الإنسان! ونحن نجزم بأن تعطيلها في المؤمن لا يورثه الإلحاد ولا قريبا منه! لأن نشاطها كما تنشط مرتبط في الحقيقة بالأثر العضوي والسلوكي والشعوري للإيمان على المخ، وليس هو الإيمان نفسه كما يعتقده الدهرية الأحاديون، ويتابعهم عليه الدكتور، شعر بذلك أم لم يشعر! فلو قدر في مؤمن راسخ الإيمان أن أصيب في مخه بتلف في تلك المواطن، فلابد أنه سيشعر بكسل وفتور عن كثير من الأنشطة السلوكية والذهنية المرتبطة بذلك الإيمان لديه، ولكنه سرعان ما سيغالب نفسه لإعادة بناء تلك العادات من جديد، فستحمله نفسه المؤمنة على إعادة تأهيل مخه Re-habilitation للنهوض بتلك الوظائف العضوية والسلوكية والشعورية كلها في مواطن أخرى عوضا عن تلك التي تلفت، تماما كما يعاد تأهيل من حصل له تلف في المخ لنقل وظائف عضوية معينة لديه من محلها الذي تلف إلى محل جديد! فالذي

يذهب بتلف ذلك الموطن ليس هو الاعتقاد بوجود الباري خارج الذهن، ولكن بعض الآثار العضوية والعصبية لذلك الإيمان، التي لا يلزم من ذهابها ذهاب الإيمان نفسه، فتنبه!
والطبيعيون إنما حكموا بأن هذه المواطن هي محل ذلك الإيمان نفسه تحقيقا، وأن الإيمان إنما هو ذلك النشاط العصبي نفسه، بالتأسيس على ماديتهم الأحادية المحضة، فتأولوا ما لمسوه من تعلق ظرفي بين انقداح الأفكار ذات الصلة في النفس وبين ظهور النشاط البيوكيميائي في تلك المواطن، على أن انقداح تلك الأفكار إنما هو ذلك النشاط العضوي والعصبي نفسه، وأن الأفكار والعقائد والميول النفسية إنما هي ذلك النشاط الذي يرصدونه لتلك المجموعات العصبية في المخ، وهذا مذهب مادي باطل لا يجوز للمسلم أن يقبله بحال من الأحوال! والعجيب أن الدكتور أغرق فيه غاية الإغراق، وهو يحسب أنه يحارب الدهرية والإلحاد والمادية حربا لا يحصل للمسلم المعاصر يقين في دينه إلا بأن يقف عليها ويتشبع بما انتهى هو إليه منها، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!
ثم قال: "... وتشعر الأطفال بالإله كرجل مسن ذي لحية بيضاء طويلة، فهم لا يستطيعون التعامل مع الأفكار المجردة"، قلت: قد تقدم بيان بطلان هذا الكلام عقلا، وأما بطلانه من النقل، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يولد المولود على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" أو كما قال عليه السلام. ولا شك أن الفطرة في حق الله تعالى أنه ليس كمثله شيء، وأنه أعظم وأجل من أن تكون صورته صورة رجل مسن ذي لحية بيضاء طويلة!! هذه صورة سانتا كلوز التي يتشبع بها أطفال الغربيين يعَبّدونهم إياها من دون الله، يقال للصبي الصغير: "تمن على سانتا أن يهديك في الكريسماس من الهدايا ما تحب!"، فيدعوه من دون الله! فالذي نقطع به أن الصبي يولد وليس لديه صورة لربه في ذهنه البتة، لا كرجل ولا كسحابة ولا كشيء من تلك الأقيسة، وإنما تكتسب تلك الصورة بتربيته على ملة وثنية أو شركية يوصف المعبود فيها بهذه الصورة أو تلك! فتأمل كيف أخذ الدكتور من الطبيعيين نقيض ما في السنة ولا حول ولا قوة إلا بالله!
قال (ص. 268): "تمتد الدائرة الجدارية الجبهية بين فصي المخ الجداري والجبهي، ومسئولة عن الشعور بأن لكل من الوجود الإلهي والذات الإنسانية وجودا مستقلا، لذلك يؤدي خمول هذه الدائرة (كما يحدث في التأمل والصلاة بتركيز) إلى تلاشي استشعار هذا التمييز، ومن ثم الشعور بوحدة الشهود." اهـ. قلت: هذا الصنف من التنظير باطل لا قيمة له، لأن "الشعور" هذا أمر فردي Subjective متوقف بالكلية على ما يحرص المبحوثون الخاضعون لأبحاث القوم على أن يوهموا أنفسهم وباحثيهم بأنهم قد مروا به تحقيقا، بالنظر إلى قوة الدافع الديني الاعتقادي لديهم! ثم إنه أمر معنوي محض، ليس داخِلا إلى المبحوث من طريق حواسه الخمس، فلا يزعم أنه

يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يشمه أو يتذوقه في فمه، فما حقيقته العضوية إذن؟؟ خفة في الدماغ وفقدان للتركيز (إذ يفقد الانتباه الذهني بؤرته ومركزه) وتوهان عارض للوعي لا أكثر ولا أقل! فإذا وجد من يمر بذلك "الشعور" الدافع الديني الكافي، خرج وهو يجعل من ذلك (بتأوله هو لما شعر) قمة الاندماج مع الذات الإلهية و"وحدة الشهود" وما شئت من تأويلات مدارها في النهاية على اعتقاده هو بالأساس، وهو كما تقدم أمر فردي تماما Subjective ليس في أدوات البحث التجريبي ما يمَكّن الباحثين من التحقق من صدق صاحبه أو كذبه في وصفه البتة! ثم إنه لا يمتنع – بل لعله يترجح - أن تأتي شياطين الجن الواحد من هؤلاء في سكرته تلك لتريه من ألاعيبها ما الله به عليم، ولا سبيل لأدوات التجريبيين للتفريق بين عمل تلك الشياطين في نفسه وبين النشاط المعتاد للمخ من حيث السبب الغيبي، فإن وقع فلا سبيل من طريقهم للحكم بوقوعه أو عدمه!

والحاصل أنه لا يحق للدكتور ولا لمن نقل عنهم أن يزعموا أن ذلك الموضع من المخ هو "المسؤول" عن "الشعور" بتميز الذات الإنسانية عن الذات الإلهية، ذلك التميز والانفصال وتلك البينونة التي هي أمر فطري جبلي بدهي لا يصح في الإنسان عقل حتى يقطع به! فالذات الإلهية ليست موضوعا للشعور البشري أصلا، حتى "يشعر" الإنسان بانفصالها أو اتصالها! غاية ما هنالك أن تلك المنطقة من المخ قد تتعرض تحت تأثير أسباب شتى لحالة من الفقدان الجزئي للوعي وللشعور بالعالم المحيط، فلا يبلث المتصوف الطامع في بلوغ تلك الحالة "الروحانية" المتشوف لها غاية التشوف، أن يوهم نفسه إذا بلغها بما يحلو له من التأويل الغيبي، يكذب الكذبة ويصدقها! ثم يأتي أمثاله من الوثنيين والمتصوفة من الباحثين التجريبيين ليصدقه فيما يزعم، يقول: قد رأينا على أجهزتنا ما يدل على أن "الشعور بامتياز الذات الإلهية عن الذات الإنسانية" يزول عند هؤلاء بسبب تغير حالة الموضع كذا والموضع كذا من أدمغتهم!! وإذن تصبح تلك المواضع (جريا على المدرسة الأحادية الدهرية في فلسفة العقل) هي "المسؤولة" عن حصول ذلك "الشعور" عند عموم البشر من الصبا، بحيث لو لم تعمل على هذا النحو، لم يقم في نفوسهم وعقولهم ما يدعوهم لاعتقاد أن الذات الإلهية منفصلة عن ذواتهم أصلا! وإذن يصبح "الشعور" هو منبت المعرفة في تلك المسألة!

ولهذا فإن قال القائل: ولكن نحن إنما نتكلم عن "الشعور" بانفصال الذات الإنسانية عن الذات الإلهية، وليس المعرفة أو العلم بذلك، وهما منفكان! قيل له: ولكن إن شعر الإنسان بما يعلم وهاءه وبطلانه ضرورة، ورأى كأنه يحصل له ما يقطع بامتناعه واستحالته قطعا، فلا يبقى إلا أن يشهد على نفسه بالهلوسة والهذيان، وهو ما لا ترونه ولا تقبلونه لأنكم مدفوعون دينيا إلى تصحيح موضوع تلك الأحوال والتجارب التي يمر بها هؤلاء من حيث هي! فرجع الأمر إلى أن يكون "الشعور" هو المعرفة في ذلك بحيث إن وجد

وجدت وإن انتفى انتفت، بعيدا عن سلطان البداهة العقلية والضرورة الشرعية الذي به ندفع نحن العقلاء تأويلات القوم لتلك التجارب ونسمها بالخرف والهلوسة!
والخلاصة أن التمييز المذكور أمر بدهي فطري لا يتوقف حكم الإنسان به على شعور يشعر به في موضع من مواضع مخه، بحيث إن ذهب الشعور أو تغير ذهب التمييز وانقلب العلم إلى جهل، وإنما تتخذ حالة شعورية معينة كتكأة وذريعة لدى فئة من الوثنيين المخرفين النوكى، ليوهموا أنفسهم بصحة دعاوى هم يعلمون أن بداهة العقل متنعها! وأيما بحث يسقط تلك البداهة الأولية ويعتمد ذلك "الشعور" في محلها، أو يجعل ذلك الشعور هو سبب الحكم بها، فهو ضرب من الفلسفة الوثنية الإلحادية لا يجوز للمسلم أن يقبله، والله المستعان!
ثم يقول (ص. 269): "الفص الجبهي Frontal Lobe وفيه تختزن وتتداخل وتندمج مختلف تصوراتنا عن الإله لتكون الصورة النهائية (الإيجابية والسلبية) عن الألوهية، وتقيم منطقيا تصوراتنا الدينية والروحية، كما يطرح الفص الجبهي إجاباته عن التساؤلات الوجودية الأساسية: لماذا، من أين، إلى أين، كيف؟ وفي النهاية يحدد علاقتنا المستقبلية بالإله." اهـ. قلت: تأمل المادية المغرقة التي لا يدري الدكتور أنه متلبس بها، والله المستعان! الكلام حاصله أن العقيدة في الرب تنشأ كلها في ذلك "الفص الإمام"، فمن تعرض لتلفه، فلن يجد ما به يتحصل عنده تصور عن الإله، بل ولا "تصورات دينية ولا روحية" البتة، ولا إجابات عن التساؤلات الوجودية الأساسية، ولا تحديد لعلاقته المستقبلية "بالإله"! وإذن فمهما جئته بالسمع من الكتاب والسنة في أي مسألة من تلك المسائل فلن يحصل لديه علم بشيء من ذلك، ولن تمسي إلا وكأنك تخاطب حجرا! يفهم كل شيء ويعقل كل شيء إلا ما يسمعه مما له تعلق بالدين والإله والأسئلة الوجودية، وكأن اللغة تفقد معناها عندما يخاطب بها بشيء في تلك الأمور! لماذا؟ لأن الفص الجبهي (القسم من مخه المتخصص في الدين والألوهية!) تالف معلول! فبالله هل هذا كلام عقلاء؟؟
يقول: "يصبغ المهاد تصوراتنا عن الإله بالمشاعر المكتسبة والفطرية، كما أنه المركز الرئيسي المسؤول عن استشعار الإله كوجود حقيقي موضوعي. وفي الأفراد العاديين يكون نشاط المهاد الأيمن والأيسر متساويا، أما من قضوا فترات طويلة في التأمل فيكون أحد الجانبين أكثر نشاطا من الآخر، وكلما زاد التأمل زاد التباين وزاد الشعور بأن الفكرة التي نتأملها حقيقية." اهـ.
قلت: هنا يصرح الدكتور بجعل "المشاعر" هي المعارف المتكسبة والفطرية، ومن ثم يجعل الفطرة تابعة لعمل المخ الذي تنشأ عنه تلك المشاعر، على مذهب الماديين الأحادية! ثم إنه يجعل ذلك الفص المذكور

هو "المركز الرئيس المسؤول" عن "استشعار" الإله كوجود حقيقي موضوعي! وهذا كلام فاسد كما تقدم لأن الإله عز وجل ليس موضوعا للشعور ولا للاستشعار أصلا، لا في المخ ولا غيره، وإنما هو موضوع للمعرفة والإيمان الذين يحصلان في القلب عند المؤمنين! ولا شك أنه في ضوء هذا الاعتقاد المادي الفاسد، يتعين على المؤمن أن يحذر من أن يتداوى في يوم من الأيام بدواء للصداع أو لضغط الدم – مثلا – فيصاب في جملة أعراضه الجانبية بتعطل أو تلف في ذلك الفص، يقلبه من فوره إلى الدهرية والإلحاد أو يحول عقيدته ويبدلها له من حيث لا يشعر! أما ما يكون من الصوفية من ازدياد الشعور بأن الفكرة التي يتأملونها حقيقية مع ازدياد التأمل، فهذا أمر متوقع لا غرابة فيه! يظل أحدهم يقنع نفسه بصحة أكذوبته مرة بعد مرة حتى يصدقها، وحتى تنشأ في مخه الروابط العصبية التي تجعل نفسه وأعضاءه ترتاح لذلك الاعتقاد ولا تتقبل خلافه! فإذا اتفق أن وافق ذلك التغير زيادة في نشاط موضع بعينه من المواضع في المخ، كان ذلك التغير العضوي هو الناشئ عن تلك الزيادة في جهد الذهن لإقناع النفس بصحة موضوع التأمل، وليس العكس كما يدعيه الدكتور! أي أن أنشطة الكيمياء الكهربية الحيوية لابد وأنها تأتي في أدمغتنا تبعا لسلطان العقل في قلب أحدنا، وليس العكس كما هو اعتقاد الماديين! وإلا للزم أن نجد أنفسنا نعيش في عالم تتبدل فيه شخصية أحدنا وثوابته وتصوراته وعقائده بشأن العالم وبشأن العقلاء الآخرين من حوله في شربة ماء، على أثر أسباب مادية لا يمكن التنبؤ بإحداثها تلك الآثار، ولا يرجى لأحدنا أن يجتنبها، بالنظر إلى شدة تعقد العمليات المخية الكثيرة جدا التي يُعتقد عند الماديين أنها هي (في مجموعها) ما ينشأ عنه تلك العقائد والتصورات والأفكار عند أحدنا! وإذن فلا يستبعد أن أذهب إلى فراشي ذات ليلة وأنا على دين الإسلام، ثم أصبح فأجد نفسي على دين البوذية أو الساينتولوجي مثلا، على أثر شحنة كهربائية زائدة انقدحت في مهاد المخ عندي لأسباب لا أعلمها!

ولا شك أن هذه الفوضوية العقلية والاعتقادية الفاحشة لا شيء يمنعها على دين الماديين الدهرية، أي في عالم لا رب له ولا روح فيه ولا غيب ولا شيء فوق المادة، لا شيء يمنع من أن تكون تلك الفوضى المخية هي الواقع حقا (وهو ما يجزم العقلاء ببطلانه)! ومعلوم أنك إن سألت الآن أي باحث دهري في النيوروساينس (كالهندي الأمريكي المدعو رامشاندران مثلا، الذي هام الدكتور بحبه في غير موضع) عن تفسيره النيورولوجي لترابط العقائد وتناسقها لدى الإنسان، يعني في الحالات التي يقع فيها ذلك الترابط المنطقي في أمخاخنا، لوجدته يجيبك بالفوضوية الداروينية المحضة! مجموعات عصبية اتفق لها اتفاقا أن تناسقت بيوكيميائيا وكهرومغناطيسيا بالعشواء المحضة فأصبح صاحبها متناسق الاعتقاد في هذه المسألة أو تلك، سواء أبقى الانتخاب الطبيعي ذلك التناسق لسلوك ينشأ عنه فيه مصلحة

بقاء النوع واستمراره، أو لأنه لم يكن لظهوره أثر سلبي على ذلك الجانب من حياة الإنسان فبقي في حوضه الجيني وتوارثته الأجيال! وقد زعم بعضهم – من غير نشر شيء البتة! – أنه أجرى تجارب في إثبات أن الإنسان قد يكون مؤمنا وملحدا في نفس الوقت، في نصف مخه الأيمن نشاط إلحادي متكامل، وفي نصفه الأيسر نشاط متأله Theist متكامل، من غير أن يشعر أحد النصفين بالآخر، وأن هذا يكون في المرضى الذين قطعت الأربطة العصبية الرابطة بين فصي المخ في أدمغتهم، حتى قال راماشاندران ساخرا في ندوة من ندوات الملاحدة: "فلا أدري هل يذهب نصف ذاك الرجل إلى الجنة ونصفه إلى النار أم ماذا"، وضحك الحضور من الدهرية أمثاله ملء أشداقهم!

ذلك الهذيان من أين يأتي؟ من إصرارهم الديني على اختزال العقل وعمل العقل والنفس إلى تلك الومضات التي تتلاعب أمامهم على شاشات المواسح المخية! أي أن العقل على دين القوم ليس عقلا أصلا، وبدهياته ليست بدهية ولا ضرورية ولا يوثق فيها ولا فيما يتفق لصاحبها من تناسق منطقي بين عقيدة وعقيدة، لأنه لا سلطان عندهم لشيء فوق المادة وحركاتها العشوائية المزعومة على الإطلاق، حتى في نشوء الأفكار والعقائد عند الواحد منا!

وقد بسطنا الكلام في الموقف الصحيح من ذلك فلا نطيل بالإعادة، ولكن ما الموقف من ذلك الهذيان على دينك أنت يا دكتور عمرو؟ ألست تزعم أنك تريد نزع فتيل العشواء من العلوم الطبيعية؟ فكيف لا ترى العشوائية المحضة والعبثية المطلقة في لوازم ومقتضيات تلك الأبحاث النيورولوجية التي تسوقها إلينا بكل ثقة لا لشيء إلا لأن أصحابها من الطبيعيين قد زعموا أنهم توصلوا أخيرا إلى المنابع البيولوجية المحددة لآحاد اعتقادات أهل الأديان ولأسباب إيمان أحدهم بما يؤمن به؟! الجواب: لا يراها وما كان ليراها لأنه صاحب مشروع بدعي ضخم في أسلمة الميتافزيقا الطبيعية بجملتها، يريد أن يخترع لنفسه ولأتباعه دينا هجينا بين ميثولوجيا الطبيعيين الغيبية وبين عقائد المسلمين في نفس الأمر، يجعل مصادر تلقي المعرفة بالغيب فيه: نظريات الطبيعيين، ثم القرآن ثم السنة، على هذا الترتيب! لا يرى تلك المصيبة ولن يراها لأنه يريد أن يقنعك أيها القارئ الكريم بأن نظرية الأصل المشترك والانتخاب الطبيعي عند داروين صحيحة إجمالا، وبأن العقل البشري قد نشأ في مخ من أمخاخ القردة العليا ترقية وتطويرا، ولكنه تطوير إلهي، خلق الله به آدم من ذرية تلك القردة، إذ لابد أن يكون الله هو الذي خلق تلك العمليات البيولوجية الروحانية المزعومة "بالتدخل الإلهي"، وليس أنها نشأت بالتطور العشوائي كما يزعمه "الدراونة"! فإن أنت قبلت منه تصحيحه لتلك "التجارب الروحية الصوفية" من حيث المصدر الغيبي، واستدلاله ببيولوجياها على ذلك "التدخل" في الأسطورة الداروينية،

فقد سلمت عنده من الإلحاد، ولا عليك من شيء إذن مهما انتهيت إليه من اعتقاد في صفة ربك جل شأنه وفي أفعاله، ولو قلت بوحدة الوجود ووحدة الأديان، ولا حول ولا قوة إلا بالله!
والقصد أنه مهما سلك الإنسان ذلك المسلك الجهمي الطبيعي الترقيعي التخليطي الفاسد المفسد، فهو واقع لا محالة فيما لا يحصيه إلا الله من التناقضات واللوازم المخزية بل المضحكة في مفردات عقائده من حيث لا يشعر، والله المستعان!
ثم قال: "اللوزة المخية جزء رئيسي من الجهاز الحوفي، مسئول عن التحكم في معظم حياتنا الانفعالية، ويؤدي زيادة نشاط اللوزة إلى اصطباغ صورة الإله بصفات القهر (السلطة، البشط، الانتقام، العنف) والمبالغة في استشعار الخطايا، وإلى تقييد قدرة الفص الجبهي على التفكير المنطقي بخصوص الإله. وقد يؤدي تلفها أو خمولها إلى عدم الاكتراث بالدين وإلى الإلحاد." اهـ.
قلت: أولا: لسنا نملك إذن أي حكم أو سلطان عقلي على "حياتنا الانفعالية" ولا على عقائدنا الغيبية! لو صح هذا الذي تقول ونحوه مما حشوت به كتابك المشؤوم هذا يا دكتور من سفسطات الأعصابيين الطبيعيين والوثنيين، لما كان على الملحد وزر ولا ذنب، لأن له إذن أن يفسر إلحاده بيولوجيا بأنه فيروس أو مرض أصاب فص الأميغدالا في دماغه، فانتهى إلى ما انتهى إليه رغما عن إرادته! وإذن فالمتعين إعذاره يوم القيامة لأنه أصيب بمرض غير دينه وشخصيته وعقله على نحو لم يكن يملك له دفعا، والواجب كذلك التسوية في المعاملة الدنيوية بينه وبين المسلم المؤمن المصاب بمرض القلب أو السكر مثلا! فما الذي يترتب على جعل الشرك خللا عضويا يصيب الدماغ؟ وماذا يصنع الدكتور وبأي شيء يجيب إن قابله ملحد من الملاحدة الذين يناظرهم عندما يسأله عن سبب إلحاده بقوله: لعل الأميغدالا عندي قد تلفت أو تعطلت، فدعني على إلحادي حتى يتوصل العلم إلى طريق لعلاجها وإصلاحها فيسيولوجيا في يوم من الأيام؟! لن يملك إذن حتى الزعم بأن حجة الحق قد قامت على ذلك الجاحد المكابر مهما أسمعه، ولن يملك حتى أن يصفه بأنه يجحد الضروريات والبدهيات وبأنه يعلم أنه مبطل، مهما أقام عليه البينات والآيات الجليات أشكالا وألوانا! بل يلزم من ذلك أن يكون الملحد على قناعة عقلية تامة بصحة الإلحاد وببطلان كل ما ينافيه، ولا يمكن "إقناعه" بخلافه، مهما تكلف الداعية ذلك! فالأمر غايته أن يكون نشاطا عصبيا في مواضع معينة من الدماغ، لجملة كبيرة من المجموعات العصبية التي يتفق لكل إنسان فيها من التباديل والتوافيق والتراكيب ما يتفق!
فإذا كان لكل من يشرك ويختار أن يموت على الشرك أن يقول إنه مرض أصاب مخه فلم ير في الشرك إلا أنه الحق المبين، ولكل من يلحد ويختار أن يهلك على الإلحاد أن يزعم أنه مغلوب على أمره وما كان يملك –

بيولوجيا - إلا أن يرى رجحان الإلحاد على خلافه، فما حجية الرسالة إذن وبأي شيء تقوم على الخلق، وما وجه إرسال الرسل أصلا؟ لا قيام للحجة الرسالية يا دكتور إلا على أساس من إثبات الفطرة التي نؤمن بأنها أمر غيبي قد جبلت عليه أرواح البشر وفطرت عليه فطرا، من قبل أن تنفخ في الأرحام! فإن أصبح للإيمان جهاز بيولوجي في المخ يتسبب فيه في كل إنسان، فلا يعقل الإيمان من يوم أن يعقل إلا بسببه بحيث إذا تعطل ذلك الجهاز العضوي زال الإيمان بالكلية، انتفت إذن تلك الفطرة وتلك الروح المركبة فيها، المتقدمة وجوديا على خلق المخ والجهاز العصبي والجسد بكليته، المتسلطة عليه بالغيب، التي جعلت من القلب تلك المضغة الحاكمة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها "إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد سائر الجسد"! وإذن يصبح من حق من يولد على الإلحاد ثم يعرض عن الحجة الرسالية جحودا واستكبارا بعدما جاءته ليموت على إلحاده، أن يأتي يوم القيامة ليقول لربه: ما شهدت على نفسي بأنك ربي، ولا وجدت الإقرار بالمربوبية والمخلوقية في نفسي يوما من الدهر ولا شعرت به، وإنما وجدت خلايا مخي تجري على اعتقاد معين لم أجد له دفعا ولا للحكم ببطلانه سببا، من يوم أن عقلت إلى أن جاءني الأجل، فبأي شيء تحاسبني؟!

قال الدكتور (ص. 270): "تفسر هذه الوظائف المتباينة (يعني لجملة المواضع التي ذكرها) لماذا تختلف نظرة كل إنسان للإله وللدين عن نظرة الآخرين. وبتأمل هذه الوظائف يتضح أن تحقيق نظرة دينية معتدلة يحتاج بيولجيا في المقام الأول إلى التوازن بين الجهاز الحوفي والفص الجبهي"! اهـ. قلت: تأمل تفسير اختلاف نظرة كل إنسان للإله والدين عن نظرة الآخرين عند الدكتور! فإنما يحصل الاعتدال في النظرة الدينية بسبب التوازن بين الجهازين المذكورين، فهنيئا لمن اتفق له ذلك الاتزان بيولوجيا، ولا تثريب على من ولد فوجد مخه مركبا على خلاف ذلك، فهو أمر لا يد له فيه!

والقصد أن انتفاء الخيار الحر هو مقتضى القول بأن الإيمان والكفر إنما يرجعان إلى أنشطة بيولوجية محضة قد تتحول في الدماغ وتتبدل اتفاقا من غير أن يختار لها الإنسان تحولا ومن غير أن يشعر أصلا! فتأمل أي باب فتحته للجبرية الطبيعية من حيث لا تبالي يا دكتور، والله المستعان!

ثانيا: يلزم من هذا إبطال كل نص جاء صريحا في أن التقوى محلها القلب، وفي أن الإيمان في القلب، والعقل في القلب، كل ذلك تبطله تلك النظريات، لأنها إنما قامت على جعل العقل هو المخ والمخ هو العقل، وهذا واضح كما ذكرنا آنفا!

وفي نهاية الفصل، ينتهي الدكتور أخيرا – كما هو متوقع وكما ألزمناه به آنفا - إلى القول بجواز أن تظهر عقاقير كعقار استجلاب الهلوسة "الإل إس دي"

LSD بحيث إن تعاطاها الإنسان، غيرت له في دينه وحسنت من اعتقاده وأخلاقه، فكتب (ص. 270 – 271) تحت عنوان مستفز للغاية "هل تمدنا العقاقير بمشاعر التسامي الروحي؟" يقرر أن الإل إي دي والماريجوانا والرايتالين وغيرها من العقاقير المذهبة للعقل / Narcotics / Opiates Psychadelics / Hallucinogen، هذه كلها لها آثار جانبية سلبية، ثم يقول: "ولا شك أن التأمل والصلاة هما وسيلة التسامي الروحي الحقيقي، دون أية آثار جانبية"! قلت: الله أكبر! فلتتنزلوا إذن معاشر المسلمين من المتخصصين في الفارماكولوجيا والفيسيولوجيا إلى المعامل وتفرغوا الوسع في محاولة اكتشاف عقار للإيمان لا تكون له آثار جانبية، كالعلاج بالأعشاب ونحو ذلك، فلا شك أنه إن أمكن تحقيق "التسامي الروحي الحقيقي" دون عناء التأمل والصلاة، فسيكون ذلك فتحا دينيا عظيما! يبتلع الرجل قرصا في الصباح وقرصا في المساء، فيبلغ منتهى المرام من الدين ويصبح على اتصال غيبي دائم برب العالمين، وفي "وحدة شهود معه" يتحصل عليها وقتما يريد وبكل سهولة! فمن يحتاج إلى الصلاة وجهدها وعنائها وقد "أتاه اليقين"؟؟
صدق الذي قال: شر البلية ما يضحك، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

في كتابه "الوجود رسالة توحيد"، عقد الدكتور بابا ترجم له بقوله: "وحدة النسيج تعني خالقا واحدا"، قال في مفتتحه (ص. 281): "ربما كان للمشركين الأقدمين العذر حين اعتقدوا أن لكل صنف من الموجودات ولكل ظاهرة من الظواهر إلها مستقلا خالقا مدبرا! فالماء يختلف تماما عن النار بل ويضادها في الكثير من صفاتها، وكذلك النور والظلام، وأيضا الجمال والحرب بما تحمله من قبح، وهكذا.. أرى أن التباين الجلي والتضاد بين الموجودات والظواهر دفع هؤلاء للقول بتعدد الآلهة. ثم جاءت الفتوحات العلمية المتواترة، تحمل حقائق مغايرة تماما، وتكشف لنا أن كل الموجودات وكل الظواهر إنما هي نسيج واحد، وإن اختلفت أصباغه وألوانه الظاهرة. فالموجودات تتكون من لبنات واحدة، تمسكها إلى بعضها قوى واحدة، وتحكمها قوانين واحدة، وكذلك الظواهر، كالرعد والبرق وهطول الأمطار والزلازل وانفجار البراكين، هي قوى واحدة تحكمها قوانين واحدة أيضا." اهـ.
قلت: مزيد من الجهل والضلال في باب الأسماء والأحكام، مداره على جهميته الطبيعية الوضعية، التي لا يزال يعتنقها اعتناقا دينيا راسخا، والله المستعان! فأولا: من الذي قال إن وحدة النسيج تعني خالقا واحدا، أو إن تعدد الأنسجة يعني تعدد الخالقين؟؟ وبأي منطق تصح تلك المقدمة؟؟ ألا يقدر ربنا الواحد على أن يصنع أنسجة متعددة؟ بلى وهو الخلاق العليم! بل ليس في وحدة الأصل ولا في وحدة البنية والنسيج ولا في شيء من ذلك

(إن قدرنا إمكان ثبوته من طريقكم، ولا يثبت) ما يوصلك إلى ما تريد، فإن للوثني – على نظير ما فتحت أنت الباب لإعذاره به يا دكتور – أن يقول: تقول أسطورة الخلق عندي بأن جماعة من الآلهة اتفقت على خلق العالم من مادة واحدة، فاختص كل آله بالأنواع التي خلقها، واجتمع من خلقهم العالم! فإن جئتنا ببرهان التمانع ونحوه، قلنا لك فارجع إذن إلى اعتماد البداهة الأولى كأساس للحكم ببطلان تعدد الصانعين، ولا تؤسسه على ميتافزيقا الطبيعيين!
ثانيا: من أين جئت بالتماس العذر للمشركين الأوائل حين قالوا بما قالوا به من تعدد الآلهة؟ وما دليلك من الكتاب والسنة على أن الله يعذرهم؟؟ هذه أحكام لا تلقى هكذا بالمزاج والتخمين يا دكتور! ولا نخالك تقبل من أحد أن يفتي في الجراحة وهو متخصص في أصول الفقه مثلا! فهلا رجعت أنت إلى علماء التوحيد قبل أن تهرف بما لا تعرف؟؟ ثم إنك تؤمن بأن في المخ البشري آليات توصله إلى "التسامي الروحي" كما تسميه، حيث يتجاوز العقل حدود الموجودات كلها، ويرى الأشياء كلها شيئا واحدا! فعلى هذا، يكون من غير المتصور للمشركين القدماء أن ينتظروا ميكانيكا الكم المعاصرة حتى تخبرهم بأن الأشياء كلها ترجع إلى أصل أولي Fundamental واحد! المفترض، على دينك، أن يكون ذلك عندهم علما باطنيا يكتسب بالكشف الصوفي!
ثالثا: التوحيد قضية فطرية بدهية لا تقوم على الكوزمولوجيا ولا نظريات الفيزيائيين والبيولوجيين يا دكتور! وإنما أقمتها أنت على تلك العلوم لأنك جهمي طبيعي، ترفع تلك العلوم فوق ما سواها على أنها أعظم مصدر للتلقي في أمور غيب السماوات والأرض! ولو صح أن كان إثبات صحة التوحيد مفتقرا للتقديم والتأسيس على تصور كوني معين، كما تريد أنت أن تجعله، للزم ألا يكون المرسلون قد علموا أتباعهم التوحيد الحق أصلا، لأنهم هم أنفسهم ما عرفوا هذا الذي تريد أن تعذر المشركين الأقدمين بشركهم لأنهم كانوا به جاهلين!! محمد صلى الله عليه وسلم لم يغير لأتباعه اعتقادهم بشأن اختلاف الماء عن النار ومضادته لها، ولا بشأن اختلاف النور عن الظلام ولا عن الجمال والحرب .. إلخ، بل جاء في القرآن قول الله تعالى: ((وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) [الذاريات : 49] ولم يأت في الكتاب ولا في السنة ما يقيد ذلك الإطلاق ((كل شيء))، حتى ذهب فيه المفسرون كل مذهب! فلو صح في العقل السوي ما تزعمه من دلالة وحدة أنواع المخلوقات على وحدة خالقها، وبالمخالفة دلالة تعدد الأنواع على تعدد الخالقين، لوجب أن يأتي الوحي بما يمنع من فهم تلك الآية على ما يصحح دين الثنوية المجوس (مثلا) القائلين بصانعين متنافرين، خلق كل واحد منهما فردا من أزواج المخلوقات (النور والظلمة، الخير والشر، اللذة والألم .. إلخ)! وإذن لكانت الضرورة ماسة والحاجة ملئجة لأن يأتي القرآن

والسنة، وكذلك جميع الكتب السابقة ورسالات الأنبياء السابقين ببيان وحدة الأصل النوعي الذي خلق منه كل شيء، حتى لا يبقى للمشركين القدماء ذلك العذر الذي يزعم الدكتور أنه لهم! فالرسالة إذا جاءت، قامت بها الحجة الرسالية التامة، وانقطعت بها جميع المعاذير ((رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)) [النساء : 165]، فإذ لم يثبت أن جاء المرسلون يدعوى الفلاسفة توحيد مادة العالم وإرجاعها كلها في بنيتها الأولية إلى مكون جوهري واحد Single Fundamental Component، لزم بذلك ألا تكون الحجة الرسالية قد قامت على أحد من البشر من زمان نوح أول المرسلين وإلى محمد خاتم المرسلين، عليهم جميعا صلوات ربي وسلامه، إذ يبقى لهم جميعا العذر بأنهم ما عرفوا تلك المسألة، فاشتبه عليهم العالم بأن يكون له عدة خالقين، فتأمل!

رابعا: قولك: "أرى أن التباين الجلي والتضاد بين الموجودات والظواهر دفع هؤلاء للقول بتعدد الآلهة." قلت: رأيك غلط ولا التفات إليه وقد جاء النص الصريح في السنة في بيان أصل الشرك في بني آدم، فلم يكن هو تعدد أنواع المواد في العالم، وإنما كان غلو العامة من قوم نوح في تعظيم بعض الصالحين منهم! ولم يزل الغلو في بعض المخلوقين هو منبت الجنوح إلى اتخاذهم أنداد وشركاء لله، لا منبت للشرك في البشر غيره!

خامسا: قولك "ثم جاءت الفتوحات العلمية المتواترة، تحمل حقائق مغايرة تماما، وتكشف لنا أن كل الموجودات وكل الظواهر إنما هي نسيج واحد، وإن اختلفت أصباغه وألوانه الظاهرة." هذا والله من كهانة الطبيعيين ومن نطاعة فلاسفتهم! فليس الفيلسوف الطبيعي المعاصر أحظى من سلفه اليوناني بما يصلح أن يكون دليلا على إثبات أن جميع موجودات العالم بلا استثناء ترجع إلى أصل واحد أو على أنها نشأت على نحو معين، أو على أنها تتكون من مكون واحد، أو حتى على أن السنن السببية والقوانين الحاكمة لطبائع الأشياء واحدة مطردة في جميع أنحاء العالم! بل والله لا يملك أحدهم أن يجزم بكون هذا القدر المنظور من زينة السماء الدنيا القريبة (التي يسمونها بالكون المنظور Observable Universe)، جاريا كله على قانون واحد ونظام واحد، إلا محض التحكم بالقياس فوق القياس، والتسليم الأعمى بمسلمات الدهرية الطبيعيين الميتافزيقية التي تسوي بين جميع أنحاء العالم فيما تتركب منه مادتها وفي القوانين الجارية عليها! فدع عنك هذا التهويل يا دكتور، فإنه لا يؤثر إلا في الأذناب من أتباعك!

قال (ص. 285):

> إذا كانت هذه الجولة العلمية تثبت أن الوجود نسيج واحد وإن تعددت ألوانه وتنوعت هيئاته، نسيج تحركه قوى واحدة وتحكمه قوانين واحدة. فهل يعكس النسيج الواحد إلا نساجا واحدا؟ خالِق

واحد... لقد طمست اكتشافات العلم الحديث حجج المشركين بأن تنوع المخلوقات يعني تعدد الخالقين. لقد قضى العلم على شبهة التنوع والتعدد. ويخاطب الله عز وجل البشرية وينبهها إلى أن شبهة الكثرة ستزول فور موت الإنسان ((ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر)) (الكتاثر 1-2). وإذا كانت شبهة تنوع الموجودات وتعدد الخالقين تزول عند موت الإنسان، فالله عز وجل يمنح بعضا من هذا العطاء لبعض أوليائه من أصحاب البصيرة والحكمة في الحياة الدنيا، فيكشف عنهم حجاب الكثرة، فهل يكون العلم أحد وسائل كشف الحجاب؟!

قلت: تأمل كيف استغل الدكتور الإجمال الظاهر في عبارة "الوجود نسيج واحد" هذه، حتى يصل منه إلى تقرير وحدة الوجود! يقول "لقد قضى العلم على شبهة التنوع والتعدد"! فبالله متى كان التنوع والتعدد "شبهة" حتى يقضي عليها "العلم" كما يزعمه الدكتور؟! ومن الذي قال إن وحدة النسيج (على التسليم) تقتضي وحدة جميع المنسوجات المصنوعة من ذلك النسيج؟؟ ومن من المشركين في تاريخ البشر استند إلى تنوع المخلوقات وتعدد أنواعها في تسويغ شركه، وفي أي أمة وقع ذلك؟؟ ثم من الذي قال إن تنوع الموجودات يزول عند الموت؟؟ وهل الملكان الذان يقعدانك في قبرك عند موتك مستقلان وجوديا أم هما موجود واحد يا دكتور؟؟ وهل هما نفس الملك الذي يقبض روحك، وهل هو روحك نفسها، هل تراه يقبض نفسه عندما يقبضك، ثم يُقعد نفسه عندما يقعدك ثم يسأل نفسه عندما يسألك "من ربك وما دينك وما نبيك"؟؟ بل هل تراه هو نفسه الرب وهو نفسه النبي، وهو السائل والمسؤول والمسؤول عنه جميعا؟؟ أي تعدد هذا الذي هو "شبهة" تنكشف عند الموت؟؟ أي هذيان وخرف هذا؟؟!

هذا هو ما يعتقده البوذيون والهندوس والوثنيون عباد الأرض، فيما يجري عليهم وما ينكشف لهم بعد الموت يا دكتور، لا ما يعتقده المسلمون! ثم يأتي بتأويل اتحادي كفري لقوله تعالى ((ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر))، حتى يجعل من الآية دليلا على أن مطلق الكثرة في الموجودات واختلافها وتباينها إنما هو وهم يلهينا عن حقيقة الوجود المزعومة، التي لا تنكشف لعامتنا إلا بعد الموت! اللهم إلا إن كانوا من خاصة الخاصة من العارفين السالكين في طرق القبوريين، فهؤلاء ينكشف لهم في الدنيا ما لا ينكشف لعمومنا إلا في قبورهم! فأي علاقة تثبت لهذا الكلام، أيها القارئ المحترم، بالبحث التجريبي الصحيح أو بالعلم الشرعي الصحيح أو حتى بالعقل السوي الصريح؟؟

تلبيس وكذب وقرمطة وتلفيق سمج حتى ينتهي إلى تقرير دعوى أن التعدد في الموجودات ليس إلا وهما في أذهاننا، وأنما هي كلها موجود واحد على الحقيقة! هذا هو مراده من عنوان الكتاب "الوجود رسالة توحيد"، أن

الموجودات كلها ليست إلا شيئا واحدا لا تعدد فيه ولا تنوع، وإنما نتوهم نحن الكثرة والتنوع توهما! فإياك أن تظن أنه يقصد بالتوحيد في عنوان الكتاب توحيد المسلمين، الذي هو نقيض الشرك، أبدا! وإنما يقصد توحيد البوذيين والفلاسفة الاتحاديين، القائلين بوحدة الوجود ووحدة الأديان، نسأل الله السلامة!
هذا المسلك الخبيث في التأصيل لوحدة الوجود الطبيعية القبورية التي يعتنقها الدكتور هو من أخطر المسالك الجهمية الطبيعية على الإطلاق (وسيأتي معك في قسم لاحق بحول الله تعالى، التحذير من نظيره عند التركي عندنان أوكتار)، لأنه يوهم العامة والجهلاء بأن لتلك الخرافة الوثنية أساسا "علميا تجريبيا" كما يدعيه الدكتور! [44] وقد أحال الرجل قراءه إلى كتب وأبحاث لفئة من أخطر دعاة وحدة الوجود في قدرتهم على تلبيس شركهم ووثنيتهم الشيطانية بلبوس الاكتشاف العلمي والنيورولوجي وكذا! فمن قصد مؤلفات الدكتور يريد السلامة من الإلحاد، فهنيئا له بوحدة الوجود والحلول والاتحاد، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ينبغي أن ينتبه القارئ الكريم في هذا السياق إلى أن الدكتور إنما حمله على طبعنة القول بوحدة الوجود، مسعاه في استعمال أبحاث النيورولوجيين الطبيعيين على تجارب الصوفية وتأملاتهم، لإثبات "صيرورة المخ الدارويني عقلا روحانيا" على نحو كان يرجو – في ابتداء الأمر - أن يستكمل به التأسيس الجهمي لعقيدة التطور الموجه! هكذا كان ابتداء "رحلة عقله"! وظني أنه لو لم يقع على تجارب تلك الثلة من النيورولوجيين المتأثرين بالفلسفات الشرقية الاتحادية، لما جرؤ على تكلف أدنى محاولة للانتصار لوحدة الوجود الصوفية، ولما وجد عند طرح تلك التجارب "الروحية" بين أيدي خصومه عند المناظرة إلا أن يرميها عن قوس واحدة بالضلال ومخالفة الشريعة، لا لأنها إذن تكون مخالفة للشريعة في اعتقاده حقا، ولكن لأنها إذن تكون فاقدة للأساس التجريبي الذي يرجى لها معه أي ثبوت "علمي" يجري على شرط الفيلسوف الطبيعي الأكاديمي في الإثبات والنفي! وإذن لاكتفى الدكتور في تحصيل مقصوده من الانتصار للتطور الموجه باستعمال بضاعة أصحاب التصميم الذكي في البيولوجيا الجزيئية ونحو ذلك، ولما طرأ بباله يوما من الدهر أن يتطرق لعلوم الأعصاب هذه في شيء من كتبه البتة. فالمسألة كلها راجعة رجوعا أوليا إلى مشروعه الجهمي في محاولة التعديل على ميتافزيقا داروين لأسلمتها، والحمد لله أولا وآخرا!

خلاصة بدعة عمرو شريف في وحدة الوجود.

خلاصة ما تقدم، وحتى لا يتشتت ذهن القارئ، أن الدكتور عمرو يدعو إلى نحلة اتحادية ربوبية طبيعية مثالية معلوماتية Naturalist Idealist Informationalist Pandeism، يجعلها هي اعتقاد المسلمين بزعمه. وخلاصتها القول بأنه ليس في الوجود إلا الصانع (غير المادي)، والمعلومات (التي هي صفة الباري نفسه وعلمه لزوما) والأمخاخ (المادية) التي صنعها لتدرك تلك المعلومات حال حصول الرصد الكمومي على أنها هي هذا العالم الذي ندركه! فالمعلومات "يتجلى" بها الصانع (بكلمة التكوين التي لا توصف بالصفات الزمانية!) في هيئة موجات تدخل إلى الأمخاخ التي تعمل عليها – بدورها - عمل الحساوب الكوانطي في الترجيح بين الاحتمالات المحملة عليها، وبذلك يحصل الواقع الخارجي في أمخاخنا توهما، ويكون الصانع هو الذي رجح ما يريد بتلك الأرصاد البشرية مجتمعة، التي حقيقتها في النهاية أن تكون رصده هو نفسه لنفسه، لأنه لا حقيقة للإنسان نفسه ولا لشيء في الوجود إلا هو في النهاية! وكل ذلك حتى يصح أن يقال بأن التطور الدارويني والنشأة الانفجارية حق كما قاله الطبيعيون، ويقال في نفس الوقت كما قالته الصوفية: لا موجود بحق إلا الله، وتصبح المادة وكل ما يتركب منها وهما ذهنيا لا حقيقة له في الخارج أصلا! ويمكنك كذلك إن شئت أن تسمي تلك النحلة بالاتحادية الطبيعية المثالية التعديدية الداروينية الحاسوبية الكوانطية Darwinian Quantum Computational Pluralist Idealistic Naturalistic Pandeism، وللاختصار يقال "الاتحادية الشريفية"، نسبة إلى عمرو شريف، إذ ليس في المنتسبين إلى أهل القبلة من يروج لها – إلى الآن - سواه (اللهم إلا التركي "عدنان أوكتار" الذي يدعو إلى نحلة اتحادية مشابهة كما بيناه في موضعه)!

أكتفي بهذا القدر من بيان زندقات وضلالات الدكتور عمرو شريف، لأني في الأصل ما وضعت هذا الكتاب من أجل استقراء خرافات الرجل (على كثرة كتبه وما فيها من تكرار)، وإنما أردت أن أبين للقارئ الكريم منتهى ذلك "المشروع الفكري" الذي يبدأ صاحبه بالجهمية الطبيعية، فينتهي إلى عقيدة سبينوزا وبول ديفيز وأنتوني فلو، ولا حول ولا قوة إلا بالله! أردت أن أبين خطورة ما يصل إليه من لم يؤسس منهجه واعتقاده في الطبائعيات والتجريبيات و"المنهج العلمي" على أصول أهل السنة التي نرجو من الله عز وجل أن نكون قد حررناها في هذا الكتاب على ما يحصل به المقصود! فليس غرضنا من هذا الجزء من الكتاب أن نكفر عمرو شريف ولا غيره، وإنما غرضنا أن نحذر المسلمين المشتغلين بالطبائعيات عامة، والمقبلين منهم على قراءة كتب فلاسفتها الغربيين وجهمية الطبيعيات المعاصرين من بني جلدتنا خاصة، من شناعة وفساد العقائد التي انتهوا إليها وحرروها في

كتبهم، ونبين أنك لن تبدأ من مبدأ الفلاسفة الطبيعيين الغربيين في تجويز إخضاع كل ما هو غائب مطلق التغييب من هذا العالم (زمانا ومكانا) للقياس على ما هو شاهد منه، إلا انتهيت – لا محالة – إلى الزندقة ومحض التعطيل، أيا ما كان تفصيل نظريتك التي انتهيت إليها، نسأل الله السلامة! أردنا أن نبين أنه من الجهل ومحض الضلال والزيغ أن يقال كما تقوله المتكلمة في كل عصر: إننا لا يعنينا الآن إلا أن نثبت وجود الصانع من "طريق العقل" حتى نحتج بذلك على الخصم الدهري، فإذا قبل منا ذلك، حدثناه بعدئذ على صفات ذلك الصانع التي نثبتها في ديننا! فيقال للواحد من هؤلاء: إنك لن تسلك في ذلك طريقا يراه هو طريق العقل إلا انتهيت – لا محالة – إلى إثبات صانع ليس هو ما يثبته أتباع المرسلين ويعبده المسلمون! وإنما هو صانع الفلاسفة العدمي الذي لا تثبُت له صفة إلا ما تجيزه ميتافزيقا الفلاسفة الأكاديميين كيفما اتفق لها أن تكون في زمانك، التي التزمتها أنت تسليما رجاء أن تقنع أصحاب تلك الأكاديميات بأن دينك يقوم على ما يعدونه هم من كمال العلم وكمال العقل!

هذا هو المنهج المعرفي السوفسطائي الجدلي اليوناني الذي ابتلعه أهل الكلام، فكان ولم يزل يفرز من طوائف الجهمية والفلاسفة الإسلاميين ما لا يحصيه إلا الله! فمن لم يصدق ذلك، فدونه الدكتور عمرو شريف و"رحلة" عقله الطويلة من الجهمية إلى ما هو أخبث منها وأضل سبيلا، والله المستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل!

قال "عدنان إبراهيم" في قرمطة داروينية سخيفة للغاية على قول الله تعالى: ((إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)) [آل عمران : 33] إنه قد يكون فيه دليل (أو للدقة قال: إشارة!) على أن آدم لم يكن هو أول البشر، وإلا فعلى من اصطفاه إن لم يكن قد عاصره أحد؟ فإذن لابد أن كان في عصره وقبل عصره بشر بحيث يكون هو المصطفى منهم! وهذا ضرب من الهذيان عظيم، وحسبك به أنه مصادم لصريح القرآن في طول الكتاب وعرضه، ولما عليه إجماع الأمة بل ولما هو معلوم من دين المسلمين بالضرورة، من كون آدم عليه السلام هو أبو البشر وأولهم، المخلوق من طين لازب، لا من أب وأم! ولعلي لا أبعد النجعة إن قلت إنك لا تكاد تجد مثلا تضربه لاتباع ما تشابه من القرآن أبين ولا أظهر من هذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! نقول إن معنى اصطفاء الله تعالى لآدم عليه السلام ظاهر في كونه جل شأنه لو شاء ما اجتباه وما جعله نبيا، وإن كان هو أول البشر وأبوهم وابتداء نوعهم! فهو اصطفاء على كثير من غيره من أفراد نوعه، الذين هم كلهم ذريته، ولا إشكال في ذلك! أما أن يقال إن الاصطفاء يقتضي أن يكون قد سبقه غيره من نوعه حتى يكون هو المختار منهم، فهذا لا يقتضيه اللسان ولا يدل عليه العقل ولا علاقة له بفهم المسلمين لكتاب ربهم أصلا، والله المستعان!

وقال كذلك إن سؤال الملائكة الذي حكاه رب العزة في قوله: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)) [البقرة : 30]، هذا فيه كذلك إشارة إلى أن آدم لم يكن هو أول هذا النوع في الأرض، وإلا فكيف عرفت الملائكة أن هذا النوع من شأنه أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ ونقول الله أعلم كيف عرفت الملائكة! لم نكن نحن ملائكة من قبل حتى نعرف كيف تعرف الملائكة ما تعرفه وما هي أنواع المعارف التي تحصل لهم وأي علم علمهم الله إياه! هذا غيب محض لا متسع فيه للرأي والعقل والنظر! وقد أثر عن بعض السلف كابن عباس رضي الله عنهما أن الأرض كانت مرتعا للجن قبل خلق آدم، وكانوا يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فلما عرفت الملائكة أن المقصود باستخلاف آدم وذريته، جعلهم خلفاء للجن في عمارة الأرض، توجهت إلى الله بهذا السؤال! والله أعلم بصحة ذلك، لكن إن صح، فمن الواضح أن الجن ليسوا من الهومينيد الذين هم سلف البشر في الأرض على الاعتقاد الدارويني! فلماذا يصر هؤلاء على إعمال عقولهم فيما لا نظير له في عالم الحس والشهادة؟؟ لأنهم قد تلقوا عن الفلاسفة نظريات غيبية قد عظمت في

نفوسهم غاية العظم، فأبوا إلا أن يستنطقوا القرآن بما يوافقها ولو من باب "الإشارة" و"الاستئناس" كما هي عبارة هذا الرجل!

وقال كذلك إن ثمة "إشارات" إلى الانتخاب الطبيعي إشارات إلى الانتخاب الطبيعي في قوله تعالى: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [فاطر : 1] وقوله تعالى: ((أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)) [قـ : 15] وقوله تعالى: ((وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)) [نوح : 14] وهذا ضرب من الهذيان، وعدوان على القرآن لو قبلناه لانماع كتاب الله تعالى ولصار فيه "إشارات" لكل شيء يحلو لزنديق من الزنادقة أن يدعي إشارته إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! لا الزيادة في الخلق هنا تطوير، ولا خلق البشر أطوارا (أي في الأرحام) له علاقة بالتطور الدارويني من قريب ولا بعيد 45، ولا الخلق الجديد له علاقة بمخلوقات الحياة الدنيا أصلا، وإنما هو ما يكون في يوم البعث، فالخلق الأول خلق الدنيا، والخلق الجديد الذي التبس فيه الكفار هو الإحياء بعد الموت! ولا أخالني أحتاج إلى أن أسوق للقارئ الكريم تفسيرات الأئمة والعلماء رحمهم الله تعالى لهذه الآيات حتى يتبين لهم أنها لا علاقة لها البتة بهذا الهراء! ولكن حسبك أن ترى هوان القرآن وعلومه على زنادقة هذا الزمان، وسعيهم الحثيث في تلبيسه بزبالة عقائدهم من أيما طريق كان، والله المستعان!

والرجل في الحقيقة ظل يتخبط كثيرا في موقفه من تلك النظرية، على كثرة ما كان له من كلام وخوض فيها. فتارة تسمعه يقول إنه على استعداد لقبول تسع وتسعين بالمئة من دعاوى أصحابها (ولا تدري ما هو هذا الواحد بالمئة الذي تركه وعلى أي أساس حكم بنسبته إلى جملة ما جوز لنفسه أن يقبله من النظرية!)، وتارة تراه ينتصر لها انتصار المؤمن المتشدد لدينه، وتارة تسمعه يتكلم عن آدم عليه السلام بهذا الذي تقدم ونحوه من الخرص على كتاب الله انتصارا للسلف الدارويني المزعوم لنوع البشر (إلى حد أن يأتيك بأحاديث موضوعه كحديث: "قبل آدم ألف آدم" الذي انتزعه من بعض كتب الصوفية، معترفا بأنه لا أصل له!)، وتارة تجده يعوّم الأمر ويعميه كأنه متوقف، يقول ربما ولعل! وهو في جميع ذلك يرى القضية ساحة "للاجتهاد" المستساغ وكأنما نتكلم في مسألة من مسائل النزاع الفقهي التي لا يضار المسلم في دينه إن مات فيها على مذهب مرجوح، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وهو من جهله كثيرا ما يسخر ممن يقولون بما سماه القوم "بالخلق المستقل" (الذي يقصد به عقلاء المسلمين وأهل الكتاب خلق الأنواع

استقلالا لا من بعضها البعض تطويرا وترقية كما هو مذهب الدراونة)، وهو ما لا يكون إلا من دارويني جلد!

ثم لما ضغط عليه مريدوه – فيما يبدو - ليحسم موقفه ويبينه بوضوح من تلك النظرية، قال "الحقيقة التطور الموجه Oriented Evolution هو ما نؤمن به، عشان ترتاحوا يعني، وهذا الذي يفسر أشياء يعجز التطور عن تفسيرها، وهيك ننتهي إلى أن التطوير هذا هو أسلوب الله في الخلق". اهـ. ثم يقول في نفس المحاضرة إن ما سماه "بالخلقوي" (ولا يدري من جهله أن هذا المصطلح Creationist يجري – في أدبيات الغربيين - عليه هو كذلك وعلى جميع القائلين بالتطور الموجه هذا، وبأي صورة أخرى من صور الترقيع والتوفيق بين التطور والاعتقاد بوجود صانع بالغيب!)، وهو يريد به ما سماه "بالتكويني"، أو الذي يؤمن بأن الله خلق أنواع الدواب في أصولها الأولى بكلمة التكوين (وهذا على عقيدته لم يكن ولم يحصل، مع أن الله تعالى يقول في محكم التنزيل: ((إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [النحل : 40]!)، هذا لا يمكنه أن يفسر لماذا توجد طيور لها أجنحة يكسوها الريش ومع ذلك لا تطير! فبالله هل رأيت سفاهة في تأسيس العقائد الغيبية المحضة قبولا وردا أبلغ من هذا؟ أهذا ما يراد من المسلمين أن ينتهجوه في تأسيس العقائد؟؟ ما وجه الإثبات أو النفي الوجودي لحصول الخلق على الطريقة الداروينية (التي سماها بالتطويرية) في مجرد حقيقة أن القائلين بنفي تلك الطريقة وتكذيب نسبتها إلى رب العالمين (لأسباب سمعية شرعية) لا يجدون تفسيرا لوجود عضو ما في نوع قد زعموا أنه خلق بغير تلك الطريقة؟؟ ثم إن سلمنا بافتقار صاحب القول بهذه الطريقة في الخلق أو تلك إلى ذاك التفسير المشترط عليه، أيجوز إذن إلزامه بأنه ينفي وجود تلك الوظيفة أو الحكمة واقعيا، أو بأنه يجعل من عدم علمه علما بالعدم، ومن ثم يحكم على خلق الله بالعبث (كما زعمه الرجل في تلك المحاضرة)؟؟ فليكن أنه يعتقد أن الله خلق ذلك الطائر خلقا مباشرا (كما يسميه بعضهم) أو خلقا مستقلا كما يسميه هو أو خلقة بكلمة التكوين، وجعل فيه من أول يوم ذلك الجناح الذي لا يطير به، فكان ماذا؟ أيكون مجرد الجهل بوظيفة ذلك الجناح دليلا على أن الله لا يمكن إلا أن يكون قد خلقه بطريقة داروين؟؟ أهذا إلزام منطقي ببطلان النفي والاعتراض على الطريقة الداروينية يا من صدعت رؤوسنا بالكلام على المنطق والعقليات وإعمال العقل؟؟ بئس العقل عقلك والله!

أخذ الرجل يفصل في شرح التفسير الدارويني السمج لوجود الأجنحة في الطيور التي لا تطير في نيوزيلاندا بالضمور والتضاؤل بسبب أنها لما جاءت أسلافها مهاجرة إلى الجزيرة، لم تجد فيها ثدييات تتنافس على موارد

الجزيرة، فأعجبتها الجزيرة واطمأنت للمقام فيها ولم تعد تحتاج إلى أن تهاجر بل ولا إلى أن تطير أصلا!! وإذن فلم تعد تحتاج إلى استعمال الأجنحة، فضمرت تلك الأجنحة وفقدت لياقتها، ونسيت تلك الطيور كيف تطير (وتأمل الفوضوية المحضة التي غفل عنها الرجل في ذلك التفسير!)، هذا هو التفسير الذي زعم أن افتقار المخالفين لنظيره يكفي لتقديم العقيدة الداروينية في السلف المشترك على ما يخالفها!

فبالله يا عقلاء هل هذا الخطل هو ما به تندفع شبهة العبث وعدم الغاية أو الوظيفة في خلق تلك الأجنحة، كما زعمه هذا الدارويني التائه، أم هو ما به تثبت على الحقيقة؟ ثم حتى لو لم يكن هذا تفسيرا عبثيا يقتضي اعتقاد أن الله تعالى يخلق أجيالا متتابعة من الأنواع الحية فيها أعضاء مهملة لا وظيفة لها إلا أن تكون بقايا ومخلفات لوظائف منقرضة كانت في الأسلاف، فإنه ليس في مجرد حصول ذلك التفسير في وهم أصحابه ما يقتضي صحته في نفس الأمر! فوالله مهما بلغ تفسير الدراونة من التفصيل الدقيق ومن التناسق المنطقي فيما بين أجزائه (على التسليم بمنطقيته ولا نسلم)، ومن تراكم الأقيسة والتأويلات بعضها فوق بعض طبقات، فلا يفيدهم بشيء البتة في إثبات ما يريدون! ولكن الرجل جاهل مسكين مفتون لا يدري يمينه من شماله في فلسفة الاستدلال الدارويني خاصة وفي منطق الطريقة التجريبية عامة Scientific Method وبخاصة في الفرق بين المشاهدة وتأويل المشاهدة وضوابط دلالة ذلك التأويل على ثبوت أو انتفاء الفرضية التفسيرية، وطريق الوصول إلى وضع الفرضية التفسيرية نفسها من الابتداء وحدوده وضوابطه، فلم يحرر لنفسه في ذلك كله مذهبا - مع وجوب ذلك عليه إن كان ولابد خائضا في تلك القضايا - يقرر به حدود العقل الصريح في تطبيق تلك الطريقة وفيما يصح وما لا يصح إثباته أو نفيه من طريقها من أنواع الحوادث والموجودات! وإنما هو فيها مقلد أعمى كغيره من متفلسفة عصره من بني جلدتنا ممن بهرتهم بهارج تلك النظريات وخلبت عليهم ألبابهم فغرقوا فيها حتى تشبعت بها عظامهم وتشربها نخاعهم!

والعجيب أنه، مع ذلك، أعد سلسلة من ثلاثين "درسا" عن نظرية التطور، ظهر في كثير منها أكثر داروينية من داروين نفسه، وأكثر غلوا في الطبيعية المنهجية Methodological Natrualism من الطبيعيين أنفسهم، وكاد من خفة عقله وانبهاره بالنظرية أن يرفع صاحبها المعلون إلى منازل الأنبياء، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهلا رحمت نفسك يا رجل ورحمت أتباعك وسكت عما لا تعقل؟؟

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الزنديق معروف بالتساهل البالغ مع الفلاسفة وتسويغ الخلاف في قضايا الاعتقاد إلى حد تصريحه بالترحم على

الهالك "ستيفن هوكينغ" إمام الإلحاد الكوزمولوجي في العصر الحديث، يقول إنه يترحم عليه كما لا يترحم على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، بالنظر إلى ما قدمه للإنسانية – بزعمه – على معاناته مع مرضه، في مقابل ما تلبس به معاوية من مظالم ومقاتل بزعمه، فالله نسأل أن يرينا في هذا الزنديق خاتمة تشفى بها صدور المؤمنين!

وأما صنوه المتفلسف الفلسطيني "بسام جرار"، فأتى في درس من دروسه على قول الله تعالى: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)) [السجدة 7-9] فتقرمط عليه ليجعله دليلا على أن خلق الإنسان كان عملية طويلة كما وصفها داروين وأتباعه، وأنها إنما كانت بدايتها من طين، لا أن الإنسان الأول قد خلق من طين، ولكن كان الذي خلق من طين نوع متقدم على الإنسان، حصل التناسل بين أفراده لأحقاب طويلة أولا، ثم حصلت أخيرا "التسوية" ونفخ الروح (ثم سواه)، بظهور آدم الذي نفخ الله فيه من روحه وصيره أول إنسان!! وهذا كلام لا علاقة له بكلام رب العالمين الذي زعم أنه تفسيره، ولا بما في كتاب الله وما في سنة رسوله، ولا بفهم الصحابة والتابعين ولا بطرائق المفسرين ولا بشيء من علوم الدين البتة! بل إنه لا علاقة له بعقول أهل اللغات كافة، فضلا عن أهل اللسان العربي! فالآيات تنتظم ببيان أن المادة التي خلق منها الإنسان هي الطين، فهي ابتداء خلقه من هذا الوجه. ثم تقول إنه بعد خلق الإنسان من الطين واكتمال خلقته، أصبح البشر يخلقون في أرحام النساء منهم من المني (الماء المهين)، فتسوى خلقتهم وتنفخ فيها الروح وهم في الأرحام، ويجعل لها السمع والبصر والأفئدة، منة من الله وفضلا. هذا ما يفهمه العقلاء من نظم الآيات، وكما فهمه الصحابة والسلف وأئمة التفسير والمسلمون أجمعون! فيأتي هذا السفساط ويقول في تنطع قلّ نظيره، إن الآية الأولى تنص على خلق سلف آدم، لا على خلق آدم نفسه، وأنه كان طينا، ثم إن ذلك الطين تناسل (قبل التسوية ونفخ الروح!!!) لقرون طويلة، حتى جاء أوان النفخ والتسوية التي بها خلق آدم من نسل ذلك النوع الطيني الأول! فهل هذا كلام يقبله عقل عاقل؟؟ هل يصح في العقل أن يخلق مخلوق حي من أي نوع من أنواع الدواب، فيصير نوعا مخلوقا يتناسل ويتكاثر من قبل أن يسوى وتنفخ فيه الروح؟ هذا أشبه بهذيان المخمورين أعزكم الله!

والعجيب أن الرجل يصر في شرحه تلك البدعة العجيبة على أن مخالفه يزعم أن الإنسان خلق "فجأة" من الطين! فما معنى "فجأة" هذه؟؟ المسلمون يا أستاذ بسام إذا أرادوا أن يعرفوا كيف خلق الله آدم عليه

السلام، فإنما يجمعون نصوص الكتاب والسنة، يفسرون بعضها ببعض، مستندين إلى ما عليه السلف والأئمة من فهمها، لأنهم هم المؤمنون الذين أمرنا الله باتباع سبيلهم في قوله جل شأنه: ((وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً)) [النساء : 115]! فلو أنه كلف نفسه أن يفتح صحيح مسلم – مثلا – يوما ما، ولو من باب الفضول والتثقف أو القراءة العابرة على الأقل، لوجد فيه حديثا يرويه عن أنس رضي الله عنه (برقم 2611)، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لمَّا صوَّر اللهُ آدمَ في الجنَّةِ تركه ما شاء اللهُ أن يترُكَه . فجعل إبليسُ يَطيفُ به، ينظُرُ ما هو، فلمَّا رآه أجوفَ عرف أنَّه خلَق خلقًا لا يتمالكُ." اهـ. قلت: فهذا نص ظاهر صريح على أن الله صور آدم من الطين أولا ثم تركه لفترة ما، الله أعلم بها، لا أنه خلق "فجأة"! ولكن هو يريد أن يلبس النصوص لبوس التطوير عبر أجيال لنوع قديم، فمهما جئناه بنصوص تفيد أن آدم خلق بعينه على صورته من طين، فلن يجد إلا أن يردها أن يحرفها عن معناها!

قال ابن كثير رحمه الله في "البداية والنهاية" (ص. 215): "واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة، فقيل: بعض يوم من أيام الدنيا. وقد قدمنا ما رواه مسلم، عن أبي هريرة مرفوعا وخلق آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة. وتقدم أيضا حديثه عنه: وفيه يعني يوم الجمعة خلق آدم، وفيه أخرج منها. فإن كان اليوم الذي خلق فيه، فيه أخرج، وقلنا: إن الأيام الستة كهذه الأيام، فقد لبث بعض يوم من هذه. وفي هذا نظر. وإن كان إخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه أو قلنا: بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة، كما تقدم عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، واختاره ابن جرير، فقد لبث هناك مدة طويلة. قال ابن جرير: ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر، فمكث مصورا طينا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثا وأربعين سنة وأربعة أشهر، والله تعالى أعلم" اهـ. قلت والشاهد استنباطه رحمه الله (على القول بأن الأيام الستة هي ستة آلاف سنة من أيامنا) أنه بقي مصورا طينا أربعين سنة! فعلى جميع الأقوال في المسائل ذات الصلة، فلن تجد يا أستاذ بسام من يقول إن آدم خلق من الطين "فجأة"، فهلا احترمت عقول المسلمين وكلفت نفسك النظر في مصادرهم وكلام علمائهم قبل أن تقولهم ما لا يقولونه، تنصب لنفسك قولا وهميا تنسبه لمخالفيك كذبا ثم تحسب أنك إن نسفته وسفهته فقد انتصرت عليهم؟!

وفي قرمطة أخرى في نفس المحاضرة جاء الرجل بقوله تعالى: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ

يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ)) [الأعراف : 11] فتأوله على أن المراد بخلقناكم هنا هو خلق أنواع القردة العليا قبل آدم، والمراد بصورناكم هو خلق آدم من ذرية تلك القردة! فما الدليل؟ قال إن "ثم" الواقعة بين "خلقناكم" و"صورناكم" تفيد التراخي، فإذا كان نوع البشر قد خلق أولا، ثم صور بعد ابتداء الخلق بفترة، فلابد أن يكون المراد بالخلق ثم التصوير هو أسطورة داروين في السلف المزعوم لآدم! قلت: فكأنما خلا الكتاب وخلت السنة من ذكر لخلق آدم عليه السلام وخلق البشر إلا هذه الآية، وكأنما نزلت علينا الآية بالأمس أو اكتشفناها في كهف من الكهوف أو في لفيفة من اللفائف المدفونة في صندوق تحت الأرض، فلم يتكلف تفسيرها أحد من المسلمين قبل هذا الرجل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! صدق القائل جل في علاه: ((هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ)) [آل عمران : 7]!

ألا يستحيي هؤلاء من الكذب على الله وهم يعلمون؟؟ من من تلامذة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم في هذه الآية هذا الفهم الأعجمي السقيم؟ وإن لم يكن يعنيكم يا هؤلاء فهم تلامذة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما علمهم إياه من كلام ربهم، فمن أين يؤخذ فهم مقاصد رب العالمين ومراداته من كلامه إذن؟؟ من أين يؤتى بالفهم الصحيح لكلام رب العالمين وعمن يتلقى إن لم يكن عمن تعلموا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعوا منه مباشرة بلا واسطة؟؟ وأي قيمة تبقى لنص يُترك معناه ومراد صاحبه منه هملا أوكلأ مستباحا لكل من هب ودب يخترع له من المعاني ما يحلو له ويناسب هواه؟؟ وأي حفظ للذكر يحصل في أمة خاتم النبيين إن صح مذهبكم في التأويل أيها الأباعد قاتلكم الله، وكيف يحصل في نظركم، وأي حقيقة تكون لقوله جل شأنه ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [الحجر : 9] وأي مزية إذن تكون لنصوصنا على نصوص أهل الكتاب من قبلنا إن كنتم تعقلون؟ لعن الله الأهواء وأهلها! الخلق والتصوير في هذه الآية يفهمان بجمع ما ورد في الكتاب والسنة من نصوص أخرى في نفس الأمر، نجمع بينها ثم نخرج بالفهم الصحيح! ولو أنا فعلنا واستقمنا في ذلك على طريقة الأئمة وأهل الشأن فلن نخرج إلا بقول السلف رضوان الله عليهم!

أما هؤلاء فعلى عادة أهل البدع والأهواء يأتي أحدهم بنص يبدو له ولو من بعيد أنه قد يوحي بوجه من الوجوه بالمعنى الذي اعتقده سلفا ثم راح يفتش في كتاب الله وسنة رسوله بحثا عما ينصره به، ثم ينتزعه من سباقه

ولحاقه ويعامله وكأنهما لم ينزل في القرآن والسنة وحي في المسألة إلا هو، وكأنه لم يتعرض له أحد من أئمة المسلمين بالشرح والتفسير قبله يوما من الدهر، ثم يتفنن في اختراع المعاني والتأويلات التي يراها خادمة لاعتقاده ضاربا عرض الحائط بكلام كل من سلف من علماء الأمة ولا يبالي! فلا جديد في منهج الجهمية المجرمين، ولا في تبعيتهم العمياء وانكسار نفوسهم المريضة المفتونة تحت أقدام فلاسفة الدهرية الأكاديميين، وإنما يجدّ ما يستجد من نظريات لا يزال الواحد منهم يتلقفها كأنها وحي السماء، ثم يعيد بناء اعتقاده الغيبي وتأويل نصوص دينه كلها جريا عليه، فزعا وجزعا من أن يقال: جاهل أو سفيه أو لا عقل له، إن رد تلك النظريات أو اعترض عليها، أو حتى تطرق ذهنه ولو من بعيد للتوهين من قدرها وقدر أصحابها، معاذ الله!

قال الإعجازي الجغرافي السعودي د. عبد الله المسند في صفحته على "تويتر"، منتصرا لاعتقاد التطويريين وزعمهم بأن آدم عليه السلام كان مسبوقا على الأرض بنوع من البشر "أقل تطورا":

> دليل شرعي، وآخر حسي مادي، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء) وهنا إشارة إلى أن الملائكة لديها علم عن سلوك من سبق آدم (الخليفة) فوق الأرض، ونقل ابن كثير في البداية والنهاية: "قال كثير من علماء التفسير: خلقت الجن قبل آدم، وكان قبلهم في الأرض الحن والبن، فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم". ونقل أيضا: "وقال ابن عمر كانت الحن والبن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء" ومن يجزم بأن آدم لم يسبقه بشر قبله على الأرض فكيف يؤول ويفسر وجود هياكل عظمية بشرية سابقة ومتقدمة على آدم بعشرات بل بمئات الآلاف من السنين؟ كما أثبتها العلم (وهذا هو الدليل الحسي)، ونحن نؤمن بأنه لا يمكن تعارض صحيح النقل مع صريح العقل، ولا يمكن أن يقع تعارض بين قطعي من الوحي، وقطعي من العلم التجريبي، هذا ولا يعلم على وجه التحديد متى وجد البشر (قبل آدم) فوق الأرض!؟ ولكن أشكالهم وأحجاهم قريبة جدا من ذرية آدم، وأخبرنا القرآن عنهم بل ولامتهم الملائكة بأنهم يفسدون ويسفكون الدماء وهذا دليل على أنهم خلق عاقل. وأدواتهم المكتشفة تدل أيضا أنهم خلق عاقل، وليسوا نوعا من حيوان يشبه الإنسان كما زعم البعض!! ولا يعلم كيف كان انقراضهم؟ وما سببه؟ وكم طول الفترة الزمنية بينهم وبين آدم؟ وعليه يتضح ألا تعارض بين تلك الاكتشافات والمستحاثات العلمية القديمة جدا، وكون آدم أبو

البشر الحاليين، وخليفة من سبقه من بشر سابقين. والذين يصرون على عدم وجود بشر قبل آدم على الأرض يقعون في حرج في الجمع بين القرآن، ومخرجات العلم الصحيح في هذا الشأن، ويلزمهم رد ونفي اكتشافات العلماء من الحفريات علميا.. لا أدبيا وفلسفيا، هذا والله أعلم.

قلت: في هذا الكلام من الفساد المنهجي في النظر والاستدلال ما يصلح أن يكون مثالا لتدريس الطلبة كيف تعمي الأهواء بصيرة الإنسان فتقلب الوهم دليلا، وتحيل المتناقضات إلى متوافقات متشابهات، والله المستعان. هذه – أيها القارئ الكريم - هي منهجية الاستدلال عند الدكتور هداه الله، نرتبها في خطوات بإيجاز:

- عقد النفس – من الابتداء - على الجزم بقطعية دعوى المنظر الطبيعي (التي وقع اتفاق جماهير الطبيعيين في هذا العصر على قبولها)، وهي في هذه الحالة الاعتقاد بأن وجود أنواع من "البشر" على الأرض قبل ملايين السنين من ظهور الإنسان الحديث عليها (على مصطلح الدراونة) = حقيقة قطعية ثابتة "بالدليل الحسي".
- البحث في القرآن أو السنة عن نص يبدو قابلا للتأويل بما يوافق ذلك الاعتقاد الجازم عند صاحبه.
- اختراع التأويل الجديد المطلوب لذلك النص، مع التذرع بذريعة الجمع بين قطعي القرآن وقطعي العقل والحس لأنهما لا يتعارضان.

بهذه الطريقة الملتوية، يشبع المتجهمة من أهل القبلة في هذا الزمان شهوة كل مفتون منهم بالطبيعيات ونظريات أصحابها في النجاة من "تهمة" التعارض بين الدين و"العلم الحديث" (هكذا)! فلا يضيرهم ما يسقط من أثر ذلك العبث من إجماعات السابقين، ولا ما تطفح به تأويلاتهم من تكلف وتنطع لا يخفى على من له أدنى دراية بذلك الشأن، وإلى الله المشتكى. المهم أن يسوغ الواحد منهم لنفسه ولأقرانه وموافقيه ما اختاره من البقاء على معتقد الأكاديميين الطبيعيين المعظمين في زمانه، حتى لا يقال إنه – لا سمح الله ! – يخالف "إجماعات علماء العصر" (هكذا)، ويتهم من ثم بأنه جاهل أو متخلف عن علوم الزمان أو بأن دينه قد "أثبت" العلم الحديث بطلانه، كما تتشدق به الملاحدة وتدندن حوله ليل نهار!

يقول الدكتور هداه الله، فيما بدأ بوصفه بأنه "دليل شرعي" على أن آدم كان مسبوقا على الأرض ببشر عقلاء من نفس نوعه وسلالته الداروينية: "وهنا (أي في آية البقرة) إشارة إلى أن الملائكة لديها علم عن سلوك من سبق آدم (الخليفة) فوق الأرض"، قلت: صحيح، ولكن لا دليل فيه على ما تريد، كما لا يخفى. فغاية ما في آية البقرة أن تثبت أن الله تعالى جعل من

آدم وذريته خلفا لنوع من الخلق المكلف على الأرض من قبله، وأنهم (أي ذرية آدم) يخلف بعضهم بعضا (خلائف في الأرض) ويسفك بعضهم دم بعض كما كان فيمن سبقوهم. أما أن تكون الآية دليلا على أن البشر المعاصرين هم نسل من سلالة بشر سابقين منقرضين كما هي عقيدة الدراونة، فهذا مصادم لإجماع المسلمين ولصريح القرآن في غير آية! فكل ما جاء في القرآن صريحا في أن الله تعالى قد خلق آدم من طين وحمأ مسنون، وفي أنه خلقه في السماء ثم أهبطه منها، يدل دلالة صريحة واضحة لا التباس فيها على أن نوع البشر (الذين جعلهم الدراونة سلالة من سلالات القردة العليا، ينحدر بعضها من بعض بالتطور عبر الأجيال) قد استحدثه الله تعالى بخلق آدم خلقا جديدا على غير مثال سابق، وأنه أول نوع يخلق من الطين والصلصال ليكون مكلفا مستخلفا مستعمرا في الأرض! هذه مسألة أظهر في تراث الأمة من أن يُنقل فيها إجماع عن الأولين من أهل التفسير أو غيرهم من علماء المسلمين! ومع ذلك، يأتي متدرونة القبلة في هذا القرن ليخرجوا من القرآن ومن كلام المفسرين وأهل العلم المتقدمين ما يزعمون أنه "دليل شرعي" على أن الله تعالى أنزل آدم ليكون خليفة لنوع منقرض من أنواع المخلوقات، مشابه له ولذريته في الخلقة والهيئة والتقويم والعقل والسلوك غاية المشابهة، متوسط بينه وبين القردة في جميع ذلك (كما يزعمون أن الحس قد دلهم عليه)، بل وعلى أنه كان (أي ذلك النوع البشري المنقرض) مكلفا تكليف البشر كما أن آدم وذريته مكلفون!

الله تعالى يقول في صريح القرآن حاكيا كلام إبليس: ((قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)) [الحجر : 33]، أي أن هذا النوع الذي يقال له "البشر" قد خلق من الصلصال من الحمأ المسنون خلقا جديدا على غير مثال سابق! فنحن المسلمين نؤمن بأن الله تعالى خلق سائر الدواب على الأرض من ماء (من غير مثال سابق لكل نوع من أنواعها)، وخص الإنسان بخلقه في السماء خلقا مستقلا من غير مثال سابق من الطين والصلصال (وفيه الماء والتراب)، وخلق الجان كذلك من مارج من نار وخلق الملائكة كذلك من نور. هذه مسألة لم يخالف فيها أحد من الأولين قط، بما في ذلك من اعتقاد أن الأرض لم يظهر عليها "بشر" مخلوق من صلصال، إلا بإهباط آدم وذريته إليها. وأما النظرية فتقرر أن البشر كلهم سلالة واحدة من نسل واحد وأصل واحد، تطورت فروع ذلك الأصل بالتدرج عبر الأجيال، بداية من الكائن أحادي الخلية، ومرورا بأنواع القردة العليا والهومينيد المزعوم، ووصولا إلى صورة البشر المعاصرين! وبناء على تلك الفرضية الارتقائية يجري تأويلهم لكل حفرية يتحصلون عليها هنا أو هناك، على طريقة مغرقة في الدوران المنطقي والخيال والوهم المحض كما بينا في غير موضع! فبأي عقل وبأي طريق مقبول من طرق الاستدلال يا عقلاء

المسلمين يتصور الجمع بين الاعتقادين (خلق البشر في السماء من طين لازب، وارتقاء البشر تدريجيا على الأرض من سلالات القردة العليا)؟ فإن قالوا نحن لا نعتقد أن آدم وذريته قد انحدروا من سلالة "البشر الأرضيين المنقرضين"، وإنما خلق آدم في السماء على صورة كصورة البشر السابقين، ولم يظهر البشر المعاصرون (آدم وذريته) على الأرض إلا بعدما أفنى الله البشر السابقين من على الأرض افناء، قلنا ولكن هذا يخالف ما تزعمون أنه "دليل حسي" في إثبات الأسطورة الداروينية نفسها وما فيها من تفاصيل خرافية!

فإن جعلتم طريقكم السعي في تأويل الحفريات على نحو ما سلكه الدراونة أنفسهم، حتى تثبتوا ما تريدون، فقد ظهر بمجرد ذلك بطلان اعتقادكم في تلك الحفريات أنها "أدلة حسية" بل واعتقاد أنها تصلح أن تكون أدلة (أصلا) في باب إثبات أصول الأنواع ونفيها! إذ غاية ما يجوز في العقل من تأويل لسبب الصفة التي تكون عليها الحفرية، أن تقاس أحوالها على أحوال وصفات الأنواع الحية المعروفة حاليا كما هي، فينسب ما في العادة والخبرة البشرية إلى ما يناظره مما يبدو من صفة تلك الحفرية، فإن تفاوتت في بعض ذلك بحيث تقارب صفة أنواع أخرى من المعروفة الآن كذلك، لم يكن في ذلك التفاوت أو التقارب أو التداخل في الصفات ما يدل على أن الحفرية كانت لنوع يصح اعتباره أصلا مشتركا للنوعين، أو على أن تلك الأنواع كلها قد انحدرت من أصل واحد على الطريقة الداروينية، أو على أن الله قد خلق بعضها من بعض، أو خلق بعضها خلقا مستقلا عن بعض، مع كونها مشابهة لما كان قبلها أو لبعض ما كان معاصرا لها من أنواع الكائنات، أو على أي شيء من تلك الدعاوى الغيبية المحضة في أصول الأنواع المخلوقة، التي استجاز القوم استعمال الأقيسة الحسية في بنائها، والاستقراءات في العادة البشرية بلا مستند عقلي صحيح! هو اعتقاد دهري طبيعي صرف، وضعت لخدمته نظرية معرفية (إبستمولوجيا طبيعية) في الاستدلال القياسي بالمحسوس لمعرفة المغيبات المحضة، وتأسس عليها – أي تلك النظرية – أساطير متراكمة عند أصحابها كالجبال، والله المستعان!

فبالله متى يفهم هؤلاء أن أسطورة داروين لا محل فيها لآدم ولا لقصة خلقه وإهباطه وتكليفه واستخلافه ولا لخلق مباشر من صلصال وطين لازم، ولا لخلق وتصوير ولا لشيء من اعتقادات المسلمين في ذلك الغيب أصلا؟ متى يدرك هؤلاء أن النظرية تقوم على فلسفة باطلة في الافتراض التفسيري أولا، ثم على فرضية دهرية إلحادية ثانيا، وأن كافة ما يقال له أدلة حسية وحفرية في تلك النظرية إنما مرجعه إلى ذلك الأساس الفلسفي الباطل في التفسير والتأويل، الذي نرده على صاحبه حتى وإن لم يكن منطلقه في

الافتراض منطلقا دهريا؟ المشكلة، أيها القارئ الكريم، في الانهزام النفسي العميق الذي يعانيه كثير من الناس تجاه الحضارة الغربية المعاصرة (وهو نظير الانهزام النفسي الذي عاناه الجهمية السابقون بإزاء الفلسفة اليونانية القديمة وما ارتبط بها من منطق وطبيعيات ورياضيات)، فإذا انضاف إلى ذلك ضعف في النظر وسطحية في فهم نظريات القوم، خرجت لنا تلك الأقوال والمذاهب الساقطة التي لا تجري على طريقة أي علم من علوم البشر، لا علوم الدنيا ولا علوم الدين، والله المستعان! تأمل كيف يشترط الدكتور في ذيل كلامه المنقول آنفا على من يرد على الدراونة نظريتهم و"أدلتهم"، شرطا ينبيك بمقدار فهمه لأصل النظرية التي اعتنقها ثم رفع عقيرته بأسلمتها وحشرها في اعتقاد المسلمين، إذ يقول إنه يلزم من يرد على تلك النظرية أن يرد "اكتشافات العلماء علميا" وليس بما سماه بالرد الأدبي والفلسفي! فلا أدري – أولا – أين وقف الدكتور على رد يوصف بأنه "أدبي"، في مقابل ما يسميه بالرد العلمي، ولكنا لا ندري – بالأحرى – ما تعريف الدكتور للعلم نفسه ومن ثم ما مفهومه للرد العلمي وشرطه فيه حتى يكون ردا علميا! هل يشترط أن يكون لدينا دليل حسي للنفي في تلك المسألة الغيبية المحضة، كما عند الدراونة ما يعده هو والمفتونين أمثاله دليلا حسيا للإثبات (بمعنى أن تظهر حفرية تدبو بكثير من خيال النظار الدراونة: متوسطة في صفاتها بين القرد والإنسان مثلا)، فحينئذ يصبح لدينا دليل يقبله هو وأقرانه على أنه لم يوجد في الأرض ذلك النوع المزعوم من "البشر" قبل آدم عليه السلام؟ قد سبق أن بينا باستفاضة كيف أن الطبيعيين أنفسهم من أصحاب تلك النظريات نفسها يعترفون بأن المشاهدات فيها لا تصبح "دليلا" (على طريقتهم في الاستدلال التي بسطنا الكلام في نقدها في غير موضع من هذا الكتاب) إلا بعدما تعتليها طبقات فوق طبقات من التأويل النظري Theory ladenness / Theoretical interpretation، بمعنى أنه ليس يتصور في العقل أن يشاهد الإنسان في يوم من الأيام تحقيق أي دعوى من تلك الدعاوى في مشاهدة حسية مباشرة، وهذا واضح، إذ موضوعها أحداث حصلت في الماضي السحيق لتنشأ بها أنواع جديدة من المخلوقات من غير مثال سابق! فهل يقبل الدكتور – هداه الله – أن يفهم الدليل التجريبي (الحسي) وطريقة الاستدلال به عند أصحاب تلك النظرية ونحوها، على الأقل كما يفهمونه هم أنفسهم؟ هذا أمر معيب للغاية والله، ولا علاقة له بالأدب ولا حتى بالفلسفة! من لم يفهم حقيقة الدليل الذي يتعلق به في بناء دعواه الاعتقادية ويحقق وجه الدلالة فيه ولو بصورة أولية، فليس يحق له أن ينتسب إلى العلوم وأصحابها أصلا، لا البيولوجية ولا الجغرافية ولا غيرها! لست أطالب الدكتور بأن يكون لديه تصور منهجي واضح للعلاقة بين نوع الدليل ونوع المسألة المعرفية نفسها التي يراد أن يُجعل ذلك الدليل دليلا لصحة أو بطلانِ دعاوى الناس

فيها، وإن كان هذا من واجبه شرعا ولا شك، إن كان يريد أن يعلم الناس خيرا ونفعا بحق، لا خرافة ووهما وباطلا يروجه السفهاء تحت لواء العلم، وإنما أطالبه بمبادئ الفهم الأكاديمي الأولي الذي يتعلمه طلبة تلك العلوم في جامعاتهم لعملية الاستدلال نفسها التي يمارسونها في بناء النظرية الداروينية!

فمجرد مطالبة الرجل خصومَه بهذا الشرط الذي شرطه لنفي تلك الدعوى الارتقائية في أصل نوع "البشر"، تدل دلالة صارخة على أنه لا يدري عن أي شيء يتكلم! فإنك يقينا لن تجد من الدراونة من يقول "إيتوني بدليل تجريبي حسي على وجود آدم وهبوطه من السماء كما تعتقدون"، وإن وجد هذا فهو جاهل بالمنهج التجريبي الذي ينتسب إليه! ذلك أن منهج التأويل النظري للمشاهدات عند الطبيعيين يجري على شرط التوفيق بين كل مشاهدة جديدة وبين البناء النظري المستقر سلفا لديهم (بجملته وشموله) ما داموا يجدون إلى ذلك التوفيق من سبيل. بمعنى أنك إن ظهرت لك مشاهدة معينة وأردت أن تفسرها، فعليك أن تنظر أولا في إمكان تفسيرها بما يلائم النظرية السائدة حاليا (أكاديميا) عند الطبيعيين، ولا تنتقل عن ذلك إلا إن امتنع تحصيل ذلك التفسير الملائم! فإن فرضنا أن مالت جماهير النظار يوما عن النظرية التي كانت سائدة قديما، أو ظهرت نظرية أخرى تبدو أليق بالذوق الأكاديمي العام على المستوى الفكري والثقافي والاعتقادي (بل والاجتماعي/السياسي) في عصر لاحق، فحينئذ تنتقد بعض التأويلات التي كانت مقبولة فيما مضى بأنها من قبيل التلفيق المتكلف في الافتراض Ad-Hoc، لا لشيء إلا لميل جماهير النظار في نفس الأمر إلى تأويلات أخرى تناسب النظرية الجديدة، فليس لهذه المسألة عند الطبيعيين ضابط موضوعي أصلا كما بسطنا الكلام عليه في غير موضع من هذا الكتاب! فبالنظر إلى طبيعة المسألة محل الافتراض والتنظير، فما دمنا نتكلم عن غيب محض، فلا حدّ ولا ضابط أصلا للقبول والرد في الفرضيات التفسيرية إلا مدى الموافقة والملاءمة للإطار النظري الأشمل الذي استقر بناؤه لدى الطبيعيين كيفما كان! فإذا ما بدعوا ذلك التفسير لتلك المشاهدة وتفننوا في كيفية تسويغه بالتفاصيل المخترعة المتكلفة والأقيسة الدقيقة الواهية (كما هو مشهور من طريقتهم في التعامل مع المستحاثات عموما ومستحاثات القردة خصوصا)، تحولت عندهم بمجرد ذلك إلى "دليل جديد" من جملة الأدلة لتعضيدها وتدعيمها "تجريبيا"!

وقد بينا كيف أنهم حين ردوا على مايكل بيهي وويليام دمبسكي وأصحابهما نظريتهم الارتقائية التصميمية المختلطة تلك (التصميم الذكي)، ردوها على أساس أن تلك المشاهدات التي تعلقوا بها ليس من المتعذر اختراع تأويل

جديد لها (بالترجيح الاحتمالي أيضا) يكون ألصق بجملة ما بين أيديهم من تأويلات داروينية متراكمة، وأوفق لها، دون الحاجة إلى ادعاء أنها (أي تلك المشاهدات بعينها وخصوصها) تتطلب فرضية إضافية زائدة لتفسيرها (ألا وهي "فرضية الصانع الذكي" على حدّ اصطلاحهم)! وأن من تنزل منهم وقبل تلك الفرضية في تلك الحالات تنزلا، فسيجد أنه من الأرجح احتماليا (على طريقتهم الترجيحية وجريا على مجموع أصولهم الكلية التي اعتنقها الخلقيون وانطلقوا منها كما بينا) أن يكون الصانع المفترض كائنا مناظرا للبشر في دخوله هو أيضا تحت طائلة الارتقاء الدارويني الطبيعي، كأن يكون من كائنات "اليوفو" التي ارتقت في كوكب بعيد مثلا! ولا شك أن من فهم أصولهم في الاستدلال في تلك القضايا، أدرك أن لاعتراضهم على خصومهم الخلقيين (الذين سلموا لهم بتلك الأصول) وجها وإلزاما قويا لا فكاك للخلقيين منه إلا بأن ينفكوا من ذلك الصنف من التنظير في ذاك الصنف من المسائل جملة واحدة! فالآن، على شرط الطبيعيين ومنهجهم في التنظير والاستدلال في تلك البابة، ما صورة الدليل "الحسي" – في تصور صاحبنا الدكتور - الذي يمكن أن يقبلوه لدالالتهم على ما نقول من ادعاء أن الله تعالى خلق البشر من طين لازب في السماء ثم أهبطه إلى الأرض ليعمرها وينتشر نوعه فيها، من غير أن يكون لذلك النوع مثال سابق من "بشر" أو "أشباه بشر" متقدمين عليه كان هو سليلا لها (جينيا)؟ إذا كان مبدأ التشابه الجيني والمورفولوجي نفسه، إلى جانب ما يتفق من ترتيب طبقات الأرض القريبة ونحو ذلك، هو مستند تسويغ التأويل الدارويني في كل مشاهدة، فبأي شيء يحصل الاستدلال المقابل عند من يريد أن يلتزم فيه نفس المنهج والمسلك في الاستدلال بالمكتشفات الحفرية والمستحاثات وهذه الأشياء؟ أو بعبارة أخرى: ما صفة الدليل المطلوب من نفاة ذلك الاعتقاد الدارويني في أصل النوع البشري على الأرض، حتى يوصف ذلك الدليل عند الدكتور بأنه دليل "علمي"؟! وهل هذا الكلام الذي حررناه في منهج الاستدلال بالمحسوسات في تلك القضايا الغيبية لا يوصف عند الدكتور بأنه كلام "علمي"؟ وهل في صناعات العلوم ما هو أهم عند من يشتغل بها من ضبط مفهوم الدليل نفسه وحدوده فيها؟ وهل لغير هذه الغاية يشتغل الأكاديميون الطبيعيون أنفسهم بتدريس منهجية البحث التجريبي في أكاديمياتهم العلمية؟

إن جعلتم – معاشر التجريبيين من بني جلدتنا - هذا الكلام المنهجي الكلي ونحوه مما يُنظر به ويبحث به في نوع الدليل ودلالته في هذا العلم أو ذاك = "فلسفة" أو "تفلسفا"، فما هو "العلم" عندكم وما حده، وما الفلسفة وما حدها؟ هذا سؤال يجب أن يخاطب به أمثال الدكتور ما دام قد أتحفنا بمثل قوله: "والذين يصرون على عدم وجود بشر قبل آدم على الأرض يقعون في

حرج في الجمع بين القرآن، ومخرجات العلم الصحيح في هذا الشأن، ويلزمهم رد ونفي اكتشافات العلماء من الحفريات علميا.. لا أدبيا وفلسفيا". فما معنى أن نرد "الاكتشافات في الحفريات" علميا أو ننفيها علميا؟ أن نزعم أنها لم تحصل لهم مثلا (أن وجدوا حفرية كذا في موضع كذا كما زعموا)؟ أم أن نأتي نحن بمكتشفات حفرية مقابلة لنتأولها على ما نعتقد (كما وقع من بعض الخلقيين النصارى المعاصرين في مسألة جيولوجيا الطوفان ونحوها)، ثم نرجو أن يلقى ذلك التأويل قبول الوسط الأكاديمي المختص وأن يصبح هو "العلم" المعتمد أكاديميا في يوم من الأيام؟ أم أن ننظر في تأويل الحفريات المكتشفة عندهم والأصل النظري والمنهج الكلي الذي به جعلوها دليلا على كذا وكذا في أمثال تلك الغيبيات المحضة؟ أي تلك البدائل هو "الرد العلمي" المرضي (منهجيا) عند الدكتور وعلى أي أساس ارتضاه؟ أليس لهذا الأمر "علم" ينبغي أن يكتسبه الناظر حتى يكون لنظره أساس صحيح، أم أن المسألة رمي بالمجملات الجوفاء (بمثل قولهم: هذه فلسفة وليست علما!) ذرا للرماد في العيون لا أكثر؟

يقول الدكتور: "الذين يصرون على عدم وجود بشر قبل آدم على الأرض يقعون في حرج في الجمع بين القرآن ومخرجات العلم الصحيح في هذا الشأن"، قلت: فما هو ضابط "مخرجات العلم الصحيح" عند الدكتور أصلحه الله، وبأي شيء حكم عليه بأنه علم وبأنه صحيح؟ أم أن المفترض في القارئ أن يسلم له زعمه بأن ما ينتصر به لمذهبه هو "العلم الصحيح" لا لشيء إلا لأنه أستاذ جغرافيا في جامعة من الجامعات؟ ما أكثر ما نسمع من جعجعة بعض الناس (لا سيما الإعجازيين ومن لف لفهم) حول "العلم الصحيح" و"مخرجات العلم الصحيح" ثم عند التحقيق لا نرى طحنا، بل لا نرى شيئا سوى التقليد الأعمى، والله المستعان! العلم الصحيح أيها القارئ الكريم هو كل ما قام على برهان صحيح. فإذا كان العلم المزعوم نظرية من النظريات، فلا تكون النظرية علما صحيحا إلا بأن تكون أصولها وفروعها ومنهجية الاستدلال فيها (سواء في التأصيل أو التفريع) راجعة إلى دليل صحيح! لكن الظاهر أن لدى بعض الناس مفهوما أضيق للعلم وللدليل! لسنا نقع في حرج ولا شيء ولله الحمد، وأصل منهجنا راسخ في النقل والعقل معا، إذ نقول للطبيعيين: دعوا عنكم الافتراض والتوهم وتكلف التنظير في تلك القضية الغيبية المحضة، واكتفوا بما جاء به الوحي من رب العالمين إن أردتم أن تقوم اعتقاداتكم على "علم صحيح"! وإنما يقع في الحرج – قطعا - من أسس بنيانه واعتقاده في الغيبيات على مسلمة كلية مفادها أن نظريات الطبيعيين المعاصرين وافتراضاتهم في أصل العالم وأصول الأنواع الحية على الأرض، هي "العلم الصحيح" الذي يجب أن نجمع بينه وبين القرآن جريا على قاعدة الرازي! هذا من يتقلب به الاعتقاد غاية التقلب،

يبيت كل ليلة على تأويل جديد لنصوص دينه (لا محالة)، يخترع البدعة بعد البدعة في تأويل القرآن، تبعا لتقلب قوم سفهاء بالوهم والخرافة في أمور لا قبل للعقل البشري إلى استجلائها معرفيا بالاستنباط الأولي الذهني أو بالقياس التجريبي الاستقرائي، وإنما يوقف فيها على الخبر الغيبي من لدن خالق السماوات والأرض وحسب! فلو صدق هذا وتجرد لظهر له أي الفريقين أحق بالحرج والتقلب في أمر دينهم، والحمد لله على نعمة السنة!

وحتى يظهر للقارئ الكريم أي الفريقين أحق بالحرج والتيه والتناقض (أصولا وفروعا)، دعنا نميل ميلة أخرى على كلام الدكتور في الفقرة المنقولة وحدها، لنخرج منها ما فيه مزيد من الآيات لكل عاقل على صحة ما نقول.

يقول الدكتور: " ونقل ابن كثير في البداية والنهاية: "قال كثير من علماء التفسير: خلقت الجن قبل آدم، وكان قبلهم في الأرض الحن والبن، فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم". ونقل أيضا: "وقال ابن عمر كانت الجن والبن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء" قلت: هذا الكلام مردود من وجهين على الأقل. أما الوجه الأول، فإن قول ابن كثير رحمه الله "قال كثير من علماء التفسير" هذا لا يلزم منه تصحيحه ذلك القول كما لا يخفى وإنما هو من حكاية الأقوال. فمن الواضح أن هذا الزعم المذكور غيب محض، ومثله لا يقال بالرأي، وهذا الكلام (أي الزعم بأن الجن كان قبلهم على الأرض نوع آخر من المخلوقات المكلفة كانوا هم خلف لها) لا نقيم له وزنا حتى نقف على دليله من الكتاب والسنة، وإلا فلا التفات إليه. وأما الوجه الثاني، فحتى على التسليم تنزلا بأنه قد وجد على الأرض ذلك النوع أو تلك الأنواع المذكورة من الكائنات المكلفة، فمعلوم أن الجن مخلوق من أصل بخلاف الأصل الذي خلق منه البشر، فليست خلافة البشر للجن خلافة نسل يرث الأرض عن جيل هالك من أسلافه السابقين كما هو واضح! فإن سلمنا بأن الجن قد سلطوا (كنوع مخلوق) على نوع آخر متقدم عليهم فقتلوهم وأفنوهم كما في الكلام المنقول، فليس لنا أن نزعم أنهم كانوا من نوع البشر ولا أنهم كانوا من الجن، إذ لو كانوا بشرا لما كان من وجه لأن يسموا بغير اسم البشر، وكذا لو كانوا جنا لما قيل إن الجن (هكذا) قتلوهم، ففي جميع الأحوال فلو كان هؤلاء بشرا (كإنسان نياندرثال مثلا)، للزم أن يميزوا عند ذكرهم عن نوع الجن بأنهم بشر، ولكن هذا لم يحصل، فتأمل!

أما القول المنقول عن ابن عمر رضي الله عنهما: "وقال ابن عمر كانت الحن والبن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء"، فظاهره – على التسليم بصحته، وله حكم الرفع إن صح - أن الحن والبن هؤلاء أقوام من الجن، فللأثر تتمة فيما يرويه ابن كثير قد أسقطها الدكتور، وفيها: "فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ جُنْدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَطَرَدُوهُمْ إِلَى جَزَائِرِ الْبُحُورِ"، فمن أراد أن يجمع

بين هذا الأثر وغيره مما فيه أن الجن كانوا هم المستخلفين في الأرض قبل نزول آدم إليها، فلا يجد طريقا إلا القول بأن الحن والبن هؤلاء نوعان من الجن قد بعث الله إليهم الملائكة لتطردهم وتقتلهم قبل إهباط آدم إلى الأرض. ولنا هنا أن نسأل الدكتور سؤالا منهجيا فنقول: إن كنت قد قبلت هذا الأثر، فما قولك في الفترة "ألفي عام" المذكورة فيه؟ ذلك أنه يقول في نفس الفقرة في الجملة التالية مباشرة: "هذا ولا يعلم على وجه التحديد متى وجد البشر (قبل آدم) فوق الأرض!؟" ويقول "ولا يعلم كم طول الفترة الزمنية بينهم وبين آدم؟"، فإن صح أنه اعتبر الجن والبن هؤلاء بشرا استنادا إلى ذلك الأثر، ففي الأثر نفسه نص على أنهم كانوا قبل آدم بألفي عام، فلماذا لم يثبت المدة كذلك؟ إما أن يكون ذلك الأثر عنده من قبيل الرأي، فيتخير منه ما يعجبه ويترك ما لا يعجبه (ولا يظن بمثل ابن عمر أن يتكلم في مثل ذلك بالرأي أصلا)، وإما أن يكون في حكم المرفوع، فيلزمه أن يثبت آخره كما أثبت أوله! ولا عجب، فكما هو عهدنا بالإعجازيين: الأمر في النص انتقاء بالهوى والمزاج على أي حال!

أما قوله: "ومن يجزم بأن آدم لم يسبقه بشر قبله على الأرض فكيف يؤول ويفسر وجود هياكل عظمية بشرية سابقة ومتقدمة على آدم بعشرات بل بمئات الآلاف من السنين؟ كما أثبتها العلم (وهذا هو الدليل الحسي)"! قلت: أولا: لا يلزمنا أصلا أن نتكلف تفسير وجود هياكل عظمية قديمة هنا أو هناك، مهما بلغ بها القدم، حتى يستقيم لنا موقفنا منهجيا! ومن أبى إلا أن يلزمنا بذلك فليأتنا ببضاعته من البرهان اللائق في تلك المسألة الكلية إن كان فاعلا! ثانيا: هو يزعم بأن تلك الهياكل متقدمة على آدم بكذا وكذا من السنين، فأنى له العلم بالسنة التي أهبط فيها آدم إلى الأرض، حتى يقارن تلك المقارنة؟ لن نتطرق ها هنا إلى مسألة التسنين الحفري Archaeological Dating وما فيها من فرضيات غير مسلمة وأقيسة اعتباطية قد تكلمنا عليها في غير هذا الموضع، وسنسلم تنزلا بأن تلك الحفريات تبلغ من العمر مئات الآلاف من السنين كما يقول، فمن أين له العلم بأنها تتقدم على آدم زمانيا، إذ يزعم هكذا بكل ثقة أن هذا ما "أثبته العلم" أو ما يسميه "بالدليل الحسي"؟ لن تجد له مستندا إلا الاعتقاد الدارويني بأن أقدم الحفريات المكتشفة لما جعلوه من نوع البشر المعاصرين Modern Man ترجع إلى ما يقرب من مئتي ألف سنة. والسؤال الذي أرجو أن يكون قد تبادر إلى ذهن القارئ الكريم عند هذا الموضع هو هذا: من الذي قال إن هذا يمتنع معه أن يكون قد عاصر تلك الحفريات الأقدم (التي هي لأنواع من القردة في الأعم الأغلب) بشر مناظرون لما سماه هؤلاء بالإنسان المعاصر، غير أنهم لم يكتشفوا من بقاياهم شيئا إلى الآن؟ التقدير الاحتمالي في ذلك لا ينضبط إذ لا مستند له،

ومعلوم أن عدم العلم لا يعني العدم، فعلى أي شيء من دلالة "الحس" المزعومة يقال إن آدم (الذي نقطع بأنهم لم يقفوا على بقاياه في حفرياتهم على أي حال!) قد تقدم عليه أصحاب تلك الحفريات (سواء كانوا بشرا أو قردة أو غير ذلك) بكذا وكذا؟ هذا كلام أشبه ما يكون بالكهانة والدجل، والله المستعان! ولو أن الدكتور – هداه الله – عرضه على نظار البيولوجيا في جامعات الغرب المتخصصة في ذلك المجال، لسخروا منه ولبينوا له أن كلامه في "آدم" وما كان قبله وما كان بعده، لا علاقة له بنظريتهم أصلا!

يقول: " ونحن نؤمن بأنه لا يمكن تعارض صحيح النقل مع صريح العقل، ولا يمكن أن يقع تعارض بين قطعي من الوحي، وقطعي من العلم التجريبي،" قلت: وهنا تأتي قاعدة الرازي التي يتعلق بها كل متجهم في تمرير بدعته في تأويل كلام الله تعالى. فكل من بلغت نظريات كبار الأكاديميين المعاصرين من نفسه مبلغا عظيما، جعلها من "قطعيات العلم والعقل" لزاما (وإن لم تكن كذلك عند أصحابها أنفسهم!)، ثم راح يدعي أن كل ما يخالفها ليس بقطعي، لأن قطعي النقل وقطعي العقل والحس لا يتعارضان، وإنما هو (أي النص المخالف) نص مردود أو على الأقل قد أخطأت قرون المسلمين كلها في فهمه وتأويله حتى جاء هو بالتأويل الصحيح! والآن أصبحنا مطالبين بأن نعتقد في نظرية داروين وتفاصيلها التاريخية التأويلية في أصول النوع البشري (وغيره من الأنواع بالتبعية) أنها من "قطعي العلم التجريبي"، حتى لا نقع في "حرج من أمرنا"، فتأمل!

يقول: "ولكن أشكالهم وأحجاهم قريبة جدا من ذرية آدم .... وأدواتهم المكتشفة تدل أيضا أنهم خلق عاقل، وليسوا نوعا من حيوان يشبه الإنسان كما زعم البعض!!" قلت: أولا: إن سلمنا بصحة تلك التأويلات والافتراضات في استكمال صور أصحاب تلك الجيف التي ما يعثر القوم منها – غالبا - إلا على فك سفلي وكسرة أو كسرتين من عظام الساق والذراع أو نحو ذلك، فهل هذا هو العلم التجريبي "القطعي" عندك؟ بأي شيء جعلت تلك التفصيلات قطعية هداك الله، مع أن غلاة الدراونة أنفسهم لا يعدونها كذلك؟! ثانيا: أبواب التأويل في كل حالة من تلك الحالات لا تكاد تنحصر كما ذكرنا، ومنهج التفسير نفسه بافتراض سبب قياسي في ذلك الغيب المحض، منهج فاسد رأسا على أي حال، فلا يرقى أن يكون ظنا ضعيفا، دع عنك أن يكون علما قطعيا!

تقوم نظريات التصميم الذكي بعموم Intelligent Design Theories على ثلاث مقدمات كلية لازمة (أي لا قيام لها إلا باستصحابها) كل واحدة منها أفسد من أختها:

(1) أن من المخلوقات ما قد يشتبه على العقلاء بين أن يكون مخلوقا أو غير مخلوق (سواء بإطلاق، أو غير مخلوق على نظام محكم من أول يوم، وإنما تطور عن نظام بدائي سابق عليه، فكان نتاجا لمراحل كثيرة من التطور والتطفر العشوائي!) ومن ثم يلزم استعمال أدوات البحث الطبيعي ونظرية الاحتمالات لإثبات وجود الصنف الأول حتى يكون دليلا على وجود صانع بالغيب هو الذي خلقه، وحتى يصبح "فعل الخلق الإلهي" نظرية طبيعية مكتملة الأركان، ويصبح الباري جل وعلا "مصمما ذكيا" قد تمكنا أخيرا من إثبات أنه يدري ما هو فاعل بخلقه على الرغم من كون كثير من المشاهدات تبدو وكأنه لا خلق ولا نظام ولا شيء إلا الفوضى والعشواء الداروينية!

(2) وأن الواحد منا معاشر البشر المخلوقين بوسعه أن يستوفي من المعرفة ما يكفيه للحكم على النظام الحيوي الرباني بأنه قابل أو غير قابل للاختزال Reducible / Irreducible، أو بأنه لو قدر أن أزيل منه جزء ما أو أبدل بغيره في ابتداء خلقه (أي يوم خلق المخلوق على غير مثال سابق)، فما كان ليعمل أصلا!

(3) وأن أداة التجريب الطبيعي والترجيح الاحتمالي = طريق صحيح – من الأساس - لتحصيل المعرفة بأصول الأنواع والكيفية التي خُلقت بها!

فأما المقدمة (أ) فهي مما التزمه وأصلّه "ويليام دمبسكي" و"مايكل بيهي" و"جون بومغاردنر" و"مارك هارتويك" و"فيليب جونسون" وأصحابهم من الطبائعيين النصارى ورضوا بالتزامه، وتابعهم عليه عدنان أوكتار (هرون يحيى) وغيره من متكلمة العصر المنتسبين إلى الإسلام الذين رضوا بأن يقال لهم "خلقيون" Crearionists، وأن تصبح "نظرية التصميم الذكي" هذه جزءا من دينهم واعتقادهم، والله المستعان! كما تشبع بها الدكتور عمرو شريف، إمام النحلة التطويرية (التطور الموجه) الذي تقدم معك الرد عليه وبيان فلسفته الفاسدة. فالرجل، على عادته في الجمع بين المتناقضات، يعتنق من حيث لا يشعر نظريتين، إحداهما مفادها أن الحشوة الحية ليس

فيها عشواء وجودية البتة، والأخرى مبناها على إثبات العشوائية الوجودية المؤطرة بالنظامية الطبيعية Restricted / Regulated ontological Randomness (إن صح التعبير)، في أصل ونشأة بعض النظم والمخلوقات! وأعني بالعشواء المؤطرة بالنظامية هنا، اعتقاد جريان بعض النظم السببية الطبيعية بما يفرز متولدات توصف بالعشوائية (أي بعدم الغاية وعدم وجود علم سابق أو إرادة سابقة لوقوعها عند صانع عليم ذي إرادة) مع كونها خاضعة كلها إجمالا للنظام الكوني الطبيعي! [46] فهو لا يدرك أن إثبات مخلوقات لا توصف بأنها "مصممة" يقتضي إثبات العشواء الوجودية ونسبتها إلى رب العالمين، خلافا لما يصرح بالانتصار له في إطار "التطور الموجه"! قال الدكتور في كتابه "كيف بدأ الخلق" (ص. 221): "ألا ترى ملامح التصميم في الطبيعة من حولك؟ قد لا تستشعر هذه الملامح في صخور جبل المقطم أو في أمواج البحر الهادرة أو في تلال رمال الصحراء الممتدة أمامك، إذا قارنتها بالزهرة الملونة ذات الرائحة الزكية أو بجدول الماء الجاري وسط المروج الخضراء، لا، إن هذه وتلك تتمتع بملامح التصميم والذكاء التي يمكن أن ندركها إذا تأملناها بعمق وفهمنا القوانين التي شكلتها. ولكن لم حكمنا بوجود التصميم فيما عرضنا من مظاهر الطبيعة ومصنوعات الإنسان؟ لقد جد المهتمون بمفهوم "التصميم – Design" في البحث عن ملامح وعلامات في التصميم فيما حولنا، حتى ينتقلوا بالمفهوم من مجرد ذوق وانطباع إلى أن يكون مفهوما علميا قابلا للتمحيص." اهـ.

قلت: إما أنه قد خفي على الدكتور أن ما سكله أصحاب نظرية التصميم الذكي من مسالك تجريبية في إثباته (كما يأتي معك بسط الكلام عليه في هذا الفصل)، يقتضي نسبة صخور جبل المقطم وأمواج البحر الهادرة وتلال رمال الصحراء ونحو ذلك من مخلوقات الله تعالى إلى العشواء الوجودية في خلقها وتهيئتها على تلك الهيئة التي نراها عليها، وإما أنه يدرك ذلك ولكن خاف من أن يصرح به فينقض على نفسه الغزل (في استعمال نظرية التصميم الذكي وأدلة أصحابها للانتصار لمذهبه) من قبل أن يشرع فيه، والله المستعان! نحن المسلمين نجزم بأن الجبل مخلوق على ما نراه لا على غيره، وأن كل ذرة منه حيث هي لا في محل غيره، لأسباب وحكم ومقاصد إلهية لا يحصيها إلا الباري سبحانه! وكذلك تل الرمال، يبدو على الهيئة التي نراه عليها لا على غيرها، بداية من صفات مرتفعاته ومنحدراته وتموجاته الظاهرة ونزولا إلى موضع كل ذرة في كل جزئ من جزيئات الرمل فيه، لحكم وغايات ومقاصد لا يحصيها إلا الباري سبحانه! ولو أن ذرة واحدة من تلك الذرات أزيلت من محلها، لترتب على ذلك من المتولدات السببية ما لا يعلمه إلا الله سبحانه! ولا شك أن الدكتور إن سمع منا هذا

الكلام فسيقره ويوافقنا عليه! ولكنه لن ينتبه إلى أن قوله بالتفريق بين تلك الأنواع التي ذكرها على الطريقة التي يفرق بها أصحاب نظرية التصميم الذكي حتى يتمكنوا من البرهنة عليه تجريبيا، يقتضي اعتماد العشواء الوجودية الداروينية كآلية من آليات النشأة كما يأتي معك بيانه! فالحق أن مفهوم العشواء الوجودية هذا متداخل عند القائلين بالتصميم الذكي مع النظامية الطبيعية تداخلا لا فرق فيه بينهم وبين الدراونة الدهرية، ولا ينبغي أن يلتبس على من يرى نفسه أكثر الناس أهلية للكتابة في بيان نظرية التطور والانتصار لأدلتها!

يقول الدكتور (ص. 221): "لقد جد المهتمون بمفهوم التصميم-Design في البحث عن ملامح وعلامات التصميم فيما حولنا، حتى ينتقلوا بالمفهوم من مجرد ذوق وانبطاع إلى أن يكون مفهوما علميا قابلا للتمحيص. وقد خرجوا بأن هناك عددا من السمات إذا توافرت في موجود ما، وجب القول بأن فيه ملامح وعلامات التصميم. ونعرض فيما يلي أهم ثلاث من هذه السمات وهي التعقيد المتفرد، وعدم الحتمية، والتعقيد غير قابل للاختزال." اهـ. قلت: تأمل قوله "جد المهتمون في البحث عن ملامح وعلامات التصميم"، ثم كبر أربعا على فطرة العقلاء وعلى ضروريات المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله! من هم "المهتمون بمفهون التصميم هؤلاء؟؟ مسلمون؟ كتابيون؟ وثنيون؟ طبائعيون؟ فلاسفة؟ علماء؟ سفهاء؟؟ من؟؟ ومن المستفيد من هذا الإجمال الفاحش في تعيين الفئة المشار إليها في هذا الكلام؟ الدكتور – على عادة الفلاسفة واللاهوتيين وأهل الكلام ومن شاكلهم – لا يبالي بالتفريق بين دين المسلمين وغيرهم من المنتسبين إلى الملل الكتابية الأخرى، بل ولا بين هؤلاء وغيرهم ممن يثبتون إلها بالغيب يعبدونه، وكأننا لا نبالي أي إله نثبت بالغيب، المهم أن يكون قابلا للوصف بكونه "مصمما ذكيا"، من طريق آلة العلم الطبيعي! وعلى عادة الفلاسفة كذلك تراه لا يقيم وزنا البتة للفطرة ولا لدلالة البداهة في هذه القضية، وهو ما همشه وحط عليه في كلامه هذا بقوله "مجرد ذوق وانطباع"! فلا يرى طريقا لإثبات حصول الخلق المحكم والتعليل والغائية فيه إلا بالقياس الطبيعي كما يشترطه الفلاسفة الدهريون في أنواع الأدلة ومصادر المعرفة، ولا يقبلون ما يأتي به خصومهم فيه - مع ذلك - على أي حال مهما صنعوا!

ونحن نقول: يا دكتور، المسلمون ما افتقروا يوما إلى نظر أصحاب التصميم الذكي أو إلى "جدهم في البحث" حتى يروا "علامات" الإبداع الإلهي لائحة في السماوات والأرض، كما لم يفتقروا يوما إلى جد واجتهاد المتكلمين أصحاب "برهان الحدوث" حتى يعلموا علما صحيحا راسخا، ومعرفة صادقة ثابتة ثبوت الجبال الرواسي، بحدوث العالم ووجود من أحدثه! ولم يكن ذلك

منهم أخذا "بالذوق" أو جريا على "الانطباع" كما تقول، تسفيها وتهوينا من إيمان أمة بأسرها، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! الفطرة ليست "ذوقا" والضرورة ليست "انطباعا"، وإنما هي معرفة جبلية ظاهرة جلية من زعم أنه فقدها فلم يجدها في نفسه، وأنه يحتاج إلى "جهد في البحث" حتى يحصل من المعارفة ما هو حاصل منها ابتداء، فهو السفيه الجدير بالتهمة في عقلة وعلمه!

ولو تأملت لوجدت أن مقارنة هؤلاء اللاهوتيين الطبيعيين (القائلين بنظرية التصميم وبرهان التصميم) بين المخلوقات من أجل استخراج تلك المخلوقات التي ينطبق عليها شرطهم فيما هو "تصميم"، ومن ثم إثبات أن من ورائها "مصمما"، هذه المقارنة تقتضي – بمجرد مبدئها - نفي "التصميم" عن بعض المخلوقات حتى يثبت في بعضها الآخر بالقياس المقارن، أي تقاس بعض المخلوقات على صنعة طفل عابث لا يصنع الشيء لغاية معينة ولا لقصد محدد، ويقاس بعضها الآخر على صنعة صانع عليم ذي غاية وقصد، ثم يقال بالمقارنة إن الصنف الثاني فيه "علامات التصميم" وهو ما نثبت به وجود "المصمم"! ففي هذا المنطق مغالطة من قبيل الاستدلال بعدم العلم (جعل عدم العلم علما بالعدم)!

ووجه ذلك أنهم يقولون إن الصخرة الملقاة في فلاة، بما أننا لا يظهر لنا فيها ما يدل على أن لها غايات وحكما ووظائف معينة في علم صانع صنعها لتقوم بها كقطعة صخر، بما يمكن أن نقيسه على شيء من غاياتنا أو مقاصدنا فيما نصنع أو على ما عرفناه من وظائف المخلوقات، ويترجح به كونها على هذه الصفة بالذات دون غيرها من صفات الصخور وهيئاتها التي لا تتناهى في خبرتنا البشرية بالبيئات الصخرية على اختلافها وتنوعها في الأرض، (كأن يجعلها مدببة مثلا حتى يكسر بها شيئا ما أو منبسطة حتى يرفع عليها شيئا ما أو نحو ذلك من أغراضنا نحن البشر في "تصميم" قطع الحجر)، فهي إذن "غير مصممة"، أو "عشوائية"، لم تنشأ عن خلق مخصوص أو حكمة مخصوصة في خلقها هي بعينها على تلك الهيئة، وإنما اتخذت تلك الصفة وتلك الهيئة اتفاقا على أثر جريان السنن الطبيعية على مادتها! فإذا قارنا ذلك بعين الإنسان – مثلا – وجدناها تقوم بوظيفة ظاهرة معلومة بالنسبة لنا (وهو ما سموه "بالتعقيد المتفرد")، ووجدنا أنه ليس ثمة ما يحتم أن تتركب الخلايا الحية في ذلك الموضع لتشكل عضوا اسمه العين يقوم بوظيفة اسمها الإبصار، بل كان من الممكن أن تتركب تلك الجزيئات والخلايا والأنسجة نفسها على ما لا حصر له من الهيئات والصور والتراكيب (وهو ما سموه "باللاحتمية")، وإنما رجح كونها على تلك الصفة بالذات أنها مصممة

للقيام بتلك الوظيفة بالذات، وإذن يتبين لنا أن عين الإنسان "مصممة"، وعليه يثبت وجود المصمم وهو المطلوب!

فبالله أي "مصمم" هو هذا الذي يثبت وجوده من تلك الطريق الخبيثة؟؟ ليس هو الرب الباري الذي يوجبه العقل ويؤمن به المسلمون! وإنما هو مصمم بشري أو كالبشر لا سلطان له على العالم، ولم يصدر عنه خلق (أو ما يسمونه تشبيها بأفعال البشر "بالتصميم") إلا في بعض المخلوقات دون بعض، تلك المخلوقات التي ظهر لنا "تعقدها الوظيفي"، خلافا لتلك التي لم يظهر لنا منها وظيفة ولا غاية ولا ندري لماذا توجد على النحو الذي توجد عليه لا على غيره، وهو التفريق الذي نقول به جريا على قياس معين مخصوص اعتمدناه في ذلك! فهو على ذلك لا يثبت كونه خالقا لشيء من تلك الموجودات التي نراها من حولنا، إلا إن استطعنا نحن أن ندرك وظائف ذلك الشيء والأسباب التي ترجح كونه على تلك الهيئة التي هو عليها دون غيرها، مع أنه كان من الممكن عقلا أن يكون على ما لا يحصى من الهيئات الأخرى، وإلا لم يكن ذلك الشيء من خلقه ولا من صنعه (تصميمه)، فسبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا!

ونقول: نعم يجوز ولا شك أن يقال من باب قياس الأولى وفي غير مقام التأسيس والاستدلال النظري لإثبات الصانع (ذلك المطلب الكلامي البدعي الذي التزم القوم فيه بشرط الخصم الدهري)، إنه إذا كان الإنسان يخلق ما يخلق لأغراض وغايات ووظائف يعلمها، فمن باب أولى أن يكون لكل ما في العالم من مخلوقات للرب الذي صنع الإنسان نفسه، أغراض وغايات ووظائف وحكم إلهية ترجح في مجموعها كونه على ما هو عليه لا على سواه، علم بها من علم وجهل من جهل. ولكن هذا القياس هو عكس قياس اللاهوتيين الطبيعيين التصميميين عند التدبر! فنحن ما زدنا على أن ذكرنا السامع اصطحابا للعلم الفطري بوجود الباري وبكمال علمه وحكمته، أنه إذا كان الإنسان يوصف في صنعه ما يصنع بأنه صاحب ترتيب وغايات ومقاصد، فمن باب أولى أن يكون الباري سبحانه موصوفا بأنه لا يصنع شيئا إلا لحكم بالغة وغايات سابغة، وأما هم فيؤسسون على دعوى أن الأصل في الأشياء في العالم العبثية واللاغائية، فيقولون إنه إذا شوهد – مع ذلك – علامات للتصميم والوظيفية في بعض موجودات العالم "المعقدة"، وأمكن إثبات تفردها بذلك (نوعا)، كان ذلك بالمقارنة دليلا نظريا اكتسابيا على وجود صانع ما!

فتأمل الفرق بين المنطقين وأمعن النظر مليا لأن الأمر دقيق! نحن أهل السنة لا نسلم للدهري بأصل من أصول ميتافزيقاه الفاسدة حتى نؤسس عليه برهانا نثبت له به وجود الصانع من طريق يرتضيه، إذ لا نسلم له من

الابتداء بنظريته المعرفية وبدعواه افتقار وجود باريه وخالقه إلى دليل نظري يعرفه به من بعد جهل! ولا نجيز التسوية بين ما في القرآن من تذكير ومحاججة للمخاطبين به ببديع خلق الله جل وعلا في السماوات والأرض، وبين ذلك البرهان اللاهوتي الخبيث، فإن بين النوعين كما بين السماء والأرض! طريقة اللاهوت الطبيعي Natural Theology في إثبات "مخلوقية" الكائنات الحية، كما يأتي الكلام عليها بتوسع لاحقا إن شاء الله تعالى، تعاني من نظير ما يعاني منه برهان الحدوث، أو البرهان الكوزمولوجي عند المتكلمين من إقرار للقوم على ميتافزيقاهم الدهرية، ومن التسليم لهم بصحة دعواهم الجهل وخلو النفس من العلم بوجود الباري ابتداء، والله المستعان! من كان دينه الكذب على نفسه وعلى الناس وعلى رب العالمين من فوقه، لم يجز لنا أن نصدقه على كذبه حتى نجيبه إلى شرطه الفاسد، الذي نعلم أننا حتى إن أجبناه إليه فلن يستجيب لدعوتنا! ولكن أهل اللاهوت الكلام ما صدقوا في دعواهم الحرص على هداية الناس ودعوتهم إلى الدين، وإنما أحبوا أن يغلبوا الفلاسفة ويقارعوهم في المناظرة والمخاصمة على طريقة الفلاسفة الأكاديميين إشباعا لحظوط نفوسهم، ولم يبالوا باختراع أحدهم من أجل ذلك ملة جديدة غير الملة التي جاء بها رسل الله، يثبت فيها ربا غير الرب الذي في السماء، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يقول الدكتور: "عندما يبدع الذكاء عملا من الأعمال، فستظهر فيه بلا شك علامات التصميم Design التي يصفها المتخصصون بأنها بصمات أو توقيع الذكاء على هذا العمل." اهـ. ثم يضرب الدكتور مثلا بالطريقة التي يستعملها أصحاب أبحاث SETI في محاولة التفريق بين الموجات والإشارات التي يمكن تفسيرها (في أمانيهم) على أنها ناشئة عن حضارة فضائية بعيدة، وغير ذلك من موجات جعلوها (تحكما) من قبيل الضوضاء Noise التي لا غاية من وراء وجودها ولا وظيفة لها عند صانع صنعها! وقد سبق أن انتقدنا منطق الاستدلال في هذا الصنف من الأبحاث في آلة الموحدين فلا نعيد، ولكن حسبنا أن نبين ها هنا وهاء ذلك المسلك في التفريق بين نوعين من الموجات، لا على شيء إلا على أساس أن نمط التكرار إذا بلغ قدرا معينا من "التعقد" لزم أن يكون ذلك دليلا على رمز أو إشارة لغوية يرسلها مخلوق فضائي بغرض التواصل مع سكان الكواكب الأخرى!! هذا محض أماني لأن العقل لا يمنع من أن يكون ذلك كله ناشئا عن حركات معينة لبعض الأجرام في السماء الدنيا في مواضع لا نبصرها، تتكرر دوريا بصورة ثابتة ومطردة لأسباب الله أعلم بها! أو حتى أن يكون ذلك ناشئا عم أمر غيبي آخر لا نعلم له نظيرا في عادتنا البشرية! فأي شيء يكون التحكم في الفرض التفسيري بانتخاب القياس على ما يكون منا نحن

معاشر البشر عندما نؤلف رسالة معينة بإشارات لغوية معقدة ثم نرسلها في الفضاء على ظهر موجة من الموجات الكهرومغناطيسية، إلا ضربا من المغالطة يحدوها الميل والهوى ومحض الأماني؟! ومن أين يأتي الترجيح الاحتمالي في تقوية هذا الفرض على خلافه والحال أننا لم يسبق لنا البتة أن سافرنا إلى نجم من النجوم التي يظهر لنا أن أمثال تلك الإشارات تأتي إلينا منها (إن قدر أن التقطوها يوما ما) فوجدنا في بعضها ما ينشأ عن حضارات فضائية بعيدة؟؟ من أين يأتي الاستقراء الخفي الذي يقوم عليه تطبيق المنطق التفسيري في ترجيح هذا الفرض على خلافه؟؟ لا شيء! فيا هؤلاء اعترفوا بالجهل وقفوا حيث لا مدخل للعقل، هذا هو موقف العاقل الحكيم في مثل ذلك، أما أن يصر على تفسير الأمر بقياس ما، على أيما نحو اتفق له ذلك، فهذا هو الجهل المذموم والعقل الممروض، نسأل الله السلامة! عندما تطرح مسألة غيبية محضة لسؤال لا نملك له جوابا من طريقنا، فليس أمامنا إلى أحد موقفين لا ثالث لهما: إما أن نقرر وجوب التفويض والتوقف في ذلك، ومن ثم يكون الجهل جهلا محمودا مبنيا على علم وحكمة، وإما أن نصر على تكلف الجواب بقياس ما أنزل الله به من سلطان، ومن ثم يكون الجهل جهلا مركبا، يصر فيه صاحبه على ادعاء العلم بأمور لا يملك طريقا صحيحا للحكم بمطابقتها الواقع في نفس الأمر!

فقول الدكتور: " عندما يبدع الذكاء عملا من الأعمال، فستظهر فيه بلا شك علامات التصميم Design التي يصفها المتخصصون بأنها بصمات أو توقيع الذكاء على هذا العمل" يدعونا لأن نسأله: أي نوع من أنواع الذكاء تقصد، وأي نوع من أنواع الأعمال تريد؟؟ فإن علامات التصميم البشري والصنع البشري نعرفها بقياس النظير إلى نظيره، ولكن كيف بصنعة إلهية لا نملك لها نظيرا نقيسها عليه في الوظائف والغايات؟؟ ما العمل في مثل ذلك وما الموقف منه؟؟ ثم نسأله ثانيا: كيف لا ترى أن هذا الكلام إذا اجتمع إلى طريقة القوم في التفريق بين ما تظهر عليه تلك العلامات المختارة وما لا تظهر عليه، فإنه يقتضي ألا يكون ذلك الذي لا تظهر عليه تلك العلامات عملا قد "أبدعه الذكاء"؟؟! تشكيلات الصخور في الصحراء يا دكتور، لا تظهر عليها تلك العلامات التي تعلق بها القوم، فما موقفك منها؟؟ هل هي مخلوقة بعلم وحكمة أم ليست بمخلوقة أصلا في دينك؟؟

فإن قال: لا يلزم من اعتماد برهان التصميم الذكي، القول بأن المخلوقات التي لا تظهر عليها علامات التصميم ليست مخلوقة، قلنا له: بل هو لازم بالنظر إلى اعتماد أصحاب تلك البراهين نظرية داروين كأصل في مسألة النشأة، واتخاذهم ميتافزيقاها كمقدمة للوصول إلى ما يريدون! بل وبالنظر إلى طريقتهم في تطبيق المنطق الاحتمالي وتشبعهم بالمنهجية الطبيعية

في تقريرهم الكيفية التي توصلوا بها إلى القول بأن بعض المخلوقات تظهر عليها "علامات التصميم"! فلو أنهم قالوا (مثلا): "دعكم مما لا تعلمون له غاية ووظيفة من مخلوقات ربكم، وانظروا فيما تعرفون وظيفته وفي تلك النظم الحيوية التي ترون بجلاء ارتباطها بآثار معينة تحدثها وأعمال معينة تقوم بها تلك الأعضاء والنظم بصورة لازمة ومطردة، ألا تدل تلك الوظيفية في حد ذاتها على المخلوقية والمصنوعية والغاية المعلومة سلفا عند الصانع؟" لو أنهم اكتفوا بتحرير هذا المعنى الفطري الظاهر، لشكرنا لهم التنبيه على آية من آيات الله في خلقه، تظهر فيها العناية الإلهية فوق ما تظهر في غيرها، فيكون كلامهم من جنس ما يسميه علماؤنا بدليل العناية! ولكنهم لم يسلكوا هذا المسلك كما ترى، وإنما أرادوا أن يؤسسوا برهانا طبيعيا على شرط الطبيعيين في الإثبات والنفي (كما سيأتي)، وأن يعدلوا به على نظرية داروين نفسها تعديلا يدرس في الجامعات والمعاهد الطبيعية على أنه "نظرية علمية" من نوع النظريات التي يعتمدها الطبيعيون في تلك القضية (قضية النشأة)!

دعنا أيها القارئ الكريم من كلام الدكتور عمرو الآن، ولنرجع إلى المراجع التي تشبع بها هو وغيره من أنصار نظرية التصميم الذكي.

يقول المحررون في موقع مركز IDEAاللاهوتي الخلقوي النصراني في إجابة السؤال: "كيف تميزون حصول التصميم؟" [47]:

> الجواب الموجز: نتبين وجود أو حصول التصميم بالنظر في العلامات الواضحة التي تدل على أن كائنا ذكيا قد عمل (أي بالتصميم). فالكائنات الذكية تميل إلى إنتاج قدر معين من التعقيد عندما تعمل (أي في التصميم). فبإمكاننا أن نستدل على حصول التصميم بالتنقيب عن ذلك القدر المحدد من التعقيد. ويعيننا على استعمال المنطق المعتاد في استنتاج ما إذا كان التصميم سببا في خلق شيء ما، أن نستعمل "الفلتر التفسيري".

وفي شرح وتفصيل هذا الكلام يقولون:

> الجواب المفصل: عندما تعمل الكائنات الذكية، فإنها تنتج قدرا محددا من التعقيد. ونحن نعلم بذلك لأننا نفهم أن الكائنات الذكية عندما تعمل فإنها تستعمل الاختيار Choice. ففي مقال مفصل كتبه ويليام دمبسكي، نرى بالتفصيل كيف يمكن أن نفهم نتائج التصميم الذكي بالتأمل في الكيفية التي يعمل بها التصميم:

لنفهم كيف تعتبر المعلومات المعقدة الدقيقة CSI (Complex-Specified Information) مؤشرا صحيحا لحصول التصميم، فإننا نحتاج إلى فحص طبيعة السببية الذكية Intelligent Causation. فالخاصية الأساسية للسببية الذكية إنما هي الممكنات الموجهة Directed Contingency، أو ما نسميه بالخيار. فحيثما يعمل السبب الذكي، فإنه يختار من بين عدد من الممكنات العقلية المتنافسة. وهذا صحيح ليس فقط بالنسبة للبشر، ولكن في حق الحيوانات كذلك، بل وحتى الكائنات الفضائية الذكية. فالفأر الذي يتحرك داخل متاهة ما، يجب أن يختار بين الذهاب يمينا أو يسارا في عدة مواضع من تلك المتاهة. وعندما يسعى الباحثون في SETI (البحث عن صور الكائنات الذكية في الفضاء الخارجي) في اكتشاف صور الذكاء في موجات الراديو الوافدة إلينا من الفضاء الخارجي التي يقومون برصدها، فإنهم يفترضون أن يكون الذكاء الفضائي قد اختار أي عدد من موجات الراديو الممكنة، ثم يحاولون المطابقة بين الموجات التي يرصدونها وبين أنماط موجية معينة في مقابل أنماط أخرى (وهي أنماط يفترض أنها مؤشرات وعلامات على وجود ذكاء). فعندما يتلفظ الإنسان بكلمات لها معنى، فإن اختيارا يقع من جانبه من بين عدد من التراكيب الصوتية الممكنة التي كان من الممكن أن تصدر عنه. فالسببية الذكية دائما ما تقتضي التمييز، باختيار أشياء معينة واستبعاد أشياء أخرى. فبمعرفة تلك الخاصية للسبب الذكي، فإن السؤال الدقيق هنا يكون: كيف نتعرف على عمله؟ الأسباب الذكية تعمل بالاختيار.

قلت: هذا الكلام فلسفي محض كما ترى، ابتلعه كثير من المسلمين في زماننا بلا تأمل ولا تحقيق، على أنه من أحسن ما جاء به "العلم الحديث" في الانتصار لوجود الباري جل شأنه، وإلى الله المشتكى! وهو تعديل على برهان الوجوب والإمكان عند الفلاسفة واللاهوتيين والمتكلمين القدماء في إثبات وجود الباري، غير أنه يهدمه من أصوله هدما في الحقيقة من حيث لا يدري أصحابه! ذلك أن برهان الوجوب والإمكان يقرر أن كل موجود (بهذا الإطلاق) يُتصور إمكان عدمه، فهو مفتقر بالضرورة إلى من اختار أن يوجده بعد أن لم يكن، في الوقت الذي اختاره لا غيره وعلى النحو الذي اختاره لا غيره. والبرهان على هذه الصياغة القديمة المعروفة يطلق مقدمته الأولى في كل موجود يوصف بأنه ممكن (أو قائم بغيره) Contingent، بصرف النظر عن درجة "تعقيد" ذلك الموجود الحادث وعما إذا كان يمكن قياس تركيبه أو "تعقيده" على شيء من صنعنا نحن وتركيبنا نحن معاشر البشر، أو من صنع غيرنا من المخلوقات!

ولكن بالتأمل في كلام "دمبسكي" المنقول في المقال أعلاه، نجده يفرق بين ما يسميه "بالسبب الذكي" أو "الكائن المصمِّم" الذي يختار من الأسباب الممكنة ما يشاء ويترك ما يشاء (فتصبح بذلك مما يسميه "بالممكنات الموجهة"!)، وما سواه من الأسباب التي لا توصف عنده بذلك الوصف! وهو تفريق تعريفي ضروري لكل باحث التزم المنهج التجريبي في إثبات أن بعض الأشياء تتصف بصفة لا تظهر (تجريبيا) في غيرها، وذلك في إطار ما يعرف باسم التشغيل البحثي Operationalization [48]! والمثال الذي يضربه دمبسكي (مثال أبحاث وجود الذكاء في بعض الكائنات في الفضاء البعيد SETI) يظهر منه هذا الاضطرار المنهجي، إذ يفرق هؤلاء الباحثون بين موجات كهرومغناطيسية يصفونها بأنها ليس وراءها كائن ذكي وأخرى يظنون أنه من الممكن أن يكون وراءها كائن ذكي. فما هو معيار معرفة "الذكاء" في ذلك من عدمه؟ أن تكون تلك الموجات قابلة للقياس على شيء مما يدخل في إطار تجربتنا البشرية المحدودة أنه من فعل كائن عاقل لغاية أو قصد يشبه مقاصدنا وغاياتنا من مثل ذلك! فإن وجدوا "تكرارا نمطيا" على قيم عددية معينة (كشفرة مورس مثلا)، أو صوتا يبدو "مألوفا" بالنسبة لهم، قالوا إنه لابد وأن يكون وراءه فاعل عاقل مختار مثلنا، وإلا لاختار أن يجعلها على خلاف ذلك! وهو ترجيح احتمالي قياسي مداره على فرضية واهنة للغاية [49] مفادها أن الموجات التي تبدو لنا بلا وظيفة قياسية (بمعنى أننا نعجز عن قياسها على شيء مما يمكن أن يكون له عندنا نحن، وفي حدود تجربتنا البشرية وتصوراتنا لأنواع الوظائف والأغراض الصناعية، أي معنى أو قصد أو غاية من جنس مقاصدنا وغاياتنا من بث الموجات في الفضاء) [50] هذه الموجات يبعد (احتماليا) أن تكون ناتجة عن مصدر يشبه عقله عقولنا وتشبه حِكمه وأغراضه وغاياته أغراضنا وغاياتنا! وبذلك يترجح عند أصحاب تلك النوعية من الأبحاث ألا يكون وراءها إنسان أو مخلوق شبيه بالإنسان، قد بثها في الفضاء لغرض مما يمكننا تصوره. [51]

ولكن هل تلك الموجات التي لم نر فيها نمطا قياسيا يمكننا تمييزه، فنفينا عنها – بالترجيح الاحتمالي - وجود مخلوق من أمثالنا يكون هو الذي صنعها وبثها في الفضاء لغرض ما (مما يمكننا تصوره وفهمه)، ينتفي عنها ما سماه دِمبسكي "بالسبب الذكي" بمجرد ذلك؟ لازم كلامه أنها ينتفي عنها وصف "المخلوقية" بإطلاق، لأنه عنده مرادف "التصميمية" أو "السببية الذكية"! فنحن لا نعرف من طريق التجريب والقياس التجريبي – على طريقة دمبسكي - أن الشيء مخلوق (أو باصطلاحه الذي يجب استعماله ها هنا لأنه أصل فساد مقدماته وطريقته: "مصمَّم") إلا إن أمكننا (إجمالا) أن نقيسه على شيء من صناعاتنا وتصاميمنا نحن البشر بصورة ما أو بأخرى! فالذي صنعه الرجل بهذه الطريقة التجريبية في تناول حقيقة الخلق الرباني، أن

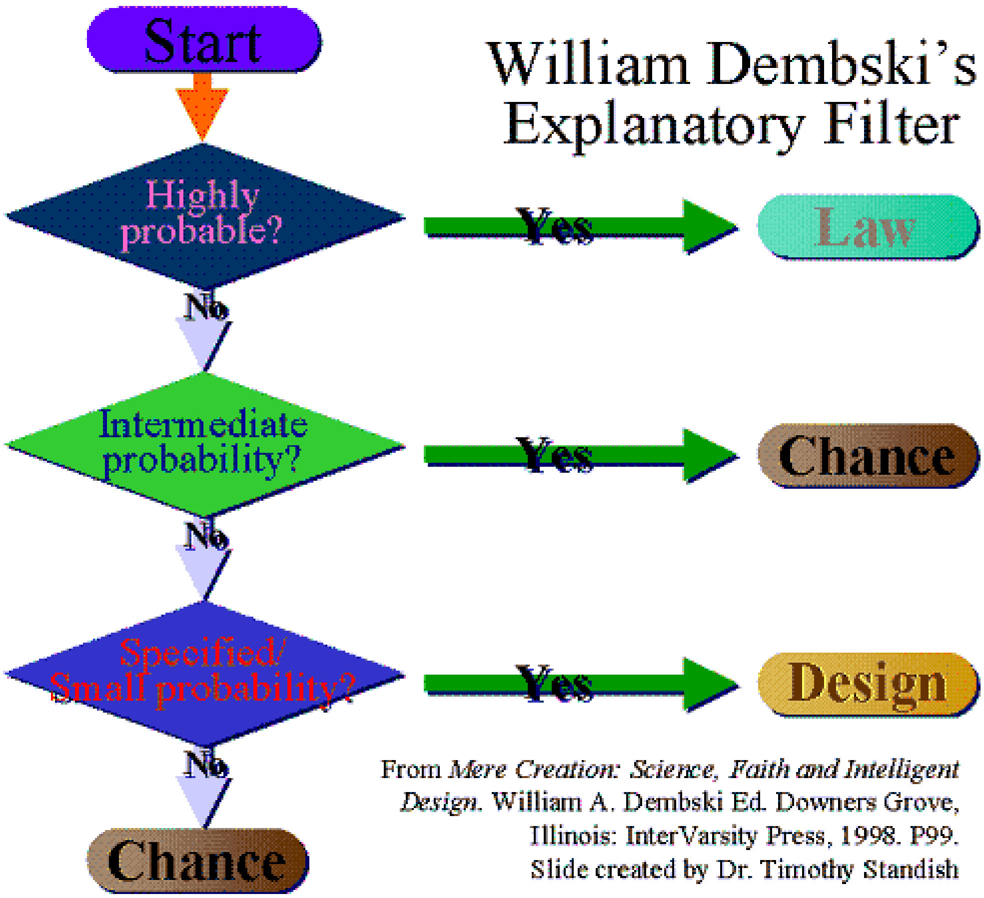
أحاله إلى "تصميم" كتصاميم المخلوقين، فأنزل الرب الباري جل وعلا في منزلة تلك الكائنات الفضائية المخلوقة التي يبحث عنها من طريق قياس أفعالها (في افتراضه التفسيري الاحتمالي) على أفعالنا، وتصاميمها على تصاميمنا!

ولهذا لزم بالضرورة أن تنقسم عنده موجودات العالم إلى قسمين: قسم له "سبب ذكي" (على الأقل في حدود ما يمكننا الوقوف على معرفته عنه تجريبيا) وقسم ليس له "سبب ذكي" (أو على الأقل فيما يبدو لنا!)، حتى يصبح لتكلفه البحث التجريبي في تعيين أي المخلوقات يمكن إدخاله تحت القسم الأول (ومن ثمّ إثبات أن وراءه "سببا ذكيا" أو "مصمما مختارا")، أي معنى أو قيمة معرفية! فإن جاز (كما هو مقتضى هذا التقسيم بمجرده) أن يكون من الموجودات ما ليس مجرد حدوثه على ما هو عليه بعد أن لم يكن، دليلا كافيا على وجوب وجود من أحدثه بالفعل والاختيار، فقد سقطت المقدمة الأولى لبرهان الوجوب والإمكان نفسه [52]، وجاز إذن أن يكون في العالم حوادث لا سبب لها وكائنات لا خالق لها (وهي عقيدة الطبيعيين المعاصرين التي انتصروا لها بتأويلات ميكانيكا الكم، كما بيناه في آلة الموحدين)، في مقابل حوادث أخرى يمكن تمييزها على أن لها "سببا ذكيا"، قد عقدها ذلك التعقيد المخصوص على ذلك النحو المخصوص من أجل وظيفة مخصوصة! وجاز كذلك أن يتنازع الملاحدة واللاهوتيون صنفين من الموجودات يتفقان إجمالا على إثبات نوعيهما، أحدهما يظهر بالبرهان التجريبي أنه مفتقر لمن يحدثه، والآخر لا يظهر فيه ذلك، أو بعبارة أخرى: جاز أن يُنظر بالقياس الطبيعي والاستقراء التجريبي في أحد صنفين كليين للمخلوقات فيما إذا كان قد صنعه صانع (على نحو طرائق البشر في التصميم والتركيب وتقدير الوظائف والمقاصد والغايات التصميمية) كما يدعيه اللاهوتيون أم لا، ويترك الآخر خاضعا – باتفاق الملاحدة واللاهوتيين جميعا - لاحتمالية متساوية بين أن يكون له "مصمم ذكي ذو اختيار" وألا يكون كذلك! فهل هذا الخالق الذي ينتصر له هؤلاء الخلقويون، هو علة العلل وسبب الأسباب كلها، الرب الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، ولا تقاس أفعاله على أفعال خلقه ولا غاياته على غايات خلقه؟ أم أنه ليس إلا مصمما من جملة المصممين (ككائن فضائي مثلا مما يبحث عنه أصحاب SETI كما في المثال الذي ضربه دمبسكي بنفسه!)، تنتهي إليه أسباب بعض المخلوقات بالغة التعقيد بأرجحية ظنية لا أكثر (كما هو الشأن في صنائع المصممين المخلوقين)، مع ثبوت خروج كثير من الأشياء، وورود خروج أشياء أخرى (احتماليا) عن دائرة صنعه وتصميمه (بالضرورة بموجب كونه مخلوقا محدودا)؟ الجواب واضح ولله الحمد، إلا لمن أعمى الله بصيرته بالافتتان ببضاعة هؤلاء الخلقيين! [53]

يواصل "دمبسكي" التأصيل لنظرية التصميم الذكي فيقول (كما في كتابه: "التصميم الذكي كنظرية من نظريات المعلومات" الذي نقل عنه أصحاب المقال المذكور أعلاه):

> تعتبر CSI مؤشرا معتبرا Reliable Indicator لحصول التصميم، نظرا لأن التعرف على وجودها يتوافق مع الطريقة التي بها نميز حصول السببية الذكية Intelligent Causation بعموم. ذلك أننا حتى نميز السببية الذكية عموما، ينبغي أن نثبت أن واحدا من عدد من الاحتمالات الممكنة عقلا المتنافسة في نفس الأمر قد ظهر تحقيقا، ونحدد أي الاحتمالات قد استبعد في المقابل. بالإضافة إلى ذلك فإنه ينبغي أن تكون تلك الاحتمالات التي استبعدناها احتمالات حية (واقعية)، بل ومتوافرة في الواقع بصورة يمكن إحصاؤها إلى حد يكفي لدفع احتمالية أن ينسب ذلك الاحتمال الذي اخترناه إلى الصدفة Chance. فبالرجوع إلى نظرية الاحتمالات، فإن هذا يعني أن الاحتمال الذي حصل في الواقع قليل الاحتمالية للغاية. وبالرجوع إلى مبدأ التعقيد Complexity، فإن هذا يعني أن الاحتمال الذي ظهر في الواقع شديد التعقيد. فكل العناصر في التصور العام لتمييز السببية الذكية (وهي: الحصول الواقعي – الاستبعاد – ثم التعيين) تجد نظيرها في نظم المعلومات المعقدة المحددة CSI. فتلك النظم تحدد ما نحتاج إلى البحث عنه عندما نرجو أن نميز حصول التصميم.

قلت: في هذا الكلام تقرير صريح لعقيدة الملاحدة الطبيعيين الماديين في مفهوم "الصدفة" وفي استدلالهم عليها باستعمال المنطق الاحتمالي. فهو يقرر ما معناه أنه كلما زادت احتمالية رصد المزيد من النظم المشابهة للنظام محل النظر في الطبيعة، زادت احتمالية أن يكون وجوده معزوا للصدفة Chance (أي: احتمالية ألا يكون مخلوقا)، فإن تفرد ذلك النظام أو قلت أشباهه ونظائره إلى حدّ كبير، مع زيادة تعقيده في نفسه، ازدادت احتمالية أن يكون مصنوعا بقصد واختيار (أو بعبارة دمبسكي: أن يكون "مصمما")! بل لقد بالغ دمبسكي في تقرير العقيدة المادية الطبيعية كمقدمة أولى لمسلكه في تطبيق المنطق الاحتمالي في هذا الشأن، حتى وضع خطة لدرجات الاحتمالية سماها "بالفلتر التفسيري" Explanatory Filter، وعبر عنه بالشكل التالي (المصدر السابق):



لا

لا

لا

نعم

نعم

نعم

قانون طبيعي ...

صدفة ...

تصميم ...

صدفة ...

احتمالية ضعيفة - محددة

احتمالية متوسطة

احتمالية قوية

بداية التحليل

فكما في الشكل أعلاه، يقترح دمبسكي منهجا لتأويل المشاهدات التجريبية في أنواع المخلوقات، بحيث يؤول تفسير بعض صفات المخلوق المشاهدة فيه إلى واحد من ثلاثة تفاسير جائزة عقلا عنده (بل حاصلة واقعا في اعتقاده): القانونية الطبيعية – الصدفة المحضة – والتصميم، وهي تفسيرات يمكن الترجيح بينها – عنده - في كل حالة بحسبها باستعمال المنطق الاحتمالي! فالكائن الحي أو النظام الحيوي المشاهد على عقيدته هذه إما أن يكون صورة من صور التكرار المتوقع لقانون طبيعي مطرد (وهو ما يعني بحسب المنطق الإلحادي أنه لم يخضع لإرادة خالق عليم حكيم)، فتكون احتمالية تكراره (نوعا) عند الاستقراء التجريبي احتمالية قوية (وهو عنده كما عند الملاحدة = الأصل في كل ما يقال له نظام طبيعي)، أو يكون شيئا استثنائيا غير خاضع لنظام قانوني طبيعي معين (لأنه لا يبلغ تكرار حالات وجوده أو حدوثه في الواقع في مشاهداتنا ما يبلغ بذلك الحدوث أن يكون قانونا طبيعيا). وفي تلك الحالة يفرق دمبسكي بين مستويين أو درجتين من احتمالية تكرار الحدوث التي يرى إمكان رصدها في الواقع، فيقول إنه كلما كانت احتمالية تكرار رصد الشبيه أو المثيل في النظام الطبيعي أقل، زادت احتمالية أن يكون ذلك الشيء "مصمما" لغرض ما عند فاعل مريد ذي علم واختيار (أو بحسب اصطلاحه: مصمم ذكي)، مرورا بمرحلة متوسطة في الاحتمالية يرد فيها احتمال أن يكون ذلك الشيء المبحوث قد نشأ على ذلك النحو بالصدفة المحضة، لا تبعا لقانون طبيعي مطرد ولا كنتاج لعلمية "تصميم"، أو "سببية موجهة" (على اصطلاحه).

هذا الاعتقاد هو عين اعتقاد الدهرية الماديين المعاصرين في تفسير النظام الطبيعي Natural Systems، وفي تمييزه (إجمالا) عن النظام الصناعي المصمم بشريا Artificial Systems. فالأصل عند الدهرية الماديين أن الموجودات الطبيعية إما أن تكون قديمة أزلية (كاعتقادهم في طاقة الفراغ الكمي المحض Vacuum energy التي نشأ الكون - والفراغ والزمان معه! - عن اضطراب وقع فيها بالصدفة بزعمهم) أو حادثة حدوثا عشوائيا لا سبب له، أو حدوثا خاضعا لنظام طبيعي، أي علاقة نظامية مطردة Regularity لا سبب ولا تعليل لوجودها هي نفسها في العالم إلا أن يكون حادثا عشوائيا Chance Event كذلك أو علاقة نظامية أخرى متقدمة عليه تسببت في ظهورها، تكون بدورها حادثة أو قديمة، وهكذا! والقصد أن المقصود بالقانونية الطبيعية عند الدهريين الطبيعيين في تفسير آحاد أحداث العالم وموجوداته، هو ادعاء نشوئها عن نظام سببي إما أن يكون قديما غير حادث أو حادثا ولكن لا أصل له ولا مصدر إلا الصدفة والعشواء (أو بعبارة أخرى: لا خالق له ولا قائم عليه)!

وفي المقابل، ولأن الدهرية لا يرون الفاعلية والإرادة الذاتية إلا في جنس المخلوقات العاقلة القادرة على إبداء الإرادة والفعل، ومن ثمّ يقصرون وصف الموجودات بأنها مصنوعة أو مخلوقة على ما كان ناشئا عن صنع وتركيب مخلوق من هذا الصنف، فقد انتصب في فلسفتهم التفريق بين ما له سبب فاعل أو سبب فيه فعل إرادي أو "صناعي" Artifical Cause، وبين ما له "سبب طبيعي" Natural Cause، على أساس أن هذا الأخير ليس من ورائه فعل ولا إرادة ولا صنع ولا شيء من ذلك، لأنه لا ينسب إلى مخلوق ذي إرادة! وما دامت العقيدة مستقرة على أن الطبيعة ونظامها وقانونها ليس من ورائه أي كائن فاعل مريد البتة، فلابد وأن يقتصر الحكم بوجود الفعل والإرادة (ومن ثمّ: الخلق) في التفسير السببي للحوادث المحسوسة في هذا العالم، على ما ثبت بالاستقراء والقياس (وحدهما) أنه من جنس صنائع المخلوقين أمثالنا.

من هنا أصبحت ترى الدهرية والملاحدة إذا ما نظر أحدهم (على سبيل المثل) إلى تشكيل صخري معين على شاطئ من الشواطئ أو في حديقة من الحدائق فعجز عن قياسه على شيء مما جرت عادته على مشاهدته في مصنوعات البشر، نسبه من فوره (كتفسير سببي) إلى العشوائية المحضة Chance (إن كان حالة منفردة لم ير لها نظيرا من قبل) أو إلى نظام طبيعي معين (إن كانت مما يتكرر حدوثه بانتظام في دائرة خبرته الفردية، من غير أن يكون لديه القدرة على قياسه على شيء من صنائع البشر). فلو أنه استطاع بالمشاهدة المباشرة أن يقيس بعض صفات ذلك التركيب المشاهد أمامه على صفات بعض الصنائع البشرية (مثلا) التي يعلم أغراض البشر في بناء مثلها على سبيل الإجمال (وهو ما يسميه دمبسكي في مجموعه بالمعلومات المعقدة المحددة CSI)، لحكم بأن من ورائها "تصميما" (أو بعبارة أخرى: أنها صنعة قد صنعت لغرض معلوم لديه لا لغيره)، وإلا لم يمكنه ذلك. فشرط الحكم بالمصنوعية هنا إنما هو شرط الطبيعيين الدهرية في تحصيل المعرفة بأي شيء في الواقع على الإطلاق، فلا يكون التفسير أو العامل السببي مقبولا (كدعوى وجودية واقعية) حتى يكون "طبيعيا" (بمعنى أن يكون قابلا – نوعا - للإخضاع للمشاهدة التجريبية بالفعل أو بالقوة)!

هذا هو منطق الدهرية الملاحدة في التفسير "العلمي"، فإما أن يكون الشيء من ورائه "سبب طبيعي" أو "سبب صناعي" أو أن يكون حدوثها محض "صدفة أو عشواء"! وهو، كما ترى، عين ما سلم به دمبسكي كمقدمة في قاعدته الترجيحية الاحتمالية التي يريد بها أن يستدل على أن بعض الكائنات الحية والنظم الحيوية: "صناعية" وليست "طبيعية"!

فالتصميم إذن إنما يراد به عند دمبسكي = كل ما قد يقبل الدهرية إطلاقه على بعض ما يسمونه "بالأسباب الصناعية" التي يترجح بالاستقراء الاحتمالي أن تكون من صنع فاعل ذي إرادة (أو "ذكاء" بحسب دمبسكي)، بناء على قياسهم التفسيري الإلحادي!

وهو يصرح في شرحه ذاك "الفلتر التفسيري" الذي أسس عليه نظريته (التصميم الذكي) بأن التفسيرات المحتملة (استقرائيا) لوجود الأشياء في الواقع إنما هي ثلاثة تفسيرات تحقق الشرطين المنهجيين المشهورين للباحث التجريبي في تعريف الصفات Attributes المنسوبة إلى أي متغير تفسيري Independent Varriable يراد بحثه بإجراء الترجيح الاحتمالي فيما بين تلك الصفات: أن تكون جامعة لكافة الصفات الجائزة طبيعيا Exhaustive، ومانعة في نفس الوقت من حصول التداخل فيما بين تلك الصفات Mutually Exclusive (بمعنى أن المتغير التابع Dependent Varriable المراد تفسيره يجوز أن يفسَّر تغيره بواحد فقط من تلك الصفات في المتغير التفسيري، لكن لا يمكن تفسيره بأكثر من صفة من تلك الصفات الممكنة في نفس الوقت)، وهي [54]:

- القانون الطبيعي
- الصدفة والعشواء
- التصميم

فالرجل كما ترى حريص على التزام المنهج التجريبي في دراسة الترابط الاحتمالي Correlation بين المتغيرات المبحوثة حتى الثمالة، وكأننا نتكلم عن متغير من المتغيرات الطبيعية يمكن أن تنحصر صفاته المراد الترجيح بينها احتماليا بين أن يكون "صلبا" أو "سائلا" أو "غازيا" أو "بلازما" مثلا، فلا نرى صفة خامسة يتعين علينا إدخالها في التعريف الإجرائي للمتغير الإمبريقي المراد بحثه! وهو ما يعني – كما لا يخفى – أن سبب حدوث الشيء في هذا العالم يجوز أن يكون هو الصدفة أو القانون الطبيعي غير المخلوق (على عقيدة الدهرية) أو أن يكون فعل "المصمم" المراد إثباته، تماما كما يجوز في الشيء المادي أن يكون صلبا أو غازيا أو سائلا (كما هي جملة صفاته الممكنة فزيقيا التي نشاهدها في الواقع تحقيقا)!

والطريف أن بعض الفلاسفة الدراونة قد ردوا على "دمبسكي" هذا التقسيم الثلاثي الحاد بين الصفات الثلاثة المزعومة للعامل السببي المراد إثباته، بما يكشف لك أنه أشدّ إغراقا في أصول الدهرية الطبيعية من كثير منهم، إذ نفوا عن بعض تلك الصفات في السبب التفسيري ما زعمه دمبسكي من عدم جواز تداخلها، أو عدم جواز اشتراك صفتين منها تحديدا (الصدفة والقانونية الطبيعية) في المتغير المفسر الذي يريد دمبسكي إثبات

أنه موصوف بالوصف الثالث: "فعل المصمم"! يقول فيلسوف البيولوجيا الانكليزي الدارويني "مايكل رُوز" في مقاله عن "النحلة الخلقية" في موسوعة جامعة ستانفورد للفلسفة [55]:

> الفرضية الأساسية التي وضعها دمبسكي هي أن التصميم والقانون الطبيعي والصدفة، صفات غير متداخلة Mutually Exclusive. هذا هو جوهر "الفيلتر التفسيري" عنده. ولكن في الواقع هل يحتاج أحدنا إلى وضع هذا الافتراض؟ بالتأكيد لا! فلو أننا ادعينا أن التطفر المندلي (الوراثي) Mendelian Mutation هو ضرب من ضروب الصدفة، فالمقصود أنه صدفة بالنسبة إلى تلك النظرية تحديدا، ولكن يجوز أن نعتقد أن ذلك التطفر نشأ عن أسباب اعتيادية طبيعية، وأنه لو كانت تلك الأسباب معلومة كلها بالنسبة لنا، فلن يوصف ذلك التطفر بالصدفة إذن وإنما بالضرورة Necessity. والقصد أن الصدفة في تلك الحالة ليست إلا اعترافا بالجهل وليست، كما قد يُظن أنه الشأن بالنسبة لعالم الجسيمات الكوانطية، وصفا للأشياء كما هي في الواقع. أو بعبارة أخرى: دعاوى الصدفة ليست صفات أونطولوجية، كما يفترض أنه الشأن في دعاوى وجود "المصمم"!

قلت: تأمل كيف يقرع الفيلسوف المادي الطبيعي [56] صاحبنا اللاهوتي على رأسه ينبهه إلى أن الصدفة (على الأقل في هذه الحالة بحسبه) ليست إلا اعترافا بالجهل بالأسباب الواقعية الممكنة خارج الذهن (التي يعد المصمم واحدا منها!)، وليست سببا واقعيا في نفسها! أي أن دمبسكي (اللاهوتي النصراني!) بلغ من الإغراق في مغالطة الإثبات الأنطولوجي للفوضى والعشوائية خارج الذهن (التي هي من أصول الملة الدهرية الطبيعية المعاصرة) ما لم يبلغه كثير من الماديين الطبيعيين أنفسهم، حتى جاءه منهم من يرد عليه في ذلك، فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ويواصل "روز" الرد على "دمبسكي" فيقول:

> بل أكثر من هذا، أننا قد نقرر أن المصمم دائما ما يكون عمله جاريا على قانون ما. وقد يكون هذا من عقائد الربوبيين وليس من النصرانية (فبعض النصارى يصرون على أن الإله يتدخل أحيانا في عملية الخلق). ولكن سواء كان الأمر جاريا على اعتقاد النصارى أم لا، فإنه لا يظهر أي تناقض بين مبدأ الخالق الذي يعمل دائما من طريق القانون، وفرضية "الذكاء المصمِّم". فقد يفضل المصمم أن يقضي بتحريك الأشياء على نحو يجعل أغراضه \ أو أغراضها (!!)

تتحقق مع مضي الوقت. فقطعة القماش التي تنتجها الماكينة توصف بأنها موضوع للتصميم كما توصف بذلك قطعة القماش التي ينتجها المصمم بيديه مباشرة ولا فرق.

قلت: صدق الفيلسوف الملحد الطبيعي في نقده دعوى اللاهوتي النصراني أن القانونية لا تأتي بخلق (أو "تصميم" على عبارته)، وزعمه المفاصلة والمقاسمة بين الوصفين على هذا النحو! والأمر في ذلك المعنى ليس مجرد "إمكان" أو جواز عقلي كما جعله "روز" ليكيف الكلام بما يناسب اعتقاده الدهري، فالحق أن العقل السوي يقضي بتحقق كون كل خلق الباري فيما اعتدنا رؤيته مما يحصل ابتداء خلقه داخل العالم (كنمو الأجنة في بطون أمهاتها، ونمو الزرع في التربة المخصبة، وغير ذلك) = جاريا على سنن وقوانين سببية هي جزء مما جعله الله تعالى في هذا العالم من نظام سببي مطرد في سماواته وأرضه. فهو خالق كل حادث من حوادث العالم بالضرورة من هذا الوجه، وهو الذي أجري فيه سننه الكونية كلها بالضرورة من أول يوم، وما زلنا نرى خلق النبات في بطن الأرض يجري على أسباب ثابتة (كبذر البذور وري الأرض ونحو ذلك) وخلق الأجنة في بطون أمهاتها كذلك، وهكذا في كل خلق جديد نراه في هذا العالم، مخلوق يفضي إلى مخلوق وحادث يفضي إلى حادث، بما في ذلك نظام تناسخ الخلايا الحية وآليات تكاثرها على المستوى الجزيئي، الذي أراد "دمبسكي" أن ينصر زميله "بيهي" في الاستدلال به على "التصميم" بأن يجعل برهانه هذا داعما له في ذلك! هذا النظام يتبع قانونا ثابتا وسننا سببية جارية لا تتبدل، فهل ينفي هذا عنها صفة الخلق؟ هذا "الفيلتر" الذي جاء به صاحبنا يلزمه منه ذلك (منهجيا)، وهو ما ينهدم به ما أراد أن يثبته أصلا! بل إنه ينهدم منه اعتقاد النصارى نفسه في أن الرب هو خالق تلك الكائنات الحية كلها في البر والبحر والجو، التي لا نرى فردا من أفراد أنواعها يُخلق في هذا العالم إلا تبعا لنظام سببي مطرد لا محالة! فتأمل من الذي رد على اللاهوتي النصراني ينبهه إلى أن القانون الطبيعي لا يلزم من إثباته نفي الخالق، فلا تصح المقاسمة بينهما على هذا النحو! سبحان الله العظيم!

هذا وقد استعمل دمبسكي (ليوضح فكرته) نفس مثال التكوين الصخري الذي ذكرناه آنفا، فيما نقله عن "مايكل بولاني" في التمهيد لكتابه المعنون "استنتاج التصميم: إسقاط الصدفة من طريق الاحتمالية الضئيلة"، حيث قال [57]:

في كتابه "المعرفة الفردية" يتأمل مايكل بولانيي (1963، ص. 33) في جملة من القطع الصخرية الملقاة في حديقة ما. ففي حالة من الحالات قد يبدو أن الصخور تكتب بمجموعها عبارة "أهلا بكم في

ويلز، بواسطة خطوط السكة الحديد البريطانية"، وفي حالة أخرى قد تبدو ملقاة بصورة عشوائية. في كلتا الحالتين يكون ذلك التركيب المعين المحدد للكتل الصخرية ضعيف الاحتمالية للغاية. بل يمكننا أن نقول إن أي تركيب أو ترتيب للقطع الصخرية يظهر لنا في الواقع إنما هو واحد من عدد يكاد أن يكون لا-نهائيا من الترتيبات الممكنة (لنفس قطع الصخر). ومع هذا، فترتيب الصخور على نحو يكتب عبارة انكليزية منضبطة إنما يمثل جزءا صغيرا للغاية من مجموع التراتيب الممكنة لتلك القطع. هذه الاحتمالية الضعيفة لتلك النوعية من التراتيب ليس من المستساغ أن تنسب إلى الصدفة.

قلت: فالذي نراه في هذا الكلام محاولة لتأويل وتطويع المنطق الاحتمالي لخدمة تصور إلحادي محض في التفريق بين ما هو من صنع الإنسان، وما هو من صنع الطبيعة الصماء البكماء (أو ما يوصف بأنه محض الصدفة والعشواء)! فصحيح إن الاحتمالية ضعيفة للغاية أن نرى هذا الترتيب الصخري أو ذاك (مما لم يتدخل الإنسان في صنعه) يتكرر هو بعينه مرة أخرى في حديقة أخرى، نظرا لكون الاحتمالات الممكنة لا تكاد تتناهى في حدود تصورنا البشري، ولكن هذا لا يعني أن كونها على هذا النحو الذي نراه بالذات في تلك الحالة بالذات لا على غيره = صدفة محضة ليس من ورائها خلق وتدبير وإرادة وحكمة عند خالق عليم مقتدر! الصدفة على مفهومها الصحيح كما بيناه في غير هذا الكتاب، حقيقتها غياب المعرفة عند الإنسان (بنوعه أو بعينه) بالسبب والغاية والقصد المعين من وراء حدوث حدث معين فيما أدركه وشاهده على نحو ما أدركه وشاهده، كما يحدث عندما تلقى صاحبك في الطريق صدفة في يوم من الأيام من غير ترتيب سابق بينكما. فسبب وصفنا هذا اللقاء بالصدفة أو المصادفة (في جميع اللغات بلا استثناء) أننا لم يسبق لنا اتفاق على ترتيبه وعلى الأخذ بأسبابه المعلومة لدينا (نوعا). ولربما كان ثمة من رتبه من أصحابنا من غير أن نعلم، فكان له فيه غرض ما، ولربما لم يرتبه أحد من البشر أصلا. ولكننا في جميع الأحوال نقطع بأن من وراء ذلك الحدث إرادة وفاعلية Agency بالضرورة، سواء كان في الأمر فعل بشر مخلوقين أمثالنا مما يخفى علينا (أي في الإتيان ببعض أسبابه)، مع كونه داخلا – كيفما كان – في أمر الله وتدبيره السابغ بالضرورة، أو لم يكن في الأمر إلا فعل الله وتدبيره، بما أجرى عليه نظام الأسباب سبحانه، من غير أن يكون من بين تلك الأسباب عمل مخلوقين فاعلين أولي إرادة من أمثالنا.

هذا هو معنى الصدفة عند المسلمين وعند عامة البشر أسوياء العقل والفطرة! أما الماديون الطبيعيون (من أصحاب الرياضيات والفيزياء وغيرها

من العلوم المعاصرة ذات الصلة) فقد أصبح مفهوم العشواء والصدفة عندهم مفهوما وجوديا واقعيا يصف الحدث نفسه في الخارج لا في الذهن (أنه لا سبب له أصلا ولا فاعل ولا مريد ولا مدبر)، لنفيهم الفاعلية الغيبية فيما وراء العالم جملة وتفصيلا! فأي فعل أو فاعلية أو إرادة يمكن تصورها في الذهن فلا يمكن عندهم أن تأتي إلا من فاعل حادث Contingent Agent داخل هذا العالم، وحينئذ يصبح السبب "صناعيا" أو "موجها"، بخلاف ما يسمونه "بالسبب الطبيعي"، الذي قد يكون عندهم حادثا قانونيا نظاميا لا سبب له إلا ذلك القانون نفسه، أو حادثا عشوائيا محضا لا يخضع لقانون ولا نظام أصلا كما ذكرنا آنفا.

لذا نقول إن الخلقويين (القائلين بما يسمى بالتصميم الذكي، والمصمم الذكي)، مغرقون في تشبيه الأفعال بالضرورة ولا محالة، ولا مخرج لهم منه إلا بإسقاط تلك النظرية ونظرية داروين معها، والانخلاع من بدعة التنظير الطبيعي في تلك القضية جملة واحدة! أما تلك المحاولة البائسة للجمع بين ملة من الملل الكتابية من جانب وبين النحلة الطبيعية الدهرية الداروينية من الجانب الآخر، فلا سوق لها عند العقلاء! فالرب الباري عند دمبسكي وأصحابه إنما يمتاز الشيء الذي كان من "تصميمه" (على حد تعبيرهم) من الشيء الذي كان وجوده طبيعيا أو عشوائيا، بمثل ما يعرف به تصميم المصمم البشري من أقيسة واستقراءات احتمالية، وهم تبع للملاحدة الدهريين في أصل ذلك كما بينا. بل إنهم يلزمهم لزوما لا انفكاك لهم منه، اعتقاد أن الرب مخلوق من جملة المخلوقات، حادث من جملة الحوادث، لأن فعله وخلقه (الذي يسمونه بالتصميم) محصور عندهم (بمقتضى منطقهم الاستدلالي نفسه كما يشرحونه في أدبياتهم) في بعض الموجودات التي لها صفات قياسية محددة، لا في جميع الحوادث والموجودات بالضرورة والبداهة وكما هو اعتقاد المسلمين! فنحن المسلمين نؤمن ونوقن بأنه ما من حدث يحدث في العالم إلا وهو من خلق الله تعالى وفعله وإرادته، وأن كل شيء عنده بمقدار سبحانه وتعالى، وهو اعتقاد يواطئ الفطرة والبداهة الأولى كما لا يماري فيه إلا سفسطائي فاجر!

فالخلقيون التطوريون في حقيقة الأمر إنما تناولوا نفس المقدمة الكلية الدهرية الطبيعية الاحتمالية التي انطلق منها أمثال الانكليزي "ريتشارد دوكينز" إلى القول بأن الرب "صانع ساعات أعمى" (سبحان الله وتعالى على ما يقولون علوا كبيرا)، لينطلقوا هم منها إلى القول بأنه "صانع ساعات ذكي"! فكيف وصل دوكينز نفسه إلى ادعاء أن العالم إن كان له صانع فلابد وأنه "صانع أعمى" يقصد – على سبيل التجوُّز – القانون الطبيعي غير المعلل من خارجه بخالق حكيم (ولا نقول "مصمم ذكي")؟ وصل إلى ذلك

باتخاذ جهله هو بحِكم الباري وغاياته في أكثر ما خلق سبحانه، دليلا على عشوائية ذلك الخلق وعلى أن أصله ومنشأه لابد وأن يكون "طبيعيا" وليس "صناعيا"! فإذا كانت العشوائية متجذرة في نظام الخلق نفسه – كما سعى إلى إثباتها في أكثر من كتاب من كتبه باستعمال المنطق الاحتمالي – فلابد وأن يكون ذلك الصانع (إن وجد) لا يدري كثيرا مما يفعل، وإنما غايته أن يستعمل طريقة "التجريب والخطأ" حتى يأتي (باحتمالية ضعيفة للغاية، وبعد كثير من الأخطاء والتشوهات والمعايب) بأشياء قد تبدو أخيرا و"كأنها مصممة"، أو ما يسميه دوكينز Designoid! بل لقد صرح "دوكينز" بالفعل في لقاء تلفزيوني أجراه معه الإعلامي الأمريكي "بن شتاين" باعتقاده جواز أن تكون الخلية الحية قد "صممتها" بعض كائنات "اليوفو" التي زارت الأرض قبل بلايين السنين! وقد بلغ الرجل أن حرر تعريفا لعلم الأحياء بأكمله Biology في كتابه "صانع الساعات الأعمى" قال فيه في الصفحة الأولى من ذلك الكتاب إنه: "دراسة تلك الأشياء بالغة التعقيد التي تبدو في ظاهرها وكأنها قد صممت لغرض ما"! فما الذي جاء به الخلقيون في جواب هذا الكلام ونحوه، مع حرصهم على أن يكون الرد "علميا" (أي على شرط الملاحدة الجدد أمثال دوكينز وأصحابه)؟ والله ما أرى إلا أنهم قد ألزموا أنفسهم بموافقة "دوكينز" في هذا التعريف، إذ قالوا ما حاصله وحقيقته: سنثبت لكم – بنفس المنطق الاحتمالي الطبيعي – أن ثمة "مصمم ذكي" إلى جانب ذلك "المصمم الأعمى" الذي تزعمونه، وأن بعض مفردات خلق ذلك المصمم الذكي لا تتطرق إليها العشواء أو الصدفة ولا يرد عليها أن تكون جزءا من مخرجات "القانون الطبيعي" (أي الذي لا ينسب إلى السببية الذكية على عقيدتهم) إلا باحتمالية ضعيفة للغاية! سنثبت أن ما قاله "دوكينز" على سبيل التجويز العقلي، حاصل في الواقع تحقيقا، بالاستناد إلى نفس المقدمات الطبيعية المادية التي استند هو إليها، التي نوافق على تسميتها "بالعلمية" Scientific إجمالا، مع الفارق أننا سنسمي ذاك "الكائن المصمم الذكي" الذي أثبتناه بالاحتمالية الرياضية: "بالرب الخالق" الذي جاء ديننا بخبره، بدلا من "مصممي كائنات اليوفو الذكية" الزائرين من الفضاء البعيد، التي مال "كارل ساغان" للقول بها كما هو مشهور من مذهبه!

وهذا هو السبب في الحقيقة في انطباق تهمة "إله الفجوات" أو "إله الثغرات" god of the gaps التي يدندن بها الملاحدة الجدد في كثير من المناسبات، على اللاهوتيين الطبيعيين النصارى Christian Natural Theologists حق الانبطاق. وما من أحد أحق بانطباقها عليه من "الخلقيين" من أصحاب "التصميم الذكي"، فالنظرية ما خرجت أصلا إلا كتعديل يسير على الاعتقاد النصراني في صفة الإله! فقد كان من اليسير بالنسبة لهم أن يلتزموا (التزاما صريحا) بعقيدة مفادها أن الإله "يتدخل"

Intervenes في بعض حوادث العالم، على أساس أنه في الأصل يتركها لتجري على مقتضى "الأسباب الطبيعية"، وليجري بعضها الآخر على وفق إرادة الكائنات ذاك الإرادة الحرة Free Will في العالم (تبعا لقدرية النصارى وكفرهم بالقضاء والقدر) من غير أن يكون للرب سلطان على شيء من ذلك، فليس هو خالق أفعال العباد عندهم، وليس هو خالق كل شيء على الحقيقة في اعتقادهم! [58]

لذا ففي القرون الأخيرة، وبعد علو الفلسفة الطبيعية الدهرية في الأوساط الأكاديمية الغربية، أصبحوا يوافقون الدهريين الطبيعيين بكل سهولة على أصولهم الإبستمولوجية الكلية في بناء التصور الطبيعي لنظام العالم وآلية عمله، ومن ثم أصبح دور الخالق عندهم قاصرا على إطلاق "الشرارة الأولى" لذلك المسلسل الطبيعي الأسطوري المزعوم لأحداث الخلق (أو بالأحرى: التطور الطبيعي) لهذا العالم وجميع ما فيه عبر بلايين السنين، مع القول "بتدخله" بالخلق المباشر لبعض الأشياء و"تدخله الإلهي" Divine Intervention لإحداث بعض "المعجزات" الاستثنائية من آن لآخر (وهذا هو أصل قولهم بفكرة "التدخل الإلهي" هذه فتأمل)! فلما كانوا قد وافقوا الطبيعيين على أصل فلسفتهم في تحصيل المعرفة بقضايا الغيب المطلق في خلق السماوات والأرض وما فيهما، أصبح سعيهم في إثبات "تدخل الرب" الخالق ببعض أحداث "التصميم الذكي" في بعض المواضع من نظام العالم، على أساس من القول بعجز الماديين الطبيعيين عن "تفسيرها" بالتنظير التطوري = حشرا لإلههم في فجوات "العلم الطبيعي" على الحقيقة، في نظر خصومهم الطبيعيين! وصدقوا ولا شك! ذلك أنهم متى ما وجدوا فجوة في أسطورة النشأة الطبيعية قد تخلف القوم عن ملئها ببعض التأويلات التي تبدو مناسبة لبنائهم الأسطوري، سارعوا بنسبتها إلى "التصميم الذكي"! فأي إله هذا الذي أثبتوه على الحقيقة لو كانوا يعقلون؟ إنه ذاك الإله الفلسفي التجريدي الذي يطمع اللاهوتي النصراني المعاصر على استحياء بالغ في استرضاء الطبيعيين الملاحدة بإثباته بين أيديهم وبدعوتهم إلى قبوله، لأنهم هم القائمون على أكاديميات البحث الطبيعي في زماننا هذا، فلعلهم بذلك يقبلونه (مع إيمانه بمخلوقيته ومربوبيته) في مصاف "العلماء" والعقلاء! ولعله إذن ينال "الحسنيين" بذلك: العلو بين أصحاب العلوم الطبيعية من جانب، والعلو بين رجال الكنيسة من الجانب الآخر، فتأمل كيف عاملهم الله بنقيض قصدهم وأخزاهم في الدنيا قبل الآخرة!

بل نقول إن الأمر المضحك المبكي حقا أنك لو فتشت عن مرجع "دوكينز" في فكرة "صانع الساعات الأعمى" هذه نفسها (كما صرح هو بذلك)،

لوجدته اللاهوتي البريطاني "ويليام بيلي" W. Paley، الذي كتب في رأس القرن التاسع عشر الميلادي في كتابه "اللاهوت الطبيعي" تشبيها أراد به إقامة البرهان الغائي (التليولوجي) على وجود الباري، فقال فيه (الفصل الأول الفقرة الأولى) [59]:

> لنتصور أني في عبوري مرجا من المروج، ارتطمت قدمي بصخرة، ثم سئلت عن الكيفية التي جاءت بها تلك الصخرة إلى ذاك المرج، فلعلي أجيب بأني لا أجد مانعا من الظن بأنها كانت هنا من الأزل، ولربما كان من المتعذر بالنسبة لي أن أثبت فساد هذا الجواب إن تكلفت ذلك. ولكن هب أني عثرت على ساعة معصم ملقاة على الأرض، وأثير السؤال عن سبب وجود تلك الساعة في ذاك المكان. حينئذ سيكون من غير المتوقع في حقي أن أتطرق بذهني إلى نظير جوابي عن السؤال السابق (بشأن الصخرة): أن أزعم أن الساعة كانت في ذلك المكان من الأزل. ولكن لماذا لا يصلح هذا الجواب عن السؤال بشأن الساعة كما بدا صالحا عند الجواب عن السؤال عن الصخرة؟ لماذا لا يبدو مقبولا في الحالة الثانية كما في الأولى؟ السبب في ذلك، الذي لا سبب غيره، أننا عندما نتأمل في الساعة فإننا ندرك – كما لا ندركه في الصخرة – أن أجزاءها الكثيرة قد صنعت وركبت في ذلك التركيب الدقيق لغرض ما Purpose ... تلك الآلية الظاهرة في ملاحظتنا تحملنا على استنتاج لا محيص عنه، مفاده أنها لابد وأن كان لها صانع. ومن هنا، فكل ملاحظة قررناها في فصلنا الأول فيما يتعلق بساعة المعصم، يمكن تكرارها بصورة صحيحة ومنضبطة فيما يتعلق بالعين البشرية، وفيما يتعلق بالحيوانات والنباتات، وفيما يتعلق – في الحقيقة – بكافة الأجزاء المنظمة في أعمال الطبيعة ... فالعين تكون إذن كافية وحدها في تعضيد الاستنتاج الذي نخرج به منها، ألا وهو ضرورية الخالق الذكي.

قلت: تأمل كيف قاس اللاهوتي صنع العين البشرية على صنع ساعة المعصم في مقارنتها بالصخرة الصماء، وفيما زعم أنها آلية العقل السوي الصحيح في التفريق المعرفي والاستدلالي بين الحالتين (حالة ساعة المعصم وحالة الصخرة الصماء)، بأننا يستساغ لنا عند الجواب عن السؤال عن الصخرة أن نعتقد أنها كانت في ذلك المكان من الأزل، وألا نجد في أنفسنا صارفا عن ذاك الزعم الدهري المحض! ألا يعني هذا أن "بيلي" يستصحب – بالضرورة - في "برهانه الغائي" عقيدة الدهريين في أزلية العالم كمقدمة كلية؟ بلى ولا شك! ولا أجد له مخرجا من هذا الإلزام، بمقتضى ذلك التفريق الذي قرره في مقدمة برهانه! وها نحن قد رأينا

الخلقيين المعاصرين يصرحون بمعتقد الدهرية في تلك الأشياء (الطبيعية) أو التي "لا تبدو وكأنها مصممة"، كما مر معك، ولا يرون فيه حرجا أصلا! فهو (أي "بيلي") يجيز – بل يزعم أن نفوس البشر العقلاء الأسوياء تميل إلى – ادعاء أزلية تلك الأشياء في الطبيعة التي لا يظهر لنا فيها غرض أو وظيفة يمكننا تصورها أو قياسها أو توقعها فورا حال المشاهدة، ونفي السببية عنها! بينما يلزم عند رؤية العين البشرية (مثلا) أن نثبت أنها معللة وأن لها صانعا ذا حكمة وإرادة وغرض، لأننا نعلم أنها قد رُكبت في موضعها لغرض الإبصار، تماما كما أن ساعة المعصم صنعت وركبت على نحو ما ركبت لغرض إعلام الناس بالوقت!

فأي صانع هذا الذي أثبته "بيلي" بهذا "البرهان" إلا أن يكون هو نفس الصانع الذي صرح "دوكينز" الملحد بصفته (وكأنما يريد إلزام "بيلي" بلازم مقدماته)، وقرر أنه ناقص بالضرورة، لا سلطان له على نظام الطبيعة الذي يعتقد الدهريون أن فيه من العشوائية الوجودية المتجذرة ما يلزم معه نسبة "العمى" و"الجهالة" إلى ذلك الصانع إن وُجد (سبحان الله وتعالى عما يقولون جميعا علوا كبيرا!)؟ "دوكينز" ما زاد على كلام "بيلي" إلا أن صرح بمقتضياته ولوازمه (في صفة ذلك الصانع المزعوم) التي لم ينتبه هو إليها من قبل، تماما كما صنع سلفه "ديفيد هيوم" في القرن السادس عشر الميلادي في نقده هذا الصنف من البراهين بعموم، وصرح بأنها لا تخدم اللاهوتيين في إثبات الإله كامل الصفات الذي يدعون الناس لعبادته!

بل إن "دوكينز" يبدأ كتابه "صانع الساعات الأعمى" في فصله الأول بالتعليق على هذا الاقتباس نفسه من كتاب "بيلي"، فيقرر أنه استوحى عنوان كتابه وفكرته منه، ثم يعقب بقوله: "يقدِّر "بيلي" ها هنا (أي في ذلك الاقتباس) الفرق بين الأشياء الطبيعية الفزيقية كالصخور، والأشياء المصممة والمصنوعة كالساعات." اهـ. قلت: وهذه عقيدة النحلة الدهرية الطبيعية في الأشياء المسماة بأنها "طبيعية فزيقية" Natural Objects: أنها لا تعليل لها إلا بمثلها من "الأشياء الطبيعية"، ولا غاية من وجودها فيما وراء ذلك ولا غرض، وإنما الصدفة والعشواء أو تسلسل الأسباب الطبيعية بلا بداية! ولهذا أصبح السائد في أدبيات الغربيين في زماننا التفريق بين ما يسمى "بالتفسير الطبيعي" وما سواه من الدعاوى التفسيرية، على اعتبار أن هذا الأول إنما هو التفسير الذي لا يستدعي القول بكائن فاعل ذي إرادة Willful Agent فيما وراء (أو في أي جزء من أجزاء) سلسلة الأسباب التي أدت إلى حدوث ذاك الحادث المراد تفسيره، وحينئذ يقال عنه: إنه "حادث طبيعي" Natural Event.

وبما أن النحلة الطبيعية تقوم – بالأساس - على نفي الغيب المطلق وما وراء الطبيعة جملة واحدة، ومن ثم نفي العلة الأولى (الباري سبحانه وتعالى)، فكل ما يوصف عند الطبيعيين بأنه "تفسير طبيعي" فالمقصود به نفي الفاعلية Agency داخل العالم (أي نفي وجود كائن فاعل داخل العالم ذي إرادة وفعل قد تسبب في حدوث الحادث المعين المراد تفسيره)، لأن كل تفسير فيه ذكر لكائن فاعل مطلق التغييب فليس هو بتفسير عندهم أصلا، بصرف النظر عن مصدره ومستنده عند أصحابه. وعلى هذا المفهوم فالأصل في الحوادث والأشياء عند الطبيعيين أنها "طبيعية"، إلا ما كان منها ناتجا عن فعل كائن مخلوق (أو بعبارة أخرى: كائن حي عاقل من داخل الطبيعة نفسها). فالتفسير الذي يسعى المحقق الجنائي – على سبيل المثل – باستعمال وسائل البحث والترجيح الإمبريقي للتوصل إليه بشأن جريمة ما، لا يوصف بأنه "تفسير طبيعي"، لأنه قائم على استصحاب مقدمة أولى مفادها أن هذا الحدث كان من فعل فاعل عاقل ذي إرادة.

وكذلك يقال في مباحث SETI (أو البحث عن صور "الذكاء" في الفضاء الخارجي)، فهم يسعون للوقوف على موجات كهرومغناطيسية منبعثة من أعماق الفضاء البعيد لا يمكن تفسيرها بأي "تفسير طبيعي"، فتنسب – إذن – إلى نوع "الفاعل الذكي" كعامل سببي! من هنا يأتي تفريق الطبيعيين الدهريين بين ما يصفونه بأنه شيء طبيعي (أي لم يكن كما هو كائن الآن بسبب فعل فاعل ذي إرادة وحكمة)، وما يصفونه بأنه شيء "مصمَّم"، إذ لا قسيم للشيء الطبيعي عندهم إلا الشيء الصناعي الذي صنعه البشر أو ما يقاس عليهم من أنواع المخلوقات الصانعة ذات الإرادة والفعل الحر داخل هذا العالم. فعندما يتخذ اللاهوتي هذا المعنى نفسه لما يسمى "بالسبب الطبيعي" والتفريق نفسه بين ما هو "طبيعي" وما هو "صناعي" كمقدمة أولى يؤسس عليها كلامه، فأي "فاعل ذكي" هذا الذي يكون ملزما بإثباته على التحقيق؟ إنه "صانع الساعات" المتسبب في صنع نوع الساعة وما يقاس عليها من أنواع الموجودات وحسب، على خلاف عقدي وفلسفي واقع لا محالة بين الطائفتين في صفات ذلك الصانع وفي تقدير حدود "ذكائه" وقدرته وفاعليته داخل العالم [60]!

فبينما يحاول الملحد نقل "الفاعلية" من معناها الفطري الحقيقي المتمثل في ذلك الكائن الفاعل الغيبي المزعوم إلى جملة من القوانين الطبيعية الصماء وإلى الفوضى المتجذرة تحت أصول تلك القوانين ومحض العشواء، يحاول اللاهوتي – بعدما ارتكن إلى ما لا يدرك أبعاده ولوازمه من مقدمات الدهريين أنفسهم - أن يتمسك باعتقاده في كمال قدرة وعلم ذلك الخالق الغيبي مطلق التغييب، كما هو مقتضى البداهة والفطرة.

والحاصل أن كلا الفريقين على تناقض فاحش في مقدماته، ومصادمة شنيعة للبدهيات الفطرية الأولى، وفي كلا القولين إلحاد وكفر مبين ولا شك، وقياس صفات وتشبيه أفعال محض، ومع هذا ترى من عامة المسلمين وأشباههم من يقلد هؤلاء ويقول "بالتصميم الذكي" كقولهم، يترجمون كتبهم وينشرونها بين المسلمين، يدخلون جحر الضبّ على أثر أهل الكتاب بلا علم ولا عقل وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

بل إن المتأمل في كلام "تشارلز داروين" نفسه، مؤسس عقيدة النشوء والارتقاء عند الطبيعيين، يجد أنه كان مدفوعا – ضمن جملة أخرى من الدوافع النفسية والاجتماعية – عند وضعه فكرة "الانتخاب الطبيعي" وتحريره إياها في كتابه "أصل الأنواع"، بالرغبة في الرد على تحدي اللاهوتيين النصارى أمثال "ويليام بيلي" وغيره الذين زعموا أن تلك البراهين التليولوجية الطبيعية التي اخترعوها تقدم "تفسيرا طبيعيا" للتعقيد البالغ في بعض الكائنات الحية لا يجد الطبيعيون الماديون في نظرياتهم تفسيرا يفضُله، أو بعبارة أدق: لا يمكن للطبيعية المنهجية Methodological Naturalism أن تنتج له تفسيرا آخر أصلا! يقول داروين (فيما كتب في بعض رسائله إلى أقرانه) [61] في الرد على عقيدة اللاهوتيين الطبيعيين التي تربى عليها في دراسته [62]:

> ذاك البرهان القديم لحصول التصميم في الطبيعة، كما قدمه "بيلي"، الذي كان فيما مضى يبدو بالنسبة لي قويا وكافيا، يفشل الآن وقد اكتشف قانون الانتخاب الطبيعي. فلم يعد من الممكن أن نبرهن، على سبيل المثل، على أن ذلك المفصل الجميل الرابط بين صدفتي القوقعة، لابد وأنه قد صنع بواسطة كائن ذكي، كما يقال في مفصل الباب الذي صممه الإنسان. فإنه لا يظهر على تنوع الكائنات العضوية وعلى آلية عمل الانتخاب الطبيعي، أن فيها تصميما أكثر مما نجد في المسارات التي تتخذها الرياح عند هبوبها. كل ما في الطبيعة إنما هو نتاج قوانين (طبيعية) ثابتة.

قلت: فإذا كان "بيلي" يقول للطبيعيين: لا يمكن تفسير العين (مثلا) باستعمال نفس أنواع النظريات التي نفسر بها شكل الصخرة الصماء في قلب الصحراء أو حركة ذرات الهواء في السماء عند هبوب الرياح، وإذن فلابد وأن تفسيرها: "التدخل الإلهي" بالخلق "والتصميم"، فمن المتوقع ولا شك أن يأتي من الطبيعيين من يرد عليه بقوله: "ها أنا ذا قد جئتك بنوع التنظير الذي ارتضيته في عامة الحوادث الطبيعية، واستندت في برهانك إلى غيابه وامتناعه في خلق العين البشرية ونحوها من الأعضاء والكائنات الحية المعقدة، فلا ترجع إلى الاعتراض علينا بمسألة التدخل الإلهي

بالتصميم هذه مرة أخرى، وكف عن "حشر إلهك" في فجوات التنظير الطبيعي!

فنحن نقول: إن من أشد الأشياء سخفا وحماقة أن تأتي لصاحب أسطورة غيبية محضة في سير الأحداث التي بُني بها العالم وجميع ما فيه من نظم ومخلوقات، فتتحداه أن يأتي لبعض المشاهدات المعينة فيه بتفسير وتأويل يبدو وكأنه يدعم تلك الأسطورة عنده ويثبتها، على خلاف زعمك أنت فيما جرت عليه أحداث الخلق والتكوين، وفيما كان وراءها من تعليل! هذا إقرار منك بسلامة مسلكه في تأويل بعض مشاهدات العالم لتعضيد الدعاوى الغيبية المحضة في الأحداث التي نشأ بها العالم نفسه! فبالله ماذا تنتظر أيها العاقل الحذق إلا أن يأتيك بالتنظير والتأويل والتفسير – كما طالبته - من كل صنف ولون، ليقول لك: "هاكم ما طلبتم فالتزموه إن كنتم فاعلين"؟ هذا أمر لا يعجز عنه أحد من أهل الملل أصلا! من أراد أن يعتقد أن فيما وراء العالم إلهين أحدهما إله خير ونور والآخر إله شر وظلام، لن يعجز عن تأويل ما في العالم من أنواع المشاهدات بما يزعم أنه يثبت عقيدته! أليس في العالم ما يوصف بأنه "خير" وما يوصف بأنه "شر"؟ فإن أراد أن يزعم أن خالق العالم لم يرد أن يخلق في العالم شرا أصلا وإنما خلق الخير وغيره خلق الشر، فأي شيء من المشاهدات في العالم يمتنع من تأويله بما يخدم تلك الخرافة المحضة المصادمة لبداهة العقل والفطرة؟ وهل يعقل أصلا أن يكون ذلك التأويل دليلا على صحتها، تبعا للمنطق الاستقرائي الاحتمالي المتبع في تفسير المحسوسات تبعا لما جرت عليه خبرتنا البشرية؟ وكذلك نقول: من أراد أن يعتقد في أصل العالم أنه نشأ من صدفة محضة ومن تسلسل لنوع الأسباب الطبيعية لا بداية له ولا محدث ولا صانع ولا قيوم عليه من خارجه، وإنما قوانين طبيعية ينشأ بعضها من بعض بلا بداية ولا مصدر، يجري بعض الحوادث تحتها والبعض الآخر تحت العشواء المحضة، فلن يمنعه مانع من تأويل المشاهدات التي يجهل نظامها ويعجز عن تتبع أسبابها على أنها هي أمارة تلك العشواء التي يزعمها! هذا ليس من "تشابه" بعض المشاهدات في الواقع كما رأيت بعض الإخوة هداهم الله يزعمونه! [63] التشابه أو الاشتباه أو الإجمال / Ambiguity / Congruence يفترض فيما لو كان منطق تأويل المشاهدة نفسه مقبولا من الأساس! بمعنى أننا قد نختلف فيما إذا كانت آثار الأقدام التي أراها الآن على البساط في بيتي من أثر قدمي أنا أم من أثر أقدام غيري ممن يسكنون معي في البيت نفسه، فتبدو لي المشاهدة مشتبهة من هذا الجانب، إذ تقبل إن عزلناها عما سواها من قرائن أخرى أن تحمل على أي تفسير من التفسيرين على السواء (إن لم يكن لدي سبب استقرائي في خبرتي يحملني على التفريق بين أثر قدمي وأثر قدم غيري من أهل بيتي، كالفرق في حجم النعل مثلا)! هذا

يستساغ أن يقال إنه اشتباه في المشاهدة، يقاس في منطق النظر على الاشتباه في تأويل النص، ويقال إنه يفتقر إلى قرينة محكمة تدفع عنه الاشتباه إن حمل عليها، أو جملة من القرائن التي تعضد التأويل على وجه من الوجهين.

ولكن نحن نتكلم يا عباد الله في عالم مصنوع كله بما فيه من أوله لآخرة بالضرورة، مخلوق بعلم وحكمة رب عليم حكيم بالضرورة، له في كل شيء خلقه فيه وكل حادث أحدثه فيه سبب وحكمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها! ومن تلك الحكمة ما اقتضى بالضرورة أن نرى فيه هذا التنوع والثراء في أنواع المخلوقات، وأن نرى فيه ما نحب وما نكره على السواء، وأن نرى فيه أنواع الآلام والعذابات، وأن نرى فيه ما نعجز عن فهمه وتفسيره فيبدو للجاهل منا وكأنه خلق من غير سبب وبلا غاية! فأي مشاهدة نراها في هذا العالم مهما كان تصورنا للعلاقة بينها وبين غيرها من المشاهدات، لا يصح أن يستدل بها لإثبات أو نفي مخلوقية العالم ونظامه وجميع ما فيه! ولا لإثبات أو نفي كمال حكمة الباري في جعلها على نحو ما جعلها، وتنزهه عن الظلم وعن وضع الشيء في غير موضعه! هذه قضية لا يجوز في العقل استعمال المشاهدة بمنطق الاستقراء التفسيري في إثباتها أو نفيها أصلا! ولا يقول إنها قد تشتبه في الاستدلال التفسيري وتشترك دلالتها أو تتقارب بين من يقولون بحدوث العالم ومن يقولون بقدمه، أو من يقولون بخالق واحد ومن يقولون بخالقين ومن يقولون بمجلس آلهة الأوليمب (مثلا)، إلا فيلسوف مسفسط أو لاهوتي من مخانيث الفلاسفة أو متكلم مفتون بهؤلاء وهؤلاء جميعا، والله المستعان لا رب سواه!

لا يجوز تأويل المشاهدة بما يثبت أو ينفي ما في الغيب المطلق، ما لم يكن لدينا مستند معرفي خبري بما في ذلك الغيب من الابتداء، حتى نتخذه أساسا لذلك التأويل! كأن نقول مثلا إن بعض الحوادث المشاهدة يترجح عندنا أن يكون سببها عمل الجن أو الشيطان، فنحن أولا نعلم بالدليل القطعي أن في الغيب نوعا من الكائنات المكلفة يقال له الجن، وأن من صفاتهم كذا وكذا ومن قدراتهم كذا وكذا، فإذا نظرنا في تلك الحوادث المذكورة وقارناها بمجموع خبراتنا فيما يحدثه أنواع البشر من أفعال، لم نجد لها قياسا، وإنما وجدناها مما يتصور دخوله تحت فعل ذلك الكائن الغيبي فيما نعلمه عنه وفيما نعلم بالخبر الغيبي أيضا جواز تلبسه به من الأفعال (كأن ترى الرجل يتكلم بلغة نحن نقطع بأنه ما تعلمها في يوم من الأيام قط، ويأتي بأخبار عن أشياء نجزم بأنه ما رآها في حياته قط!)! أما أن آتي إلى مشاهدة كهذه – كما قد يصنعه بعض الطبيعيين الوضعيين – فأفسرها بأنها قوة نفسية وعقلية خارقة تعمل فيها بعض خلايا المخ عملا فائقا لما

عرفناه من قبل في حدود عمل خلايا المخ بالاستقراء والمشاهدة، فهذه دعوى ميتافزيقية لا أساس لافتراضها إلا الوهم والخرافة والطمع في إشباع رغبة هواة روايات "الخيال العلمي"! أنت حينئذ تزعم أن المخ والعقل قد اشتغلا في تلك الحالة بعينها على نحو لم يسبق أن وجدنا في مجموع خبراتنا ومشاهداتنا البشرية السابقة ما يجيز لنا افتراضه كتفسير لتلك الظاهرة، لأننا لم يسبق أن شاهدنا له نظيرا من قبل أصلا! فمن أين جئت بتجويز ذلك النوع من التفسيرات لذلك النوع من المشاهدات إذن؟ هذا خلل منهجي كبير ولا شك، ومن تحميل المشاهدات والتجارب الحسية والاستقراءات البشرية ما لا تحتمله!

وكذلك إن قال قائلهم في المقابل: لقد رصدنا إشارات المخ خلال تلك الحالة ووجدنا أنها لا تختلف عن نشاط المخ المعتاد في أي حالة طبيعية، فدل ذلك على أنه ليس في الغيب كائن يؤثر على مخ وعقل ذلك الإنسان في تلك الحالة كما تزعمون. فهذا يقال له إن الكيفية التي يحدث بها ذلك النوع من التأثيرات غيبية بالنسبة لنا، فلا نرى في ذلك مانعا من القول بها، إن امتنعت في نظرنا كافة التفسيرات الأخرى الأقوى احتمالية من هذا التفسير (إذ لا شك أن الحالات الواقعة تحت اعتيادنا أرجح في الاحتمالية من الحالات الخارجة عن ذلك الاعتياد، وهذا بموجب معنى الاعتياد نفسه)! فإن جاز في العقل أن يكون الرجل قد تعرض لمن أملى عليه هذه الكلمات التي يتكلم بها في تلك الحالة بين أيدينا وأخبره بما نعلم أن مثله لا يمكن أن يكون قد اطلع عليه بنفسه، فقد سقط لدينا إذن القطع واليقين بأنه ما كان بوسعه أن يصل إلى معرفة تلك الأشياء بالطرق المعتادة، وهو الحامل الوحيد عندنا على ترجيح العامل السببي الغيبي! وحينئذ يصبح الميل إلى التفسير الاعتيادي (ولا نقول "الطبيعي") هو الأرجح والأقرب ولا شك! فنحن إذن نتكلم عن ظاهرة تقبل التفسير (من حيث المبدأ) بعامل غيبي نعرف من خبره وصفاته ما يمكن أن يكون مرجحا للربط بينه وبين تلك المشاهدات، وتقبل كذلك التفسير بأسباب اعتيادية محسوسة لا يكون ذلك الكائن الغيبي عاملا سببيا مباشرا فيها.

فكيف إذا كنا نتكلم عن واقعة مطلقة التغييب، وعقولنا تقطع من الابتداء بأن أنواع الحوادث التي جرت فيها لا تقاس على ما نراه وما نشاهده أصلا لأنها هي تلك الحوادث التي بها صنع ذلك النظام كله بجميع ما فيه من نظم وأنماط سببية وحوادث متنوعة؟ كيف يقال فيها وفيما وراءها من حكم وتعليلات عند محدثها جل وعلا، فضلا عن إثبات أو نفي حصولها بإرادته من الأساس: إن هذه المشاهدة أو تلك تدعمه أو تقلل من أرجحيته، أو يقال في بعض المشاهدات إنها مشتبهة فلا تسمح للناظر أن يميل بترجيحه وقياسه

إلى أحد التفسيرين دون الآخر؟ أي أرجحية وأي قياس وأي تفسير هذا الذي تتكلمون فيه أصلا يا أولي الألباب؟

لذا ما كان من عجب أن يكون الإله الذي أثبته "بيلي" بهذا الصنف من البراهين، محشورا في "فجوات التنظير الطبيعي" حشرا، ليس فقط بمقتضى منهجية الاستدلال الكلامي نفسها، ولكن بمقتضى صفته عند "بيلي" [64] التي سوغت له قبول تلك المقدمات الكلية الدهرية التي أسس عليها برهانه! فالأسطورة الطبيعية كانت ولا تزال وستظل تستوعب المزيد من الافتراض والتنظير والتعديل والأخذ والرد في تأويل المشاهدات في تلك القضايا الغيبية المطلقة التي اقتحمتها اقتحاما، بلا ضابط ولا قيد إلا الهوى والمزاج والاعتقاد الميتافزيقي الغالب على الوسط الأكاديمي أيا ما كان! حتى جهود اللاهوتيين المعاصرين في إثبات "إله الخلقيين" أو "إله الطبيعيين" فيما قبل الانفجار الكبير المزعوم، مستندين في ذلك إلى إثبات ذلك الانفجار كبداية لهذا العالم، أو إثبات مبدأ الضبط الدقيق Fine Tuning للعالم، يحبطها تسليمهم بالأصل الفلسفي الكلي الذي قامت عليه تلك النظرية نفسها في منطق الاستدلال من حيث لا يشعرون (وكما بيناه باستفاضة في آلة الموحدين)!

بل إن مما يجب أن ينتبه إليه الباحث المسلم – وأشرنا إليه في "آلة الموحدين" عند تناولنا مسألة الضبط الدقيق هذه – أن مجرد ادعاء الباحث الطبيعي أن الكون لو اختلف فيه الثابت الكوني الفيزيائي كذا عن المقدار كذا أدنى اختلاف لما كان من الممكن أن تنشأ على الأرض حياة، هذا ادعاء باطل مردود، لأنه يقوم على مقدمة باطنة مفادها أن الحياة لا يمكن أن تنشأ إلا على هذا النحو وتبعا لتلك الشروط وفي إطار تلك الحدود التي وضعها الباري في نظام العالم الحالي لعمل النظام الحيوي كما نعرفه Biosphere (أو على الأقل في حدود ما نظن أننا نعرفه منه)! وهذا كذب على الباري قطعا وتألي عليه وانتقاص من قدرته عز وجل، إذ لو شاء سبحانه أن يخلق حياة في أي عالم لخلقه على نحو ما شاء، ولجعل نظام ذلك العالم وكافة سننه السببية (سواء كانت كهذه التي نعرفها أو غيرها) على ما يلائم ذلك، بحسب مقصوده وحكمته وغايته عز وجل من خلق كل شيء في ذلك النظام! فمن ذا الذي له أن يدعي أن قيمة ثابت بلانك – مثلا – لو كانت أزيد قليلا أو أقل قليلا لما "نشأت" على الأرض حياة؟ إنها دعوى الدهرية الطبيعيين تبعا لاعتقادهم الطبيعي في قصة النشأة! وأما نحن المسلمين فنقول: بل لو أراد الله تعالى لحكمة عنده أن ينشئ هذه الحياة نفسها كما هي (كما نراها بلا اختلاف) على غير هذا الثابت، أو بأقل منه أو أزيد منه، بل على غير ما استقرأناه من قوانين الفيزياء في هذا العالم، لما

منعه مانع، إذ الأمر كله بيده أصلا، سبحانه وتعالى، وهو الذي يقدر المقادير ويضع في الأشياء طبائعها كما يشاء ويختار! فالنظام الحيوي صنعته، والطبائع والخصائص في الكائنات الحية وفي المادة الميتة صنعه كذلك وخلقته، والقانون الطبيعي أمره وتقديره، والأمر كله منه وبيده سبحانه! وإنما نشأت فكرة الضبط الدقيق تلك (عند الطبيعيين لا عند اللاهوتيين) بناء على جمع بعض الطبيعيين بين أساطير القوم في ميتافزيقا نشأة العالم وميتافزيقا نشأة الحياة على الأرض، ثم تصور ما كان ليجري على تقدير أن اختلف شيء فيها عما زعموه!

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن المسلم لو قال إن الله تعالى قد أحكم كل شيء وقدر كل شيء بقدر دقيق، وأبقى نظام العالم على نحو يحفظ الحياة فيه إلى أجل مسمى، ثم لم يزد على ذلك، لقبلنا منه ولم ننكر عليه، ولكن هذه ليست هي دعوى "الضبط الدقيق" Fine Tuning التي يعتنقها الطبيعيون المعاصرون، ويستعملها بعض العامة وأشباههم من متكلمة أهل القبلة للانتصار لوجود الباري: هذه مقدمة من مقدماتها لا أكثر! وأما المقدمة الثانية فهي قياس الماضي السحيق فيما وراء نظام العالم نفسه على ما هو شاهد حاضر من ذلك النظام، ومن ثم ادعاء حصول العلم بالكيفية التي نشأ بها (طبيعيا)، ثم الانتقال بناء على كلتا المقدمتين معا إلى الزعم بأن أحداث النشأة لو اختلفت اختلافا يسيرا (عن تلك القصة التي اخترعوها بقياسهم المتهافت) لكانت الأرض كعامة الكواكب لا "تسمح بارتقاء الحياة عليها"، بل لكان عالمنا هذا كغيره من العوالم العشوائية المفترضة وهما وكذبا التي "لا تسمح بظهور الحياة فيها"!

فمن الذي يسمح ومن الذي يمنع وعلى أي أساس؟ وبأي حق استجاز هؤلاء أن يجعلوا من أنفسهم شهداء على خلق العالم، ليس هذا وحسب، بل نقادا لعملية الخلق نفسها، وكأن الباري قد خضع في خلقه الحياة على الأرض لما وضعه هو سبحانه في العالم من قوانين ونظم، فما كان أمامه أي خيار إلا أن يخلق العالم على نحو ما زعموا هم حتى تسمح قوانين الطبيعة "بنشأة الحياة" فيه؟ كلام دهري محض يقوم على أسس دهرية صرفة، ومع ذلك يتلبس به اللاهوتيون ويعتنقونه اعتناقا دينيا (ومتكلمة الزمان من المسلمين على أعقابهم!) يحسبونه طريقا لإثبات الصانع، والله المستعان!

والخلاصة أن "البرهان الغائي التليولوجي الطبيعي" هذا ما ظهر عند اللاهوتيين النصارى على يد "ويليام بيلي" وأصحابه وانتشر استعماله عندهم في مجادلة الملاحدة إلا ترتب عليه من المصائب الفلسفية والاعتقادية عندهم وعند من تابعهم من أهل قبلتنا ما الله به عليم! فلما تناوله "ديفيد هيوم" بصورة مجملة (حتى من قبل أن ينشره بيلي في كتابه "اللاهوت

الطبيعي")، أثمر تفننه في الرد عليه تنظيرا سوفسطائيا خبيثا شديد الدقة والتكلف لما يسمى "بمشكلة الشر" لا يزال القوم يدور الواحد منهم حول نفسه في محاولة الإتيان عليه بالرد اللائق (بمقاييس الفلاسفة الأكاديميين)! فلما كان أصل اللاهوتي في براهينه أننا إذا نظرنا في الأشياء من حولنا فسنتمكن بالقياس من "معرفة أن بعض الأشياء في هذا العالم لابد وأنها قد صنعت لوظيفة مخصوصة، تمييزا لتلك الخصلة عن السمة "الطبيعية" المزعوم اطرادها في عامة الموجودات في العالم كقطعة الصخر مثلا"، استند هيوم إلى نفس الأصل القياسي الفاسد وراح يسألهم: فما قولكم في العيوب الخلقية والجينية والتشوهات والأمراض الوراثية وغيرها من أنواع الشرور التي تظهر في تلك المخلوقات "المصممة" بزعمكم، هل من مصمميكم وصانعيكم من يتعمد صنع شيء كهذا، إلا اتهمتموه من فوركم بالمذمة والنقيصة؟ وإذا كان الخالق المزعوم "يتدخل" في نظام الطبيعة من آن لآخر بتصميم بعض الأشياء ليضيف شيئا صالحا إلى النظام، أليس من باب أولى أن "يتدخل" لمنع تلك الكوارث، إن كان فاعلا؟ ثم إن برهانكم القياسي هذا لا يمنع من تعدد الآلهة كما عند الوثنيين (وما كان ليمنع وهو دائر على القياس على مصنوعات البشر)، بل إنه يقتضيه على التحقيق، لتسويته بين الخالق الصانع والمخلوق الصانع (المصمم) قياسا! والحاصل أنه يلزمكم إما إثبات إله (أو أكثر) ناقص معيب بخلاف ما تريدون إثباته، وإما إبقاء الأمر على أصله "الطبيعي" الأعمى الذي أثبتموه في مقدماتكم من حيث لا تشعرون! أما ادعاء أن برهانكم هذا يثبت ذاتا واحدة خلقت كل شيء مع كونها كاملة الصفات منزهة عن كل نقيصة، فلا وجه لذلك! [65]

وخلاصة القول أنهم لما استعملوا القياس والتشبيه على أفعال المخلوقين وعللهم وغاياتهم فيما يصنعون لإثبات وجود الخالق نفسه (معتمدين أصل المحدودية في سلطان ذلك الصانع الذي يثبتونه على جريان حوادث العالم، قياسا على الصانع المخلوق)، ألزمهم "هيوم" بلازم ذلك التشبيه والقياس إلزاما لا مخرج لهم منه إلا بالإقلاع عن تلك الطريقة القياسية في التفلسف في الإلهيات جملة واحدة! ولما تناوله "تشارلز داروين" بعد ذلك وتأمل فيه، أسس نظريته الملعونة فيما يبدو للمتأمل وكأنه محاولة للرد على ذلك البرهان بنفس بضاعته (الاستقراء الطبيعي)، حتى إنه حرص في "أصل الأنواع" على استعمال نفس المثال الذي ضربه "بيلي": العين البشرية، والله المستعان وإليه المشتكى! ولما أراد اللاهوتيون المعاصرون الرد على داروين استندوا إلى نفس أصول "بيلي" في القياس الطبيعي لإثبات الصانع، فأحيوا بدعة "بيلي" اللاهوتية نفسها (التي يمكن اعتبارها مزيجا فلسفيا بين الملة الدهرية الوضعية والاعتقاد النصراني في صفة الباري)، مع مبالغة فاحشة في التعمق في المنهج الإمبريقي باستعمال التنظير الاحتمالي

الرياضي، والتعمق في استخراج الأمثلة القياسية من آحاد المخلوقات الحية خدمة لتنظيرهم اللاهوتي، [66] وهو ما بلغ قدرا من التعقيد والدقة جعله يتسرب إلى أهل قبلتنا من غير انتباه إلى فساده في الأصول والمقدمات الكلية التي يقوم عليها!

فبالله أي خير رجع على عقلاء العالم من صياغتكم – معاشر اللاهوتين والمتفلسفة من أهل الكتاب - تلك المصيبة الفلسفية الطبيعية التي تكلفتموها على نحو ما فعلتم؟ ما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

قال الرياضي الفرنسي "أبراهام دو مويفر" De Moivre في كتابه "عقيدة الصدفة" (في اقتباس ينقله عنه دمبسكي في صفحة مخصوصة في صدر كتابه "استنتاج التصميم"):

> نفس البراهين التي فجرت مفهوم الحظ، يمكن من الجانب الآخر أن تكون مفيدة في بعض الحالات في تأسيس مقارنة جيدة بين الصدفة والتصميم: فقد نتخيل الصدفة والتصميم على أنهما في منافسة فيما بينهما لإحداث بعض أنواع الحوادث، وقد نتمكن من حساب احتمالية كون تلك الحوادث راجعة لأحد العاملين دون الآخر.

قلت: هذا ما اختاره "دمبسكي" شعارا لكتابه: أن بوسعنا باستعمال منطق التقدير الاحتمالي أن نفرق بين السببية الموجهة (أو الفاعلية، أو السبب الذكي كما يسميه صاحبنا) والصدفة الأنطولوجية المحضة [67]، لنثبت رجحان احتمالية أن يكون في وسط تلك الحوادث العشوائية والقوانين الطبيعية الكثيرة المتجذرة في أساس العالم، السابغة في أكثر أنحائه، التي لا فعل وراءها ولا إرادة ولا حكمة ولا تعليل، بعض آثار وبصمات هنا وهناك لصنعة "مصمم ذكي" بالغيب ذي إرادة واختيار! يقول دمبسكي في شرح فلسفته الاحتمالية الدهرية المحضة هذه [68]:

> على الرغم من أن الاحتمالية الضعيفة Improbability ليست شرطا كافيا لاستبعاد الصدفة، إلا أنها شرط ضروري. فعندما يظهر لك الوجه "ملك" في العملة لأربع مرات متتالية عند رميها في القرعة، فإن هذا أمر وارد باحتمالية كافية لألا تثير لديك العجب على الإطلاق، ولكن عندما يتكرر هذا الأمر لأربعمائة مرة على التوالي، فهذه قصة أخرى. ولكن أين نضع الحد الفاصل؟ كم تبلغ ضآلة الاحتمالية الضعيفة التي تكفي لاستبعاد الصدفة؟ الجواب يتوقف على عدد الفرص المؤاتية لجملة من الأنماط والحوادث حتى تتوافق في الواقع – أو ما أسميه "بالموارد الاحتمالية" ذات الصلة. فلو

فرضنا أن كان لدينا كون صغير نلهو به، ليس فيه إلا عشر جزيئات أولية Elementary particles يتركب منها كل شيء فيه، فإن هذا الكون تكون فيه موارد احتمالية Resources أقل بكثير من كوننا نحن الذي فيه جزيئات أولية قد يبلغ عددها عشرة إلى الأس ثمانين جزيئا. وعليه، فما كان يبدو ضئيل الاحتمالية للغاية، ولا يمكن نسبته إلى الصدفة في ذلك الكون الافتراضي الصغير، قد يكون عالي الاحتمالية للغاية ومن المنطقي للغاية أن ننسبه إلى الصدفة داخل عالمنا نحن.

قلت: في تناوله مثال قطعة النقد المعدنية Coin المشهور في أدبيات نظرية الاحتمالات، يقرر دمبسكي أن ضآلة احتمالية ظهور العملة على وجه واحد لعدد كبير جدا من المرات المتتابعة تحيل الأمر من أن يكون "صدفة أنطولوجية" (كما هو التأويل الذي يعتقده الماديون لتقلب حالات العملة بين احتمالاتها التي تقدرها نظرية الاحتمالات) [69]، إلى أن يكون أمرا مدبرا أو "مصمَّما" أو "موجَّها" أو نحو ذلك. وهو مفهوم يستصحب بالضرورة مقدمتين كليتين باطنتين: (أ) اعتقاد الماديين عدمية الفاعلية الإرادية Agency من خارج الطبيعة (ومن ثمّ قولهم بالصدفة الأنطولوجية Chance) خلف الصورة المعتادة لتقلب العملة (أو الصورة ذات الاحتمالية العالية تبعا لتقديرات نظرية الاحتمالات). و(ب) أن وقوع الحدث الموصوف بأنه ضئيل الاحتمالية إن وقع (كهذا التتابع المذهل لأربعمائة مرة من ظهور نفس الوجه في العملة) إنما يصلح أن يكون شرطا ضروريا (وليس كافيا) لإثبات الفاعلية الإرادية القياسية من ورائه (أي من جنس تدبير المخلوقين وتخطيطهم)، ولا تتم الشروط الكافية لذلك إلا بالوقوف على قياس مستساغ لظروف ذلك الحدث ضئيل الاحتمالية على نظير له من صنائع الفاعلين المخلوقين.

فأما (أ) فهي عقيدة الدهرية الماديين، وأما (ب) فهي محض تشبيه الأفعال في حق رب العالمين!

لذا نقول إنه بالتأمل في هذا الجهل العظيم في مقدمات تلك النظرية (نظرية التصميم الذكي)، نجد أن غايتها أن يُنتصر بها لدعوى (أو بالأحرى خرافة) أن بعض المخلوقات لم تأت بالصدفة الأنطولوجية (التي لا يتم منطق النظرية الاحتمالي إلا بإثباتها) ولا تبعا للقانون الطبيعي (الذي لا صانع خلفه ولا "مصمم" بحسب النظرية)، وإنما من صنع كائنات أخرى ذكية بالغة القدرة لها تصميمها وفعلها وإرادتها، ولكنها لا تبلغ أن يكون لها سلطان وحكم وإرادة وفعل على جميع أسباب العالم وأحداثه، كاعتقاد أن بعض المخلوقات الفضائية المزعومة UFO (مثلا) قد زارت الأرض في الماضي البعيد وخلقت تلك المخلوقات المعقدة التي تقلّ احتمالية حدوثها من تلقاء

نفسها بالصدفة أو "بالقانون الطبيعي"، ثم تركتها بعد ذلك لتجري عليها قوانين الطبيعة العمياء! هذا هو نوع "الكائنات الذكية" الذي تنتصر له تلك النظرية! أما أن يقرَّر من طريقها وجود الخالق العليم الحكيم واجب الوجود من وراء صنع العالم بأسره بجميع ما فيه، ما علمنا منه وما لم نعلم، تنتهي إليه جميع أسبابه ونظمه وقوانينه من أولها إلى آخرها (على مقتضى البداهة والفطرة التي جاء المرسلون بتصديقها)، فهذا محض سراب، لأنها قد هزمت ذلك المعنى ونقضته بالفعل بالنظر في تعريفاتها الأولى ومقدماتها الإلحادية الطبيعية الصرفة كما بينا!

يواصل "دمبسكي" التنظير والتأصيل وصياغة التعاريف الأساسية فيقول:

> إن استبعاد الصدفة له اتصال وثيق بفكرة التصميم والفاعلية الذكية intelligent Agency. فإن أول خطوة في سبيل تمييز الفاعل الذكي تكون في العادة هي استبعاد الصدفة بالنظر إلى وجود حدث ضئيل الاحتمالية بما فيه الكفاية، مع توافق ذلك (قياسيا) مع النمط الصحيح (أي للأحداث التي يقال عن مثلها إنها نتاج تصميم). لذا فمن المعقول أن نعرف التصميم على أنه الاحتمالية الضعيفة المنمطة، واستنباط وجود التصميم في الواقع على أنه المنطق الذي به نستدل على وجود تلك الاحتمالية الضعيفة المنمطة. وعلى هذا التعريف، فإن استنباط التصميم قاصر عن تقديم قصة سببية في تفسير الكيفية التي عمل بها ذلك الفاعل الذكي. ولكن باستبعاد الصدفة واقتضاء الفاعلية الذكية، فإن استنباط التصميم (ويقصد نظرية التصميم الذكي نفسها) يقدم لنا أحسن ما في الوسع والإمكان مما دون ذلك.

قلت: فليتأمل القارئ الكريم في تعريف "دمبسكي" لما يسميه بالتصميم Design، أنه "الاحتمالية الضعيفة المنمطة Patterned Improbability"، وليقلب النظر في هذا التعريف مرة بعد مرة! فأنا أسأل كل من سارع إلى التلبس بنظريات "الخلقيين" هؤلاء من أهل القبلة وأقول: أخبرني بالله الذي خلقك وأحسن صورتك، إذا كان هذا هو معنى "التصميم" عند الخلقيين، فهل هذا هو معنى "الخلق" و"التصوير" عند المسلمين فيما يصفون به ربهم جل وعلا؟ هل هذا هو معنى اسم الله "الخالق" فيما تعتقد: أنه صاحب الفعل قليل الاحتمالية السائر على نمط قابل للقياس على تصاميم المخلوقين؟ وهل فهمت هذا التعريف حق الفهم (إن كنت قد طالعته يوما من الدهر أصلا)؟ فإن قال قائلكم نحن نقبل النظرية ولكن لا نقبل هذا التعريف للتصميم، قلنا فهل ترون للنظرية نفسها قياما بغير هذا التعريف؟ ما فهمتموه إذن ولا عقلتموها أصلا، والله المستعان!

ونقول إن كلمة "التصميم" وحدها Design تكفيك دلالة على فساد الدعوى التي تنتصر لها النظرية! فالتصميم لا يرادف الخلق في اللغة كما قد يتوهمه بعض الناس، وإنما بين الكلمتين (في الاستعمال المعاصر الذي يرادف كلمة Design الانكليزية) عموم وخصوص. فكل تصميم إن قدر له التنفيذ فهو خلق وبرء، ولكن ليس كل خلق وبرء تصميما بالضرورة. التصميم من معناه أنه شروع في عملية خلق وتصنيع بشرية تبدأ بوضع أهداف لصناعة وابتكار شيء ما ليقوم بوظيفة مخصوصة، ثم يشرع المصمم في وضع البدائل والأفكار والحلول للوصول لتحقيق تلك الوظيفة، ثم يقارن بين تلك البدائل ويوازن بين المزايا والعيوب، حتى يصل في النهاية إلى التركيب والبناء الملائم للوظيفة المطلوبة. فهذا هو التصميم Design كما يعرفه أهله! وعليه فلا يجوز أن يوصف رب العالمين بأنه "مصمم" أو بأن خلقه "تصميم" من الأساس، كما لا يجوز أن يوصف سبحانه بأنه "ذكي" أو بأن خلقه يظهر "ذكاءه" لأن الله تعالى لا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم [70]، فكيف وقد علمتَ أن نظرية "التصميم الذكي" هذه تقوم على المفهوم الإلحادي المحض لكل من "الصدفة" Chance و"العاملية" Agency في مقابلها، وللمنطق الاحتمالي نفسه Probabilistic Reasoning، وتحيل النقائص المعرفية البشرية إلى حقائق وجودية واقعية، ومن ثمّ تعامل الباري معاملة المخلوقين الفاعلين القاصرين لا محالة؟

من هنا نقول إن هذا المنهج اللاهوتي والكلامي الطبيعي هو محض قياس الرب على المخلوقين وتشبيه أفعاله بأفعالهم، تماما كما يكون الشأن عندما نجري بحثا تجريبيا ميدانيا لنقيس مقدار ذكاء بعض الناس بالتأمل في أعمالهم، ومقارنتها بغيرها من الأعمال مما قد يبدو وكأنه لا ذكاء فيه ولا علم ولا شيء أصلا! أصحاب دعوى التصميم الذكي قد اختاروا – كما بينا - التسليم للخصم الملحد بدعواه أن في الطبيعة أشياء لا يبدو أن وراءها ما سموه هم "بالتصميم الذكي"! بل وقد اختاروا التسليم للدهرية الماديين بأنها هي الأصل في هذا العالم وأنها الأكثر احتمالية والأكثر غلبة على ما ندركه من نظام الطبيعية المشاهد من حولنا (ولولا هذا ما قامت لنظريتهم قائمة أصلا)! فكان مجرد إعمالهم أداة البحث التجريبي في آحاد المخلوقات بحثا عن "آثار التصميم الذكي"، قياسا لأفعال الله تعالى في خلقه، على أفعال المخلوقين في تصاميمهم وتراكيبهم، التي قد يظهر في بعضها "ذكاء" أكثر مما قد يظهر في البعض الآخر، بالنظر إلى مقاصد وغايات المخلوقين في صنائعهم في تقدير ناقد قد ألمّ إلماما كافيا (بالضرورة وكما هو شرط نقد التصميم كمبدأ) بأغراضهم وأدواتهم وغاياتهم وتفاصيل منتجاتهم التي قاموا بتصميمها من قبل! فأصبح اللاهوتي الخلقي كالملحد سواء بسواء، كل

منهما ينصب نسفه في تلك المناظرة بينهما في منصب "الناقد التصميمي الخبير" الذي ينظر في مخلوقات رب العالمين ليقول هذه تبدو أن وراءها "تصميما" وهذه لا تبدو كذلك، وهذه يظهر فيها من ذكاء الصنعة ما لا يظهر في تلك، وباحتمالية تكرار تقدر بكذا وكذا، وهذه فيها ما يدل على أن مصممها كان له منها غرض ما، بخلاف غيرها مما لا يبدو أن له حكمة أو غاية عند صانعه أصلا، وإنما هي العشواء أو القانون الطبيعي! لسان حال كل واحد منهما يقول – وهما في ذلك سواء لاتفاقهما على موضوع الجدال نفسه - : لو كنت خالقا عالما فيه سماء وأرض فيها من المخلوقات ما فيها، لفعلت كذا وليس كذا، ولجعلت في صنعتي من التعقيد ما نراه في بعض المخلوقات! فلزم أن نسأله: فما قولك إذن فيما ليس فيه هذا التعقيد؟ أهو مخلوق عندك أم يجوز أن يكون قد خرج إلى العالم بلا خلق ولا تدبير (أو بعبارة أخرى: دون "سبب ذكي")؟ فما كان قولك فيما هذا وصفه (أنه عندك مخلوق بالضرورة)، فهو قولنا في جميع ما نراه من مكونات هذا العالم من حولنا، التي نقطع بأنها مخلوقة كلها بالضرورة كيفما كان "تعقيدها" في تقديرنا البشري القاصر الضعيف، لعلة وحكمة علمها من علمها وجهلها من جهلها!

والنتيجة أننا لم نخرج من تلك البدعة اللاهوتية الطبيعية بأكثر من أن وافق المتكلم اللاهوتي خصمه الملحد المعاند الجاحد على أصل عدوانه على علم الرب الباري وحكمته، وتلبس بالدهرية الطبيعية في مفهوم القانونية الطبيعية وفي مفهوم الصدفة الوجودية Ontological Chance [71] وفي تطبيق المنطق الاحتمالي على الغيبيات المحضة، وبتشبيه الأفعال بالضرورة بمجرد قبوله شرط الملحد في إثبات حصول الخلق في آحاد المخلوقات من طريق الأقيسة والاستقراءات التجريبية (نوعا)! فلا مفر من قياس صنعة التركيب الرباني لبعض خلقه على آلياتنا نحن في تركيب ما نركب وفي تصميم ما نصمم، حتى نثبت – من ذلك الطريق البدعي – أن الخلق قد حصل تحقيقا (وهو ما حررناه في المقدمة (ب))! فأي شيء هذا – يا من اغتررتم بتلك النظريات من أهل قبلتنا - إن لم يكن هو عين تشبيه الأفعال الذي غرقت المعتزلة بسببه في بدعهم العريضة في باب الحكمة والتعليل والوعد والوعيد والتحسين والتقبيح .. إلخ؟ أين نحن معاشر البشر المخلوقين القاصرين من استيفاء شرط الناقد الذي ذكرناه في غير هذا الموضع: ألا وهو الإلمام التام بالغاية والحكمة الكاملة لدى الصانع من بناء صنعته على نحو ما بناها، والإلمام بجميع ما لديه من علم في هذا الشأن، حتى يسلم بأنها لا تظهر عليها ما سماه جهلا وسفاهة "بعلامات التصميم"؟ لقد وافق اللاهوتيون عامة الدهريين في إغفال ذاك الشرط (الذي يمتنع – بداهة - للمخلوق أن يحققه فيما يتعلق بالباري جل وعلا)، فتابعوهم على

تشبيه الأفعال وقياس الباري على خلقه وقياس أفعاله على أفعالهم من حيث لا يشعرون! وتابعهم المتكلمة من أهل القبلة – على عادتهم – بلا تدقيق ولا تمحيص، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

وإني لأعلم أن كثيرا ممن تابعوا دمبسكي وبيهي وغيرهما على تلك النظرية لم يقفوا على تفصيل الأمر وتحقيقه كما ينبغي، وكما كان هو الواجب المعتين عليهم. وإني لأرجو لهم أن ينزعوا عن تلك النظرية وأن يبرؤوا منها بعدما تبين لهم، وألا يروجوها بين المسلمين ولا ينشروا كتبها فيما بينهم! فإنهم والله لو تأملوا لأدركوا أن القائلين بالتطور الموجه (التطويريين) أقرب إلى الحق من بيهي ودمبسكي وأصحابهما! فبينما يرى التطويريون أن كل ما يزعمه الدراونة من تفاصيل أسطورة التاريخ الطبيعي صحيح ولا إشكال فيه، وكله خاضع للفعل والإرادة الإلهية (كما انتصر لتلك الفلسفة من اللاهوتيين المعاصرين ألفن بلانتينغا وويليام لين كريك وغيرهما، ومن المتجهمة من أهل القبلة عمرو شريف وتلامذته)، فلا مدخل عندهم (في اعتقادهم المخالف لأصل النظرية نفسها) للعشواء الوجودية التي قال بها داروين، تجد الخلقيين التصميميين في المقابل يؤسسون نظريتهم على التسليم بأن الأشياء لا توجد في هذا الوجود إلا على أثر ثلاثة أنواع من الأسباب: القانون الطبيعي الأعمى، والعشواء الداروينية، وما سموه بالتصميم! فأي الفريقين أغرق في التعطيل على التحقيق، الذين يسلمون للدراونة بأصل الفوضى والعشواء الوجودية والقانون الأعمى عندهم، ثم يستندون إلى قياس إضافي على صنائع البشر لإثبات صانع غيبي وراء بعض موجودات العالم (وإن كان بعضهم قد عمم ذلك القياس ليجعله في أصل الكون في مسألة الضبط الدقيق كما هو معلوم)، أم الذين تكلفوا إزالة أصل العشواء الوجودية هذا من النظرية ليضعوا مكانه التوجيه والإرادة الإلهية، وظنوا أنهم تخلصوا من العشوائية بالكلية؟

فإنه إذا كان التطويريون يعبدون ربا كان الأصل في صنعته وخلقه الانحطاط والفوضى والتخلف عن استكمال ما يلزم المخلوق الحي لبقاء نوعه في الأرض، ثم "تدخل" مع كل طفرة بالتحسين والتعديل والترقية "في آخر لحظة" كما يقال، من غير أن يكون في الأمر فوضى أو عشوائية لا حكم له عليها، فإن التصميميين يعبدون ربا صنع القوانين الطبيعية التي اتفق أن أنشأت بالعشواء المحضة والانتخاب الطبيعي أنواعا حية لم يكن له أي فعل أو تقدير فيها، وكان الأصل فيها العبثية والفوضى، ولم يزد هو على أن "تدخل" في بعضها بخلق تلك النظم الحيوية المعينة التي لا يمكن إلا أن يكون ابتداؤها على بناء كامل غير منقوص (وهي ما يسمونه بالتعقيد غير

القابل للاختزال، أو التعقد ضعيف الاحتمال، أو غير ذلك مما سموها به في فلسفتهم)!

والقصد أنه يجب أن يفهم الإخوة ما المقصود بالتصميم تحديدا، وما المقصود بالذكاء، وما طريق ثبوته عند هؤلاء، وما المقدمات الضرورية التي لا يثبت إلا بها عندهم!

فإن قال قائل القوم: "ولكن نحن إنما نستعين بتلك النظرية في الرد على مزاعم الدراونة بشأن عامة النظم الحيوية أنها لم تظهر في الطبيعة إلا بسبب الصدفة المحضة، فنبين لهم أن تكرار صور الصدفة أكثر احتمالية في الطبيعة من أن تأتي بهذا التركيب المعين الذي يخدم تلك الوظيفة المعينة"، قلنا لهم: هذا هو عين بدعة الخلقويين ومن سبقهم من اللاهوتيين الطبيعيين وضلالتهم في الإقرار بمفهوم الصدفة عند الملحد المادي والتسليم به، تريدونه لنفس القصد الذي أراده الخلقيون النصارى ولا فرق! واختلاف القصد والغاية من النهوض بالدعوى الباطلة والاستناد إليها لا يصححها في نفسها ولا يصيرها حقا! ما معنى أن احتمالية حدوث الحوداث "صدفة" في الطبيعة أعلى من احتمالية أن تحدث على هذا التركيب القياسي أو ذاك؟ معناه أن أي حادث ليس له لديكم قياس وظيفي وتفسير غائي من جنس ما تظنون أنكم قد علمتم بتفسيره من حوادث هذا العالم، فهو بالضرورة "صدفة" عندكم كما هي عقيدة المادي الملحد! هذا هو شرط إعمال المنهج التجريبي في هذه المسألة! وحتى يستقيم الشرط، لزم أن تعرف الصدفة على أنها ما لا سبب له في الواقع (ومن ثمّ فلا خالق ولا صانع)، ذلك أن غياب التفسير أو تعذر تصوره في معرفة الفرد أو الجماعة البشرية هو مرادف غياب السبب في الواقع نفسه عند الماديين الملاحدة كما تابعهم عليه الخلقيون! فإما هذا التفسير (الصدفة الوجودية) وإما أن يكون الحادث جزءا من القانون الطبيعي (وهي أعلى درجات الاحتمالية عند الملاحدة) الذي لا يوصف أيضا بأنه مصنوع أو "مصمم" أو له "سبب"، كما هي عقيدة الملحد أيضا!

فإن قلتم بل نحن نؤمن بأن القانون الطبيعي مخلوق معلل بإرادة الباري وحكمته وقدرته، كما نؤمن كذلك بأن ما يسمونه "بالصدفة" مخلوق بالضرورة، ولا يلزمنا التسليم بهذه المقدمة الإلحادية حتى نتعلق بنظرية "التصميم الذكي"، قلت بل يلزمكم التسليم بهاتين المقدمتين لا محالة، وإلا لم يكن ثمة وجه للتفريق بين ما يتكرر من الحوادث المرصودة في أنواع الكائنات الحية باحتمالية كبيرة وما يتكرر منها باحتمالية ضئيلة، على حسب ما سماه "دمبسكي" بالفلتر التفسيري! التفاوت في احتمالية التكرار وقابلية القياس (ومن ثم إمكان حصول تعليل للتعقيد الظاهر في معرفة

الناظر)، هما الشرطان الضروريان والكافيان لمعرفة حصول التصميم في الطبيعة عند الخلقيين كما بينا، فمن وافقهم على هذين الشرطين أحدهما أو كليهما، لزمه ما يلزمهم بالضرورة، وانتهت القضية! ألا فليفهم القوم هذا وليتقوا الله في عقائد المسلمين!

ونظير ذلك العبث ما رأيته من بعض المتكلمين إذ قال: نحن إذ نستعمل برهان الانفجار الكبير في حججنا فإنما نستعمله من باب "إحراج الخصم الملحد" لا أكثر، لأنه كان يرى أن العالم قديم لا أول له، فهذا الطريق قد انغلق أمامه بتلك النظرية، بصرف النظر عن أصل النظرية نفسها فلسفيا وما إذا كانت توافق ما جاء به الكتاب والسنة أم لا! فأين الحرج في ذلك؟

وجواب ذلك أننا قد بينا باستفاضة في غير موضع أن القول بالانفجار الكبير إنما خرج من نفس الأصول الفلسفية الطبيعية الكلية التي كان يقال بها من قبل إن العالم قديم، وجريا على نفس المقدمات الإبستمولوجية التي لا متسع فيها لما سوى التسليل السببي الطبيعي في قياس المشاهد والمحسوس، تفسيرا لكل حادث يمكن تصوره في جهة الماضي أيا ما كان ذلك، بلا اعتبار لسبب غيبي أو "فاعلية غيبية" (على اصطلاحهم)! وهو ما يعني بالضرورة أنه سواء كان هذا العالم المنظور قد بدأت هيئته الحالية (بأنموذجها الكوزمولوجي القياسي المعاصر: أنموذج الكون المتمدد هذا) من نقطة محددة في الماضي أو لم تبدأ، فلا انقطاع لسلسلة الأسباب الطبيعية عند القوم على أي حال، بل لولا استمراريتها المطلقة عندهم (المصادمة لمطلق فكرة وجود رب خالق في الغيب قد أحدث العالم نفسه وقانونه الطبيعي معه في أحداث غيبية مطلقة التغييب ثم أجراه على ما نراه من وصفه) ما قالوا بقصة الانفجار هذه أصلا! فالذي تغير إنما هو تصور "العالم" (أو بعبارة أدق: الطبيعة Nature) من أنموذج طبيعي لا يرد عليه تغير على هذا المقياس العظيم الذي يعتقدونه اليوم، إلى أنموذج كانت ولم تزل هيئته تتغير تغيرا تدريجيا بالتوسع والتمدد، بما أوصلهم إلى نقطة في الماضي السحيق اختلفوا فيما كان من حال الطبيعة قبلها! ففي كلا الأنموذجين، وكيفما كان ترجيحهم في تفاصيل التصور النظري لديهم: فالوجود أو الواقع الخارجي عندهم Reality ليس إلا سلسلة من الأسباب الطبيعية Natural Causes الممتدة من الأزل وإلى الأبد! فدعوى "الإحراج" هذه إنما تكلم بها بعض الطبيعيين الغربيين إما من مكر أو من جهل، فسارع اللاهوتيون النصارى (ومتكلمة أهل القبلة تبع لهم) وتوافروا على تلقفها وكأنها الحجة الدامغة والبرهان الساطع، والله المستعان!

يجب أن يفهم طلبة العلم من أهل الحديث والأثر أننا إن تكلفنا الرد على الملاحدة لصيانة المسلمين من خرافاتهم، مستندين في ذلك الرد إلى

أصولهم الفلسفية الكلية نفسها ومقدماتهم المعرفية الأساسية ومسلماتهم المادية المحضة، فلن يكون هذا الرد من جانبنا إلا نقلا للقراء من فلسفة الإلحاد إلى الفلسفة الجهمية بالضرورة لا محالة (على صورة من صورها)، وليس إلى دين الإسلام كما تعلمه الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم! فما دُمتَ على شرط الملحد في مصادر تلقي المعرفة نفسها عنده (لطمعك في مناظرته)، فأنت أسير – إذن – لتعريف العلم والعقل في زعمه وفي منهجه هو، ولحدّه السوفسطائي فيما هو ضروري وما هو نظري متكسب من أنواع المعارف، وفيما يتحقق به العلم عنده ويقوم به البرهان وما يوصف بأنه "دليل"، مع أنك تقطع من الابتداء بأنه جاحد مكابر يدعي الجهل بالضروريات التي لا يطلق اسم العقل على من أنكرها من الابتداء! وهذا بإجمال، وكما ذكرناه في غير موضع، هو سبب ذمّ السلف رضي الله عنهم علم الكلام كله جملة وتفصيلا، لأنه يقوم على نفس المنهاج المعرفي الذي يتبناه الفيلسوف المراد مناظرته، ومنه التسليم بدعوى جهل الخصم بحقيقة مخلوقيته ومربوبيته وما تقتضيه من استحقاق الخالق الإفراد بالتأليه والعبادة، واشتراطه على من يدعوه إلى الدين أن يقدم له الدليل المعرفي في ذلك (وهو ما حقيقته اشتراط نصب البرهان النظري لإثبات بعض البدهيات الفطرية الأولى: كوجود الباري وكمال حكمته وعلمه .. إلخ)! فالمتفلسف الملحد إنما هو رجل جاحد مكابر جاءك يدعي أن عينه لا ترى الشمس في رابعة النهار، فقبلت منه ذلك الكذب على نفسه وعلى الناس، وعاملته معاملة الجاهل الذي لم يكتسب من المعارف ما به يتبين أنه مخلوق مصنوع، واتخذت من السعي في إكسابه تلك المعارف الفطرية الضرورية التي ينفيها عن نفسه كذبا وجحودا، باستعمال ما يشترطه هو عليك من أنواع الأدلة النظرية = صنعة وتخصصا، (مع أنك تعلم أن العقلاء لم يفتقروا إلى ذلك الخطاب يوما من الدهر أصلا، وما جاء الأنبياء بمثله أبدا!) ثم سميت تلك الصنعة "بعلم الكلام"، فبالله أي خير يرجى من "علم" هذا موضوعه وسبب نشأته؟

كان المتكلمون من قبل يخضعون لشرط الملحد في استعمال فلسفة أرسطو الطبيعية في تصور العالم وبنائه وتركيبه، ثم صاروا اليوم يخضعون لشرط الملحد في استعمال فلسفة الطبيعيين المعاصرين في تصور بدايته ونشأته وتركيبه، والله وحده يعلم إلى أي فلسفة طبيعية جديدة سيُخضع الواحد منهم نفسه إجابة لشرط الملحد بعد مئة عام من اليوم! فالعبرة في النهاية "بلغة العصر": ما عده الخصم اليوم علما فهو العلم، ما عده عقلا فهو العقل، وهو إذن طريقهم إلى "إقناعه" بأنه مخلوق مصنوع! هذا هو شرط المناظرة إن كانوا ولابد فاعلين! إذ كيف يتناظر خصمان لا يتفقان على مفهوم العقل نفسه وعلى حقيقة الدعاوى البدهية والفطرية وحدود

الضرورة العقلية من الأساس؟ فهم (أي المتكلمون) في جميع ذلك يحسبون أن الملحد إن قبل منهم براهينهم البدعية تلك ودخل في الإسلام فقد انخلع من أصول وكليات الملة الإلحادية كلها جملة واحدة، والواقع أنه إنما ينتقل من الإلحاد إلى فرقة من الفرق الكلامية لا محالة، فاسم "الجهمية" يأتي في كثير من كلام الأئمة رحمهم الله تعالى كاسم جامع لمنهج تلك الطوائف الكلامية من أهل القبلة التي أسست موقفها من النص والغيب (كله أو بعضه) على بعض كليات ومسلمات الفلاسفة الدهرية، وهم يعتقدون – أو يزعمون - أن تلك المسلمات هي "قطعيات العقل" و"ثوابت العلم" التي يصح الاستناد إليها كمقدمات كلية عند بناء البراهين لمجادلة الخصم الدهري ومحاولة إلزامه معرفيا (لذا كان الأصل الجامع لهم على سعة الاختلاف بين طوائفهم وتفاوتها في القرب والبعد عن السنة: تقديم ما سموه بالعقل على النقل في مصادر التلقي المعرفي)! [72]

يظهر بين الطبائعيين الأكاديميين (الذين يدين الملاحدة المعاصرون بأن نظرياتهم هي العلم وهي العقل ولا علم ولا عقل في غيرها) نظرية تقول إن العالم بدأ بانفجار ثم تمدد حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وهو ماض إلى مزيد من التمدد والتوسع، فترى المتكلمين يسارعون إلى تقديم تلك النظرية للمتفلسف الملحد والتأسيس عليها لعله يرضى "بزعمنا" أنه مخلوق! ويظهر بين اللاهوتيين الطبيعيين نظرية تقول بأن بعض الكائنات الحية يبدو فيها علامات تدل (بالدلالة التجريبية والاحتمالية) على أنها "مصممة تصميما ذكيا لخدمة وظيفة حيوية واضحة"، فترى المتكلمين يسارعون كذلك إلى الدفع بها في وجه الملحد على أنها تحقق شرطه في تحصيل المعرفة من طريق العلم الطبيعي والقياس التجريبي، يستطيبون ذلك ويجعلونه من أبلغ الحجج والبراهين في صالحهم لإثبات وجود الباري! أليسوا قد وجدوا مستندا يجري على شرطه فيما يزعم أنه "العلم" و"الدليل العلمي"؟ وهل يطمعون في أكثر من مبارزته بتلك العلوم الدقيقة والفلسفات الرفيعة التي خلبت ألباب السفهاء من الناس في كل مكان؟ ويظهر بين اللاهوتيين من يأتي باعتراضات تجريبية على بعض تفاصيل النظرية الداروينية، فتراهم يجعلونها هي الأساس في إبطال نظرية داروين ويوسعون التأليف والجمع في ذلك ولا إشكال (وكأن الحلقة المفقودة المزعومة تلك لو ظهرت فسنضطر لقبول النظرية والتسليم بصحتها) [73]، وما أحسن الاعتراض لو جاء من بعض الطبيعيين الملاحدة أنفسهم: إذن تكون الحجة أبلغ وأمضى! فأين هم من أصول الفلسفة الطبيعية المادية المعاصرة نفسها التي أخضعوا لها رقابهم من حيث لا يشعرون، ليواطؤوا عقيدة الخصم الجاحد المكابر في أنها هي غاية العلم والعقل كما يدعي؟ لا دراية لهم بها ولا عناية ولا نظر، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وقد يقول أحدهم: ما قولكم إذن في قول اللاهوتي النصراني "ويليام بيلي" (وهو من أساتذة "ويليام دمبسكي" في هذا الصنف من البراهين الكلامية) في كتابه "اللاهوت الطبيعي": "إن الإثبات الذي بين أيدينا لدعوى أن العين قد صُنعت لغرض الإبصار، هو نفس الإثبات لدعوى أن التليسكوب قد صنع من أجل تسهيل عملية الإبصار نفسها"؟ هل هذا أيضا من التشبيه الممنوع؟ والجواب: قوله "هو نفس الإثبات Precisely the same proof" كيف تسلمون له به بهذه السهولة؟ صحيح إن المعرفة متحققة في أذهان العقلاء بأن العين "مصنوعة من أجل الإبصار" كما أن المعرفة متحققة أيضا في أذهانهم بأن التليسكوب مصنوع من أجل معاونة الإبصار! ولكن الكلام هنا ليس عن حقيقة حصول المعرفة في النفس وإنما عن كيفية حصولها، وهو ما سماه بيلي بالإثبات Proof! العقلاء الأسوياء يعرفون أن أعينهم قد خلقت في أجسامهم لغرض الإبصار، وأنها من نعم الباري المنان ذي الفضل والمنة سبحانه وتعالى، وهم مجبولون بطبيعتهم على التطلع لشكره على جميع نعمه، فهذه معرفة أساسية ضرورية فطرية غير مكتسبة يولد بها الناس ليجدوها مركبة في عقولهم وألسنتهم! والضروريات والاعتقادات الفطرية الأولية لا تفتقر إلى الإثبات أصلا، فهي حاصلة في النفس ابتداءً، وإنما تعتمد المعارف المكتسبة في أدلتها النظرية على العقائد الأولية والبدهيات الفطرية والضروريات اللغوية! فإذا وُفق الناظر في استظهار وجه الصحة في الدعوى النظرية ببيان أن قبولها وتصديقها (على درجة من درجات الثقة وقوة الظن) هو من مقتضيات بعض تلك الضروريات الكلية في نفس الإنسان (كأن يكون قبولها من مقتضيات التسليم باطراد النظامية والسببية في هذا العالم مثلا، ومن ثمّ سلامة المنطق الاحتمالي الاستقرائي، وبالتالي رجحان الظن بأن هذا النظام المشاهد أو ذاك سيتكرر في المستقبل القريب كما عهدناه في الماضي القريب) = فقد وفق في "إثبات صحة الدعوى النظرية"! فالضروريات هي مستند العاقل لإثبات النظريات والترجيح فيما بينها، وليس العكس، وإلا لزم التسلسل وهو ممتنع! فكيف إذن يصح الزعم بأن الطريق إلى "إثبات دعوى كون العين مخلوقة لغرض ما" هو نفس الطريق إلى إثبات دعوى أن التليسكوب مصنوع لغرض تكبير الصورة تحت العين؟ دعوى مخلوقية العين والجزم بوظيفتها هي من المعارف الضرورية البدهية التي لا تفتقر عند العقلاء إلى إثبات! أما دعوى مصنوعية التليسكوب فهي على مستويين: نسبة صنع التليسكوب إلى صانع بشري، ونسبة صنعه إلى خلق الله الذي خلق كل شيء.

فأما الأولى فهي معرفة مكتسبة لا يولد بها الإنسان وإنما يكتسبها بالاستقراء المستفيض، وهو ما يحدث على مرحلتين: الأولى عندما يرى الآلة وهو لا يدري ما وظيفتها، ولكنه يتمكن من فوره من ملاحظة تفاصيل تركيبها

من الحكم بأن أجزاءها تشبه أجزاء المصنوعات البشرية بعموم، فيعلم أن صانعها إنسان ما أو جماعة من البشر. والثانية عندما ينمو إلى علمه الكيفية التي تعمل بها تلك الآلة، فيتحصل في نفسه العلم بوظيفة كل جزء منها وتتحقق لديه الدراية الكاملة بالغاية من صنعها. وهذه المرحلة الأخيرة درجة من درجات الاستقراء هي أخفى على النفس وأحوج إلى التوضيح والبيان والتعليم من المرحلة الأولى (أعني مرحلة إدراك أن هذا الشيء لابد وأنه من مصنوعات البشر، مع الجهل بحقيقته ووظيفته). والناس درجات في ذلك بحسب مقدار ما تراكم في نفوسهم من خبراتهم البشرية بأنواع المصنوعات البشرية وما فيها من درجات التعقيد والتركيب وأنواع الأجزاء التي تتركب منها تلك المصنوعات على اختلاف وظائفها وأغراض أصحابها من صنعها.

وأما الدراية بأن هذا الشيء من خلق الله تعالى مع كونه من صنع بعض البشر فهو أمر بدهي فطري ضروري، لأن الله الذي هو خالق البشر هو كذلك خالق جميع أفعالهم ومصنوعاتهم بالضرورة. وإذا كان (أ) هو علة (ب)، و(ب) هو علة (ج)، فلا شك أن (أ) هو علة (ج) بالضرورة. فتأمل كيف فككنا إثباتنا مصنوعية جهاز التليسكوب إلى جملة من الدعاوى التي تستند إلى بعض الضروريات، التي منها نظامية العالم وأسبابه ومخلوقيته كله بجميع ما فيه وتعلله بإرادة الرب الواحد الأحد جل شأنه! فإذا كان الكلام عن إثبات أن العين مصنوعة لوظيفة ما، فهذا لا نفتقر فيه إلى إثبات بمقتضى البداهة الأولى. وأما إثبات أن التليسكوب مصنوع لوظيفة ما، فهو أيضا لا نفتقر فيه إلى إثبات لاستفاضة خبرتنا البشرية بالصورة المجملة لأنواع المصنوعات التي ينتجها أمثالنا من البشر، التي منها هذا الجهاز! فكما أننا لا نقول إن العلم بضرورة سقوط الأشياء إلى الأرض عند تركها معلقة في الفضاء ليس من البدهيات الفطرية، ولكنه من القطعيات الاستقرائية التامة التي تعرف بالخبرة البشرية التي استفاضت في خبرة الناس حتى لا يتطرق إليها احتمال أو شك لديهم، فكذلك يقال في دعوى مصنوعية التليسكوب على يد بعض البشر، عند عامة البشر في الحضارات البشرية المعاصرة (إلا من كانوا من أهل الأحراش والقبائل قليلة الحظ من التراكم التقني والصناعي، التي يقال لها عند أصحاب الأنثروبولوجيا "مجتمعات بدائية"). أما إن كان الكلام عن تعيين الغرض الإجمالي الذي من أجله صنعت العين والغرض الإجمالي الذي من أجله صنع التليسكوب (وهو ظاهر كلام "بيلي" المنقول أعلاه)، فالعين غاية صنعها المجملة معروفة بالبداهة والفطرة (كالمعرفة بمخلوقيتها) ولا تفتقر إلى استقراء ولا نظر، بخلاف الغرض الذي من أجله صنع التليسكوب، فهذا يحتاج بعض الناس إلى تعلمه واستفادته بالقياس والتجريب، أو بالتعلم المباشر من صانعي التليسكوب ومن الخبراء في استعماله!

وحسبك في هذا، وبعيدا عن كل ما تقدم تحريره من كلام ربما ثقل على بعض القراء أن يتابعوه، أنك لن تجد في يوم من الأيام رجلا يسألك عن الغاية الإجمالية من صنع عينه في رأسه وكأنه لا يعرفها، إلا اتهمته بالجنون أو السفسطة من فورك وبلا تردد، ولكن لا يلزم أن يكون هذا هو حكمك على من يزعم أنه لا يعلم الغاية من صناعة التليسكوب!

والقصد أن كلام "بيلي" في التسوية التامة بين "دليلنا" لإثبات الدعوى الأولى و"دليلنا" لإثبات الدعوى الثانية، إنما هو من محض التلبيس في أصول النظر والاستدلال والمعرفة، الذي لا يزال يُستدرج إليه اللاهوتيون والمتكلمون عند كل مناظرة مع فلاسفة الإلحاد، والله المستعان! ولا شك أنك إن وافقته على هذه التسوية التامة بين القضيتين في نوع "الإثبات" وطريقه، فقد وافقته في تشبيه أفعال الله تعالى بأفعال البشر! ولو أنك اكتفيت بقولك إننا "نقطع بأن أعيننا مخلوقة لغرض الإبصار ولا نجد ما يثنينا عن ذلك، كما أننا لا نجد ما يثنينا عن اعتقاد أن التليسكوب من صنع بعض البشر، الذين هم بدورهم من صنع خالق كل شيء" لربما كان أبعد عن التشبيه والقياس الفاسد، وإن كان فيه كذلك ما يوحي بالتسوية في سبب ذلك الامتناع، وهو ما لن يتركه الفيلسوف الملحد حتى يلزمك بلوازمه، فتراك مضطرا لتكلف مثل ما تكلفه فلاسفة اللاهوت من مقدمات أفسدوا بها العقل والدين جميعا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ونقول إن كل صاحب أسطورة في أصل العالم يمكنه أن يتأول جميع ما في العالم من مشاهدات على نحو يبدو معضدا لأسطورته! ذلك أن أحداث خلق العالم وما فيه غيبية مطلقة التغييب بالأساس، وليس لها قياس على شيء مما وقع تحت خبرتنا وعادتنا معاشر البشر من أنواع الحوادث في يوم من الأيام! وما دام الأمر كذلك، فسيظل من الممكن لأي مشاهدة في هذا العالم – من حيث المبدأ - أن يُؤول أصلها ومصدرها الأول على أي وجه يجعلها دليلا داعما لأي أسطورة يحلو لأي إنسان أن يعتقدها في قصة خلق العالم وما فيه، سواء كانت أسطورة وثنية محضة أو كانت من أساطير الدهريين الطبيعيين المعاصرين، من غير أن يكون من الممكن إبطال كلامه من طريق المشاهدة المباشرة! وهذا المعنى مطرد في العالم كيفما كانت هيئته وبناؤه، بمعنى أن أي عالم من العوالم الممكنة عقلا يمكن من حيث المبدأ لأي صاحب أسطورة في قصة نشأته أن يتأول أي شيء فيه بما يبدو وكأنه يدعمها، مدعيا أنه لو لم تكن تلك الأسطورة صحيحة لما كانت المشاهدة على نحو ما نراها!

فإن هذا الزعم (الذي هو أصل المنطق المستعمل في استنتاج أحسن التفاسير عند الطبيعيين IBE)، لا يقوم عند صاحبه – كما بسطنا القول في

بيانه في هذا الكتاب - إلا على أساس من استقراء سابق يُربط به ربط معقول في تجربة الناظر بين نوع السبب ونوع المسبب! فمن قال "لو لم يكن العالم قد نشأ على نحو ما نفترض ما أمكن أن نشاهد فيه هذه المشاهدة" هذا متى وأين سبق له أن رأى عوالم تنشأ على نحو ما يفترض في نظريته (أو بالأحرى: أسطورته)، وعوالم أخرى تنشأ على نحو ما يزعمه غيره في أسطورتهم، حتى يرجح بالاحتمالية الاستقرائية أن يكون افتراضه في منشأ عالمنا هذا بعينه هو الصواب لا غيره؟ هذا الاستقراء لم يكن أبدا ولن يكون! فإن حوادث نشأة العالم ليست من جنس الحوادث الجارية داخل العالم نفسه بالضرورة حتى تشاهد أو يشاهد نظيرها! وما دام الأمر في ذلك غيبا محضا مطلقا على هذا النحو، فلا مدخل لإثبات أو نفي أي أسطورة من تلك الأساطير بالقياس (على أي نوع من أنواعه لا سيما القياس التفسيري Abduction الذي هو أساس طريقة الطبيعيين في التفسير الغيبي، وبه تأسست كافة نظرياتهم في أصل العالم، وبه كذلك تأسس ما رد به عليها اللاهوتيون من نظريات طبيعية في المقابل)! [74]

والقصد أنك ما دمت حريصا على استعمال طريقة القياس والاستقراء التجريبي والتفسيري في إثبات حدوث العالم (الذي هو قضية بدهية بالأساس، وهي أصل المنطق الاستقرائي نفسه كما بينا مرارا)، تستخرج من أنواع المخلوقات ما يبدو وكأن له قياسا في هيئته ووظيفته على جنس مصنوعات البشر وأغراضهم من صناعاتهم، خلافا لما ليس له قياس عندك أو عند من تخاطبه، ثم تجري "الترجيح الاحتمالي" على ذاك الأساس، فلن تثبت إلا صانعا بشريا أو من نوع من أنواع المخلوقين على أحسن الأحوال، مستندا في ذلك إلى محصول المعارف القياسية لديك أو لدى من تخاطبه بذلك البرهان، بأنواع المصنوعات البشرية بعموم وما يوصف منها بأنه "معقد" بخصوص، وسينفتح عليك إذن من أبواب اللوازم ما يجعل منك مصدر إلهام كبير لأمثال ديفيد هيوم وتشارلز داروين وبرتراند راسل وريتشارد دوكينز وغيرهم من رؤوس التنظير الدهري في التاريخ الحديث! مع أن العلم بمخلوقية النفس والعقل والعالم وما فيه = حقيقة بدهية فطرية لا تفتقر إلى برهان أصلا، لا بالقياس ولا غيره! فسبحان من أنعم على عباده بالعقل وجعله قرينا للعلم والإيمان واليقين بما جاء به المرسلون والحمد لله أولا وآخرا.

فإن قال المتكلمون: هذه الإلزامات المنهجية كلها لن تلزمنا لو جعلنا برهان الغائية الطبيعي على هذه الصورة:

- الخلايا الحية يظهر في بنائها البيوكيميائي من الدقة والتعقيد ما لا يقوى العقل البشري على تصور كيفية الإتيان بمثله من صنعنا.
- التعقيد البالغ دليل على الخلق
- إذن للعالم صانع خلقه من خارجه

قلنا: فكيف بكم إن أجاب الملحد عن المقدمة الأولى بقوله:

- لا يزال البشر يتطورون في قدراتهم التقنية بمعدلات متسارعة لوغارتميا.
- من المتصور فيما لا يمنعه العقل أن يبلغ البشر القدرة على خلق الخلية الحية في يوم من الأيام.
- إذن لم يلزم أن يكون صانع الخلية ومصممها موصوفا بما تنسبونه إلى إلهكم من صفات! بل من الجائز (كما جوزه "ريتشارد دوكينز" بل و"مايكل بيهي" نفسه!) أن يكون كائنا فضائيا فائق الذكاء والقدرة التقنية!

إن أجاب بهذا، فهل تتكلفون إحالته إلى برهان آخر من البراهين التي اخترعها المتكلمون والفلاسفة لعله يرضى بتنزيه خالق السماوات والأرض وما فيهما عن كل نقيصة كما تقضي به الفطرة والبداهة الأولى؟ هذا هو عين ما يرجوه ويريده منكم على أي حال، حتى يتفنن في السفسطة على كل برهان تسوقونه إليه متذرعا في ذلك كله بأنه ما زال لا يجد دليلا كافيا للإيمان بالرب الذي آمنتم به، فضلا عن الخضوع لما أنزل على رسوله من دين وأمر ونهي وتكليف!

ولعل قائلهم أن يقول: ولكن ألسنا قد دعينا في القرآن إلى التفكر في خلق الله تبارك وتعالى وطلاقة قدرته، حتى نزداد يقينا بأنه هو الحق وأنه ما خلق هذا الخلق باطلا، كما في قوله جل وعلا: ((الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)) [آل عمران : 191]؟ فهذا ما جاءت به نظرية التصميم الذكي! كشفت لنا عظمة الخالق جل وعلا في أدق دقائق البنية الجزيئية للخلايا الحية، وأظهرت أن فيها من التعقيد ما لا يتصوره العقل! فأين النكارة في ذلك؟

ونقول: هذا تلبيس واضح، فيه جهل بمقصود الآية من جانب، وجهل بطبيعة نظرية التصميم الذكي ونحوها من نظريات الخلقيين وبراهينهم اللاهوتية الطبيعية الإمبريقية من الجانب الآخر. ذلك أن الآية فيها تزكية لكل من تحرك قلبه بالتأمل في مخلوقات الله تعالى بالتذكر وبزيادة اليقين بأنه سبحانه إنما خلق كل شيء بقدر ولحكمة عظيمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها، فما كان من عبث أو باطل أن خلق سبحانه ذلك الخلق الواسع الذي لا ندرك لثرائه وتنوعه وطلاقة القدرة فيه حدا ولا نهاية، ومن ثم يضرع ذلك القلب

المؤمن إلى الرب جل وعلا ليقيه عذاب يوم عظيم! هذا ما تجري به نفوس العقلاء الأسوياء الباقين على أصل الفطرة في ذلك، وهو التفكر المحمود في الآية، الذي تتحقق به ثمرتها على وجه التمام والكمال، كما تحققت في قلوب الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين! أما نظرية التصميم الذكي فالتفكر الذي تقوم عليه ليس من ذلك في شيء أصلا، بل هو من تفكر الملاحدة والفلاسفة وأهل السفسطة والمرض، نسأل الله السلامة! فهي تدعو العقلاء – كما بينا - للتسليم بأن الأصل في العالم (بالأرجحية الاحتمالية الكاسحة) أنه فوضى وعشواء وقانون طبيعي لا خالق له، ثم تدعوهم للتأمل في بعض النظم الحيوية الجزيئية الدقيقة حتى يرجحوا بالمنطق الاحتمالي (بدلالة الاحتمالية الضئيلة) أن في العالم أشياء معينة تمتاز عن غيرها بكونها "مصممة" ولم تأت بالصدفة ولا تبعا للقانون الطبيعي، بمقارنة تلك الأشياء بغيرها، ومن ثمّ يرجحوا بآلة البحث التجريبي الاحتمالي أن يكون "في الطبيعة" مصمم ذكي اختار أن يصنع بعض الأشياء في هذا العالم على نحو مخصوص! فبأي عقل يدعي مسلم يفهم دينه حق الفهم، ويفهم تلك النظرية حق الفهم، أن هذا هو ما زكته الآية الكريمة في المؤمنين إذ يتفكرون في خلق السماوات والأرض؟ نعوذ بالله من الجهل والخذلان، ومن أن نكون ممن قال رب العزة فيهم: ((الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)) [الكهف : 104]! ولو أن اللاهوتيين النصارى اكتفوا باستعمال تلك الاكتشافات المذهلة التي اكتشفها الطبيعيون في بناء النظم الجزيئية الحيوية الدقيقة في الخلية وتنظيراتهم في آليات عملها، في حمل العقلاء على تذكر بديع خلق الباري جل وعلا وعظيم قدرته، مؤسسين ما هو مركوز في الفطرة من الجزم بكون السماوات والأرض وما فيهما من صنع الباري جل شأنه، ولم يزيدوا على ذلك، لنفعوا الناس بذلك بوجه ما، ولقدموا للموحدين مادة ثرية للتفكر في خلق الله بحقه وعلى وجهه الذي تستقيم به العقول وتصح به القلوب، وإذن لشكرناه لهم!

ولكنهم أبوا إلا أن يطرقوا باب التنظير الطبيعي في مسألة النشأة وأصل الحياة، تبعا لأصحابهم وأساتذتهم وأقرانهم الطبيعيين الماديين، ليجعلوا البحث التجريبي دليلا على "التصميم" في مقابل "النشوء والارتقاء" كما هو شرط الماديين في نظرية المعرفة، وليصبح لديهم نظرية طبيعية يجادلون بها الملاحدة ويعلمونها لتلامذتهم في المدارس بدلا من نظرية داروين! [75] تحدثهم نفوسهم قائلة لهم: كيف نكون في "القرن الواحد والعشرين الميلادي" ولا يكون لدينا في المعرفة بأحداث وتفاصيل خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بعض النصوص الدينية القديمة التي زعم الملحد أن العلم الحديث قد أبطلها وأحالها إلى جملة من الأساطير والخرافات؟ إذا كانت الناس قد باتت لا تحب أن تسمع من الكلام إلا ما ينطبع بطابع الأبحاث والتجارب المعملية، ولم تعد جماهير الناس ترى العلم والمعرفة إلا في ذلك،

وما عاد لعاب عقولهم يسيل إلا من أبحاث الطبيعيين وما في بابها، فلنأتهم إذن بشيء من ذلك نجعله دليلا على وجود خالقهم ولا إشكال! ولنتفنن إذن في بناء النظريات الطبيعية الخاصة بنا لنجعلها هي العلم في باب النشأة والخلق ولا إشكال! إنه المرض بعينه، والانهزام بعينه والخذلان بتمامه، وما هو بغريب ولا بعيد عن قوم دينهم التحريف والتبديل، قد بلغوا أن جعلوا شطر كتابهم المقدس عندهم من باب الرمز والمجاز ولم يبالوا!

فلا تعجب عندما ترى "دمبسكي" هذا يتكلم في بعض مناظراته مع خصومه فلا يفوته أن يؤكد المرة بعد المرة على أن "نظرية التصميم الذكي" لا علاقة لها بالقول بالخلق الإلهي وبالخلفية الاعتقادية الدينية التي تنسب إلى عموم "الخلقيين" (لا سيما القائلين منهم بتكذيب نظرية داروين جملة وتفصيلا وبأن الأرض لا يجاوز عمرها بضعة آلاف من السنين)، مع أن نظريته من أشهر أدواتهم في الانتصار لفلسفتهم ولدينهم في الحقيقة، وهو يعلم هذا جيدا! فتراه يؤكد أنها متوافقة تماما مع مبدأ الأصل المشترك الدارويني Common Ancestry، ومع قاعدتي الطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي، ومع كافة مسلمات الارتقاء الدارويني في اتخاذ الفوضى والعشواء آلية طبيعية لا صانع لها ولا مدبر، وإنما غايتها – كنظرية - أن تحاول أن تثبت أن ثمة أشياء في وسط تلك الفوضى والعشواء المحضة (القانونية منها وغير القانونية على زعمه وبحسب اعتقاد الملاحدة الماديين المعاصرين) تبدو (بالترجيح الاحتمالي) وكأن من ورائها "مصمم" له "ذكاء" وغاية وقصد، وقد رأيت ذلك في أصول نظريته ومقدماتها الأولى تحقيقا كما مر معك! فقد علم الرجل أنه ما من سبيل للانتماء إلى "الوسط العلمي الأكاديمي" في علوم الأحياء إلا بالتزلف إلى الدراونة من كل باب! ولا يكون ذلك إلا بالتسليم لهم بأصولهم الفلسفية الكلية أولا ثم محاولة التفريع عليها بما قد يغريهم ذلك التسليم والاتفاق الكلي ويستميلهم لقبوله! ولكن يأبى ربك – وهو العزيز الحكيم - إلا أن يخزي أهل الزيغ والخذلان، الساعين في طلب الدنيا بدعوى الانتصار له سبحانه! فلا جاؤوا بعلم يصلح للناس دينهم ولا بشيء ينفعهم في دنياهم! وما رضي عنهم أهل الحق أهل الميراث النبوي المعصوم، ولا قبل بضاعتهم أهل الباطل الذين تزلفوا إليهم بها، وهكذا هم ومن سلك سبيلهم ولف لفهم من جهمية الزمان، الذين سبقت الفتنة ببضاعة الطبيعيين إلى قلوبهم من حيث لا يشعرون، وهم مع ذلك يحسبون أنهم ينصرون الحق ويخلصون العمل لله، والله المستعان لا رب سواه!

ينبغي أن يكون متقررا لدى المسلمين أن التفكر والتأمل في خلق السماوات والأرض على نوعين. تفكر يزيد الإيمان واليقين في القلب، وتفكر يغض من الإيمان وينبت الشك ويورث الضلال البعيد، نسأل الله السلامة. فأما النوع الأول، فهو الذي ندب إليه رب العالمين وجعله عبادة من العبادات، وهو ما

يكون عندما يتأمل المسلم في بديع خلق الله وعظم ما في السماء والأرض من آياته وآلائه التي تذكره أبلغ تذكير بما هو مركوز في فطرته من إقرار لرب العالمين بالربوبية وبكمال الأسماء والصفات. وهذا ما به يحاجج رب العالمين المشركين في القرآن في كل مرة يخاطبهم بالتذكير بما هو ظاهر جلي من آياته في أنفسهم وفي الآفاق، أفلا ينظرون إلى كذا كيف خلق وإلى كذا كيف خلق، أولم يروا أنا خلقنا لهم كذا وكذا وتفضلنا عليهم بكذا وكذا.. إلخ! فهذا هو التفكر الذي تحصل به الثمرة المرجوة من زيادة الإيمان والتسليم والعبودية التامة لرب العالمين جل جلاله.

وأما النوع الثاني فهو التفكير والنظر طلبا للعلم بما هو مغروس في فطر العقلاء ابتداء، أو بما لا مدخل للعقل البشري إليه من أصل الخليقة وكيفيتها وترتيب حوادث الخلق وتفصيلها وحقائق هذا الكون وما وراءه وما كان قبله وما يكون بعده.. فإن غيوب السماوات والأرض لم يودع الله مفاتحها في عقولنا حتى نلتمسها ثم! وإنما يعلم ما يعلم من ذلك (مما سوى الحقائق الفطرية المعلومة بداهة) بالسمع لا بالنظر، بالوحي لا بالقياس! والذي يتكلف ذلك القياس من طريقه يرتكب بذلك جناية على عقله ودينه لأنه لا يصل إذن إلا إلى الوهم والخرافة، ولا يغني عنه منهجه شيئا وإن اتفق له أن وافق الحق في شيء مما جاء به (كقول الكوزمولوجيين المعاصرين بأن العالم حادث مثلا!)، فهو متلبس لا محالة بقياس ربه على المخلوقين في صفاته وأفعاله، وهو ذاهب إلى ما يورث الزندقة لا محالة! ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى إن من سلك طريقة المتكلمين في تأسيس الاعتقاد فليس من أهل السنة وإن وافق أهل السنة فيما انتهى إليه من آحاد الأقوال! فالعبرة في الاعتقاد ليست بموضوع القول أو المذهب وحسب، ولكن بمصدر التلقي الذي تأسس عليه عند صاحبه ابتداء!

فأما النوع الأول فهو ما تجد ندبه والحث عليه في الكتاب والسنة وعليه عمل السلف. وأما النوع الثاني فمن خصال الفلاسفة والمتكلمين ومن لف لفهم وركب ركابهم.
ذلك أن التفكر من النوع الأول يقوم على التأسيس على ما في الفطرة، يستدعيها الإنسان في نفسه أولا ثم يؤسس عليها، ولهذا فلا تراه يزيد صاحبه إلا تصديقا وتسليما. وأما النوع الثاني فلا اعتبار فيه بالفطرة أصلا وإنما يعامل الغيب فيه معاملة تناقض الفطرة وتغالبها في النفوس! فتتكلف الأقيسة الوهمية للغائب على الشاهد خلافا للفطرة القاضية ببطلان أصل القياس، ثم تقام المزاعم المعرفية بشأن الغيب على ذلك الوهم ويضطر أصحابها لالتزام لوازمها ثم جعلها معيارا لقبول خبر الغيب في الكتاب والسنة أو رده وأساسا لتأويله، إن كانوا ممن ينتسبون إلى دين غير الملة الطبيعية الدهرية المادية! فما كان هذا شأنه من الفكر والتدبر فهو ذاهب باليقين لا محالة، مورث للشك

والاضطراب لا محالة، لأنه لا يترجح في أمر الغيب قياس على قياس، وإنما تتكافأ الأقيسة وينماع أصل الدين، ويصبح الاعتقاد الغيبي وهما في وهم ووهنا على وهن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولأن بالمثال يتضح المقال، فمن النوع الأول أن يقف الباحث في معمله يرقب بديع صنع الله جل وعلا في الطريقة التي تتكيف بها أنواع الباكتيريا مثلا، مع كل تغير يطرأ على بيئتها المباشرة، فيقول في نفسه "إن الذي خلق هذا وألهمه بما ألهمه وأبدع فيه ما أبدع، لقادر على أن يخلقني من عظام قد رمت وصارت ترابا. فاللهم اغفر لي خطيئتي يوم الدين!" وأما النوع الثاني فمنه أن يقف الباحث نفسه يتأمل في المشهد نفسه ثم يقول في نفسه: "إن في هذا التغير الجيني دليلا على أن الباكتيربا كلها على اختلاف أنواعها ترجع في خلقتها إلى أصل مشترك، تفرعت منه أنواع الباكتيريا كلها تحت آليتي الطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي"!! ثم إن قيل له: فما قولك في رب العالمين وصفة الخلق وغيرها من صفات الربوبية؟ قال لعله بدأ خلق الحياة بالشرارة الأولى، ثم ترك الكائن الحي الأول للطفرة العشوائية والطبيعة لتكمل المسيرة من غير أن "يتدخل" بشيء! أو لعله لم يزل يحدث الطفرة الموجهة بعد الطفرة الموجهة في الوقت المناسب قبل أن تهلك جميع الأنواع وينهار النظام الحيوي! أو لعله "تدخل" "بتصميم" بعض النظم الحيوية وترك ما سوى ذلك للآلية الطبيعية العشوائية! المهم أن يكون جريان خلق الأنواع على الأرض جاريا على تلك النظرية!

ولا يخفى أن لكل قول من تلك الأقوال لوازمه ومقتضياته في صفات الرب تبارك وتعالى، التي كلها لا تخرج عن تشبيهه بالمخلوق الناقص في أفعال الصنع والتدبير والتقدير، فلا تراه يرجح من بينها إلا بالهوى المحض ولا يبالي!

فهذا يا عبد الله تفكر وذاك تفكر، ولكن شتان ببن تفكر وتفكر!

ومن النوع الأول أن ينظر الرجل إلى السماء يرقب النجوم ثم يقول في نفسه ((ما ترى قي خلق الرحمن من تفاوت)).. سبحان الذي رفع السماء بلا عمد.. اللهم يا عظيم يا من بيده ملكوت كل شيء، اغفر لي وارحمني ولا تخزني يوم يبعثون! هذا ما يحصل في نفس المؤمن من تفكر في النجوم! وأما النوع الثاني، فأن ترى باحثا يقف الموقف نفسه ويرقب المشهد نفسه فيقول في نفسه: لابد وأن يكون "الكون" على هيئة كذا وكذا، وفي هذا الذي أراه دليلا على أن أصله يوم نشأته كان كذا وكذا.. يسرح بخياله من قياس إلى قياس بلا زمام ولا خطام..
فشتان شتان بين تفكر وتفكر.. ولا يغرنك مفتون صاحب هوى، فيقول لك إن النوع الثاني والنوع الأول متلازمان، أو إن الثاني منهما يوصل إلى الأول، فهذا والله كالذي يقول إن التعمق في دراسة العقيدة النصرانية وممارسة الشعائر

الكنسية ينتهي بالإنسان إلى أكمل ما يكون عليه المسلم من الإيمان والعمل! فهل هذا كلام قوم يعرفون ما النصرانية وما الإسلام؟ أبدا! وكذلك الشأن هنا! الذي يدخل المعمل ليتفكر ويتدبر على النوع الأول من التفكر، هذا يدخل المعمل مصطحبا في نفسه أصل الفطرة السوية، فإذا انكشف له من المشاهدات ما يظهر فيه بديع صنع رب العالمين، لم يره إلا على حقيقته، أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء، فيزداد إيمانه ويقينه بفضل الله ومنّه! وأما الذي يدخل المعمل ليجري ذهنه ونفسه فيما يراه فيه على النوع الثاني، فهذا لا يدخل إلا مستصحبا أصول الملة الدهرية الطبيعية التي هي نقيض الفطرة ونكيسها، يريد أن يضيف مزيدا من الأقيسة والتأويلات التي تقوي أركان البناء الدهري والميثولوجيا الطبيعية التي هو من الأصل معتقد لها معتنقها أشد ما يكون الاعتناق عند أهل الملل! فإذا شهد ما شهد في معمله، لم يعامله إلا بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism التي هي مصدر التلقي في دينه الدهري، فلا يراها آية من آيات الباري جل شأنه، ولا يحصل له من أثرها إلا غيا فوق غي وضلالا فوق ضلال!

فمن فهم هذا وتدبره، فهم السبب في كون هؤلاء القوم يلحدون ويصرحون بالإلحاد، ولا يزدادون إلا إلحادا وإغراقا في الدهرية كلما ازدادوا بحثا وتجريبا ومشاهدة، مع أن الذي يشهدونه من عجائب قدرة رب العالمين لا يراه العاقل سوي النفس سليم الفطرة إلا خر لله ساجدا! فنقول إن المشاهدة في نفسها لا تورث إلحادا ولا زندقة، وإنما الذي يورث ذلك هو الأصول الفلسفية التي يعتقدها الواحد من هؤلاء ثم يؤسس عليها تأويله الغيبي لهذه المشاهدة أو تلك! فمن جديد نقول: شتان بين تفكر وتكفر، والحمد لله على نعمة الإسلام والعقل!

يقول الخلقوي النصراني "مايكل بيهي" في كتابه "صندوق داروين الأسود" Darwin’s Black Box (ص. 172):

> يستحق العلماء العاملون في مسألة "أصل الحياة" كثيرا من الثناء. فقد هجموا على تلك المشكلة بالتجريب والحساب كما ينبغي للعالم الطبيعي أن يفعل. وعلى الرغم من أن التجارب لم تثمر عما كانوا يتمنون، إلا أننا بفضل جهودهم قد أصبح لدينا اليوم فكرة واضحة عن الصعوبات البالغة المذهلة التي تواجه فكرة نشأة الحياة من طريق الحوادث الطبيعية الكيمائية.

قلت: مهلا يا سيد بيهي مهلا! أي مشكلة هذه التي هاجموها بالتجريب والحساب كما "ينبغي للعلم الطبيعي" أن يفعل؟ ومن الذي قال – من الأساس – إن هذا الصنف من المشكلات، يصح أن يُهجم عليه بأدوات العلم الطبيعي، بالتجارب والحسابات والقياسات؟ من أين يأتي هذا الانبطاح

والإقرار المتخاذل للطبيعين على كليات إبستمولوجيا البحث الطبيعي المعاصر لديهم في هذه البابة الغيبية الإلهية المحضة؟ يأتي من حرص "بيهي" على الحفاظ على انتمائه إلى تلك الطائفة نفسها التي انتصب لها بالنقد والمواجهة، لا من جهله بأن في المسألة مشكلة عقلية واضحة ولا من خفاء ذلك عليه! وإلا فأي حساب وأي تجريب هذا الذي قد يفيد عاقلا في معرفة الكيفية التي أحال رب العالمين بها المادة الميتة إلى كائنات حية في أول خلقها، وبأي علة يرجو باحث عاقل أن يقيسها على شيء مما جرت عليه عادتنا في أحداث العالم أصلا؟ الطبيعيون الملاحدة يستجيزون أن يلعبوا دور الرب الباري في خلق الحياة على الأرض بمحاكاة صنعته الإلهية (التي هي بالبداهة المحضة من أخص أفعاله به سبحانه وتعالى) [76] داخل معاملهم، وكأنما خُلقت الحياة في العالم بالتجريب والمحاولة والخطأ في إطار النظام الطبيعي الذي لا يرون له قائما عليه من خارجه منشئا له هو نفسه بعد أن لم يكن، لأنهم يكفرون بالغيب كله جملة واحدة ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر! فما بال من يقول – في كنيسته ووسط أقرانه من أهل الملة - إن له ربا خالقا لا تبلغه أحلام الناس ولا تدركه عقولهم؟ كيف جوز له عقله ذاك الحطّ على رب العالمين؟ الجواب بإيجاز: من ضيع دينه وحرف وبدل ميراث النبيين، ضيع عقله وكرامته لا محالة! ((وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)) [البقرة : 130]

العجيب أن "بيهي" يقرر هذا الكلام ويضرب تلك الشهادة والتزكية الشاملة لأولئك الملاحدة الأنجاس، من بعد أن بذل جهدا في تتبع تناقضاتهم الفجة في أصل منهجهم الداعي إلى محاكاة ما يزعمون أنه كان حادثا عشوائيا لا ضابط له ولا رابط، من طريق إعداد بيئة تجريبية معملية منضبطة ومحكومة وموجهة – بالضرورة - توجيها دقيقا لخدمة الغاية المطلوبة! فهل كان بيان ذلك التناقض المنهجي الفجّ يحتاج منه إلى قراءة مئات الورقات البحثية في مجال "الارتقاء البيولوجي الجزيئي Molecular Evolution" المزعوم كما ذكر ذلك، وكما توسع في تصنيف تلك الأبحاث وتقسيمها وتتبعها ورواية قصة مراحلها التاريخية عند أصحابها في ذاك الفصل من كتابه؟ الجواب: كلا ولا شك، لولا أنه أحب أن يرسخ مبدأ انتسابه إلى الصنعة العلمية الأحظى في زماننا هذا بالتقدير والتعظيم والتشريف في مجتمعه، ألا وهي صنعة العلم الطبيعي والتجريبي! ويا حبذا لو استطاع أن يقنع ثلة من "الصفوة الفكرية" في مجتمعه بأنه مجدد من مجددي العلوم الطبيعية، وبأن كتابه هذا وغيره من شأنه أن يحدث ثورة جديدة في مجال العلم الذي تخصص في تدريسه والبحث فيه أكاديميا، كما كان من كتاب داروين (أصل الأنواع) مثلا! إنها نفس الشهوة القلبية الغائرة التي نبتت عنها سائر البدع اللاهوتية والكلامية والفلسفية عند أهل الملل كافة: شهوة إظهار العلو والتفوق على الفلاسفة والنظار الملاحدة المكذبين، في نفس الحقل النظري الذي خلبوا به ألباب

عامة المرضى المفتونين من أتباعهم وأسالوا به لعابهم حتى جعلوه هو كمال العقل وتمام العلم، حتى لا يقال عنهم إنهم سفهاء يؤمنون إيمان العامة الجهلاء! والله تعالى يقول في هؤلاء جميعا وهؤلاء: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ)) [البقرة : 13]!

ويعتبر "مايكل بيهي" مؤسسا للركن الثاني من أركان نظرية التصميم الذكي (إلى جانب مبدأ استنتاج التصميم احتماليا Design Inference لصاحبه "ويليام دمبسكي")، ألا وهو فكرة التعقيد غير القابل للاختزال Irreducible Complexity. ولا شك أن التعقيد والدقة في بناء النظم البيولوجية الجزيئية داخل الخلية الحية، تبلغ في الواقع حدا من الدقة والتعقيد لا يتسع العقل لتصور كيفية محاكاته في مصانع عملاقة تملأ سطح الأرض، فضلا عن محاكاته في كسر من النانومتر داخل خلية من ملايين الخلايا في جسم الكائن الحي الواحد! وإنما بدأت أخيرا أدوات التنقيب والتدقيق والفحص المعملي في العقود الأخيرة تكشف لنا شيئا من ذلك مما كنا لا نراه من قبل. هذا التعقيد المذهل حسب ابن آدم أن يقف على رؤيته بعينيه لتتحرك نفسه بتعظيم الباري جل وعلا ويكون بذلك قد تفكر في خلق الله على ما يحبه الله ويرضاه، وتتحقق الثمرة المقصودة من عبادة التفكر في نفسه بذلك. وهو ما يبدأ في نفس العاقل من قضيتين ضروريتين فطريتين لا يتطرق إليهما نظر أو بحث أصلا:

- أن الخلية الحية من صنع الرب الحكيم العليم خالق السماوات والأرض وما فيهما، الذي لا منتهى لعلمه ولا حد لقدرته.
- وأننا مهما انكشف لنا الآن من وظائف وأغراض النظم الحيوية داخل الخلية الحية أو خارجها فليس هذا إلا منتهى ظننا الضعيف ومبلغ علمنا الناقص مهما كمل ومحاولتنا البشرية القاصرة في تصور ذلك النظام الدقيق بالغ الإتقان، الذي لا عوج فيه ولا خلل.

هاتان القضيتان الكليتان يبدأ المسلم العاقل منهما عند التأمل في بديع صنع الله جل وعلا (من غير أن يحتاج إلى استحضارهما في عقله الواعي أصلا، لأنه ليس مستدلا على طريقة المناطقة والفلاسفة وإنما هو متأمل بفطرته السوية على طريقة عباد الله العقلاء الأسوياء!)، فيحصل المطلوب بذلك على وجه التمام. أما "بيهي" ورفاقه، فالخلق عندهم نظرية طبيعية Natrual Theory، يبتدأ بفرضها ويراد الوصول إلى إثباتها، بالنظر والقياس في المشاهدات (ومنها تلك النظم الخلوية بالغة التعقيد)، حتى تصبح نظرية طبيعية تكمل النقص في نظرية داروين الطبيعية في نفس الأمر! لذا فالمقدمة الأولى البدهية سالفة الذكر إنما هي عندهم نتيجة مطلوب إثباتها نظريا! وأما المقدمة الثانية فهم مضطرون لنقضها من الابتداء حتى يسلم لهم

ادعاؤهم بأن الوظيفة المعينة التي أثبتوها لهذا النظام الحيوي أو ذاك، لا تتم إلا بهذا التركيب الذي يرونه تحديدا (في حدود قدرتهم الحالية على الرصد والاستنتاج بطبيعة الحال) لا بغيره! وهو الأساس المنهجي الذي يقوم عليه استعمال "بيهي" لفكرة "التعقيد غير القابل للاختزال" في بناء نظريته الطبيعية البيولوجية! يجب أن ينصب الباحث الطبيعي نفسه حكما على الوظيفة والغاية والقصد من تركيب أجزاء كل نظام حيوي مشاهد حتى يتمكن من تقرير ما إذا كان يصح عليه الوصف "بأن تعقيده غير قابل للاختزال" أو لا يصح (وهو ما ذكرنا في بداية هذا المبحث أنه المقدمة الكلية الثانية للنحلة الخلقية: المقدمة "ب"). فهو يحرر تعريف "التعقيد غير القابل للاختزال" في كتابه "صندوق داروين الأسود" (ص. 39) على النحو التالي:

> وأقصد بالتعقيد غير القابل للاختزال Irreducibly Complex ذلك النظام المركب من العديد من الأجزاء المتوافقة توافقا جيدا، المتناغمة في مساهمتها في أداء الوظيفة الأساسية للنظام، الذي إن تصورنا إزالة أي جزء منه فسيتوقف النظام عن العمل من فوره. فالنظام الموصوف بهذا الوصف لا يمكن أن ينشأ مباشرة (أي من طريق التحسين المستمر للوظيفة الأساسية، التي تظل تعمل بنفس الآلية) من طريق التعديلات اليسيرة المتتابعة على نظام سابق، لأن أي نظام سابق (أي الأسبقية التطورية) لأي نظام يوصف بأن تعقيده غير قابل للاختزال، فهو – بموجب التعريف – نظام معطل NonFunctional. فالنظام البيولوجي ذو التعقيد غير القابل للاختزال، إن وجد، فلابد وأن يشكل تحديا كبيرا للارتقاء الدارويني.

قلت: فعلى هذا التعريف، يكون الباحث الطبيعي مطالبا بإثبات أن هذا النظام الحيوي أو ذاك مما يوصف بأن تعقيده "غير قابل للاختزال" إن كان من الخلقيين، أو أنه "قابل للاختزال" إن كان من الداروينيين. فإن تمكن الخلقي من ذلك الإثبات (باستخدام الأقيسة التجريبية والاستقراءات الطبيعية، على شرط الصنعة نفسها بطبيعة الحال)، فقد أثبت أن ثمة نظام حيوي لا يمكن أن يكون قد ظهر في هذا العالم من طريق الآلية الداروينية المعروفة (الارتقاء البطيء على مراحل من طريق الانتخاب الطبيعي والطفرة العشوائية)، وإن تمكن خصمه من الرد عليه ببيان إمكان "الاختزال" إلى نظام أبسط، فقد نسف الفكرة من أساسها، وأبطل "نظرية الخلق نفسها"!

لقد صرح "بيهي" بأنه جاء بفكرته هذه من كلام داروين نفسه في كتابه "أصل الأنواع" (الذي يعد بمنزلة الكتاب المقدس عند كثير من الدراونة، لا سيما الملاحدة الجدد)، حيث قال (داروين):

لو أمكن إثبات وجود أي عضو معقد Complex Organ من غير المتصور أن يكون قد نشأ من طريق العديد من التعديلات الصغيرة المتتابعة، فلا شك أن نظريتي هذه ستنهار.

قلت: ولكن ما مفهوم الإثبات والنفي الذي يتصوره "داروين" من الأساس، إذا كان قوام نظريته – بأكملها – على تأويل الحفريات وكافة المشاهدات تبعا لأسطورتي الأصل المشترك، والارتقاء التدريجي بالطفرة والانتخاب الطبيعي عنده؟ التحدي إذن هو في إظهار نظام عضوي معقد "لا يمكن تأويل تركيبه هو وغيره من النظم المشابهة على نحو يخدم أسطورة الارتقاء"، وهو ما اندفع دمبسكي وأصحابه لمحاولة جوابه، على شرط القوم في منطق استعمال النظر التجريبي كما سيأتي! ولكن واقع الأمر أن خلق الله تعالى من الكثرة والثراء والتنوع بما لن يعجز معه الباحث الدارويني عن تكلف البحث عن مشاهدات يمكنه أن يتكلف تأويلها كيفما يحلو له، فسيظل بإمكانه اختراع الخرافات في وصف الكيفية التي تدرج بها أي نظام حيوي في الترقي من نظام مشابه أقل تعقيدا منه مما يرون له نظيرا في مخلوقات الله تعالى، فكان ماذا، وإلى أي نهاية يصل ذاك العبث بين الفريقين وما محصلته؟ الحاصل من ذاك الجدال السوفسطائي (لقيامه على تسليم كلا الفريقين بمنطق نظري فاسد!) أن يصبح لدى الملحد مسوغ فكري واجتماعي للبقاء على داروينيته حتى يأتي الخصم "الخلقي" بمستند نظري يكفي لتحقيق شرط داروين في إسقاط نظريته، وما كان ليفعل أصلا (لفساد المنهج المعرفي نفسه الذي تناول به القوم تلك القضية الميتافزيقية المحضة!)، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فلا مخرج للعقلاء من ذاك المستنقع العفن إلا بترك طريقة المتكلمين في الخضوع لشروط فلاسفة الإلحاد في تأسيس المعارف الغيبية وبناء الأدلة وتحصيل المطالب العلمية في ذلك الشأن ونحوه، جملة واحدة! وإلا، فهنيئا لشياطين الإلحاد غرق خصومهم معهم في بحر العبث الفلسفي السوفسطائي الذي لا يعتزمون الخروج منه أصلا.

ولمزيد من بيان فساد ذلك المنهج التنظيري الذي يستند إليه الخلقيون، دعنا أولا نبدأ ببيان حقيقة بدهية مفادها أن كل صانع حكيم يصنع نظاما معقدا مركبا من أجزاء، فسيكون لديه حكمة وغاية وسببا لتركيب تلك الأجزاء على نحو ما ركبها، بقدر ما هو موصوف به من كمال الحكمة، وما هو سالم منه من خصال النقص والجهالة. فالصانع الذي يركِّب جزءا في صنعته المركبة من غير أن يكون له غاية أو وظيفة معينة فقد جاء بنوع من العبث والنقص بمجرد ذلك. هذه حقائق لغوية أولية لا تحتاج إلى إثبات. فإن كان كلامنا عن مخلوقات الرب الحكيم العليم الكامل في علمه وحكمته بالبداهة والضرورة، فلابد وأن جميع مخلوقاته سبحانه وتعالى – بلا استثناء - ليس فيها من الأجزاء

ما إن قدرنا ظهوره في العالم من دونها فلن تختل الوظيفة التي من أجلها صنعه رب العالمين كما صنعه! بل لابد أن يكون كل شيء صنعه له فيه حكمة وغاية وتقدير، فلا يتحقق الغرض والقصد من صنعه إلا بهذا القدر والتركيب تعيينا لا بغيره، كما في قوله تعالى ((اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ)) [الرعد : 8].

هذا المعنى صحيح وضروري في مخلوقات الباري جل وعلا، سواء علمنا نحن باستقراءاتنا البشرية المحدودة بوظيفة (أو وظائف) النظام الحيوي أو المخلوق وأجزائه أم لم نعلم (وما كنا لنبلغ منزلة الإحاطة بشيء من تلك النظم أصلا على أي حال، كما هو شرط الناقد الذي حررناه آنفا). فمن أين جاء قطعنا ويقيننا بصحة هذا المعنى؟ جاء من علمنا الفطري الضروري (الذي لا يحتاج إلى إثبات أو برهان أو نظر) بأن الباري له نظام محكم في كل شيء خلقه، وله حكمة وغاية من كل ما صنع، هذه القضية هي أساس المنطق الاستقرائي نفسه في الطبيعيات، وسبب توقعنا بظن قوي بالغ القوة أن تطلع الشمس غدا كما تطلع كل يوم، كما بينا في آلة الموحدين وغيره. فلولا أنها مركوزة في فطرتنا ووعينا البشري، ما جاز لنا التطلع لاكتساب المعرفة بأي نظام سببي أو قانوني في هذا الواقع المشاهد من حولنا، يصح أن يوصف بأنه سبب أو قانون أصلا! ولولا أن من الفلاسفة المتشككين (أمثال ديفيد هيوم) من بلغ به إلحاده إسقاط تلك الحقيقة البدهية وطرحها للاستدلال النظري، ما ظهرت في أدبيات الفلاسفة مشكلة الاستقراء The problem of Induction وما يتعلق بها من تشغيب وسفسطة على مبدأ السببية نفسه، كما بينا ذلك في غير هذا الكتاب!

ولكن هل هذا ما يقصده بيهي بتعريفه للنظام ذي التعقيد غير القابل للاختزال؟ هل يقصد أن كافة نظم الكائنات الحية تعقيدها محكم ومنضبط وخلف كل جزء منه غاية وسببا وتعليلا بالضرورة، بمقتضى مخلوقيتها نفسها، سواء علمنا نحن تلك الغايات والمقاصد والوظائف أم لم نعلم؟ الجواب لا! ليس هذا هو مقصوده من كون تعقيد النظم البيولوجية التي أخضعها لبحثه غير قابل للاختزال! ولو كان هذا قصده ما فرق تفريقا اصطلاحيا تعريفيا بين أنواع النظم البيولوجية، ساعيا في "إثبات وجود ذلك النوع من النظم المعقدة التي لا يمكن اختزال تعقيدها" باستعمال آلة الاستقراء التجريبي! وإنما بحسب كلامه، أن التعقيد غير القابل للاختزال هو ما نراه في كل نظام لو نزعت عنه جزءا من أجزائه فلن يأتي بوظيفته التي صنع من أجلها وإنما سيتعطل عن العمل بالكلية، مؤسسا ذلك المعنى على تعريفاتنا البشرية القاصرة لوظائف النظم الحيوية! فما عرفنا نحن في حدود علمنا الظني الضعيف أن وظيفته "غير قابلة للاختزال" فهو داخل في ذلك الصنف الذي يريد بيهي أن يثبت وجوده إمبريقيا، أما ما لم نعرف عنه ذلك، فهو ملزم بقبول منهج التجريبيين

في نفي "الذكاء" عن "تصميمه" المزعوم! وهو ما يعني أن بيهي قد اضطر – بمقتضى المنهج النظري نفسه الذي اختار استعماله في المسألة – إلى متابعة الملاحدة الطبيعيين في مغالطة نقل النقائص المعرفية البشرية في تصور آليات عمل النظم الطبيعية، من الذهن إلى الواقع الخارجي، على نفس معتقد صاحبه "دمبسكي" في مفهوم الوظيفية العضوية ومفهوم النظم الموصوفه بأن أصلها القانون الطبيعي أو الصدفة الوجودية وليس الخلق (أو على عقيدتهم: التصميم) كما بيناه آنفا.

فبينما يؤمن عقلاء المسلمين بأن النظم الطبيعية كلها (الحيوي منها وغيره) لكل واحد منها وظيفته الدقيقة (بل وظائفه) وغاياته عند الباري جل وعلا، التي لا تصح ولا تتم إلا بكونه على نحو ما هو عليه لا على غيره، ومن ثم فجميع النظم (أيا ما كان تعقيدها) غير قابلة للاختزال، بمعنى أنها لو جاءت إلى العالم على خلاف ما هي عليه (ولو باختلاف جزيء واحد من بنائها الذري الحالي) لما قامت بوظائفها المقصودة منها وغايات صانعها منها، بما في ذلك قطعة الصخر الراكدة في قلب البحر، أو تلك الثلة من ذرات الرمل المحمولة على متن الريح، التي لا يبدو لأي منا أن لها فائدة مخصوصة أو وظيفة معينة يمكننا تصورها، يؤمن بيهي وأصحابه في المقابل بأن الكائنات الحية فيها ما هو عشوائي النشأة (عشوائية أنطولوجية وجودية في الواقع نفسه) أو ما كانت نشأته تابعة للقانون الطبيعي الذي لا علاقة له بالخلق عندهم أصلا، وفيها كذلك ما يبدو – بالترجيح الاحتمالي - وكأنه نظام مصنوع "مصمم"، وهذا الأخير إنما يميزونه عن غيره بعدم إمكانهم تصور قيامه بوظيفته (المتصورة لديهم في حدود معرفتهم الحالية) بدون هذا الجزء أو ذاك من أجزائه!

لذا ترى بيهي يصرح في غير موضع بأن حجته التي ينتصر لها ليس مفادها القول بأن الارتقاء الدارويني لا يفسر أي شيء على الإطلاق، ولكن القول بأنه لا يفسر "كل شيء"! [77] فالرجل قد اجتمع في عقيدته – بمقتضى منهجه في بناء النظرية نفسها - أن يكون بعض الكائنات الحية من أصل دارويني، وبعضها الآخر من أصل "تصميمي"! بل وسمعته في لقاء تليفزيوني على شكبة سي إن إن يجيز أن يكون المصمم المزعوم كائنا فضائيا، أو بعض الزوار من المستقبل من البشر، قد زاروا الماضي السحيق في آلة الزمان ليزرعوا في الأرض تلك النظم المعقدة من تصميمهم واختراعهم! [78] ولو أنه صرح باعتقاده صحة هذا المعنى الذي حررناه الآن في اعتقادنا نحن المسلمين (وظني أنه لو عُرض عليه لفعل!) لتناقض بذلك تناقضا منهجيا عظيما! ذلك أنه لو فعل لما جاز له أن يطرح مسألة قابلية الاختزال هذه لنوع الاستدلال التجريبي من الأساس، إذ لن يكون ثمة فرق إذن في اعتقاده بين النظام المعقد والنظام قليل التعقيد، بل والنظام الذي لا نعرف له الآن وظيفة ولا غرضا أصلا، في كونها كلها مخلوقة على نحو مخصوص لغاية مخصوصة، لا

تتم إلا بكونه على هذا النحو بعينه لا على غيره، وإذن لسقط مفهومه لعدم قابلية الاختزال كمفهوم تجريبي طبيعي، بل لم ينهض معه من الابتداء!

هو يريد أن يقرر – من بعد الاستقراء التجريبي على طريقة أقرانه – أن أي نظام هذا هو وصفه (أعني على تعريفه هو لعدم قابلية الاختزال)، فمحال أن ينشأ عن آليات الارتقاء التدريجي، وإذن فلابد وأنه إنما ظهر في العالم على هيئته وتركيبه كما هو من أول يوم، دون أن يكون مسبوقا بنظام أبسط منه يقوم بنفس الوظيفة.

لذا أجابه الدراونة بأن الآلية الارتقائية الطبيعية لا يقتصر عملها – في تنظيرهم – على إضافة أجزاء جديدة، وإنما على تعديل وظائف بعض الأجزاء كذلك. وهو ما يعني جواز أن يظهر نظام بسيط مركب من جملة من الأجزاء التي لو أزلنا أي واحد منها من النظام المركب فسيتوقف النظام عن العمل، ثم يُطور ذلك النظام البسيط بزيادة أجزاء أخرى بطفرات عشوائية أو غيرها وزوال أجزاء وتغير وظائف أجزاء أخرى، ليصبح النظام أكثر تعقيدا، مع بقائه على نفس "وظيفته الأساسية" التي لو زال أي جزء منها لتعطلت بالكلية أيضا! وقد قاس القوم وضربوا لذلك أمثلة لا داعي لذكرها، وإنما المقصود بيان أن مورد الفساد في تعريف بيهي وشرطه أنه يطالب الخصم الدارويني بممارسة المزيد من صور تطبيق أصله الإبتسمي الكلي الذي به بنيت نظرية الارتقاء نفسها من الأساس: تأويل المشاهدات على نحو يخدم الفلسفة الداروينية في تصور أصول أنواع المخلوقات وبناء أجزائها وتركيب نظامها، وهو بالضبط ما جاء به القوم في الرد عليه! دع عنك أنه يختزل مفهوم الخلق الإلهي نفسه في بناء نظم يمكننا أن نحكم – بعلمنا المحدود في تعريف وظائفها العضوية – أن أي جزء منها إن نزع عنها فستتعطل تلك الوظيفة! هذا ما إن رأيناه – كباحثين طبيعيين – جاز لنا عنده أن نجعله دليلا على أن الله تعالى قد خلق شيئا مما في هذا العالم (وهو ما يكتمل تصوره عند الخلقيين بإعمال مبدأ دمبسكي في النظم المعلوماتية المحددة المعقدة CSI)! فهنا يطرأ السؤال: ما تعريف "الوظيفة الأساسية" Basic Function ومن أين جاء أصلا؟

نقول إن الحقائق البدهية الأولى الأساسية التي يقوم عليها المنطق الاستقرائي نفسه، تشتمل بالضرورة على القول بأن الباري عند الغاية من العلم والحكمة، وأنه لا يضع شيئا من خلقه إلا في موضعه الصحيح. من هنا يأتي مفهوم الوظيفية العضوية Organic Functionality من الأساس. فبالتأسيس على هذه الحقيقة البدهية لا على خلافها، يجوز للعاقل أن يتوقع من تكرار حصول الارتباط الظرفي Correlation بين الحدث البيولوجي Biological Event المعين والحدث السلوكي الظاهر للكائن الحي محل البحث، بناء على تكرار المشاهدة، ما يثبت لديه نسبة الوظيفة السلوكية للعضو أو الجهاز أو النظام الحيوي المعين، ثم بالتبعية، مجموع الوظائف

الجزئية التي تتعرف منها الوظيفة الكلية للعضو، على أساس من الترجيح الاحتمالي المتفاوت في قوة الظن الاستقرائي. والقصد أننا لو لم نستصحب – بالضرورة – التسليم بالنظامية البيولوجية Biological Regularity كمبدأ كلي من البداية، لم يصح لنا ادعاء الوظيفية نفسها في أي عضو أو نظام حيوي على الإطلاق! فنحن العقلاء نبدأ بحقيقة الخلق والتدبير التام المحكم كأساس، ثم نستقرئ الوظائف ونفترضها افتراضا بالبناء على ذلك الأساس.

ولكن على طريقة الخلقيين، تنعكس الآية وينعكس المنهج، ليصبح افتراضنا للوظيفية على نمط قياسي معين، طريقا للقول بمطلق وجود الباري الخالق الذي لم يجعل شيئا في صنعته إلا لعلة وسبب ووظيفة! فإذا كان الطبيعيون الماديون الملاحدة قد تناقضوا تناقضا محضا بادعائهم أن الاستقراء في الطبيعيات يصح طريقا لإثبات العشواء والفوضى واللاسببية في أصول النظام الطبيعي والحيوي، فالخلقيون قد اختاروا التلبس بالدور المنطقي، لاختيارهم الابتداء من نفس الجهة التي ابتدأ منها الملحد (إعمال المنطق الاستقرائي في المشاهدات)، بغرض الوصول إلى إثبات ما لا يصح في العقل إلا أن يكون هو الأساس الكلي للمنطق الاستقرائي نفسه! فنحن نقول إن هذا المنطق (أعني استعمال المنطق الاستقرائي في إثبات حصول "التصميم") إنما يصح إعماله على المخلوقات ذات الفعل والصنع والتصميم، لأننا نقطع من البداية (في مسلمات الفطرة وضروريات العقل الأولى) بأنها مخلوقة مربوبة مفتقرة لغيرها، وأن ما نراه في أعمالها (التي كانت هي السبب المباشر فيها) من أنماط نظامية Systemic Regularities (يصح بها أن ننسب إليها العمل التصميمي بناء على نظام معلوماتي معين) إنما نعرف حصوله ونسبته إليها نوعا (من الابتداء) من طريق الاستقراء والقياس على الأشباه والنظائر! فعندما نرى – على سبيل المثل – تركيبا صخريا يشبه أن يكون سلما (مثلا) بدرجات متتالية كلها لها نفس التشكيل الهندسي، فإننا نميل إلى افتراض أن يكون هذا النظام من صنع إنسان مثلنا لأننا نعلم بالقياس والاستقراء وتكرار المشاهدة أن هذا الصنف من النظم يصنعه البشر لغاية كذا وغرض كذا مما يصح أن تحيط علومنا بمثله. هذه الدعوى النظامية المطردة ننسبها إلى نوع مخلوق (كسبب فاعل مريد، أو ما يسميه دمبسكي بالسبب الذكي) بتطبيق المنطق الاستقرائي الاحتمالي لأننا قد تكرر في عادتنا وتجربتنا البشرية نسبة مثلها إلى مثله. ولكن عندما نتكلم عن خالق السماوات والأرض وما بينهما، فنحن نتكلم عمن كان وجوده سببا في معقولية المنطق الاستقرائي الاحتمالي نفسه، وفي جواز افتراض النظامية واطراد السببية في كل ما نرصد تكراره من الظواهر من حولنا على هذا النحو أو ذاك! لذا كان مجرد إعمال المنطق الاستقرائي الاحتمالي في إثبات كونه خالقا صانعا لهذا النظام الحيوي أو ذاك = هو محض تشبيه الأفعال وقياس الخالق على المخلوقين!

كثيرا ما يضرب التصميميون مثلا لفكرة التعقيد غير القابل للاختزال هذه بمصيدة الفئران، يقول قائلهم إن من أجزائها ما لو أزلناه فلن تعمل كمصيدة فئران! فيجيبهم الدراونة بقولهم: وما المانع من أن نتصور شيئا كانت له وظيفة أخرى (كثقل تثبيت الورق على المكتب مثلا أو كدبوس للقميص أو الكرافات!) قد تطور عشوائيا بزيادة جزء جديد اتفق أن أكسب النظام بكليته وظيفة جديدة (كوظيفة اصطياد الفئران) فانتخبته الطبيعة للبقاء بسبب قيامه بتلك الوظيفة الجديدة؟ وفي محاكمة دوفر المشهورة، بين "كينيث ميلر" أن مصيدة الفئران التي ضرب بها بيهي مثله المشهور، إن قدرنا وجودها بدون الجزء كذا والجزء كذا، فإنه لا شيء يمنع من أن ينتخب النظام المتبقي وينتقى للقيام بوظيفة ماسك للكرافات! فلو قدرنا أن ظهرت أجزاء ذلك الماسك القبيح بطفرات عشوائية وانتخبته الطبيعة لقيامه بتلك الوظيفة، ثم ظهرت بالطفرة العشوائية أجزاء جديدة اتفق أن مكنته من القبض على الفئران، فستنتخبه الطبيعة حينئذ ليصبح مصيدة فئران، ولا إشكال! وإذن فمن الممكن نظريا أن تفترض سلسلة لطفرات عشوائية معينة، كان النظام مع كل واحدة منها سابق التكيف pre-adapted للقيام بوظيفة معينة، لم تزل تتغير مع كل طفرة، بما يجعلها محلا للانتخاب الطبيعي في كل مرة لوظيفة مختلفة! فإذا كان الأصل في ظهور الأجزاء والأعضاء الجديدة أنه أمر عشوائي محض (كما هو الأصل الدارويني الذي قبله بيهي وارتضاه)، فلابد أن يكون الأصل في ظهور الوظائف الحيوية كذلك وتحول النظام من وظيفة إلى وظيفة، هو العشوائية المحضة! وإذن يبقى الأمر على أصله الدارويني ولا يظهر ما يدعو للزوال عن ذلك الأصل أبدا!

فعندما جوبه بيهي بهذا الرد، أجاب بأن هذا يقتضي تغييرا تصميميا في النظام بكليته، لأن وظيفة كل جزء من أجزائه إذن تتبدل لتناسب الوظيفة الجديدة للنظام بكليته. والحق أنه سواء اختلفت الوظيفة الأولى أو بقيت كما هي، فلن يعجز الدراونة عن ادعاء آلية داروينية محضة لنقل النظام القديم الذي يصح فيه شرط بيهي إلى نظام جديد يجري عليه شرط بيهي أيضا، ولا إشكال! لماذا؟ لأن شرط بيهي نفسه إنما تأسس على شرط داروين كما مر معك، ألا وهو "جواز اختراع التأويل الدارويني للظاهرة المشاهدة"! والحق أن اشتراط ظهور مشاهدة ما بحيث يمتنع تأويلها على نحو يوافق النظرية الغيبية حتى يثبت بطلانها أو حتى نقصها وافتقارها إلى ما يكملها (كما كان هو غاية موقف بيهي وهجيراه)، إنما هو فخ منهجي نصبه داروين ووقع فيه بيهي وقوع الفأرة في المصيدة! فإنه لا يزال من الممكن عقلا أن يأتي صاحب النظرية الغيبية بتأويلات يفترض من أجلها مزيدا من المزاعم الميتافزيقية بأقيسة جديدة تجعل المشاهدة – أيا ما كانت – تبدو موافقة للنظرية لا مخالفة لها! [79] حتى وإن اضطر إلى تأويل المشاهدة بفرض أن أداة الرصد لم تكن محكمة الضبط أو أن خطأ ما قد وقع عند إعداد التجربة!

فما الذي استفدناه من ذاك العبث في النهاية؟ اختزلنا العلل والغايات والمقاصد والحكم الربانية السابغة في تركيب خلقه (الذي لا نتصور حدا لتعقيده ودقته أصلا) في تشبيهها بتصميم مصيدة الفئران، وفي حدود ما ظهر لنا من وظائف بعض النظم بالغة التعقيد فيما سموه "بالماكينات الجزيئية" Molecular Machines على نحو يجعل من المخلوق حكما على تلك العلل والغايات في أفعال خالقه رب العالمين (التي يشهد على نفسه بالضرورة بأنه لا يحصيها)، يخضعها لأقيسته وتأويلاته الخرافية الإلحادية، حتى يضع مقياسا يقول به هذه تدل على "التصميم" و"الذكاء" وهذه تدل على الصدفة والعشواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

والحاصل مما جرى به مجرى النزاع بين بيهي وخصومه، أن تحولت تلك الفكرة البدهية البسيطة التي يعلمها كل عاقل بالضرورة، ألا وهي أن كل نظام، أيا ما كان الغرض من صنعه، لابد وأن يكون مصنوعا من أول مرة بترتيب معين وتركيب معين وهيئة مخصوصة حتى يقوم بوظائفه والأغراض المقصودة من صنعه أيا ما كانت على النحو الصحيح، وأنه لو فقد أي جزء من تلك الأجزاء التي يتركب منها النظام لتخلف بالضرورة عن القيام ببعض أو بجميع غايات صاحبه من صنعه، تحولت تلك الفكرة البدهية إلى مسألة نظرية بيولوجية ينتصر فيها للرأي والرأي المقابل باستعمال التأويلات الداروينية (الجارية على بعض أصول البارادايم الدارويني على الأقل) للمشاهدات البيولوجية عند كلا الفريقين! فترى بيهي ينشر الأبحاث محاولا إثبات أن الوظائف الحيوية للنظم الجزيئية لا تنشأ في العادة تبعا للطفرات العشوائية، وينسى أن هذا هو نفس المطلب الذي يخاطب به الدراونة فيما يتعلق بنشأة الأعضاء الجديدة نفسها، فيجيبون عنه بتلك الآليات والنظريات التي يقبلها بيهي إجمالا فيما عدا تلك النظم التي اختص بدراستها في علم الأحياء الجزيئية، التي سماها تحكما وتخصيصا بغير مخصص أنها "غير قابلة للاختزال"! فما كان جوابه عن تلك المسألة في المستوى الكبير -Macro level question فهو جوابهم عن نظيرها الذي طرحه هو على المستوى الجزيئي! وينسى بيهي كما ينسى خصومه أن أصل المشكلة فلسفي ميتافزيقي محض، وأنه يرجع إلى البارادايم الدارويني نفسه Darwinian Paradigm (الذي انتظم بيهي في التنظير تأسيسا عليه، خلافا لما يظنه من لم يفهم فلسفة الرجل ومنهجه)، وإلى جملة مفاهيم أولية معتمدة في ذلك البارادايم يجب أن توضع تحت النقد العقلي أولا قبل أن تؤخذ إلى المعامل، كمفهوم "الوظيفة" Function و"العضو" Organ و"النوع" Species و"الترقي" Evolution و"التكيف" Adaptation و"التطفر" Mutation و"الانتخاب" Selection وغير ذلك، لا أن توضع النظريات التفسيرية لأصول "الأنواع" و"النظم" وتوضع النظريات المقابلة جريا على تلك المفاهيم الكلية

نفسها، ثم تطرح النظريات للبحث المعملي طلبا لتأويل للمشاهدات يعضد هذه النظرية أو تلك أو يقلل من احتمالية ثبوتها!

فمن أعجب العجب، مثلا، أنك ترى داروين في كتابه "في أصل الأنواع" يعرف النوع في صفحة 52 فيقول: "هو مجموعة من الأفراد تتشابه فيما بينها تشابها قريبا" [80] فمن الواضح جدا بادي الرأي أن هذا التعريف مجمل أشد الإجمال، وأنه غير مانع البتة! وهذه الحقيقة وحدها تكفي أي باحث مدقق لإسقاط الكتاب كله دون تكلف قراءته! رجل كتب كتابا سماه "في أصل الأنواع"، ثم عرف النوع بذلك التعريف الهزيل، فحق هذا أن يقال له من الابتداء: اذهب يا هذا وأحكم تعريف الشيء الذي تقصده "بالنوع" Species أولا قبل أن تتكلف تأليف كتاب ووضع "نظرية" في توصيف أصوله ومنابته في ماضي الأرض البعيد! وحسبك دليلا على أنه غير مانع، أننا يمكننا بكل سهولة أن نقسم أعراق البشر لنجعلها أنواعا متباينة Species جريا على هذا التعريف، فنجعل الأسود الإفريقي نوعا، والأحمر الأمريكي نوعا ثانيا، والأصفر الآسيوي نوعا ثالثا، وهكذا، لا أن هذه كلها تنوعات عرقية في صفات أفراد النوع الواحد: نوع الإنسان! ولو أن داروين فعل هذا [81]، لوضع الأفارقة السود كحلقة وسطى – في تاريخه الطبيعي – بين الإنسان والهومينيد، غالبا، كأولاد عمومة للنوع الذي ينتمي هو إليه، مثلهم في ذلك كمثل القردة والشيمبانزي بالنسبة للإنسان في نظريته!

فكما ترى، فإن تعريفه للنوع بناء على "التقارب الشكلي" لا يمنع من ذلك! لا يمنعنا من نأتي إلى أي نوع اعتبره هو نوعا واحدا، ثم نفرق تحته بين فئتين تتباينان في بعض الصفات الدقيقة المشتركة بين أفرادهما، نجعلهما نوعين منفصلين! وبناء على هذا التعريف غير المانع، زعم داروين أن ما أجراه في معمله من تجارب تهجين بين الطيور Artificial Breeding كانت تنتج "أنواعا" جديدة وإن كانت لا تختلف إلا في تقوس المنقار وطوله (مثلا)! ومن ثم طرد داروين قياسه وزعم أن جميع الأنواع الحية قد نشأ بعضها عن بعض رجوعا إلى سلف مشترك، بسبب تعديلات طبيعية تجري على الصفات الوراثية عبر أجيال النوع الواحد، كتلك التي أحدثها هو على الطيور في معمله! ولو أنه جعل تعريف النوع عنده بحيث يكون ما رآه من تغيرات في تلك الصفات من أثر عملية التهجين التي قام بها، غير ناهض بإحداث "نوع" جديد، وإنما يعد تنوعا فئويا في إطار النوع الواحد، فلو أنه جعل التنوعات التي شهدها منشئة لفئات أو أعراق مميزة Races / Sub-species تحت النوع الواحد، أو لأنواع جديدة تحت جنس كلي واحد (مثلا)، لما استند إلى تلك المشاهدات كدليل على صحة دعواه نشوء الأجناس الكلية نفسها بالتغير التدريجي نزولا من أصل واحد مشترك! واليوم يزعم الدراونة المعاصرون أن ما يرونه من تغيرات تكيفية تجري على الباكتيريا تحت تغير الظروف

المعملية التي هي فيها، هي من جملة أدلة التطور والأدلة على ظهور الأنواع الجديدة كلها على أثر تعديلات طفيفة! فإن قلنا لهم إن ما جعلتموه أنتم نوعا Species نجعله نحن فئة من الفئات المتباينة داخل النوع الواحد، أو بعبارة الرياضيين يقال: ما جعلتموه أنتم مجموعة كلية Set جعلناه نحن مجموعة جزئية Subset، فبأي حجة بمكن أن يبطلوا كلامنا؟ فتأمل كيف أن تعريف النوع Species إذا تغير، تغيرت معه النظرية تغيرا جذريا!! [82]

فالواجب أن يُرجع الأمر إلى نصابه بالحجاج العقلي الصريح فيما يتعلق بالمطلب الغيبي المحض الذي رام داروين وأصحابه أن يستكشفوه من طريق القياس الطبيعي في تلك المفاهيم! وهو ما لو تكلفه بيهي كما كان حقه أن يفعل، لنقض تلك الأصول الكلية التي أسس عليها نظريته نفسها، وهو ما لا نرجوه منه ولا نتوقعه!

ففيما يتعلق بمفهوم الوظيفة العضوية أو الحيوية Biological Function، فمن الواضح الجلي الذي لن تجد أحدا من الأحيائيين يجرؤ على النزاع فيه، أن استيعاب جميع الوظائف الحيوية لنظام من النظم أو لعضو من الأعضاء (أيا ما كان تعريفنا لذلك النظام أو العضو، وهي مسألة أخرى!) هو أمر لا يحيط به العلم البشري ولا ترجى الإحاطة به أصلا! وما أكثر ما نسمع بيهي في محاضراته يقول ما معناه أن علماء الأحياء في القرن التاسع عشر الميلادي كانوا لا يرون في الخلية الحية Cell شيئا أكثر من كونها مجرد قطعة جيلي ميكروسكوبية الحجم، ثم لما تطورت أدوات الاستكشاف وتدقيق الفحص والملاحظة والمشاهدة المعملية خلال القرن التالي، أصبحنا نعلم أن الخلية فيها من الوظائف البيوكيميائية (الكيميائية الحيوية) الدقيقة بالغة التعقد، ما لم يكن يحلم به أوسع علماء القرن التاسع عشر خيالا، وأنه لو كان داروين يعلم ما علمه أهل هذا الزمان لظهرت له "حدود" نظريته!

قلت: فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا تأبى يا دكتور بيهي إلا أن تقترف نفس الجناية التي اقترفها داروين على المعرفة البشرية يوم وضع نظريته التفسيرية الغيبية جريا على تصور أهل عصره القاصر للوظائف الحيوية، لتضع نظريتك أنت على مفهوم عصرك أنت القاصر أيضا – بالضرورة، وإن كان أحسن حالا من تصور السابقين – للوظيفة الحيوية؟ إنه مما لا يخفى على عاقل، أننا لن نؤسس إثبات أو نفي "التعقد القابل للاختزال" كما عرفه بيهي عن أي نظام حيوي إلا بعدما نضع تعريفا ما لتلك الثلة من الأجزاء البيولوجية التي اجتزأناها إبستمولوجيا تحت اسم "النظام الحيوي" Biological System، ثم نستوفي العلم الكاشف بكافة الوظائف الحيوية التي يقوم بهذا ذلك النظام، بعدما نتفق على تعريف ما لما يصح أن يعتبر "وظيفة حيوية" وما لا يدخل تحت ذلك الاسم، ثم نلجأ بعد ذلك للتجريب في المعمل، فننزيل هذا الجزء أو ذاك لنرى ما يترتب على ذلك من جريان تلك الوظائف أو تعطلها أو

تحولها! هذا هو الترتيب المنطقي الصحيح الذي لا يتصور لتلك الدعوى ثبوت أو انتفاء إلا به!

فما هو النظام الحيوي إذن وما تعريفه؟ المسألة عند التدبر ليست بتلك السذاجة والسهولة التي يتوهمها بيهي عندما يضرب مثله المشهور بقياس النظام الحيوي الجزيئي على مصيدة الفئران الخشبية! فمن الواضح أن مصيدة الفئران هذه نظام مغلق Closed System أو نظام مستقل، قد عُلمت وظيفته الكلية علما جازما منصرما، لأن الذي قام بتصميمها قد قرر جميع الغايات والمقاصد المطلوبة من كل جزء منها على نحو يقصر عملها المستهدف من التصميم ومن النظام بكليته عند تشغيله على أن تقبض على الفأرة إذا ما اتفق لها المرور عليها! فليس من المحتمل أن ينشكف لنا في يوم من الأيام – مثلا – أن السوستة التي تحرك قطعة المعدن القائمة بمهمة القبض على الفأرة، لها اتصال وظيفي بصورة ما أو بأخرى لم نكن نعلمها بقطعة الخشب التي تقوم مقام القاعدة للمصيدة، وأن كلتا القطعتين تشتركان في نظام وظيفي آخر لم نكن نعلمه، في إطار ماكينة أكبر حجما! هذا غير متصور في إطار تعريفنا البشري لوظيفة ذلك المصنوع البشري المحدد Human Artifact لأننا نحن الذين صممناه على هذا الوجه لا غيره وعرفنا الوظائف التابعة Sub-functions لكل جزء منه على هذا النحو لا غيره، فكان عندنا من العلم الكاشف بالوظائف المتعلقة بتلك الأجزاء والعلاقات الرابطة فيما بينها ما يمكننا من أن نقول إن هذه المصيدة لن تقوم بالوظيفة المقصودة من تصميمها إن قدر أننا أزلنا منها أي قطعة من القطع التي تتركب منها! فهو في النهاية نظام نحن من قام بتصميمه، ونحن من ركب كل جزء منه حيث رُكب، خدمة لغرض تصميمي نحن من قررناه!

ولكن من الواضح الجلي أننا لسنا نحن من خلق الخلية الحية، وإنما دخلنا نحن البشر القاصرون الجاهلون على ذلك الخلق الرباني الباهر البديع، نفحصه تحت المجهر، نجتزء منه الأجزاء ونقسم فيه التقاسيم ونشاهد ونتأمل في هذا "الجزء" ونتدبر في ذاك، لعلنا نفهم كيف تعمل أجزاؤه فيما يظهر لنا من أعمالها، وفيما نعلم ونشهد – ضرورة – بأن ما خفي منه عنا أعظم مما ظهر! ولمصلحة فهم تلك الأجزاء على نحو ننتفع به وتطيقه عقولنا البشرية القاصرة، لم نجد أمامنا بدا من قياس تلك الأجزاء على الماكينات التي هي من صنعنا، رجاء أن نصل إلى تصورات مجتزأة مغرقة في الاختزالية Reductionism لأنواع الأعمال (أو إن شئت فقل الوظائف) التي تقوم بها تلك الأجزاء، لعلنا نتمكن – بتمكين الباري جل وعلا لنا وبتسخيره أسباب ذلك لنا – من أن نقبض على شيء من الأسباب الجارية في الجسم البشري لنعالج بها مرضا أو نصلح بها خللا (فيما يبدو لنا)! فنحن في ذلك أشبه ما يكون بثلة من الرجال العمي، يمسك أحدهم بخرطوم الفيل فيعامله معاملة خرطوم

المياه، ويمسك أحدهم بذيله فيعامله معاملة الحبل المثبت في الجدار، ويمسك أحدهم بأذنه فيعامله معاملة المنديل المتدلي، ويتحسس بعضهم بطنه فيعاملها معاملة الجبل أو التل الحجري، يقيس كل منهم ما يطاله حسه من أجزاء الفيل على ما يتصوره من الأشياء التي تشبهه!

فإذا كان ذلك كذلك، فلابد ألا ينطبق على أي نظام نبحثه من تلك النظم الربانية المذهلة، ما ينطبق على مصيدة الفئران من وصف بأنها نظام مغلق قد أحيط به علما! كانوا في القرن قبل الماضي يحسبون الخلية قطعة رخوة من الجيلي لا أكثر، واليوم تغير تصورهم لما شهدوا من عمل فائق للجزيئات والبروتينات على اختلاف أنواعها داخل الخلية تحت الميكروسكوب! فليت شعري أي شيء يكشفونه غدا؟! ما يدرينا ما الذي سيكتشفه الفيزيائيون قبل انصرام هذا القرن الذي نحن فيه، إن قدر أن انفتح لهم باب البحث في العلاقات الكمومية تحتالذرية – مثلا - بين الجسيمات الدقيقة في تلك النظم الحيوية الجزيئية التي نعاملها الآن بجهلنا، وبمقتضى اختزالية ذلك القياس الميكني نفسه Mechanical Analogy في تعريف النظم الحيوية، وكأنها جزر لا اتصال فيما بينها، أو وكأن كل واحد منها قد صنع وحده وخلق وحده كجهاز مستقل، ثم ركب في الخلية الحية تركيبا؟

نحن نقول إن القياس الاجتزائي والاختزالي عند محاولة دراسة تلك النظم الربانية المعقدة وفهمها فهما تفصيليا، لا مفر لنا منه في إطار المدرسة التجريبية الغربية Western School of Empirical Research. وهذا مدخل مقبول مبدئيا طالما كان الغرض محاولة استكشاف واستكناه ما هو ظاهر من السنن السببية التي وضعها الله تعالى في الأجسام وأجزائها. ولكن عندما يكون مقصود الباحث التجريبي هو التوصل إلى تفسير لنشأة ذلك النوع نفسه من الابتداء، أو إلى تصور للكيفية التي صار بها خلقه على ما هو عليه لا على غيره، فإن مجرد مبدأ القياس حينئذ يصبح مرفوضا بالكلية، وتصبح الأقيسة الاجتزائية (كقياس ما يجري على المستوى الجزيئي داخل الخلية على الماكينات Machines) مفضية – مبدئيا - لتشبيه الأفعال وقياس صنعة الباري جل شأنه على صناعات البشر المخلوقين لا محالة، وتحويل النقص المعرفي البشري بالنظام المبحوث إلى صفة لذلك النظام نفسه وجوديا! فالوظيفة الحيوية إنما تعرفها أنت – أيها الباحث التجريبي في علوم الأحياء - تعريفا أداتيا محضا Instrumental يخدم أغراضك البشرية المحدودة من دراسة هذا العضو أو ذاك أو هذا النظام أو ذاك، فلا يضرك ما أنت واقع فيه لا محالة من الاختزال والاجتزاء وإهمال ما الله به عليم مما هنالك في نفس الأمر! وهذا لا يضيرك ما دمت تعرف حدودك وحدود الآلة التي بين يديك! وإنما تضار أشد الضير إن سولت لك نفسك أن تجاوز قدرك وقدر تلك الآلة التي بين يديك، فتزعم إمكان استعمالها في الوصول إلى تصور الكيفية التي صنع (أو

نشأ) بها هذا النظام أو ذاك بعد أن لم يكن، جريا على أيما تعريف اخترته لنفسك للنظام الحيوي ووظيفته أو وظائفه! ثمة غيب محض عظيم بالنسبة لك، قد اختزلته أنت اختزالا مدمرا، بمجرد أن تكلفت قياس هذا الجزء الذي بين يديك من صنعة الرب جل وعلا، على شيء قد صنعته أنت بيديك، لتقول إنه ما كان من المتصور أن ينشأ (بعد أن لم يكن) إلا على نحو كذا أو نحو كذا، لأن "التصميم" يقتضي ذلك!

نحن نقطع كما يقطع به كل عاقل بأن كل نظام رباني من النظم الحيوية مصنوع لوظيفة ما أو لغرض ما (كما هو الواجب في صنع الله تعالى الذي أتقن كل شيء)، وفيه أجزاء لا يحصل ذلك الغرض أو تلك الوظيفة الكلية للنظام إلا باجتماعها فيه أو إلا باتصافها بصفة معينة، فإنه ليس من المتصور لرب العالمين أن يخلقه إلا وقد اكتملت فيه تلك الأجزاء وتلك الصفة! حتى الرجل يولد ناقص الخلقة، بذراع واحدة أو قدم واحدة، هذا نحن نقطع بأنه لا يكتمل المقصود الإلهي والغرض الرباني من خلقه في هذا العالم كما هو مراد رب العالمين وتقديره، إلا بأن يكون على تلك الهيئة لا على غيرها، وعلى ذلك التركيب لا على غيره، وعلى ذلك النقص والعجز الذي خلق به لا على غيره! يولد الرجل بأربعة أصابع في يده فنقول هذا هو أتم وأكمل ما يحصل به المقصود الإلهي من خلقه هو بعينه (وليس خلق نوعه)، ويولد بستة أصابع فنقول هذا هو أتم وأكمل ما يحصل به المقصود من خلقه هو بعينه كذلك، ولله الحكمة السابغة! وأما الأحيائي الدارويني فيتخذ من جهله بالحكمة والعلة من ذلك النقص أو الزيادة في هذا الفرد أو ذاك من أفراد النوع المخلوق، دليلا على أنه ليس بمخلوق أصلا وليس وراءه صانع حكيم! وبنفس المنطق الاختزالي الوجودي الذي تشبع به الخلقي التصميمي، ترى بيهي وأصحابه يقولون كذلك إن تلك الحالات إنما هي راجعة إلى أصل العشواء الوجودية (التي هي نقيض الغاية والقصد والترتيب الوجودي الذي نؤمن به نحن المسلمين)، خلافا لما كان من نظم تتصف عنده بأنها "غير قابلة للتفسير باستخدام الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي" (أو باصطلاح بيهي: غير قابلة للاختزال)، فهذا النوع هو ما يقال عنده إن له وظيفة ما كان من الممكن أن يظهر في الوجود إلا وهو مستكمل أسبابها، ومن ثم يترجح احتماليا أن يكون من ورائه "مصمم ذكي" لابد أنه خلقه بما يناسب تلك الوظيفة من أول يوم!

وهذا ما يجعلنا نسأل بيهي: بناء على أي تعريف من تعريفات الوظيفة Function والتعقد Complexity، قبلت يا دكتور بيهي أن يقال إن هذا النوع من أنواع النظم الحية تعقده قابل للاختزال، على أساس أنه من الممكن إزالة بعض أجزائه بما لا يؤثر في وظيفته الكلية، وأما ذاك النوع في مقابله فهو معقد تعقدا قابلا للاختزال، أي أنه لا يمكن إزالة شيء منه إلا تعطلت

وظيفته بالضرورة، ومن أين يأتي ذلك التعريف؟ نحن نقول إنه ليس في العالم الحيوي (البايوسفير) أي نوع من أنواع المخلوقات أو النظم الحيوية إلا ولابد أنه قد نشأ من البداية نشأة لا نقص فيها ولا زيادة عما هو لازم لقيامه بالغاية والوظيفة التي خلقه الله من أجلها، العضوي منها وغير العضوي، المادي منها والغيبي، ما يظهر لنا من وظائفه وما لا يعلمه إلا الله! هذه مسألة بدهية يترتب على نفيها أو تقييدها نسبة النقص إلى رب العالمين، الذي قال في محكم التنزيل ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7]! فعلى هذا المعنى، تكون جميع النظم الحيوية "غير قابلة للاختزال" Irreducible بالضرورة، لأن البداهة تقضي بكونها كلها من صنع حكيم عليم، قد أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل شيء صنعه، فلا يكون من المقبول الزعم بأن الآليات الداروينية القائلة بالعشواء الوجودية Ontological Chance وبالجريان اللاغائي Ateleological لعمليات الطبيعة (المفترق للغاية العليا)، تفسر نشأة أي نوع من أنواع النظم الحيوية على الإطلاق! أما الارتقائيون الخلقويون التصميميون أمثال بيهي وغيره، فليس هذا المعنى عندهم بدهيا ولا ضروريا، وإنما هم أصحاب نظرية بيولوجية يحاول أصحابها أن يخصصوا عموم التفسير الدارويني ويقيدوا إطلاقه باستعمال نفس الأدوات واقتحاما لنفس القضايا الغيبية، مستصحبين نفس التعريفات البارادايمية، فيما عدا تعريف التعقد الوظيفي Functional Complexity الذي هو محل التقييد والتعديل عندهم، فإذا أثبتوا صانعا، لزمهم أن يجعلوه ناقصا نقص البشر الصانعين، جاهلا بما يجهلونه هم من أمر النظام الحيوي، خاضعا لما يخضعون له هم من نظام الطبيعة فيما يصنعون، متكيفا في صنائعه مع عشوائيتها الوجودية المتأصلة فيها بزعمهم، فهو يقع في ملكه ما لا يملك عليه سلطانا ولم يكن من صنعه أصلا، سبحان الله عما يقولون علوا كبيرا.

وحتى يتضح الأمر للقارئ الكريم، فإننا نسأل بيهي: لماذا لا تكون العين أو جناح الطائر أو القدم أو اليد نظاما داخلا في تعريفك لما هو "معقد تعقدا غير قابل للاختزال"، بمعنى أن لكل عضو من تلك الأعضاء وظيفة معلومة لدينا، لم يكن ليقوم بها كما هو مطلوب إن قدر فُقد جزء من أجزائه عند نشأته الأولى؟ لماذا قبلت من الدراونة زعمهم النقص والانحطاط ثم الترقي التدريجي في أصل خلقة تلك الأعضاء؟ [83] أليس من الظاهر أن اليد البشرية لو فقدت أصبعا من أصابعها لم تعمل كيد بشرية، وأن جناح الطائر لا يعمل كجناح طائر إن قدر أن فقد فيه مفصل من المفاصل أو عظما من العظام التي يتركب منها؟ وأن العين البشرية لو فقدت شبكيتها أو عدستها – مثلا – لم تعمل كعين بشرية، وأن قدم الإنسان لو فقدت العقب أو الأصابع لم يكن من الممكن أن يقف عليها صاحبها كما هو المقصود منها .. إلخ؟ الجواب بلى! فما الفرق إذن؟ الفرق أيها القارئ الكريم هو أن داروين وأصحابه تمكنوا من

اختلاق تفسيرات تطفرية استعانوا فيها بما شهدوه في بعض الأنواع الحية الأخرى من أعضاء مشابهة ولكنها أقل فيما يبدو لهم في درجة "التعقد"، بناء على تعريف ساقط "للتعقد" Complexity يجعل من النظم الحيوية والأعضاء الأقل في عدد الأقسام والأجزاء التي تتركب منها في تقديرهم، نظما أحط وأعضاء أحقر بيولوجيا بالضرورة Less Evolved (جريا على ما استصحبه من اعتقاد مفاده أن جميع الأنواع لابد أنها ترقت من نوع بالغ الغاية في الانحطاط والوضاعة والبساطة، فيما سماه "بشجرة الحياة العظيمة")! فبناء على ذلك التعريف، فكلما كان العضو أو النظام الحيوي "أعقد" كان "أرقى"! فلما أراد داروين، على سبيل المثال، أن يفسر الدقة البالغة التي تظهر بجلاء في تركيب العين البشرية، من طريق آليتيه الدهريتين (التطفر العشوائي والانتخاب الطبيعي)، بحث عن أنواع أخرى غير الإنسان، فيها أعضاء تقوم بما يشبه أن يكون هو وظيفة الإبصار، ثم بين باستعمال نفس المعيار في تعريف "التعقد العضوي" Organic complexity، أن تلك العين "المعقدة" في الإنسان لابد وأنها ترقت من نظير تلك الأعين الأقل تعقدا التي تظهر في أنواع أخرى!

ولكن من الواضح أن عين الإنسان تقوم بوظيفة الإبصار على نحو وكيفية تصلح للإنسان ولمقاصد الإبصار اللائقة به، ولا تصلح للصرصور أو الذبابة أو الحوت أو الصقر مثلا، كما أن عين الوطواط تصلح لمقاصد عملية الإبصار في الوطواط على نحو وكيفية ما كانت لتصلح للنحلة أو للفيل، ولا كانت لتصلح للإنسان ولا لتليق به! فإذا نظرنا في كل عين من تلك الأعين وجدناها بالضرورة هي أحسن وأكمل ما يحصل به المقصود من الإبصار في صاحبها، كل نوع بحسبه، وهذا المعنى نراه من البدهيات والضروريات، التي يقتضيها الجزم البدهي بكمال الصنعة الإلهية، ذلك العلم الذي لولا دهرية داروين ما خفي عليه! عين الوطواط تبصر وعين السمكة تبصر وعين الإنسان تبصر، لكن شتان ما بين إبصار وإبصار وإبصار، من حيث المقصد المطلوب حصوله منه في كل نوع بحسبه، ومن ثم الكيفية التي يحصل بها الإبصار في كل نوع بحسبه، ومن ثم صفة "وظيفة الإبصار" Function of Sight في كل نوع من تلك الأنواع، وهذا واضح!

ولكن لو قال داروين إن كل نوع حي مهما بدا "بسيطا" [84] فهو مع ذلك متكيف على أحسن وجه مع بيئته ولا يفتقر إلى عضو جديد أو إلى وظيفة ما أو إلى تحسين لما عليه هيئته وصورته ونظمه الحيوية حتى يحصل المقصود من خلقه في بيئته التي يعيش فيها، فعينه تكفيه ولا يحتاج إلى غيرها، ويده تكفيه ولا يناسبه غيرها، ورجله تكفيه ولا يصلح له سواها .. إلخ، لو أنه اعترف بهذه الحقيقة الجلية الواضحة، لسقط عليه تأسيسه لأسطورته المنمقة المفصلة في ترقي الأنواع من النوع "الأنقص" إلى النوع "الأكمل" تحت تأثير

الطفرات والزيادات العشوائية التي "تنتخبها" الطبيعة نظرا لكونها تحسن من أسباب بقاء النوع الحي وأسباب تشعبه وتنوع أفراده! من هنا لزم في الباردايم الدارويني أن يكون النوع الأقل في درجة "التعقد" سلفا للنوع الأعقد، والعضو الأقل في درجة التعقد سلفا للعضو الأعقد، مع أن تعريف الوظيفة نفسه (من حيث التفصيل والمقصود) ينبغي أن يختلف اختلافا عظيما من عين إلى عين ومن يد إلى يد ومن جناح إلى جناح! فلا يكفي – لأغراض الباحثين في علوم الأحياء عامة - عندما نعرف وظيفة عين الإنسان تعريفا بيولوجيا أن نقول إنها عضو الإبصار فيه، كما نقول الشيء نفسه في عين الوطواط مثلا! فالوظيفتان وإن اشتركتا في المعنى الكلي إلا أن الكيفية – التي هي محل البحث – تختلف اختلافا يجعله من غير المتصور بحال من الأحوال أن يقال إن كلا العينين يرجعان إلى سلف عضوي مشترك له نفس "الوظيفة"، ولكنه كان "أبسط" منهما جميعا!

فلماذا لم يقل بيهي في العين وارتقائها المزعوم نظير ما قاله في الماكينات الجزيئية الدقيقة؟ لماذا قبل الأسطورة الداروينية في ترقي العين، واكتفى بطرح السؤال حول مصدر الحاسة البصرية نفسها في الخلايا الحية، أو الآلية الجزيئية التي كانت سببا في "نشأة" الحساسية الضوئية في أول كائن أحادي الخلية ظهرت فيه بحسب الأسطورة الداروينية؟ أليس بوسع الدراونة – من حيث المبدء والمنهج التنظيري – أن يقولوا في ذلك المصدر الجزيئي للحساسية الضوئية في الخلايا البصرية، نظير ما قالوه من هذيان بشأن ترقي جهاز العين نفسه؟ الجواب واضح! فلماذا فرق بيهي هذا التفريق ولم يقل في العين نفسها نظير ما قاله في الآلات الجزيئية التي تنشأ عنها الحساسية الضوئية المسؤولة عن حاسة البصر، فيجعل العين نظاما غير قابل للاختزال (على نفس المفهوم)، ومن ثم يسقط القصة الداروينية لترقي العين من أولها لآخرها؟ ألا يكون هذا تفريقا بين ما يقتضي منهج التنظير المنتمي إليه كلا الفريقين اعتباره من المتساويات؟

بلى! ولهذا انتقده البيولوجي الأمريكي "كين ميلر" في قياس مصيدة الفئران وقال إن من الممكن تصور اجتماع بعض أجزاء المصيدة على وظيفة أخرى سابقة على وظيفة المصيدة (أي قبل أن يتفق لها اكتمال أجزاء المصيدة ومن ثم انتخابها لتعمل كمصيدة)، كأن تكون دبوس كرافات أو ثقل للورق أو دبوس مكتب أو نحو ذلك، ثم لما اتفق أن ظهرت فيها القطع الإضافية، واتفق أن قبضت على الفئران صارت مصيدة للفئران، فبأي شيء أجاب بيهي؟ أجاب بأن مجرد اجتماع أجزاء النظام (أي نظام) على وظيفة معينة يقتضي أن يكون كل جزء منها معدا إعدادا مخصوصا ليقوم المجموع بتلك الوظيفة، فإن قدرنا أن أراد مصممها أن يغير وظيفتها، فلن يكفيه أن يضيف جزءا جديدا غالبا وإنما سيحتاج إلى تعديل كافة الأجزاء مع ذلك حتى تصلح كلها

لاستكمال أسباب الوظيفة الجديدة، وهو ما يمتنع معه أن يحصل ذلك التحول بالطفرات والانتخاب! وهذا كلام معقول جدا وصحيح ولا شك، ولكن السؤال هنا: لماذا لم يلتزمه في مسألة العين (مثلا)؟ لماذا لم يقل إن "عين" الكائن أحادي الخلية (التي لا تزيد على أن تكون موضعا له حساسية ضوئية في الستيغما الخاص به) تحتاج أجزاؤها إلى تغييرات وظيفية جذرية حتى تنتقل إلى المرحلة التالية في مراحل الترقي المزعوم، لتقوم بمهمة الإبصار على نحو مختلف تماما عما يحدث في الكائن أحادي الخلية (إن سلمنا بتسمية حساسيته الضوئية إبصارا)؟؟ ولماذا لا يلتزم بالنقد نفسه في جميع ما زعمه الدراونة من أساطير التطور والترقي في مختلف الأنواع والأعضاء والنظم الحيوية، دقيقها وجليلها؟

السبب أيها القارئ الكريم، هو أنه لو سوى بين تلك المسائل، فسيسقط عليه أساس نظريته نفسها، ولن يبقى ثمة حدّ تنتهي عنده آليات داروين، وتبدأ عنده آلية "التصميم الذكي" التي ما أثبتها إلا بتمييزها عن آليات داروين العاملة في غير ما سماه "بالنظم المعقدة تعقدا غير قابل للاختزال"! السبب أنه يجب أن يتمكن من تقديم الفوارق الإمبريقية بين ما يسميه "بالنظم القابلة للاختزال" وبين ما يسميه "بالنظم غير القابلة"، حتى يثبت أن ما بين يديه هو نظرية "علمية"! ثم إنه كان يعلم أن أسطورة الترقي المزعوم للعين قد قتلت بحثا وتنظيرا عند الدراونة، بداية من داروين نفسه، خلافا لمسألة الماكينات الجزيئية البيوكيميائية في الخلايا الحية، التي لم يكن داروين يعلم عنها شيئا في زمانه! فلو أنه أراد أن يهدم نظرية داروين كلها من أولها إلى آخرها، لاحتج بالعقل على جميع أساطير التطور الدارويني بنفس المنطق! ولكنه أراد أن يضيف إلى النظرية لا أن يهدمها!

قال بيهي في كلمة له في مؤتمر عقده مركز ديسكوفري الخلقوي Discovery Institute في سنة 1996 الميلادية [85]: "باستعمال منطق كهذا (يعني منطق داروين في تفسير نشأة العين بالترقي من أصل منحط)، أقنع داروين كثيرا من قرائه بأن المسارات الارتقائية تنقل من أبسط المواضع الحساسة للضوء (في الكائن أحادي الخلية) إلى العين المعقدة الشبيهة بالكاميرا في الإنسان. ولكن يبقى السؤال قائما: كيف بدأت حاسة الإبصار نفسها؟ لقد استطاع داروين أن يقنع أكثر الناس بأن العين الحديثة قد ترقت بالتدريج من هياكل أبسط منها، ولكنه لم يحاول أن يفسر المصدر الذي جاءت منه نقطة البداية للحصول على ذلك الموضع الخلوي الحساس للضوء (في الخلية)." اهـ.

قلت: فالآفة في نظر بيهي كما ترى ليست في القصة التي أقنع بها داروين أكثر الناس بالكيفية المزعومة لترقي العين البشرية من سلف "منحط"، وإنما هي في جهل داروين في زمانه بالبايوكيمستري، ومن ثم عجزه عن تفسير

المصدر الذي جاءت منه حاسة الإبصار نفسها في خلايا الإبصار بداية من أول نقطة في تاريخ الترقي المزعوم! وهنا يقدم بيهي "إضافته العلمية الثورية" لنظرية داروين، فيقول إن أصل تلك الحاسة في الكائن أحادي الخلية الذي بدأت به قصة الارتقاء (أسطورة التاريخ الطبيعي المزعوم)، لا يمكن أن يكون قد ترقى من بدايات منحطة كما حدث مع "تشريح" العين نفسها، لأن النظم الجزيئية الدقيقة (أو الماكينات، بحسب قياس البيوكيميائيين) التي يحصل بها الإبصار والحساسية الضوئية في الأنواع الحية، بداية من الكائن أحادي الخلية الذي يعتقد بيهي - تبعا لأساتذته الدراونة - أنه هو أول كائن حي ظهر على الأرض، هذه النظم ليس "من المتصور" أن تكون قد نشأت إلا على تلك الهيئة وبذلك التركيب المعقد، لأنها إذن ما كانت لتعمل أصلا. ولكن من الواضح الجلي أن نظام الإبصار في الإنسان ما كان ليعمل على النحو الذي تحصل به أغراض الإنسان من الإبصار (بحسب المفهوم الصحيح لتعريف وظيفة الإبصار بيولوجيا في نوع الإنسان)، لو قدر أن خلق الإنسان وفي عينه أو في عصبه البصري أي جزء ناقص! وعلى تقدير أن من أعضاء الجهاز البصري في الإنسان ما لو نزعناه منه لم تتأثر عملية الإبصار عنده فيما يظهر لنا على الإطلاق، فلا يعني هذا أن جهاز الإبصار إنما هو نظام معقد تعقيدا "قابلا للاختزال"، وإنما يعني أن ذلك العضو لم يكن من الصحيح اعتباره جزءا من أجزاء الجهاز البصري من الأساس، وأنما يوجد حيث يوجد لعلة أخرى الله أعلم بها، حسية كانت أو غيبية، بيولوجية كانت أو غير ذلك.

قال بيهي في كلمته التي تقدم النقل منها: "الآن وقد انفتح الصندوق الأسود للإبصار، لم يعد من الكافي للتفسير الارتقائي Evolutonary Explanation لتلك القوة أن يتعامل فقط مع البنية التشريحية للعين بكليتها، كما صنعه داروين في القرن التاسع عشر، وكما لا يزال مروجو نظرية الارتقاء يفعلون إلى اليوم. فإن كل خطوة من الخطوات والهياكل التشريحية التي ظنها داروين بسيطة للغاية، إنما تشتمل في الحقيقة على عمليات بيوكيميائية معقدة تعقيدا مذهلا لا يصح أن يدفن تحت الكلام الخطابي. فإن خطوات داروين البسيطة قد تبين لنا الآن أنما هي خطوات عملاقة أنها قفزات عملاقة بين ماكينات مصنوعة صناعة محكمة. فعلم الكيمياء الحيوية يشكل الآن تحديا دقيقا لداروين. قد فتح الآن الصندوق الأسود للخلية، وانكشف للناس عالم دقيق من التعقد المذهل الذي يجب تفسيره." اهـ.

قلت: فالقضية عنده ليست في أصل الفلسفة الداروينية (البارادايم التفسيري نفسه)، ولكن في عجز النظرية الحالية كما هي – في زعمه – عن تفسير تلك المشاهدات الجديدة التي لم تكن متاحة لداروين في زمانه! ولا شك أن طرح القضية على هذا النحو يدل إما على جهل عميق بالفساد المنهجي الكلي الذي يعاني منه هذا النوع من النظريات، أو على هوى متجذر

في النفس يجعلها تقبله على علم بفساده. ذلك أنه عندما يكون موضوع التنظير الطبيعي أمرا غيبيا محضا، كمسألة الكيفية التي خلقت بها الأنواع الحية بعد أن لم تكن وخلقت فيها أعضاؤها، فإنه لا مجال لوضع الافتراضات التفسيرية في مثل ذلك لأنه لا متسع للقياس أصلا! فإذا استجاز المرؤ لنفسه أن يطرق تلك المسائل بوضع الفرضيات القياسية أيا ما كانت، فلا فرق إذن بين قياس وقياس، ولا تترجح نظرية على نظرية عند القوم، إلا بمزيد من الأقيسة والتأويلات التي لا مرجح لشيء منها على خلافه! أي أنه لا مفر من تكافؤ النظريات في تأويل المشاهدات Indetermination والتلبس بمغالطة Affirming the Consequent في تطبيق المنطق التفسيري، ما دام الموضوع كما وصفنا!

ولهذا فليس مما تنتقض به نظرية كنظرية داروين، أن يقال إنها الآن تخلو من تفسير لنشأة تلك النظم الجزيئية البيوكيميائية المعينة، بحيث يكون جاريا على منهجها الكلي ومتناسقا منطقيا مع سوابقها التفسيرية فيما سوى ذلك من أنواع النظم الحيوية! فإنه لن يعجز القوم عن اختراع الأساطير والأوهام في هذه المسألة كما اخترعوها في غيرها من قبل ولو بعد حين، وعن جعلها تبدو في غاية التناسق مع سوابقها، وفي غاية الانضباط على منهج النظرية في التفسير، ومستكملا شرطهم في استجماع المشاهدات التي تؤول عندهم على حسب ذلك القياس، كما كان ذلك منهم في مئات الآلاف من التفاسير التي ظن السفهاء منهم أن مجرد قدرتهم على استخراجها من النظرية والاستكثار منها والإغراق فيها وجمع بعضها إلى بعض، هو في نفسه دليل على صحة النظرية! فموضوع التنظير نفسه ومنهجه القياسي لا يُعجز أصحاب النظرية عن تكلف ذلك كما لم يعجزهم من قبل، وهذا أمر يعلمه بيهي علم اليقين! [86]

قال داروين في كتاب الدراونة المقدس "في أصل الأنواع" عند كلامه عن مبدأ تفسير خلق العين ارتقائيا، في باب ترجم له بقوله "الأعضاء ذات الكمال والتعقد الفائقين":

> إن افتراض كون العين، بكل تلك القدرات المذهلة على تعديل البعد البؤري لمسافات متفاوتة، وعلى السماح بمقادير متفاوتة للضوء بالدخول، وعلى تصحيح الزيغ الكروي واللوني، من الممكن أن تكون قد نشأت من طريق الانتخاب الطبيعي، هذا أمر أعترف بأنه يبدو سخيفا إلى أبعد مدى. فعندما قيل لأول مرة إن الشمس ثابتة في محلها والعالم هو الذي يدور، أعلن البشر بحدسهم بطلان ذلك الاعتقاد. ولكن كما يعلم كل فيلسوف، فإنه لا يمكن في العلم Science الوثوق في تلك المقولة القديمة التي تقول: "ما يتفق عليه الجماهير فلابد أن يكون هو الحق الإلهي" Vox Populi, vox Dei!

فالعقل يدلني على أنه لو أمكن إظهار وجود عدد من التدرجات Gradations من العين البسيطة المنحطة Imperfect إلى العين المعقدة الكاملة perfect، بحيث تكون كل درجة منها نافعة لصحابها، كما هي الحال قطعا، وإذا كانت أشكال العين لا تزال تتنوع، ولا يزال ذلك التنوع يورث عبر الأجيال، كما هي الحال كذلك قطعا، وإذا كانت تلك التنوعات من الممكن أن تكون نافعة لأي حيوان تحت ظروف الحياة المتقلبة، فعندئذ لا تصبح صعوبة تصديق القول بأن عينا كاملة الخلقة بالغة التعقد يمكن أن تكون قد نشأت من طريق الانتخاب الطبيعي، أمرا مما يضر النظرية.

والكيفية التي يصبح بها العصب حساسا للضوء، هذه ليست أهم عندنا من الكيفية التي نشأت بها الحياة نفسها، ولكني أنبه إلى أنه كما يمكن لبعض الأنواع الحية الأدنى Lowest Organisms التي لا يظهر فيها أي أعصاب أصلا، أن تدرك الضوء، فإنه لا يبدو أمرا محالا أن تتجمع في بنيتها بعض العناصر الحساسة وتتطور حتى تصبح أعصابا، تمتلك تلك القدرة الخاصة (الإبصار).

قلت: فمع أن بيهي مر على هذا النص مرارا في قراءته كتاب داروين، إلا أنه لم يعترض منه إلا على قول داروين "والكيفية التي يصبح بها العصب حساسا للضوء، هذه ليست أهم عندنا من الكيفية التي نشأت بها الحياة نفسها". فلماذا لم يعجبه هذا الكلام؟ لأنه يرى أن حاسة الإبصار لها كيفية لم يكن داروين ليتصورها في عصره، وهي كيفية تتطلب إضافة لنظرية داروين حتى تفسرها، لا نقضا لها. ولا شك أنه محق في تجهيل داروين بكيفية عمل حاسة الإبصار في الخلايا الحية، فداروين لم يكن لديه أدنى دراية بالعمليات البيوكيميائية الجزيئية الدقيقة التي تجري في أي خلية من خلايا تلك الأعضاء التي زعم بكل غطرسة أنها قد نشأت كلها عن أصول منحطة Imperfect! ولكن ليست هذه هي الطامة في منهج داروين ولا هي النقيصة التي تستدعي النقد والاعتراض، إذ ليس فساد تلك النظرية في أنها تفتقر لتفسير نشأة النظم الجزيئية الدقيقة داخل الخلية، وإنما يظهر فسادها في أصل منهج التفسير نفسه، في إصرار داروين على اقتحام الغيب برأيه ووهمه واختزال الخلق الإلهي والصنعة الربانية الباهرة، التي قال الرب فيها: ((هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ)) الآية [لقمان : 11]، التي كان يعلم بالضرورة والبداهة أنما هي غيب محض لا نظير له في تجربتنا وعادتنا البشرية فيما نراه من حوادث الصنع والتركيب، بادعاء قدرة الباحث الطبيعي على "تفسيرها" بالقياس الطبيعي بأيما طريق كان ذلك! فالآفة كل الآفة والفساد كل الفساد في تجويز ذلك المسلك النظري من الأساس، لا في الكيفية التي استعمله بها داروين في تفصيل نظريته!

فقد ورث داروين الاعتقاد الكلي بأنه يجب أن يكون لدى الفيلسوف الطبيعي أقيسة على ما في الشاهد، يمددها في جهات الزمان والمكان ليستوعب بها جميع ما في الغيب، فلا يبقى شيء مغيب إلا طالته نظريته، حتى يتأسس الاعتقاد الغيبي لديه ولدى أتباعه على الطبيعية المنهجية المحضة Methodological Naturalism التي هي رأس مصادر التلقي في الغيبيات عند الطبيعيين الدهرية، من زمان طاليس اليوناني وإلى يوم الناس هذا! وهو ذلك المنهج النظري الكلي، أو الطريقة الأصولية، أو إن شئت فقل نظرية المعرفة Epistemology التي قبلها الخلقويون النصارى وانتظموا عليها، وما كانوا ليرفعوا بنقضها رأسا ولا ليخرجوا عليها! لقد كان داروين متنبها إلى الفارق بين الأنواع الكلية Species وما سماه بالتنوعات داخل النوع الكلي الواحد varities، كما يظهر ذلك في الفصول الأخيرة من كتابه "في أصل الأنواع"، وكان مدركا لحقيقة أنه ما توصل لنظريته إلا بتجويز قياس نشأة الأنواع الكلية على الطرق التي شوهدت لنشأة "التنوعات" في النوع الواحد، وقياس نشأة أصول الأعضاء في الأنواع الكلية، على ظهور التنوعات الدقيقة المشاهد ظهورها في صفة وهيئة تلك الأعضاء نفسها بين أفراد النوع الواحد وأفراد "تنوعاته"! وقد اتخذ داروين من معقولية ومشروعية ذلك القياس الغيبي المحض أمرا مسلما به، وتابعه أتباعه على ذلك، ولكن على أي شيء أسس الرجل ذلك التسليم المنهجي لديه؟ هذا ما لن ترى الخلقويين يتعرضون له يوما من الدهر ولا يطرحونه للنظر والمساءلة، لأن نظريتهم وفلسفتهم تقوم عليه قياما كليا!

المصيبة والطامة الكبرى، أيها القارئ الكريم، التي ما كان بيهي وأصحابه ليعترضوا عليها في الفقرة المنقولة آنفا، هي في قول داروين: " فالعقل يدلني على أنه لو أمكن إظهار وجود عدد من التدرجات Gradations من العين البسيطة المنحطة Imperfect إلى العين المعقدة الكاملة perfect، بحيث تكون كل درجة منها نافعة لصحابها، كما هي الحال قطعا، وإذا كانت أشكال العين لا تزال تتنوع، ولا يزال ذلك التنوع يورث عبر الأجيال، كما هي الحال كذلك قطعا، وإذا كانت تلك التنوعات من الممكن أن تكون نافعة لأي حيوان تحت ظروف الحياة المتقلبة، فعندئذ لا تصبح صعوبة تصديق القول بأن عينا كاملة الخلقة بالغة التعقد يمكن أن تكون قد نشأت من طريق الانتخاب الطبيعي، أمرا مما يضر النظرية." اهـ فبناء على القياس الغيبي الذي استجازه داروين، اتخذ الرجل لنفسه تعريفات ميتافزيقية لما سماه "بالتدرجات" Gradations ولما سماه بالانحطاط Imperfection في مقابل ما وصفه بأنه رقي وكمال Perfection، وما وصفه بأنه النفع لصاحب العين سواء كانت على وصفه منحطة أو راقية، لا يُجوز لنفسه ذلك كله إلا بناء على ملاحظة وجود التنوع الذي تتوارثه الأجيال لهيئات وصفات آلات الإبصار في كل نوع! فما هو موقف العقلاء الأسوياء، صحاح العقل والفطرة، من هذا المنهج

الكلي الخبيث، ومن الاجتراء على وصف صنعة الباري جل وعلا بأن فيها أنواع منحطة متخلفة Imperfect تفتقر إلى الترقية مرة بعد مرة؟

جدير بالذكر أن بيهي لم ينتبه إلى أن داروين يتناقض في هذا الكلام إذ يصر على وصف الأنواع التي هي بزعمه "أبسط" Simpler بأنها منحطة بيولوجيا، بينما يقرر في نفس الوقت أن العين المركبة في كل نوع، تنفع ذلك النوع وتقوم بأغراضه من استعمالها كما هو مشاهد معلوم مقطوع به! فإذا كان ذلك كذلك، فبأي وجه يقال إنها منحطة Imperfect، ومن أين إذن يأتي المعيار أو المقياس الذي به يحكم على العين المركبة في نوع ما بأنها أحط من العين المركبة في نوع آخر؟؟ المعيار هو اعتقاد داروين أن الوفرة والتنوع والتعقيد البالغ في الأنواع المخلوقة، لابد وأن يكون قد نشأ بصورة تدريجية جريا على قياسه الذي ذكرناه آنفا، بأن تبدأ الأنواع كلها بنوع منحط، ثم تتابع الطفرات العشوائية عليه عبر بلايين السنين، فيكون الأصل فيها هلاك ما لا يصلح للتكيف وإنشاء نوع جديد Speciation، واستمرار و"تطور" ما يصلح لذلك، ليمضي التنوع في مزيد من الترقي حتى يصل أخيرا إلى أرقى وأعقد الأنواع على الإطلاق: النوع البشري! فما كان هذا القياس الأسطوري الفاحش ليتم لداروين حتى يقرر وصف أنواع معينة من المخلوقات بأنها منحطة، وبأن أعضاءها منحطة غير تامة الصنع Imperfect في مقابل أنواع أخرى يصفها بأنها كاملة Perfect أو راقية Evolved، لا على شيء إلا على أساس ما يظهر له في النوع الثاني من وفرة في الأعضاء والأجزاء الظاهرة، خلافا للنوع الأول، ومن ثم يخرج علينا بقياسه الساقط ويقول، لابد أن تكون هذه الأنواع الكاملة قد ترقت من نظائر تلك الأنواع المنحطة!

وقد يقول القائل ها هنا إن القرآن قد جاء بوصف خلقة آدم وتقويمه على أنه أحسن تقويم، فدل ذلك على أن التقاويم في الخلق الإلهي تتفاوت، فيكون بعضها أحسن من بعض، وإذن فلا تثريب على داروين إن قال إن من الأنواع ما هو منقوص منحط! وجواب ذلك أن يقال إن إثبات التفاوت في الحسن وكمال الخلقة لا يلزم منه إثبات الانحطاط والتخلف في أنواع أخرى من مخلوقات رب العالمين! وإنما هو التفاوت في إطار الكمال اللائق بصنعة الرب جل شأنه. ونظير ذلك المعنى ما ثبت في القرآن والسنة من إثبات التفاضل بين الرسل، كما في قوله تعالى: ((تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)) الآية [البقرة : 253]، فهم متفاضلون في المنزلة، مع كونهم جميعا موصوفين بما يليق برسل الله جل وعلا من الصفات، ولا يلزم من التفاضل نفي ذلك عنهم. ونظيره كذلك إثبات التفاضل في كلام الله جل وشأنه، كما في قوله: ((مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا)) الآية [البقرة : 106]، وكما جاءت السنة بإثبات فضائل مخصوصة لآيات مخصوصة وسور مخصوصة من القرآن، فنقول إن

بعض كلام الله أفضل من بعض وخير من بعض، لكن لا يلزم من ذلك بحال من الأحوال، أن يقال إن من آيات القرآن ما لا يتصف بالكمال اللائق بكلام رب العالمين. فكذلك يقال في خلق الله وتدبيره أنه محكم كامل الكمال اللائق برب العالمين جل شأنه، فليس فيه شيء إلا وهو متقن تام الإتقان، موضوع في موضعه الصحيح بلا زيادة ولا نقصان، منضبط على المقاصد والغايات والحكم الإلهية في خلقه تمام الانضباط. فلا ينفى عنه ذلك المعنى مهما ثبت فيه من التفاوت في حسن الهيئة والتقويم، لأنه من مقتضى كمال صفات الباري جل شأنه. وداروين ما نسب أصل الأنواع إلى الانحطاط التام في نظريته إلا لجريانه على أصل الدهرية المنهجية في الإثبات والنفي، وعري نفسه عن الاعتقاد برب كامل الصفات، لا يتطرق إليه النقص بحال من الأحوال، ولا يجوز قياس الكيفية التي صنع بها خلقه على الطرق التي يسلكها البشر في صناعتهم ما يصنعون، بأن يبدؤوا بتجربة المصنوع جريا على "تصميم" ناقص منحط ثم يرقوه بالتدريج خطوة بعد خطوة بعدما يتبين لهم تخلفه عن أداء المطلوب! ولهذا نقول إن نجاح الفكر التطويري والتصميمي في ترقية صناعات البشر ليس دليلا من قريب ولا من بعيد على أنه هو الذي خضع له صنع رب العالمين في خلقه هذا العالم وما فيه من الأحياء والجمادات، وإنما هو ما نتوقعه لأنسفنا نحن البشر القاصرون الناقصون بموجب مخلوقيتنا ومربوبيتنا وخضوعنا لما سنه الله في هذا العالم من سنن كونية ماضية لا محالة علينا وعلى ما تصنعه أيدينا! أما رب العالمين جل شأنه فلا "يصمم" قبل أن يخلق، ولا يجرب شيئا فيفشل فيه ويضطر إلى تعديله حتى يكون أنسب لنظام الطبيعة، سبحانه وتعالى عن ذلك كله علوا كبيرا! ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7]، فلكأني بهذه الآية نزلت في الدراونة والتطويريين والتصميميين ومنا شاكلهم، والله المستعان على ما يصفون!

فلماذا نطيل النفس في نقض أصول داروين وتعريفاته الأولى، ونحن في مقام الكلام على نظرية يزعم بعض الناس أنها تهدم نظرية داروين هدما، فتردها قاعا صفصفا؟ لأنهم إنما أسسوا نظريتهم تلك على نظرية داروين نفسها على الحقيقة، وعلى كلياتها الأولى وتعريفاتها الميتافزيقية ومنهجيتها القياسية، فلا قيام لها إلا عليها كما ترى!

كثيرا ما ينقل بيهي فقرة من كتاب "في أصل الأنواع" ويعلق عليها بما معناه أن داروين نفسه قد وصف ذلك الاكتشاف الذي إن وقع فستبطل به نظريته، إذ يقول داروين في ص. 189 [87]: "إن أمكن بيان وجود أي عضو معقد بحيث لا يمكن أن يكون قد خلق من طريق عدد كبير من التعديلات الدقيقة المتتابعة، فإن نظريتي ستنهار بالكلية. لكن لست أجد حالة كهذه." اهـ. فيعلق بيهي بقوله إنه قد تمكن أخيرا من تحقيق ذلك الشرط، ألا وهو بيان أن بعض

الأعضاء المعقدة لا يمكن أن تكون قد خلقت على ذلك النحو الذي جاءت به نظريته. قلت: ولكن بالنظر إلى موضوع النظر (غيب الخلق الإلهي الأول) وطبيعة النظر (القياس على الشاهد)، فمن غير المستغرب أن يقول داروين إنه لا يجد حالة كهذه التي وصف! وإنما المستغرب أشد الاستغراب، أن يأتي بعض تلامذته من بعده ليقول إنه قد عثر أخيرا على تلك الحالة التي جعلها داروين شرطا لسقوط نظريته! لم ولن يأتي أحد من الناس باكتشاف هذا وصفه، لأن النظرية تنتهج نهجا في التنظير لا يمتنع معه استخراج قياس يناسبها لتأويل كل مشاهدة تستجد في نظام البايوسفير بجملته، أيا ما كانت! فإذا تعذر استخراج ذلك القياس لأي سبب من الأسباب، اعترض القوم على من يريد نقد النظرية بقولهم إنه يريد إثبات عدم الوجود من طريق عدم العلم، أو ما يسمى بمغالطة Argument from Incredulity (يقال: ليس عندكم الآن علم بتأويل صحيح لهذه المشاهدة أو تلك، وإذن فلا يمكن التأويل على نظريتكم، وإذن فالنظرية كلها باطلة)! يعترضون بذلك الاعتراض وهم واثقون من أن التأويل سيأتي لا محالة، وسيتناسق مع ميثولوجيا القوم لا محالة، جاريا على منهجهم في بنائها لا محالة، وإنما هي مسألة وقت لا أكثر!

يقول داروين في الصفحة التالية مباشرة (ص. 190)، وكأنما يرد على تعليق بيهي: "ينبغي أن نكون على حذر بالغ في استنتاج أن عضوا ما لا يمكن أن يكون قد خلق من طريق التدرجات الانتقالية بصورة ما أو بأخرى. فقد استفاضت بين الحيوانات الدنيا Lower Animals حالات للعضو نفسه يقوم بوظائف مختلفة تماما في نفس الوقت!" اهـ. قلت: وإذن، فليس ثمة مانع من حمل أي مشاهدة بالتأويل على ذلك القياس مهما كان العضو محل البحث عجيبا وبالغ الدقة والتعقيد في تركيبه! فلا إشكال على الإطلاق عند التطوريين في افتراض أن يكون النظام قائما في حيوان من الحيوانات بوظيفة ما، ثم يترقى بزيادة جزء إضافي ليقوم بوظيفة أخرى مغايرة بالكلية، سواء ترقى الحيوان نفسه إلى نوع جديد على أثر ذلك أم تحول إلى تنويعة جديدة من تنويعات النوع نفسه! وهو ما سلكه خصوم بيهي في الرد عليه وألزموه بقبوله إلزاما لا فكاك له منه، ما دام جاريا على أصول نظرية داروين المنهجية في الإثبات والنفي في تلك البابة، ملتزما بحدودها وتعاريفها الكلية البارادايمية، وبإعمالها على جميع ما سوى تلك النظم الجزيئية المعقدة من أنواع النظم الحيوية! ووجه الإلزام كما بينا: إما أن تجري قاعدة ومبدأ التفسير الدارويني على كل نظام حيوي بلا استثناء، وأنت إذن "عالم" تستحق مكانا في أكاديمياتنا الطبيعية، وإما أن تنزع التفسير الدارويني عن كل شيء وتتركه بالكلية، وأنت إذن فيلسوف لاهوتي مارق لا محل له بيننا! ونقول إنه يلزمه لزوما واجبا لأنه فرق بين النظم الحيوية تفريقا لا أساس له إلا التحكم المحض، في جعل بعضها جاريا على تعاريف داروين البارادايمية، والبعض الآخر جاريا على تعديلات أحدثها هو على تلك التعريفات!

وهذه المسألة في الحقيقة ترجع إلى أصول القوم في فلسفة العلم وفي منهج الإثبات والنفي عند الطبيعيين في قضايا النشأة Origins. فكل من وافقهم على تلك الأصول الكلية والمعرفية، لزمه قبول طريقة داروين نفسه وطريقة من سلكوا مسلكه في قياس حوادث نشأة الأنواع والأعضاء والنظم الحيوية كلها، على التحولات المزعومة في وظائف النظام الواحد أو العضو الواحد، وأن يجعلوا ذلك هو التفسير الأرجح والأحرى بالقبول، بالنظر إلى موافقته للبارادايم الدارويني من جانب (التعريفات الكلية وأنواع الأقيسة المستعملة في بناء النظرية)، وملاءمته للمعايير الاتفاقية Conventionalist criteria التي عليها القوم في ترجيح النظريات على بعضها البعض في أبواب الغيب المحض، ولمذهب المعيارية التناسقية في قبول ورد النظريات Coherentist Epistemology، من الجانب الآخر! فعلى منهج الطبيعيين في اقتحام الغيبيات كلها بالأقيسة الطبيعية الصرفة، وعلى أنطولوجياهم الدهرية التي تختزل الواقع كله في صنفين كليين من أصناف الحوادث لا ثالث لهما: الحادث القانوني الطبيعي (الخاضع سببيا للقوانين الطبيعية) والحادث العشوائي المحض الذي لا يحكمه قانون ولا يضبطه نظام، يكون القول بأن جميع الأنواع الحية إنما نشأت على الأرض بفعل قوانين عمياء تحكم الحركات العشوائية لمكونات المادة الميتة، هو الأساس الأنطولوجي الكلي الذي تنبع منه الفرضيات التفسيرية والأقيسة المنتخبة لتأويل المشاهدات كافة، والذي عليه قامت نظرية التطور من أصل مشترك من أولها إلى آخرها، وعليه تأسست آلية الانتخاب الطبيعي وآلية الطفرة العشوائية (أي التي لا ترجع إلى نظام طبيعي ما) كطريقين كليين لإنشاء جميع الأنواع الحية من كائن مزعوم أحادي الخلية! أما الطريق الأول فغايته أن يقرر هلاك ما لا يتفق له التكيف مع القانون الطبيعين، وبقاء ما يتفق له ذلك، وأما الثاني فيفسر ظهور الموافق وغير الموافق بالتغير الوراثي الذي يقاس على تلك الطفرات التي نراها تحدث دون فعل بشري!

فعندما يأتي من يقول إنه ملتزم بقبول هاتين الآليتين كأصل في إنشاء الأنواع الحية من بعضها البعض، ثم يأتي إلى بعض النظم الحيوية ويقول إنها تبلغ من التعقيد غير القابل للاختزال ما يوجب أن تكون قد ظهرت على طفرة واحدة، مكتملة الأجزاء، ومن ثم أن نثبت لها – بخصوصها – صانعا "ذكيا" هو الذي خلقها بتلك الطفرة الخاصة، ثم يقابل صاحب هذا "الفرض" الضخم (أنطولوجيا) الوضوع لتفسير تلك الفئة من المخلوقات أو النظم الحية بخصوصها، باعتراض مفاده أن ذلك التعقد البالغ غير القابل للاختزال لا يقتضي إثباته، امتناع استخراج تفسير له يجري على آليتي داروين المذكورتين بلا زيادة ولا تعديل، ثم يقدم تفسيره الجاري على هذين الأصلين بلا زيادة في الافتراض الغيبي، ودون أن يفرق بين "البسيط" من المخلوقات و"المعقد" منها تفريقا تحكميا لا مستند له، كان المتعين على صاحب تلك الدعوى أن

ينزل عنها ويقبل منه ذلك التفسير، لأن مجرد إثبات عدم امتناع الإتيان بتفسير داروينى (ذلك الامتناع الذي هو غاية دعوى من يريد تخصيص تلك الأنواع المعينة بالذات بآلية إضافية مخصوصة من عنده) يكون إذن مسلكا كافيا في النقض عليه!

فبدلا من أن يقال إن ثمة مصمما ذكيا ما "تدخل" بتصميم تلك النظم الحيوية المميزة حتى تنشأ كلها على تلك الحالة من أول يوم، وتقوم بتلك الوظيفة نفسها من أول يوم، يقول الدراونة إنه ليس ثمة ما يلزمهم بقبول الدعوى بأن تلك النظم لم تظهر أجزاؤها أول ما ظهرت إلا وهي مجتمعة على ذلك النحو نفسه، قائما كل جزء منها بنفس الوظيفة التي يقوم بها الآن! فعلى الآليات الداروينية وأصولهم الكلية، يصح أن يقال إن مصيدة الفئران (المثال الأثير لدى بيهي) إنما ظهرت أجزاؤها بالتدريج، فظهرت أول الأمر قاعدتها الخشبية (مثلا)، فاتفق لها أن استعملت كثقل للورق، ثم ظهر مركبا في تلك القاعدة سوستة على هيئة معينة استعملها بعضهم كرافعة للكتب والأوراق التي قد توضع عليها، واستعملها بعضهم على غير ذلك، ثم اتفق أن أضيف إلى هاتين القطعتين مسمار، فبدا ذلك الشيء العجيب (بأجزائه الثلاثة، قطعة الخشب المستوية والسوستة والمسمار) صالحا لأن يستعمل (إلى جانب ثقل الورق) كماسك للكرافات (كما في جواب كين ميلر الشهير)، وهكذا، حتى إذا ما اتفق أن وصلت التركيبة إلى مرحلة معينة من مراحل التطور، وجد فيها من الأجزاء ما اتفق أن قبض على فأرة ذات يوم بعدما تركت عليه قطعة جبن، أصبح من استعمالات ذلك الشيء – حينئذ لا قبل ذلك - أن يكون مصيدة للفئران، ثم لم نزل ننتظر أن تأتي طفرة أخرى في المستقبل لتضيف إليه جزءا جديدا، يفتح بابا لوظائف جديدة واستعمالات جديدة، وهكذا!

فمن أين جاء القوم بتجويز تغير الوظائف الحيوية بصورة جذرية للعضو نفسه بين النوع الجديد والنوع الذي كان سلفا له في التطور الدارويني؟ جاؤوا به من القياس على تفسيرات اعتمدوها من قبل (ووافقهم عليها صاحب دعوى الآلية الجديدة مبدئيا) لنشأة بعض الأعضاء في الكائنات البدائية كما ذكره داروين في كلامه الذي مر معك! قالوا لقد رأينا في الأنواع "البدائية" (كما سموها) التي جعلناها في ابتداء قصة النشأة عندنا، عضوا واحدا يستعمل في نوع منها في وظيفة، ويستعمل هو نفسه في نوع آخر في وظيفة أخرى، فقلنا إن هذا يدل على جواز أن يقوم النظام الواحد بوظائف مختلفة من نوع إلى نوع، وإذن فما المانع من أن نقول إنه في ظل عدم الغاية وعشوائية الطفرة، فإنه يُتصور أن تنشأ تلك النظم المعقدة (التي نوافقكم على أننا لو أزلنا منها جزءا لم تعمل على هذه الوظيفة التي نراها لها الآن)، على أجزاء عبر فترات طويلة، في شجرة من الأنواع التي يتسلسل بعضها من بعض تطوريا، فتبدأ بجزء يقوم بوظيفة ما، ثم تظهر له بالطفرة إضافة ما فتجعله يسلك سلوكا

جديدا تحت تأثير القوانين الطبيعية، فيصبح هو وظيفته الجديدة، ثم يتفق له ظهور إضافة أخرى تحيله إلى وظيفة جديدة، وهكذا، وصولا إلى ما نراه الآن؟؟ ألا يبدو هذا التفسير أليق بآليتي الانتخاب والطفرة والعشواء الوجودية المتجذرة فيهما، اللتين يعتنقهما بيهي وأصحابه، من التفسير الذي اختاروه وانتصروا له؟؟ ألا يغني ذلك التفسير المنظر الداروينى (جريا على أصول النحلة التطورية التي يعتنقها بيهي) عن التماس آلية إضافية تفسر ذلك النظام بخصوصه لا لشيء إلا لأنه لا قيام له بوظيفته التي نعرفها له حاليا إلا باكتمال أجزائه من أول يوم؟؟ الجواب بلى!

والقصد أنهم لما قبلوا مبدأ ظهور النوع الجديد بنظمه بوظائفه الحيوية، من طريق التغير التدريجي من نوع متقدم عليه، له نظمه الأخرى ووظائفه الحيوية المغايرة، وسلموا بجعل ذلك المبدأ هو "العلم المعياري" Normal Science في البابة، لزمهم أن يقبلوا إعمال ذلك المبدأ نفسه (الذي هو مفهوم التطور نفسه Evolution) على سائر أجزاء تلك النظم المعقدة كما أعملوه على غيرها ولا فرق! وإلا فتلك التركيبة من العظام التي كانت في الحوت زعنفة، ثم صارت بفعل الطفرات التدريجية المزعومة أجزاء من ذراع في كائن بري ما، ثم صارت بعد ذلك (هي نفسها) أجزاء في جناح الطائر، لماذا لا تعتبرونها – معاشر التصميميين - في ذراع الإنسان، أجزاء من نظام غير قابل للاختزال؟؟ وهل يتصور للذراع البشري عمل (كذراع) دون عظمة العضد مثلا، أو هل يتصور للأرجل عمل إن فقدت عظمة الساق؟؟ الجواب لا! فلماذا لم تعتبر الأذرع والأرجل، يا سيد بيهي، نظما معقدة تعقيدا غير قابل للاختزال، وقبلت في تلك العظام أن تكون جملة من الأجزاء التي لا تزال وظائفها تتغير من ظهور نوع جديد إلى ظهور النوع الذي يليه، خلفا عن سلف، تغيرات توافقية تقتضي في كل نقلة ما لا يكاد يحصى من التغيرات الحيوية في نظام النوع الحي؟؟ لماذا رفضت على المستوى الجزيئي الدقيق ما قبلته هو نفسه على المستوى التشريحي؟؟ أليس هذا خللا منهجيا، وتفريقا بين متماثلين على غيرما أساس إلا الذوق و"الانبهار" (على حد عبارة عمرو شريف)؟؟

لهذا فعلى منهج الطبيعيين الدراونة، الذي يزعم بيهي انتماءه إليه إجمالا، وقبوله للأصول الكلية التي يقوم عليها ذلك الدين الطبيعي، بداية من مصادر التلقي المعرفي ووصولا إلى آليتي النشأة التطورية (الانتخاب والطفرة)، فإنه يلزمه أن ينزل عن تفسيره التصميمي لصالح تفسير قد سبق منه قبول نظائره بالفعل في نظم أخرى لا نرى وجها لتفريقه بينها وبين النظم الجزيئية الدقيقة هذه إلا التحكم المحض! فعلى منهج الدراونة في الإثبات والنفي، يكون تفسير داروين (حصول التغير الوظيفي اتفاقا، طفرة بعد طفرة، مع التغير التدريجي في البنية الحيوية) هو الرأي الذي يصار إليه، وليس ما زعمه

بيهي من امتناع أن تظهر تلك النظم المعقدة في الحشوة الحية إلا على هذه الهيئة التي هي عليها الآن، لتقوم بتلك الوظيفة التي تقوم بها حاليا!

ولهذا نقول نحن المسلمين إن مبدأ التعقد غير القابل للاختزال هذا مبدأ مقبول عقلا في حدود كونه وصفا لكل نظام خلقه الله تعالى، في كل حالة يكون عليها ذلك النظام، من أول يوم! فليس في العين البشرية جزء زائد عن اللازم، بحيث إن فقدته ظلت تعمل كعين بشرية بلا فقدان لشيء من وظائف العين البشرية أو من المقاصد التي من أجلها خلقت على ذلك النحو! ونظير ذلك يقال في اليد وأصابعها، وفي القدم وعظامها وعضلاتها، وفي الذراع والساق وغير ذلك، تماما كما يقال في موتور الفلاجيلا في الباكتيريا (مثلا) الذي خصصه بيهي (في أمثلة أخرى) بكونه لا يمكن أن يقوم بوظيفته التي يقوم بها الآن، إلا إن خلق من أول يوم على هيئته النوعية التي هو عليها الآن بلا زيادة ولا نقصان! كل مخلوقات الله تعالى تعقدها لا يقبل الاختزال بهذا المعنى، خلافا لبيهي الذي جعل منها ما ليس بمخلوق أصلا، وإنما اتفق له التطور المزعوم اتفاقا! نحن المسلمين لا نفرق بين متماثلين، وإنما التزم بيهي بالتفريق تحكما وتنطعا رجاء أن يجيب داروين عن شرط إنما فرضه تنزلا في كتابه ثم بين تعذره في نفس الفقرة من الكتاب (بالنظر إلى وجود التفسير عنده، الملائم لبقية فرضيات النظرية)!

ولهذا نقول إن مسألة التعقد غير القابل للاختزال هذه فاسدة عند بيهي وأصحابه ولا يجوز تناولها بتلك السطحية التي جرى عليها عامة من نقلوها عن الرجل من بني جلدتنا وأهل قبلتنا، والله المستعان! ونقول إن التعقد غير القابل للاختزال غير ملزم لخصوم بيهي لأنهم يقرون بأننا لو جئنا الآن ونزعنا أي جزء من أي نظام حيوي فسيتأثر عمله بالسلب ولابد بصورة ما أو بأخرى،[88] ولكن الشأن فيما مرت به النظم الحيوية من تغيرات تدريجية تنقل الأنواع الحية عبر سلسلة من النظم المتطورة عن بعضها البعض، كل نظام فيها لا يمتنع وصفه بأن تعقيده غير قابل للاختزال! فالمسألة من فهمها حق الفهم، تبين له أنها لا تسقط التطور، ولا تسقط الطفرة العشوائية ولا الانتخاب الطبيعي ولا شيء على الإطلاق!

ولا شك أن من يدرك عوار المنهج الدهري الطبيعي في وضع الفرضيات والأقيسة في تفسير تلك الغيبيات المحضة (الطريقة التي نشأ بها هذا النوع أو ذاك وهذا النظام الجزيئي الحيوي أو ذاك)، يرى بجلاء أن دعوى بيهي نشوء أجزاء موتور الفلاجيلا (مثلا) في الباكتيريا، على نفس الوتيرة ونفس الوظائف البيولوجية التي هي عليها الآن من أول يوم، هي في ميزان العقلاء رجم بالغيب، كما أن قول مخالفيه في نفس الأمر كميلر وغيره رجم بالغيب كذلك، سواء بسواء! وإلا فأي شيء يدرينا ويدريهم بما كانت عليه وظائف تلك الأحماض الأمينية بالغة التنوع في أول باكتيريا خلقها الله على الأرض، وما إذا

كانت هي نفس وظائفها التي نراها في نظيرها اليوم، على الرغم من دواعي التكيف على أحوال متغيرة وبيئات متفاوتة لا يحصيها إلا الله؟ أثبتوا لنا أولا أنها كانت نفس الوظائف والغايات والمقاصد، ونحن نقركم على أنها لابد وأنها خلقت من أول يوم على نفس تلك الهيئة التي نراها الآن، وإلا ما حصلت لها تلك الوظيفة التي بدونها لا تحصل للباكتيريا حياة! ولكن هذا غيب محض الله أعلم به وبما كان فيه، ولا يصح في العقل قياس حوادثه في الكيفية على شيء مما يقع تحت عادتنا! ولأنه غيب محض، فليس في العقل السوي طريق للترجيح بين التطور الدارويني والتطور التصميمي على الإطلاق!

يروى عن عالم الأحياء الانكليزي الدهري الماركسي الهالك "جي بي هالدين" J.B. Haldane أنه لما سئل عن المشاهدة التي إن ظهرت فستحمله على إسقاط نظرية داروين والكفر بها، أجاب مغضبا: "أخرجوا لنا أرنبا من طبقة البريكامبريان!!" (على أساس أن حفريات الأرانب ما كانت لتظهر في تلك الطبقة لأنها عند الجيولوجيين متقدمة جدا تاريخيا على الحقبة التي يعتقدون أنه ظهر فيها)، وبنظير ذلك قال ريتشارد دوكينز في غير مناسبة! ونقول له كذبت! حتى لو جاؤوك في يوم من الأيام بحفرية أرنب مستخرجة من تلك الطبقة، فستجد لذلك تأويلا بل تأويلات في نظريتك لا تسقط معها النظرية، وإنما تدخل عليها بعض التعديلات الدقيقة وتنتهي القضية، وهو ما رأيناه منكم معاشر الدراونة مرارا وتكرارا وما زلنا نراه ولا نستغربه على الإطلاق! فإنما أنتم أهل ملة غيبية تلتزمون أصولها وميثولوجياها في تأويل كل مشاهدة، كما هو متوقع منكم، وإنما العجب كل العجب والعيب كل العيب على من غفل عن تلك الحقيقة وظن أنه من الممكن أن يأتيكم بمشاهدة أو "اكتشاف" يثنيكم عن تلك النظرية الميتافزيقية في يوم من الأيام أو يرجح غيرها عليها لديكم، بعدما صارت إلى ما صارت إليه من إغراق في التأويل والتنظير المفصل والتأسيس الأكاديمي الدقيق على جميع ذلك، ومن كونها هي الأساس الميتافزيقي لملل دهرية ونحل طبيعية شتى في هذا الزمان!

فالحق الذي ينبغي أن يفهمه المفتونون بنظرية داروين والمفتونون بنظرية التصميم الذكي على السواء، هو أنه ليس في العالم مشاهدة يمكن أن تقنع الأحيائي الدارويني أو الأحيائي التصميمي ببطلان نظريته Falsifying Observation، وإنما غايتها أن تحمله على إجراء بعض التعديلات الدقيقة في أسطورته الميثولوجية، تقديما أو تأخيرا أو إضافة أو حذفا، على نحو يجب في دينه أن تستوعبه الآليات الداروينية الأساسية (الطفرة والانتخاب والسلف المشترك)، القائمة على العشواء الوجودية المحضة! فلما جاء بيهي بدعوى مفادها تقييد آليات العشواء تلك، ثارت ثائرة القوم عليه لا لأنه هدم نظرية داروين من أساسها أو حتى جاء بما يهددها بالزوال من أكاديميات الطبيعيين في يوم من الأيام (وهو ما لم يفعله كما ترى ولم يقصد إليه أصلا، وما كان

ليجرؤ)، ولكن لأنه أراد أن يدخل إضافة للنظرية مخالفة للأصول الطبيعية التي قامت عليها النظرية نفسها، كما مر بيانه، وقد ينفتح معها الباب مستقبلا لإثبات السببية الفائقة للطبيعة Supernatural causation، والعاملية الغائية Teleological Agency وهو ما يعد من الهرطقة في أروقة الكنيسة الطبيعية الغربية بطبيعة الحال!

هم قوم أصحاب ميثولوجيا مبنية بأكملها على اعتقاد أنه ليس ثمة موجود في الخارج إلا الطبيعة، فمجرد فكرة أن تظهر نظرية تسمح ولو على بعض تأويلاتها، بإدخال فاعل مختار Agent كتفسير لشي مما يجري في العالم من الحوادث المشاهدة، هذا كفر أكبر عند القوم لا يقبلونه بحال من الأحوال، وهم متعصبون في ذلك أشد التعصب، إلى الحد الذي بلغوا به أن استصدروا حكما قضائيا بمنع تدريس تلك النظرية في مقررات العلوم لطلبة المدارس في أمريكا، ولو بمجرد الإشارة إليها بوصفها رأي مخالف! فهل تعصبهم وتشددهم (وتشدد خصومهم في نفس الأمر) يرجع عندهم إلى الدليل الحسي أو التجريبي كما يزعمون؟ أبدا! وإنما يرجع إلى نظام اعتقادي ديني محض، لا وصول لنفيه ولا إثباته من طريق الحس البتة، وإنما هي الأوهام والفرضيات الخيالية والأقيسة الحرة المتكافئة تمام التكافؤ في التأويل والتفسير، بعضها فوق بعض طبقات!

ومع ذلك، يقول عمرو شريف في كتابه "كيف بدأ الخلق" (ص. 225 - 226):

> وبالمثل، يضع دارون نظريته في الميزان عندما يعلن تحديه في كتابه أصل الأنواع قائلا: إذا تم العثور على أي عضو في أي كائن حي لا يمكن الوصول إلى بنيته عن طريق تعديلات بسيطة متتالية (طفرات) فإن نظريتي ستنهار، إذ يعجز التطور عن إحداث قفزات كبيرة، ولن يكون هناك مفر من الإقرار بأن قوى غيبية تعاونه. إن تحدي دارون تحد ملتو، ظن أنه سيكون لصالحه. إنه يشبه تحدي القائلين بأن الحياة جاءت إلى الأرض من كوكب آخر محمولة على سفينة فضاء، وعلى من ينكر ذلك أن يثبت خطأ مفهومهم! لا شك أن هذا أسلوب خاطئ، فالعلم الحقيقي يقوم على تقديم الدليل على ما نقول، وليس على إثبات خطأ جميع الاحتمالات الأخرى. ومن ثم، ينبغي على الدراونة أن يقدموا الدليل على عشوائية التطور. ومع ذلك قبل "مايكل بيهي" التحدي، ووضع حججه في كتاب "صندوق دارون الأسود"، الذي وصفته المجلة العلمية المحترمة National Review بأنه أهم كتاب غير قصصي صدر في القرن العشرين (صدر الكتاب عام 1996). وتدور حجج بيهي ضد عشوائية التطور حول أن الدراونة لم يفسروا من خلال الصدفة والعشوائية نشأة الآليات الجزيئية شديدة التعقيد في الكائنات الحية، والتي نشأت فجأة دون أن تمر

بالعديد من التعديلات البسيطة المتتالية شديدة البطء التي يعمل من خلالها التطور.

قلت: يا دكتور، قلة القراءة والتدبر في منهج من تدافع عنهم ومنهج من ترد عليهم، ظاهرة للغاية، طافحة في عامة مصنفاتك، وهي تضعك في موقف لا تحسد عليه!! بل إن مما يؤسف له حقا أن يقول أستاذ جامعي في كلية الطب هذا الكلام بشأن المنهج العلمي التجريبي، مفوتا موضع الخلل بالكلية، ومنتقدا القوم في غير محل للنقد! قوله "يضع دارون نظريته في الميزان عندما يعلن تحديه في كتابه أصل الأنواع قائلا: إذا تم العثور على أي عضو في أي كائن حي لا يمكن الوصول إلى بنيته عن طريق تعديلات بسيطة متتالية (طفرات) فإن نظريتي ستنهار، إذ يعجز التطور عن إحداث قفزات كبيرة، ولن يكون هناك مفر من الإقرار بأن قوى غيبية تعاونه." قلت أي ميزان هذا الذي يضع داروين فيه نظريته؟؟ الرجل وضع تأويله الجاري على أصوله الكلية لذلك الاحتمال على تقدير وقوعه، في نفس الفقرة التي ينتزع القوم منها هذا الكلام، فهلا جئتنا به بتمامه تكرما؟؟ ثم إنه لم يقل: "إذ يعجز التطور عن إحداث قفزات كبيرة، ولن يكون هناك مفر من الإقرار بأن قوى غيبية تعاونه"، وقد مر معك نقل نص كلام داروين فراجعه! يا دكتور، إن من أسس الكتابة العلمية أن ينتبه المؤلف إلى تمييز النص المنقول Quotation عن نص كلامه هو بصورة واضحة حتى لا يختلط هذا بهذا، فيظن القارئ أن الكلام لصاحب النص المنقول ولا يدري أين ينتهي النقل ويبدأ كلام المؤلف!

الرجل لم يقل إن التطور يعجز عن إحداث قفزات كبيرة، وليس الباب عنده باب عجز وقدرة (مبدئيا)، أو باب جواز وامتناع كما يفهم من هذا الكلام، وإنما هو باب احتماليات يجري تقديرها على الهوى المحض! وإلا فأي شيء يقال في نشوء عضو جديد في نوع جديد إلا أن يكون "قفزة كبيرة"؟؟ إن كنت تعتقد أن التطور لا يأتي بقفزات كبيرة من حيث الأصل، لزمك أن تعتقد أن العضو الحي أو النظام الحيوي لا يخلق إلا مشوها مبتورا منقوصا أعظم النقص، على تلك الطريقة العبثية التي يزعمها القوم، إلا فيما يختص بكونه قد "صمم تصميما ذكيا"، وهذا هو محض العشوائية التي تزعم أنت البراءة منها! فإن لم يكن لتلك العبثية والفوضوية من مخرج إلا اعتقاد أن قوة غيبية ما تعاون التطور، لزم ألا يخلو مخلوق من عمل تلك القوى الغيبية في إحداث ما "يعجز عنه التطور"، لتنزه جميع المخلوقات عن العبثية في الصنع والتكوين، وإذن لم يبق من متسع لإثبات التطور أصلا، أو للتفريق بينه وبين العشوائية الوجودية التي تزعم أنك تنفيها عنه، فتأمل!! والقصد أن داورين كتب هذا الكلام في إطار ذكر الإيرادات التي قد يُعترض بها على النظرية ويظن من يتعرض لها بادي الرأي أنها تهدمها هدما، فقال "لو أمكن أن يظهر ما يثبت امتناع تفسيره على وفق نظريتي فإنها ستنهار، ولكن يجب أن ننتبه إلى أن

هذا الامتناع بعيد المنال، بدليل كذا وكذا!"، فكيف يفهم من هذا أنه يقول: إن جئتموني بهذا الذي اشترطته عليكم فسأنزل عن نظريتي الطبيعية لصالح "القوى الغيبية"؟؟ ما قالها أبدا ولا خطرت له ببال، ولا تلزمه البتة بالنظر إلى الطبيعية المنهجية التي التزمها الرجل في التنظير أبلغ التزام، والتزمها كذلك بيهي وديمبسكي وغيرهما من أصحاب نظرية التصميم!

فقول الدكتور: "إن تحدي داروين تحد ملتو، ظن أنه سيكون لصالحه. إنه يشبه تحدي القائلين بأن الحياة جاءت إلى الأرض من كوكب آخر محمولة على سفينة فضاء، وعلى من ينكر ذلك أن يثبت خطأ مفهومهم!" هذا من قبيل مغالطة "رجال القش" أو Strawman Fallacy كما يقال لها عند المناطقة المعاصرين! فالرجل ليس في كلامه أي تحد أصلا! وإنما سعى في جمع الاحتمالات التي قد ترد على نظريته، ثم أعمل المنطق التفسيري في استبعاد الاحتمالات الضعيفة بزعمه Elimination كما هو معتمد ومطروق عند الطبيعيين في تطبيقهم طريقة التماس أحسن التفاسير Inference to Best Explanation (IBE)! فلا غبار على الإطلاق على مبدأ أن يقال إن هذه المسألة يمكن أن تفسر بفرضية (أ) أو بفرضية (ب)، ولكن بالنظر إلى أن استبعاد الفرضية (ب) بسبب كذا وكذا، فلا يبقى إلا الفرضية (أ)! ليس هذا هو محل الخلل في منهجية داروين أصلا، وإنما الخلل كل الخلل والخطل كل الخطل، في مبدأ وضع الفرضيات التفسيرية في تلك المسألة الغيبية المحضة، وفي اعتماد العشواء الوجودية أساسا لوضع تلك الفرضيات! الخلل في الطبيعية المنهجية نفسها Methodological Naturalism التي لا يريد الدكتور عمرو، وما كان ليريد، أن يعترف بأنها هي أصل الفساد وبأنها طريقة دهرية لا يسلم منها العاقل إلا بتغليق الأبواب بحزم وصرامة أمام تطبيق المنطق التفسيري في قضايا الغيب المحض! فعندما يشبه الدكتور كلام داروين في هذا الموضع بكلام من يقولون بأن الحياة نشأت على الأرض بعدما نقلت إليها على ظهر سفينة فضائية، عندما يتحدون مخالفيهم بأن يأتوا بما يدل على بطلان كلامهم، فهذا تشبيه فاسد لا يصح جملة ولا تفصيلا! ويدل – إن دل على شيء – وبكل أسف، على أن الدكتور قليل الحظ من الدراية بمناهج النظر وطرائق البحث الطبيعي، وقليل الفهم في هذا الباب، على كثرة ما ألفه فيه، والله المستعان!

قوله: "لا شك أن هذا أسلوب خاطئ، فالعلم الحقيقي يقوم على تقديم الدليل على ما نقول، وليس على إثبات خطأ جميع الاحتمالات الأخرى. ومن ثم، ينبغي على الدراونة أن يقدموا الدليل على عشوائية التطور. " يقال له: والعلم الحقيقي يقوم كذلك على جمع الفرضيات التفسيرية الجائزة من حيث الخلفية الاستقرائية والقياسية عند الناظر، ثم بيان ترجيح فرضية معينة على ما سواها بتقرير أسباب استبعاد ما سواها! هذا من العلم الحقيقي ولا شك،

وإنما كانت آفة داروين في تطبيق تلك الطريقة في هذا الصنف من المسائل، حيث لا يتحصل الناظر على أي خلفة استقرائية أو قياسية أو عادة أو خبرة بشرية يسلم له العقلاء بجواز القياس عليها البتة! وأما قول الدكتور بأن ثبوت بطلان كلام داروين في منعه من ظهور ما لا يمكن تفسيره بطرد المبادئ الداروينية، يتركه وأتباعه مطالبين بتقديم الدليل على عشوائية التطور، فهو من إلزام القوم بما لا يلزمهم، وذلك أن النظرية كلها من أولها إلى آخرها تقوم على العشواء الوجودية ونفي التليولوجية كما يعلمه أدنى دارس لها! بل ولا يلزم من ظهور تفاسير طبيعية أخرى غير داروينية لتلك الحالة التي أوردها داروين، أن تسقط العشوائية الوجودية في النظرية سقوطا كليا، بدليل أن بيهي نفسه لم ينف العشوائية عن التطور، وإنما خصص بعض النظم الحيوية بتضعيف احتمالية أن تكون قد تطورت بالعشواء الداروينية كما وقع لغيرها في اعتقاده، ثم فرض لها آلية طبيعية أخرى جرى في فرضها على نفس طريقة داروين! فليست حجج بيهي ضد "العشوائية" (هكذا!) كما يلبس به الدكتور على قرائه! ولو سئل بيهي نفسه على أي شيء تحتج فلن يجيب بأنه يحتج ضد "العشوائية"، وكتب الرجل شاهدة على ذلك كما سيأتي وكما مر معك! وإنما يحتج بيهي على التسوية بين جميع النظم الحيوية في الخضوع لآليتي داروين في التطور، على ما فيهما من عشواء وجودية يقرها ولا يستنكرها، فافهم هذا ولا تلبس على خلق الله!

ومن ثم، وبالنظر إلى التخليط المنهجي عند الدكتور، فلا نعجب إذا رأيناه يجمع ردود من يسميهم بالدراونة على فرضية "المصمم الذكي" عند بيهي في تفسير نشأة الموتور الفلاجيلي هذا، ثم لا ينتبه إلى أن أجوبته عنها تقتضي كلها إبطال نظرية التطور بجملتها من أولها إلى آخرها، وليس إبطال أجوبة القوم عن تلك المسألة وحدها! [89]

والقصد أن الذي يريد أن ينقض الداروينية كما هو لائق بها، فإنه يلزمه إسقاط نظرية التصميم الذكي معها بالضرورة، ليقامهما على نفس الأصل الفاسد، وإلا تناقض! وإلا فتأمل كيف اعتنق بيهي تعريف "الوظيفة الحيوية" Biological Function وأصل تعريف التعقد الوظيفي Complexity وفكرة الانحطاط العضوي Organic imperfection وفكرة النقلات التدريجية النوعية Species Gradations ومعنى الانتخاب Selection والطفرة Mutation ومعنى الترقي Evolution والعشواء الوجودية / Chance Randmoness وغير ذلك من تعريفات ومعاني داروينية تقوم كلها على فلسفة دهرية محضة أسس عليها دعواه بشأن "الماكينات الجزيئية"، وكيف أسس على ذلك كله دعواه بأن بعض النظم الحية لابد لها من "مصمم ذكي"، ثم خبرني بربك كيف تكون نظرية التصميم الذكي هذه نقضا لنظرية داروين كما يتوهمه بعض أخواننا؟! هي نظرية خاضعة لنفس البارادايم الدارويني

Paradigm الساقط من تعريفاته الأولى، بيد أنها أعظم تناقضا من النظرية السائدة التي أنتجها ذلك البارادايم عند أصحابه! ومع هذا يراها كثير من اللاهوتيين النصارى إضافة إمبريقية بديعة لنظرية داروين تفتح الباب أخيرا لمن أراد أن يقبلها جنبا إلى جنب مع اعتقاده بوجود الصانع، كما كان منه هو شخصيا، ويراها كثير من بني جلدتنا – وهو ما يؤسف له – عملا كفيلا بنقض نظرية داروين من جذورها، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

نحن نقول إن الوظيفة البيولوجية Function إن كان المراد بها الغاية التي من أجلها صُنع الشيء المصنوع بكليته، ومن ثم ركب فيه كل جزء حيث ركب وكما ركب لا على غير ذلك، فهذه في علم رب العالمين أوسع وأشمل بكثير ولا شك، مما جرى عليه اختزال الأحيائيين، الذي لا يجدون عنه محيصا كما تقدم! فمن الواجب التفريق بين نوعين من الاختزالية في البحث التجريبي Reductionism عند وضع التعاريف والتصورات الوظيفية للنظم الحيوية: الاختزالية الأداتية Instrumental Reductionism والاختزالية الوجودية الميتافزيقية Metaphysical Reductionism. فأما الأولى فهي ما يكون من الباحث الأحيائي من اجتزاء وقياس للنظم الحيوية الجزئية على ما يشبهها في عادته وتجربته البشرية عند تناوله تلك النظم بالتحليل والدراسة، رجاء التوصل إلى تفسير بعض العلاقات السببية النافعة بصورة ما أو بأخرى، كما تجري عليه جملة الاستعمالات النافعة لعلوم الأحياء في مجالات الطب والكيمياء الحيوية ونحوها. فالإنسان مضطر لا محالة إلى الاختزال في التقسيم والتعريف والتحليل والتصور على هذا النحو، لأنه قاصر النظر مهما كمل، عاجز عن الإحاطة بجميع ما هنالك، ولا يظهر له من جبل الأسباب إلا قمته مهما فحص ودقق وتابع واستقرأ! فعندما يقول إن العين البشرية وظيفتها الإبصار، مثلا، ثم يأخذ في استكشاف كيفية وطبيعة ذلك الإبصار، بتحليل أجزاء العين والتأمل في التأثير السببي الذي يكون لكل جزء منها (في حدود مشاهدته المحدودة وأدواته المعملية المتاحة) في الأداء الوظيفي للعين بناء على ذلك التعريف، فإنه لا يضيره بذلك خفاء ما خفي عليه من علاقات وظيفية أخرى لا يعلمها (سواء بين أجزاء العين وبعضها البعض أو بين العين نفسها وغيرها من أجزاء الجسم)، أو من أسباب وغايات ومقاصد وحكم أخرى من كون العين على ما هي عليه لا على غير ذلك، لأنه لم يتطرق لتلك المعاني بالنفي ولا يقتضي مسلكه في البحث والنظر نفيها وجوديا! وأما الاختزالية الوجودية Ontological / Metaphysical Reductionism، فهي ما يكون حين يهجم الباحث على القضايا الغيبية المتعلقة بخلق النوع الحي أو النظام الحي ونشأته، يضع لها الفرضيات والدعاوى القياسية رجاء الوصول إلى تحقيق العلم بها من طريقه، بناء على تلك الارتباطات السببية القليلة التي يدركها من أمره، فينفي الحكم والعلل والغايات والمقاصد الغيبية كلها نفيا وجوديا، ويزعم أنه لا يكون للشيء المخلوق من غاية أو وظيفة إلا ما

يقرره هو له، بناء على نظريته الساقطة في تصور الكيفية التي نشأت بها تلك النظم كلها بعد أن لم تكن، وفي سبب تلك النشأة! وهذا النوع فرع عن الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism التي تمنع حصول المعرفة بكل ما هو غائب إلا أن يكون "طبيعيا" (أو محسوسا بالقوة).

فهذا النوع من الاختزالية التعريفية مردود على أصحابه قطعا، لأنه ينفي الغائية والحكمة الإلهية كمقصود أعلى من خلق كل نوع وكل فرد من أفراد النوع، نفيا وجوديا، يقتصر فيه التصور الوظيفي على ما هو مظنون من تأويل المشاهدات لا غير، ومن ثم يستجاز معه أن يكون في النظام الحيوي أشياء لا وظيفة لها أصلا. ورأس ذلك الاختزال الهابط وأظهره عند القوم ولا شك هو ما قاله الدراونة من أن الغرض من وجود الكائن الحي إنما هو أن يتناسل ويحفظ نوعه، وكما قال بعضهم عبارته المشهورة Life is a struggle for existence، أو إن الحياة ليست إلا صراعا من أجل البقاء وتنافسا على الموارد المحدودة، فهذا من سفاهة الدهرية التي قال الله تعالى فيها: ((يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)) [الروم : 7].

فهؤلاء جعلوا من تلك الأقيسة الاختزالية فيما يقال له "الوظيفة" طريقهم لتحصيل المعرفة بما هو غيب محض من خصال الربوبية في أفعال الخلق والتكوين والتركيب الإلهي، فأخزاهم ربك أعظم الخزي في الدنيا قبل الآخرة، والحمد لله رب العالمين!

ولا شك أن الزعم بأن العضو أو النظام الحيوي ليس له من الوظائف والمقاصد عند باريه إلا ما هو من نوع الوظيفة الحيوية Biological Function، هذا تحكم وجهل مردود على أصحابه ولا شك! فعندما يتكلم الدراونة عن اللحية على وجه الرجل، مثلا، أو عن حلمة الثدي على صدره، مقررين أنها لا "وظيفة" لها، فحتى على التسليم بأنها ليس لها وظيفة بيولوجية تعلمونها الآن وحاليا، فإن هذا لا يلزم منه ألا يكون لها من الوظائف الحيوية ما لا تعلمونه! وحسبكم أن تنظروا فيما كنتم تجهلونه من تلك الوظائف قبل خمسين سنة لا غير، لعل المجرم منكم يعرف قدر نفسه وقدر باريه سبحانه، وأنه ما أوتي من العلم مهما أوتي إلا قليلا! ثم حتى على التسليم بأنها (أي تلك الأجزاء) ليس لها وظيفة حيوية أصلا، فكان ماذا؟ هذا لا يلزم منه ألا يكون لها وظيفة على الإطلاق! بل والله لو قلنا إن من حكم الله وأغراضه وغاياته من خلقها في الإنسان أن يأتي زمان يظهر فيه سفهاء من أمثالكم ليقولوا إننا لا نعلم لها وظيفة فهي إذن محض عشواء وزيادة تدل على أن الإنسان لا خالق له ولا قائم بأمره، لكان ذلك من أحكم وأضبط الأقوال! وكذلك يقال لهم عندما ينظرون إلى تلك الأجزاء التي زعموا بكل وقاحة أنها لا تزيد على كونها بقايا من إرث ارتقائي قديم، ضمر ولم ينقرض بالكلية! فهم يزعمون - على سبيل المثل - أن عظمة العصعص coccyx في

الإنسان لا وظيفة لها، وأنما هي ما تبقى في جسم الإنسان بعدما فقد الذيل الذي كان يتمتع به سلفه الدارويني المزعوم! والذي لا يعلمه هؤلاء القردة السفهاء، أن في تلك العظمة جزء يقال له عجب الذنب، نعلم نحن المسلمين مما أخبرنا به رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم في الخبر الصحيح، أن من وظائفه وأغراضه عند الباري جل شأنه أنه ينبت منه جسم الإنسان يوم القيامة عند بعثه كما ينبت البقل! وما خفي علينا من وظائف ذلك الجزء الضئيل وغيره والمقاصد الغائية المرادة منه، لا يعلمه ولا يحصيه إلا باريه سبحانه!

هذا الزعم الدهري السخيف الذي يمجه العقل الصريح وتأباه الفطرة السوية ويرده كل صبي صغير، يلزم بيهي وأصحابه أن يقبلوه منهم، على أساس أن تلك النظم "الزائدة" أو التي "فقدت وظيفتها"، لا تدخل تحت شرط "التصميم" عندهم بالأساس، بل هي مما تركوه على الأصل الدارويني المحض، فلا يعنيهم دفع تلك الفرية أصلا، ولا يسعهم ذلك إن تكلفوه، لما هم متقيدون به من لوازم نظريتهم ومقتضياتها، والله المستعان!

قال بيهي في كتابه "حافة الارتقاء: البحث عن حدود الداروينية" The Edge of Evolution: The Search for Limits of Darwinism، تحت باب "عناصر الداروينية" The Elements of Darwinism:

> خلال السنوات المئة المنصرمة، تقدم العلم (التجريبي) تقدما عملاقا، فما هي النتائج التي يكشفها العلم الحديث؟ باختصار، فإن الأدلة على السلف المشترك تبدو مقنعة للغاية. فنتائج التجارب الحديثة على سلاسل الحامض النووي DNA sequencing، التي لم يحلم بها علماء القرن التاسع عشر الميلادي أمثال تشارلز داروين، تظهر لنا أن بعض المخلوقات البعيدة (يعني في شجرة النسب الدارويني) تشترك في معالم معينة لجيناتها تبدو لا تفسير لها إلا أن تكون موروثة من سلف مشترك بعيد. ثانيا، فثمة كذلك أدلة عظيمة على أن التطفر العشوائي الممزوج بالانتخاب الطبيعي يمكن أن يحدث تعديلات مهمة على مجرى الحياة. ثالثا، ومع ذلك، فإن ثمة أدلة قوية تدل على أن التطفر العشوائي محدود للغاية. فالآن وقد عرفنا السلاسل الجينية لجينموات شتى، والآن وقد أصبحنا نعلم كيف تحصل الطفرات، وكم تحصل، فقد بات بوسعنا أن نستكشف الإمكانيات والحدود التي تحد الطفرة العشوائية بدرجة من الدقة، للمرة الأولى منذ أن وضع داروين نظريته.

قلت: قول بيهي "تبدو لا تفسير لها" هذا تحكم واضح في التفسير، تحمله عليه داروينيته المنهجية التي تربى عليها. فلا شك أنه لو أراد أن يأتي لتلك

المشاهدات بتفسير آخر لا علاقة له بالبارادايم الدارويني على الإطلاق، أي بعيدا عن فكرة السلف المشترك هذه، لأمكنه ذلك، كأن يقال (مثلا) إن ثمة وظيفة عضوية معينة لا نعلمها، تشترك فيها هذه الأنواع الحية، وهي السبب في ذلك التشابه الجيني! هذا التفسير لا يستلزم إثبات السلف المشترك كما لا يخفى، فلماذا لم يطرأ له ببال؟ لأن داروينيته ما كانت لتسمح بذلك! وهكذا أصحاب تلك النظريات المغرقة في التكهن الغيبي، يأتي أحدهم بدعوى قياسية بشأن السبب الغيبي المحض في كون الظواهر المشاهدة على ما هي عليه، فإذا قيل له ما دليلك على صحة تلك الدعوى؟ أجاب بتأويل مشاهدات أخرى بما يوافق الدعوى نفسها، يضيف القياس فوق القياس، جاعلا الأخير دليلا على صحة الأول، فتصبح النظرية هي الدعوى المراد التدليل عليها، وهي أساس الدليل المستند إليه في إثباتها في نفس الوقت! ولا ترى ذلك الدور الاستدلالي إلا في هذا الصنف من النظريات! ولا عجب، فإذا كان المطلب غيبيا متمحضا في الغيبية، فمن أين يأتي هؤلاء بقول فيه إلا باختراع الأقيسة المتوهمة والتوفيق والتلفيق فيما بينها، ليصبح بعضها دليلا على صحة بعض؟! هذا هو منهجهم الذي تربى عليه بيهي، وأسس به نظريته.

فمشكلة بيهي كما ترى ليست مع أصل مبدأ الترقي النوعي في مخلوقات رب العالمين من بدايات منحطة الأصل فيها الهلاك والتخلف والعوار والتشوه، وليست مع مبدأ العشواء الوجودية التي جعلها داروين آلية من آليات الترقي المزعوم، وليست مع مناقضة فلسفة داروين لأصل التدبير الإلهي الشامل لنظام الأحياء ونظام الجمادات جميعا [90]، ولكن مع ما يزعم أن المشاهدات قد دلته عليه من محدودية الطفرة العشوائية كتفسير غيبي!

أما قوله في التطفر العشوائي إن ثمة أدلة قوية تدل على محدوديته، فما ذاك إلا لأنه يؤمن إيمانا راسخا بأنه حاصل فعلا، وأن الأدلة تدل على ذلك ابتداء! فالأصل عنده كما عند غيره من الدراونة هو أن الطفرات الجينية عشوائية (وجوديا)، أي لا تخضع لترتيب إلهي ولا لغاية ولا حكمة ولا شيء من ذلك! هذا النوع هو يثبته وجوديا، ويجعله سببا في نشأة الأنواع الحية من بعضها البعض، ثم يحاول أن يثبت أنه ليس هو السبب الوحيد في ظهور الأنواع الجديدة والأعضاء أو النظم الحيوية الجديدة! والدليل بزعمه هو أنه يوجد في الأرض نظم حيوية معينة لا تصلح الطفرات العشوائية في تفسيرها، خلافا لعامة النظم الحيوية التي يقبل تعقدها "التشريحي" أن يختزل في سلسلة من الطفرات المتتابعة، بناء على تفريق في الأصل والنشأة - كما مر معك - ما أنزل الله به من سلطان بين ما يسميه بالتعقد التشريحي Anatomical Complexity والتعقد البيوكيميائي Biochemical Cimplexity! فهل هذا مذهب يصح لنا أن نستعمله في محاججة الدراونة، فضلا عن أن نقول عنه إنه من أقوى ما يرد به عليهم، يا عقلاء المسلمين؟

قال بيهي في نفس الكتاب في صفحة (8 – 9):

لقد كان كتابي "صندوق داروين الأسود" معنيا فقط ببيان أن بعض الهياكل الحيوية البارعة، تتجاوز قدرة الطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي (على خلقها). وأما هذا الكتاب فهو أعظم طموحا بكثير. فهنا، التركيز هو على استخراج ضوابط عامة معقولة لتعيين حافة الارتقاء – أي لنقرر بشيء من الدقة تلك النقطة التي تصبح كفاية التفاسير الداروينية عندها غير مترجحة، ليس فقط في بعض الهياكل الحيوية المعينة، ولكن في خصائص عامة للحياة ككل. ويمكن تشبيه ذلك بعمل الباحث الأثري (الأركيولوجي) الذي يكتشف مدينة أثرية مدفونة تحت الرمال. فمهمة ترجيح ما إذا كانت العمليات العشوائية قد أنتجت أشياء معينة كالرسومات الدقيقة على جدران مباني المدينة (ربما بواسطة العواصف الرملية وعوامل التعرية) هي مهمة سهلة للغاية. فعلى أي حال، فإن الرسومات الأنيقة ليس من المترجح احتماليا أن تكون قد أنتجتها عمليات عشوائية، خصوصا ما إذا كانت تلك الرسومات تظهر صورا لحيوانات وبشر، وليس فقط أنماطا هندسية. ولكن بمجرد أن تنقضي عملية الانتقاء (للمسائل الجلية) على هذا الوجه، فإن البحث يصبح أكثر صعوبة. فهل كانت تلك العلامات السوداء على الجانبين (جانبي اللوحة) جزءا من الرسم، أم مجرد اتساخ (غير مقصود)؟ هل كومة الحجارة المجاورة لجدار خارجي، منضدة أم مذبح شعائري من نوع ما، أم مجرد تجمع عشوائي من قطع الحجارة؟ هل قطعة الطين المستوية بمقربة من الجدار هي ما تبقى من حقل مزروع؟ أين تقع حدود المدينة؟ أين تنتهي الحضارة وتبدأ الطبيعة الخام؟ إن الترجيح في قضايا هامشية كهذه هو عمل أصعب ولا شك، وستكون الاستنتاجات بالضرورة أكثر تخمينا. لكن في نهاية الدراسة يكون الباحث الأثري قد انتهى إلى صورة أوضح بكثير بشأن الموضع الذي عنه تنتهي المدينة وتبدأ العمليات الطبيعية العشوائية.

وبصورة ما، فإن الأركيولوجيين في يسر من أمرهم. فعلى الرغم من أنهم مضطرون للعناية بتأثير العمليات الفزيقية على المصنوعات التي يتناولونها بالدراسة، فإنهم عادة لا يشغلون أنفسهم كثيرا بالعمليات البيولوجية. فعند التأمل في موضع الحد البعيد للداروينية، فلا شك أن العمليات البيولوجية سيكون لها دور كبير. فالطفرات العشوائية للحمض النووي DNA يمكن تشبيهها بالحوادث العشوائية التي تنزل بالجمادات. ولكن النباتات والحيوانات تتناسل، خلافا لقطع

الحجارة. والانتخاب الطبيعي يعمل على الكائنات الحية لا على ما ليس فيه حياة.

قلت: فبالله يا عقلاء المسلمين، هل هذا كلام من يُستند إلى كلامه في "نقض" نظرية داروين، ويقال إنه من أقوى ما يحصل به المطلوب من نقضها وبيان وهائها؟! هذا القياس الذي تكلفه لبيان منهجه في التنظير، يكشف لك جريان الرجل على الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism فيما جعله كثير من الناس "دليلا" على وجود الصانع! فإذا تأملت في منهج الإثبات في ذلك الدليل المزعوم، تبين لك أي صانع هذا الذي يثبت من طريقه وما صفته، وكيف أنه ليس إلزاما بإثبات الصانع الذي نؤمن به نحن المسلمين كما قد يتوهمه بعض إخواننا ممن لم يعتن بدراسة فلسفة الاستدلال ومنطقه في تلك النظرية كما هو متعين عليه، وإنما هو إلزام بصانع مصنوع، محدود بحدود المخلوقين، خاضع في صنعته لما يخضع إليه الصانع البشري من نواميس وقوانين وسنن كونية تحكم صنعته! فهي نظرية غايتها ومنتهاها أن تثبت صانعا هو كما جوزه بيهي نفسه في كلامه، كائن فضائي ذكي (يوفو) أو إنسان متطور من قرون المستقبل زار الماضي السحيق في "آلة الزمان" المزعومة وصمم الماكينات الحيوية التي تتركب منها الخلية الحية (التي يتركب منها جسمه هو نفسه!!)، أو نحو ذلك من هراء وعبث هو يعلم أنه هراء وسخف محض! وإلا فخبرني بربك ما الذي يقتضيه هذا المثل الذي ضربه لبيان طريقته فيما سماه "باكتشاف حدود نظرية داروين"، أو بالأحرى، حدود أنطولوجيا داروين وميتافزيقاه، وللدقة: تحديد أي الأنواع يقال فيها إن العامل السببي الذي ترجع إليه كلها هو العشواء الداروينية الوجودية المحضة Darwninan Ontological Randomness، وأيها يقال إنه لابد أن يكون وراءه سبب آخر يتجاوز حدود تلك العشواء الداروينية! فهذا تأسيس لنظام اعتقادي لاهوتي جديد يؤصل للعشواء الداروينية الوجودية كما لم يسبقه إلى ذلك طائفة من طوائف أهل الكتاب، إذ يجعل وجودها دليلا على وجود "مصمم ذكي"! فهي بذلك طائفة أخبث وأعظم خطرا من التطويريين (القائلين بالتطور الموجه) لأن التطويريين يزعمون انتفاء العشواء الوجودية انتفاء مطلقا (وهو ما ينهدم معه أصل النظرية الذي زعموا أنها تقوم بدونه)، بينما يثبتها هؤلاء ويسعون في تقييدها وجوديا بالتفريق بين ما تنتجه تلك العشواء، وما لا يمكن أن تنتجه من أنواع المخلوقات!

فكما يستدل الأركيولوجي على حدود صنعة البنائين القدماء في بنائهم المدينة الأثرية بالتفريق بين ما جرت العادة على كونه من مصنوعات البشر التي نعرف أغراضها وطرائق أصحابها في تصميمها، وبين ما جرت العادة على كونه غير مصنوع بيد بشرية ولم تتدخل فيه غايات البشر وتصاميمهم وصنائعهم، فكذلك يستدل الخلقوي التصميمي على حدود صنعة الباري –

سبحانه وتعالى علوا كبيرا – في خلقه ما خلق في هذا العالم، بالتفريق بين ما يرون فيه علامات الصنع الإلهي وأغراضه وطرائقه، وما لا يظهر فيه – بزعمهم – أنه من صنع الباري وأنه فوضى محضة لا تخضع لغرض ولا لحكمة ولا لغاية على الإطلاق!!

فنحن نقول لإخواننا الذين توهموا في تلك النظرية ردا وإسقاطا لنظرية داروين: اتقوا الله في أنفسكم وفي المسلمين، ولا تعجلوا بقبول بضاعة هؤلاء لمجرد أن رأيتم فيها استنادا إلى المشاهد والمحسوس من نظم ربانية باهرة تخلب الألباب! فإنه من لم ير في يده التي يبطش بها أو في عينه التي يبصر بها أو في عقله الذي يعقل به أو في قدمه التي يمشي بها، أو في غير ذلك مما لربه في نفسه وفي الآفاق من آيات باهرات، ما يكفيه ليقطع بأنه مخلوق مربوب، فلا تنتظروا منه أن يرى ذلك بالنظر في الميكروسكوب أو بتتبع نتائج أبحاث البيوكيميستري! فكيف وهم لا يدعونه للتدبر في المقتضى البدهي الواضح لتلك المشاهدات، وإنما يدعونه لإثبات الصانع من طريق نفس ذلك المنطق الدهري المحض الذي به نفاه الدراونة وأنكروا وجوده بالكلية (منطق قياس الغائب المحض على أنواع المحسوسات بالقوة أو بالفعل)؟؟ هذا لعمر الله من أعجب العجب!!

أما المقدمة الكلية الثالثة (ت)، فقد قلنا من قبل في غير هذا المجلد إن نظرية الاحتمالات إنما تطبق – من أساس منطقها الاستقرائي – على أي نوع من الحوادث الداخلة في عادة الإنسان واستقرائه، بمعنى أنه يجب أن يكون فراغ العينة Sample Space داخلا (نوعا) بجميع أفراده المتصورة نظريا في إطار ما يجري تحت تجربة الإنسان واعتياده (بالفعل أو بالقوة). فعندما يقذف أحدهم بقطعة العملة المعدنية في الهواء فهو يتوقع لها – من الابتداء - عند هبوطها في يده وضعا من وضعين لا ثالث لهما: إما أن تهبط على جانب "الملك"، أو على جانب "الكتابة"! فلماذا توقع هذين الوضعين أولا، ثم أجرى نظرية الاحتمالات على تقديرهما في استقرائه ثانيا؟ لأن هذين الاحتمالين مما جرت عادة البشر على التعرض لهما (أ)، ولأنه لم يدخل في عادة البشر غيرهما في نفس الأمر (ب). فالأمر إذن مداره على عادة البشر في الابتداء والانتهاء! فهل خلق العالم أو خلق ما فيه من أنواع الكائنات الحية وإحداثها على غير مثال سابق = من قبيل الحوادث الداخلة في عادة الإنسان (نوعا)، حتى تُضرب لها التقديرات الاحتمالية؟ أبدا! وهذا واضح، لولا أن أغرق الطبيعيون المعاصرون في تلك المغالطة في المنطق الاحتمالي غاية الإغراق!

فما هو فراغ العينة في نظرية التصميم الذكي؟ ثلاث احتمالات يلزم "دمبسكي" وأتباعه اعتقاد دخولها تحت العادة (وإلا ما كان لتطبيق المنطق الاحتمالي نفسه أي أساس):

خضوع حدث نشأة النظام الحيوي محل البحث للقانون الطبيعي Natural Law
خضوعه للفوضى المجردة غير القانونية Chance
حضوعه "للتصميم" Design

والسؤال هنا: متى سبق أن رأينا نظاما حيويا خلويا ينشأ أصلا، حتى نقسم عادتنا فيما نراه منه إلى تلك الأقسام الثلاثة أو غيرها، بما يجيز لنا الترجيح بينها باستعمال المنطق الاستقرائي الاحتمالي؟ الجواب: لم يسبق ذلك أبدا، ولا يزعم ذلك إلا كاذب مكابر!

والسؤال الأهم: ما اللازم الاعتقادي الذي يرجع على العقلاء من التسليم بتلك الاحتمالات الثلاثة كجزء من فراغ الاحتمالات الرياضية الجارية تحت عادة الإنسان فيما يراه من أنواع المخلوقات على هذا النحو؟ الجواب في كلمة واحدة: محض الإلحاد!

فإنا لله وإنا إليه راجعون!

مبحث في جهمية الداروينية التمهيديين أو الابتدائيين [91]

هذه البدعة الجهمية الداروينية الغالية سميتها بالتمهيدية، بالنظر إلى أن أصحابها يعتنقون نظرية داروين بجميع آلياتها الوجودية الطبيعية كما هي، بحذافيرها وجميع تفاصيلها (بما فيها الطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي) بلا أي إضافة أو حذف أو تعديل، ويعتنقون منهجها الدهري في اختراع الخرافات بشأن حوادث النشأة وتفصيلاتها، إلا أنهم يقولون إنه إذا كانت آليات الارتقاء والتطور الطبيعية العشوائية هذه قد ظهرت في العالم على أثر عمل القانون الطبيعي، وإذا كنا نقول إن قانون الطبيعة ونظامها قد بدأه الباري في لحظة الانفجار الكبير، فلابد أن يكون إحداث الانفجار هذا هو فعل الخلق الإلهي، الذي "مهد" الطريق لظهور الحياة وتنوع الأنواع الحية على الأرض، فانتظمت كافة أحداث النشأة بعد ذلك تحت عمل القانون الطبيعي الذي خلق بعضه على أثر الانفجار، وخلق الانفجار نفسه على أثر بعضه الآخر!

وهذا المذهب التمهيدي الذي يحصر فعل الخلق في "شرارة البدء" أو "نفخة التمهيد"، أو وضع الشروط الابتدائية Initial Conditions على حد عبارة بعض اللاهوتيين الطبيعيين لانطلاق آليات الترقي الطبيعي التي كانت هي منشأ كل شيء في العالم، ثم ترك تلك الآليات لتجري مجاريها على حسب فلسفة الطبيعيين الدهرية في حصر السببية والعاملية على أسباب الطبيعة وحدها، وتعليل ذلك كله بتلك النفخة الأولى المزعومة، مع نفي السببية والغائية الغيبية عن آحاد الحوادث كلها، ومن ثم ترى الأنواع الحية تترقى من الأحط للأعقد بلا "تدخل" إلهي Divine Action / Intervention على حد عبارتهم، هذا المذهب هو في الحقيقة أكثر مذاهب الدراونة من أهل الملل الكتابة تعطيلا لصفات الرب جل في علاه، وهو الاعتقاد الذي صرح به داروين نفسه في كتابه "في أصل الأنواع" من باب المداراة (غالبا) إذ لم يرد أن يرصح بدهريته في أول أمره، فقال: "ثمة عظمة خاصة في هذا التصور للحياة بقواها المتعددة، وفي كونها قد نفخها الخالق في الأصل في بضعة أشكال من الحياة أو في شكل واحد، وفي حقيقة أنه مع كون هذا الكوكب قد أخذ في الدوران وفقا لقانون الجاذبية الثابت، فمن بدايات بالغة الوضاعة (البساطة)، رُقيت أشكال (من الحياة) عند الغاية في الجمال والبداعة، لا تتناهى في أعدادها." اهـ. [92] وممن صرح به كذلك، عالم الجينات الأمريكي الأشهر "فرانسيس كولينز" في كتابه "لغة الإله: عالم يقدم أدلة للإيمان" The Language of God: A Scientist presents Evidence for Belief. فما هي "لغة الإله" التي قررها الرجل في كتابه؟ هي أن الإله لم يخلق شيئا ولا دبر ولا قدر ولا قام على أمر الخلق يوما من الدهر، وإنما بدأ جريان النظام الطبيعي على وفق التصور الدهري على المستوى

الكوزمولوجي والبيولوجي على السواء، بما في ذلك التصور من الفوضى والعشواء الوجودية المتأصلة في تسلسل حوادثه وتتابعها!

فكأن فعل الخلق على هذا المذهب قد انحصرت حقيقته واقتصرت على التمهيد لأسباب حدوث الانفجار الكبير المزعوم، بمعنى إعداد الظروف والشروط الأولية اللازمة Initial Conditions لحدوث الانفجار، لا أكثر ولا أقل! أما المشيئة والإرادة والحكمة والتعليل، فلا يرون شيئا من ذلك، إلا أن تكون قوانين الطبيعة هي التي تحتم كل شيء (على مذهب الحتمانيين منهم Determinists)، فلا يملك الصانع (صاحب النفثة الأولى المزعومة) أن يغير في ذلك شيئا ولا أن يعطل منه شيئا، وإلا انهار البناء كله على زعمهم! وما ذاك إلا لأن الطبيعيين قد مددوا أسطورتهم الدهرية في النشأة الارتقائية وصولا إلى نقطة الانفجار، ولكنهم ما زالوا إلى الآن لم يحظ لديهم أي تنظير فيما كان قبل تلك النقطة بالقبول العام كما حظيت به كوزمولوجيا الانفجار أو التوسع Expansion Cosmology. فإن قدر أن حصل ذلك القبول الأكاديمي العام لأي نظرية من نظرياتهم فيما قبل ذلك، فستجد هؤلاء يقولون إن فعل الخلق الإلهي كان هو خلق وإعداد الشروط السببية الأولية اللازمة لحصول تلك الحوادث التي جاءت بها النظرية الجديدة، التي ترتب عليها حادث الانفجار!

فهو مذهب مستسلم أصحابه تمام الاستسلام للمنظر الطبيعي الدهري، يصطنع لهم عقيدتهم في النشأة وفي غيب الماضي المحض فيما قبل خلق السماوات والأرض، فيقبلونها منه بلا منازعة، فإذا ذهبوا يمينا، نزل أحدهم على نصوص دينه يلحد فيها بالتأويل ذات اليمين، وإذا ذهبوا يسارا، نزل على نصوص دينه من جديد يدفعها ذات الشمال! يبدأ باعتناق الميثولوجيا الطبيعية في أصل العالم كاعتقاد غيبي راسخ كيفما كانت، ثم ينظر بعد ذلك في مقتضيات ذلك الاعتقاد من قبول النص أو رده ومن تأويله بالهوى، ومن اعتقاد في صفات رب العالمين وأفعاله، إن كان ولابد فاعلا! وإلا فأكثرهم لا يبالي أصلا! فإن كان قد تربى في صباه على الإسلام، فلعلك تراه يعيد تأويل جميع نصوص الخلق والأيام الستة وما جاء النص بحدوثه فيها، والاستواء على العرش والسماوات السبع والأرضين السبع وخلق الله الدواب والأنعام على الأرض وخلقه آدم عليه السلام بيديه سبحانه .. إلخ، فيعطل تلك المعاني جميعا، يقول ما معناه أن الله إنما كان خاطب العرب بكلام يناسب أفهامهم، فصور أفعال الخلق كلها في صور يفهمونها، مع أن الواقع بخلاف ذلك تماما، وهذه باطنية وزندقة وتكذيب لرب العالمين سبحانه!

وغالبا ما يجنح أصحاب هذا المذهب في منتهى أمرهم إلى القول بالصانع العاطل عن كافة صفات الحياة والعلم والإرادة، أو ما يسمى Deism (وفي الأدبيات العربية بالربوبي [93])، وهو ما عليه قاعدة عريضة من طبيعيي أوروبا

وأمريكا، من اليهود والنصارى العلمانيين وغيرهم، بل حتى داروين نفسه كان له ميل إلى ذلك المذهب، فإنه هو ما دندن حوله كثيرا بصورة ما أو بأخرى في مرحلة ما بعد نشره كتاب "في أصل الأنواع"، وهو ما يظهر في مراسلاته لزملائه وأقرانه. ففي رسالة كتبها إلى معاصره عالم النبات الأمريكي "أزا غراي" Asa Gray في سنة 1860 من الميلاد (أي في السنة التالية مباشرة لنشره كتاب "في أصل الأنواع")، قال داروين [94]:

> لكني أصف نفسي بأني عاجز عن أن أرى، بنفس درجة الجلاء التي يتمتع بها الآخرون وكما وددت لو كنت أتمتع به أنا نفسي، الأدلة على التصميم والرحمة تحوطنا من كل جانب. فالذي يبدو لي أن العالم طافح بالمعاناة والألم. فلست أقدر على أن أقنع نفسي بأن إلها رحيما وقديرا قد خلق قصدا وتصميما بعوضة الإخنومونيد عامدا قاصدا جعلها تتغذى على أجساد اليرقات الحية، أو (أراد قصدا) أن تتلاعب القطة بالفئران. فإذا لم أكن معتقدا ذلك، فإنني لست أرى ضرورة في اعتقاد أن العين مخلوقة قصدا وعمدا. ومن ناحية أخرى، فلست أرتضي على أي حال أن أرى هذا الكون البارع وخاصة طبيعة الإنسان فيه، وأن أستنبط (مع ذلك) أن كل شيء إنما هو نتاج قوة غاشمة. وإنما أميل للنظر إلى كل شيء على أنه نتاج قوانين مصممة، مع ترك التفاصيل، سواء كانت حسنة أو قبيحة، لنتاج ما قد نسميه بالصدفة Chance. وإن كنت لا أجد في تلك الفكرة ما يرضيني. فأنا أشعر بعمق بأن المسألة كلها هي أعمق غورا بكثير من قدرة العقل البشري. فما نحن معها إلا كحال كلب يحاول استكشاف عقلية نيوتن.

قلت: لا شك أنه يكذب على نفسه وغيره إذ يزعم أنه لا يرى حوله آثار خلق الله وإحكام صنعه وآثار رحمته جل شأنه تحيط به من كل جانب! وطريقته في بيان عقيدته تعكس لك جبنه وخبث طبعه، إذ حاول أن يوهم صاحبه بأنه اضطر إلى مفارقة ملته اضرارا، وإلى حشر الفوضوية والعشواء في عقيدته بشأن أصل الحياة وأصل العالم، لأن "الأدلة" قد حملته على ذلك! ولو كان صادقا متجردا للحق لصرح بأنه وضع الفرضية في ذهنه بشأن أصل الأنواع أولا، بناء على اعتقاد دهري طبيعي ومنهجية طبيعية محضة لديه، ثم خرج ليجمع المشاهدات يتأولها لدعم فرضيته، ثم ألف الكتاب يدعو الناس لقبول تلك الفرضية! لا سيما وقد كانت في زمانه، وعلى موازين أقرانه من الطبائعيين الدهرية وغيرهم، مجرد فرضية أو أطروحة نظرية، لا تتمتع بما باتت تتمتع به اليوم عند الطبيعيين من منزلة الاعتقاد الراسخ Doctrinal Belief! ومع ذلك جبن الرجل عن أن يصرح بأنه كره ربه ونقم عليه، وآثر عبودية الشهوة والهوى على العبودية له سبحانه! ثم إنه يتذرع بما يتذرع به

كل دهري ملحد في تسويغ اعتقاده، إذ يزعم أن العالم فيه من المآسي والمصائب والأهوال ما لا يتفق مع كونه صنعة رب قدير رحيم! فليس مستنده أن الأدلة التجريبية دلته على أن العالم ليس له خالق! وإنما كان أن تشكك وألحد أولا، ومن ثم أسس على الملة الدهرية الطبيعية في تفسيره أصول الأنواع الحية في العالم! فعندما يقول: "فلست أقدر على أن أقنع نفسي بأن إلها رحيما وقديرا قد خلق قصدا وتصميما بعوضة الإخنومونيد عامدا قاصدا جعلها تتغذى على أجساد اليرقات الحية، أو (أراد قصدا) أن تتلاعب القطة بالفئران. فإذا لم أكن معتقدا ذلك، فإنني لست أرى ضرورة في اعتقاد أن العين مخلوقة قصدا وعمدا." فهذا تأسيس جهل بالقياس على جهل! فإنه يعلم أنه ليس في العقل السوي ما يمنع من جريان كافة تلك الأمور التي يكرهها هو ويكرهها غيره من المخلوقات، لحكمة عليا، بل حكم شتى، تحصل على وجه التمام في علم الباري جل وعلا من ذاك الطريق الذي اختاره كما لا تحصل من غيره! ولو لم يكن من حكمه سبحانه في خلق هذا الطفيل الذي ذكره مستنكرا تغذيه على اليرقة الحية، إلا أن يكون فتنة واستدراجا للجحدة المجرمين أمثاله لأن يقولوا مثل ما قال، لكفى بها حكمة عظيمة!

والقصد أن العقل السوي لا يرى في خلق الله ما خلق من الشرور والمكاره في العالم مهما كثرت واستفاضت في الأرض، ما ينقص من صفة القدرة أو من صفة الرحمة في حقه جل شأنه، فإنه ما من مخلوق من تلك المخلوقات إلا قد أحاطته نعم ربه جل شأنه التي لا يكاد يحصيها، مهما كان مبلوا بالمكاره والشرور والآلام! حتى تلك اليرقة التي يريد داروين أن يصيبنا بالألم والأسى من أجل معاناتها على يد تلك الحشرة الطفيلية المذكورة، هذه لو قدر أن علمه الله لغتها وأسمعه ما تقول لما وجدها إلا حامدة لله شاكرة لنعمه التي لا تعد ولا تحصى! قال تعالى: ((تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) [الإسراء : 44] وقال: ((وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ)) [النحل : 49] وقال: ((مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) الآية [هود : 56] وقال: ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)) [الأنعام : 38] وقال تعالى: ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)) [هود : 6] وقال تعالى: ((وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)) [العنكبوت : 60] والقصد أن آيات نعم الله تعالى على كل نفس منفوسة وعلى كل كبد رطبة وعلى كل طائر في السماء وكل حوت في البحر وكل دابة تدب على الأرض، لا يكاد العقل يحصيها، ومع ذلك يجحدها هؤلاء الجحدة المجرمون جحدا مطلقا، ثم لا ينظرون إلا إلى ما يكرهون لأنفسهم ولغيرهم من دواب الأرض من المكاره

[95] ثم يقولون: "لا نرى القدرة ولا الرحمة الإلهية تحوط بنا، بل نرى الألم والجزع والكرب الشديد"، فما نقول إلا إنا لله وإنا إليه راجعون!

بناء على هذا الجحود العظيم، يقول داروين بكل سهولة إنه لا يرى في صانع يصنع ذلك الكائن الطفيلي ليتغذي على كائن آخر على هذا النحو، لا يرى فيه أنه رحيم أو عليم أو قدير، أو في صانع يصنع القطة والفأرة ثم يجعل الفأرة لعبة للقطة تؤذيها أبلغ الأذى كلما وقعت تحت قبضتها، أن له حكمة أو رحمة بتلك الفأرة! فهل جعلك الله يا هذا شريكا له في خلقه الخلق وفي تقريره الحكم والغايات من خلقه؟ هل أطلعك على علمه ومقاصده سبحانه، وهل أخضع نفسه لشروطك أنت فيما تحبه وترتضيه من صفة الخلق أو فيما ينبغي أن يكون لكل واحد منهم من النعم والعطايا وأن يكون عليه من الملذات والمحببات لنفسه في هذا العالم، حتى تسلم أنت له بربوبيته الواجبة له عند كل عاقل؟؟ هذه هي بضاعة داروين التي أسس عليها نظريته أيها القارئ الكريم! غاية الجحود والعدوان على مقام الربوبية، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ثم يقيس خلق العين البشرية على هذا الجهل المبين الذي قرره في أمر اليرقة، يقول إنه لا غاية ولا حكمة ولا علم ولا شيء، وإنما هي الصدفة والعشواء! ثم يأتي بعد ذلك ليتباكى بدموع التماسيح على عقيدته المتآكلة في وجود الباري، التي زعم أنه لم يجد في العالم ما يقنعه بصحتها! فصدق القائل جل في علاه: ((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)) [الحج : 46]

بناء على هذا الجحود والسفسطة الظاهرة، يقرر داروين أنه لا يجد إلا أن ينزع عن رب العالمين تدبيره وتسييره لأمر العالم على ما يشاء ويختار، ليجعله مجرد إطار كلي قد "صمم القانون الطبيعي" في أول الأمر، ثم ترك العالم ليجري عليه انفصالا عن إرادته وعلمه وتدبيره، ليحصل كل شيء فيه بالعشواء والصدفة الوجودية المتأصلة بزعمه في أثر تلك القوانين! وكأنما أراد أن يصل إلى منزلة وسطى بين دهريته الطبيعية وبين عقيدة النصارى فيما يظهره للناس، الذين تخوف من مصارحتهم بعقيدته الصادمة في أول الأمر حتى مع زوجته في بيته! فيقول: اقبلوا مني طبيعيتي المحضة في تقرير قصة نشأة الحياة والأنواع على الأرض، وأنا أقبل منكم وجود الباري وعمله في العالم في حدود خلقه أسباب ابتداء تلك القصة وضبطه القانون الفيزيائي العام الذي كان سببا في انطلاقها، وإذن نبقى أولياء وأحباء، ولا تثريب علي لما جئت به، ولا أتهم بالدهرية والإلحاد، وهو المطلوب! والرجل على أي حال كان معروفا بالجبن والفرار من المواجهة، ولم يطلبه أحد للمناظرة إلا فر منها، وكان يكتفي بجهود الغلاة من أتباعه وتلاميذه في عصره أمثال "توماس

هنري هاكسلي"، كلبه الوفي الذي كان يعقد المناظرات العلنية على نظريته وينتصر لها بضرواة في حياة داروين نفسه!

وتأمل كيف ينقض في آخر كلامه أوله، إذ يقول: "وإن كنت لا أجد في تلك الفكرة ما يرضيني. فأنا أشعر بعمق بأن المسألة كلها هي أعمق غورا بكثير من قدرة العقل البشري. فما نحن معها إلا كحال كلب يحاول استكشاف عقلية نيوتن."، قلت: فيا هذا إن صدقت في شعورك هذا، فما بالك تبدأ دعواك باتهام ربك بأنه لا حكمة له ولا رحمة ولا علم ولا قدرة، لمجرد أن ساءك ما رأيت من تطفل البعوضة على اليرقة وتلاعب القطة بالفأرة؟؟ هلا أنزلت نفسك منزلة ذلك الكلب الذي ضربت به المثل، فأرحت نفسك وأرحت الناس من جحودك وهواك ومرض قلبك؟! إن العاقل لا يملك إلا أن يعجب من الفيلسوف الدهري كيف يبدأ أولا بإطلاق الدعاوى العريضة الفاحشة بشأن العالم وما وراءه وما كان من أمره وما هو صائر إليه، وكأنما شهد ذلك كله وشارك فيه باريه جل في علاه، ثم تراه هو نفسه يأتي بعد ذلك ويقول – في ورع بارد – إن هذه المسألة أعلى وأرفع من العقل البشري وما مثلنا منها إلا كمثل النملة على ظهر الفيل أو الكلب يتأمل في عقل نيوتن أو نحو ذلك!! فما الذي صنعته أنت بعقلك يا هذا إذن، وما ظنك أنت بعقل نفسك، إن كنت تنزل عقول عامة البشر تلك المنزلة؟ سبحان الله العظيم!

والواقع أن ظهور الربوبية النصرانية Christian Deism كان متقدما على داروين، إذ ظهرت في القرن السابع عشر الميلادي، في جملة إرهاصات حركة التنوير الأوروبية. ويقول أصحابها بأن المسيح ليست ربوبيته المزعومة عند عامة النصارى إلا تجوزا في الكلام، وليس الثالوث إلا طريقة لتعظيم المسيح كمؤسس لها، وتعظيم قانون الطبيعة (كما هو تأولهم للروح القدس)! وقد بلغت الربوبية بأصحابها أن أحدث توماس جيفيرسون (أحد الآباء المؤسسين لأمريكا) في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، تعديلا على الكتاب المقدس عند النصارى، سماه بإنجيل جيفرسون، حذف فيه كل ذكر لأعمال الرب بالغيب وللمعجزات وخوارق العادة التي أحدثها لأنبيائه ونحو ذلك، حتى يتوافق الكتاب مع ربوبية الرجل واعتقاده بأن الرب إنما هو المحرك الأول للطبيعة وقانونها، لا أكثر ولا أقل! وإذا كان حلولية النصارى يتعلقون بفلسفة الثالوث كأصل لتجويز فلسفتهم، فهؤلاء يتعلقون بالنحلة القدرية عند النصارى، يقولون إذا كنا نعتقد – بالفعل – أن الإنسان لا سلطان للرب على أفعاله وخياراته الحرة بحال من الأحوال، ولا نرى وجها لإثبات حرية الإرادة في الإنسان إلا بذلك، فما المانع من القول بأن الرب لا يتسلط على النظام الطبيعي بكليته كذلك، ولا يتدخل فيه بشيء، وإنما يتركه ليجري على حوادث ناشئة عن تأثير الطبائع بعضها في بعض، تلك الطبائع التي كان هو خالقها في الأصل ومركبها في مادة العالم؟

وقد تقدم نقل طرف من كلام بعضهم في تسويغ الجمع بين القول بالعشوائية الوجودية المتجذرة في آليات داروين والقول بأن للعالم خالقا قام بأمره وأجراه على ما أراد! فلا شك أن الداعي للقول بالربوبية أو بخليط بينها وبين وحدة الوجود الطبيعية بصورة ما أو بأخرى، قد تضاعف عند النصارى في القرن التاسع عشر الميلادي بعدما لقي كتاب داروين "في أصل الأنواع" ما لقيه من رواج بين المشتغلين بالطبيعيات في أوروبا وأمريكا. فإذا كانت أظهر آيات الخلق الإلهي في الأرض، التي لا تذهب الأذهان وتميل القلوب إلى ما هو أظهر منها عند ذكر صنعة الرب جل شأنه في هذا العالم، ألا وهي تلك المخلوقات الحية البديعة بالغة التنوع، واسعة التباين في الهيئات والصفات والمسالك، إذا كانت تلك الآيات قد تحولت على يد داروين إلى مجرد ثمرة متحتمة (سببيا) على جريان القانون الطبيعي على نحو ما جرى عليه في هذا العالم، في إطار الأنطولوجيا والميتافزيقية الدهرية الطبيعية، ثم انضاف إلى ذلك ميثولوجيا نشأة الكون نفسه في نظرية الانفجار الكبير، التي تجعل الجاذبية هي القوة الفاعلة الخالقة لكل شيء، فلم يبق إذن أمام النصراني المتمسلك بنصرانيته إلا أن يعتنق الربوبية على صورة من صورها، إن لم يكن تعجبه مقالة موحدي الوجود الطبيعي لسبب ما أو لآخر!

فالواقع أن القائلين بهذه النحلة التمهيدية الابتدائية، أو بالآلية العشوائية المخلوقة Created Random Mechanism / Created Chance أو إن شئت فقل الصدفة النظامية Systemic Chance، هؤلاء أكثرهم دهرية ربوبية على أحسن الأحوال، غير أنهم يجبنون عن التصريح بعقيدتهم، فيظهرون البقاء على دينهم ويبطنون الدهرية المحضة! ولا يزال المتفلسفة الغلاة من أهل الملل في بلاد الغرب ممن كانوا في الأصل أهل كتاب، يجدون في التعلق بالإله الربوبي هذا ما يشبه أن يكون منطقة وسطى بين الدهرية المحضة التي يقتضيها قبول المبدأ الإبستمولوجي الذي تقوم عليه نظريات الميتافزيقا الكوزمولوجية عند الفلاسفة ونظريات النشأة الطبيعية Theories of Origins (التي برزت وتعاظمت في عصرنا هذا تعاظما لم يكن له نظير في القرون السالفة)، وبين العاطفة الدينية الناقمة على الإلحاد وأهله، المتمسكة بإله بني إسرائيل وبإله النصارى المثلث، التي لا تزال سائدة في بعض المجتمعات الغربية، لا سيما المجتمع الأمريكي ذي الغالبية البروتستانتية المتدينة. وقد ذكرنا في الباب الأول أنهم يجنحون إلى القول بالاتحادية وبإدخاله في مادة العالم نفسه. فهم لما جرى بهم التنظير الدهري الطبيعي حتى جعلوا الواقع كله هو هذا "الكون" أو العالم كما يرونه، لم يبق أمامهم إلا نفي الصانع بالكلية (لأنه لا يبقى إذن غيب يجعلونه فيه!)، أو جعله والعالم متحدين أو أن يكون حالا في العالم بصورة ما أو بأخرى، فيكون هو كله أو بعضه! هذا هو الأصل في الدهرية الطبيعيين منذ أن نشأت الأكاديمية

الطبيعية اليونانية كما بيناه في غير هذا الموضع. ثم لما انفتح أمامهم باب التنظير في تاريخ العالم وأصله ونشأته الأولى، فيما يسمى الآن بالكوزمولوجيا أو الكونيات، إلى جانب حتمية لابلاس والوضاعة الكوبرنيكية والمبدأ الكوزمولوجي وغير ذلك من المفاهيم الدهرية الكلية التي تضافرت خلال القرون الست الأخيرة، ظهر القول بالربوبية Deism مع الاتحادية في نفس الوقت، وأخذ القوم في إزاحة ذلك الكيان التجريدي الوهمي إلى ما قبل قصة النشأة الطبيعية، فقال بعضهم بالإله الربوبي الاتحادي السبينوزي Pantheistic God of Spinoza، أو "إله أينشتاين" كما صاروا يسمونه، وامتن بعضهم عليه بشيء من الفاعلية والربوبية بأن جعله هو خالق فردية الانفجار المزعوم، تلك النقطة المكثفة التي انتفخت فظهر منها كل شيء، ثم لم يكن له فعل ولا صفة ولا شيء سوى ذلك! وقد تنوعت وتلونت تصورات الطبائعيين العالمانيين ممن هم في الأصل من أهل الكتاب، في تصور ذلك الإله العدمي، في إطار ما يسميه البعض بالاتحادية الطبيعية / Naturalist Scientific Pantheism، وأكثرهم ما يقول به إلا من باب التقية أو المداهنة الاجتماعية والمصانعة السياسية Political Correctness لا غير، كما تراه في كلام داروين نفسه ومراسلاته لأقرانه التي مر معك نقل طرف منها، بل وفي أغلب ما أُثر من مناقشاته مع زوجته المتدينة كما أشرنا آنفا!

فإذا كان الاعتقاد الميتافزيقي الأساسي هو أن الطبيعة هي الواقع الخارجي Nature is all reality، قد استوعبته تمام الاستيعاب، فلا غيب وراءها ولا موجود سواها، وإذن فلا علة ولا سبب ولا خالق غيرها، أو غير شيء حال فيها أو مركب فيها. فمن أراد أن يتعلق بإثبات إله على هذا الاعتقاد الميتافزيقي الدهري المحض، فليس أمامه إلا إله الفلاسفة الاتحادي، إله آباء الأكاديمية الطبيعية اليونانية القدماء، كطاليس وأناكزيماندر وغيرهما، ذلك الفرض الوهمي الذي غايته أن يكون محركا للطبيعة من داخل الطبيعة، مستغرقا في كل ركن منها، أو أن يكون هو الطبيعة نفسها على التحقيق Mother Nature، وكما هو اعتقاد كثير من الوثنيين القدماء، أو أن يجعلوه دفقة من الطاقة الغامضة، انبثق منها العالم ثم لم يعد لها وجود إلا بقايا مبثوثة في هذا العالم نفسه، كبوزون هيغز مثلا، على اعتقاد بعضهم، أو نحو ذلك مما يتفنن الفلاسفة الدهرية نفاة الباري جل وعلا في اختراعه من تصورات للعلة الأولى الطبيعية!

والواقع أنه كلما أغرق المرؤ في التفلسف الميتافزيقي وفي تصور العالم بكليته على طريقة الفلاسفة الميتافزيقيين والطبيعيين، يقيس غيبه على شهادته ليصل فيه إلى أحكام كلية كونية Universal Metaphyiscal Claims about the World، أثمر ذلك في دينه المزيد من تعطيل صفات ربه وأفعاله جل شأنه لا محالة، حتى يكون المنتهى هو نفي الغيب والتكذيب

بوجود الصانع بالكلية، أو جعله هو هذا العالم المحسوس بعينه [96]! ولهذا تجد الفلاسفة أعظم تعطيلا (بالمجمل) من المعتزلة الجهمية، والمعتزلة أعظم تعطيلا من الأشاعرة والكرامية ومن لف لفهم!

نقول إن هذا الصنف من المذاهب، مذاهب تجريد الرب من صفات الربوبية خدمة للنظرية الميتافزيقية والكونية التي يعتنقها الفيلسوف أو اللاهوتي أو المتكلم، مع البقاء على إثبات صانع ما، ينتهي بأصحابه إلى إحدى نحلتين أساسيتين في صفة الرب (إجمالا)، سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا، أو إلى خليط بينهما:

> الصانع الذي لا صفة له البتة، أو الموصوف بالمتناقضات، الذي بدأ خلق العالم "بفعل" فعله قبل أن يكون في الوجود "زمان" أصلا، فكان قبل خلق الزمان ثم خلقه (أي كان قبل أن يصح، بحسب ميتافزيقا النسبية العامة، وجود ما ينطبق عليه معنى كلمة "قبل" نفسها، وهذا تناقض ظاهر!)، فلا هو فاعل ولا غير فاعل، ولا هو حي ولا ميت، ولا هو خالق ولا غير خالق .. إلخ، ثم مكث بعد الخلق خارج الزمان والمكان، منفصلا عن العالم وما يجري فيه، فلا هو موجود ولا غير موجود! فهو لا يوصف إلا بالمتناقضات، على طريقة: لا داخل العالم ولا خارجه! وهو مع كونه هو سبب كل شيء، إلا أنه رب لا فعل له ولا "تدَخّل" في نظام العالم، فلا يكون سببا في أي حادث من حوادث العالم نفسه، لأن العالم عند القوم نظام مغلقة سببيته على نفسه Causal Closure في إطار قياس الماكينة الديكارتي والنيوتوني Machine Metaphor / Analogy، أي أن العالم عند هؤلاء محصورة أسباب كل حادث فيه في حوادث أخرى واقعة فيه كذلك، فلا محل في تلك الماكينة "المغلقة" لسبب من خارجها البتة! [97] فقالوا إذا كانت الطبيعة ماكينة يمكن – مبدئيا – التنبؤ بحال كل جزء منها في المستقبل بالنظر إلى جريان بقية أجزائها، فكذلك العالم، إن قدرنا أن تمكنا في يوم من الأيام من استكشاف كافة قوانين الفيزياء الحاكمة لكل جزء منه، واستطعنا أن نتتبع كل حادث من حوادثه في اللحظة الحاضرة، فلابد – نظريا – أن يكون بإمكاننا التنبؤ بالمستقبل تنبؤا قطعيا جازما، لتحتم جريان نظام العالم على ما عهدناه منه. وإذا كان هذا هو تصور نظام العالم، فلا مدخل إذن لإثبات فعل إلهي أو خلق أو تدبير أو نحو ذلك، يوصف بأن ((لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)) [الشورى : 12]، إذ لا محل للسببية الغيبية في تلك الماكينة المزعومة ألبتة! وهذا المذهب

يخلص أصحابه منه إلى القول بالربوبية الكوزمولوجية كما بينا Deism.
الصانع الذي هو عين المصنوع أو جزء منه، والخالق الذي هو عين المخلوق كله أو بعضه، فلا حقيقة له (من حيث الصفات والأفعال) إلا جملة القوانين الطبيعية التي يعتقدون أنها خلقت كل شيء! ولا ينفك الدهري كما قدمنا في أول باب من هذا الكتاب، عن تنزيل صفات الربوبية (لا سيما صفة القيومية) على هذا العالم المخلوق، مع نفي الرب سبحانه، وهذا لازمه لا محالة. أما عند هذه الطائفة، فلا يقولون بالصانع المعطل الربوبي، بل يثبتونه هو عين المصنوع! فيصرحون بجعل الطبيعة الأم (مثلا) Mother Nature هي الرب الخالق الذي بيده مقاليد كل شيء. وهذا مما يقتضيه قياس الماكينة كما تقدم، وإنما التزم هؤلاء ذلك اللازم خلافا لأولئك الذين جعلوا الصانع مجرد شرارة بدء انقدحت في الماضي السحيق! فبهذا المفهوم الاختزالي للسببية (الذي أصبح يعرف بحتمية لابلاس Laplacian Determinism)، يصبح العالم مستغنيا عن رب بالغيب يقوم به ويمسكه عن الزوال، يدبره ويسيره بأمره وتقديره، وإنما تصبح القوانين السببية الطبيعية هي الحاكم الأوحد لجريان الحوادث في العالم، وإذن تصبح هي الرب نفسه عند كلتا الطائفتين، يصرحون بنسبة صفات الربوبية إليها خلافا لسابقيهم! وهذا المذهب عبر عنه بعضهم بالاتحادية الطبيعية Naturalist Pantheism كما أشرنا آنفا.

أي أنك إن كنت – كمتخصص في الطبيعيات - متشبعا بالميتافزيقا والكوزمولوجيا الطبيعية، متشبعا بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism، مع جهل عميق بعقيدة المسلمين، فإن كنت حريصا على البقاء على دينك الأول، فأنت ماض لا محالة في تعطيل صفات ربك جل وعلا، وتجريده من ربوبيته، بما قد يصل به إلى أحد هذين المذهبين أو كليهما معا (على ما في الجمع بينهما من تناقض)، مع السعي في تلبيس ذلك الإله الربوبي الاتحادي الوهمي لبوس الإله الذي يعبده أقرانك من أهل القبلة، تعيد تأويل نصوص الدين حتى تقنع نفسك والآخرين بأن ما اخترته لنفسك من الاعتقاد في صفة ربك وأفعاله هو ما جاء به الإسلام، وهو ما يجعلك – على التحقيق - أكثر تناقضا في نظامك الاعتقادي من الدهرية الملاحدة أنفسهم، والله المستعان!

هذا التلبيس الاعتقادي (التخليط بين عقيدة المسلمين وعقيدة الدهرية الطبيعيين) ليس حادثا بلا مثال سابق أو "سلف مشترك"! بل سبق إليه أهل الكتاب كما بينا، فلا يزالون يدخلون جحر الضب فيدخله من ورائهم من لا

خلاق لهم من أهل القبلة، يهلكون معهم حيث هلكوا، نسأل الله السلامة! قال اللاهوتي النصراني الألماني ديتريش بونهوفر Bonhoeffer (الذي قتل إبان الحرب العالمية الثانية): [98] "لقد تعلم الإنسان أن يتفاعل مع جميع الأسئلة ذات الأهمية دون اللجوء إلى الإله كفرضية بحثية..... فقد أصبح ظاهرا بالأدلة (وحتى فيما يتعلق بالأسئلة الدينية) أن الأمور كلها تجري على نحو حسن بدون الإله تماما كما كانت تجري من قبل" اهـ. ويزعم الفيلسوف "ميتشل سيلفر" أن اللاهوتيين النصرانيين الألمانيين أيضا بول تيليخ Tillich ورودولف بولتمان Bultmann قد حاولا تحرير نظام اعتقادي نصراني يمكن أن يصح بكليته دون إثبات كائن فائق للطبيعة Supernatural Being بالضرورة. ذكر ذلك في كتاب ألفه بغرض إقناع اللاهوتيين اليهود والنصارى المعاصرين على السواء، بأن محاولاتهم اختلاق إله جديد New God يلائم الفلسفة الحداثية Modernism ويبقيهم – مع ذلك – متعلقين (إسميا) بمللهم القديمة، إنما هو عمل متهافت لا قيمة له، لأنه في النهاية يبدل الملة تبديلا تاما، يجعل حقيقتها الدهرية والإلحاد المحض Atheism، المحلى ببعض النصوص عديمة القيمة، وبعض التقاليد الدينية العقيمة، وإن سموه لاهوتا يهوديا أو نصرانيا Theology![99]

وصدق ولا شك! فإن أصل أصول الدين – أي دين – إنما هو الاعتقاد في صفة الباري الذي به يتعلل كل شيء، ومنه يتلقى العلم بالغاية التي من أجلها نحيا ومن أجلها نموت! فإذ بدل ذلك الأصل وحرف إلى حد أن صار المعبود غير المعبود والمألوه غير المألوه، بل حتى صار القوم لا يعبدون شيئا على الحقيقة، وأحيلت معاني كافة الشعائر ومضامين كافة العبادات والتقاليد الدينية عندهم إلى المجاز أو الباطنية المحضة Esoteric Mysticism، فلا يصح في العقل أن يزعم أحدهم مع ذلك أنه لم يبدل دينه ولم يتحول من دين إلى دين! ولهذا لما كانت الكنيسة النصرانية الكاثوليكية ذات سطوة وسلطان، كانت تحكم على مبدل دينه بأنه مرتد مهرطق، وأيا ما كان الموقف الذي يُتخذ منه، فلا يقبل بحال من الأحوال أن يقال إنه نصراني Christian، قد خالف الكنيسة في مسألة ما مع البقاء على نصرانيته! فعل سبيل المثال، لما أظهر الفلكي والراهب الإيطالي المدعو "جورديانو برونو" عقيدة وحدة الوجود Pantheism، على أثر ميتافزيقاه الفلكية الكوبرنيكية إذ زعم أن السماء لا نهاية لها، وإذن فلابد أن يكون الرب هو الطبيعة، وقرر ذلك على أنه هو اعتقاد النصارى، (وكان من أوائل من عطلوا الإله تحت شعار النصرانية، إلى حد إحلال الطبيعة نفسها في محله!) لم تتردد الكنيسة في قتله في مطلع القرن السابع عشر الميلادي، بل أحرقته حيا! أما اليوم، في ظل ثقافة حرية التعبير العلمانية هذه، فلا حد ولا ضابط ولا مانع ولا يعرف العامة من أهل الدين – أي دين – أين ينتهي دينهم ويبدأ غيره، إلا من رحم الله!

فعندما ينتهي تيليخ – مثلا – فيما نقله عنه سيلفر في كتابه، إلى القول بأن الإله ليس كائنا A Being وإنما هو الكينونة نفسها Being Itself، فهذا رجوع بالاعتقاد في الصانع إلى نظير ما كان عليه فلاسفة اليونان القدماء من إذابة تامة لذات الرب الموصوفة بالفاعلية والإرادة والحكمة والعلم، التي تأمر وتنهى، وترسل الرسل وتسمع الدعاء وتقضي بما تشاء في الأرض والسماء .. إلخ، لصالح عبارة ميتافزيقية تجريدية مجملة للغاية Generic تناسب أي اعتقاد في صفات الرب، حتى من كان هواه أن يعطله سبحانه عن جميع صفاته وينفي تعين ذاته في الخارج نفيا كليا، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فما أشبه ذلك بقول الفلاسفة القدماء (الذين تابعهم توما الأكويني إجمالا) بأن وجود الإله هو عينه أو هو ماهيته بإطلاق، أي أنه هو "الوجود" المحض، الذي يتصف به كل موجود! وهو ذلك القول الفاسد الذي أشبعه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ردا ونقضا في غيرما موضع من كتبه، إذ يحيل الرب تبارك وتعالى إلى معنى مجرد في الأذهان لا في الأعيان! وهذا المسلك، مسلك إحالة الرب إلى حقيقة ذهنية محضة، لا وجود لها إلا في العقل، وفي بعض صور العمل العقلي والنفسي، وأنه إن كان له من تأثير على عالم الأعيان، فإنما هو تأثير العقل نفسه والوعي البشري على العالم، كتأثير الراصد على الواقع الكوانطي المرصود (على حسب تأويل كوبنهاغن الفاسد الذي أطلنا النفس في إبطاله في "آلة الموحدين")، هذا المسلك الربوبي الاتحادي قد بات من جملة المذاهب اللاهوتية الحداثة الجديدة التي يحاول التائهون من أهل الكتاب، الغارقون إلى آذانهم في الطبيعية الميتافزيقية والعلمانية المعيارية، أن يصوغوها صياغة تبدو أكثر "إقناعا" وقبولا لدى عامة رواد الكنائس والمعابد في المجتمع الغربي المعاصر! فما الذي يحمل هؤلاء اللاهوتيين على أمثال تلك المقالات الفاسدة الهادمة لصريح المعقول؟ إنما هو حرصهم على تكلف اصطناع إله يرتضيه الدهرية الطبيعيون الأكاديميون ويبدو ملائما لميتافزيقاهم الطبيعية والكونية إجمالا متناسقا معها، أو على الأقل يكون بحيث لا يسفهونهم به إذا صرحوا – على اشتغالهم بتلك الميتافزيقا وانخراطهم في أكاديمياتها - بأنهم يثبتونه!

ولهذا نقول إن المعطلة يحرفون الدين إلى الحد الذي قد يبلغوا به أن يخلعوا ربقته من أعناقهم بالكلية، كما كان من الجهمية الأوائل الذين عطلوا سائر صفات الرب جل وعلا، فأجمع السلف على إكفارهم! فمن فرط افتتانهم بفلسفات الدهرية المعاصرين لهم، لم يبال القوم بركوب مطايا الاقتضاء واللزوم في التعطيل والتمثيل، إلى حد تعطيل صانعهم عن جميع صفاته وتحويله إلى معن ذهني فاسد لا حقيقة له في الأعيان، ولا حول ولا قوة إلا بالله! يقولون بلسان الحال: فليكن الرب لا داخل العالم ولا خارجه، ولا إشكال، المهم ألا نقف في حرج بين أيدي الأكاديميين القائلين بنظرية الجوهر والعرض التي لا يكون الشيء فيها موصوفا بأن له "مكان" أو "جهة" إلا أن

يكون جوهرا تتوارد عليه الأعراض! أو ليكن الرب مجالا خفيا في عالم الكوانطا، يملأ جنبات العالم، أو كيانا افتراضيا في بعد من الأبعاد الفراغية الإضافية المزعومة، وبعد من الأبعاد الزمانية الموهومة، حتى لا يقال لنا إن الزمكان الأينشتايني يمنع من وجود شيء خارجه، إذ لا معنى للداخل والخارج المكانيين ولا للقبل والبعد الزمانيين إلا في إطار الزمكان الوجودي! أو ليكن الرب هو عين الوجود نفسه، حتى لا يقال لنا إنكم تثبتون شيئا عينيا موجودا خارج العالم، مع أن ميتافزيقانا لا تسمح بوجود "خارج" للعالم! بل ليكن هو العالم نفسه بكليته، الذي لا موجود بحق سواه، فهو الفعل والانفعال، والتأثير والتأثر، وهو الوجود الأحدي الذي لا يتعدد .. إلخ، أليست هذه هي "الحقيقة الصوفية" أو "علم الباطن" الذي يتوصل إليه الأولياء والعارفون بعد طول عناء وبذل وانقطاع عن الدنيا، يكتشفون بالذوق والعرفان أن "الحضرة القدسية" قد استغرقت كل موجود؟؟ فلنصل نحن إلى ذلك من دراسة الطبيعيات والكونيات كما وصلوا هم من طريق الكشوفات والتجليات، وهنيئا لنا ولهم! أو ليكن معنى فعل الخلق واسم الخالق هو مجرد إشارة أطلقت في كسر من مليار كسر من الثانية في ابتداء الزمان، لا أكثر ولا أقل، من ذات لا توصف إلا بالسلوب المحضة (لا كذا ولا كذا ولا كذا .. إلخ) نزعم ذلك حتى لا نتهم بأننا نرفض كوزمولوجيا الانفجار نفسها، أو على الأقل لا يقال إننا لا نبالي باختترام المنهج "العلمي" الذي عليه تأسس "العلم بتاريخ الكون" عند الطبيعيين!

المهم أن ننحت لأنفسنا اعتقادا جديدا في صفة الباري الذي نثبته، نسلك به سبيلا نرجو أن تكون مرضية عند رؤوس الأكاديمية الطبيعية الكبار! هكذا قولهم بلسان الحال على اختلاف نحلهم ومذاهبهم التلفيقية المخزية، ومع ذلك، لا يقابلهم الطبيعيون الذين قدموا دينهم قربانا لرضاهم، إلا بالتسفيه والتسخيف في كل مناسبة، وحق لهم أن يفعلوا! يقولون "كفاكم تكلفا ولا تحشروا إلهكم في فجوات نظرياتنا حشرا"، وحق لهم أن يقولوها، فهم كذلك يفعلون، وإنا لله وإنا إليه راجعون! فوالله لا يرضوا عنكم حتى تتبعوا ملتهم، فافهموها إن كنتم تعقلون!

قال ريتشارد دوكينز، أنشط دعاة الدهرية الداروينية في هذا العصر، في كتابه "توهم الإله": "إن الإله المجازي Metaphorical أو الاتحادي Pantheistic الذي يؤمن به الفيزيائيون، لهو أرقى بسنوات ضوئية من إله الإنجيل الذي يتدخل في شؤون الخلق، يصنع المعجزات، ويقرأ الخواطر والأفكار، ويؤاخذ بالمعاصي والذنوب، ويجيب الدعاء، الذي يؤمن به الرهبان والملالي والأحبار، ويشار إليه في لغة العامة Ordinary Language. فالخلط المتعمد بين الاثنين، هو في رأيي، خيانة فكرية عظمى." اهـ. [100] قلت: فإذا كان هذا هو موقف الدهرية من إله الفيزيائيين المذكور، فلابد أنه هو كذلك موقف أولئك اللاهوتيون والجهمية المفتونون، الذين أبوا إلا أن يجعلوا إلههم على تلك

الصفة المتنحية التي نالت إعجاب القوم، أو على أقرب ما يكون إليها، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ونقول لهم: أكملوا طريق النفي والتعطيل والسلب إلى نهايته، ألا وهي التصريح بالانخلاع من ملة الآباء بالكلية وتكذيبها وإبطالها بالكلية، ويا حبذا لو تصرحوا بشتم الإله الذي يعبده أهل ملتكم وبتسفيهه ونسبته إلى الخرافة والأسطورة، إن أردتم غاية الاحترام والرضا من دوكينز وأمثاله، فهذا هو المطلوب بإيجاز، فهو غاية الرقي والعلو بالفكر والعقل والعلم عندهم كما تعلمون! أم تراكم تجبنون؟؟ فلا نامت أعين الجبناء!

تقدم في الباب الأول من هذا الكتاب، بيان أن الملة الطبيعية الصرفة Naturalism مآلها إلى الشرك الطبيعي لا محالة، وأن الذي يقول لا موجود إلا الطبيعة، فيلزمه القول بأنه لا إله إلا الطبيعة لا محالة، كلها أو بعضها، سواء صدَّق ذلك اللازم بلسانه أو كذبه! [101] إذ لابد لمن نفى وجود الباري سبحانه في إطار التكذيب بالغيب وما فيه، من أن ينزل صفات الربوبية والتعليل والحكمة البالغة وراء نظام الكون بكليته، على الكون نفسه، كله أو بعضه، بصورة من الصور، وذلك أنها واجبة الوجود في شيء ما لا محالة، ولا يتعلل قانون الطبيعة نفسه ونظامها المحكم تام الإحكام إلا بتلك الصفات والأفعال! فإن لم يكن الرب الباري جل وعلا هو فاعلها الموصوف بها، فلابد للتسلسل أن ينتهي عند الطبيعة نفسها، أو عند الكون المتعدد Multiverse، الذي يعتقد بعضهم أنه هو الأب الذي ولد منه هذا العالم ونشأ عنه وتعلل به وبنظامه وقوانينه التي خلقت نظام عالمنا وقوانينه في الفردية المزعومة، أو أن ينتهي التسلسل إلى الاضطراب الكمومي Quantum Fluctuation الذي خلق الكون صدفة بزعمهم، أو عند صانع ذكي ينتمي إلى عالم مواز – مثلا – هو فيه مخلوق ناشئ عن ارتقاء كارتقائنا، إلى آخر ذلك العبث والهراء الاتحادي Pantheistic Baloney الذي يأتي به هؤلاء من خيالهم الخصب الفياض، لا لشيء إلا ليقرروا عدم افتقار العالم إلى صانع بالغيب كامل الصفات، عليم حكيم مريد، بائن منه قائم عليه، يفعل فيه ما يريد! وعليه يصبح لكل سبب طبيعي سبب طبيعي متقدم عليه، إلى غيرما بداية! ومع أنهم يعلمون أن تسلسل العلل لا ينتهي ولا يمكن أن ينتهي بهذه الأوهام والخرافات التي زعموها عند تعليلهم أصل الكون ونشأته ونشأة نظامه، وأن وجوب انتهائه عند بداية ما في الماضي هو أمر بدهي ضروري، وأن ذلك التسلسل يترك هيئة العالم والطبيعة التي هو عليها بغير مرجح يرجحها بخصوصها على كل ما سواها مما كان من الممكن أن يكون عليه هذا العالم ونظامه وما فيه من أنواع المخلوقات، إلا أنهم يصرون على الزعم بأن في مبدء القانون الطبيعي نفسه علة كافية لا تحتاج إلى ما يعللها من خارجها، وينتصرون لذلك الاعتقاد انتصارا دينيا محضا، كما بيناه في موضعه من هذا الكتاب!

فهم لم يتكلفوا ما تكلفوه من اقتحام الغيب المحض وغزوه بالتنظير والقياس الطبيعي، إلا من أجل أن يصلوا في النهاية إلى أن يقولوا: ليس في الوجود شيء وراء الطبيعة أصلا، ولا متسع لذلك الرب الذي يأمر وينهى ويتوعد الكفار بجهنم وبئس القرار! فليكن ربا ماديا لا علم له ولا حكمة ولا حياة ولا فعل ولا إرادة، ليكن سببا طبيعيا أزليا قديما لا تزال تنشأ منه القوانين الطبيعية وتتولد على نحو لا يتصورونه، هذا المعنى يقبلونه بل يقولون به على صور شتى، أما رب إبراهيم وبني إسرائيل، رب موسى وعيسى ومحمد، الذي أرسل الرسل عليهم السلام وأنزل الكتب وخلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملا، فهذا لا يبغضون شيئا كما يبغضونه، لعنهم الله، ولا يمانع أحدهم من أن يجعل نفسه عبدا لنظام كوني خالق موهوم، أو لكائن فضائي مزعوم، ولا يكون عبدا لذلك الرب الملك العزيز، الذي جاءت بخبره الرسل، أنه يقيم قيامة الأرض ثم يحشرهم إليه جميعا! [102] فوالله ما يستحقون الهواء الذي يتنفسونه ولا الماء الذي يشربونه ولا الدم الذي يجريه الله في عروقهم، ولكن لو كانت الدنيا تزن عند ربك جناح بعوضة ما سقى فيها كافرا شربة ماء! فذرهم يخوضوا ويلعبوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون! ذرهم يبلغوا غاية وسعهم في الاستكبار على ربهم وخالقهم، ولينتظروا إنا منتظرون!

وعلى أي حال، فقد قدمنا في ابتداء هذا الباب ببيان أن الابتدائيين هم أكثر الدراونة المنتسبين إلى الملل الكتابية إغراقا في تعطيل صفات الباري سبحانه وتعالى، وأنهم في الأعم الأغلب طبيعيون دهرية إنما يريدون ذر الرماد في العيون حتى لا يتهموا بمفارقة ملة الآباء! فالقول بالانتخاب الطبيعي مع الطفرة العشوائية، يقودهم لا محالة إلى نظير ما انتهى إليه داروين من اعتقاد في حق ربه وباريه جل شأنه: أنه كان هو الذي بدأ كل شيء ثم تركه ليمضي كيفما تمضي به قوانين الطبيعة! وكما أغرق الفلاسفة القدماء في التفلسف من أجل تجويز عالم قديم مع كونه في نفس الوقت مخلوقا مصنوعا، ترى اليوم المسلك نفسه يسلكه فلاسفة لاهوتيون معاصرون، يشرع أحدهم في محاولة تلبيس الكوزمولوجيا الطبيعية المعاصرة والارتقائية الداروينية لبوس النظام المخلوق Created System فلا ينتهي إلا إلى ما لازمه إحدى البائقتين، أو كلتاهما معا: القول بوحدة الصانع والمصنوع Pantheism، أو بتهميش الصانع Deism وتصييره صنما لا حياة فيه!

تأمل على سبيل المثال تفلسف اللاهوتي الكاثوليكي والفلكي الأمريكي جورج كوين G. Coyne (مدير مرصد الفاتيكان سابقا)، في محاولته الجمع بين الارتقاء النيوداروينى والكوزمولوجيا الارتقائية الانفجارية من جانب، وبين مبدأ الاعتقاد في الخلق Creation وفي وجود خالق من الجانب الآخر، بغية الرد على الخلقويين القائلين بالتصميم الذكي في مطلق زعمهم بأن العلم الطبيعي يفتقر إلى "نظرية في الخلق" Creation Theory! ففي مقال له

بعنوان "الارتقاء والتصميم الذكي: من يحتاج إلى الإله؟" Evolution and Intelligent Design: Who Needs God? نشره جوزيف سيكباخ الإسرائيلي وريتشارد غوردون الكندي في سنة 2009 الميلادية في كتاب ضخم جعلاه بعنوان "العمل الإلهي والانتخاب الطبيعي: العلم والإيمان والارتقاء" Divine Action and Natural Selection: Science, Faith and Evolution، استلهم كوين ميتافزيقا "توما الأكويني"، فوضع للخلق تعريفا ميتافزيقيا يجعله هو التعليل التام لمطلق الوجود لا أكثر، أي هو ما يتعلل به مطلق وجود العالم من الأساس، كيفما كان حاله، جوابا للسؤال: "لماذا يوجد شيء بدلا من لا شيء"، مفرقا بين ذلك وبين موضوع السؤال الذي يجاب عنه بما بات يعرف في أدبيات الطبيعيين "بمسألة الأصل" Origins، فيجعل الخلق متوجها إلى السبب الأول أو إلى ما رجح وجود الكون على عدمه، ثم أبقى النظام بكليته كما هو، ويجعل مسألة الأصل التي صارت محل بحث الكوزمولوجيين والأحيائيين المعاصرين متوجهة إلى عمليات التغير والتحور والتطور التي تطرأ داخل ذلك النظام نفسه، فلا تكون "خلقا" بناء على ذلك التعريف، ولا علاقة لها بمعنى الخلق أصلا! فإذا قال الدارويني إن الإنسان "نشأ" – مثلا – بالارتقاء من القردة العليا، لم يكن في كلامه ما يمس مسألة الخلق ولا ما يتعلق بها من قريب أو بعيد! وإذا قال إن الانفجار الكبير نشأ عن فردية في محيط من الفراغ الكمومي Quantum Vaccum لم يكن في كلامه ما يعترض به على الخلق أو يتعلق به، لأن تلك العمليات كلها إنما هي عمليات "تغير" Change لا عمليات "خلق" Creation! بل ولو قال إن ما يسميه العقلاء في جميع لغات البشر بالمخلوقات Creatures ليس إلا "مغيَّرات" على الحقيقة مثلا، ولا علاقة لمعنى الخلق بنشوئها لا أنواعا ولا أفرادا، وإنما هي تغيرات داخل النظام الوجودي تحدثها سنن الطبيعة، لزم صاحبنا أن يقبل منه! فالخلق عنده ليس إلا إقامة البنية الأساسية التي يتركب منها الكون، تلك البنية لا يزال الصانع الذي يؤمن به كوين يمدها بأسباب الوجود، يبقيها على ذلك الحال الذي تجري فيه حوادث النشأة كلها على نحو ما يزعمه الطبيعيون! فهذا هو غاية معنى الخلق على مذهبه! أما أن يكون في نظام العالم نفسه موجودات أو أجزاء يصح أن يقال لها إنها "خُلقت" بأعيانها أو إن الله خلقها، فهذا على مذهبه لا يصح، وإنما يقال في حدوثها إنها "نشأت" بتغيرات تجري على نظام الطبيعة، لا أنها "خلقت"!

قال كوين في مقدمة المقال:

> إن مفتاح فهم الفارق بين الخلق والنشأة Origins هو مفهوم التغير Chance (كارول 2003). فالتغيرات في الطبيعة هي موضوع دراسة العلوم الطبيعية. من الطاقة الصرفة إلى المادة، ومن الهيدروجين إلى الهايدروكاربونات، ومن السحب الجزيئية الضخمة إلى تجمعات

النجوم، ومن الخلايا الأحادية إلى الأعضاء الحية، ومن الأحماض الأمينية إلى المخ البشري، هذه كلها موضوعات للبحث والتحقيق في العلوم الطبيعية. وكلها تتطلب كيانا موجودا بالفعل، تطرأ عليه التغيرات. فالعلوم الطبيعية لا تتعاطى مع قضية الوجود على الإطلاق، وإنما تتعامل مع الوجود على صفة معينة ومع التغيرات في الطبيعة، التي تستجلب صورا معينة لحالة الوجود. وأما الخلق، من الناحية الأخرى، فيخاطب مبدأ الوجود نفسه في أي موجود، ولا يخاطب مبدأ التغير. فالخلق لا يتعامل مع سلسلة الحوادث التي ينشأ عنها نوع معين من أنواع الموجودات. وإنما يتعامل مع مصدر الكينونة نفسها Source of Being لما هو موجود، أيا ما كان ذلك الموجود. لا يخاطب الخلق مسألة الترقي Evolution لنوع معين من الكائنات من نوع آخر. ففعل الخلق إذن ليس أن يعمل الخالق على مادة موجودة سلفا. والخلق إذن ليس "سببا" cause بالمعنى المعتاد للكلمة. أو إن شئت، فالخلق هو التعليل التام لجميع الأشياء. ذلك التعليل التام هو – بالضبط – حقيقة الخلق. فالخلق إذن هو منح الوجود لأي موجود على صورة معينة. فالخلق لا يعني أن يؤخذ "لا شيء" ويصنع منه "شيء"، على وجه التحويل من عدم الكينونة إلى الكينونة. أن يوجد الشيء، معناه أن يعتمد في وجوده على مصدر للوجود.

وإذن فالخلق ليس – على سبيل الحصر، ولا حتى على سبيل الأولوية – حادثا معينا مميزا. فالخلق هو عملية التعليل التام المستمرة لكل ما هو موجود، أيا ما كان ذلك. وإذن فمن غير الممكن، من حيث المبدأ، أن يوجد نزاع ضروري بين عقيدة الخلق، وبين أي تفسير علمي للنشأة Scientific Explanation of Origins. فإن العلوم الطبيعية تسعى لتفسير التغير ونشأة التغير. فسواء كانت التغيرات الموصوفة (في التنظير الطبيعي) بيولوجية أو كوزمولوجية، لها بداية في الماضي أم لا بداية لها، لا نهائية أم لها نهاية زمانية، فإنها تبقى عمليات Processes. فالخلق يفسر وجود الأشياء وليس التغير في الأشياء. فإذا كان المعطى هو وجود شيء ما، فإن السؤال عن الكيفية التي نشأت بها الحياة من ذلك الشيء هو سؤال علمي Scientific Question. أما السؤال عن سبب وجود شيء بدلا من لا شيء، فليس هذا سؤالا علميا.

قلت: هذا التفريق بين الخلق والتغيير ليس إلا تحكما ميتافزيقيا في معنى كل من الخلق والتغيير بتنطع لا وجه له! ذلك أنه إن كان المراد بالتغيير في اللغة تحويل شيء إلى شيء، فإن عامة أفعال الخلق لله تعالى تدخل في مطلق

معنى "التغيير"، بل إن مطلق معنى الخلق إن جعلناه تحويل الشيء من الوجود في علم الخالق والانعدام في الخارج، إلى وجود في الخارج في الأعيان مع الوجود في علم الخالق، صح أن يعد كل الخلق تغييرا من ذلك الوجه، أيا ما كانت حقيقة فعل الخلق وكيفية الإحداث، بما في ذلك الخلق بكلمة التكوين! بل أكثر من ذلك نقول إن مطلق معنى الفعل، سواء كان خلقا أو غيره، حتى الكلام، أنت قبل أن تتكلم تكون غير متكلم، ثم حال الكلام تكون متكلما، وبعد الفراغ من الكلام تكون متكلما على سبيل التمام والانتهاء! فهذا في اللغة تحول من حال إلى حال، وهو وارد على كل ما يدخل في معنى الفعل وليس الخلق وحسب! قوله: "فالخلق لا يعني أن يؤخذ "لا شيء" ويصنع منه "شيء"، على وجه التحويل من عدم الكينونة إلى الكينونة." قلت: فليت شعري ما وجه الاعتراض على هذا المعنى إلا أن يكون محض تحكم؟! أليست صيرورة الشيء إلى الوجود من بعد العدم تحولا وتغيرا من حيث المعنى والحقيقة اللغوية على الأقل؟ ألا يكون الواقع نفسه قد تغير وتحول بعد حدوث المخلوق عما كان عليه قبل حدوثه؟ بلى ولا شك! قال تعالى: ((قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً)) [مريم : 9]! فالمخلوق يكون قبل خلقه لا شيء (أي في الأعيان)، ثم يكون بعد الخلق شيئا متعينا في الخارج! فما المانع من عد الخلق "تغييرا" من هذا الوجه وعلى هذا الاعتبار؟ لا شيء إلا التحكم في التعريف الميتافزيقي رجاء إحراز حجة جدلية ينتصر بها الفيلسوف لمذهبه!

فقوله: "فالخلق لا يتعامل مع سلسلة الحوادث التي ينشأ عنها نوع معين من أنواع الموجودات." تحكم محض، وهو باطل، لأن العقلاء من أهل الملل كانوا ولا يزالون يسوون بين معنى الخلق ومعنى الإحداث، فكل حادث مخلوق وكل مخلوق حادث! وإذن فسلسلة الحوادث إنما تتسلسل فيها أفعال الخلق على التحقيق! اللهم إلا أن تكون طبيعيا دهريا لا تثبت للحوادث محدثا فاعلا خالقا، وحينئذ فليس للخلق معنى أو حقيقة عندك أصلا!

قوله: "وإنما يتعامل (الخلق) مع مصدر الكينونة نفسها Source of Being لما هو موجود، أيا ما كان ذلك الموجود. لا يخاطب الخلق مسألة الترقي Evolution لنوع معين من الكائنات من نوع آخر. ففعل الخلق إذن ليس أن يعمل الخالق على مادة موجودة سلفا" قلت: هذا كله تحكم فارغ وتنطع على معنى الخلق في اللغة لا وجه له! ولا يزال العقلاء يصفون الصانع البشري بأنه يصنع ويخلق، مع كونه يحدث الشيء الجديد بتجميع الأجزاء وتركيبها أو بالتعديل على شيء موجود سلفا، ولا يقال لهم: لا تقولوا صنع ولا تقولوا خلق ولكن قولوا "غير" أو "حول"! والله تعالى يقول: ((أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)) [الصافات : 125] فيحمد نفسه سبحانه بأنه أحسن الخالقين، مثبتا بذلك معنى الخالقية للمخلوق على الوجه اللائق به كمخلوق!

وما ذاك إلا لأن البداهة تقضي واللغة تجري بوصف من كانت صنعته تحويلا من شيء إلى شيء أو من صورة إلى صورة أنه خالق أو صانع، ولا إشكال في ذلك! فمن أين يأتي الرجل بهذا الهراء؟ ونقول إن صدور الكينونة أو مطلق الحدوث بعد العدم أو حصول الوجود بعد العدم أو ما شئت أن تسميه، هذا خلق، وكذلك التحول من حال إلى حال، أيا ما كانت صورته، هو حدوث للحال الجديدة وهو كذلك خلق باللغة والعقل والسمع جميعا، ولا يماري في ذلك إلا سفساط!

وقد جاءت النصوص عندنا بأن الله تعالى كان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض من ذلك الماء! فإن لم يكن هذا خلقا، بداعي أنه "تغيير" على مذهب هذا الرجل، فأي شيء يبقى إلا القول بقدم العالم وأنه لم يخلق أصلا؟ لا يُخلق الجنين في بطن أمه إلا بتحويل مادته في بطنها وتخلقيه من تلك المادة! ولم يخلق آدم نفسه إلا بالتغيير والتحويل من الطين والحمأ المسنون، ثم نفخ الروح المخلوقة! وكذا خلق الجن من مارج من نار وخلق الملائكة من النور! فإذا خرج معنى التغيير أو الإحداث بالتغيير أو التحويل من حال إلى حال، من عموم معنى الخلق، فكيف يقال إن الله هو الذي خلق العالم أو أن العالم حادث أصلا؟

لذا نقول إن هذا الكلام يستلزم القول بقدم العالم، حتى مع إثبات الانفجار الكبير، إذ حينئذ لا يكون عند الرجل في مسألة النشأة – على حسب كوزمولوجيا الطبيعيين - إلا تحولات وتغيرات متسلسلة من الأزل، فيكون ما في الواقع خلاء كموميا في الابتداء Quantum Vaccum لم يزل من الأزل يضطرب Fluctuates فتتخلق منه الجزئيات الدقيقة ثم ترجع إلى مادة ذلك الخلاء المزعوم، حتى يتفق أن تنشأ في اضطراب من تلك الاضطرابات المزعومة تلك الفردية Singularity التي زعموا أن الكون قد نشأ عنها! وإذن يكون العالم سلسلة أزلية من التغيرات والتحولات والاضطرابات (التي هي موضوع البحث الطبيعي بحسبه)، فلا خلق فيها إلا على المعنى الأرسطي الاتحادي الربوبي الذي جنح إليه كوين، فيكون الصانع هو المحرك الذي لا يتحرك، القديم بقدم العالم، أو مانح الوجود القديم الذي هو الوجود نفسه (على عقيدة أكويناس) أو نحو ذلك من شقشقات الفلاسفة! فأيا ما كان الأنموذج الكوزمولوجي الذي يرتضيه كوين فإنه يلزمه القول بقدم العالم على هذا التفريق!

والذي يقول بقدم العالم وقدم الصانع معه يقول بقول عظيم الشبه بمقالة الربوبيين عند التأمل. فالربوبي هو من يعتقد أن العالم حادث وأن الذي أحدثه صانع لا حياة له ولا يوصف بصفات الأشخاص Personal Attributes، فلم يزد على أن أطلق أسباب الابتداء للعالم في أول الأمر، ثم ترك النظام الطبيعي ليحكم نفسه بنفسه، وليحدث هو كل شيء في إطاره بأسبابه

الداخلية التي لا تأثير لشيء من خارجها عليها! هذا هو التصور السائد بين الدهرية الربوبيين في زماننا على أثر كوزمولوجيا الانفجار الكبير! وأما الذي يثبت قدم مادة العالم وقدم الصانع معها (حتى مع قوله بالانفجار الكبير) ويقول إن ذلك الصانع هو بالنسبة لوجود الموجودات في العالم كالمصباح بالنسبة للضوء المنتشر حوله، يصدر عنه وينبعث منه انبعاثا واجبا، فلا يزال الوجود ينبعث منه ما دام هو موجودا، فكان ولم يزل متحققا في الخارج بلا بداية ولا نهاية، صاحب هذا المذهب يثبت أكثر تصورات الصانع تعطيلا لصفات الربوبية بعد تصور الربوبيين، فهو كذلك ليس موصوفا بصفات الأشخاص أو الذوات الحية، فلا حياة فيه ولا إرادة ولا شيء من ذلك، وإنما هو العامل السببي الذي يحفظ للعالم بقاءه واستمراره، ولم يزل هو مصدر وجوده ومنبعه من الأزل وإلى الأبد، لا أكثر ولا أقل! فهو نفس صانع الربوبيين وإنما اختلف عنه في أن الأول حدث عنه العالم دون إرادة منه بعد أن لم يكن، والثاني كان ولم يزل ينبعث منه العالم دون إرادة منه بلا بداية في الماضي! وكلاهما محض هذيان وتخرص على الباري جل شأنه، مصادم للفطرة والبداهة والله المستعان.

ولهذا صرح كوين بأنه لا يرى مانعا من القول بقدم العالم، وأن القول به لا يتعارض مع القول بالخلق والخالقية الإلهية بالضرورة كما يتصوره أكثر أهل ملته! فقال: "وإذن فمن غير الممكن، من حيث المبدأ، أن يوجد نزاع ضروري بين عقيدة الخلق، وبين أي تفسير علمي للنشأة Scientific Explanation of Origins. فإن العلوم الطبيعية تسعى لتفسير التغير ونشأة التغير. فسواء كانت التغيرات الموصوفة (في التنظير الطبيعي) بيولوجية أو كوزمولوجية، لها بداية في الماضي أم لا بداية لها، لا نهائية أم لها نهاية زمانية، فإنها تبقى عمليات Processes. فالخلق يفسر وجود الأشياء وليس التغير في الأشياء." اهـ.

ثم إنه يقول في آخر فقرة من نفس المقدمة: "بعض الكوزمولوجيين يتكلمون عن أكوان تتناسل من نفسها Self-Reproducing Universes، ولكن هذه ليست خالقة لنفسها. وغيرهم يتكلم عن نفخ الكون نفسه من لا شيء (يعني اللاشيء الفيزيائي الوجودي المزعوم Quantum Nothingness). فأمثال تلك النظريات الفيزيائية الرياضية تخدم في تفسير كثيرا مما هو مشاهد من الكون ككل. بيد أن الحاجة لتفسير وجود الأشياء كلها لا تزول على أثر التفسيرات العلمية الجديدة التي تروم تفسير التغيرات المتنوعة التي حصلت في الكون". اهـ. قلت: فالرجل منهجه أن أي نظرية يضعها الطبيعيون في تفسير التحول من حال إلى حال، فهي مقبولة منهجيا (من حيث المبدأ) ولا مانع من اعتقاد صحتها وإن كانت تقرر قدم العالم وتنفي بدايته في الماضي، على أساس أن الخلق ليس ابتداء للشيء بعد

عدمه، وإنما هو "إكساب الشيء وجوده" وتعليله التعليل التام! وعليه فلا مانع من أن يكون الصانع أزليا والمصنوع أزليا كذلك، طالما كان المصنوع مفتقرا إلى الصانع لاكتساب أسباب وجوده، وليس العكس! وهذا في الحقيقة هو أقرب المذاهب شبها لمذهب أرسطو، ولعله يكون – عند التأمل - قد انتهى إليه لأسباب مناظرة لتلك التي أفضت بأرسطو إلى مذهبه في مسألة "المحرك الذي لا يتحرك"، فتأمل!

ويمكن أن نعد جورج كوين في عداد الغلاة من الدراونة الابتدائيين Initialist Darwinians على اعتبار أنه لا يقول بأن حوادث التطور الدارويني المزعومة من فعل الرب وخلقه وتدبيره، أو حتى توجيهه guidance، ولا يقول كذلك بأن له "تدخلا" Intervention في حوادث النشأة بخلق بعضها دون بعض كما هي عقيدة بيهي وأصحابه، بل يبطل كلا المذهبين ويقصر كافة حوادث العالم بما فيها حوادث النشأة على السببية الطبيعية المحضة (بما فيها من عشوائية وجودية متجذرة)، بوصفها "تغييرا" لا "خلقا"، مع قصر مفهوم الخلق على معنى التسبب في إيجاد الطبيعة نفسها من الابتداء إجمالا، أي تحقيق معنى الوجود نفسه، لا أكثر ولا أقل، سواء على سبيل إيجادها كلها من عدم، أو على سبيل كونها لم تزل من الأزل توجد "بالانبعاث منه" بوصفه مصدر كل وجود، على طريقة أرسطو وغيره من القائلين بقدم العالم مع إثباتهم الصانع! وقد سمعت له مناقشة مع ريتشارد دوكينز حاول فيها بكل طريق أن يوافق الرجل في كل شيء، حتى إنه صرح بنفي تدبير الرب سبحانه لأسباب الطبيعة وحوادثها بحيث تفضي في النهاية إلى "نشأة" الإنسان، ومن ثم ظهور تلك العلاقة الخاصة التي تثبتها الكاثوليكية بينه وبين البشر! بل صرح بأن عشوائية آليات النشأة الطبيعية تقتضي ألا يكون لديه علم سابق بنتائجها!

فهو في حقيقة الأمر يؤمن بإله وهمي، بل بعدم محض، على طريقة الربوبيين الغلاة من الفلاسفة! صانع يحب ويكره ويوحي بما نص الكتاب المقدس على أنه فعله من الأفعال، وهو مع ذلك ليس بفاعل شيئا في هذا العالم ولا يفسَّر به أي شيء، أي لا تُجعل مشيئته سببا لآحاد الحوادث الجارية فيه، لأن كافة حوادث العالم إنما هي تغيرات تخضع للأسباب الطبيعية وحدها، التي ما زاد هو على أن كان علة وجود نظامها نفسه، التي ترجحه على العدم، لا غير! حكيم عليم يخلق ما يشاء ويختار، وهو مع ذلك ليس له علم بما ينقلب إليه أمر العالم، بالنظر لخضوع جميع حوادثه للنظام السببي الطبيعي على عشوائيته الارتقائية الوجودية المحضة! رحيم يوحي إلى ثلة من الناس بما يريد منهم أن يكتبوه في الكتاب المقدس – على ما يظهره الرجل من الاعتقاد بأنه فعل ذلك –، وهو في نفس الوقت لا "يتدخل" في هذا العالم بشيء ولا يخرم نظام الأسباب الطبيعي المغلق الذي يحكمه! يفسر بعمله الإلهي وجود التصديق والتدين في نفسه هو، كراهب كاثوليكي، وهو مع ذلك يرفض أن

يجعله تفسيرا لشيء من حوادث العالم على الإطلاق! يقول إنه يؤمن بأن الرب سيبعثه بعد الموت، وهو مع ذلك يكفر بالروح ويرى القول بها في الغيب خرقا مرفوضا للنظام الطبيعي وللآلية الداروينية في نشأة الأنواع الحية! يقول إن المسيح ولد من رحم امرأة بلا أب، وهو يقول في نفس الوقت بأنه لا يقبل أكثر ما في الكتاب المقدس من معجزات وخوارق للعادات، لمجرد أنها تخرم القانون الطبيعي وتشوش على نظامية ذلك القانون واطراده! يقول إنه يؤمن بإله له صفات الأشخاص، مع أني لا أبالغ إن قلت إنه (وهو الراهب الكاثوليكي!) أشد إغراقا في مقالة الربوبيين على التحقيق من داروين نفسه!

فليت شعري كيف لم يزل هذا الرجل إلى الآن يعامل معاملة الرهبان داخل الكنيسة وخارجها! أهذه هي نفس الكنيسة التي حبست غاليليو غاليلي في بيته في نهاية عمره لقوله بأن الأرض ليست هي مركز الكون؟ أهي نفس الكنيسة التي قتلت "جيوردانو برونو" وأحرقته حيا (وكان راهبا كصاحبنا، وفلكيا مثله) لقوله بأن العالم لا حد له ولا نهاية، وبوجود شموس أخرى وأراض أخرى غير هذه الأرض وتلك الشمس؟! سبحان الله! والله لا أدري إلى أي ملة تصير تلك الكنيسة غدا وإلى أي دين، وأي إله هم عابدون بعد مئة سنة أو مئتين، إن كانوا فاعلين!

اللهم لك الحمد على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة!

فصل في بيان داروينية "نضال قسوم"

ومن القائلين بمذهب الابتدائين من بني جلدتنا، الدكتور "نضال قسوم"، أستاذ الكونيات وعلم الفلك الجزائري. قال في حلقة من برنامج "لتبسيط العلوم" يقدمه على اليوتيوب بعنوان "تأمل معي!" خصصها للكلام على الجانب "العقدي" لنظرية داروين:

> عندما يقول الناس إن نظرية داروين هذه تشرح كيف تطورت الأنواع، بما فيها الجنس البشري، من بعضها البعض وكيف تفرعت وكيف انفصلت عن بعضها البعض، وظهرت أصل الأنواع كما قلنا في عنوان كتاب داروين. بمجرد أن نقول هكذا، يبدو للناس أو يقول الناس معنى هذا أننا نفينا خلق الله، أو مبدأ أن الله هو الذي خلق هذه الأجناس، بما فيها الجنس البشري، وكأننا نزعنا أو أخرجنا الله من مسألة الخلق تماما. وهذه الفكرة ليست صحيحة وليست سليمة لأنها مبنية على مفهوم الخلق بكونه أو بصفته لحظي وآني، يعني عندما يتصور الناس أن الله خلق الإنسان، معناه خلقه هكذا (يقول بيديه حركة توحي بسرعة الفعل) في ثانية أو في جزء من الثانية، يعني، ويستشهدون بكن فيكون، إيه، يقول لك، خلقه هكذا يعني، لم يقل الله أنه خلقه من قردة أو تفرع الإنسان على مدى مئات الآلاف من

السنين أو ملايين السنين، من قردة أو غيرها أو أن القردة هي أيضا انحدرت من، وتفرعت كل هذه الحياة يعني من شجرة، في شكل هكذا، شجرة، بل حتى صورة الشجرة غير دقيقة الآن، صرنا نقول يعني شجيرات متداخلة هكذا، يعني الحياة تتفرع وتتنوع، وتتداخل فيما بينها، إلى آخره، الله تعالى لم يقل أنا خلقت شجرة وتفرعت والأجناس و.. و .. و، قال خلقت الإنسان وقال خلق الحيوانات، وخلق الأجناس وخلق ...، فالناس يتصورون معنى خلق، أي خلق في لحظة واحدة، ولكن حتى عندما يتحدث عن خلق ناس محددين، يعني، خلق عيسى، خلق النبي محمد عليه الصلاة والسلام، أو خلق أي واحد منا، والا واحد فينا والا حتى الرسل، والا حتى آدم، يعني خلق هكذا لحظيا، يلا .. هكذا! يعني ظهر من لا شيء في جزء من الثانية، في بيئة كانت موجودة، يعني حتى الناس عندما يناقشونني في هذه المسألة، أقول لهم هل تتصورون فعلا أن الأرض كانت موجودة، وكان فيها حيوانات، وفجأة ظهر فيها هكذا إنسان هكذا، يمشي، بملابسه هكذا في وسط الحيوانات؟؟ يعني هكذا لم يكن موجودا كل تلك الفترة السابقة؟

يعني ثم الأرض هذه كم عمرها؟ عمرها أربعة ونصف مليار سنة! في الأربعة ونصف مليار سنة، نحن لم نجد أحافير أو جماجم البشر إلا على مدى بالكتير يعني، أقصد البشر في صورتهم الحالية، إلا حوالي مئة ألف، يعني أقصى تقدير مئتي ألف سنة، فمئة أو مئتين ألف سنة مقارنة مع أربعة ونصف مليار سنة، يعني كانت فترة طويلة جدا لم يكن فيها بشر، كان فيها فقط حيوانات، ثم فجأة ظهر الإنسان هكذا وسطهم؟ هل هذا هو التصور المطروح؟؟ لأ! الحل في هذه المسألة، هو أن يفهم الإنسان أن لفظ الخلق، خلق، لا يعني بالضرورة خلقه لحظيا، آنيا، ومن لا شيء! بل الخلق دائما يأخذ فترة، حتى البشر، حتى الرسل، أخذوا فترة على .. إيخ، أن يعني نضجوا في بطون أمهاتهم ثم ولدوا ثم ترعرعوا، ثم كبروا، ثم صاروا بالغين، ثم صاروا حكماء أو عاقلين، ثم جاءتهم النبوة، إلى آخره، إلى آخره. فهذا ليس بالضرورة بهذا الفهم!

قلت: نقول أولا إن هذه البقبقة الطويلة خارجة كلها عن محل نزاع المسلمين مع الدراونة! فالنزاع ليس فيما إذا كان ابتداء خلق النوع المعين آنيا (كما سماه) في ثانية أو جزء من ثانية، أو كان بطيئا ممتدا على فترة من الزمن، وإنما النزاع فيما إذا كان النوع الحي المعين قد خلق خلقا مستقلا من غير سلف من الأنواع الأخرى، أم خلق بالتعديل على نسل نوع آخر! فكل هذا الكلام الطويل على كون الخلق يأخذ فترة ولا يكون آنيا وكذا، هذا خارج عن محل النزاع! وأما ثانيا، فلو سلمنا بدخوله في محل النزاع، فمن أين يأتي

الدكتور بهذا التسفيه الظاهر والحط على دعوى الخلق الآني هذه؟ إما أن يكون مرجعه عندك إلى الحكم بالامتناع العقلي لأن يكون الله قد خلق الخليقة كلها أو بعضها في أول خلقها، خلقا "آنيا" بكلمة التكوين، أو إلى الحكم بأن هذا الطريق للخلق مرجوح بناء على مرجح معتبر عقلا!

نحن المسلمين لا نقول بأن الأنواع الحية قد خلقت كلها خلقا آنيا على هذا المعنى الذي حرره الدكتور واعترض عليه، ولا أن الخلق بكلمة التكوين يقتضي الخلق في ثانية أو ثانيتين، فهذا أمر لا نعلمه ولا نخوض فيه! فنحن إذ نحكم بذلك، فإنما نحكم به بناء على نصوص الوحيين وعلى جمع العلماء والأئمة بينها! وإلا فالعقل لا يمنع من وقوع ذلك النوع من الخلق، والله قادر عليه سبحانه وجوبا وضرورة! فنحن نعلم من النص أن الله تعالى لم يخلق آدم من التراب في "ثانية" أو جزء من الثانية (كما يأتي عند الكلام على آدم عليه السلام)، كما يبدو أنه يتوهم كونه اعتقاد مخالفيه! والله تعالى يقول في حقه: ((إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [آل عمران : 59]، فخلقه وسواه من التراب بيده سبحانه أولا، ثم نفخ فيه من روحه وقال له كن بشرا فكان! وقد جاء في الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما (فيما له حكم الرفع) أن الله تعالى خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان" اهـ. (صححه الألباني في مختصر العلو) فالأصل في الخلق أنه يجري بقوله تعالى "كن"، إلا ما جاء النص باستثنائه. وهذا صحيح مطرد في كل ما يريده الله تعالى، أنه ينفذ فورا وبلا تراخي، بالكلام وتوجيه الأمر إلى الملائكة، كما في قوله جل شأنه: ((بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [البقرة : 117] وقوله تعالى: ((هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [غافر : 68]، فكل أمر يقضيه الله تعالى ويأمر به ملائكته فلا يزيد فيه على أن يقول له كن، فبها يخلق سبحانه وبها يدبر الأمر كله، وبها تجري الأسباب من السماء إلى الأرض، كما في قوله: ((يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)) [السجدة : 5] وقوله: ((إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ)) الآية [يونس : 3] وقوله: ((قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ)) [يونس : 31]، وقوله: ((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)) الآية [الطلاق : 12] قال أبو الفداء ابن كثير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ((بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [البقرة : 117]: "يبين بذلك تعالى كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن - أي : مرة واحدة - فيكون، أي فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى : (إنما

أمره إذا أراد شيئاَ أن يقول له كن فيكون) وقال رحمه الله: "وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه ، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال : (وما أمرنا إلا واحدة) أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى توكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين" اهـ.

فكيف يكون ذلك، وما حقيقة عروج الأمر إلى الله في يوم مقداره ألف سنة مما نعد، وكيف يكون ذلك؟ هذا كله غيب محض ما أنزل الله لنا به من سلطان، ولا تطيقه عقولنا ولا تتصوره أصلا! وإنما الشاهد مما أوردنا أن المسألة عند أهل السنة مدار الحكم فيها على النص، خلافا للجهمية والفلاسفة!

فالموقف المعرفي الواجب علينا إذن في ذلك الغيب العظيم، هو أن نستفصل في المقصود بالخلق الآني، نقول ما مرادكم بالخلق الآني؟ إن كان مرادكم أن الحوادث في خلق الله تقع بلا أسباب، فليس هذا ما يقوله أهل السنة! وإن كان مرادكم أن كلمة التكوين تكون أمرا بابتداء أسباب خلق الشيء، فمن أين لكم القول بذلك؟ بل نقول إن الله تعالى يخلق الحادث بكلمة وأمر إلهي، كما يخلق أسبابه من قبله بأمر إلهي، لأن الأسباب نفسها لا تصير أسبابا إلا بجعل الله إياها أسبابا، ولا تكون الطبائع طبائع إلا بأمر الله تعالى، ولا يؤثر مؤثر إلا بأمره، كما بيناه من قبل في هذا الكتاب! فيقول جل شأنه: ((وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) [الأعراف : 57] فالرياح من إرساله سبحانه لأنه هو الذي يجعل الأسباب المتقدمة عليها المفضية إليها أسبابا بأمره سبحانه، فإذا شاء أن يرسلها، أنزل الأمر الإلهي للملائكة الموكلة بحملها فتعمِل فيها طبع التأثر بتلك الأسباب، وهو ذلك الطبع الذي إن شاء عطله، وإن شاء أمر ملائكته بخلق التأثير بلا مؤثر ولا أسباب متقدمة عليه مما يعهده الناس! فأوامره سبحانه تتتابع أمرا بعد أمر، لتجعل من الرياح سببا في حمل السحاب، ومن السحاب سببا في إنزال الماء، ومن الماء سببا في إخراج الثمرات، وهكذا. فترتب الحوادث على بعضها البعض على سبيل التولد السببي، لا ينافي كون كل حادث منها مخلوقا بأمر إلهي مباشر، لأن فيما وراء تلك الأسباب المتولدة الظاهرة لنا ما لا يعلمه إلا الله من عمل الملائكة ومن الأسباب الغيبية ومن الشروط والموانع السببية، كما نؤسس ذلك معاشر أهل السنة على النصوص المستفيضة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم!

أما الدكتور نضال، فلا يؤسس موقفه واعتقاده على النص كما هو الواجب على كل مسلم، وإنما يعتنق النظرية السائدة عند الطبيعيين في مسألة النشأة كيفما كانت أولا، ثم يأتي على نصوصنا بالغربلة، وعلى تراث سلفنا

في فهمها بالنقض والتسفيه! ولأنه رأى أن إثبات خلق فوري أو "آني" كما سماه، لأي نوع من الأنواع الحية، من شأنه أن يشوش على نظرية داروين ولا يناسبها، كان لزاما أن يسفه الفكرة نفسها ويسقطها رأسا! مع أن أطوار خلق الفرد المعين من أفراد النوع شيء (التي قد تطول وقد تقصر في خلق الفرد الواحد من كل نوع)، والأطوار الداروينية المزعومة لتطور النوع نفسه بالتغير الجيني البطيء عبر سلالة طويلة من المخلوقات، خلفا بعد سلف، هذا شيء آخر بالكلية! ولهذا نقول: سلمنا تنزلا بأن المخلوقات كلها تخلق على أطوار لا فجأة أو فورا أو آنيا كما يقول، فكان ماذا؟ هذا لا ينافي كون كل نوع منها إنما يخلق ابتداء واستقلالا على غير مثال سابق، ولا علاقة له بالأسطورة التي تريد أن تثبتها!

وأما ثانيا، فإن كان المقصود "بالفجأة" حدوث الحدث بلا مقدمات ظاهرة على الأرض، فعندنا أن الله تبارك وتعالى أهبط آدم وزوجه إلى الأرض "فجأة"، فمن أي شيء يهزأ الدكتو في قوله: "أقول لهم هل تتصورون فعلا أن الأرض كانت موجودة، وكان فيها حيوانات، وفجأة ظهر فيها هكذا إنسان هكذا، يمشي، بملابسه هكذا في وسط الحيوانات؟؟ يعني هكذا لم يكن موجودا كل تلك الفترة السابقة؟"؟ نعم هكذا نتصور، ونقول إنه "أهبط" إليها لا أنه "ظهر فيها"، كما أرجو أنك قرأته مرارا في مصحفك!! فكان ماذا؟؟ نحن إنما جئنا بهذا التصور من نصوص الوحي التي هي المصدر الوحيد الصالح للإفادة بشيء من المعرفة في تلك المسألة! فمن أين جئت أنت بالتصور المخالف في نفس الأمر؟؟ من أوهام وخرافات وأقيسة واهية وتأويلات متهافتة للواقع المحسوس عند الطبيعيين، جعلها هو وغيره من دراونة بني جلدتنا هي العلم القطعي التام الذي لا يرده إلا جاهل متخلف! فنقول له ولغيره من أمثاله: كفوا عنا زندقتكم! الإسلام دين له عقائده الغيبية المتلقاة من نصوص الوحيين وحدها دون غيرها، والطبيعية Naturalism ملة مخالفة لها عقائدها الغيبية وميثولوجياها المتلقاة من طرائق القياس التجريبي على المحسوس والمشاهد Scientific Method وحده دون غيره، فلا تحرفوا ديننا ليوافق دينكم، ثم يأتي أحدكم يقول إن هذا هو مقتضى التوفيق بين "العلم" (كذا!) والدين!

قال الدكتور: "حتى معظم العلماء، معظم المفسرين، لا يقولون إن الخلق معناه خلق مباشرة من لا شيء، أن كل حيوان خلق من لا شيء، وكل البشر خلق من لا شيء، هذا غير صحيح" اهـ. قلت: وهذا – والله - لا يقول به مسلم أصلا، من أي فرقة كان! لا نؤمن بأن الحيوانات خلقت "من لا شيء" ولا بأن الإنسان خلق "من لا شيء"! فهلا تكلفت ولو قدرا قليلا من القراءة في عقائد المسلمين أولا، قبل أن تخرج عليهم بتعديلها بناء على عقائد الطبيعيين؟؟

ثم من باب التنظير المنهجي الكلي (المنهج الإبستمولوجي) قال الدكتور:

فكون نظرية داروين تشرح لنا كيف ظهرت الأنواع، كيف ظهرت الأجناس المختلفة، بما فيها الجنس البشري، لا يعني أنها تلغي الله، تماما كما أن مثلا نظريات الفيزياء والفلك مثلا، تشرح لنا كيف تشكلت الأرض، والله يقول خلق الأرض والسماء، ويقول خلق النجوم والكواكب، والسماوات و.... إلى آخره، لا يعني أنه خلقها هكذا من لا شيء! بل أخذت فترة طويلة حتى تشكلت المجموعة الشمسية وظهرت الشمس، وظهرت الكواكب، وظهرت الأرض، ثم استقرت الأرض، ثم تغير غلافها الجوي، ثم ظهر فيها الماء السائل، .. و .. و... و. هذه كلها .. كون ال.. علم الفلك يشرح لنا أن هذه العملية، خلق الأرض، أخذ ملايين، بل عشرات البلايين من السنين، لا يعني أن الله، ليس الله هو الذي خلقها! الله خلق عن طريق القوانين التي أوجدها في الكون، عن طريق هذا الدفع الخلقي، هذا الخلق، اللحظة الخلقية الأولى، بما فيها القوانين، بما فيها الفضاء والطاقة، والزمن وكل هذه التفاعلات التي أوجدها الله في الكون، هذه التي أوجدت في الأخير الكواكب والنجوم والطاقة والمياه السائلة والحياة والخلايا والتطور، إلى آخره إلى آخره. هذه أولا!

قلت: هذا الكلام وهذا المسلك في التأصيل هو ما من أجله ألفت هذا الكتاب الضخم الواقع بين يديك الآن، أيها القارئ الكريم! فالواقع الذي لا يعلمه، أو يعلمه ولا يريد أن فهمه أكثر الأكاديميين المشتغلين بالطبيعيات من بني جلدتنا، هو أن الأكاديمية الطبيعية الغربية التي استعاروها كلها بغثها وسمينها، بعجرها وبجرها، إنما تأسست يوم تأسست عند الأثينيين أولا، ثم في مرحلة لاحقة عند الأوروبيين ثانيا، على أسس دهرية محضة! بمعنى أن المنهج المعرفي الكلي الذي ينتهجه الأكاديميون الطبيعيون الغربيون، من زمان أرسطو وإلى يوم الناس هذا، لا يلزم الناس بخلع أديانهم وعقائدهم الغيبية على باب المعمل قبل أن يدخلوه لمجرد أنه قد اتفق اتفاقا أن كان أكثر القائمين على تلك الأكاديميات ملاحدة كما يتصوره من لم يدقق الفهم والنظر والتأمل في تلك القضية! وإنما يلزمهم بذلك لأن فلسفة المعرفة ومصادر تحصيل المعرفة المعتمدة في تلك الأكاديميات من يوم أن أنشئت، وإلى يوم الناس هذا، وهي تلك الفلسفة التي تراكم بالتأسيس عليها البناء النظامي التاريخي Disciplinary Construction لجملة العقائد والمعارف المنتهى إليها من طريق الباحثين المشتغلين بتلك الأكاديميات، هذه الفلسفة فلسفة دهرية طبيعية محضة Naturalist Doctrine!

وصحيح إن كون الطريقة الطبيعية دهرية المنشأ لا يمنع من اتفاقنا مع القوم في كثير من دعاواهم بشأن الواقع الذي نعيش فيه ونشترك في تجربته عبر الحس المباشر وفي اعتيادنا عليه معهم جميعا، كاتفاقنا وإياهم على

استقرائهم التجريبي لقانون بويل – مثلا – أو قانون ماكسويل للمجال الكهرومغناطيسي أو قانون الطفو لأرشميدس أو قوانين الحركة لنيوتن أو قوانين ديناميكا الموائع والديناميكا الحرارية، أو غير ذلك من نماذج رياضية صريحة في تعبيرها المباشر عن سنن سببية ظاهرة عرفت بالاستقراء المستفيض الذي لا يماري فيه إلا مكابر، هذه المسائل ونحوها لا يضيرنا كونهم دهريين طبيعيين في فلسفتهم المعرفية وفي مصادر التلقي المعرفي عندهم إن نحن قبلناها منهم كمعارف صحيحة نافعة للناس، وهو المتعين علينا أن نفعله ولا شك! وإنما يضيرنا أن نقبل منهم تطبيقهم للآلة التجريبية Scientific Method في استكشاف الغيب المطلق، غيب المكان والزمان، كما فصلنا الكلام عليه في هذا الكتاب بحول الله وقوته تفصيلا نرجو أنه هو اللائق بتلك المسألة الدقيقة بالغة الخطورة! فنحن عندما نمارس الطريقة التجريبية في استكشاف الأسباب المباشرة القابلة للإخضاع للحس والتجريب، فلسنا نستصحب في ذلك اعتقادا مفاده أنه ليس لهذه الظاهرة محل البحث أسباب غيبية البتة، وإنما نؤمن بأن لها أسباب في الغيب، وأنما نبحث نحن في الأسباب الظاهرة المباشرة المكشوفة لنا من جهتنا، ونقتصر في ذلك على ما نرجو منه النفع، وليس علما لمجرد العلم أو بحثا لمجرد البحث. ولأننا نعلم أن هذه الآلة موضوعها الحس المباشر وما هو خاضع للحس في هذه الحياة الدنيا (بالقوة أو بالفعل)، فإننا نعلم كذلك أنها لا يجوز ولا يصح (شرعا ولا عقلا) أن نقتحم بها الغيب وما فيه! هذه الحدود لن تجدها عند الغربيين لأن أكاديمياتهم الطبيعية إنما أسست على الدهرية الطبيعية كما تقدم.

فالأمر ليس بهذه السهولة والسطحية التي يريد الدكتور نضال ومن شاكله أن يروجوها بين المسلمين، حتى يقال: كما قبلتم قانون الجاذبية – مثلا – فاقبلوا "قانون" الارتقاء، لأن المشكاة واحدة والمنهج واحد! نعم مصدر التلقي واحد والمنهج واحد، لكنه مصدر له حدوده التي يجب أن يتعلمها المسلمون، وبخاصة من كانوا منهم طبائعيين أكاديميين أمثال الدكتور نضال هداه الله، والمتعين عليهم أن يحرروها تحريرا صارما واضحا وألا يتساهلوا فيها بحال من الأحوال، لأن الأمر كما ترى دين واعتقاد! الطبيعيون لا يؤمنون بالغيب ولا يرون موجودا في الخارج إلى الطبيعة ونظام الطبيعة، على امتداد الزمان والمكان مهما امتد! ولهذا يجيزون استعمال الطريقة الطبيعية أو التجريبية Scientific Method في استكشاف عالم الغيب المحض كما يستعملونها في اسكتشاف عالم الشهادة! لأنه ليس عندهم في عقيدتهم الدهرية المحضة عالم غيب وعالم شهادة أصلا، وإنما الوجود كله والواقع كله عندهم من جنس ما هو واقع تحت الحس والعادة! وصحيح إن الآباء الأوائل للأكاديمية الطبيعية كانوا يثبتون الباري إجمالا كما بيناه في موضعه من هذا الكتاب، إلا أنهم جعلوه مجرد "محرك" لنظام العالم الذي جوزوا لأنفسهم أن يدرسوه دراسة كونية شاملة، فصارت توضع النظريات والأقيسة للغائب على الشاهد بلا

ضابط ولا حد ولا قيد البتة! من هنا نشأت فكرة الاستغناء عن الصانع كعامل فاعل له إرادة وحكم على نظام العالم، حتى قال لابلاس كلمته المشهورة بين يدي نابليون بونابارت عندما سأله عن دور "الإله" في نظريته: "سيدي، لم أجد داعيا لافتراض تلك الفرضية"! فعندما يصبح المنهج التنظيري مفاده أن العالم كله من أوله إلى آخره مفتوح لقياس الغائب منه على الشاهد، فلا حقيقة لذاك المنهج إلا أن يكون قائما على اعتقاد خفي مقاده أن العالم كله "طبيعي" Natural من أوله إلى آخره، فلا فرقان فيه بين غيب وشهادة، وليس وراء المحسوس المشاهد منه إلا نظيره، الخاضع لنفس قوانينه وسننه في كل جهة من جهات المكان، وعلى امتداد الزمان!

من أراد السلامة والبراءة من هذا الاعتقاد الدهري الطبيعي جملة وتفصيلا، وتغليق مداخله تغليقا محكما، فعليه أن يعيد تعريف منهجه في الطبيعيات، وأن يراجع حدود ذلك المنهج وضوابطه، حتى يرجع الغيب عنده غيبا والشهادة شهادة، وحتى يرجع الأمر إلى نصابه الصحيح، فلا يتلقى العلم بغيب السماوات والأرض إلا من الوحي المعصوم، وأما ما يخضع للحس المباشر والمشاهدة (بالفعل أو بالقوة) فهذا ما يستجاز فيه استعمال آلة البحث التجريبي Scientific Method في إطار ضوابط الشرع الحنيف. هذا ما يتعين على كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يضبطه من أمر الطبيعة ودراسة الطبيعيت! وهو أمر يحتاج إلى مراجعة كلية كبرى للأكاديمية الطبيعية نفسها وما يقبل فيها من أنواع المباحث وما يرد، كما لا يخفى، وعلى المسلمين أن يتحلوا بما يكفي من القوة والحزم لخوض غمار تلك المعركة، إن أرادوا استنقاذ شبابهم من الدهرية والإلحاد في هذا الزمان! أما أن نترك أولادنا يدخلون إلى المعامل معتنقين منهجا وطريقة دهرية محضة من حيث لا ندري، ثم إذا بهم يركبون ركاب القوم كالخراف التي تساق من رقابها، إذ يجدونهم يطرحون هذه المسألة أو تلك للبحث التجريبي فيخوضوا ويقبلوا ويقولوا بكل أريحية "حيهلا ونعم عين"، أيا ما كان موضوع ذلك التنظير والافتراض من غيب أو شهادة، بلا ضابط ولا رابط إلا أن يقال لهم يكفيكم أن تستحضروا أن وراء ذلك كله رب بالغيب، ثم إذا خرجوا من المعامل ووجدوا في الكتاب والسنة ما يخالف ما انتهى إليه القوم قالوا فلنعد تأويل النصوص كلها ولا إشكال، فأي دين إذن وأي نصوص وأي غيب يبقى أصلا حتى يكون فيه رب من الأساس، عند من كان هذا مسلكه، إن كنتم تعقلون؟؟

هذا يا سيد نضال، ويا كل من كان على طريقته ونحلته، هو سبب انتشار الدهرية والإلحاد بين شباب المسلمين في هذا الزمان كما لم ينتشر من قبل! أن تعاظمت الفتنة بالأكاديمية الطبيعية الغربية تعاظما غير مسبوق، وتقازمت نفوس شباب المسلمين بإزاء إنجازات القوم في جانب التكنولوجيا واستكشاف السنن السببية المحسوسة تقازما لم نعرف له نظيرا في تاريخ

الأمة! فأصبحت فلسفة الطبيعيين تؤخذ ويتشرب الناس بها من غير أن يعلموا أنهم قد أشربوا بنظام اعتقادي دهري محض، قد ترتب عليه عند أصحابه من العقائد الغيبية في آحاد مسائل الغيب ما لا يجوز للمسلم أن يطرحه للبحث الطبيعي أصلا فضلا عن أن يقبله من الطبيعيين ويجعله هو الفهم الصحيح لنصوص دينه! أما أن تأتي أنت لتقول بسذاجة بالغة: "فكون نظرية داروين تشرح لنا كيف ظهرت الأنواع، كيف ظهرت الأجناس المختلفة، بما فيها الجنس البشري، لا يعني أنها تلغي الله"، فهذا كلام من لا يدري على أي فلسفة معرفية تقوم نظرية داروين، ولا يدري ما اعتقاد المسلمين في رب العالمي، في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفيما أجمع المسلمون على أنه من أمر الغيب المحض الذي لا يطلب العلم بشيء منه إلا في نصوص الوحي وحسب! أو هو كلام من يدري ولا يبالي، نسأل الله السلامة! نقول: النظرية تنفي وجود الله قطعا، لأنها ما قامت إلا على فرض مفاده أن مسألة النشأة إنما هي مسألة "طبيعية" (نوعا)، فلم تنشأ الطبيعة إلا تبعا لأسباب طبيعية عند من هذا دينه، ولم تنشأ الحياة فيها إلا جريا على "أسباب طبيعية"، ولولا هذا المدخل الدهري ما استجاز داروين أن يضع نظريته من الأساس! وقد صارع فلاسفة عصره في القرن التاسع عشر الميلادي صراعا تناولنا طرفا منه في هذا الكتاب، إذ أنكروا عليه دخوله في مسألة خلق الإنسان، فقال نظير ما قلته أن الآن! قال ما حاصله: لقد قبلتم المنهج الطبيعي في مجال كذا وفي مجال كذا، وقبلتم دخوله في موضوعات هي عند أهل الأديان الموروثة من قضايا الغيب، فلماذا تريدون الوقوف عند هذه المسألة وما الفرق بينها وبين غيرها؟؟ وهو ما حاصله أن يقال: إما أن تقبلوا مبدأ الطبيعيين في طرح كافة أنواع الموجودات وجميع أجزاء الواقع الخارجي وأنحائه للبحث الطبيعي، وإذن فلا فرق بين نظرية داروين ونظرية الانفجار الكبير مثلا، أو غيرها من نظريات الكوزمولوجيين، وإما أن تتركوه كله، وتسقطوا مجالات أكاديمية كاملة من بابها جملة واحدة (وهو ما كان يعلم داروين أنه لن يجد في مخالفيه الجرأة عليه)، وإلا فلا يجتمع لكم قبول بعض النظريات ذات الطرح الغيبي (في موازين خصومه من أهل الأديان الأخرى) على أنها علم صحيح، وبعضها الآخر في نفس نوع موضوعها على أنها عدوان على الغيب، إلا على تناقض منهجي بين!

من فهم هذه المسألة كما ينبغي، وكما أرجو أن القارئ الكريم سيوفق إليه بإذن الله تعالى بعد إتمامه قراءة هذا الكتاب، فسيرى بجلاء بطلان وفساد قول الدكتور إن نظرية داروين لا تلغي الله! بل هي تلغي الله قطعا، لأن الإله الذي يثبته من يقبل تلك النظرية، ليس هو الله الذي يؤمن به المسلمون، وإنما غايته أن يكون هو إله داروين، ذلك الإله الوهمي الافتراضي الذي لا محل له في الواقع أصلا (إذ ليس للطبيعة حد تنتهي إليه عنده البتة) الذي تكلم عنه في النقل الذي نقلناه عنه آنفا! ذلك الإله الذي لا يزيد عمله على

أن يطلق الشرارة الأولى بنشأة الكون، ويجعل فيها قوانين "مصممة" على نحو مخصوص بحيث إذا ترك كل شيء ليجري على وفق تلك القوانين، ومكث برهة من الزمن، "ظهر" آدم أخيرا في مكان ما من أرضه، الذي يكون على اعتقاد الدكتور: أول قرد يبلغ من الرقي الذهني ما يكفي لأن يسميه الله "إنسانا" ويُسجد له الملائكة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهل هذا هو الله الذي يؤمن به المسلمون، حتى يقال – هكذا بكل سذاجة – إن نظرية داروين لا تنفي وجود الله؟؟

ليست القضية فيما إذا كانت النظرية تجيز إثبات صانع ما أم لا تجيز ذلك، فمهما جاء الطبيعيون بنظرياتهم الدهرية في غيب الماضي، فمن المتصور لمن شاء منهم أن يثبت صانعا ما، حتى عند من قالوا بأن العالم قديم لا ابتداء له، ولا غيب وراءه، أن يثبته ولا إشكال! فيكفيه أن يقول إن الرب الصانع إنما هو طاقة كونية سابغة تملأ الكون كله، لم تزل تحرك كل شيء فيه، من الأزل وإلى الأبد! فهذا عند القائل به يقال له إله God (على اصطلاح الفلاسفة) ولا إشكال، ولكن هل هذا هو الله الذي يؤمن به المسلمون؟؟ سبحان الله وتعالى عما يصفون!

القضية أيها القارئ الكريم هي أن الطبيعيين قد اقتحموا بنظرياتهم بابا يفضي إلى الزندقة وتعطيل الرب عن صفاته وأفعاله لا محالة! فهي إنما قامت عندهم من الأساس على مبدأ كلي دهري طبيعي لا يرى في عملية الخلق إلا أنها عملية طبيعية محكومة بقوانين الطبيعة، ولا يرى في الماضي – مهما استطال التاريخ – إلا عملا للطبيعة على الطبيعة، وتأثير الطبيعة على الطبيعة، فلا يخلق الطبيعة إلا الطبيعة، وليس وراء الطبيعة إلا الطبيعة! هذه هي الملة التي أسس عليها القوم مبدأ اقتحامهم لتلك القضايا بالتنظير الطبيعي، ثم أسسوا عليها ميثولوجياهم وميتافزيقاهم التي يريد الدكتور نضال الآن أن يروجها ويروج أصلها الإبستمولوجي بين المسلمين على أنه "لا ينفي وجود الله"، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فعندما يقول الدكتور: "الله خلق عن طريق القوانين التي أوجدها في الكون، عن طريق هذا الدفع الخلقي، هذا الخلق، اللحظة الخلقية الأولى، بما فيها القوانين، بما فيها الفضاء والطاقة، والزمن وكل هذه التفاعلات التي أوجدها الله في الكون، هذه التي أوجدت في الأخير الكواكب والنجوم والطاقة والمياه السائلة والحياة والخلايا والتطور، إلى آخره إلى آخره. هذه أولا!" اهـ. فهذا تقرير لاعتقاد غيبي في صفة الباري جل شأنه كما لا يخفى، فمن أين جاء به؟؟ لم يأت به الدكتور إلا تأسيسا على نظريات الطبيعيين! فبدلا من أن يكون اعتقاد المسلمين هو الأساس في قبول أو رد النظريات والفرضيات والأقيسة والتأويلات للتجارب والمشاهدات التي يأتي بها الطبيعيون، يصبح اعتقادهم تابعا لتلك النظريات! هذه الجهمية الطبيعية لا تصل بصاحبها إلا إلى

الزندقة والإلحاد، كما انتهى داروين نفسه إلى الإلحاد في آخر أيامه! فهل صار الواجب على المسلم الآن أن يبدأ باعتناق نظريات الطبيعيين وطريقتهم الدهرية في استكشاف غيب السماوات والأرض أولا، ثم ينظر بعد ذلك فيما تقتضيه تلك النظريات من تصور لصفات ربه الذي يريد هو أن يثبته بالغيب، ليجعلها هي دينه واعتقاده في الله تعالى كيفما اتفقت؟؟ هذا هو دين الدكتور كما ترى، وإلا فمن أين يأتي الاعتقاد بأن الله يخلق على هذه الطريقة التي ذكرها؟؟ "الدفع الخلقي" أو "اللحظة الخلقية الأولى" كما سماها؟؟ وأين هذا مما طفح به القرآن من وصف أفعال الله تعالى في الخلق والتصوير؟ بل أين معنى صفة الخلق الذي جاء به الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف؟! الله تعالى، الذي نؤمن به نحن المسلمين، خلق السماوات والأرض في ستة أيام على نحو لم نشهده ولم نشهد له نظيرا، ثم أتم خلقها واستوى على العرش، ثم قضى في كل سماء أمرها ونظامها، وهو الآن آخذ في تدبير أمر السماء والأرض، يخلق فيهما ما يشاء ويختار من آحاد المخلوقات. فنحن نثبت نوعين من أفعال الخلق، النوع الأول غيب مطلق، من أوله إلى آخره، وقد تم وانتهى باستواء الرب جل وعلا على عرشه. والنوع الثاني منه ما هو غيب مطلق ومنه ما هو غيب نسبي. إذ ما زلنا – على سبيل المثال – نشهد الزرع يخلق من الأرض، والأجنة تخلق ثم تولد من بطون الإناث، والمطر يخلق ثم ينزل من السماء، وكافة حوادث الأرض تخلق جريا على سنن سببية محكمة، فيخلق الله أفعال العباد بأسباب منها قدرتهم وإرادتهم، ومنها – على سبيل المثال – تلك السنن الكونية التي عبر عنها الطبيعيون بقوانين الحركة وقانون الجاذبية وغير ذلك! فما وصفناه بالغيب النسبي فهو غيب من جهة أن له أسبابا غيبية لا نملك لها طريقا ولا كشفا من جهتنا، ومن جهة أن كثيرا مما يخلقه الله تعالى من آحاد المخلوقات في الأرض والسماء خلقا متجددا، لا يظهر لنا منه شيء البتة. والله تعالى إذا شاء أن يخلق شيئا في الأرض أو في السماء بلا أسباب أو على غير سنن الأسباب التي سنها في الأرض أو حتى على خلافها (كما يكون عند طلوع الشمس من مغربها)، لم يعجزه ذلك، سبحانه وتعالى إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

هذه هي عقيدة المسلمين في الخلق. أما هذا الذي جاء به، فعقيدة الربوبيين Deists، الذين قصروا الفعل الإلهي في الخلق على حادث أول أحدثه، أو كان سببا في حدوثه (عند من ينفون عنه القصد والعلم والإرادة)، كان من أثره ظهور القوانين، ثم كانت تلك القوانين هي الخالق الذي برأ كل شيء، ولم يزل ماضيا في تغيير حال السماوات والأرض وما فيهما "مندفعا" بدفعة الخلق الأولى المزعومة! أي أن الرب ليس إلا "محرك أول" أو "دافع أول" لعملية الخلق التي لم تزل عندهم جارية كلها على نفس الوتيرة "الطبيعية" من أول لحظة! فليس عندهم على الحقيقة أيام ستة للخلق، ولا عندهم الترتيب الذي جاء النص بذكره في بيان ما فعله الرب جل وعلا في تلك الأيام

الستة، وإنما هي مساعيهم البائسة في تأول النصوص حتى تبدو وكأن الله تعالى إنما وصف قصة الخلق الكوزمولوجية الطبيعية في كل موضع ذكر فيه تلك الأيام الستة، وليس عندهم استواء على العرش على الحقيقة لأن الأيام الستة على عقيدتهم، أيا ما كان اعتقادهم فيما جرى فيها، لم تنقض بعد، وقد جادلت منهم من تقرمط على اليوم السادس فزعم أنه لم ينته إلى الآن، وعطل صفة الاستواء من أجل ذلك! وهذا أو نظيره ما أزعم أن صاحبنا هنا سيضطر إليه اضطرارا إن ألزمناه به! فإنه على دينه هذا، فكل من جاء بفهم الصحابة لأفعال الله وصفاته في ذلك واتفق أن كان على خلاف هذا التصور الذي قرره، فهو عنده صاحب جهالة لا محالة، وقد يتطلف في تجهيل السلف فيقول إنه لا يضير الصحابة المساكين – في نظره – أن أخطأوا تلك الأخطاء في الفهم، فلم يكن عندهم علم الكوزمولوجيا وعلم الأحياء وعلم كذا وعلم كذا، ولهذا ما عرفوا عن ربهم وأفعاله ما صرنا نحن اليوم نعرفه بزعمه، ولاحول ولا قوة إلا بالله! فإذا تدبرت وتأملت في اعتقاده وفيما ينسبه إلى الله عز وجلا من الصفات وجدته زندقة وتعطيلا محضا!

ولهذا لا نستغرب إذا سمعنا الدكتور نضال يقول في لقاء تلفزيوني أجري معه على إحدى الفضائيات، في جواب سؤال عن طريقة أصحاب نظرية التصميم الذكي في بناء نظريتهم: "نعم، وهذه هي المشكلة (يعني أن بعضهم يحاجج بالنص المصرح بأن "بعض الكائنات خلقت")، المشكلة أن هؤلاء يريدون أن يضعوا لنا نظرية علمية كيف تطورت وكيف ظهرت هذه الأجناس، هل هي مشابهة لبعضها، مختلفة، تغيرت خلال التاريخ، إلى آخره، هذا كله طرح علمي، يريدون أن يبنوا لنا هذا الطرح هذه النظرية على أسس، فكرية دينية أيديولوجية، مهما كانت مرجعيتها. ونحن نقول دائما في العلوم، في فلسفة العلوم، في تاريخ العلوم، أن العلوم لا تبنى هكذا! هذا أولا! ثانيا، لا يجب أن نبني نظرية علمية ما أو طرحا فكريا ما، على أساس فهم بشري معين لآيات معينة، كيف ندري، كيف نتأكد، أن قراءة الشيخ الفلاني أو تفسير الشيخ الفلاني، هو تفسير صحيح، ويبقى صحيحا على مدار التاريخ؟ بل نقول: ما يتأكد علميا هو الذي يحق أن نبني عليه! وإذا تحقق شيء، فنعود إلى قراءتنا، ما توافق معه أخذنا به، وما لا يتفق معه نقول هذا يحتاج إلى تأويل." وهنا سأله المضيف – بطبيعة الحال – فقال: "هل تعتقدون أن العقل دائما والعلم، أسبق دائما من النص، في النص القرآني والديني بصفة عامة؟" فقال: "بالنسبة للأمور الطبيعية، نعم! فبالنسبة للأمور الطبيعية، لدينا أدوات للبحث في الطبيعة، والبحث أنا وأنت وغيرنا، بغض النظر عن خلفياتنا الفكرية والدينية والعقائدية، وبالتالي لا يمكن أن نخطئ كلنا ..." إلى آخر ما قال.

قلت فتأمل مبلغ الزندقة التي يصل إليها من تشبع بتلك الطريقة الدهرية وبنظامها الاعتقادي الغيبي! فهم الكتاب والسنة فهم بشري، وإذن فما يدرينا

أي المفسرين هو المصيب وأيهم على خطأ؟ وما يأمننا ألا يأتي زمان يكون التأويل الصحيح فيه على خلاف ما ذهب إليه ذلك المفسر؟؟ فحتى يتوصل الدكتور لفتح باب التأويل والتبعية فيه لما يأتي به الطبيعيون، لم يجد بدا من نسف علم التفسير وأصوله وعلوم القرآن جملة واحدة! فما قيمة علم لا يجد أصحابه بين أيديهم طريقا يتوصلون به إلى معرفة الحق من الباطل في أقوال أصحابه؟؟ ولو سلمنا للدكتور بأن المفسرين يجب أن ينتظروا الطبيعيين ونظرياتهم حتى يقرروا ما مراد الله بكلامه في الآيات التي تتعلق بموضوعات الطبيعيين، فما يأمنهم على ما رجحته أدواتهم وآلاتهم العلمية من أقوال المفسرين في غير موضوعات الطبيعيين من تفسير كلام الله تعالى؟؟ تلك النصوص التي لا تتعلق بالموضوعات التي وضعه فيها الطبيعيون نظرياتهم، من يدلنا فيها على مراد الله إذا كنا لا ندري "كيف نتأكد أن قراءة الشيخ الفلاني أو تفسره تفسير صحيح، ويبقى صحيحا على مدار التاريخ"؟؟ وإذن ما قيمة علم التفسير؟ بل ما قيمة القرآن نفسه من أوله إلى آخره، سواء ما جاء فيه له اتصال بالأمور "الطبيعية" كما سماها، أو غير ذلك؟؟ لا قيمة على الإطلاق!

ولعمر الله إن هذا الكلام إن دل على شيء فلا يدل على جهل الدكتور بالشرع وعلومه وحسب، (إلى حد الجهل بوجود علم اسمه علم التفسير وعلم آخر يقال له أصول التفسير، على ما يظهر من الكلام)، بل إنه يدل كذلك على جهله بفلسفة العلم الطبيعي التي يتكلم باسمها! فإنه ليس من فلاسفة العلم الطبيعي من ينفي قيام البحث التجريبي كله – أيا ما كان موضوعه – على فلسفات معرفية معينة عند أصحابه، أو مدارس فلسفية إن شئت، يستصحبها كل باحث ومنظر طبيعي قبل الإقدام على بناء النظريات وعلى تصميم التجارب المعملية وتوصيف النبوءات المراد رصدها في المراصد وغيرها لنصرة النظرية، سواء أدرك ذلك من نفسه أم لم يدركه! حتى هذا المبدأ نفسه الذي ذكرته الآن (مبدأ وضع التنبؤات Predictions التي إن جاءت المشاهدات بما يوافقها، تعضدت النظرية Confirmed، ولا أقول ثبتت Verified أو تبرهنت Prooven للتفريق الفلسفي الدقيق بين تلك المعاني)، إنما هو اعتقاد ورأي بشري قد يصيب وقد يخطئ! وحسبك ما فيه من جدال عريض بين الفلاسفة دليلا على ذلك! فلماذا يستجيز القوم اخترام أصول علم التفسير والتلاعب بها على هواهم وكأنه ليس بعلم أصلا، ولا يجرؤ أحد منهم على التعرض لأصول الاستدلال التجريبي والطبيعي بالنقد أو المراجعة ولو بالتعريض؟؟ وهل أعمال الفلاسفة الطبيعيين وحي منزل من السماء، وليست "اجتهادات بشرية" مثلا؟؟ هذه أهواء جهمية بلغت بصاحبها مبلغ الزندقة، نسأل الله السلامة! وحسبك إن كنت عاميا لا تدري شيئا عن فلسفة العلوم أن تسأله: إن "لم تكن تريد بناء المعارف بشأن الكيفية التي خلق بها الخالق كل شيء (التي هي غيب محض) على "الدين"، فعلى أي شيء تريد بناءها

إذن يا دكتور؟؟ لم يبق من أساس إذن إلا الدهرية الطبيعية، إن كنتم تعقلون!!

ولهذا لا نزال نقول: يا أصحاب الطبيعيات، اتقوا الله في اعتقادكم واعتقاد المسلمين، ولا تجاوزا بأداة البحث التجريبي حدها، ابحثوا إن شئتم في مخلوقات الله كيف هي وكيف تعمل، وكيف تجري عليها سنن الله الظاهرة القابلة للتتبع والاستقراء المباشر، هذا ما ينتفع به الناس ويتمكنون به من تلك الأسباب التي سخرت لهم بإذن الله تعالى! أما أن يتجاوز الباحث التجريبي مطلب البحث في أحوال المخلوقات إلى البحث في الكيفية التي خلقت بها السماوات والأرض وما بينهما، فهذا ولا شك تأسيس للجهمية ثم الزندقة والدهرية! ولا يمضي فيه الباحث مستزيدا منه إلا ازداد عن الله بعدا وفي صفاته ابتداعا وتعطيلا وفي النصوص قرمطة وتأويلا، حتى يخرج من دين الله بالكلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله! إن مثل صنيع هؤلاء في القرمطة على نصوص الكتاب والسنة من أجل تلبيسها بلبوس الاعتقاد الطبيعي الدهري الغيبي في قصة الخلق، كمثل يهودي أو نصراني أو هندوسي يريد أن يثبت أن القرآن جاء بتقرير العقيدة التي يعتنقها لا بنقضها، فيأتي بنصوص الكتاب والسنة يتأولها بما يقرر به عقيدته! فحتى نبلغ أن يفهم شباب المسلمين المهتمون بالعلوم الدنيوية عامة والتجريبية الطبيعية خاصة، هذه القضية حق الفهم، وأن يمتاز عندهم الدين الطبيعي Natrualism والاعتقاد الغيبي الطبيعي، عن العلم الطبيعي Natural Science، فسيظل هؤلاء الشباب معرضين للانفكاك من دينهم من حيث لا يشعرون، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

ثم قال الدكتور مواصلا الدفاع عن نظرية داروين، وهذا هو الموضع الذي يعنينا من محاضرته في هذا المبحث على وجه الخصوص:

> ثانيا، يعترض الناس كثيرا، أن النظرية هذه تقوم على العشوائية، ربما هذا نقد أدق، و.. يعني أذكى! أن هذه النظرية تقول يعني العملية عشوائية! يعني، ليس هناك إله وجَّه وقال يجب أن يظهر هذا ثم يتطور إلى هذا، ثم يظهر هذا، حتى إذا سلمنا أن الخلق عند الله هو ممتد على مدى زمني، يجب أن نذكر دائما أن الزمن هو زمن بشري، أن الزمن عند الله مختلف تماما، أن الله يعلم الماضي والمستقبل والحاضر في نفس الوقت! فليس هناك تسلسل زمني بالنسبة لله تعالى! الله تعالى يعرف [103] كل شيء، معنى أنه عشرة آلاف سنة مئة سنة مليون سنة مليار سنة، هذه كلها نفس الشيء بالنسبة لله!
> لا تعني شيء أن هناك مدة زمانية!

قلت: هنا يبدو أن الدكتور قد بذل شيئا من الوقت في التفكير في تلك القضية، خلافا لغيرها من الدعاوى مما يبدو جليا أنه قفز إليه تقليدا للفلاسفة

الأكاديميين الذين تعلم منهم الكوزمولوجيا والبيولوجيا بفلسفتهما المعرفية الطبيعية المحضة! فلما جوبه بمشكلة العشوائية الجارية عبر بلايين السنين، تفتق ذهنه عن أن يبدأ في إذابة المشكلة بنسف مبدأ الزمانية والترتيب الزماني بالنسبة لله تعالى بالكلية! فقال: ليس عند الله زمان أصلا! وكلامه هنا مضطرب مجمل! فهو عندما يقول: "الله يعلم الماضي والمستقبل والحاضر في نفس الوقت" فالكلام هنا عن علم الله تعالى، وهذا يبدو موافقا لاعتقاد أهل السنة في أن الله يعلم كل حادث في الماضي من الأزل وكل حادث في المستقبل إلى الأبد وكل حادث في الحاضر (تلك الحوادث المتزامنة كلها تزامنا حقيقيا رغم أنوف النسبانيين) علما يتجدد بمر الزمان إذ يصبح ما كان يعلم كأمر مستقبل من قبل، معلوم الوقوع في الماضي لديه فيما بعد وقوعه، ولا يكون بذلك قد اكتسب علما بأمر كان مجهولا لديه، كما حرره أئمة أهل السنة كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى. فالعقل والنقل يوجبان إثبات حاضر حقيقي وماض حقيقي ومستقبل حقيقي إذ تتقلب الحوادث وجوديا بتتابع يجعل الحادث مستقبلا قبل أن يقع ثم حاضرا حال وقوعه ثم ماضيا بعدما يقع، وكل ذلك يعلمه الله علما كاشفا. أما عندما يقول: "فليس هناك تسلسل زمني بالنسبة لله تعالى"، فهنا خرجنا عن مسألة العلم ودخلنا في نفي تتابع الحوادث (وجوديا) بالنسبة لله تعالى، وهو ما يبدو أن قوله "إن الزمان زمان بشري" يدل عليه، في إشارة إلى نسبية الزمان عند أينشتاين وأنه لا حقيقة للتزامن في الخارج وليس الحاضر والماضي والمستقبل إلا صفات نسبية "بشرية" للعلاقات بين الحوادث بناء على الإطار الإسنادي الذي ترصد منه، لا أكثر ولا أقل، إلى آخر ما بينا فساده في ميتافزيقا النسبيتين وفساد ما ترتب عليه من مقتضيات ولوازم باطلة بشأن علم الله تعالى وصفاته الفعلية في موضعه من هذا الكتاب!

وعلى أي حال، فالظاهر أن سبب التماس الدكتور لهذا الخرف الميتافزيقي بشأن حقيقة الزمان بالنسبة لله تعالى، هو ما يبدو أنه مر به من اعتراض الدهرية على إثبات وجود الصانع في إطار ميثولوجياهم الطبيعية الطويلة، الممتدة لعدة بلايين من السنين (أربعة عشر بليونا تقريبا)، إذ يلزم أنه لم يظهر الإنسان في تلك الفترة الزمانية الفاحشة (وهو ذلك المخلوق الذي نزعم نحن وأهل الكتاب أن الأرض والسماوات قد خلقت من أجل الأمانة التي حمله الله إياها، وسخرت له تسخيرا!) إلا في المئة ألف سنة الأخيرة منها لا غير! فلو صح – كما اعترض به الهالك كريستوفر هينشنز مثلا في غير مناسبة - أن كان هذا العالم كله مخلوقا من أجل استخلافنا فيه وابتلائنا بالغيب، فما معنى أن تجري حوادثه السابقة على ظهور الإنسان ذلك الجريان الطويل فاحش الطول، حتى يأتي الرب بعد بلايين السنين من التطور العشوائي لكون وما فيه، ليختار الإنسان في ذاك الكوكب التافه في تلك

المجموعة النجمية الضئيلة في تلك المجرة التافهة على أطراف الكون، ليقول له: لقد خلقت كل شيء من أجلك؟؟

وهذا سؤال له وجيه ولا شك، ولكن نحن المسلمين لسنا ملزمين بالرد عليه لأننا لا نسلم بتلك البلايين الفاحشة التي ما اضطر الطبيعيون (من جيولوجيين وأحيائيين) لافتراضها إلا من أجل أن يتسع تاريخ الكون – فيما يرجون – لتتابع حلقات أسطورتهم التطورية الساقطة في نشأة العالم كله أولا ثم في نشأة الأنواع الحية على الأرض ثانيا. ولسنا – مع ذلك – نثبت عالما يبلغ من العمر عشرة آلاف سنة أو أقل كما عند النصارى ولكننا لسنا ننفيه كذلك، فهو غيب ليس عندنا فيه نص صريح. والأصل فيما عند أهل الكتاب ألا يصدق ولا يكذب إلا أن يوافق ما عندنا فنقبله أو يخالفه فنرده، والحال أننا ليس عندنا في هذه المسألة شيء. غاية ما عندنا آثار عن بعض السلف رضي الله عنهم بأن أيام الخلق اليوم منها كألف سنة مما نعد، فإن صحت فلها حكم الرفع، وهي إذن حجة في أن عمر العالم (السماوات والأرض) لابد أن يتجاوز ستة آلاف سنة. فبكم يجاوزها، وكم مضى من خلق آدم إلى يومنا هذا؟ هذا ليس عندنا فيه شيء، فالواجب علينا كمسلمين أن نتوقف ونفوض العلم لله تعالى.

والظاهر والله أعلم، وكما ذكره أهل العلم، أن الله تعالى قد اقتضت حكمته أن يخلق العالم كله في ستة أيام، مع أنه كان قادرا سبحانه على أن يخلقه خلقا فوريا (آنيا على حد عبارة الدكتور)، يقول له كن فيكون، من أجل أن يكون في تتابع حوادث الخلق، يوما لكذا ويوما لكذا ويوما لكذا، وفي وصفها للبشر على ألسنة الأنبياء والرسل على هذا النحو، ما يكشف لهم عظمة الرب جل وعلا وقدرته وحكمته وعنايته بما يخلق! وهو ما لا يحصل – في تقدير الله تعالى وحكمته - إن قدرنا خلق السماوات والأرض خلقا فوريا. ولعله كذلك لا يحصل لو قدرنا أن كانت السماوات والأرض قد خلقت في مقدار من السنوات لا نتصور في عقولنا إحصاءه أصلا (كقولهم ببلايين السنين)، فأي حكمة تكون في ذلك، وما الذي يستفاد منه؟ هذا يشعر بالبلادة ونقص القدرة أو بعدم المبالاة، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! ولكننا نجد في الكتاب والسنة أن الله خلق الأرض قصدا وتخصيصا، وخلق السماء ورفع بناءها قصدا وتخصيصا، ثم دحي الأرض وبث ما فيها، يجري كل ذلك على ترتيب صريح، في أيام متسامتة متساوية في الطول (أيا ما كان طولها بمقاييسنا)! وهو تساو يدل على كمال القدرة وتمام المُكنة، إذ لا شيء يلجئه سبحانه لأن يجعل خلق الأرض في مدة ما، ثم السماء في ضعف تلك المدة أو ثلاثة أضعافها أو أكثر! بل قال تعالى: ((قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ)) [فصلت : 9] وهنا يحاجج سبحانه بقصر الفترة التي استغرقها خلق الأرض، بما يدل على عظم القدرة وكمال المكنة كما لا يخفى (وقد يكون مرجحا للقول بأن الأيام الستة كمثل

أيامنا، إلا أن تثبت آثار السلف المشار إليها آنفا)! وقال كذلك: ((فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)) [فصلت : 12] فالأرض خلقت وتم خلقها في يومين والسماء كذلك خلقت في يومين، مع أن النصوص تفيد – إجمالا – بأن السماوات السبع أعظم في ضخامتها وخلقة تلك الأسقف المرفوعة فيها من خلق الأرضين السبع! أما الكونيون فتصورهم الميتافزيقي لمسألة نشأة الكون الأصل فيه الخمول والموات وعدم القصد والغاية والوجهة ومحض العشواء، وفيه تفاهة الأرض وحقارتها في بحر العالم الفسيح، ولهذا جعلوا عمر العالم مقدرا بما يقارب الأربعة عشر بليون سنة، وجعلوا عمر الأرض فيها أربعة ونصف بليون سنة، وهذا مخالف صراحة للنصوص المتواترة كالآيتين السابقتين وغيرهما، أيا ما كان مذهبنا في طول أيام الخلق الستة!

والقصد أنه عندما يعترض الدهريون بأنه ليس ثمة معنى يمكن تصوره لكون الرب قد مكث يقلب في الأرض والسماء لبلايين السنين، حتى يكتمل خلق السماوات وتستوي الأرض، ويكتمل ارتقاء الأنواع على الأرض، عبر أعصار طويلة من الهلاك والفناء والانقراض والمعاناة في أرض غير مكتملة النضج، وصولا إلى نشوء القرد الذكي (أو "الواعي" Conscious Ape على حد عبارة الدكتور) المسمى بالإنسان، حتى يبدأ الباري أخيرا في مخاطبة ذلك الكائن البائس بالوحي وإخباره بأنه قد خلق له كل شيء ابتلاء له واختبارا، وسخر له الأرض والسماء تسخيرا، فهذا اعتراض لا يرجع علينا نحن المسلمين بتهوين اعتقادنا في وجود بارينا وفي كمال علمه وحكمته جل شأنه وكمال صفاته، ولا يلجئنا بحال من الأحوال لتكلف الجواب لدفعه، وإنما يدل العقلاء على وهاء تلك الأسطورة عند القوم على التحقيق! فبمجرد أن أزاح كوبرنيكوس الأرض من قلب العالم، وحولها إلى هباءة طائرة في جو العالم لا قيمة لها إلا أن اتفق اتفاقا أن كنا نحن نعيش عليها، أفضى ذلك بالاقتضاء إلى إسقاط كل دعوى مفادها أن الأرض والسماوات كلها، تلك المتسعة ذلك الاتساع الفاحش الذي يزعمونه، التي طال عمرها ذاك الطول الفاحش الذي يعتقدونه، قد خلقتا – مع ذلك - خلقا مخصوصا من أجل الغاية التي خلق الله لها بني آدم في الأرض! ثم إنهم على ميتافزيقاهم وأسطورتهم الكونية فليس عندهم أيام ستة أصلا كما بينا، بل إن العلمية كلها عملية واحدة متصلة بل ولم تزل ماضية في اطراد، وليس الترتيب عندهم أو التفريق بين حوادث الخلق كما هو في نصوصنا، ولا يتفق هذا مع ذاك على التحقيق، وإن زعم قرامطة أهل القبلة ما زعموا!

فلإن كان هذا الإشكال قد تعرض له الدكتور، فيما يتعلق بالأزمان المديدة المتطاولة المزعومة في نظريات الطبيعيين، فلا يكون جوابه بتقرير أن الله

ليس عنده بليون سنة أصلا، وإنما الماضي عنده كالمستقبل، كله حاضر الآن واقعا، لأن هذا ينقض معنى التتابع الزماني ومعنى الزمان نفسه ويعطله، وهذا لا يصح في العقل ولا في النقل كما بينا، وإنما هو باطل يؤسس على باطل مؤسس على باطل، والله المستعان!

والذي أخفاه الدكتور، أو على الأقل لم يصرح به، هو أن السبب في استطالة عمر الكون عند الطبيعيين على هذا النحو الفاحش، إنما هو قولهم بالعشوائية الوجودية في حوادث ما يسمى بالتاريخ الكوني والتاريخ الجيولوجي والتاريخ الطبيعي على الترتيب، إذ زعموا أن تتابع حوادث النشأة العشوائية من حيث الأصل، على نحو يفضي في النهاية إلى ظهورنا نحن البشر في عالم كعالمنا هذا، لابد أن يكون قد استغرق زمانا فاحش الطول حتى يتفق اتفاقا (بأدنى قدر متصور من الاحتمالية، على تطبيقهم الفاسد لنظرية الاحتمالات في هذه المسألة) لكل حادث من حوادث النشأة أن يقع في موقعه الصحيح، ثم يأتي الحادث الذي يليه – بالصدفة المحضة – ليبني عليه لا ليهدمه ويرجعه كأن شيئا لم يكن! من هنا حرص الجيولوجيون أولا على تمديد عمر الأرض لبلايين السنين حتى يتسع لاستيعاب أقيستهم الواهية في تصور الكيفية التي "نشأت" بها الأرض نفسها، سببا طبيعيا مزعوما من بعد سبب طبيعي، ثم تابعهم داروين وأتباعه في مزيد من التطويل والتمديد حتى يتسع كذلك لأسطورة الارتقاء الدارويني العشوائي في زعمهم! إذ لو قدر أن كان عمر الكون كله مما يقدر بمئات الآلاف من السنين، فضلا عن أن يقاس بآلاف السنوات فقط – مثلا – فلن يكون من المتصور على طريقتهم، أن تحدث تلك الصدف الخلاقة المزعومة كلها (التي تعد بالبلايين، بلا لا يمكن إحصاؤها أصلا) بلا صانع ولا موجه البتة! ومع أن العقلاء يتفقون على أنه لا تأثير لامتداد الزمان مهما امتد على امتناع الممتنع عقلا (وهو في هذه الحالة ظهور النظام من الفوضى المطلقة)، أي لا يصير المحال ممكنا بالتقادم، إلا أنه على مذهب الطبيعيين في تطبيق الاحتمالات الرياضية، فإنه كلما استطال الزمان، وتطاولت مدة الاحتكاك والتفاعل بين المادة والطاقة في ظل القوانين الأولى التي ظهرت صدفة في فردية الانفجار المزعومة، فستزيد احتمالية حدوث ما لا يتصور حدوثه في زمان أقل، وإن كان من المحال عقلا، أو على الأقل تبلغ الاحتمالية حدا لا يحكم معه بأنها كعدمها! [104] فإن قال الدكتور إن هذا الكلام غير صحيح، لأن مسألة الأعمار والامتدادات الزمانية لها مقياس طبيعي موضوعي متفق عليه، قلنا إن المقاييس الزمانية التأريخية Dating Methods تقوم كلها على فرضيات تحكمية Ad-Hoc Assumptions لا يمكن بحال من الأحوال ترجيحها على خلافها إلا بالوهم والخيال، وإنما تنتقى انتقاء تحكميا حتى يصبح المقياس الزماني جاريا على ملايين وبلايين السنين، كما بينا ذلك في موضعه من هذا الكتاب. والقصد أنه ليس من حق الدكتور أن يكلمنا عن مسألة البلايين هذه في عمر الكون وكأنها حقيقة قطعية قد حصل لها من

الثبوت ما بمثله نقطع بأننا لو قفزنا من الطابق العاشر فسنهلك أو ستنكسر عظامنا على أحسن تقدير! لسنا ننتصر للقول بعمر معين للكون، لا ما عند النصارى أنصار مذهب Young Earth Creationism ولا غيرهم، وإنما يجب أن توضع الدعاوى المعرفية في نصابها الصحيح، وأن يقدم ما حقه التقديم ويؤخر ما حقه التأخير، ويتوقف فيما لا نملك فيه مستندا ولا سلطانا من رب العالمين! ومن ذلك أن يبين للناس وهاء الأسس التي عليها حكم الطبيعيون بتلك الأعمار فاحشة الطول! وما أردنا من هذا التقرير إلا أن نبين أن مسألة العشواء الوجودية التي يريد الدكتور تخليص الميثولوجيا الطبيعية منها Chance / Ontological Randomness مرتبطة ارتباطا بارادايميا وثيقا بقضية الامتداد الزماني لعمر الكون والأرض، على نحو لا يصح ولا يقبل منه أن يختزله ذلك الاختزال.

ثم قال الدكتور: "لكن حتى – يقول الناس – حتى لو سلمنا أن هذه المدة الزمانية كانت لازمة لتطور هذه الخليقة، يعني، نظريتكم هذه تقوم على العشوائية! لأ! هي تقوم على العشوائية فقط إذا نظرنا إلى ما يقوله الماديون! الماديون يروجون لهذه النظرية على أنها نظرية تقوم على العشوائية، وبالتالي فليس هناك توجيه، تصميم، من طرف إله خلف هذه العملية كلها!" اهـ.

قلت: هذا الكلام غير صحيح بالمرة، وإني لأجزم بأنه يعلم أنه غير صحيح! فمفهوم أن يتكلف الدكتور محاولة تغيير فرضيات ومسلمات النظرية والتلاعب بها حتى يخلصها من العشواء الوجودية المتجذرة فيها، كما سلكه التطويريون والتصميميون، من أجل أن يحمل الناس على تلبيسها بدينهم واعتقادهم كما لبسها هو من قبل بدينه واعتقاده! أما أن يزعم أنها لم تقم – عند داروين نفسه – على العشواء الوجودية من الأساس، فهذا كذب وتلبيس ظاهر، والله المستعان! ويكفينا ما نقلناه في مستهل هذا المبحث من كلام داروين دليلا على بطلان هذه الدعوى! فالماديون لا يروجون لها على أنها تقوم على العشوائية من أجل أن ينصروا ماديتهم وإلحادهم، ولكن من أجل أنها فعلا تقوم على العشوائية، وهي فعلا تمثل الأساس والركن الركين في إلحاد ودهرية كافة الدهرية المعاصرين من بعد داروين، وهذه حقيقة يجب أن يكون لديك – يا دكتور – من الشجاعة الأدبية ما يجعلك تقر وتعترف بها!

ثم قال:

> لكن، الانتقاء الطبيعي، أنا ذكرت في الحلقة السابقة، ما هي الأسس العلمية لهذه النظرية. قلنا: واحد، هي الطفرات التي تحدث، وهذه التي يتم التركيز عليها على أنها عشوائية، ثانيا، الانتقاء الطبيعي، هذا أن الطبيعة هي التي تختار ما هو أنسب للبيئة، لكل بيئة، هذه ما فيها

عشوائية! هذا مناسب أو غير مناسب، هذا سوف يستقر ويتكاثر، هذا غير مناسب، لن يستقر، هذه مسألة ما فيها عشوائية! ثم تراكم هذه التغيرات، هذه أيضا ليست عشوائية، ثم adaptation قلنا، المواءمة، أو الملاءمة، أن الجسم هذا صار ملائما وتغير وصارت له أوصاف معينة، هذه أيضا ليست عشوائية! ثم تفرع أو ظهور Speciation ظهور الأنواع المختلفة هذه أيضا ليست عشوائية! إذن فالعملية كلها ربما، العملية الأولى هي الوحيدة التي يشار إليها على أنها عشوائية! طيب هل هي عشوائية فعلا؟؟

قلت: قد تقدم بيان أن معنى العشوائية متجذر ومتأصل ليس في فكرة الطفرة وحدها، ولكن في فكرة الانتخاب الطبيعي كذلك! وهي بالمناسبة – آلية الانتخاب الطبيعي – تلك الفكرة العبقرية التي فرح بها داروين وزعم أنها تغني عن القول "بالتصميم"، وليس الطفرة العشوائية، وفي ظني أن الدكتور لا يخفى عليه ذلك، وأنه على الأقل قد قرأ كتاب "في أصل الأنواع" قبل أن يرفع عقيرته بالانتصار لتلك النظرية وأسلمتها على هذا النحو! ولا عجب أن يفرح داروين بنظرية الانتخاب الطبيعي وأن يفرح بها كل ملحد دهري! إذ لا معنى لأن تكون الطبيعة هي التي تنتخب ما يصلح للبقاء وتهلك كل ما سواه، فلا يبقى ما يبقى إلا من أجل أنه قد اتفق له أن وافق في خلقه نظام الطبيعة، لا معنى لهذه الفكرة ولا مقتضى لها إلا نفي الخالقية والغائية والحكمة والتعليل والعلم الإلهي في عملية الخلق كلها، وإذن يتحصل أن الأنواع لا يبقى ما يبقى منها إلا بالصدفة والعشواء، من بعد ما تأهلت للبقاء بالصدفة والعشواء! وإذن فالعملية كلها عشواء في عشواء، في إطار قانون الطبيعة الذي أجاز حصول تلك الحوادث كما أجاز خلافها وكما أجاز عدمها من الأساس! وقد بينا من قبل أن عملية التكيف Adaptation ليست ارتقاء Evolution وإنما اغتصبها الدراونة اغتصابا ليجعلوها من جملة الأدلة على صحة نظريتهم الغيبية السخيفة! فيجب أن يعترف الدكتور بأن نظام الخلق في الأنواع الحية عندهم عشوائي محض، يجري في إطار قانون طبيعي أعمى. فهي حركات عشوائية لأجسام لها طبائع معينة وسنن طبيعية تحكمها، فإذا اتفق أن ارتطم الجسيم (أ) بالجسيم (ب)، حصل التفاعل وفق القانون الطبيعي، ونشأ المركب (أب)، وإلا لم يحدث شيء!

وحتى وإن قلنا إن جميع حركات الجسيمات في الفضاء من نشأة العالم وإلى منتهاه، كانت ولابد جارية على ما جرت عليه لا محالة، بالنظر إلى مجموع الأسباب الفيزيائية التي أدت إلى تلك الحركات ورجحتها على خلافها، حتى على هذا القول، فهي أيضا عملية عشوائية محضة، بالنظر إلى جريان الأسطورة الداروينية نفسها في إطار آليتي التطفر والانتخاب، عند من يفهم تلك الآليات ويتصور ذلك الجريان المترتب عليهما حق التصور! فإنه لا حقيقة

لنشأة الأنواع تحت هاتين الآليتين على النحو الذي زعموا أنها نشأت عليه، إلا الفوضى والعشواء وانعدام الغاية والترتيب والحكمة الإلهية، كما بسطنا الكلام عليه في أجزاء سابقة من هذا الباب! ولهذا كان إثبات تلك الآليات عند الدراونة القائلين بالحتمية السببية اللابلاسية (الحتمية السببية الطبيعية) دليلا في حد ذاته على أن العشواء (أو اللاغائية Ateleology إن شئت) متجذرة في أصل القانون الطبيعي نفسه، الذي اتفق أن كان في البدء كما كان، ثم كان هو وحده السبب في كون نظام العالم على ما هو عليه لا على غيره، وفي جريان القصة كلها على هذا النحو لا على غيره! فإذا كان قد تقرر أنه لا يمكن أن يكون الحاضر على خلاف ما هو عليه، بالنظر إلى كون الماضي على ما كان عليه، وهكذا وصولا إلى النقطة الأولى، فإن هذا عندهم دليل على أنه لم يكن في الغيب صانع أصلا، بحيث تكون إرادته هي التي تعلل كون العالم على ما هو عليه، وإنما هي قوانين صارمة اتفق أن ظهرت من أول وهلة على نحو ما ظهرت، فأجرت قصة النشأة على ذلك المجرى دون غيره، ولو قدر أن اختلفت اختلافا يسيرا لما ظهرت الحياة أصلا (على طريقة القوم في بناء ما سموه بالمبدأ الأنثروبي). وقد توسع بعضهم فزعم أن العوالم لا تزال تنشأ عشوائيا، وإنما اتفق أن نشأ عالمنا هذا على تلك التركيبة التي أدت (بالسببية الفيزيائية الحتمية Physical Causal Determinism) إلى نشوء الحياة عندنا على هذا النحو لا غيره، وإلى أن نبلغ نحن من العقل ما به نطرح تلك المسألة للبحث والنظر! وهذا ما مال إليه ريتشارد دوكينز في غير موضع من كلامه، وتأسف لكون الكوزمولوجيا ما زالت لم تحظ بمثل تشارلز داروين إلى الآن (أي حتى يثبت تلك التخمينة العريضة بشأن ارتقاء "الأكوان" Evolution of Universes من أصل مشترك)!

والقصد أنه لا يستقيم للدارويني إلا أن يؤمن بالعشواء المتجذرة في أصل العالم نفسه، حتى وإن كان يقول بالحتمية السببية! ولهذا نقول إن التماس الدكتور الإحالة على الأسباب الفيزيائية والحتمية السببية اللابلاسية Laplacian Determinism في تفسير ظهور الطفرة نفسها في الخلية الحية، لا يخدمه بشيء البتة في مسعاه لنفي العشوائية الوجودية عن البارادايم الدارويني، إذ تراه يمضي ليقول:

> الطفرات، كيف تحدث الطفرات؟ قلنا جاء مثلا شعاع هكذا، إشعاع وكسر أو غير الجينوم، جزيء الدي إن إيه هذا في خلية معينة، فهذه ليست عشوائية، هو يقول نحن ما نقدر نتنبأ بها، كونك لا تستطيع أن تتنبأ بها لا يعني بالضرورة أنها عشوائية. هذه محكومة بقوانين الفيزياء! هذا الشعاع لديه طاقة معينة، جاي من نجم معين، أو من أشعة كونية، أو من إشعاعات عندنا هنا على الأرض، طبيعية، هذه كلها محسوبة بقوانين الفيزياء، لو عندي قدرة على أن أحسب أنا كل

شيء يحدث حواليّ، سأعرف في كل ثانية كل إشعاع أين سيضرب وعلى أي خلية سيؤثر! هذه ما فيها عشوائية! طيب يقول لك هي كاونطم يعني كوانطم، عا.. الكوانطم هناك عملية عشوائية! حتى الكوانطم هذه لا يعني بالضرورة عشوائية، هذه تحتاج تفصيل شوية، هل هي تغيرات يعني مضبوطة محددة، أم هي عشوائية إلى حد ما، هذه نحتاج لها تفصيل شوية، ولكن ليست بالضرورة بهذا الطرح.

قلت: بعيدا عن عدم ثبوت هذا الزعم بشأن الموجات التي تفضي إلى ظهور الطفرات الجينية، فضلا عن تلك التي تظهر بها الأعضاء الجديدة وتنشأ بها الأنواع الجديدة في زعم الدراونة، فقد تقدم أن إثبات الحتمية السببية لا يفيده في نفي العشوائية الوجودية عن قصة النشأة عند داروين وأتباعه. والواقع أن إثبات الحتمية السببية على هذا التصور الطبيعي (السببية الطبيعية المغلقة) الذي قرره الدكتور، يفضي في الحقيقة إلى نفي الباري بالغيب لا إلى إثباته كما يتوهم! وذلك أن الحتمية عند الطبيعيين، على وجهها الأنطولوجي لا الإبستمولوجي (كما بيناه بتفصيل في غير هذا الموضع من الكتاب)، تعني أنه ليس في الحاضر حادث إلا وقد تقرر وقوعه حتما، وما كان من الممكن أن يقع غيره، بالنظر إلى مجموع الحوادث الطبيعية التي جرت في الكون فيما قبل وقوع ذلك الحادث في الحاضر. وهذا يقتضي تحويل السببية إلى نظام طبيعي محض، أو ماكينة مغلقة سببيا Closed System of Causality لا متسع فيها لسبب غيبي أو لتعليل خارج عنها من أي نوع، كما بينا آنفا! وهذا باطل قطعا، وهو اعتقاد الدهرية الطبيعيين الذين يؤمنون بأنه لا موجود في الواقع إلا الطبيعة، ولا سبب إلا السبب الطبيعي! ولا يخفى أنه لا يقتضي نفي ربوبية الباري جل وعلا وقيوميته على العالم وحسب، بل ونفي كونه صانعا للعالم من الابتداء، إذ مجرد ثبوت صانع بالغيب هو الذي صنع النظام من خارجه، يقتضي إثبات افتقار ذلك النظام إلى أسباب من خارجه، فيكون قائما بغيره لا بنفسه، والقول بعدم افتقار النظام وحوادثه لأسباب من خارج العالم (إجمالا)، ينفي قيام الرب به بالضرورة، ويحيله إلى نظام قائم بنفسه، فلا يحتاج إلى من يقيمه من خارجه لا في الصنع ولا في التشغيل، فتأمل!

ولهذا قال كبار الفلاسفة الطبيعيين من زمان فلاسفة اليونان ووصولا إلى ستيفن هوكينغ، ومرورا بسبينوزا وأينشتاين، إن القانون الطبيعي هو الصانع نفسه، وأن فيه قوة إلهية ذاتية Divine Power تقوم بكل شيء، فإذا كان هو الذي يتعلل به كل شيء، فلا بد أنه هو الذي يقوم بكل شيء! فإن جعلوها هي مبدأ النظام الذي وضع فيه أسباب بقائه واستمراره من أول وهلة ثم انقطع أثره وعمله، كان قولهم هو ما يسمى بالربوبية Deism، وإن جعلوها ماضية في القيام بأمر العالم وفي حفظ النظام الطبيعي من الأزل وإلى الأبد، كان

قولهم هو قول الاتحاديين الطبيعيين Naturalistic Pantheists. والقصد أن السببية الطبيعية المغلقة الحتمية كانت هي منشأ كلا المذهبين: الربوبية الطبيعية، ووحدة الوجود الطبيعية، بالنظر إلى اضطرار الطبيعيين لتنزيل صفات الربوبية التي نفوها عن الباري بالغيب، على الطبيعة نفسها، كلها أو بعضها، كما بسطنا الكلام عليه في الباب الأول من هذا الكتاب، عند كلامنا على شرك الطبيعيين. فمن كان منهم مائلا للاعتراف بمعاني الربوبية، فلن يثبتها إلا للطبيعة نفسها على طريقة سبينوزا وأينشتاين، على إحدى الصورتين المذكورتين، وإلا نفاها بالكلية، وصرح بالقول بالدهرية المحضة (الإلحاد المحض)، مع كون مذهبه يقتضيها على نحو ما ذكرنا!

وأما نحن المسلمين فنؤمن بأن الأسباب في الأرض والسماء تبدأ سلسلتها من الغيب وما فيه من أسباب غيبية، بداية من إرادة رب العالمين وأمره وتدبيره الذي يتعلل به كل شيء، ومرورا بتلك الملائكة النازلة بأوامر الله تعالى وأقضيته في خلقه آناء الليل وأطراف النهار، وتلك الملائكة التي جعل الله عملها سببا في قيام الطبائع بالأشياء، ثم وصولا إلى تلك الأسباب الظاهرة التي تبدو لنا في عالم الشهادة من جهتنا. فإن صح أن يقال إنه ما كان شيء من حوادث العالم ليقع على خلاف ما وقع عليه، فإنما يصح ذلك عندنا على أساس أن الرب جل شأنه قد قضى بإرادته وتقديره السابق أن يجري كافة الأسباب، الغيبية منها وما دونها، على نحو مخصوص بحيث تتولد عنه عامة حوادث العالم على النحو الذي يريده سبحانه لا على غيره. بمعنى أنه لابد لكل حادث من أسباب تعلله تعللا تاما، فإذا كان الحادث قد كتب وقدر تقديرا مبرما، فلابد أن تعليله التام وجملة أسبابه السابقة عليه (بداية من مشيئة الرب وأمره) قد قدرت كذلك، فما كان ليقع غيرها! ثم إنه كذلك قد قضى بإرادته أن يخرق الأسباب ويعطلها في بعض المواضع، وأن يجري الحوادث على خلافها أحيانا، بل وأن يعكس النظام الطبيعي نفسه إذا شاء سبحانه، مع تقديره لما يترتب على ذلك الخرق نفسه من متولدات سببية، هي كلها واقعة بالضرورة على نحو لم يكن من الممكن أن يقع خلافه لا لأن القانون الطبيعي وأسبابه تقتضي ذلك وتوجبه، فالقانون الطبيعي نفسه معلول بالغيب وما فيه عندنا، ولكن لأن الله تعالى قد كتب في تقديره واقتضت إرادته بأن يجري الأمر على ما جرى عليه لا على خلافه، ولو شاء لكان جريان الحوادث على خلاف ذلك كله، حتى مع كون قوانين الطبيعة التي يعرفها الطبيعيون وما لا يعرفونه منها على هذا النحو الذي هي عليه الآن لا على خلافه! أما حتمية لابلاس، التي تقول بأننا لو قدرنا أن ظهر كائن ذكي (أو شيطان لابلاس كما سموه) بوسعه أن يعرف جميع قوانين الطبيعة بلا استثناء، والإحاطة بجميع حوادث الحاضر في العالم بلا استثناء، فلابد أنه سيكون بوسعه كذلك أن يتنبأ بحوادث المستقبل كلها تنبأ كاشفا لا يقبل الانخرام، فهذا خرف ودجل من عقول قوم طبيعيين دهرية، والدكتور نضال – للأسف –

يلتقطه منهم من غيرما انتباه لمقتضياته ولوازمه، يحسب أن فيه ما قد تندفع به دعوى العشوائية وتثبت دعوى الخالقية الإلهية لأسطورة داروين، والواقع على خلاف ذلك بل على نقيضه كما بينا، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والعجيب أنه يأتي في حلقه أخرى من حلقات برنامجه "تأمل معي"، حيث تكلم عن ميكانيكا الكم واستعرض تاريخها، فيقول: "وهذه من النتائج العظيمة التي أتت بها نظرية فيزياء الكوانطم، التي بينت لنا أن الطبيعة المجهرية هي طبيعة احتمالية"! اهـ. فهل يدرك الدكتور – هداه الله – معنى ومقتضى جعل الطبيعة (يعني الواقع الوجودي نفسه في الأعيان) احتماليا؟؟ هذا يقضتي التسليم بصحة تأويل كوبنهاغن، الذي يثبت الاحتمالية الوجودية اللاحتمية للدالة الموجية وصولا إلى نقطة القياس Measurement، حتى إذا ما حصل القياس، وانهارت الدالة Collapse (على حسب تصور بور وهايزنبرغ وأكثر الفيزيائيين المعاصرين على أثرهما)، زالت الاحتماليات الوجودية الأخرى ولم يبق إلا الواقع المرصود وحسب! مع أن الدكتور في خلال الحلقة نفسها، يستعرض ظواهر الكوانطا ويشرحها في ضوء التصور الوجودي للواقع الكمومي، الذي قال به "دي برولي" وأصحابه (أن ما نسميه بالجسيمات الكوانطية كالإلكترونات والبوزيترونات وغيرها، إنما هي في الحقيقة شيء وجودي متصل، يسلك سلوك الجسيم أحيانا، وسلوك الموجة في أحيان أخرى)، وهذا التصور لا متسع فيه للقول بالاحتمالية الوجودية التي عبر عنها الدكتور بقوله "إن الطبيعة المجهرية طبيعة احتمالية"!

فبأي المذهبين الأنطولوجيين تقول يا دكتور؟ حتمية دي برولي، أم احتمالية بور وهايزنبرغ؟؟

ثم قال الدكتور:

> هناك عدد من العلماء المسلمين، هم قلة حتى نكون صادقين، هم قلة، ولكن منذ ظهور نظرية داروين، إلى يومنا هذا، وكنت في الحلقة السابقة أشرت إلى علماء الحضارة الإسلامية الذين ناقشوا فكرة التطور، بطرق مختلفة، ولكن نحن نتحدث الآن عن نظرية داروين، منذ ظهور نظرية داروين، إلى يومنا هذا، هناك مجموعة وإن كانت قلة، أقلية هي بالنسبة لعلماء الدين المسلمين، الذين قالوا إن نظرية داروين هذه لا تعارض الإسلام، ولا شيء، إنما فقط يجب أن يفهمها الإنسان أو يضع لها سبل للتوفيق ليوفقها ويوائمها مع المبادئ الإسلامية بشكل دقيق، أو في شكل أذكى خلينا نقول.

قلت: تأمل ما يكون من جهمية وزنادقة العصر، الذين يشتركون في أكثرهم في الجهل العظيم بعلوم الدين (خلافا لجهمية القرون السالفة الذين كان أكثرهم فقهاء مجتهدين وأصوليين منظرين)، عندما يقرر أحدهم أن يدعو المسلمين لقبول نظرية اعتنقها كيف يفعل! لا يبالي أحدهم بما يسلكه من باطنية وكفر، بل ولا يبالي بما هو متلبس به من تناقض معرفي ومنهجي فاضح! المهم أن يبدو صاحب موقف شرعي مستساغ فيما بين أقرانه من جهال المسلمين! فتراه يبدأ أولا بهدم أصول التفسير ومنهج التأويل عند علماء الإسلام، يقول إن النصوص (سواء ما أجمع السلف على فهمه على وجه ما دون غيره، أو ما أجمعوا على كون فهمه الصحيح وجها واحدا على الأقل من عدد من الوجوه التي ما عرفوا غيرها ولا تصوروه) لا مانع شرعا ولا عقلا من تأويلها على فهم جديد بالكلية، لم يقل به أحد من المسلمين قط، ولم يعرفه أحد من علماء التفسير يوما من الدهر! بل وقد يقول كما قال صاحبنا هذا: إنه ليس ثمة ضمان لكون تفسير الشيخ فلان أو الشيخ فلان هو المراد من الآية، لأن الأمر كله "جهد بشري قاصر"! فإذا ما تم له ما يريد من تأصيل تلك الزندقة المحضة، والإطاحة بعلوم المسلمين والرمي بها عرض الحائط، رأيته – مع ذلك – يفتش عن "علماء" في الشريعة يقولون بما يوافق نحلته وعقيدته الفاسدة التي نقض علوم التفسير وهدم أصل الشريعة نفسها من أجلها! فإذا ما وجدهم، طار بهم وأثنى عليهم الثناء العظيم، ورفعهم فوق علماء الدين كافة، يقول لهم ما معناه: ليهنكم العلم في الدين يا أكابر، هكذا يكون النظر والاستنباط! ثم يقول لغيرهم: تعلموا من هؤلاء واقتدوا بهم إن أردتم أن تفلحوا! ولا ينتبه المسكين من هؤلاء إلى أنه متناقض أبلغ التناقض بهذا المسلك، إذ قد تقدم منه بالفعل الحط على وسائل علماء الدين في فهم كتاب ربهم وجعلها هباء لا قيمة له، ولا يوصل منه إلى معرفة مراد الرب من كلامه إلا وهما وتخمينا! وإذن فقد أسقط ذلك العلم الذي به صار المتشرعون علماء من الأساس! فإذا كان ذلك كذلك، فبأي شيء ذهب يثني على تلك "القلة القليلة" التي أعجبه رأيها وتأويلها، يجعلهم غاية المرام في علوم الدين، ثم جاء يقدمهم للناس رجاء أن يتبعوهم ويأخذوا عنهم دينهم؟؟ يهدم علوم الدين أولا، ثم ينتقي من المنتسبين إليها من يوافقه على رأيه المضاد لاعتقاد المسلمين ليرفعه إلى مراتب العلماء الأجلاء، يجعله مثالا يحتذى في العلم الشرعي، فبالله هل هذا مسلك قوم عقلاء؟ وهل يبقى عند من كان هذا مسلكه ومذهبه، ولو أدنى قدر من تعظيم علوم القرآن وتنزيلها منزلتها؟؟ نسأل الله السلامة!

ثم أخذ الدكتور في تعديد أسماء ومؤلفات تلك الثلة من أهل الأهواء (ولا أقول "علماء") التي وقعت في قبول نظرية داروين مع هدم إجماع المسلمين وفتح نصوص قد صارت معانيها من المعلوم من الدين بالضرورة، للتحريف من أجلها، فقال:

> أول من كتب في الموضوع، يعني حوالي، لا يزيد على حوالي عشر سنوات، أو أكثر قليلا بعد ظهور كتاب داروين، هو الشيخ حسين الجسر، وهو مفتي الديار اللبنانية حينها، ألف كتابا سماه الرسالة الحميدية نسبة إلى السلطان عبد الحميد العثماني، الذي كان يحكم في ذلك الوقت، ويعني أهداه له، ناقش فيه ما هو تأثير النظريات الجديدة، النظريات العلمية التي بعضها كان يقدم على أنه نظريات مادية، ما هو تأثيره على العقيدة الإسلامية. وناقش، من بين ما ناقشه، خاصة ركز على نظرية داروين. وقال حينها، هذه النظرية لم تثبت، طبعا هذا الكلام ألف ثمانمئة وسبعين أو واحد وسبعين، طبعا حينها فعلا ما كان عندنا كل الأدلة التي ذكرت لكم في الحلقة السابقة. ولكن قال: إذا ثبتت، ليس بالضرورة أنها تتعارض مع القرآن! بل قال: كثير من الآيات تتواءم معها [105]، وبعض الآيات يجب تأويلها. يجب تأويلها بشكل نفهم ما معنى الخلق هنا، ما معنى آدم، كيف ظهر آدم، ما معنى الجنة، خلق في الجنة، هذه الجنة هي في السماء، أم الجنة على الأرض، هذه يجب تأويلها ...

قلت: الله أكبر! مع معنى آدم؟؟ المسلمون على امتداد أربعة عشر قرنا، وعلى رأسهم الصحابة رضي الله عنهم والسلف والأئمة، لم يعلموا "معنى آدم" حتى جاء داروين ليعلمهم؟؟ لم يعلموا معنى الخلق ولا معنى الجنة؟؟ فبالله ما فائدة القرآن إذن، وبأي شيء بعث الله نبيه؟؟ ثم قال:

> وفي هذه (الحالة) لن يكون لنا مشكلة إذا تم التوفيق، إذا تم التأكد من نظرية داروين، قال حسين الجسر هذا الكلام من حوالي مئة وخمسين سنة، ما يقرب من مئة وخمسين سنة، قال لن يكون هناك إشكال. كذلك علماء عثمانيين في تركيا حينها، في أواخر القرن التاسع عشر، سليمان أطش، أحمد حمدي أكسكي، كذلك كتبوا بالتفصيل، وشرحوا وقالوا لا نجد هناك تعارض، السيد أحمد خان، معروف، يعني العلامة الكبير في الهند، سيد أحمد خان، وكان يعني حداثيا يعني Modernist، في طرحه، إلى آخره، قال لا أجد أي إشكال، أبدا بل يجب القبول بهذه النظرية مع كل النظريات العلمية الموثوق بها، وإدماجها في التصور الإسلامي، قال ليس هناك أي مشكل،

قلت: صدق الذي قال "الطيور على أشكالها تقع"، أو كما قال الشاعر: "من يكن الغراب له دليلا ... يمر به على جيف الكلاب"! لا يجتمع في الرجل أن يكون عالما متخصصا في دراسة ميراث النبوة الذي ورَّثه رسول الله صلى الله عليه وسلم علماء المسلمين، وأن يكون مع ذلك "حداثيا" على هذا الإطلاق الذي أطلقه الدكتور! ذلك أن الحداثة Modernism إذا أطلقت غير

مقيدة فإنما يراد بها حركة فكرية وثقافية وفنية شاملة ثارت على الموروث جملة واحدة، متأثرة خصوصا بعصر الثورة الصناعية، وهي منبع قول المأفونين المفتونين من بني جلدتنا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي "بصراع" الأصالة والمعاصرة بهذا الإطلاق! فالحداثي هو الذي يرى أن أوروبا لم تترق في الحضارة إلا لما تخلت عن الموروث الكنسي وفصلت بين الدين والدولة! فكيف يكون عالم الدين "حداثيا"، إذا كان الدين الذي يفترض أنه عالم به، إنما هو تراث نصي عظيم، يسلمه كل جيل للذي يليه، ويدور العلم به على معرفة مراد الشارع من كل نص منه، وهو ما لا يوصل إليه إلا تلقيا بالسند المتصل؟ العلم الشرعي علم بالتراث، ولا يكون الرجل متشرعا بحق حتى يكون عليما بالأثر، يعلم كيف يرفع سنده المعرفي بدين الله تعالى إلى الصدر الأول، صدر الصحابة رضوان الله عليهم، تلامذة الرسول صلى الله عليه وسلم! فإن قدرنا رجلا يستمد علمه من التراث وهو مع ذلك لا يقيم وزنا للتراث، ففي أي عقل يستقيم ذلك، وأي علم إذن يكون هذا الذي هو عالم به؟؟ سبحان الله!

ثم يقول: "بعض الناس يقولون حتى الشيخ محمد عبده، الشيخ محمد عبده الأزهري مفتي مصر سابقا، صاحب المنار، إلى آخره، قالوا وكان أيضا يقبل بنظرية التطور، وإن لم يكتب هذا الكلام بشكل صريح في أي من كتاباته،" اهـ. قلت: لقد تلبس محمد عبده بما هو أخطر وأفسد من ذلك! فقد كان من "التنويريين"، وأسس في تفسير المنار (الذي قال فيه الإمام الوادعي رحمه الله: "هو بالظلام أشبه") وغيره أسسا منهجية لمعاملة القرآن كما يعامل اللاهوتيون النصارى نصوص كتبهم تمهيدا لإسقاط سلطتها المعرفية في قصة الخلق وقضية النشأة بعموم. ففتح باب التعامل مع خبر الغيب في القرآن (كقصة آدم عليه السلام وغيرها) على أنه مما يسمى "بالقصص التمثيلية"، أو ما يسميه النصارى Allegory! أي أن قصص القرآن لم يكن إلا تصويرا لوقائع مفترضة غالبا من أجل تمثيل المعاني الكلية وترسيخها في أذهان السامعين، من أجل العبرة والعظة، فلا يلزم أن يكون القصص كله خبرا تاريخيا مطابقا للواقع! وما ذاك إلا لأنه (وتلميذه محمد رشيد رضا في أول أمره رحمه الله وغفر له) قد فتن بنظريات الغربيين، كما هو الداعي لكل متجهم أن يقدم ما يقدمه بعقله على النقل والأثر، والله المستعان. [106]

ثم يمضي الدكتور نضال في ذكر أسماء "العلماء" الذين قبلوا نظرية داروين، فيقول:

> العلامة الباكستاني الذي عاش في أوروبا فترة طويلة في آخر حياته، محمد حميد الله، أيضا كان لا يرفض، قال ليس هناك أي إشكال مبدئيا أو عقائديا بين هذه النظرية وبين المبادئ العقدية الإسلامية، آخر شيء يوسف القرضاوي، شيخ يوسف القرضاوي قبل حوالي

ست سبع سنوات كانت هناك حلقة من برنامج الجزيرة الشريعة والحياة، خصصت ل.. 2009 كانت الذكرى المئة والخمسين لصدور كتاب داروين، والذكرى المئتين لميلاد تشارلز داروين نفسه، وخصصت لها حلقة مدة ساعة كاملة، نوقشت فيها هذه النظرية مع الشيخ القرضاوي ومع بعض العلماء الآخرين، قال ، وأريد أن أذكر يعني كلام الشيخ يوسف القرضاوي، قال، سأله المقدم قال، لأن الشيخ قال الإسلام لا يمنعنا من البحث في أي من هذه المواضيع، فقاطعه هذا المقدم قال: حتى البحث في بداية الخلق؟ حتى البحث يعني في بداية خلق الإنسان، خلق الحياة، خلق الكون، هذه أيضا القرآن لا يقول شيء ضدها؟ فقال: حتى البحث في بداية الخلق! بس يكون في ذهننا أننا بنبحث عن الخلق، يعني أن هناك خالقا! قال يعني بمعنى إذن خلينا في بالنا إن احنا أن هناك خالق وإننا بنبحث عن عملية الخلق، ليس هناك تعارض مع الإسلام، قال يعني حتى لو فرضنا أن فيه أنواع تطورت عن أنواع، طبعا هذه الحلقة تناقش داروين! قال له حتى لو فرضنا أن أنواع تطورت عن أنواع! وأن هذا بإرادة الخالق. إنما هذا بإرادة الخالق، حسب سنن الخالق، يعني خلي بالك إنت ناقش كل هذا، واطرح الفكرة، يعني انبثاق أنواع من أنواع، لكن بشرط أن تقول أنها بإرادة الخالق، وبسنن أي قوانين الخالق التي وضعها في الكون، حتى لو ثبتت قضية داروين، حتى لو ثبتت، الكلام من سبع سنوات فقط، فعندنا من الآيات ما يمكن أن يدخل فيها! ما عندنا مشكلة! ممكن بعض آيات تأتي مطابقة أو إذا فهمناها بطريقة معينة نقول تتوافق تماما مع نظرية داروين! ليس عندنا أي إشكال من هذا الباب!

يجب أن يكون معلوما في الابتداء أن القول بكون آدم عليه السلام هو أول البشر، وأنه خلق على غير مثال سابق (خلقا خاصا أو مستقلا أو مباشر أو غير ذلك مما يصطلحون عليه) ليس محلا للنظر عند المسلمين، وليس مطروحا للنزاع، وإنما هو محل إجماع، بل إنه مما يعلمه العامة من دين الإسلام بالاضطرار، والقرآن جاء به صريحا غاية الصراحة، فمن خالف فيه فليس مخالفا للإجماع وحسب، بل إنه متلبس بناقض من نواقض الإسلام، نسأل الله السلامة!

ومع أن بدعة نسبة آدم عليه السلام إلى سلف من نوع منحط، قد أطلت برأسها في بلاد المسلمين من بدايات القرن العشرين الميلادي، مع محاضرات محمد عبده في التفسير التي حولها محمد رشيد رضا (مع الزيادة والتحشية) إلى تفسير المنار ونشره قبل انتصاف القرن العشرين الميلادي، ومع ترجمة الكاتب الملحد اللبناني ذي الأصول النصرانية المدعو "شبلي شميل" كتاب "في أصل الأنواع" في سنة 1910 الميلادية إلى اللغة العربية، إلا أنني اخترت أن أسميها بالبدعة الشاهينية نسبة إلى عبد الصبور شاهين، بالنظر إلى كونه هو أول من روج لها ترويجا جماهيريا كبيرا في بلاد المسلمين على أثر نشره كتابه الموسوم "أبي آدم"! فقد زعم في الكتاب المذكور أن آدم ليس هو أول البشر، وإنما هو أول إنسان، خلقه الله على أحسن تقويم، تقويم الإنسان، وجعل عقله عقل إنسان، وأهله لأن يتعلم أسماء الأشياء .. إلخ!

قال "محمد عبده" في تفسير المنار (المطبوع في سنة سبع وأربعين وتسعمائة وألف من الميلاد، 1947) عند قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)) [النساء : 1]: "ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص، ولا بالظاهر، فمن المفسرين من يقول: إن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة، أو قريش، فإذا صح هذا جاز أن يفهم منه بنو قريش أن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان. وإذا قلنا: إن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام، أي لجميع الأمم، فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده، فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبا يحملون النفس على ما يعتقدون والأصناف الكبرى هي الأبيض القوقاسي، والأصفر المغولي،

والأسود الزنجي وغيره، وبعض فروع هذا تكاد تكون أصولا كالأحمر الحبشي، والهندي الأمريكي، والملقي." اهـ.

قلت: بل آدم هو المراد بالنفس الواحدة بالنص (بالنظر إلى مجموع النصوص في المسألة) وبالظاهر، كما عليه إجماع المسلمين عبر قرونهم، وكما هو معلوم من دين العامة بالضرورة! وأما زعمه أن من المفسرين من قال إن كل نداء "يا أيها الناس" فإنما يراد به أهل مكة أو قريش، فلم أقف عليه في كتاب واحد من كتب التفسير، قديمها وحديثها! ولو صح أن ذهب إليه أحدهم لكان ضالا لا يدري ما يخرج من رأسه، فهو باطل تغني حكايته عن تكلف إبطاله، فمن لازمه أن الله لا يخاطب بالقرآن إلا قريش وغيرها من قبائل مكة! وإذن يصبح قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)) [البقرة : 168] تكليفا لقريش لا شأن لنا به ولا ندخل فيه! ويصبح غاية قوله: ((إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً)) [النساء : 133] أن يثبت قدرته على أن يهلك قريشا ويأتي بغيرهم إن شاء! ويصبح قوله: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً)) [النساء : 174] مخصصا القرآن بأن يكون برهانا ونورا لقريش دون غيرهم! ويصبح قوله: ((قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً)) الآية [الأعراف : 158] خطابا لجميع قبائل مكة والمدينة، لا لجميع المخاطبين به من الثقلين كما هو اعتقاد المسلمين! ويصبح قوله: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ)) الآية [الحج : 5] مثبتا خلق قريش وغيرها من قبائل الجزيرة من التراب ثم النطفة ثم العقلة، خلافا لغيرهم من بني آدم! إلى آخر ما يقتضيه ذلك الخطل من طوام! فإن قال أحدهم ينافح عن الرجل: إن هذه الآيات التي سقتها لا يراد فيها خصوص قريش وإنما عموم البشر المخاطبين بالقرآن خلافا للآية محل البحث، قلنا فعلى أي أساس فرقت كما فرقت، والجهة متحدة من حيث القرائن التي يفهم منها إرادة الظاهر أو إرادة خلافه؟؟ لن يجد إلا أن يقول: فرقت بناء على "العلم الحديث" أو "ما دلت عليه المشاهدات الحديثة" أو نحو ذلك، وإذن فقد نادى على نفسه بالجهمية والقرمطة وكشف عن حقيقة حاله وحال من أراد الانتصار له، ولا يبقى لمثله ملتمس في أن يقول إن من المفسرين من قال كذا ومن قال كذا، فكل هذا لا عبرة به عنده إن قدر أن خرج عليه الطبيعيون غدا بنظرية جديدة تبدو في عينيه مخالفة لسائر ما جاء به المفسرون في هذه الآية أو تلك!

أما قوله "وإذا قلنا: إن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام، أي لجميع الأمم، فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده، فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبا يحملون النفس على ما يعتقدون" فكلام خبيث بالغ الفساد، يكشف عن ميل صاحبه إلى القول بنسبية الحقيقة، وتجويز أن يعتقد كل إنسان من المخاطبين بالقرآن في معناه وفي مراد الله منه ما يوافق هواه واعتقاده وما يحلو له، وهذه زندقة والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والقصد أن الزعم بأن آدم عليه السلام لم يكن رجلا واحدا أو لم يكن هو أول البشر، له أصوله التي ظهرت في أدبيات الجهمية المعاصرين والعقلانيين بمجرد أن انتقلت حمى نظرية داروين إلى بلاد المسلمين، وإلى الله المشتكى.

قال الدكتور عمرو شريف في كتابه "كيف بدأ الخلق" في باب ترجم له بقوله "المنطقة المحظورة" (ص. 263): "وقد جعلت نظرية دارون في الأصل المشترك من تحدر الإنسان من أسلاف شبيهة بالقردة العليا استنتاجا لا بديل عنه، نظرا لقوة الشواهد المستمدة من الشكل الظاهر ومن الحفريات والتي أكدها أخيرا علم البيولوجيا الجزيئية." اهـ. قلت: استنتاجا لا بديل عنه! لماذا؟ "لقوة الشواهد المستمدة من الشكل الظاهر والحفريات والبيولوجيا الجزيئية"! فتأمل الجرأة على التلاعب بعقائد المسلمين بناء على جزم لا يمكن الوصول إليه حتى على التسليم بصحة المنهج التنظيري المتبع عند الطبيعيين في تلك البابة! سلمنا تنزلا بمعقولية طرح الغيبيات المحضة للنظر الطبيعي، وبأن في تلك الأمور المذكورة شواهد يمكن أن توصل إلى القول المذكور بطريق صحيح منطقيا، سالم من المغالطة والدوران وافتقار المنطق التفسيري إلى نظير من العادة يقاس عليه، وغير ذلك من آفات عقلية ومنهجية كبرى بسطنا الكلام عليها طويلا في هذا الكتاب بحول الله وقوته، وجئنا فيها بما نرجو أن فيه الكفاية لكل عاقل صادق، يقدر الله حق قدره، فكيف لا يكون لذلك "الاستنتاج" بديل عند من يفترض أنه مسلم، يؤمن بالقرآن وبما جاء في القرآن، ويعلم أن الأمة كلها قد أطبقت من زمان التنزيل على اعتقاد أن آدم لم يخلق من سلف لا شبيه بالقردة ولا بغيرهم، وإنما خلق بيدي الله تعالى في الجنة من طين لازب، وخلقت منه زوجه، ثم أهبطا إلى الأرض، وعلى اعتقاد أن القرآن صريح في ذلك المعنى؟؟ قد يكون لا بديل عنه عند الطبيعيين الدهرية، بالنظر إلى كونهم كالريشة في مهب الريح التنظيري الطبيعي السائد في الغيبيات، يتبعونه أينما ذهب بهم ولا يملكون شذوذا عن البارادايم السائد عندهم في

ذلك أيا ما كان! لكن ما موقف المسلم العاقل، على التسليم بما ذكرنا؟؟ كيف يرمي وراء ظهره إجماع القرون من المسلمين على فهم ظاهر كلام رب العالمين في كتابه، لصالح "شواهد" مستمدة من "الشكل الظاهر" و"الحفريات" وغير ذلك مما استدل به القوم على نسبة آدم عليه السلام إلى أب وأم من نوع منحط؟؟

كدت أن أضحك والله وأنا أقرأ سرد الدكتور في ذلك الموضع لأسطورة الدراونة في "تطور" الإنسان من الأسلاف المزعومين، ونظرية الأصل الأفريقي Out of Africa وهذا الهراء، وهو يقول في مستهل كل فقرة: و"تظهر الأدلة القوية كذا وكذا"، و"أثبتت دراسات الدي إن إيه كذا وكذا"، و"حسمت البيولوجيا الجزيئية النزاع بين نظريتي كذا وكذا" .. إلخ، ثم تراه يختم البحث بقوله: "إذن يصبح ما استقر عليه العلم (حتى الآن) أن القردة الجنوبيين نشئوا ووجدوا في أفريقيا فقط، وأنهم أسلاف النوع الأقدم من الجنس الإنساني"! يا دكتور اتق الله في نفسك ودعك من هذه الزندقات والأساطير واشتغل بما ينفعك وينفع المسلمين، إن كنت صادقا في طلب الحق والنفع للناس! يا هؤلاء عليكم بما تخصصتم فيه ولا تنافحوا عن عقائد قوم والله لن يرضوا عنكم حتى تتبعوا ملتهم، ولو رأوكم لسفهوكم أشد التسفيه!!

قال الدكتور نضال قسوم في لقاء تلفزيوني أجراه معه أحدهم: "عندما ننظر إلى الآيات القرآنية، وإذا نظرنا إليها بسطحية وحرفية، نرى وكأن الإنسان هذا خلق بشكل مستقل تماما عن باقي الخليقة، وأنه ربما خلق في الجنة، وهذه أيضا عليها نقاشات طويلة هل الجنة التي خلق فيها هي جنة الخلد التي في السماوات أم هي إحدى الجنات، يعني كلمة جنة معناها حديقة، غابة، كذا، أم هي جنة على الأرض، إيه هل الإنسان هذا تطور، خلق بمعنى خلق تطوري، أم خلق بمعنى خلق مباشر يعني من لا شيء أو من تراب، هكذا مباشرة؟ فهذه طبعا أحدثت صدمة لأنها فرضت على المسلمين إما أن يقولوا نحتاج إعادة تفسير لقرآننا وإعادة تصور لتاريخ الإنسان، أو نحتاج إلى رد ورفض هذه العلوم التي تقول إن الإنسان جزء من الخليقة وهو تطور من أجناس سابقة وأنه هو ابن عم للقردة وابن عم للحيوانات الأخرى وأنه يشترك معهم في كثير من الجينات وفي كثير من الأعضاء، فهذه هي الإشكالية المطروحة الآن." اهـ.

قلت: فهذه، أيها القارئ الكريم، هي جهمية دراونة أهل القبلة هؤلاء، وهذا هو مبلغها عند هذه الطائفة منهم! ليس الأمر عند هذا الرجل قرمطة في التأويل وحسب، بل إنه بلغ التأويل الباطني ومناقضة صريح النصوص بدعوى أن فهمها على هذا الوجه الذي أطبق عليه المسلمون كافة وكان عليه

الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه (كما سيأتي) وأصحابه، ولا يستقيم في عقول أهل اللسان فهم سواه، إنما هو فهم سطحي ساذج، أصبح لزاما على المسلمين إما أن يسقطوه ويخترعوا لهم تأويلات أخرى جديدة توافق نظرية داروين، وإما أن يرفضوا العلم كله ويرفضوا كروية الأرض وينضموا إلى تنظيم داعش أو القاعدة، أو يبحثوا لأنفسهم عن نفق مظلم يهلكوا فيه بعيدا عن أضواء الحضارة والتنوير! يجب أن يكون معلوما أن القول بخلق آدم عليه السلام من طين لا من ذرية خلق آخرين، هو مما يبلغ أن يكون من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة، ولا إسلام لمن ينكر معلوما من الدين بالضرورة كما هو متقرر! [107]

قول الدكتور "وكأن الإنسان هذا خلق بشكل مستقل تماما عن بقية الخليقة" قلت هذا لا يقوله المسلمون! وإنما خلق الله آدم من التراب والصلصال والمحأ المسنون، وهذه المواد من خليقته جل شأنه. ولكن الرجل لا يريد بالخليقة الطين اللازب والصلصال، وإنما يقصد أسطورة الارتقائيين القائلة بنزوله عن سلف من القردة العليا! فآدم عنده وفي عقيدته لم يبدأ الله خلقه من طين كما في قوله تعالى: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7]، وإنما بدأ خلقه بالطفرة من ذرية القردة العليا، التي خلقت – بدورها – بالطفرة من ذرية نوع أحط، وصولا إلى الخلية الأولى التي قد يقبل الدكتور وقد لا يقبل القول بأنها خلقت من طين، على حسب آخر أسطورة استقر عليها الطبيعيون فيما إذا كانت الخلية الأولى المزعومة قد نشأت في بركة أو سبخة راكدة، أو في غير ذلك! [108]

فإذا قابلناه بهذا، فلعله يقول: لا أقصد أنه لم يبدأ خلق الإنسان من طين، ولكن أنتم تفهمون من قوله "بدأ خلق الإنسان" خلقه بتحويله من الطين مباشرة إلى هيئته وصورته التي عليها البشر! و"العلم" يقول إنه خلق من نسل أنواع أخرى، فالصواب أن يقال إن البداءة هنا هي ابتداء خلق جميع الأنواع الحية التي لم يزل ينزل بعضها من ذرية بعض حتى وصل الخلق إلى آدم! فيقال له: لو كان الأمر كما زعمت، لما نسب بدأ الخلق من طين إلى آدم بعينه، وإنما لقال "بدأ خلق السلف الأول لآدم وغيره من طين"، أو نحوا من ذلك، ويكون آدم إذن مخلوقا من نطفة في سلفه المزعوم، لا من الصلصال والحمأ المسنون! وهذه مسألة لغوية واضحة لا يماري فيها إلا مكابر! سم خلق آدم إن شئت "خلقا مباشرا" أو خلقا "مستقلا"، فهو خلق مبتدأ فيه من الطين لا من سلالة نوع آخر أدنى منه في الخلقة! ولو كان الأمر كذلك ما قال في نفسه الآية "أحسن كل شيء خلقه"، لأن الآية إذن تكون إثباتا لسلف منحط، كان آدم تحسينا له وترقية لصفاته وهيئته، فكيف يصح أن يقال – والحالة هذه – أنه أحسن "كل شيء" خلقه؟؟

ونظير ذلك يقال في قوله جل شأنه: ((خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)) [الرحمن : 14] وقوله سبحانه: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)) [الحجر : 26] وقوله: ((إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)) الآية [الصافات : 11] وقوله: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)) [الأنعام : 2] وقوله: ((قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)) [الأعراف : 12] وقوله: ((قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)) [الحجر : 33] وقوله: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ)) [المؤمنون : 12] وقوله: ((إلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً)) الآية [الإسراء : 61] فالذي أمر إبليس بالسجود له هو بعينه المخلوق من الطين، وليس سلفه المزعوم، ولو كان آدم مخلوقا من نطفة مخلوق آخر، ما صح أن يقال فيه إنه بعينه مخلوق من طين، وهذا واضح كالشمس! وقوله: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ)) [المؤمنون : 12] وقوله: ((إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ)) [صـ : 71]، لم يقل "إني خالق بشرا من سلف قد خلقته من طين"! وقوله: ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)) [الحجر :28 - 29] [109]فالذي نفخ الله فيه من روحه بعدما سواه من الصلصال والحمأ المسنون، إنما هو آدم عليه السلام، وليس الخلية الأولى التي يزعم الدكتور كما هو اعتقاد الدراونة أنها ظلت تترقى عبر بلايين السنين حتى ظهر الإنسان من نسلها في المئة ألف سنة الأخيرة من عمر الأرض! فلو كان هذا هو ما حصل على التحقيق في خلق الإنسان ما صح أن يقال للملائكة اسجدوا لهذا المخلوق الذي خلقته بعينه من الطين، بعدما أسويه وأنفخ فيه من روحي! وإنما لكان الأمر إذن بالسجود لأنثى القرد المزعوم الذي تكون الروح إذن قد نفخت في آدم وهو في بطنها! وهذا باطل واضح البطلان كما لا يماري فيه إلا مكابر! وليت شعري كيف تصور هذا الرجل، أو ساغ في عينيه تصور أن يأمر رب العالمين ملائكته المكرمين كلهم أجمعين، بالسجود لأنثى قرد منحط تتقافز على الأشجار في "غابة" من الغابات، تكريما لنطفة في رحمها؟؟ هل خلق الله آدم مكرما مشرفا ثم أمر الملائكة بالسجود له بعد تمام تسويته ونفخ فيه من روحه، فأخرجه على أحسن ما يكون البشر خلقة ((لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)) [التين : 4]، أم خلقه ممتهنا منحطا في بطن أنثى قرد، فخرج على أقرب الصور والهيئات إليها؟؟ وكيف تجتمع العقيدتان جميعا في قلب رجل مسلم؟؟ نسأل الله العافية!

أنت تؤمن يا دكتور – كما هو اعتقاد التطوريين - بأن ترقي الإنسان كان تدريجيا، ولم يظهر على صورته الحالية بالخلق المباشر كما تسميه، وهو ما

يعني بالضرورة أن أول البشر لابد أنه كان هو أقبحهم صورة وأقربهم في الهيئة والعقل والسلوك إلى القردة العليا المزعومة، التي هي قردة منتصبة على قائمين، لأنه لن يولد مولود إلا وهو يشبه أباه وأمه في كثير من الوجوه، وفيه من عِرق أسلافه وطباعهم ما فيه! فأين على عقيدتك يأتي ظهور إنسان سوي قد خلقه الله في أحسن تقويم، وجعله راقيا مؤهلا في النفس والذهن والهيئة وجملة الطباع لأن يكون نبيا لرب العالمين، نبيا مكلما مكرما، قال الله فيه ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) [البقرة : 31]؟ لابد أن يأتي بعدما يبلغ النوع البشري (سليل القردة العليا المزعومة) من التطور والنضج والافتراق عن خصال القردة والنسانيس ما يليق بمنزلة النبوة والاصطفاء للنبوة، بحيث يظهر فيها من هو حقيق بأن يقال فيه: ((ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى)) [طه : 122]، وأن يقال: ((إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)) [آل عمران : 33]، وهو ما يقتضي ألا يُجعل أول البشر هو أول الأنبياء، الذي اصطفاه الله للنبوة كما اصطفى نوحا وآل إبراهيم وآل عمران، وإلا كان ذلك حطا على مقام النبوة نفسه وتحقيرا له! فهو عليه السلام لم يهبط إلى الأرض ليجري فيها جري القردة يتسلق الأشجار ويأوي إلى الكهوف كما هي صورة هؤلاء السفهاء لإنسان ما يسمى "بالعصر الحجري" أو "الإنسان الأول" Primitive Man / Cave Man، وإنما أهبطه الله وقد علمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة وكرمه تكريما، وجعله أول الأنبياء عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام! والحط على النبوة أو على نبي من أنبياء الله تعالى والانتقاص منه كفر مستقل!

ومما يجهله دراونة أهل القبلة كافة، على اختلاف طوائفهم، أن مجرد اعتقاد أن الرب خلق الأنواع كلها بحسب الأسطورة الداروينية المتهافتة تلك، هذا يقتضي أنه سبحانه لم يخلق أي نوع من الأنواع على ما هو عليه الآن ابتداء، أو لم يخلقه إذ خلقه على غير مثال سابق، أو على صورته التي هو عليها الآن! فلا الأنعام (التي امتن الله علينا بخلق أزواجها على ما نعرفه منها وما فيه انتفاعنا بها) خلقت أنعاما في أول أمرها، ولا الإبل (التي ضرب الله المثل بخلقه إياها وبحملها أثقالنا) خلقت إبلا في أول أمرها، ولا الحصان (الذي ضرب الله به المثل كذلك) خلق حصانا في أول أمره، وإنما هي أنواع متداخلة لا يزال التحول والانتقال التدريجي فيها من صفات السلف الأحط إلى صفات الخلف الأكمل يجري طفرة بعد طفرة عبر مئات الآلاف بل ملايين السنين، بلا فاصل صريح أو نقطة صريحة يقال عندها إن الحصان كما نعرفه قد خلق الآن، أو الإبل كما نعرفها قد ظهرت الآن، أو نحو ذلك! فلا الخلق – على هذا المذهب – يكون على أزواج من أول يوم، ولا يكون النوع (من الأنعام ونحوها) مخلوقا على ما هو عليه من تركيب وتصوير رباني

مخصوص نعتقد نحن المسلمون أنما صوره الله من أول يوم على أتم وأكمل ما يحصل به المقصود من الامتنان به على بني آدم! فإنه ليس عند هؤلاء يوم يقال له "أول يوم" أصلا! أي أن التطويريين يلزمهم أن يعتقدوا أن آدم عليه السلام لم يخلق على صورته، ولا خلق شيء من الأنعام في أول خلقه على تلك الصورة التي امتن الرب في القرآن على الناس بكونها على أنفع ما يكون لهم! وإنما خلق كل نوع كمسخ مشوه، لم تزل أفراده تتهالك وتتكعكع في "الصراع من أجل البقاء" حتى تأتي الطفرة بين الفينة والأخرى لتحسن هيئتها ونظامها وبنيتها العضوية تدريجيا وتزيدها "تعقدا" و"تطورا"! ففي أي مرحلة من مراحل ذلك السلم الارتقائي العبثي الكفري يصح عندكم أن يقال إن الله قد خلق الآن نوع كذا أو نوع كذا؟؟ فإن قالوا: إن المقصود بالامتنان علينا بأحسن تقويم وبكمال خلقة الأنعام وتسخيرها من أجلنا، هو ما عليه خلقة تلك المخلوقات الآن، أو في زمان التنزيل، لا قبل ذلك! قلنا: لا يزال اللازم يلزمكم، لأنه يتعين على اعتقادكم أن يكون "أحسن تقويم" للإنسان لم يبلغه بعد، إذ على عقيدتكم أنه ما زال ماضيا في "التحسن" و"التطور"، بل يتعين ألا يكون ثمة "أحسن تقويم" أصلا، إذ لا تزال الطفرات النافعة مفتوحا لها الباب أن تطرأ في أي وقت فتحسن من هيئة الإنسان وخلقته! [110]

وكذلك يتعين على اعتقادكم ألا تكون الأنعام قد خلقت على أكمل ما يكون من هيئة ينتفع بها الناس، وإنما اتفق لها في هذه المرحلة من مراحل ترقيها النوعي أن وجد الناس المعاصرون لها طريقا للانتفاع بها! ولا نأمن على عقيدتكم أن تظهر طفرة غدا ثم تسود في بعض الأنعام فلا يبقى لبنها صالحا للشرب مثلا، أو ظهورها للركوب أو لحومها للأكل، ولا يبقى فيها شيء ينفع الناس! فإن قالوا "هذا على عقيدة الدراونة الملحدين، أما نحن فنرى أن التطور قد توقف في كثير من الأنواع لأنها قد بلغت أحسن ما يكون لها فيما أراده الله من خلقها"، قلنا: فأين في أدلة الطبيعيين التي بمثلها تعلقتم في إثبات أصل دعوى التطور نفسها، تجدون ما تستندون إليه في دعواكم أن التطور قد يتوقف في يوم من الأيام؟ فإن قالوا إن الأدلة في هذا الحد (حد الترقية أو التطوير) شرعية وليست طبيعية، قلنا فأين أنتم إذن من أصول المنهج الشرعي وأدلته فيما يتعلق بأصل النظرية نفسه؟؟ إما أن تقبلوا النظرية كلها بأصولها بمقتضياتها بدهريتها المحضة، وإما أن تردوها كلها بمقتضى العقل والنقل معا كما ندعوكم إليه، أما التوسط بين القولين فلا وسط بين الحق والباطل إلا الباطل!

ثم إن الله تعالى يقول: ((إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)) [آل عمران : 59]، فوجه المشابهة بين عيسى وآدم

في الخلقة، الذي يقرره رب العالمين في مقام الرد على من عبدوا عيسى من دونه لكونه قد ولد بلا أب، إنما هو كونهما جميعا قد خلقا من غير أب، وهذا ظاهر جدا وهو ما عليه المسلمون كافة من يوم أن نزلت الآية وإلى يوم الناس هذا! فمن زعم أن آدم عليه السلام خلق في رحم أنثى من إناث القردة العليا المزعومة، فأي وجه يكون في التمثيل بينهما إذن وأين المحاججة فيه؟ الذي يؤمن بهذا الهذيان الشنيع، يلزمه إما أن يفرق بين عيسى وآدم في كون الأخير مولودا لأب وأم بخلاف عيسى، وإذن يكذب بصريح القرآن، وإما أن يسوي بينهما في المولد من أب وأم، وإذن يكذب بصريح القرآن كذلك! والعجيب أن بعضهم كعمرو شريف كما مر معك، و"كالمدعو بسام جرار" تفلسف وقال إن فهم الآية الصحيح على عكس ما جرى عليه المسلمون على امتداد قرونهم، إذ ليس المقصود المحاججة بأن عيسى مثل آدم في كونهما قد خلقا من غير أب، ولكن المقصود أنهما متماثلان في كونهما قد خلقا في رحم أم! فتأمل مبلغ العدوان على كتاب الله عند هؤلاء قاتلهم الله! فيا عبقري زمانك، لو كان هذا هو المقصود (وهذا الاعتقاد كفر ولا شك، لأنه تكذيب لصريح القرآن ونقض لمعلوم من الدين بالضرورة في كون آدم خلق من غير أب ولا أم) فأين وجه المحاججة أصلا؟ الآية على ما فهمها عليه المسلمون تحاجج من عبدوا المسيح عليه السلام من دون الله بأنهم إن كانوا قد وقعوا في ذلك من أجل أن رأوه يخلق من غير أب، فآدم مخلوق من غير أب وأم، فلماذا لم يعبدوه من باب أولى؟ وكذلك تحاجج من عظم عليهم أن يقبلوا أن يكون المسيح مخلوقا من أم بلا أب، كاليهود ومن شابههم، فيقال لهم إن هذا أهون على الله من خلق آدم الذي خلقه الله من تراب من غير أب ولا أم! هذا هو المستفاد من الآية على فهم المسلمين! أما هذا التأويل الذي اخترعه هذا الجهول، فيجعل آدم بشرا عاديا مخلوقا من أب وأم كعامة أفراد نوعه، وإذن فليس في ذكره ومقارنة المسيح به أي مزية أو أولوية أو شيء يخصه عن غيره من البشر على الإطلاق! فإذا كان ذلك كذلك فأين الحجة إذن (سواء في محاججة من يعبدونه من دون الله أو في محاججة من ينكرون مولده من غير أب ويتهمون أمه بالزنا)، ولماذا المقارنة بآدم بالذات؟؟ لا يبقى - على هذا الخرف - للآية قيمة ولا فائدة على الإطلاق، والله المستعان!

ووالله ما كنا نظن أن يأتي يوم نضطر فيه لأن نجمع النصوص في أصل خلقة آدم عليه السلام حتى نبين لمنتسبين إلى الإسلام أنه خلق خلقا خاصا ولم يولد من أب وأم من أنواع القردة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولكن من باب ((وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)) [الذاريات : 55] ولأن أهل الأهواء لم يتركوا نصاً في كتاب الله ولا في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم إلا

طالوه بالتحريف والتبديل أو جوزوا تحريفه عن مواضعه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى حدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن" اهـ.

قلت: فما حيلتكم في هذا الخبر الصريح؟؟ هذا حديث في أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، يقرر أن آدم خلق وطوله يقرب من الثلاثين مترا! فخبرونا بالله عليكم عن محل ذلك الطول البالغ في شجرتكم المتهافتة وعن منزله من سلالة القردة العليا التي جعلتموها سلفا لنبي الله وكليمه المكرم آدم عليه السلام، إن كنتم صادقين! لن يجدوا إلا أن يكذبوا البخاري رحمه الله ويوهموه، ويطعنوا على رواة هم من أصدق من يحمل عنهم الأثر وأضبط الناس نقلا وأحسنهم حفظا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، بدعوى أن "العلم" قد جاء بخلافه، فأي علم وأي عقل يا أعداء أنفسكم؟! نسأل الله السلامة!!

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح في مستهل شرحه لباب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته: "الحديث الأول حديث أبي هريرة خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا كذا وقع من هذا الوجه، وعبد الله الراوي عن معمر هو ابن المبارك، وقد رواه عبد الرزاق عن معمر فقال خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعا وهذه الرواية تأتي في أول الاستئذان، وقد تقدم الكلام على معنى هذه اللفظة في أثناء كتاب العتق، وهذه الرواية تؤيد قول من قال إن الضمير لآدم، والمعنى أن الله تعالى أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم ينتقل في النشأة أحوالا ولا تردد في الأرحام أطوارا كذريته بل خلقه الله رجلا كاملا سويا من أول ما نفخ فيه الروح، ثم عقب ذلك بقوله وطوله ستون ذراعا فعاد الضمير أيضا على آدم، وقيل معنى قوله "على صورته" أي لم يشاركه في خلقه أحد، إبطالا لقول أهل الطبائع. وخص بالذكر تنبيها بالأعلى على الأدنى، والله أعلم" اهـ. قلت: فهذا على القول بأن الضمير في صورته يعود على آدم نفسه عليه السلام، أنه خلق على صورته من أول يوم، من غير أن يكون له فيها شريك أو نظير، وهذا ظاهر في إبطال مقالة أصحاب التطوير! وأما على القول بأن الضمير يعود على رب العالمين جل شأنه، فهو أقوى في المنع من دعوى أهل الطبائع الذين يقولون اليوم إن آدم عليه السلام إنما خلق من ذرية نوع مشابه! فإن

المولود إذا ولد لأب وأم فإنه يخلق على هيئة وصورة قريبة من صورتهما، ولا شك أن صورة الإنسان أكمل وأحسن من صورة القرد، والله تعالى ذكر في القرآن صراحة أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفي هذا الحديث وعلى هذا التأويل يكون من تشريفه الإنسان أن خلقه على صورته جل شأنه، وهو صاحب الأسماء الحسنى والصفات المثلى سبحانه الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير! والقصد أنه أيا ما كان المراد بالضمير في قوله "على صورته" فهو ناقض لقول التطويريين.

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لمَّا صوَّر اللهُ آدمَ في الجنَّةِ تركه ما شاء اللهُ أن يترُكَه . فجعل إبليسُ يَطيفُ به، ينظُرُ ما هو، فلمَّا رآه أجوفَ عرف أنَّه خلَق خلقًا لا يتمالكُ." اهـ.

قلت وهذا ظاهر جلي في أن آدم صوره الله على صورته التي تركه عليها في الجنة، لا من سلالة أسلاف هوموسابينز Homo Sapiens (الإنسان العاقل) التي ظهرت أول ما ظهرت في إفريقيا على زعم الدراونة (فيما هو التصور السائد بينهم حاليا)! وهي جنة الخلد التي في السماء، وهو ظاهر من معنى الإهباط منها، وليست "حديقة من حدائق الأرض أو غابة من الغابات" كما زعمه "نضال قسوم" بلا مرجح عنده إلا العقيدة الداروينية التي وجب في دينه أن تكون هي الحق القطعي الذي يُحمل عليه كل شيء! قال تعالى: ((فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)) [طه : 117-119] فأي جنة من جنان الأرض هذه التي توصف بأنها ليس فيها جوع ولا عري ولا ظمأ ولا ضحو؟؟ وفي أي غابة من غابات إفريقيا تجد تلك الجنة يا دكتور نضال؟ دلنا عليها إن كنت من الصادقين! ليست هذه الأحوال مما يكون لأحد في الأرض أصلا كما هو واضح، وإنما هو من خصال أهل الفردوس، جعلنا الله منهم! [111] وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وعَنْ حُذَيْفَةَ، رضي الله عنهما قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ" اهـ. فهذا نص صحيح صريح لا يحتمل التأويل في أن الجنة التي خلق فيها آدم وأهبط منها هي جنة الخلد التي في السماء، وليست على الأرض! فهل مر التطويريون بكتاب من كتب السنة يوما من الدهر؟! والله تعالى يقول: ((فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)) [البقرة : 36]

فلو كانت جنة آدم في الأرض، لما قال لهم إن الأرض التي هي مهبطهم من حيث كانوا، سيكون لهم فيها مستقر ومتاع إلى حين، لأنهم لو كانوا من الأصل في الأرض قبل الإهباط كما بعده، لكان هذا الكلام تحصيلا لحاصل، ولا فائدة منه! فظاهر الكلام الذي لا يماري فيه إلا مماحك، هو أن الجنة التي أهبط منها آدم وزوجه في السماء لا في الأرض!

ثم إن آدم عليه السلام لما صُور من الطين، تركه الله مدة من الزمان قبل أن ينفخ فيه الروح، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه، وذلك بعدما أكمل تصويره على صورته (لا كجنين في رحم أنثى)، وأخذ إبليس يطيف به وهو على تلك الصورة يتأمله كما في الحديث، وكل هذا يمتنع تأويله على أي وجه يتوافق مع الأسطورة الداروينية التي يعتنقها أكثر التطويريين، يريدون أن يجعلوها هي أصل آدم عليه السلام! إذ لا يجتمع في العقل أن يكون آدم قد خلق من طين على صورته وترك قبل أن تنفخ فيه الروح على صورته الكاملة (كرجل بالغ)، ويكون مع ذلك قد ولد من بطن أنثى كما يحرص غلاة التطويريين على أن يثبتوه!

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن اللهَ خلَقَ آدمَ مِن قبضةٍ قَبَضَها مِن جميعِ الأرضِ، فجاءَ بنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ: جاء منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبينَ ذلك، والسَّهْلُ، والحَزْنُ، والخبيثُ، والطيِّبُ" اهـ. أخرجه أبو داود والترمذي وابن خزيمة في التوحيد وابن حبان في صحيحه وصححه الألباني في صحيح أبي داود وفي صحيح الترمذي. قلت والحديث حجة ظاهرة في انحدار جميع البشر من آدم وزوجه وحدهما، وفي كون جميع صفاتهم نازلة من المادة التي خلق منها آدم بعينه، ولو كان آدم تطويرا على ذرية نوع من البشر متقدم عليه، سليلا لذلك النوع المتقدم المزعوم، لكان ذلك النوع هو منبع طباع البشر وهيئاتهم، وليس آدم نفسه، لا سيما والحال إذن أن ذرية آدم ما كانت لتجد ما يحجزها عن التناسل مع أفراد النوع الأصلي الذي انحدر أبوهم من سلالته بزعمهم، كما هو مقتضى ظهور كل نوع جديد في ذرية نوع قديم على طريقة الدراونة! إن صح أن كان آدم مولودا من بطن أنثى من نوع بشري قديم، فأي شيء يمنع آدم وذريته من أن يتناسلوا مع إناث ذلك النوع نفسه، وهم إنما ولدوا منه بزعم التطويريين؟؟ هو على نظريتهم ليس إلا فردا فذا من أفراد نوع كان قائما بالفعل من قبل أن يولد! فإن قالوا: نحن نؤمن بأن الروح التي نفخت فيه جعلته إنسانا ذا صفات نفسية تجعله يأنف من التناسل مع أفراد النوع الذي ولد منه، قلنا: فمن أين جئتم بهذا الزعم؟ من أين يأتيكم ذلك التفريق بين الروح المنفوخة في سلفه والروح المنفوخة فيه هو نفسه؟ أهو وحي نزله الله عليكم واختصكم به؟ بحسب منهجكم في

مصادر التلقي المعرفي في تلك القضية، فليس لديكم قياس طبيعي تتعلقون به في إثبات تلك الدعوى، ولا نص تتأولونه على هذا المعنى ولا حتى بالتأويل الباطني، فمن أين إذن؟؟ هذا، أيها القارئ الكريم، هو الجواب الذي أتوقعه منهم، وهذه هي الطريقة التي يعمل بها القوم في تلفيق واختراع الدعاوى الغيبية اختراعا بالمزاج والهوى!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لمَّا خلقَ اللَّهُ آدمَ ونفخَ فيهِ الرُّوحَ عَطسَ فقالَ: الحمدُ للَّهِ، فحمِدَ اللَّهَ بإذنِهِ، فقالَ لَهُ ربُّهُ يرحَمُكَ اللَّهُ يا آدمُ، اذهب إلى أولئِكَ الملائِكَةِ، إلى ملأ منهُم جلوسٍ فقل: السَّلامُ عليكُم قالوا: وعليكَ السَّلامُ ورحمةُ اللَّهِ، ثمَّ رجعَ إلى ربِّهِ، قالَ: إنَّ هذِهِ تحيَّتُكَ وتحيَّةُ بَنيكَ، بينَهُم فقالَ اللَّهُ لَهُ ويداهُ مَقبوضتانِ: اختَرِ أيَّهما شئتَ، قالَ: اختَرتُ يمينَ ربِّي وَكِلتا يدي ربِّي يمينٌ مبارَكَةٌ ثمَّ بسطَها فإذا فيها آدمُ وذرِّيَّتُهُ، فقالَ: أي ربِّ، ما هؤلاءِ؟ فقالَ: هؤلاءِ ذرِّيَّتُكَ، فإذا كلُّ إنسانٍ مَكتوبٌ عُمرُهُ بينَ عينيهِ، فإذا فيهم رجلٌ أضوَؤُهُم أو من أضوئِهِم قالَ: يا ربِّ مَن هذا؟ قالَ: هذا ابنُكَ داودُ قد كتبتُ لَهُ عُمُرَ أربعينَ سنةً. قالَ: يا ربِّ زِدهُ في عمرِهِ. قالَ: ذاكَ الَّذي كتبَ لَهُ. قالَ: أي ربِّ، فإنِّي قَد جعَلتُ لَهُ من عُمُري ستِّينَ سنةً. قالَ: أنتَ وذاكَ. قالَ: ثمَّ أُسْكِنَ الجنَّةَ ما شاءَ اللَّهُ، ثمَّ أُهْبِطَ منها، فَكانَ آدمُ يعدُّ لنَفسِهِ، قالَ: فأتاهُ ملَكُ الموتِ، فقالَ لَهُ آدمُ: قد عجَّلتَ، قَد كتبَ لي ألفُ سنةٍ. قالَ :بلَى ولَكِنَّكَ جعَلتَ لابنِكِ داودَ ستِّينَ سَنةً، فجَحدَ فجَحدَتْ ذرِّيَّتُهُ، ونسيَ فنَسيَتْ ذرِّيَّتُهُ. قالَ: فمِن يومئذٍ أُمِرَ بالكتابِ والشُّهودِ" اهـ. أخرجه الترمذي في سننه وحسنه، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه وابن خزيمة في التوحيد، والبزار في مسنده، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (3368). والحديث ظاهر على أن آدم خلق على صورته لا كنطفة في بطن أنثى، إذ لما نفخ الله فيه الروح عطس، وألهمه الله أن يقول "الحمد لله"، ثم جرى بينه وبين ربه ما جاء به الحديث! ولو كان جنينا في بطن أنثى، لما تكلم وقام وتحرك بمجرد أن نفخت فيه الروح، إذ معلوم أن الأجنة تولد من بطون أمهاتها وفيها أرواحها وفيها حياتها قد نفخت فيها حال خلقها في الأرحام!

فصل في قول نضال قسوم بما حاصله أن آدم هو أول قرد ذي وعي!

وهذا فرع أو تفصيل للبدعة الشاهينية في التفريق بين نوع البشر ونوع الإنسان.

قال الدكتور في حلقة برنامجه "تأمل معي" التي جعلها عن العلاقة بين نظرية داروين والعقيدة:

تبقى مسألة آدم. كثير من الناس يقول كل هذا الكلام أنا ما عندي مشكلة معه، اشرح لي آدم! إيش آدم عندك في هذه النظرية، وين آدم؟ هل هناك شخص اسمه آدم؟ احنا الله تعالى يقول: خلق آدم، وآدم هذا نبي، هذا أوحى إليه وأخطأ، أذنب آدم، وتاب، ثم عفا عنه الله، ثم أخرجه من الجنة، فقصة آدم هذه وين عندك أنت؟ أنت تقول أجناس، هادول يعني قردة كبار، وتطوروا، بعض منهم صاروا ملائمين للطبيعة، صاروا أذكى، تطوروا إلى بشر، بعضهم لم يتطوروا أو لم تحدث فيهم هذه التغيرات، فبقوا على حالتهم، على شكل قردة أو غير ذلك، طب وين آدم؟

قلت: لا شك أننا الآن نتوقع الجواب إجمالا! فأصحاب النحلة التمهيدية الابتدائية هذه إذا كانوا يتفقون مع التطويريين في القول بميثولوجيا داروين بحذافيرها، مع القول بآليات تلك الميثولوجيا في إطار منظومة سببية طبيعية مغلقة، فهم بالضرورة يتفقون كذلك في نفي خلق الله تعالى أدم بيده في جنة الخلد من غير أب أو أم، على طريقة "عبد الصبور شاهين" (وإن شئت سمها بالمدرسة الشاهينية في التفريق بين "البشر" و"الإنسان"، كما سميناها آنفا)، وقد مر معك بيان اعتناق "عمرو شريف" للبدعة الشاهينية في مسألة آدم عليه السلام، كما يعتنقها "عدنان إبراهيم" و"بسام جرار" وغيرهم. قال الدكتور مواصلا:

آدم إذا فهمناه على أنه هو المخلوق الأول الذي حصل عنده تطور في الوعي، واحد، في الوعي، قفزة في الوعي، اثنين، تطور عنده الحس الروحي Spiritual الحس الروحي، صار يعي، يحس أن هناك خالقا، أن لي ربا، وأن لي قدرة على التواصل معه، أني أدعوه فيستجيب، أنني أحس به، أنه يلهمني، بل في حالة آدم والرسل، سوف يوحي لي ويقول لي افعل كذا ولا تفعل كذا، أول شخص، أول مخلوق في الطبيعة، طور هذه القدرة، قدرة الوعي، أنا واع بنفسي، أنا نضال، هذا خالد، احنا مش نفس الشخص، احنا مش نفس الشيء، احنا مش يعني إي بي سي دي، أو إحنا يعني أشكال مختلفة من نفس الجنس، لأ، أنا شخص مختلف تماما عندي أفكاري وعندي حياتي، وهذا الوعي، واعي بنفسي، أنا عارف قاعد أتكلم! ثم عندي أنا إحساس روحي، هناك إله هناك خالق، هناك تعبد، هناك إحساس روحي، هناك دعاء، هناك صلاة، هناك تواصل مع الله، ما معنى الدعاء والصلاة؟ معنى تواصل معناه أدعوه يسمعني، يجيبني فأحس بما يلهمني به، فيوجهني فأتخذ أنا فأطيعه أو أعصيه، هذا معنى! أول من طور هذا هو آدم.

ليس معناه أن آدم هو أول من خلق، هو كان من ضمن الخليقة، وصارت كل هذه التطورات، كل هذه التطورات، عندما وصل إلى هذا المستوى، إلى هذا المستوى، صار إنسانا! صار إنسانا بالمعنى الديني الإسلامي معناها صار روحيا، صار يؤمن صار يعبد، صار يدعو، صار يستجاب له، إلى آخره إلى آخره. بل كثير من الناس، كثير من العلماء استشهدوا بالآية التي الله تعالى ذكر فيها للملائكة أنه قرر أن يجعل في الأرض خليفة، ((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)) طيب ماذا قالت الملائكة؟ قالوا: ((أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)) طيب هؤلاء كيف يعني، الملائكة إيش عرفهم أن هؤلاء مفسدين وسيكون الدماء؟ قال بعض المفسرين، وعندما يعود الإنسان بالمناسبة إلى عدد من المفسرين، بعضهم حتى القدامى، وخاصة المفسرين الحاليين، يعني الذين يكتبون عن العلم، لا يعيدون وفقط التفسيرات القديمة، لأ هناك اجتهادات في التفسير اليوم يجب أن يراجعها الإنسان، سيجد أنهم قالوا: من الواضح من هذه الآية أو يبدو على الأقل من هذه الآية، أن الملائكة كانوا قد لاحظوا هذا الجنس وكيف أنه مفسد، وكيف أنهم في رأي الملائكة هذا غير صالح، هذا مفسد هذا يقتل، وهذا فعلا لأنهم لاحظوا المرحلة ما قبل الإنسانية. ما قبل الوحي، ما قبل الوعي، ما قبل العقل، ما قبل التطور الإنساني الفعلي، فقالوا آه، ولذلك الله تعالى قال لهم ((إني أعلم ما لا تعلمون)) أنا عارف إيش راح يعملوا هادول، أنا شايف المستقبل، أنتم مش شايفين المستقبل، أنا أعرف، ها دول اللي شايفينهم أنتم، هادول في مرحلة سابقة كانوا مفسدين، لأنه كانوا شبه حيوانات! كانوا ما قبل البشرية، ما قبل الإنسان! لكن سيتطورون وسترون ماذا سيفعلون! هؤلاء فعلا وصلوا إلى مرحلة يستحقون بها أن يكونوا خليفة الله على الأرض! خلفاء للأرض! وبالتالي عند هذه النقطة، صاروا إنسان، إنسان بأتم معنى الكلمة! بكل مقوماته بما فيها الروحية، وصار الآن تواصل مع الله تعالى، وصار الوحي، وصارت الآن الأقوام البشرية، إلى آخره إلى أخره.

قلت: هذه الفكرة، فكرة أن خلق آدم إنما هو في الحقيقة تطور الوعي الروحي في جنس البشر لينقلب من حال القردة العليا المزعومة إلى حال البشر كما نعرفهم، هذه الفكرة ليس الدكتور نضال هو أول قائل بها، ولا عبد الصبور شاهين ولا غيرهما من دراونة أهل القبلة! بل ظهرت أول ظهور لها عند أهل الكتاب من النصارى. ففي منتصف القرن الميلادي الماضي، كتب بابا الفاتيكان "بايوس الثاني عشر" Pius XII في رسالة من الرسائل

البابوية الدورية Encyclical التي ينشرها الفاتيكان على كافة الكنائس الكاثوليكية، بعنوان Humani Generis، يقول: "إن تعليم السلطة الكنيسة لا يمنع، بالتماشي مع الحالة الراهنة للعلوم البشرية وللثيولوجيا المقدسة، الأبحاث والمناقشات فيما يتعلق بخبرات الرجال من كلا المجالين، من أن تجري في إطار المنظومة الاعتقادية الداروينية Darwinian Doctrine طالما كان محل البحث هو أصل الجسم البشري ونشأته، على أساس أنه مستمد من مادة حية سبقته إلى الوجود. فإن الإيمان الكاثوليكي يفرض علينا أن نؤمن بأن الأرواح (البشرية) قد خلقها الإله خلقا مباشرا." اهـ. قلت: فمع أنه أبدى في الوثيقة نفسها تمنيه ألا تثبت صحة نظرية داروين مستقبلا، وعدم ارتياحه لها إجمالا، إلا أنه شعر بضغط المجتمع الأكاديمي والمجتمع الأوروبي بكليته عليه من أجل أن يقر بتلك النظرية ولا يعارضها، فقال ما حاصله: لا بأس بأن نثبت الترقي الدارويني في الجسد البشري وهيئته، ولكن مع الحرص على جعل الرب وحده هو خالق الروح البشرية! وإذن فلا بأس باعتقاد صحة أسطورة داروين في نشأة الأنواع كلها بما فيها الإنسان، مع الحرص على اعتقاد أن أول إنسان إنما صارت فيه روح إنسانية بفعل الإله وتركيبه إياها Ensoulement (بما يناظر النفخة عندنا) في فرد ما من أفراد القردة العليا التي يزعم داروين أننا من سلالتها! وإذن يصبح ذلك الفرد هو آدم المذكورة قصته في سفر التكوين، وتنتهي القضية، ويصبح دين الكنيسة دينا حداثيا منفتحا على "العلم الحديث"، ويزول الإشكال! وهذا محض تحريف للكلم عن مواضعه، وتلبيس للملل بعضها في بعض ولا شك!

ولهذا لم يكن من عجب أن كتب ريتشارد دوكينز مقالا لاذعا في الرد على البابا تحت عنوان "لا يمكنك أن تجمع الأمرين معا!" You can’t have it both ways، يسخر فيه من دعوى أن نوع Homo Sapiens إنما ترقى من نوع Homo Erectus المزعوم بفضل "تدخل الإله" بنفخ الروح في فرد من أفراد ذلك النوع المنحط إلى جانب الطفرة التي طورته فسيولوجيا، فأصبح بمجموع ذلك إنسانا فيه وعي وعقل وروح، خلافا لما عليه القوم من أن الانتقال التام من الإريكتوس إلى السابيينز، عقلا وجسدا، إنما حصل بالطفرات العشوائية وحدها! فكتب يتساءل ساخرا بما معناه: في أي عصر على وجه التحديد حصل ذلك التدخل بغرس الروح الإنسانية؟ فكأنما يقول للرجل: نحن وضعنا النظرية بناء على منهج وطريقة في الاستدلال لا متسع فيها البتة لدعوى الغيب والسببية الغيبية التي تؤمن أنت بها! وأنت يفترض في كتابك المقدس (الذي لا أوافقك في أسباب تقديسك إياه) أنه يقرر أفعالا إلهية معينة في أيام الخلق، لا محل فيها البتة ولا ذكر ولا إشارة ولو من بعيد لآليات طبيعية أو لتطور عشوائي أو لانتفاخ كوني أو لشيء من

ذلك! فلا نظامنا المعرفي الغيبي يقبل أن تقحم أنت فيه شيئا مما أخذته من نظامك، ولا العكس! ولو صدقت في تمسكك بدينك وكتابك واعتقادك أنه كلام الرب حقا، لتركت نظرية التطور بالكلية، ولو صدقت في اعتبار طريقتنا هي العلم الحق في نفس الأمر، لتركت كتابك وخرجت من دينك بالكلية، لا أن تخلطهما جميعا ذلك الخلط السخيف!

ولا شك أن دوكينز محق في اعتراضه على موقف الفاتيكان!

تصور لو أن رجلا وثنيا هندوسيا جاءك يزعم أن الأرواح التي يبعث الله ملكا ينفخها في أرحام النساء في الأجنة كما نؤمن نحن به في عقيدتنا، إنما هي أرواح الموتى على حسب عقيدة التناسخ عنده، فأي شيء تصنع به؟! لابد أنك ستجعله نكالا وتتخذه هزوا، وحق لك ذلك! هذان نظامان اعتقاديان غيبيان مفترقان بالكلية Distinct Doctrines، لا يجمعهما مصدر واحد من مصادر التلقي المعرفي في أمر الغيب وما فيه، فكيف يستقيم عند عاقل الجمع بين عقيدتين غيبيتين يقوم مصدر التلقي الذي تؤخذ منه إحداهما على ما يقتضي نقض مصدر التلقي المستند عليه في الأخرى؟؟ نحن المسلمين نؤسس اعتقادنا في الغيب على أساس من نصوص الكتاب والسنة، التي هي الوحي الصحيح من رب العالمين في ديننا، خلافا لكتب الهندوس التي لا نراها شيئا ولا نقيم لها وزنا معرفيا البتة! وأما الهندوس فيؤسسون عقائدهم في الغيب على ما في كتب الفيداس والبوراناس ونحوهما من كتبهم المقدسة عندهم، التي إن آمنوا بها، لم يرفعوا بالقرآن والسنة عندنا رأسا! فإما أن نكون نحن أصحاب المصدر المعرفي الصحيح الجدير بأن يؤخذ منه العلم الصحيح بما في الغيب، وإذن يلزمهم الخروج من دينهم والدخول في ديننا، وتصفية الاعتقاد الغيبي مما يخالف ما عندنا، وإما أن يكونوا هم أصحاب المصدر الصحيح، وإذن يلزمنا نحن الخروج من ديننا والدخول في دينهم، وألا نعتقد في الغيب إلا ما يأتي من طريقهم! أما أن يأتي من يقول نأخذ من هذا ونأخذ من ذاك ولا إشكال، على أساس أن جميع الطرق توصل إلى الحق، وليس الحق في أمر الغيبيات "حكرا" على ملة من الملل أو فلسفة من الفلسفات، فهذا محض سفاهة قطعا!

والواقع أن الكنيسة الكاثوليكية قد تغير موقفها بعض الشيء بالصيرورة إلى مزيد من القبول لتلك النظرية بوصفها "التفسير الأحسن" لنشأة الأنواع الحية كلها بما فيها الإنسان، وأنها قد جاوزت منزلة الفرضية إلى منزلة الحقيقة المؤكدة، التي تجتمع الشواهد من عشرات المجالات البحثية لتعضيدها، وذلك على يد البابا جون بول الثاني في التسعينات من القرن نفسه، بعد ست وأربعين سنة فقط من نشر الوثيقة سالفة الذكر! وهذا أمر غير مستغرب على أي حال! فعندما تكون السلطة الفكرية والهيمنة

المعرفية في مجتمع من المجتمعات لتلك الكنيسة، فإنها تبطش بمخالفها كما تمليه عليها المسؤولية الأخلاقية تجاه دين شعب الكنيسة! أما عندما تنتقل تلك الهيمنة إلى ذلك المخالف، ويصبح هو صاحب السيادة الفكرية والاجتماعية بل والسياسية في أغلب دول العالم والنفوذ الأكبر على عقول جماهير الناس بما يوشك أن يترك تلك الكنيسة سلطانا خاويا لا يحكم إلا نفسه، فإن الكنيسة لا تجد مانعا حائلذ من إعادة اختلاق الاعتقاد الكنسي وابتداع دين جديد من أجل جمع العامة وإبقائها تحت سلطانها الديني! وقد كانت تلك التحريفات والتبديلات تحدث في القرون الغابرة قبل ظهور الطباعة، في أروقة الكنيسة والمجامع المسكونية حيث لا يدري بها ولا يقف عليها عامة الناس، بل لا يطلع عليها إلا القلة القليلة التي تصل إلى الوثائق المكتوبة في الكنيسة، من تلك القلة في مجتمعات أوروبا التي تعرف كيف تقرأ وتكتب من الأساس، فكان خداع الكافة من الجماهير في تلك الأبواب أمرا سهلا ميسورا، يمر تحت الأنوف من حيث لا تدري الجماهير ولا تشعر! أما الآن، وقد أصبحت الوثائق المكتوبة والمنشورة في الكنيسة تصل إلى أقصى الأرض في ثوان معدودة بضغة زر على جهاز كمبيوتر، فلم يعد من السهل تبديل الدين وتحريف الاعتقاد دون إثارة حفيظة الكافة من الناس!

وعلى أي حال، وحتى لا يطول بنا الاستطراد بلا داع، فالمقصود بيان أن فكرة حصر الفعل الإلهي في خلق الإنسان الأول في إطار خلق الروح أو النفس البشرية أو الوعي البشري، ليست فكرة جديدة على الإطلاق! ولم تزل من زمان وثيقة بايوس الثاني عشر المذكورة وإلى اليوم، هي متمسك الكنيسة الكاثوليكية الوحيد في موقفها الرسمي من تلك النظرية! فكأن لسان الحال يقول للطبيعيين: قولوا ما شئتم في أصل نشأة الجسم البشري، ولكن لا تجادلونا في مسألة الروح البشرية وفي زعمنا بأنها هي التي ترقى بها قرد الهومينيد في يوم من الأيام ليصبح إنسانا، ولا تجادلونا في أن الإله الذي نعبده هو الذي خلق كل الموجودات! وهو ما يعني أن موقف الكنيسة الكاثوليكية في مطلق قبول نظرية داروين مع إثبات صانع بالغيب من ورائها، يرجع عليهم بأحد اللازمين لا ثالث لهما، إما ما يلزم الابتدائيين، وإما ما يلزم التطويريين، من حيث صفة الإله الذي يثبتونه! يلزمهم التعطيل على أي حال!

ولا شك أن هذا التقرير من الدكتور نضال بشأن العلاقة التي نشأت بين الله تعالى وبين أول إنسان بمجرد "تطور الوعي" فيه، يبين لك اضطرابه وتناقض مذهبه في صفة الرب جل وعلا وأفعاله. فتراه تارة يتكلم بما حقيقته أن الرب ليس إلا محرك نظام الطبيعة الذي لم يزد على أن صنع القانون الطبيعي وأطلق الحركة الأولى لمادة العالم ثم تركه "ليتطور" على

النحو الذي قررته النظريات الطبيعية، حتى ينتهي التطور إلى ظهور الإنسان على الأرض نهاية تحتمها الأسباب الطبيعية! وتارة تراه يقرر أن الإنسان الواعي لما تطور فيه الوعي أخيرا، فعل الرب به كذا وكذا مما جاء به خبر المرسلين!

فيا دكتور، هل أنت تابع للرسل في أمر الغيب، تثبت منه ما يثبت من طريقهم وجودا وعدما ولا تقبل سواه، ولا تثبت للرب من الصفات وأفعال الربوبية من خلق وتدبير وأمر وتقدير، وكيفياتها وحقائقها، إلا ما أثبته هو لنفسه سبحانه وأثبته له رسوله فيما خاطبه به من الوحي، أم أنت فيلسوف صاحب قياس ورأي في الغيب وما فيه، تأتي بالنظريات في نفس الأمر مما اتفق لك من قياس استحسنته واستحسنه منك أقرانك، تجعلها هي العلم والمعرفة؟ إما هذا وإما ذاك! هذه سبيل المرسلين وأتباعهم وتلك سبيل الفلاسفة وأذنابهم، سبيلان مفترقان! أما أن تحاول الجمع بين الخصلتين فهذا وأيم الله تناقض منهجي صارخ! إما أن تكون تابعا لرسول من ربك، تتلقى عنه العلم بالغيب من مصدره الصحيح، وإما أن تكون تابعا لهواك ووهمك وعقلك وظنك الذي لا يغني من الحق شيئا، وإذن فلا فرق بين ما تخترعه أنت من خيالك ووهمك وما يخترعه غيرك، أو بين ما تنتخبه أنت لنفسك من قياس فوق القياس وما ينتخبه غيرك! لا يرجح من ذلك شيء على شيء إلا بالوهم والهوى! وإذن فلتتمتع ما شئت بما يستدرجك إليه ربك من إعجاب الجهلاء وأهل الأهواء بنظرياتك العريضة ومن تبعيتهم لك عليها، ثم ترد إلى ما أعده الله للمستكبرين من العذاب نسأل الله السلامة! أما سعيك في التوسط بين أن تكون تابعا لنبي من أنبياء ربك، وبين أن تكون متبوعا على ما بدعته من الأوهام والأكاذيب بشأن الغيب وما فيه بعقلك ورأيك، فوالله ليس بين الحق والباطل إلا الضلال! قال تعالى ((إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)) [فصلت : 40] وقال جل شأنه ((وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)) [الأعراف : 180] فكفوا عنا إلحادكم في آيات ربكم وأسمائه وصفاته وما كان منه عند خلق السماوات والأرض وخلق آدم وخلق الدواب وبثها في الأرض، وقفوا حيث أوقفكم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أردتم أن تفلحوا!

هذه، أيها القارئ الكريم، هي الأزمة والمعضلة التي يقع فيها كل من أراد أن يثبت "إله الفلاسفة" الذي لم يزد على أن ابتدأ خلق العالم أو تسبب في وجوده في الخارج لا غير، ويثبت – مع ذلك – ما يثبته له أهل الملل الكتابية الثلاثة من صفات الذوات الحية الفاعلة ذات الإرادة والعلم والحكمة، التي

لم تزل تأمر وتنهى وتفرح وتغضب وتحب وتبغض .. إلخ، ما دام في الأرض حياة! فإله الفلاسفة هذا في واقع الأمر شيء عدمي ووهم عقلي محض لا حقيقة له إلا في الأذهان، إذ لا يوصف إلا بالسلوب والمتناقضات، ولا يثبته الفيلسوف إلا على سبيل الفرض النهائي، الذي يوقف به تسلسل العلل، ويفسر به أصل الوجود نفسه، ولا ينسب إليه شيء فوق ذلك، أو على حد عبارة "جورج كوين" التي مر معك التعقيب عليها، "هو إجابة السؤال: لماذا يوجد شيء بدلا من لا شيء؟"!

يضع الفيلسوف خرافته الميتافزيقية الكونية أولا، على أيما قياس يحلو له اختراعه في حقيقة العالم بكليته، وطبيعة بنيته الدقيقة وتركيبه وهيئته وبدايته ونهايته وأصله ومصيره .. إلخ، ثم إن قدر له أن كان حريصا بعد ذلك كله - لهوى في نفسه كالحرص على السلامة من نقمة المقربين إليه وغضب القائمين على أمر مجتمعه - على إظهار الانتساب إلى ملة من الملل التي تثبت صانعا بالغيب وتؤلهه، رأيته يتكلف افتراض صانع يناسب ميتافزيقاه ونظريته الكونية العريضة ويتناسق معها، فلا يوصف إلا بما تسمح به تلك النظرية فضلا عما تقتضيه وتستلزمه فيما يتعلق بذلك الصانع المراد إثباته من أنواع الصفات والأفعال، إثباتا ونفيا! فترى أحدهم تفضي به نظريته إلى ما يقتضي نفي فعل الباري وتدبيره وقيامه بأمر العالم وأسبابه بالكلية وهو لا يبالي، ولربما صرح بما حقيقته هذا المعتقد الدهري الباهت في مناسبة ما أو أخرى، ثم تراه في موضع آخر ومع أناس آخرين يقرر أن الرب الذي يؤمن به هو إله إبراهيم وموسى وسائر النبيين، الذي يحيي الموتى ويبعثهم يوم القيامة، ويسمع الدعاء ويرى ما في الخفاء ويبعث الرسل وينزل الكتب ويفرح بالطاعة ويغضب من المعصية .. إلخ! ولو قدر أن تغيرت موازين الهوى في نفسه، فصار إلى حال اجتماعية لا يكره فيها إغضاب المتدينين في محيطه الاجتماعي كما يكره التخلف عن نوال ثمرة عاجلة يرجوها من التصريح بموافقة الدهرية الغلاة في إعلانهم البراءة من صانعهم وباريهم بالكلية، لو قدر له ذلك، لرأيته يغير موقفه ويصرح بالتراجع عن ذلك الصانع الوهمي بالغ التناقض الذي كان من قبل لا يثبته إلا ذرا للرماد في العيون!

وإذا بالزندقة تتحول إلى تصريح بالكفر، لا لأن "أدلة جديدة" قد ظهرت في المسألة، كما قد تسمع الواحد من هؤلاء المجرمين المستكبرين يدندن به في موضع الانتصار لنفسه وتبرئتها من التهمة، ولكن لأن موازين الهوى في نفسه المريضة قد انقلبت وتغير الميل من فئة إلى فئة! فإنه ليس في المسألة أدلة تتنازعها العقول السوية أصلا، بحيث يُتصور فيها التحول إلى استظهار دليل كان من قبل خافيا! وإنما هي شطحات الفلاسفة في العدوان

على قضايا الغيب المحض التي لا يحصل فيها المستند المعرفي إلا من طريق السمع وحده! ليس يصح في العقل السوي إلا رب خالق بائن من خلقه، قائم على جميع أمر العالم وحده لا شريك له، تنتهي سائر الأسباب إليه وحده لا شريك له، يستحق صفات الكمال كلها وحده لا شريك له، ويستحق التعظيم والتمجيد على نعمائه بما هو أهله، والتنزيه عن كل نقص كما هو اللائق به وحده لا شريك له، يوحد بجميع ذلك على ما لا تجد له حصولا عند أهل ملة من الملل إلا عند المسلمين، والحمد لله رب العالمين!

هذا هو الحق الذي يعرفه كل عاقل بفطرته، بحيث إذا سلم قياد نفسه لتلك الفطرة، وقمع الأهواء والشهوات العاجلة التي قد تحجزه عن قبولها، سلمت نفسه من كبر الفلاسفة وغرورهم، وشهدت بأنه لا إله إلا الله وبأن محمدا رسول الله، وبأنه لا علم ولا معرفة في أمر الغيب إلا ما جاء به رسول الله، وأن السبيل إلى ذلك موصدة إلا من ذاك الطريق وحده (وهو توحيد مصادر التلقي، الذي يسميه علماؤنا بتوحيد الاتباع)، وأنه لا نجاة في الدنيا والآخرة إلا بالخضوع لرسل الله والانقياد لهم، ولا حصول لذلك لبشر من بني آدم إلا من ذاك السبيل وحده، فيسلم قياد نفسه وعقله وقلبه للرسول كما سلم الصادقون والنبلاء من أهل الملة من قبل، وتنتهي القضية! ولكنه الكبرياء والهوى والإباء وحب الرياسة والعلو فوق رؤوس الناس، ذلك المرض الخبيث المهلك الذي أنبت في البشر نبتة الفلسفة والتفلسف من قديم الزمان، كما أنبتها في إبليس اللعين من قبل، نسأل الله السلامة!

يقول أحدهم إنما أنا طالب للحق، ووالله لو صدق طالب الحق من أمة الدعوة في طلبه الحق وعلم الله منه صدقا في ذلك، وسلامة قلب من الأهواء الصارفة، لأسمعه سماع الهداية ولوفقه للاعتقاد الحق والمنهج الحق الذي لا يقبل من البشر سواه! هذه مسألة يجب على المسلم أن يعتقدها اعتقادا ويوقن بها يقينا! فلا يغرنك زعم ضالة الجهمية والمتفلسفة من أهل الملل، الكتابية منها والوثنية والطبيعية وغيرها، أنهم طالبون للحق يريدون بلوغه، مع أنك تراهم يمارون ويلحدون في آيات ربهم وأسمائه وصفاته أعظم ما يكون المراء والإلحاد، يشترطون بلسان الحال فيما جاء به الرسول أن يكون على ما يهوى أحدهم ويشتهي، ثم تسمعهم يقولون "لو نعلم دليلا على صحة ما تنسبونه إلى السلف من اعتقاد وفهم للكتاب والسنة لوافقناكم عليه ولتابعناهم كما تابعتموهم" يكذبون على أنفسهم وهم يعلمون، والله يعلم أنهم كاذبون! طالب الحق الصادق لا يماري ولا يجادل بالباطل! طالب الحق الصادق لا يدعي خفاء الواضحات الجليات، ولا يشكك في الضروريات! طالب الحق الصادق لا يستنكف أن يكون عبدا لله، وأن يكون تابعا منقادا لرسول من رسله، ولا يقول لمن جاءه بفهم الصحابة

ومن تبعهم بإحسان، يسوقه إليه بسند متصل لا غبار عليه، لو عرفوا ما عرفنا نحن اليوم في عصرنا هذا من العلوم لما قالوا بما قالوا! فإن هؤلاء ما جعلهم الله أئمة للمسلمين وما أمرهم بلزوم سبيلهم لأنهم كانوا عباقرة أصحاب عقول فذة جاءت بنظريات وآراء لا يطيق من جاء بعدهم أن يأتي بمثلها! وإنما جعلهم الله أئمة للمسلمين لأنهم كانوا أولي قلوب زكية طاهرة ورثت الأثر من مشكاة النبوة بفهمه الصحيح، فوعته وحفظته من غير تحريف ولا تبديل، ومن غير تكلف ولا تنطع ولا افتيات على الله، فعملت به كما يحب الله للمسلم أن يعمل، من غير إفراط ولا تفريط! فلا يخفى فضلهم في العلم على من بعدهم إلا على صاحب هوى متمحض فيه، يكره أن يكون تبعا لغيره، بل يحب أن يكون الناس كلهم تبعا له، نسأل الله السلامة!

فصل في قولهم بتسلسل "الأوادم" قبل آدمنا!

وهو بالأساس قول للرافضة عليهم لعائن الله، بناء على آثار مكذوبة في كتبهم، تخالف صريح القرآن! وقد التقطه عنهم بعض الصوفية، ثم التقطه عن أولئك بعض دراونة العصر أمثال عدنان إبراهيم [112] والروائي المتفلسف يوسف زيدان وغيرهما. وقد اختلفت روايات الرافضة فيما إذا كان أولئك الأوادم المزعومون كلهم تسلسلوا على هذه الأرض التي نحن عليها، أم أن الله خلقهم في عوالم سابقة، إذ أفني كل عالم منها بقيامته الخاصة، وكان في كل واحد منها آدمها وذريته!

قال الألوسي، موجزا جمعها والرد عليها في تفسيره عند قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ)) رَقِيباً [النساء : 1]:

> والمراد من النفس الواحدة آدم عليه السلام، والذي عليه الجماعة من الفقهاء والمحدثين ومن وافقهم أنه ليس سوى آدم واحد - وهو أبو البشر – وذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية في الفصل الخامس عشر خبرا طويلا نقل فيه أن الله تعالى خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم، بين كل آدم وآدم ألف سنة، وأن الدنيا بقيت خرابا بعدهم خمسين ألف سنة، ثم عمرت خمسين ألف سنة، ثم خلق أبونا آدم عليه - السلام، وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضا أنه قال: لعلك ترى أن الله تعالى لم يخلق بشرا غيركم، بلى، والله لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين، وقال الميثم في شرحه الكبير على النهج ونقل عن محمد بن علي الباقر أنه قال: قد انقضى قبل آدم الذي هو أبونا

ألف ألف آدم، أو أكثر. وذكر الشيخ الأكبر - قدس سره - في فتوحاته ما يقتضي بظاهره أن قبل آدم بأربعين ألف سنة آدم غيره. وفي كتاب الخصائص ما يكاد يفهم منه التعدد أيضا الآن، حيث روي فيه عن الصادق أنه قال: إن لله تعالى اثني عشر ألف عالم، كل عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين، ما يرى عالم منهم أن لله عز وجل عالما غيرهم، وأنى للحجة عليهم، ولعل هذا وأمثاله من أرض السمسمة وجابرسا وجابلقا، إن صح محمول على عالم المثال لا على هذا العالم الذي نحن فيه، وحمل تعدد آدم في ذلك العالم أيضا غير بعيد، وأما القول بظواهر هذه الأخبار فمما لا يراه أهل السنة والجماعة بل قد صرح زين العرب بكفر من يعتقد التعدد. نعم، إن آدمنا هذا عليه السلام مسبوق بخلق آخرين كالملائكة والجن وكثير من الحيوانات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى لا بخلق أمثاله وهو حادث نوعا وشخصا خلافا لبعض الفلاسفة في زعمهم قدم نوع الإنسان.

قلت: ولا شك أن هذا كله باطل عظيم، بل إنه مناقض لصريح القرآن كما في قوله جل شأنه: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7] فهي نص صريح على أن الله تعالى بدأ خلق ذلك النوع الذي يقال له الإنسان، من الطين لا من بشر آخرين، ولا من غير البشر، فلو كان ثمة بشر قبل آدم المخلوق من طين، في هذا العالم أو في غيره، ما قال "بدأ"! وكذلك قوله تعالى ((وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)) [الحجر : 28] فأجمع المسلمون على أن المقصود ما هو ظاهر من ابتداء خلق ذلك النوع الجديد الذي يقال له بشر، على غير مثال سابق، لا في هذا العالم ولا في غيره، ابتداء من ذلك المخلوق الجديد الذي سماه الله "آدم"، وخلقه من صلصال من حمأ مسنون! فكل نص يثبت بشرا قبل آدم، وآدم غيره من قبله، فهو مصادم لهذه الآية قطعا، ناقض لإجماع المسلمين على فهمها الذي صار من ضروريات الملة! وكذلك قول الله تعالى ((إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ)) [صـ : 71] أي أخبرهم بأنه سبحانه سيحدث نوعا جديدا يخلقه من الطين، يقال له البشر! وكذا قوله تعالى: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)) [الأنعام : 2] فكان خلق آدم من طين هو خلق نوعنا (نوع البشر المخاطب بالقرآن) من طين، لا من أوادم آخرين، فضلا عن قردة داروين! وكذلك قوله تعالى: ((قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)) [الأعراف : 12] فلو كان الله قد خلق آدما قبل آدمنا، لكان خلق ذلك الآدم الأول مستوجبا في حق إبليس ما استوجبه خلق آدمنا من تكريم الله له

ومن الأمر بالسجود له، وإذن لوقعت اللعنة على إبليس من أول مرة وانتهى الأمر، فلا متسع لزعم التعدد والتكرار قبل قصة آدمنا هذا! وكذلك قوله تعالى: ((وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ)) [الأعراف : 11] يخاطب الله تعالى عموم البشر، فيخبرهم بأنه بعدما خلق نوعهم على غير مثال سابق، بتصوير آدم عليه السلام، أمر الملائكة بالسجود له كما لم يأمرهم بالسجود لمخلوق قبله. فالأمة مطبقة على أن قصة إخبار الملائكة بأمر النوع الجديد، نوع البشر، وأمرهم بالسجود لآدم، وإباء إبليس أن يسجد واستحقاقه اللعنه، هذه كلها ليس لها مثال سابق في هذا العالم ولا في غيره!

وبطبيعة الحال، فالذي تعلق به دراونة أهل القبلة من تلك المكذوبات المهلكات، فإنما هو ما يثبت "أوادم" قبل آدم في هذا العالم نفسه، وليس ما يثبت آدما في كل عالم من العوالم السابقة على عالمنا هذا، لأن المطلوب – على بدعتهم - استخراج أي نص من أيما كتاب تراثي ينتسب صاحبه إلى الإسلام، بحيث يفيد ولو من بعيد بأن لآدم عليه السلام سلفا من نفس نوعه في هذا العالم كما يزعمه الدراونة، أيا ما كان أو من كان ذلك السلف! وهو مع ذلك لا يفيدهم فيما يريدون! إذ لا يفهم من تلك النصوص أن آدم الذي نعرفه مولود من ذرية أوادم آخرين متقدمين عليه، وإنما يفهم منها أن الله لم يزل يخلق آدما بعد آدم على هذه الأرض، بحيث تجري ذرية كل واحد منهم خمسين ألف سنة ثم يهلكها أو يقيم قيامتها ويخلق الآدم الذي يليه ليستخلفه في نفس الأرض بعد خرابها، خلقا مستقلا على نفس الوتيرة! وهذا لا علاقة له بما يريده الدراونة من قريب ولا بعيد! ثم إنه لو سلمنا بأن كل آدم من تلك الأوادم يلد ذرية يوصل منها في النهاية إلى آدم جديد، في تسلسل متصل، بحيث يكون كل واحد منهم من ذرية سابقه، وصولا إلى أولهم، لزم أن يكون النوع البشري موجودا على الأرض من أول آدم في تلك الأوادم المزعومة كما هو، لا أن يكون قد ترقى من أشباه القردة التي ترقت بدورها مما هو أحط منها! إما هذا وإما القول بأوادم لا أول لها، وهو كذلك يقطع الطريق على الأصل التطوري المزعوم للنوع نفسه، إذ معناه أن الآدميين لم يزالوا على هذه الصورة من الأزل! فليت شعري أي شيء كان "الآدم" الذي يسبق آدمنا عند من يتعلق بهذه النصوص الساقطة لنصرة داروينيته؟ لابد أنه كان قردا بل أحط من القرد! ولابد أن آدم الذي سبقه كان جرذا أو أحط من الجرذ، وهكذا!! فسبحان الذي أذهب عقول هؤلاء، وأخزاهم بما هم أهله!

ولأن عدنان إبراهيم كان أحوط وأعلم من أن يستند إلى تلك النصوص الواهية عند الإمامية في الانتصار لداروينيته، فقد حرص على أن يؤكد على

أنها لا تصح سندا، وإن كان استخرج تلك النصوص بالفعل ليدلل على أن المعنى نفسه (معنى نفي أولية آدم عليه السلام لنوع البشر) كان موجودا في التراث!! وفي المقابل ترى أناسا هم أجهل من هذا الرجل، سواء في نظرية داروين أو في تراث المسلمين، يستندون إلى ما هو أوهى وأسخف من تلك النصوص في الانتصار لدعوى أن المسلمين مهدوا لنظرية داروين وقالوا بالتطور، وأن داروين إنما جاء بالنظرية على طورها الأخير، في محاولات مخجلة للتمحك والتمسح بتلك النظرية الخبيثة!

قال يوسف زيدان في لقاء تلفزيوني أجراه مع الإعلامي عمرو أديب - الذي اتخذ من برنامجه منبرا دائما لبث زندقته! - في حلقة طويلة خصصها للدعوة إلى نفي مخالفة نظرية داروين لدين المسلمين، ولتكذيب دعوى أن الإنسان أصله قرد (!!): "أبو العلاء المعري، قال، نص البيت أهوه: وما آدم في مذهب العقل واحد .. ولكنه عند القياس أوادم. يعني آدم، للناس اللي بتفكر بعقلها، مش شخص واحد! ده عند القياس، يعني عند إعمال العقل، أوادم، أكتر من واحد! خذ بالك أبو العلاء المعري ده القرن الرابع." فقال عمرو أديب: "هو بيقول إن كل شيء له أصل هو آدم"، فقال زيدان: لأ، ما ... فقاطعه عمرو: كل حاجة ليها آدم بتاعها! فقال زيدان: وما آدم في مذهب العقل واحد، فقال عمرو: أيوه يا فندم، ثم واصل زيدان: ولكنه عند القياس أوادم، خلاص؟ تنصرف على المعنيين! المعنى اللي أنت بتقوله، فقال عمرو: ده هو ما فهمتش إلا المعنى اللي أنا باقوله! فقال الزنديق: ما يمكن فيه أكتر من آدم! فيقول عمرو: أيوه لكل نوع، آدم بتاعه! .. يعني للطيور آدم بتاعها .. فيقول زيدان: وما آدم .. يبقى آدم اللي احنا حاطينه في دماغنا عقليا، مش شخص واحد! ده هو عند القياس .. " اهـ.

قلت: زنديق تعلق ببيت شعر لزنديق مثله، فكان ماذا؟؟ ومن يكن الغراب له دليلا ...! هذا هو مبلغ ما عند يوسف زيدان في إثبات أن التراث الإسلامي قد وُجد فيه من يزعم أن آدم ولد من أب وأم من قبل نظرية داروين! الرجل لم يبلغ حتى أن يقف على نصوص الرافضة التي أشرنا إليها آنفا، وإنما وقع على بيت للمعري توهم أن فيه بغيته، ففرح به فرحا عظيما! وحسب امرئ من الجهل أن يجد أمثال "عمرو أديب" يردون عليه ويثبتون غلطه في فهمه لبيت من أبيات الشعر، فيرد بانتفاخ فارغ ويقول: هي تنصرف إلى الوجهين، ما فهمته أنت وما فهمته أنا! طيب يا فقيه عصرك، ألا يكفي هذا التكافؤ في التأويل لإسقاط الدعوى بقول أبي العلاء بهذا المذهب الذي حرصت غاية الحرص على إلصاقه به؟؟ ثم سلمنا بأن شاعر المعرة، أو شاعر الفلاسفة كما سموه، كان قد بلغت به زندقته أن جعل آدم الذي أفرده الله في القرآن، جمعا من "الأوادم"، فكان ماذا؟؟ هو في حقه خرافة

لا أساس لها من جهته، ولا يحمد بها حتى لو سلمنا تنزلا بأن القول في نفسه صحيح! فالبيت يقرر أن القياس يقتضي ألا يكون آدم آدما واحدا بل أوادم متعددة! فلو صح أن كان المراد ما ذهب إليه صاحبنا، لكان في ذلك مغالطة عقلية واضحة، إذ معلوم أن مجرد الجواز العقلي لا يقتضي الوقوع! وغاية العاقل أن يقرر بعقله أن العقل يجيز (أي من جهة الإمكان العقلي المجرد) أن يكون الله قد خلق أكثر من آدم من نفس نوعه، لا أكثر ولا أقل! أما الإثبات والنفي من حيث الوقوع والتحقق في الأعيان فقضية أخرى! والظاهر أن أبا العلاء كان أحسن عقلا من صاحبنا هذا، وأنه كان يقصد بإثبات الأوادم الأخرى، قياس كافة أنواع الأحياء على آدم، فيكون لكل منها آدمه الذي يبدأ منه! ومع ذلك، فحتى هذا ليس مسلما إثباته من طريقه، لأن العقل لا يوجب أن تكون جميع الدواب قد خلقت أزواجا من ذكر وأنثى، ولولا أن جاء النص به وأجمع السلف على فهمه ما أثبتناه! فالباب لا محل فيه للقياس أصلا على أي حال! والقصد أيها القارئ الكريم، أن هذا البقباق وأمثاله، بريئون من العقل الذي يتكلمون باسمه ليل نهار، والعقل منهم بريء!

ولما أدرك الرجل وهاء موقفه، أخذ يدعم دعواه الكفرية تلك (الزعم بأن آدم له سلف دارويني قد خلق هو من ذريته) بكلام لا علاقة له بها، فقال: "طيب، ده مدعوم بحاجات تانية! مدعوم ب ... إيه، الجاحظ مثلا، كان في القرن الثالث الهجري، مبكر جدا، التاسع الميلادي، الجاحظ، زي ما أرسطو عامل كتاب الحيوان، وأجزاء الحيوان، هو بردو عمل كتاب في الحيوان، وقال فيه بتداخل الدوائر بين الكائنات! الجمادات والنبات والحيوان والإنسان.

قلت: مغالطة منطقية أخرى ظاهرة للغاية! فمجرد القول بتداخل دوائر الأنواع وتشابهها الشديد، لا يقتضي القول بالتطور، ومن زعم نسبة الجاحظ للقول بوحدة الأصل أو حتى بأن الله خلق الأنواع كلها تطويرا من الأحط إلى الأرقى، يؤسسه على ذلك التداخل، فعليه أن يأتي بالنص الصريح من كلام الجاحظ، ولن يجده! ثم إنه حتى على التسليم بأن هذا ما قاله الجاحظ، فهذا لا يدعم القول بأن من أهل القبلة من قال أو تصور أو ذهب به الوهم مذهبه حتى قال إن آدم مولود من ذرية ذكر وأنثى من نوع متقدم عليه، قبل أن تنتقل إلينا نظرية داروين!! والواقع أن الرجل يعلم أن العرب لم يقولوا بفكرة الأصل المشترك ولا بكون آدم منحدرا من ذرية خلق آخرين، ولهذا زعم بخبث ودهاء أن هذه الشواهد التي جاء بها تدل على "تطور نظرية التطور"! وهذا جهل ولا شك، إذ نظرية التطور Theory of Evolution التي بدعها داروين، وطار بها الدهرية المعاصرون كل مطار، لا تكتفي بمجرد إثبات التشابه أو حتى التداخل في دوائر الأنواع، فهذا واضح لكل ذي بصر،

بل ولا تنهض بمجرد إثبات أن أفراد النوع الواحد تتغير بعض صفاتهم عبر الأجيال، فهذا أيض واضح جلي لا مرية فيه، بل وحتى الفلاسفة القدماء كطاليس وأناغزيماندر وغيرهما ممن قالوا إن جميع المخلوقات نشأت من الماء، هؤلاء لا يمكن اعتبارهم أسلافا لنظرية داروين في أصل الأنواع، لأن مطلق إثبات النشأة بالتحول لا يلزم أن يكون إثباتا للتطور الذي يقال له Evolution! نحن المسلمين نؤمن بأن الله خلق الأنواع الحية كلها من الماء، لقوله جل شأنه: ((وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)) [النور : 45]، ولقوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)) [الأنبياء : 30] فهل يعد مذهبنا بذلك مذهبا "تطوريا" أو خطوة من خطوات "تطور نظرية التطور" أو حتى نظرية التطوير أو التطور الموجه أو الخلق بالتمهيد أو غير ذلك من نظريات جهمية الدراونة المعاصرين؟؟ هذا كلام فارغ! التطور لا قيام لأصل فكرته إلا بادعاء رجوع الأنواع كلها إلى أصل منحط (واحد أو أكثر) نشأت عنه بالارتقاء التدريجي والتطور التدريجي، جريا على خليط ميتافزيقي تفسيري فاسد من العشواء الوجودية والنظام الوجودي! وهذه الدعوى لم يُسبق إليها داروين ووالواس قطعا، ولم يقل بها أحد من الناس قبل القرن التاسع عشر الميلادي، لا في العرب ولا في غيرهم!

ومع ذلك قول زيدان: "وبعدين جيه ابن خلدون، وعمل إضافة خطيرة جدا لنظرية التطور! قال الكلام اللي بيتقال في الكتب المقدسة، التوراة، عن إن نوح لعن ابنه، حام، وقال له أنت هاتبقى عبد، عشان مش بتسمع الكلام، فعيال حام كلهم سود، وفطس الأنوف، فابن خلدون بيقول إيه الكلام ده؟؟ الناس دي أجيال ورا أجيال تعرضت لشمس شديدة جدا، فأصبحوا سودان، سودان جمع أسود في اللغة العربية! فبالتالي كان واضح عندهم إن فيه شقر، وفيه عرب، وفيه سودان، وفيه زنج اللي هم الزنوج! ده تأثير البيئة! ونقل من إخوان الصفا بعض حاجات حطها في المقدمة."

قلت: فهذا تلبيس بين! ابن خلدون لم "يضف" شيئا إلى شيء بقوله المنقول هذا! فلم توجد نظرية تطور قبله حتى يضيف عليها أصلا! وليس كلامه من جنس الكلام "التطوري" أصلا، إلا على استعمال لغوي فاسد يجعل كل تغير وتحول تطورا! وإنما هو بناء وهمي تخيلته أنت وغيرك في أذهانكم، لتصنعوا في تاريخ العلوم عند العرب خرافة تاريخية مفادها أن نظرية داروين إنما جاءت تتويجا لأفكار النظار المسلمين، أو لتدرج معرفي نظامي له أصوله عندهم Disciplinary Foundations، وإن لم "يتوصلوا"

إلى نظرية داروين، وهذا كذب وكلام فارغ لا قيمة له! ونحن نسأل الدكتور زيدان، بأي مقياس يعد تحول البشر إلى انفطاس الأنف واسوداد البشرة تطورا أو انحدارا؟ لا يكون الرجل قائلا بالتطور حتى يصرح بأن ثمة أطوار في دعواه، كانت أقدمها أحطها، وآخرها أحسنها! وهذا الكلام الذي نسبه إلى ابن خلدون لا يدل عليه! ولو قدرنا أنه يدل عليه فلا تعد تلك منقبة للرجل، وإنما هي تهمة له في عقله ودينه على التحقيق!

فأما في العقل فلأنه إذن يكون قائلا بأن الأنواع الحية يخلق بعضها من بعض بلا مسوغ ولا أساس إلا التشابه الظاهر فيما بينها! وهذا في العقل كالذي يقول إن الثعبان والحبل (مثلا) لابد أن أحدهما قد خلق من الآخر من فرط التشابه بينهما! فأي عاقل يدري أن التشابه في مجرده ليس دليلا، وأن الذي يعده دليلا (كداروين مثلا!) إنما يستبعد بذلك كافة الاحتمالات الأخرى بالتحكم المحض! وأما في الدين فإنه يدل على جهله بعقيدة المسلمين في ربهم الذي يؤمنون بأنه لا يخلق النوع الحي إلا على أحسن ما يحصل به المقصود الإلهي من جعله نوعا حيا مستقرا في الأرض، ولا ينشأ النوع الجديد في خلقه سبحانه إلا على أكمل ما تحصل له به السلامة من أسباب الهلاك، صنع عليم حكيم قدير يضع الشيء في موضعه الصحيح، سبحانه وتعالى! فمن قال إنه يخلق بالتطوير من الأدنى إلى الأعلى فقد تنقص من علمه وحكمته ضرورة، وهذه تهمة لا ينسب إليها مثل ابن خلدون رحمه الله بهذه السهولة، ولا يفرح بها إن ثبتت عليه إلا مغرض صاحب هوى!

ثم إنه إن صحت نسبة ذلك الاستنكار لما عند أهل الكتاب في أصل العرق الأسود إلى ابن خلدون فهو به غالط مخالف ولا شك! إذ الباب باب غيب محض، لا يعرف الحق فيه إلا بالسمع! فإذا جاء من طريق أهل الكتاب نص يقرر أمرا ما من أمور الغيب، ولم نجد نحن المسلمون في نصوصنا ما يوافقه ولا ما يخالفه، وجب علينا أن نمسك عنه فلا نثبت ولا ننفي، ولكن نفوض العلم لله تعالى، لأن القوم أهل كتاب، فلا نأمن أن يكون النص من بقايا كلام الأنبياء والمرسلين عندهم! فهذه هي طريقة أهل السنة في التعامل مع الإسرائيليات. أما أن يتكلف الرجل استعمال القياس العقلي في تصور أصل عرق معين من أعراق بني آدم، ثم يأتي إلى نص من نصوص أهل الكتاب فيه ما يخالف نظريته في بيان أصل ذلك العرق نفسه، فيسقطه ويرده ليرفع رأيه ونظره فوقه، فهذا مسلك مذموم مردود على صاحبه ولا شك!

كثيرا ما يتقافز أمثال هذا الرجل من أذناب الدراونة فرحا بنص في مقدمة ابن خلدون رحمه الله أتى فيه بكلام فلسفي فيما سماه "بالاتصال" بين طبقات المخلوقات، إذ حملوه تعسفا على أنه قد سبق به داروين إلى

نظريته التطورية وإلى القول بالأصل المشترك، مع أنه لا يوافقها على التحقيق إلا في مبدأ ترتيب المخلوقات في طبقات من الأدنى إلى الأعلى، لا أكثر! قال ابن خلدون في مقدمته تحت باب ترجم له بقوله "في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة والكلام في الوحي والرؤيا" (ص. 171-173):

> اعلم – أرشدنا الله وإياك – أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته. وأبدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني، وأولا عالم العناصر المشاهد كيف تدرج صاعدا من الأرض إلى الماء، ثم إلى الهواء، ثم إلى النار، متصلا بعضها ببعض، وكل واحد منها مستعد أن يستحيل إلى ما يليه صاعدا وهابطا، ويستحيل بعض الأوقات. والصاعد منها ألطف مما قبله، إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك، وهي ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها. ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج: آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان كالحلزون والصدف، لم توجد لهما إلا قوة اللمس فقط. ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق من الذي بعده. واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية، يرتفع إليه من عالم القردة الذي استجمع فيه الكيس والأدراك، ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك في أول أفق من الإنسان بعده، وهذا غاية شهودنا.

قلت: فبالله أين في هذا ما يؤخذ منه أن ابن خلدون قد "سبق" داروين إلى إثبات السلف المشترك، وإلى القول بالانتخاب الطبيعي وبأن سلف البشر من أشباه القردة؟ الرجل إنما أراد أن يقرر بالقياس عقلي أن النبوات والرسالات وأمور الوحي والرؤيا من الغيبيات، لها اتصال جبلي بالمحسوس المشاهد كما أن المحسوس نفسه أنواع تقع في طبقات يتصل بعضها ببعض، وأن أعلى ما في طبقة ما من تلك الطبقات التي رتبها لأنواع الموجودات، فيه (من القرب والمشابهة) استعداد جبلي لأن يترقى ويدخل

في أدنى الطبقة التي فوقه! لا أن جميع الأنواع إنما خلقت بالترقية والتطوير من بعضها البعض، رجوعا إلى أصل أول! فهو يقول: "أولا عالم العناصر المشاهد كيف تدرج صاعدا من الأرض إلى الماء، ثم إلى الهواء، ثم إلى النار، متصلا بعضها ببعض، وكل واحد منها مستعد أن يستحيل إلى ما يليه صاعدا وهابطا، ويستحيل بعض الأوقات"، قلت: فخبرني بربك كيف يُفهم من قوله "مستعد أن يستحيل إلى ما يليه صاعدا وهابطا، ويستحيل بعض الأوقات" أنه يثبت كون جميع أفراد النوع الأعلى مخلوقة بالتحويل من أفراد النوع الأسفل، إلا أن تكون أماني الدراونة المتمحكين؟؟ الرجل يقول صراحة في الاتصال الذي يثبته بين طبقات المخلوقات في العالم المرتبة عنده من الأثقل الأدنى إلى الألطف الأرقى: "ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق من الذي بعده."، فلا يثبت أكثر من الاستعداد القريب للترقي، أي الاستحالة بالقوة لا بالفعل، مع وقوع ذلك "في بعض الأوقات"، وكل هذا حتى يأتي ليقول إن الرسل لديهم الاستعداد بالقوة لأن "ينسلخوا من البشرية" ويستحيلوا ملائكة في بعض الأوقات، وهو ما يزعم أنه يقع لهم على الحقيقة حال تلقيهم الوحي من السماء، إذ قال بعد كلام (ص. 173): "فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد، ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها، شأن الموجودات المترتبة كما قدمناه... " إلى أن قال (ص. 175): "وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة، جسمانيتها وروحانيتها، إلى الملكية من الأفق الأعلى، ليصير في لمحة من اللمحات ملكا بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم، وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة، وهؤلاء هم الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم -، جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة، وهي حالة الوحي، فطرة فطرهم عليها، وجبلة صورهم فيها، ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية، بما ركب في غرائزهم من العصمة والاستقامة التي يحاذون بها تلك الوجهة، وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكتنف بتلك الوجهة وتشيع نحوها، وهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة.." إلى آخر ما قال!

قلت: ومسألة الانسلاخ والتحول هذه بدعة ضلالة ولا شك، ولكن كيف يفهم من هذا الكلام أنه يقول بمقالة داروين في أصل الأنواع؟؟ وهل يقال على هذا إن الرجل كان يعتقد أن نوع الملائكة إنما نشأ بالتطور من نوع البشر؟؟ صحيح إن كلامه كلام فلسفي فاسد يخالف اعتقاد أهل السنة في الأنبياء

وفي الملائكة وفي صفة الكلام الإلهية وغير ذلك، ولكن قد أمرنا الله تعالى بالعدل والإنصاف، حتى مع الكفار والمشركين، كما في قوله جل شأنه: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)) [المائدة : 8]، فعندما يستند إلى هذا الكلام في نسبة ابن خلدون إلى القول بالسلف المشترك والتطور الدارويني بالانتخاب الطبيعي، فهذا افتراء على الرجل لا يجوز! ولو كنا نثبت البدع على الناس بالتشهي والهوى، لأعجبنا أن نلحق ابن خلدون بجملة الزنادقة، نضيف إلى مخالفاته ذلك القول الشنيع بأن آدم عليه السلام مولود لأب من القردة! ولكن كيف نصنع بظلمات الظلم يوم القيامة؟ نسأل الله السلامة!

وفي الحقيقة فلم أر عند من زعموا ظهور نظرية التطور عند المسلمين قبل داروين، كزيدان وغيره، إلا شقاشق وتمحكات سخيفة حق لصاحبها أن يخجل من نفسه [113]! وهكذا حال أهل الأهواء والزيغ والضلال كافة، يقرؤون في الكتب ليفهموا منها ما يشتهون وما يريدون، لا ما يريده أصحاب تلك الكتب بالضرورة! فعندما يقال إن قول ابن طفيل – مثلا – في قصة "حي بن يقظان" عن أصل حي هذا إنه نشأ من الطين بما يشبه أن يكون تفاعلا كيماويا خلقت به مادته اتفاقا حتى صار رضيعا بشريا، أو عندما يؤتى ببيت من أبيات أبي العلاء المعري ليُتأول تعسفا على أن فيه معنى خلق آدم من أوادم سابقين، أو يقال إن إخوان الصفا لما قالوا في رسائلهم بأن أعلى ما في النبات قريب أو متصل بأدنى ما في الحيوان من أنواع، وأعلى ما في الحيوان متصل بأدنى ما في البشر، أو قريبا من ذلك، عندما يقال إن هذا ونحوه، يعد سبقا إلى نظرية داروين في أصل الأنواع، أو حتى إلى شيء من عناصرها، فضلا عن أن يكون فيه ما ألهم داروين – مثلا – أو أوحى إليه بالفكرة، أو عندما يقال إن هذا يعد طورا من الأطوار التي مرت بها نظرية التطور في "تطورها التاريخي"، فهذه هي السخافة بعينها والتمحك بعينه!

والعجيب أن الدكتور – على جهله الفادح بالنظرية، واعتقاده أن "الصراع من أجل البقاء" هو أصل من أصول النظرية، كقسيم للانتخاب الطبيعي، واعتقاده أن الديدان تنشأ في الجبن المتعفن بالطفرة الداروينية، إلى غير ذلك من جهالات الرجل – لا يرى بأسا في اختراع مصطلحاته الخاصة، فيقول عن اعتقاد المسلمين وأهل الكتاب في الطريقة التي يخلق الله بها كل نوع من أول يوم على أكمل هيئة تناسب الغاية من خلقه: "ده اسمه الخلق دَفعة"! قلت: فمن الذي سماه "بالخلق دَفعة" غيرك يا دكتور؟ لا يقال للناس "هذا اسمه كذا" وهذا اسمه كذا، إلا أن يكون الاسم الذي يقرره المتكلم اسما مصطلحا عليه بالتواضع بين تلك الفئة التي يزعم هو أنه ينقل

كلامها للناس! وكذلك عنما يقول: هذا يسمى كذا، أو هذا يسمونه كذا، أو هذا نسميه كذا (إن كان يعد نفسه من تلك الفئة)! أما أن يأتي من كيسه باصطلاح ثم يقول "ده اسمه كذا" فهذا ليس من العلم ولا من نقل العلم في شيء، بل هو تدليس على التحقيق!

ثم يأتي الرجل – في باب أسلمة النظرية وادعاء أنها لا تخالف الدين - ليستدل على أن الإنسان خلق من نسل القرد الدارويني المزعوم، بواحدة من أظهر الآيات في القرآن حجة عليه وعلى أمثاله! يقول: "في سورة السجدة، النص أهوه، وبردو كتبته عشان ماجيش إيه أنطق حرف ملحون، فيطلعوا .. (عالم الغيب والشهادة الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين) .. بدأ! خلق الإنسان من طين، (ثم ..) ثم تيجي للزمان التالي، (جعل نسله من سلالة من ماء مهين) شوفنا شكل الأجنة. (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) والواو بتبقى للإضافة! يعني التسوية مش هي النفخ. طيب! عايز إيه أوضح من كده بس؟؟ يا أخي ما تأول الآية! مش تأول، مش محتاجة تأويل الآية! فيقول عمرو: لا مش محتاجة تأويل لأ.. ده حرفية! فيواصل: بيقول لك بدأ خلقك من طين! وبعدين من الطين عمل نسل من ماء مهين. وشوفنا الأجنة شكلها إزاي. ثم سواه ونفخ فيه من روحه!" اهـ.

قلت: يبدو أنك لا تقرأ القرآن - إن قرأته - من مصاحف المسلمين يا دكتور زيدان! فإن سورة السجدة ليس فيها آية كما قرأت، وكما تزعم أنك نقلته بحروفه! وإنما يقول تعالى: ((ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 6-7]! فهل نفهم من هذا التخليط - مع ما قدمته له من قولك "النص أهوه وبردو كتبته عشان .. إلخ" – أنك تتعمد تحريف القرآن؟؟ سبحان الله! على أي حال، الرجل يقرأ الآية ثم يعيد التأكيد على اللفظة "بدأ"، ثم يقول إن "ثم" "تيجي للزمان التالي"، وهذا أمر بدهي، والفاء كذلك تأتي، أو على عبارته العامية السخيفة "تيجي" للزمان التالي، فكان ماذا؟؟ يعني أي فرق يحصل في المعنى لو قدرنا أنه قال "فجعل نسله" في محل "ثم جعل نسله"، إن كانت ثم "تيجي للزمان التالي"؟؟ هو يريد، على جهله، أن يقول إن "ثم" تفيد التعقيب مع التراخي، وإذن فاستعمالها هنا يفيد – كما يظهر واضحا أنه التقطه من غيره ممن له شيء من الدراية بالقرآن وعلومه – الترتيب مع التراخي! فيا عدو نفسك، على الأقل احترم نفسك واحترم مشاهدك، وادخل على قوقل وابحث عن "ثم" وما تفيده عند علماء التفسير، حتى إذا تكلمت، أوهمت السفهاء من متابعيك (على الأقل) بأنك على شيء، وأنك تدري كيف يُفهم القرآن!! حتى هذا لم يعبأ الرجل بتكلفه! وهذا ينبيك بمبلغ الاستهانة بكتاب الله تعالى وعلومه الذي بلغه هذا الزنديق، عامله الله بعدله!

وكيف لا وقد كان له لقاء قديم مع عمرو أديب أيضا وفي نفس البرنامج المشؤوم (وهي سلسلة من حلقات "كل يوم" سمياها "برحيق الكتب"، وهو إلى العفن والنتن أقرب!)، زعم فيه أن علوم القرآن كلها تنحصر في ثلاثة كتب: الإتقان للسيوطي، والبرهان للزركشي، وتاريخ القرآن لتيودور نولدكه؟! رجل غاية حظه من العلم عن القرآن، أنه قرأ عنه من كتاب لمستشرق ألماني يهودي مجرم زعم فيه أن محمدا عليه السلام كان ضحية عواطف جياشة أوهمته بأنه يوحى إليه، وأن اضطراباته وتقلباته النفسية كانت سببا في خروج القرآن غير متناسق "أدبيا"، فلا عجب على الإطلاق من أن يكون هذا هو مسلكه في التعامل مع كتاب رب العالمين، نسأل الله السلامة! ولا نعجب عندما نراه يدعونا لاستحداث التأويلات الجديدة لكلام ربنا وكأنما يدعونا إلى تغيير قميص أو حذاء نلبسه مثلا، "يا أخي ما تأول الآية"، ثم يغير رأيه فجأة بلا مرجح ويقول: "لأ مش تأول، مش محتاجة تأويل الآية"، ويوافقه عمرو أديب بكل ثقة فيقول: "ده حرفية"! فأي شيء هذا الذي يحتاج أو لا يحتاج إلى تأويل، وما ضابط ذلك وما حده، وما دليل التأويل إن تكلفتماه، بل ما معنى التأويل أصلا عندكما يا قتالكما الله؟؟! ما أثبتما إلا بدأ التي تفيد الابتداء، وثم التي تفيد التراخي! فأي شيء هذا الذي لا يحتاج إلى تأويل؟

الآية صريحة في هدم ما تريدون لو كنتم تعقلون! وإلا فهل المتوقع من الناس أن تقبل بهذه السهولة بأن الآية تصرح (ما دامت لا تحتاج إلى تأويل) بأن آدم لم يخلق من طين، وإنما من ذرية مخلوقات أخرى خلق سلفها الأول من الطين؟ والله لا يقبل بهذا الهذيان إلا من ختم الله على قلبه كما ختم على قلبك يا عدو نفسك! عندما يقال بدأ خلق الإنسان، فمن الواضح الجلي أن المراد نوع الإنسان! نوع الإنسان كله كان ابتداء خلقه من الطين، وهذا يعني بالبداهة أن أول فرد من نوع الإنسان كان ابتداء خلقه – بعينه - من الطين! وأما الدراونة فيعتقدون أن الإنسان مولود من ذرية نوع من القردة الراقية، نشأ بدوره عن قردة أقل ترقيا، وهكذا وصولا إلى الخلية الأحادية التي نشأت في بركة عفنة في الماضي السحيق، فاتفق لها أن تحولت من الموت إلى الحياة بلا مرجح! فوالله مهما أكدتم على دلالة "بدأ" وأرخيتم في دلالة "ثم" لتجعلوها بليون بليون سنة، فلن تفيد الآية سامعها إلا بالنقض عليكم، والله المستعان على ما تصفون!

فصل في قول يوسف زيدان إن نفخ الروح في آدم إنما هو تطور جين اللغة!

ثم قال زيدان في استخفاف بالغ بعدما استعرض خيالات وأوهام رسامي التطوريين في رسم صور الأنواع المزعومة سلفا للإنسان، التي تسمى بالقردة العليا Hominids، وبعدما ذكر زعم الدراونة أن اللغة والقدرات

اللغوية إنما نشأت في Homo Sapiens قبل أربعين ألف سنة بسبب طفرة الجين المسمى FOXP2: "بس من أربعين خمسين ألف سنة، حصل فجأة، فجأة، حكاية FOXP2، اللغة. طيب يا سيدي! أنت متدين؟؟ على عيني وراسي! ((ونفخنا فيه من روحنا))؟ طب هي دي النفخة!" اهـ. قلت: والله ما أتصور أن مسلما في قلبه أصل الإسلام يتكلم عن القرآن بهذا الاستخفاف، ولا حول ولا قوة إلا بالله! يا جهول، لم يقل الله تعالى في آدم "نفخنا فيه من روحنا"، وإنما قال: ((ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)) [السجدة : 9] وقال: ((فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ)) [الحجر : 29] ولكن من الذي يبالي؟؟ هو يعلم أن أكثر جمهوره أجهل بالقرآن منه على أي حال![114] فتأمل الاستخفاف بمبدأ الدين نفسه! خذ "العلم" كما هو وأنت ساكت، واجعل الدين في قلبك، أما دنياك فدعها "للعلم" وأهله! فإن كنت متدينا، "ولو أنت مزنوق قوي يعني"، تأول القرآن كما يحلو لك، وأنت ترتاح! هذه هي خلاصة نصيحة المدعو يوسف زيدان في مسألة العلاقة بين نظرية داروين واعتقاد المسلمين! والله لقد رأيت من زنادقة وجهمية العصر ما لا أكاد أحصيه عددا، ولم أر أحدا أجرأ على كتاب الله من هذا الرجل، عامله الله بعدله!

ثم إنه كذلك جاهل بالنظرية التي لا يبالي ما يفعله المسلم بكلام ربه من أجل أن يلبسه بها! فمسألة جين اللغة هذه مسألة لا تقوم على أساس علمي صحيح البتة! فغاية ما هنالك أنهم لما لاحظوا أن المصابين ببعض الأمراض في النطق واستعمال اللغة، كثير منهم اتفق أن كان لديه تشوه في ذلك الجين المذكور، استنتجوا وجود ترابط ما Correlation بينه وبين الأداء اللغوي للإنسان (من حيث الحركات الدقيقة لعضلات الوجه، التي تسمح للإنسان بالتلفظ بالتركيبات اللفظية المعقدة). فكان هذا هو أول جين يتوصلون إلى ارتباطه وظيفيا بالأداء اللغوي في وجه الإنسان. وهذا هو غاية ما عندهم من "إثبات" في المسألة! فبناء على ذلك، وبناء على أن الجين نفسه لا نظير له في تركيبه البروتيني في غير الإنسان، وبناء على تأريخهم أقدم نقوش في كهف من الكهوف بمائتي ألف سنة، وتأريخهم بداية ظهور نصوص مكتوبة وعلامات تدل (في نظرهم) على استعمال اللغة بتوسع، بحوال أربعين ألف سنة، بدأ عمل الوهم الدارويني، فذهب الخيال بالدراونة إلى ادعاء أن القدرة اللغوية في الإنسان لابد أنها "نشأت" قبل أربعين ألف سنة من طفرة أحدثت فيه ذلك الجين، كما لم يحدث لغيره من الأنواع، ومن ثم بدأ الإنسان يتحول من كائن أبكم، أو بالأحرى يصدر أصواتا لا يدري لها معنى، ويضرب على الكهوف أشكالا لا يعلم كيف يعبر عنها بلسانه، إذ يعتمد على طريقة القردة في التواصل بعموم، إلى كائن له لغة وطريقة أرقى

للتخاطب مع أقرانه من بني جنسه! فانتخبت الطبيعة ذلك الجين، بالنظر إلى كون حامله أكثر حظا من التناسل والتكاثر!

ونقول إن هذا هو محض الهراء، لأنه إن صح أن نشأ ذلك الجين بالطفرة، فأصبح صاحبه هو الوحيد الذي يملك القدرة على الكلام باللغة كما نفهمها، فهذا لا يمكن أن تنشأ منه لغة البتة! وذلك أن نمط التواصل الاجتماعي ونسقه فيما بينه وبين أقرانه لابد أن يظل هو النسق الذي يفهمونه هم ويتعاملون به فيما بينهم، لأنه هو ما تعلمه منهم من الصغر، فيظل هو ما يعلمه أبناءه من بعده وهم أبناءهم وهكذا مهما امتدت بهم الأجيال، من غير أن يظهر ما يدعو أحدهم لرفع مستوى مهارة التخاطب وتعقيدها حتى تنتقل من طريقة القردة في التواصل إلى أن تصبح هي طريقة بني آدم التي نسميها باللغة والتواصل اللغوي! فلو صح أن كانت نشأة اللغة بهذه الصورة التي يفترضها الدراونة على عادتهم في التوهم والهذيان، لما نشأت اللغة أصلا إذ ما كان ليوجد أي داع لانتخاب ذلك الجين على الإطلاق!

ثم إن أصحاب التفسير الدارويني لنشأة اللغة يقولون، على إحدى نظريتين كبيرتين عندهم في تلك المسألة، يقال لها نظرية التكيف Adaptation Theory، إن اللغة نفسها ترقت في الإنسان بالانتخاب الطبيعي! فبدأ الإنسان أولا بوضع ألفاظ صعبة أو إصدار أصوات خشنة غير واضحة لوصف المخاطر التي تواجهه، لما شعر بالحاجة للاستغاثة بغيره من بني جنسه أو الاستعانة بجهودهم الجماعية، فلم تبق تلك الألفاظ ولم تنتخبها الطبيعة لأنها لم تنفع أصحابها في تحقيق التواصل المطلوب ومن ثم السلامة من تلك الأخطار، فلم يتناسلوا لينقلوها إلى نسلهم من بعدهم! وهو ما يقتضي أن تكون اللغة على خرافتهم تلك قد نشأت كلفظة واحدة منحطة، ثم ترقت لتتزايد الألفاظ، ولتترقى الألفاظ نفسها في الأداء الصوتي، بالنظر إلى الفائدة البقائية Survival Advantege التي تتصور لاستعمال اللفظة، لا أكثر ولا أقل! أي أن التواصل اللغوي إنما نشأ لتحقيق أسباب البقاء للنوع، وهذا ولا شك اختزال وتسفيه بالغ حتى للغات أكثر الحيوانات انحطاطا في دينهم، فكيف بلغة الإنسان؟؟

ثم إنه كذلك يترك البشر قبل الارتقاء المزعوم للغتهم، عراة عن أدنى وأحط صور التواصل اللغوي بين المخلوقات الحية، إذ حتى القردة تجد ما تتواصل به على نحو يكفيها للسلامة من المخاطر وكذا، فلا وجه لقولهم إن الإنسان – الذي كان قردا على عقيدتهم – ترقت فيه اللغة أخيرا بظهور حروف أعقد وتراكيب صوتية أعقد من لغة القرد التي كانوا عليها، لأنهم أصلا ما كانوا ليحتاجوا إلى ذلك التعقيد والتركيب، وما كان ليؤثر في أسباب البقاء النوعي للإنسان لأنه يفترض فيه حالئذ أن يكون معتمدا في ذلك على اللغة القردية

التي كان عليها أسلافه، وإذن فليس ثمة شيء تنتخبه الطبيعة أصلا حتى يقال إن اللغة البشرية نشأت بالانتخاب الطبيعي!! فسواء ظهرت في جيناتهم ومواصفاتهم الخلقية عوامل تمكنهم من تعقيد الأداء اللغوي وترقيته أم لم تظهر، فما دامت الحاجة الحيوانية الأساسية التي تحصل في إطار مجتمع القردة قد أشبعت من طريق أساليب التواصل اللغوي بين القردة، فلا يتصور دخول الانتخاب الطبيعي كآلية لترقية لغة الإنسان من أصل لغة القرد إلى ما هي عليه اليوم!

ولهذا زعم ناعوم تشومسكي وستيفن جاي غولد في نظرية أخرى بديلة أن اللغة لم تترق بالانتخاب الطبيعي بسبب تحقيقها ضروريات البقاء كما يزعم أصحاب تلك النظرية، وإنما نشأت كأثر جانبي Side effect لنشأة مهارات ذهنية وعضوية استعملها الإنسان في أغراض ارتقائية أخرى وانتخبتها الطبيعة من أجل تلك الأغراض، لا من أجل الأداء اللغوي الذي مكنت منه الإنسان! فعندما تضخم التجويف المخي في جمجمة أسلافنا إلى حد يسمح بظهور الوصلات العصبية الدقيقة التي تمكن الإنسان من التفكير بصورة أعمق وامتلاك أفكار وتصورات للعالم أعمق – بزعمهم – مما عند الحيوانات أصحاب الجماجم الأصغر حجما، واتفق أن كانت عضلات الوجه تسمح بإحداث أصوات أعقد وانطباعات بالوجه أكثر تلونا، نشأت اللغة على أثر ذلك بتتابع الطفرات العضوية التي مكنت البشر من ممارستها.

وبصرف النظر عن أسطورة الحجم المخي هذه وعلاقتها بالرقي العقلي والفكري، فالحق أنه لا يمكن افتراض نشأة داروينية للغة كما يعرفها البشر، سواء على نظرية غولد وتشومسكي أو على نظرية الانتخاب والتكيف، وذلك أنه حتى تكون للغة قيمة ما، فلابد أن يكون المجتمع قد نشأ من الابتداء وجميع أفراده يتفقون على فهم مفرداتها وتراكيبها ومعانيها على نفس الفهم، ولا يتصور للغة (على المفهوم البشري) أن تنشأ تطفرا في فرد فذ من أمة كاملة من مخلوقات لا تتواصل إلا كما تتواصل القردة والنسانيس!! أو أن تنشأ تدريجيا، بحيث يظهر فيها أصوات بدائية أولا، ثم تتعقد تلك الأصوات بتتابع الطفرات وتراكم الخبرات، حتى تبلغ اللغة درجة التعقد التي نعرفها اليوم في لغاتنا! إذ مهما وجد الإنسان الأول جهازه الصوتي مؤهلا وكانت فيه القدرة العقلية على ضبط الأصوات في تلك الحروف الدقيقة التي يقدر الإنسان على الكلام بها، فإن قدر أنه ولد من ذكر وأنثى لا يتكلمان ولا يتواصلان إلا تواصل القردة، ولا يحققان أغراضهما من التواصل إلا بذلك، فلا قيمة لشيء من تلك القدرات الجديدة عنده إذن البتة، وسيعيش عمره كله ويموت وهو لا يتكلم إلا كما تعلم من أبويه، لأن اللغة إنما تكتسب بالتعلم الاجتماعي Social Learning، لا أنه يولد فرد فذ في

مجتمع ما من المخلوقات التي تتواصل فيما بينها بمنطق ما، ثم يدعوهم ليعلمهم هو كيف يتواصلون معه باللغة التي اخترعها هو بقدراته الجديدة!

فلو قدر أن كان هو الفرد الوحيد من أبناء نوعه الذي تطورت فيه تلك القدرات، فما كان ليجد شيئا يستعملها فيه أصلا، وإن قدر أن نشأ معه بنفس الطفرة كثيرون عندهم نفس القدرات، فكلهم إذن ناشئون في مجتمع قد استقر التواصل فيه على نحو معين لا يلجئ إلى استعمال تلك القدرات، وكلهم متعلم من أصوله (الآباء) طريقتهم في التواصل لا غيرها، فعلى جميع التقديرات، فليس يصح في العقل طريق لنشأة اللغة بالتطفر! لأن العقل يوجب أن ينشأ المجتمع (أي مجتمع لأي نوع) وطريقة التواصل بين أفراده معلومة لديه من أول يوم، وإلا فمهما وقف أحدهم يحدث الأصوات والإشارات أمام صاحبه فلن يفهم منه شيئا ولو بعد مئة سنة!

فإن قيل إنه إنما طور اللغة وعقدها لما أصبحت له صناعات يدوية وآلات يستعملها ويحتاج إلى أن يدعو أقرانه لمعاونته في صنعها واستعمالها، فبدأ عقله المتطور يدعوه لممارسة سلوكيات اجتماعية جديدة أكثر دقة وتعقيدا من سلوكيات القردة العليا، وهو ما استدعى تطور اللغة لديه، قلنا إن هذا يعاني من نفس المشكلة، مشكلة التفرد بتطفر قدرات عقلية جديدة ليست عند أحد من الأقران من أفراد النوع، فإن صاحب تلك القدرات إذن يصبح عاجزا عن توصيل أفكاره الناشئة عن تلك القدرات إلى غيره، سواء استطاع أن يخترع تركيبا لغويا بالغا من التعقيد ما يناسب تلك الأفكار أم لم يستطع!! ومهما انتشرت جيناته المتطورة بين أقرانه بالتناسل، فمن الواضح أن نمط الحياة القائم عليه مجتمع القردة (الملائم للغاية التي من أجلها خلق القردة على ما خلقوا عليه) ليس فيه ما يدعو القرد المتطور المزعوم لأن يتصور – أصلا - أي استعمال لتلك القدرات الجديدة التي لم تكن عند أسلافه! فهو إنما تربى على نمط حياة أسلافه! فسيظل ولابد، مهما تطور جسديا وعقليا، قردا يأوي إلى الكهوف والحفر، يلتقط الثمار ويصطاد الوحوش، ولا يجد داعيا لتكلف التفكر والتأمل وإعمال الذهن في شيء وراء ذلك البتة! ولن يكون من المنطقي أن نتوقع منه ذلك، وهو القرد سليل القردة الذي لا يجد ما يدعوه للترقي بمعرفته بأسباب الأرض فوق ما يناسب حياة القرد التي تربى عليها!

والقصد أنه لا اللغة ولا العقل يتصور ترقيهما من سلالة القردة العليا المزعومة حتى يبلغ القرد منزلة الإنسان! فتلك النظريات يدعي أصحابها – في حتمية فجة - أنه بمجرد ظهور القدرة الجسدية والاستعداد الذهني لبناء الحضارة في نوع من أنواع القردة، فلابد أن تظهر الحضارة واللغة والميكنة ويبدأ تراكم العلوم والمعارف المكتسبة بأنواعها! أي أنها تجعل من مجرد

وجود القدرة الفزيقية سببا كافيا أو تعليلا تاما لظهور اللغة المتقدمة والحضارة البشرية في نوع من "القردة العليا" يفترض فيه أنه عاش لقرون طويلة بل لآلاف السنين دون الحاجة لشيء من ذلك، ولو بصورة أولية بدائية! وهذه مغالطة اختزالية واضحة!

والقول بأن اللغة نشأت بالطفرة الداروينية في فرد من أفراد الهوموسابينز، هو في الفساد نظير قول ابن جني وغيره بنظرية الوضع اللغوي، جريا على أصول المعتزلة الذين نفوا عن الله تعالى صفة الفعل في قوله ((علم آدم الآسماء)) فلم يجدوا إلا تلك الخرافة ليجعلوها أصلا للغات البشر! فعندما يقال إن اللغة كلها نشأت بالتواضع بين ثلة من الحكماء، اتفقوا على أن يسموا كل شيء باسم (أي جملة حركات صوتية معينة) يصطلحون عليه، فبأي شيء صاروا حكماء أصلا إن لم يعرفوا نوعا من المنطق يكون متفقا عليه من الابتداء ليتفاهموا به فيما بينهم؟ وبأي شيء كان يتواصل أولئك الحكماء حتى يتفقوا على تسمية كل شيء باسمه وضعا واصطلاحا؟ وبأي شيء يعمل المنطق العقلي نفسه إن لم يكن ثمة لغة ما، على نحو من الأنحاء؟ أيا ما كان طريقهم للتواصل والاتفاق فهو لغتهم التي لا يوجد – إذن – داع للإتيان بغيرها! وتعلم اللغة في الحقيقة ليس تعلما لأسماء الأشياء وحسب، ولكنه كذلك تعلم للروابط بين معاني تلك الأسماء (أو ما يسميه فلاسفة اللغة بالسيمانطيقا Semantics أو الدلالة والبناء اللغوي Syntactics). فمن الذي علمهم مبدأ التسمية نفسها والإشارة إلى الشيء بكلمة تناظره في الذهن، ودلالة الإشارة والربط بين تلك الأسماء بروابط معنوية لها لوازمها ومقتضياتها العقلية، ولها في اللغة ما يعبَّر عنها به؟ هذا كله كيف يتصور في العقل أن يكون معدوما في بني آدم (أو في أي نوع حي بعموم) في الأصل ثم تجلس منهم ثلة لتتفق على "وضعه" اصطلاحا كما يتفق أهل صنعة من الصناعات على الاصطلاح على بعض الألفاظ في صنعتهم مثلا؟؟ أهل الصناعات يتكلمون بلسانهم الذي ولدوا عليه، وبه يتواضعون ويصطلحون لا بدونه! ولولا تعلمهم إياه من يوم مولدهم ما حصلت لهم صنعة أصلا حتى يتواضعوا على اصطلاحاتها! فالوضع الاصطلاحي عمل قائم باللغة التي يستمد منها ضرورة، لا أنها هي التي تنشأ به! ولا تستحدث الألفاظ الجديدة أو الاستعمالات الجديدة لألفاظ قديمة إلا في لغة قائمة بالفعل، فلا يعد ذلك دليلا على نشأة اللغة نفسها بمثل هذا الاستحداث، إلا كما يعد التغير في صفات أفراد النوع الواحد من الأنواع الحية دليلا على نشأة الأنواع كلها من الأصل بمثل هذا التغير! وكلاهما استدلال فاسد لنفس السبب المنهجي الكلي: قياس المغيبات تغييبا مطلقا على ما في الشاهد!

ثم إن المنطق اللغوي نفسه إنما يكتسب بالتعلم لا بالاختراع. فالإنسان (أو أي نوع حي لديه قدرة على التواصل اللغوي) يخلق بنفس مهيئة وفطرة وجبلة عقلية قد ركبت فيها مقومات العقل ومعارفه الأولية (القبلية) الأساسية تركيبا، بحيث إذا ما تعلم اللغة، تعلم كيف يضع تلك المعاني وعلاقاتها وروابطها دلالاتها ومقتضياتها في قوالب صوتية وحركية معينة، اكتملت عنده آلة العقل بذلك، وأصبح قادرا على العبارة عن معارفه الفطرية وعن نشاطه العقلي بما يناسب الغاية التي خلق من أجلها. أما أن ينشأ فرد من ذلك النوع ليس لديه لغة البتة، وإنما لديه المقومات الفطرية لمبادئ العقل، ثم يجتهد في إنشاء لغة لنفسه يعبر بها عن أفكاره، فهذا غير متصور! ومهما فرضوا أنه تنشأ لديه القدرة على الربط بين الأشياء والأصوات أو الألفاظ بحيث يجعل لكل شيء اسما، فإن هذا يستصحب ولابد بناء لغويا سابقا عليه يفهم به الناس مبدأ الربط بين الاسم والمسمى من الأساس، بحيث إذا أراد أن يُفهم غيرَه أن لفظة "كذا" تعبر عن هذا أو ذاك المسمى، استطاع أن يُفهمه معنى الإشارة والربط باستعمال إشارات أخرى! فعندما أريد أن أعبر عن هذا المعنى فأريد أن أقول: هذا الشيء اسمه "كذا"، فمن الواضح أنه لابد على الأقل من إشارات لها دلالة مرتبطة بها سلفا في المجتمع المعين الذي أريد أن أوصل هذا المعنى إلى بعض أفراده، بحيث يفهم المخاطب منهم أن تلك الحركات الصوتية التي تصدر اللفظة "كذا" من فمي، ترتبط بالمشار إليه ارتباط الاسم بمسماه! وإذن فلابد – لا محالة – من وجود لغة قائمة بالفعل عند هؤلاء، قد تعلموها سلفا، حتى يتصور استحداث أسماء جديدة في إطارها. وإلا فلا فائدة من تسمية الأشياء بأسماء معينة، بل لا يقع ذلك أصلا، إن لم يكن لدى القائم به قدرة على العبارة عن الأزمنة والضمائر والأفعال والصفات والإشارات وغير ذلك من مكونات المنطق اللغوي السوي، المناسب للغاية التي خلق نوعه من أجلها!

والقصد أن هذه النظرية (الوضع اللغوي) خرافة كبرى لا يتسع العقل لقبولها! وكذلك أي نظرية يأتي بها الدراونة في محاولة تفسير ظهور اللغة داروينيا، وللأسباب نفسها! نحن ما رأينا اللغة تكتسب إلا بالتعلم، فعلى أي قياس يؤسس اللغويون أو الطبيعيون نظرية في نشأة اللغة نفسها، وبأي مستند يسوغونه؟؟ وكما أن المعتزلة قالوا بالوضع اللغوي لما عطلوا صفة الباري في قوله تعالى ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا)) [البقرة : 31]، فكذلك الدراونة قالوا بالتطفر اللغوي (نشأة اللغة بالطفرات الجينية) لما عطلوا الباري عن جميع صفاته، فكان لزاما أن تكون نشأة اللغة أمرا طبيعيا ليس له سبب غيبي البتة! [115]

والاعتقاد الحق في "نشأة اللغة" الذي يجب أن يكون عليه المسلمون، هو أن الله تعالى علم آدم عليه السلام الأسماء كلها، بعدما نفخ فيه من روحه، فعلمه أسماء الأشياء كما علمه الألفاظ الدالة على العلاقات الرابطة بين المعاني وعلى اللوازم والمقتضيات المعنوية وغير ذلك مما تكتمل به اللغة عند الإنسان، قال تعالى: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) [البقرة : 31]، وكان لسان آدم (والله أعلم به، أي لسان كان!) هو أول لسان تكلم به الناس يوم أنا كانوا على عهده أمة واحدة، ثم أنشأ الله الألسنة الأخرى في البشر بعدما تفرقوا على نحو غيبي لا طريق للغويوين ولا للطبيعيين لافتراض الأقيسة في تصوره! وعند أهل الكتاب أن الله قد بلبل ألسنة الأمم في بابل بعد الطوفان في قصة الله أعلم بصحتها، فلا نثبتها ولا ننفيها، ونفوض لله تعالى العلم بسبب تباين اللغات وتفرق الأمم بعدما كان الناس في الابتداء أمة واحدة بلغة واحدة (لغة آدم وبنيه).

ولا صحة لاعتقاد الطبيعيين الدراونة بأن الدواب والأنعام لا تعرف اللغة ولا تعرف لشيء من الموجودات اسما تربطه به في أذهانها، ولا تتخاطب فيما بينها بما يمكن اعتباره لغة! هذا منهم جهل سببه طبيعيتهم ونفيهم الغيب وما فيه! [116] فهم لما كانوا لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا، وكانوا قد اتخذوا كتاب الله وراءهم ظهريا، ظنوا أن عجزهم عن فهم منطق الدواب والحيوانات يدل على عدمه عندهم، فجعلوا – على عادتهم - عدم العلم لديهم علما بالعدم، ((بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)) الآية [يونس : 39] وأسسوا أصلا مفاده أن تلك الكائنات كلها لا عقل لها ولا لغة ولا معرفة على أيما صورة أو اعتبار، إلا ما ظهر لنا بالقياس على علومنا نحن ومعارفنا نحن وألسنتنا نحن أنها تتحلى به من ذلك! ثم أخذوا يصممون التجارب والدراسات الساعية لاستكشاف ما إذا كان أفراد النوع الواحد يتواصلون فيما بينهم أم لا، وإن كان فما صفة ذلك التواصل وما هيئته، فأصبحت تصوراتهم تتغير بالتدريج بإكساب هذا النوع أو ذاك مزيد من المهارات التواصلية والمعرفية كلما دلتهم المشاهدات بالقياس على طرف من ذلك، خلافا للأصل العدمي الذي أصلوه! وأما نحن المسلمون فنعلم أن الله قد خلق الدواب كلها أمما أمثالنا ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)) [الأنعام : 38] وأن منطق الطير بالغ من الدقة والإحكام مبلغا عظيما، لا تكاد تفرق بينه وبين منطق الإنسان، حتى لقد خلد رب العزة في كتابه ذكر هدهد وكلامه، كما في قوله: ((وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ

بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)) [النمل 20-24] وكذلك كلام نملة بين يدي رسول من رسله كان قد علمه منطق الطير ولغات الدواب، إذ قالت: ((حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا)) الآية [النمل : 18 - 19]!

فجميع الدواب والأنعام قد علمها الله منطقا تتكلم به فيما بينها، بحيث لو قدر للإنسان أن علمه الله كيف يفهم ذلك المنطق لفهمه، ولوجده يعلم أسماء كثير من الأشياء، على لغته هو ولسانه! قال تعالى ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)) [الأنعام : 38] وقال جل شأنه: ((تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) [الإسراء : 44] وقال سبحانه: ((الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)) [الفرقان : 2]! ولا شك أن في تعليم آدم الأسماء ميزة وزيادة لم تكن فيما علمه الله للدواب من قبله بل ولا فيما علمه الله للملائكة، كل منها بحسبه، وإلا ما قال تعالى: ((قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)) [البقرة : 33] فهو عليه السلام قد عُلم من الأسماء ومن طريقة البناء اللغوي ما يناسب الغاية التي من أجلها خلق، فاستحق بذلك أن تؤمر الملائكة بالسجود له.

ولا شك أن تعليم الله جل وعلا داود وسليمان عليهما السلام منطق الطير والدواب كان أمرا خارقا للعادة، ولكن لو لم يكن للدواب منطقا توضع به المعاني في تلك القوالب الرصينة التي جاء القرآن بحكايتها، ما كان من فائدة لتعليمهما ذلك المنطق، ولا كان من منة ولا نعمة من الله تعالى عليهم في ذلك! فثمة منطق لكل نوع من الدواب والطيور والحيتان في البحر، الله أعلم به، وثمة لغة وكلام وتفاهم وتحاور بالقدر الذي يحتاج إليه كل نوع في حدود الغاية التي خلق من أجلها، وعلى النحو اللائق بها. وليس من الممكن لنا معاشر البشر أن نقف على معرفة كيفيات تلك اللغات، ولا أن نفك شفرة المنطق واللغة التي يتكلم بها كل نوع من تلك الأنواع، ليبني المعاني المركبة كتلك التي تكلم بها الهدهد وتلك التي تكلمت بها النملة! وعندنا في لسان العرب أن القول والكلام لا يلزم أن يكون بالصوت وحده، ولهذا عرفنا اللغة على أنها كل مجموعة من الأصوات أو الحركات أو الإشارات أو

الأفعال تتخذ علامات على معان معينة بالتعلم، فيفهم بها أفراد النوع الواحد بعضهم بعضا. وبطبيعة الحال، ولأن الغرض الذي خلق من أجله كل نوع من تلك الأنواع الحية يختلف اختلافا بينا عن الغرض الذي خلقنا نحن البشر من أجله في هذه الحياة الدنيا، وطبيعة وهيئة كل نوع من الأنواع تختلف بما يلائم ذلك الغرض ويناسبه ويليق به، كان لزاما أن تكون كيفيات التواصل والتخاطب والكلام في كل نوع مختلفة عن غيره من الأنواع اختلافا يليق بذلك ويناسبه!

ولذا فمع كوننا نثبت للدواب لغة ومنطقا يسامت منطقنا البشري في جملة كبيرة من الموضوعات، ونثبت للحمار – أعزكم الله - حكمة وعقلا يفوق عقول الدراوونة كافة مجتمعين (إذ حسبك فيه أنه يوحد رب العالمين والدراونة ينكرون وجوده!)، ونثبت لها كذلك سجودا وذكرا وعبادة لله تناسب أنواعها وصفاتها، إلا أننا كذلك نقول إن محاولات الطبيعيين البائسة لاسكتشاف لغات تلك الدواب لن تبوء إلا بالفشل ضرورة، ولن يبلغوا – مهما بلغوا – إلا قشورا لا تعدو أن تكون إشارات عابرة ورموزا سطحية، لا يوصل منها إلى فهم بنية اللغة ومنطق الكلام نفسه! وذلك أنهم مهما أرادوا وحاولوا استكشاف منطق الحيوانات، فلن يجدوا إلا بعض الارتباطات أو التلازمات الظاهرية في سلوكيات تلك الحيوانات والأصوات أو الإشارات التي تحدثها من أجل ذلك يقيسونها كلها على منطق البشر وطريقتهم في التواصل اللغوي والرمزي، وهذا قياس منقوض من الابتداء! فمن السفاهة والسخف والمغالطة الفجة أن يأتي هؤلاء ليقولوا إن الحيوانات لا تعرف اللغة والكلام أصلا، وأنما هي خاصية من خصائص بني آدم قد ارتقت فيه بالطفرة أو بغيرها!

وأسفه من ذلك وأخيب، ما تراه من بعضهم عندما يسمع هذه الآيات التي سقناها إليك عن كلام الهدهد وقول النملة، فيسخر ويهزأ ويقول: "تأملوا أساطير القوم وقصص كليلة ودمنة، النملة تتكلم والهدهد يتكلم!" ونقول له: يا سفيه، لو لم يكن منطق الهدهد والنملة وطريقة كلامهم أمرا مغيبا عن عموم البشر، وأنت منهم، ما كان من فضل ومنة على سليمان وداود عليهما السلام أن رفع الله عنهما ذلك الحجاب الغيبي وعلمهما ذلك المنطق! فما حيلتنا نحن فيك وأنت أيها الجاهل الأبعد تريد أن تفرض جهلك على من آتاه الله من العلم ما لم يأتك ((بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)) الآية [يونس : 39]؟؟ يظن السفيه منكم في جهله أنه حتى يكون للدابة لغة وكلام، وحتى يصح أن يتكلم الهدهد وأن تخطب النملة في قومها بتلك المعاني التي أثبتها القرآن، يظن أن هذا لا يكون إلا بأن يكون للهدهد والنملة فم ولسان وشفتان، وأن يكون لهما يدان يشار بهما عند

الكلام، وأن تخرج الجمل من فميهما من حنجرة كحناجرنا، مرتبة كترتيب جملنا وكلامنا، بحيث إن أردنا أن نسمع كلام هذا أو تلك، كفانا أن نضع مكبرا للصوت عند رأسه أو رأسها، ثم ننظر ماذا نسمع!! فهذا وأيم الله سفه وخفة في العقل لا تخفى! وما ذاك إلا لأنكم حكمتم على جميع المخلوقات سوى البشر بالحقارة والانحطاط الدارويني، وبأنها كلها بقايا وفضلات من محاولات الطبيعة البائسة لترقية الأنواع حتى تبلغ درجة الهوموسابيينز عند رأس السلم، بحيث إذا بلغته أخيرا، بلغ المخ منزلة من الحجم والسعة والتعقد تسمح بظهور اللغة ومهاراتها! فإذا نظرتم في الأنواع ولم تروا لها تخاطبا كتخاطبنا ولا كتابة ككتابتنا ولا حضارة كحضارتنا، قلتم إن هذا يثبت صحة نظريتنا، ثم رجعتم علينا بالتسفيه إذ استندنا إلى خبر العليم الشهيد الذي أحسن كل شيء خلقه، في إثبات أمر غيبي لا تطيقونه ولا تتصورونه! فبالله أي الفريقين أحق بالتسفيه إن كنتم تعقلون؟؟

وهذا يرجع بنا إلى مشكلة التعريف، كما لا يخفى على القارئ الفطن، تلك المشكلة التي هي آفة الآفات عند الفلاسفة. ما هي اللغة؟ على أشهر التعريفات السائدة أكاديميا عند اللغويين المعاصرين، فليست جميع طرق التواصل المفهمة للمعاني المراد العبارة عنها، داخلة تحت مفهوم اللغة! وهذا ضرب من التحكم في التعريف لا يخفى! أرأيت لو أن قوما اتفقوا فيما بينهم على أنهم كلما أرادوا العبارة عن معنى معين، أحدثوا له حركة معينة بأصابعهم، ألا تصبح تلك الحركة إذن هي الكلمة المعبرة عن ذلك المعنى؟ بلى! فأي مانع يمنع من أن يكون الاسم (اسم الشيء) حركة لعضو من الأعضاء أو جملة من الحركات أو الإشارات أو ربما أن تكون رائحة معينة يطلقها المخلوق من غدة من الغدد على نحو معين، في سياق علامات أخرى معينة بما يفهم أقرانه من نفس نوعه أن هذا هو المعنى المراد؟ أي مانع في العقل يمنع من دخول تلك الأحوال كلها في مفهوم اللغة؟ لا شيء إلا الفلسفة الداروينية التطورية التي قصرت مفهوم اللغة على طرائق البشر في التواصل فيما بينهم، حتى إنك لن تجد كلمة Language في أي معجم من المعاجم إلا وقد كتبوا في تعريفها إنها طريقة البشر في التخاطب.

لست أقرر بهذا أن اللغة البشرية ليست هي أرقى اللغات على الإطلاق إذا ما قورنت بطرائق الأنواع الأخرى في التخاطب، وإنما أردت أن أبين أن الطبيعيين ليس لديهم أساس للإثبات هنا إلا الأسطورة الداروينية الدهرية في نشأة الإنسان نفسه! وإلا فإن اخترتم معاشر الطبيعيين تعريفا يخرج طرائق التخاطب بين الحيوانات عن مفهوم اللغة، فعلى أي أساس ذهبتم ذلك المذهب؟ نحن المسلمين نقول إن الأنواع الأخرى لها لغات تناسبها

وتليق بها، والله أعلم بها. قال تعالى: ((وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ)) الآية [النمل : 16]، فصرح بأن للطير منطقا وكلاما، وقد مر بك كلام الهدهد الذي جادل سليمان والنملة التي تبسم من قولها، وإذن فلا ينبغي أن نقبل دعوى أن اللغة أو المنطق ومبدأ الكلام إنما هي مما اختص به الإنسان دون غيره من الأنواع الحية.

وعلى أي حال، وحتى لا يطول بنا الاستطراد، فالحاصل أن أي زعم بأن اللغة قد نشأت بالتدريج بالطفرة أو بغيرها، سواء عند الإنسان أو عند غيره من الدواب، (كأن يقولوا إن الطيور – مثلا – اكتشفت التخاطب ووسائل التواصل فيما بينها صدفة فانتخبتها الطبيعة فبقيت) أو حتى أنها نشأت فجأة على أي نحو سوى أن يكون هو تعليم رب العالمين الفرد الأول من كل نوع ما يحتاج إلى معرفته من الأسماء والحروف والتراكيب اللغوية حتى يعلمها هو أبناءه من بعدها، كما علم آدم عليه السلام الأسماء كلها، فهو كذب وجهالة، بدلالة العقل والنقل جميعا، والمخالف فيه لا يستند إلا إلى عدم العلم، يصيره علما بالعدم! يجب على المسلم أن يعتقد اعتقادا جازما أن الله تبارك وتعالى خلق كل نوع على أكمل ما تكون عليه صورته من أول يوم، وعلمه وألهمه من المعارف ما به يحصِّل مصالحه ومنافعه ويجلب الرزق الذي كتبه الله له، وتتم به الغاية المقصودة من خلقه على أكمل ما يكون، بما في ذلك – ولا شك - تعليمه الطريقة التي يتخاطب بها ويتواصل بها مع بني جنسه! قال تعالى: ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)) [طه : 50] وقال تعالى: ((وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ)) [الأنعام : 38] وقال جل شأنه: ((إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) [هود : 56] وقال تعالى: ((وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ)) [النحل : 49] وقال تعالى: ((وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)) [العنكبوت : 60]

أما تجويز الدكتور زيدان أن تكون هذه الطفرة المزعومة التي نشأت بها اللغة على وهم الدراونة وخرافتهم، بل على ما توهم هو (بفهم سطحي ساذج كما ترى) أنه قولهم وظنهم، أن تكون هي الروح التي نفخها الله في آدم، فهذا هراء من ثلاثة وجوه على الأقل، أولها أن الدراونة ليس عندهم أن اللغة نشأت فجأة بعد أن لم تكن، كما توهم الدكتور أن اكتشافهم ذلك الجين المذكور قد أداهم إليه، ولا يتفقون على نظرية واحدة في الكيفية التي نشأت بها اللغة ولا رجاء لديهم في أن يتفقوا أصلا، وثانيها أن جميع المخلوقات التي فيها حركة فيها روح بالضرورة، ومنها القرد الذي يزعم

الدراونة أن الإنسان من نسله، فسواء وجدت اللغة (على مفهوم الدراونة الاختزالي الجاهلي) أو لم توجد، فوجود الروح أمر مستقل! وأما ثالثها فهو أن الله ذكر في القرآن أنه سبحانه نفخ الروح في أبينا آدم عليه السلام بعد أن كان مخلوقا من طين وصلصال، فدل على أنه تحول من الموت إلى الحياة على أثر تلك النفخة لا قبلها، وأما العقيدة الداروينية ففيها أنه مولود لأب وأم من نوع منحط (وحاشاه عليه وعلى سائر النبيين الصلاة والسلام)، كما يكون الميلاد من البطون والأرحام في عادتنا، أي أنه نزل من بطن أمه حيا، مكتمل الخلقة، ولم يكن صورة ميتة مركبة الطين والصلصال ثم مكثت حتى ينفخ فيها الروح! فأين يأتي نفخ الروح في صورة آدم على هذا الاعتقاد الدارويني الذي يستخف الدكتور بالغ الاستخفاف بعقولنا، يدعونا لأن نلبسه بديننا على أيما وجه كان؟؟ لا يبالي الرجل ولا يعنيه ولم يحاول حتى أن يتوقف ليسأل نفسه تلك الأسئلة! فليخترع الناس فيها ما يحلو لهم من الأجوبة، إن كانوا ولابد فاعلين، أو إن كانوا متدينين! وإلا فدع القافلة تمضي ولا تعترضها ببنت شفة، وإلا جلبت على نفسك الوصمة وعلى دينك الدمار!

والقصد أن القضية لها أبعاد أغور بكثير مما عرضه الدكتور زيدان في استخفاف واستهانة لا يباريه فيها إلا دعاة الإلحاد والتنصير! ولو أنه قرأ أدبيات القوم وسجالات الفلاسفة واللاهوتيين وغيرهم في تلك القضايا أو تعرض لجانب منها ولو يسير، بل ولو تعرض لأدبيات الطبيعيين أنفسهم، الذين التقط عنهم اسم هذا الجين، لما سفه المسألة على هذا النحو، ولفهمها كما ينغي أن تفهم، ولما تكلم وكأن كل من حاول أن ينتقد شيئا من النظرية أو حتى حاول أن يتجهم ويتقرمط على نصوص الدين ليقرر تأثيرها على اعتقاد المسلمين، فهو متكلف ما لا داعي لتكلفه، وكان حقه أن يترك المسألة كما هي، ليلحد من يلحد ويضل من يضل ولا إشكال! فالرجل لا فرق عنده بين أن تثبت ربا بالغيب أو أن تنفيه، وإن أثبتّه فلا فرق عنده بين أن تعطله عن جميع صفاته فتحيله إلى عدم محض، وبين أن تعطله عن بعض صفاته فتتركه عليلا قاصرا، وأن تشبهه في جميع صفاته ببعض خلقه فتحيله صنما أو بهيمة أو صانعا أعمى، أو غير ذلك! ولا إشكال عنده في أن تفهم القرآن اليوم على وجه ثم غدا على وجه غيره، ثم تأتي في اليوم الثالث وتقول لا يعجبني شيء مما ذهب إليه الناس في فهم القرآن، بل لا أبالي ما يريده الله من هذه الآية أصلا، سواء عندي فهمتها أم لم أفهمها، كل هذا لا يعنيه ولا يبالي به كما لا يخفى، والأمر عنده هزؤ في هزؤ، ولا حول ولا قوة إلا بالله! المهم أن "تأخذوا العلم" أولا، ثم بعد ذلك اصنعوا بالدين ما يحلو لكم، أو اتركوه بالكلية ولا عليكم من شيء!

يقول بعدما ذكر كتاب "أبي آدم" لشاهين وسلسلة نظرية التطور لعدنان إبراهيم وغيرهما: "يا جماعة، أنتم مدخلين ده في ده ليه؟" فقال عمرو أديب: بيحاولوا يوجدوا نقطة التقاء! فقال: يا أستاذ عمرو الالتقاء ده، ده خناق مش التقاء! يا جماعة المؤمن يؤمن، واللي يلحد يلحد، مالناش دعوة! بس العلم علم! والإيمان إيمان! وده ما يلغيش ده! وإذا عايز يا أخي أدلة، يعني أو .. طب، خلقناكم أطوارا! هي دي مش في القرآن؟ طيب واللي شوفناهم السلالات دي مش أطوار؟ فقال عمرو: أطوار آه! فقال: طيب! يعني .. الذي أحس .. طيب، وهو.. تبارك الله أحسن الخالقين! هو أحسن الخالقين! طيب يا أخي قول إن الطبيعة أحد أدوات الخلق! فيقال عليها خالق بالمجاز! بالاستعارة عن الخالق الأصلي! هو مش قال لك، ما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإن أحببته كنت عينه التي يرى بها، ويصبح ربانيا يقول للشيء كن فيكون؟؟ ماهو كن فيكون دي خلق!! بس الله هو أحسن الخالقين! ده لو أنت مزنوق قوي يعني! بس أنا رأيي، مشي العلم في مشواره، وخلي الدين في قلبك عشان يبقى دافي وحلو وتبقى كائن ..... آآآآآ ...." اهـ.

قلت: داروين قال بأطوار تتعاقب، والقرآن فيه كلمة "خلقناكم أطوارا"، إذن لا بأس بأن نجعل هذه هي تلك، ثم ننام قريري العين! ما أسهل هذا! ثم ألا تجد في القرآن أحسن الخالقين؟ فلنجعل الطبيعة خالقا ينتخب ويصنع ويطور، ولتكن هي إحدى أدوات الخلق بالمجاز، أو إن كان لا يعجبكم المجاز، فاجعلوها استعارة! لا تصلح؟؟ اجعلوها تشبيها! لا إشكال! أي شيء، المهم أن تجدوا لها مصرفا في كتابكم! ثم لا بأس بأن نلتقط حديثا صحيحا (قوله: "لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه" الحديث) ونلصق به حديثا مكذوبا موضوعا (ومتنه: "عبدي أطعني تكن عبدا ربانيا تقول للشيء كن فيكون")، بل محض شرك وكفر، إذ يجعل العبد شريكا للرب في أخص خصوصيات الربوبية، ألا وهي الخلق بكلمة التكوين، ثم نقول: العبد الرباني هذا الذي يقول للشيء كن فيكون، ألا يكون خالقا بذلك؟؟ فيقال بلى! فنقول إذن هو يخلق والله يخلق والله أحسن الخالقين!! وكل هذا طبعا "لو أنت مزنوق قوي يعني"! وإلا، فخل الدين في قلبك وأرح نفسك وأرحنا!

فهل رأيت زندقة أعظم من هذا؟؟ نسأل الله السلامة!

قال الدكتور عمرو شريف في كتابه "كيف بدأ الخلق" (ص. 277): "ولكن متى نطق الإنسان بالكلام؟ إن الإجابة عن سؤال متى تعلم الإنسان الكتابة أمر سهل، فهناك "حفريات كتابية" يرجع عمرها إلى حوالي عشرة آلاف سنة. أما الإجابة عن سؤال "متى تكلم الإنسان؟" فهي في منتهى الصعوبة، إذ لا توجد حفريات كلامية يمكن بها تحديد بدء ظهور هذه المقدرة." اهـ.

قلت: وهنا مغالطة في الاستدلال بالحفائر جديرة بالتنبيه عليها! وذلك أننا إن قدرنا صحة نظرية تقدير الأعمار Dating Theory التي استعملت في تقدير تلك المدة المذكورة، وكانت تلك الحفرية هي أقدم ما اكتشف من كتابات البشر على جدران الكهوف، فكيف يكون ذلك دليلا على أن الكتابة إنما نشأت في نفس ذلك اليوم التاريخي الذي نحتت فيه تلك الكتابات الحفرية بعينها؟ هذا على أساس أن أول من تعلموا الكتابة، لابد وأنهم سارعوا إلى أقرب كهف لينحتوا فيه شيئا يدل الأثريين في القرون اللاحقة على أنهم قد تعلموها أخيرا؟؟ طرق في الاستدلال تضحك منها الثكالى! مع أنه لا يمتنع، عند التحقيق، أن تكون تلك النقوش لعبا ولهوا من صبي صغير اتفق له أن مر على ذلك الكهف مر الكرام، قبل مئة أو مئتي سنة مثلا، فاكتشفها هؤلاء السفهاء وطبقوا عليها نظرياتهم في تقدير الأعمار الحفرية فإذا بها تصبح – لسخافة ما فيها من رسومات – دليلا على أن الذي رسمها لابد وأنه فرد بالغ من نوع حديث عهد بالترقي من القردة العليا، وأحسن الله عزاءكم في العقل! إن اكتشافا كهذا غايته أن يدلهم على كون الكتابة قد عرفت في أمم البشر قبل ذلك التاريخ (أيا ما كان)، أما قبل ذلك بكم؟ فلا يسعهم إلا أن يقولوا: الله أعلم! وإذن فالحفريات لم تجب – حتى على ما تقدم من التنزل مع طريقة القوم في تقدير الأعمار الحفرية – عن السؤال "متى تعلم الإنسان الكتابة"، وما كانت لتجيب! بل يبقى الجواب غيبا محضا لا يعلمه إلا الله، ولا يوصل إليه من طريقنا.

ثم قال الدكتور في نفس الصفحة: "ولا شك أن نشأة المقدرة على الكلام عملية معقدة، سبقتها نشأة مراكز داخل المخ لتقييم البيئة المحيطة، وعندما تمكن الإنسان من ذلك، بدأ في التواصل عن طريق "الإشارات" باليد والوجه، والتي قد يصحبها إصدار بعض الأصوات." اهـ. قلت: فعلى عقيدتك يا دكتور، هذا القرد الذي كان يتكلم بتلك الطريقة، تراه هو الجد الأول أم الثاني أم العاشر أم الخمسين في سلف أبينا آدم عليه السلام؟؟ نسأل الله السلامة!

عدنان أوكتار (المشهور في بلاد المسلمين باسمه المستعار "هارون يحيى") كاتب تركي ذائع الصيت، يزعم مريدوه وأتباعه أنه رأس الحربة في مقاومة الإلحاد والفلسفة المادية المعاصرة. وقد نشرت مؤسسته تحت هذا الاسم "هارون يحيى" إلى اليوم ما يزيد على ثلاثمائة كتاب!

وقد تتلمذ أوكتار وأصحابه في تركيا على رؤوس طائفة "التصميميين" اللاهوتية الأمريكية، لا سيما "هنري موريس" – وهو مؤسس ما يسمى "بمعهد أبحاث الخلق" Institute of Creation Research (ICR) في أمريكا - الذي زار تركيا أكثر من مرة خلال مساعيه في العثور على فلك نوح عليه السلام، والتقى بأوكتار وغيره من "الإسلاميين" الأتراك الذين رأوا في نظريات "الخلقيين" الغربيين طريقا مستحسنا لدفع المدّ الإلحادي داخل تركيا، ولإظهار التوافق بين "الدين" و"العلم" واستعمال "لغة العصر" في الترويج لمشروعهم الحزبي (الذي كان سببا في اعتقال أوكتار في بداية نشاطه كداعية) [117]. ومن هنا أسس أوكتار مؤسسته الدعوية وجماعته الحزبية التي سماها "مؤسسة البحث العلمي" (واختصار اسمها بالتركية: BAV) في سنة 1990 الميلادية لتكون بمنزلة "النسخة الإسلامية" لمعهد أبحاث الخلق الأمريكي، المحلاة بكثير من النفوذ السياسي داخل تركيا (الذي تنامى بنمو نفوذ الإسلاميين الأتراك داخل تركيا خلال العقود الأخيرة). وفي سنة 1998 عقدت تلك المؤسسة ثلاث مؤتمرات دولية "للعلوم الخَلقية"، استضافت فيها بعض رؤوس ذلك التنظير النصراني المستورد من أمريكا، أمثال "جون موريس" (وهو ابن "هنري موريس") و"ديفيد مينتون" و"إدوارد بودروه" و"كينيث كومينغ" وغيرهم.

وقد بلغ التوافق والتداخل والتعاون بين المؤسستين (الأمريكية والتركية) حدا مثيرا للشبهات على أقل تقدير، حتى اتُّهم أوكتار واتهمت مؤسسته بالسرقة الفكرية والنقل الصريح من كتب ومؤلفات أولئك النصارى! وقد حرصتُ على ذكر هذه التهمة بصيغة التضعيف والبناء للمجهول لأني لم أتحر الأمر بنفسي في هذا الشأن، فلم أتكلف مقارنة شيء من نصوص القوم بنصوص التصميميين النصارى حتى أستخرج بنفسي دليل النقل [118] والسرقة الفكرية، غير أني لا أستبعدها على الرجل وجماعته في الحقيقة فلا أثبتها عليهم ولا أنفيها عنهم، ولا أرى داعيا لتكلف البحث في ذلك أصلا! فمن الواضح الجليّ على أي الأحوال أن عدنان أوكتار هذا – وباعترافه على قناته الفضائية كما سيأتي - هو رأس التنظير والدعاية لمشروع حزبي طائفي ماسوني خطير، وأنه من أهل الأهواء والشهوات المغرقين فيها أشدّ

الإغراق، الحريصين على استعمال كل الوسائل (بما في ذلك متابعة اللاهوتيين الطبيعيين النصارى المعاصرين في تهوكاتهم في الطبيعيات) للترويج لنحلته الاتحادية الشركية الحداثية الأتاتوركية الخبيثة!

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن عدنان أوكتار مريض نفسيا وأنه عولج من الفصام والبارانويا في مصحة نفسية احتُجز فيها لعشرة شهور كاملة، وكان مرضه النفسي سببا في إعفائه من الخدمة العسكرية (التجنيد الإجباري). ومع هذا فهو يزعم في موقعه على شبكة الإنترنت أن سبب إدخاله المصحة أنه قال في بعض كلامه "إنه ينتمي إلى قبيلة الترك وإلى أمة الإسلام" وأنه احتجز في المصحة ظلما! وبعيدا عن ملابسات الأمر وعن داء الفصام نفسه وما إذا كان مصابا به على الحقيقة أم لا، فلا شك عندي في أن من يعتقد أن العالم كله وهم في وهم وأنه لا يوجد خارج الذهن إلا الله وحده، هذا مصاب بمرض عقلي أخطر من الفصام وأفسد للدين والعقل جميعا، مهما رآه الناس عاقلا ذكيا، وهو مرض لا يعلوه في خطورته وضرره على نفس الإنسان إلا مرض الإلحاد، الذي يروج عدنان لنفسه ولفرقته ومؤسسته أنهم قد جاؤوا للناس بطريق النجاة والسلامة منه، والله المستعان! وحقيقة ذلك المرض: الهوى المطبق على نفس صاحبه إلى الحد الذي تتحول معه الضروريات البدهية في نظره إلى أغاليط وأكاذيب أو إلى دعاوى نظرية تفتقر إلى برهان نظري تحصل به معرفتها في النفس كما ينبغي!

والرجل شبيه في طريقته الدعوية العقلانية الإفانجلية بالداعية المصري العصراني "عمرو خالد"، الذي سعى في تنظيراته وتأصيلاته لأتباعه إلى تحويل الإسلام إلى "دين حديث" (مودرن) يناسب أهواء فئة الأغنياء المترفين الذين يكرهون أن يفرض عليهم تدينهم كثيرا من القيود السلوكية والأخلاقية الصارمة [119]، وأن يجبرهم على مفارقة كثير من شهواتهم وعلى تغيير عوائدهم وهواياتهم .. إلخ. مع فارق واضح بين الرجلين في مدى إغراق كل منهما في مداهنة الأغنياء والمترفين وفي مداعبة شهواتهم، إنما جاء من تفاوت تأثير السياق الاجتماعي السائد والخلفية التربوية والاعتقادية على كل من الرجلين، ومع ملاحظة أن أوكتار قد اجتمع بين يديه من الأموال والنفوذ السياسي داخل تركيا ما لم يتمكن "عمرو خالد" من الوصول إلى إحرازه في مصر، على الرغم مما بلغه الرجل من شهرة واسعة وتأثير بالغ بين عامة الشباب في مصر قبل بضع سنوات، بل وعلى الرغم من تحوله إلى العمل الحزبي السياسي الصريح في السنوات الأخيرة. ففي الوقت الذي كان غاية ما تمكن "عمرو خالد" من إحرازه في طريق "تجديد الخطاب الديني" أن جمع بين الفتيات (وفيهن السافرات

المتبرجات) والشباب في قاعة محاضراته الدعوية مع تشجيع الفتيات على تزيين الحجاب وزخرفته وتحويله إلى "فاشون" تتنافس في تجميله وزينته فيما بينهن، حتى بلغ أن تحول إلى مجرد خرقة من القماش تجمع الفتاة فيها شعر رأسها (وهو ما يسميه العلماء والعقلاء في بلادنا بالحجاب البدعي)، استطاع أوكتار في المقابل أن يوهِّن من مشروعية الحجاب نفسها أشد التوهين [120]، وأن يظهر الداعين إليه على أنهم من المتطرفين المتشددين "ضيقي الأفق" الذين اختزلوا "مشكلات المرأة" في "غطاء الرأس"، وأصبح يفاخر بعصرية الإسلام وسماحته وجماله وإعلائه لقيمة الجمال واللذة .. إلخ، في برامجه التلفزيونية على قناته الفضائية الخاصة، مستعرضا مفاتن بعض النسوة الفاجرات اللاتي يجمعهن من حوله في تلك البرامج ليناقشهن ويلاعبهن بل ويتراقص معهن، مع التفنن في تأويل نصوص الكتاب والسنة على نحو لا يخلو من الإسفاف والإساءة البالغة لأنبياء الله ورسله حتى يصل إلى ما يريد من تسويغ (بل وأسلمة) تلك الشهوانية الفجة والانفتاح الغربي الفاحش الذي جاء به أستاذه الهالك أتاتورك، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله! [121]

والسبب في تلك المشابهة بينهما في تقديري أن كلا الرجلين تلقيا المنهج الدعوي من مصدر واحد (بالتقليد والمتابعة تارة وبالتعلم المباشر تارة أخرى)، وأعني بذلك المبشرين الإفانجليكيين واللاهوتيين النصارى البروتستانت الأمريكيين المعاصرين.

وقد كنت أعجب وأستغرب كيف بلغ الرجل ذاك الثراء الفاحش المفاجئ الذي مكنه من تأسيس مؤسسة كاملة لكتابة ونشر المؤلفات وتوزيعها بهذه الغزارة والانتشار في كل مكان في العالم، وبث الدعوة على الفضائيات ومواقع الإنترنت والإنفاق عليه هو نفسه وعلى حياته الخاصة (المغرقة في الترف والرفاهية!)، مع أنه لم يكمل تعليمه في "مدرسة الفنون الجميلة" ولم يعمل في حياته بتلك الصنعة ولا بغيرها يوما من الدهر، حتى مررت بتصريحه في بعض مقاطع الفيديو من برنامجه التلفزيوني المنشورة على شبكة اليوتيوب وعلى موقعه الرسمي بأنه "ماسوني إسلامي" من الرتبة الثالثة والثلاثين (وهي أعلى رتب التنظيمات الماسونية: السيد الكبير GrandMaster)، وبأنه مُنح هذه المرتبة من غير أن يطلبها ودون أن يشارك في طقوس ترسيمها، وأن هذه الرتبة فتحت له أبواب الانتشار العالمي كما لم يكن يحلم بها من قبل، وأنه يصلي الجماعة بأتباعه في "محفلهم الماسوني الإسلامي"! وتراه يفاخر في مقطع آخر بأنه على اتصال مباشر برؤوس التنظيمات الماسونية اليهودية والنصرانية، بل وقد استضافهم في برنامجه على فضائيته في حلقة من حلقاته وشهد لهم بأنهم

إخوة وأولياء وأحباء، وسمح لهم ببث رسالتهم التي أعدوها في صورة كلمة موجهة لمخاطبة المسلمين من خلال قناة أوكتار الفضائية، ودعوتهم لاعتناق بعض مبادئهم الكلية الداعية إلى الحرية والإخاء والمساواة: "حرية الفكر" والمحبة الإنسانية واحترام العلم والفن وإنكار الذات والعمل الخيري والإخاء التام بين أهل الأديان واحترامها جميعا على السوية دون تفضيل دين على الآخر .. إلخ! [122] وفي نفس الكلمة نفى القوم عن أنفسهم تهمة الإلحاد – بطبيعة الحال - وزعموا احترامهم جميع الأديان التي خلطوا تعاليمها خلطا على المزاج والهوى!

وبطبيعة الحال عقّب أوكتار على تلك الخطبة الطويلة التي ألقاها رئيس المحفل الماسوني الإيطالي بالموافقة التامة وبيان أن القرآن يدعونا لمسالمة المشركين من جميع الملل مطلق المسالمة ومحبتهم ورعايتهم وتسويتهم بالمسلمين في كل شيء، وذكر اعتقاده أن اليهود والنصارى والمسلمين سيكون اجتماعهم تحت المسيح عليه السلام عند نزوله، اجتماعا تستوي فيه تلك الأديان الثلاثة مع بقاء كل فريق منهم عليها وعلى اعتقاده في ذلك المسيح نفسه، وأن المسيح سيقبل منهم أديانهم على اختلافها، وأنه سيجمعهم جميعا ضد عدو واحد: الأعور الدجال (الذي يلزم أوكتار اعقتاد أنه لن يجد من يتابعه أصلا، لأن المسيح على تلك العقيدة سيجتمع عليه أهل سائر الملل التي يؤمن أصحابها بمسيح منتظر في آخر الزمان)! وأن هذا لن يحدث ولن يتمكن المهدي (والمسيح معه) من إقامة دولته على العالم كله (على ذلك التصور الأوكتاري الكمالي الشيطاني!) إلا من طريق مساعي الماسونية العالمية في ترسيخ وبث رسالة المحبة الإنسانية الشاملة المزعومة بين أهل الأديان كافة! فالماسونية بزعمه ستحول العالم كله إلى قرية واحدة كبيرة سعيدة ملؤها المحبة والمساواة والإخاء بين أهل الأديان، وحينئذ سيخرج المهدي ليقيم دولة "الاتحاد التركي- الإسلامي" الأتاتوركية الديموقراطية التي يؤمن بها أوكتار، ليحكم بها العالم كله من استنبول في تركيا (وهو تأويله لما جاء في الحديث من خبر بفتح قسطنطينية في آخر الزمان)، فيحكم (والمسيح معه) في أهل كل ملة بكتابهم ودينهم وبما يحبون من الشرائع والقوانين! [123] وكان تعقيبهم على كلامه – بطبيعة الحال - ببيان دعمهم الكامل والتام "للأخ عدنان أوكتار" ولمحفله التركي في مسعاهم لتحقيق "السلام العالمي الشامل"، بكل وسيلة يمكنهم بذلها!

كما قام أوكتار في مقطع آخر باستعراض الميداليات والأوسمة والشهادات التي حصل عليها من ماسونية إيطاليا ومن جماعة "فرسان المعبد" النصارى (وهي جماعة سرية شيطانية تتفق مع المحافل الماسونية في مساعيها

لإذابة أديان العالم بعضها في بعض)، واستعرض ميدالية منحها إياه الجيش الأمريكي مع إذن خاص له بإلقاء المحاضرات على الجنود الأمريكيين في قواعدهم العسكرية، وهو سعيد بذلك كله غاية السعادة وبأنها المرة الأولى في تاريخ الماسونية – بحسبه - التي يصل فيها "مسلم" لأن يكون سيدا لتنظيمه الماسوني "الإسلامي" الخاص المعتمد في محافل الماسون (!!)، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله! وما مثل ذلك عندي إلا كمثل رجل خرج على الناس بقوله: "أنا أول مسلم في التاريخ يبلغ أن يصبح بطريركا من بطاركة الكنيسة، ويُسمح له بإلقاء الدروس بحرية داخل الأديرة"!

وبطبيعة الحال فهو يزعم أن الإسلام لا يتعارض مع مبدأ إنشاء جماعة ماسونية سرية تسعى لتحريك الأنظمة العالمية في الخفاء لخدمة غاياتها العليا (المنحصرة عنده في نشر المحبة والإخاء بين أهل الملل، تسهيلا لقيام الخلافة الديموقراطية التركية بزعامة المهدي!!)، ولا يتعارض مع مبادئ الجماعات الماسونية اليهودية والنصرانية نفسها التي سمح للقوم ببثها صراحة في برامجه، وهي نفس الجماعات التي شهد بنفسه في بعض حلقات برنامجه بأنها لا تقيم وزنا لأي دين من الأديان أصلا، وأنها تقدم الإلحاد المحض لأعضائها من بعد استدراجهم إليه، حتى يصبحوا ملاحدة بمجرد أن يصلوا إلى المستوى الثلاثين، وإن كان يزعم تلبيسا أنها جماعات ماسونية إلحادية منافسة! فكيف يجتمع في الرجل الواحد أن يكون محاربا للإلحاد وداعيا إلى الإسلام من جانب (بل ومحذرا في بعض كتبه من خطر المنظمات الماسونية ومؤامراتهم الخفية)، وأن يكون هو نفسه – في نفس الوقت - رأسا من رؤوس الماسونية العالمية التي يشهد عليها بأنها إلحادية في منتهى غاياتها ومقاصدها السرية؟ الجواب أن هذا لا يكون إلا في زنديق منافق يلقى كل فئة من الناس بدينهم وبما يرضيهم، أو في مريض ذهاني مصاب بانفصام الشخصية! فكيف إذا اجتمعت الخصلتان في رجل واحد؟

ولا شك أنه كاذب إذ يزعم أن درجة "السيد العظيم" هذه لم يكتسبها بممارسة طقوس الماسونية، فمعلوم أن الرجل لا يصبح ماسونيا مبتدئا معتمدا في سلك الماسونية باعتماد رؤوس الملة، ولا يُسمح له بدخول محافلهم أصلا حتى يقسم على نفسه بالتزام شروطهم ونظمهم وخططهم وبكتمان كافة أسرارهم! فالأمر عند القوم ديانة واعتقاد وهم فيه في غاية الصرامة، بداية من انتقاء من يرونه صالحا لأن يكون عضوا في محافلهم، ليصبح أخا لهم في الدين والملة! حتى إن من طقوسهم في إعداد العضو الجديد أنهم يذيقونه شيئا من الإيلام بأداة حادة حتى يكون على يقين من استعداده للانضمام إليهم وحتى يكون على ذُكر بأنهم سيعذبونه أشد

التعذيب لو ثبت عليه إفشاء شيء من أسرارهم (كما يشهدونه على ذلك)! فكيف هم بمن بلغ أن جعلوه في أعلى المراتب والدرجات عندهم؟؟

في مدونة على شبكة الإنترنت خصصها أتباع عدنان أوكتار لنشر تفريغهم وترجمتهم بعض المقتطفات من كلامه في قناته الفضائية A9، يقول أوكتار (وهو مما بثته القناة في 1 أكتوبر 2011 الميلادية) [124]:

> لقد اجتمع سادة الماسونية في العالم، وقالوا: "المسيح عليه السلام أخبرنا بأن نتبع هذا الرجل الذي يحمل الإناء (وهو رمز ماسوني)، فهو أيضا يحمل إناءً، فاتبعوه وأطيعوه" قالوا: "لذا فنحن نتبع الحجة أيضا ونطيعه (يقصد نفسه)". لذا فهم يحترمونني غاية الاحترام بالطبع، نسأل الله الرضا. وهذا أمر مهم للغاية. فمثلا، أنا لم أضع هذه الأواني هنا (يعني في الاستوديو) بغرض الزينة. فهم يعتبرون ذلك الرمز الماسوني في غاية الأهمية، إذ يقولون: "هذا عندنا هو شعار الرجل الذي سينقذ العالم. فالرجل الذي يحمل إناءين من أواني الماء في استنبول (يقصدون المهدي بزعمه)، سوف نتابعه ونطيع أمره." وهذا كلام يعجبني للغاية ولا شك، نسأل الله الرضا! وكم أود لو كنت أنا هو (يعني حامل الأواني هذا، الذي يكذب على نبي الله عيسى ويزعم أنه أمر الماسونيين باتباعه إذا ظهر!)! ولكني لست إلا تباعا لحضرة المهدي عليه السلام! لست إلا تابعا ضعيفا لحضرة المهدي، "حامل الماء"! ولكن لأن الشمس تبدو كما هي في هيئتها عندما نراها عيانا وعندما نرى انعكاسها في المرآة، لهذا هم متأثرون (يعني بشخصه) كل هذا التأثر، إن شاء الله!

قلت: فهل هذا كلام رجل عاقل سوي النفس، يدري ما يخرج من رأسه؟

ويقول في حلقة بتاريخ (3 نوفمبر 2011):

> الله هو الذي يغير التاريخ، مستعملا الماسونيين كأدواته. وكذلك فرسان المعبد Templars. فلولا تلك التدخلات عبر مسار التاريخ، لبقي المسلمون بلا نشاط، ولما استغرقهم الجهاد المستمر. فالله يبني طريق الدجال على أيدي البشر، ويوقظ الناس من طريق الدجال! طريق الدجال هو أساس ضروري لطريق المهدي. فبدون طريق الدجال لا يمكن أن يظهر السلطان الإسلامي ولا أن يأتي "حضرة المهدي" عليه السلام ولا النبي عيسى المسيح عليه السلام! فأما طريق الدجال فمهمة الماسونيين الملاحدة أن يمهدوه له. الله يعطيهم تلك المهمة، وهم يمهدون الطريق لمجيء الدجال. وطريق الدجال يحفز المسلمين ليجاهدوا ويكافحوا بكل ما في وسعهم، ثم

يذهب المنتصرون إلى الجنة والمنهزمون إلى النار. فالماسونيون الملاحدة هم طائفة تنظر إلى الماسونيين المتدينين على أنهم خصوم يجب مقاومتهم، ولطالما كانوا (الماسونيون الملاحدة) طائفة قوية للغاية. ولم يبدأ الماسونيون المؤمنون بالله التحول من الدفاع إلى الهجوم إلا في هذا القرن الأخير. وسينضم الماسونيون المؤمنون بالله إلى صفوف النبي عيسى عليه السلام وحضرة المهدي عليه السلام. وهذا نراه واضحا من كلامهم. وكذلك فسينضم الماسونيون الملاحدة إلى صفوف الدجال.

قلت: فكما ترى، الرجل له سعي حثيث في إيهام السفهاء من أتباعه بأنه ساع في "أسلمة" النحلة الماسونية وتطبيق مبادئها الكلية لخدمة "المهدي" وتمهيد الطريق للمهدي، ولو أنك طالبته بدليل واحد من الكتاب أو السنة عن مشروعية السعي (سرا أو علانية) في "تمهيد الطريق لخروج المهدي ولتمكنه من العالم" كما يزعم أنه غايته العليا، فلن يجد! وإنما هو مطمع حزبي شيطاني استجاز من أجله كل بائقة، حتى صار يعد نفسه أول "سيد ماسوني إسلامي" في التاريخ! فهو يزعم أن طوائف "الماسونية المتدينة" هي التي تمهد الطريق لمجيء المهدي (الذي جعله رجلا تركيا كماليا ديموقراطيا من استنبول)، كما يمهد الماسونيون الملاحدة في المقابل (على حد زعمه) الطريق لخروج الدجال! بحيث إذا ما خرج المهدي كان "المساونيون المتدينون" على رأس أتباعه وجنوده، بينما كان "المساونيون الملاحدة" على رأس أتباع الدجال! ولا شك أن المسلمين مجمعون على أن المسيح عيسى عليه السلام ومعه المهدي لن يكون في دولتهما محل لغير المسلمين أصلا! ولكن هذا يخالف ما تدين به جميع الطوائف الماسونية على ظهر الأرض، الساعية في تغيير الملل كلها عند أتباعها بما يجمعهم كلهم في حظيرة واحدة تحت سلطان الشهوة واللذة المشتركة بين جميع فئات البشر! فكان لابد إذن من تزيين مساعي الفرق الماسونية العالمية مع التحذير من "المحافل المساونية الإلحادية" المزعومة في المقابل [125]، ثم بناء ترسانة من الكتاب والمفكرين تحت راية "هارون يحيى"، تعمل على تحويل أوكتار وفرقته الماسونية إلى أكبر جهة في العالم الإسلامي كله تظهر محاربة الإلحاد والتأليف في الرد عليه، حتى يبدو الرجل وكأنه فوق الشبهات، وحتى يُستدرج الحزبيون الإسلاميون ومن شاكلهم (كالإخوان المسلمين ومن لف فلهم) للترويج لبضاعته التي لم يسبقه إلى مثلها أحد من أهل القبلة، وحتى يتهيب العامة من مجرد التطرق إليه بالتشكيك ولو من بعيد، دع عنك الجرح والتبديع، دع عنك اتهامه على الإسلام بما هو أهله!

والمقصود "بالماسونيين المتدينين" في كلامه الآنف هو كل جماعة ماسونية يؤسسها قوم كان لهم انتساب أصلي أو إضافي إلى أي ملة من الملل فيما عدا الإلحاد، ولهذا يجعلهم قسيما للماسونيين الملاحدة كما ترى. ولا شك أن هذا اعتراف ضمني بأن تنظيمه وجماعته تمارس – بالضرورة – كافة صور الابتزاز والتزوير والتجسس والتلاعب بالخصوم والأتباع في سبيل توسعة دائرة النفوذ الخفي والتأثير على أصحاب الأموال وصناع القرار السياسي في كل مكان، لخدمة خطط وأهداف من سماهم "بالماسونيين المتدينين" كما هي فلسفة النحل الماسونية بعموم، وطريقتهم في إحداث ذلك "التغيير التاريخي" والتأثير في العالم الذي يتكلم عنه، وكما هو القاسم المشترك الأعظم – في المنهج العملي - بين كافة المجامع الماسونية في كل مكان! وقد سمعته يصرح في موضع آخر من برامجه الفضائية باعتقاده أن المحافل الماسونية الأولى في التاريخ إنما أنشأها النبي سليمان عليه السلام بقصد معاونة المهدي، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وكما هو متوقع أن يستغل أوكتار ميول الصوفية القبوريين (وهم النحلة الأكثر غلبة وانتشارا وعلوا في تركيا) ليدخل منها إلى قلوب الناس، فتراه يواصل الكلام في نفس السياق ويقول:

> فلا يزال الماسونيون الملاحدة يحاولون طرد واستبعاد الماسونيين المؤمنين بالله من المحافل، بإغلاقها على نفسها وسلوك مسالك مناقضة للديموقراطية. ولكننا نتابع ذلك كله عن كثب، ونعلم أنهم لن يحرزوا شيئا. فلا يزال الله يخلق ما ينقض عليهم مساعيهم. فمثلا، قد يأتي حظرَت الخضر عليه السلام بفعل يعمل لصالح الإسلام، فماذا يفعل؟ ثمة سفينة ما. فتراه يخرق تلك السفينة حتى لا تُغصب من أصحابها. فكذلك المساونيون هم جزء من دائرة نشاط حظرَت الخضر عليه السلام: إنه نظام تحت سيطرة حظرَت الخضر عليه السلام. لذا فليس هو نظاما قويا مستقلا بنفسه.

قلت: فهل رأيت أيها القارئ الكريم من الاستهانة والاستخفاف بعقول الناس ما هو أبلغ من هذا الكلام؟ الماسونيون الآن تحت إدارة الخضر عليه السلام وسلطانه وتدبيره، وهذا منه خير وإصلاح تماما كما أن خرق السفينة كان لغاية فيها خير وإصلاح وإن لم يظهر ذلك لموسى عليه السلام في حينه! لماذا؟ لأنه يفضي في النهاية إلى التعجيل بمجيء المهدي التركي المزعوم! فوالله ما أظن أن أحدا - حتى "دراويش" الطرقية والقبورية المخاطبين بهذه الجزئية تحديدا - يمكن أن تبلغ به سفاهته أن يقبل هذا الهراء! بأي عقل يقبل مسلم موحد زعما حقيقته أن الله تعالى قد زكي في القرآن رجلا وألجأ كليمه موسى عليه السلام للتعلم منه، مع كونه في نفس

الوقت مؤسسا لنحلة وثنية شركية محضة؟ بل كيف بمسلم يقبل دعوى أن سليمان وموسى عليهما السلام هما من مؤسسي تلك المحافل الشيطانية، نسأل الله السلامة؟ لا يمكن أن يقبلها مسلم عاقل أصلا، ولكن الرجل على أي حال يراهن على انبهار المريدين والمحبين بثلة المومسات والمحظيات اللاتي يستعرضهن في جميع برامجه، وبما هو شائع بين عامة الناس من انبهار وخوف من مجهول تلك المحافل السرية التي تزعم أنها كانت ولم تزل تدير مسار العالم كله من آلاف السنين، حتى يمرر في شأنها ما يحلو له من اعتقاد من غير أن يستوقفه أحد بالمراجعة أو حتى السؤال! فما دام يتكلم عن أمور "سرية للغاية" لطائفة لها هذه المنزلة في وهم العامة، وقد بلغ هو نفسه فيها تلك المنزلة والرتبة الرفيعة بين رؤوسها، فعلى الأتباع والمريدين أن يسلموا ويقبلوا دون تردد، حتى وإن كان الرجل يدعي أن من أنبياء الله من تلبس بإنشاء طوائف دينية وثنية شيطانية سرية في سبيل تحقيق خير بعيد المدى لا يدرك إلا في آخر الزمان!! عليهم أن يقبلوا منه هذه الباطنية الوثنية والكفر البواح إن كانوا يريدون السلوك معه في طريق "حظرَت المهدي" [126] التركي المزعوم!

وما دام الانتماء إلى المحافل الماسونية أمرا من الممكن إخفاؤه والإسرار به بين عموم الناس (وهذا هو الأصل فيه، أنه انتماء سري)، فلا شيء أسهل من الإشارة إلى بعض الشخصيات التاريخية التي كان لها تأثيرها في مجتمعات البشر، وادعاء أنها كانت في الحقيقة ماسونية، وأن جميع أعمالها التاريخية إنما كانت جزءا من خطط الماسونيين! فإذا كان صاحب تلك الدعوى رأسا من رؤوس المحافل الماسونية، فلن يجد المفتونون به سببا لتكذيبه أو مساءلته أصلا، مع أن من أصول دين الماسونيين المتاجرة بالكذب والتدليس وتحريف نصوص الأديان والملل واستغفال أتباعها، فمن جعل من الكذب على رب العالمين أصل أصول ملته، كيف لا يستحلّ الكذب فيما هو دون ذلك، لمصلحة يراها لنفسه أو لجماعته؟!

يقول أوكتار، في محاولة هزلية لتزيين اعتقاده بأن المساهمة في أعمال وخطط ومؤامرات الجماعات الماسونية "المؤمنة بالله" (على حسب تلبيسه الشيطاني)، خير وإصلاح، على الرغم مما يقع في أعمال الماسونيين (إجمالا) من إفساد في الأرض ومحاربة صريحة للرسل والأنبياء وأتباعهم:

> الماسونية هي مجتمع يجري تحت إرادة الله، مكون من بشر ضعفاء، يتوهمون أنهم يسيرون على خطة من اختراعهم هم، ولكنهم في واقع الأمر يتحركون على خطة من صنع الله. وكذلك إبليس نفسه إنما يعمل بعلم الله وفي حدود القدرة التي أتاحها الله له. فالماسونية تعمل في حدود القدرة التي منحها الله لها. فلابد أن

يوجد المضاد دائما لا محالة. فرعون نفسه كان ماسونيا، وقاوم النبي موسى عليه السلام بكل قوته. ولكنه أيضا كان يحتاج إليه. فالسبب في كون النبي موسى عليه السلام بتلك القوة أن الله خلقه على هذا النحو مستعملا فرعون كأداة. أو بعبارة أخرى، ما كان من الممكن أن يوجد النبي موسى عليه السلام لو لم يوجد فرعون. وكذلك النمرود كان ماسونيا، كان ماسونيا ملحدا. وقد جعله الله تعالى آلته التي بها أظهر نبيه إبراهيم عليه السلام. وقد كان للماسونيين وجود في زمان نبينا عليه السلام كذلك، وقد حاربوا الرسول بكل قوتهم. ولكن هذه المقاومة إنما زادت المسلمين قوة وبأسا، وكانت سببا في انتصارهم في النهاية. فلولا تلك المقاومة لبقي المسلمون ضعفاء! لقد ازداد المسلمون قوة عندما تعرضت العراق وأفغانستان للغزو، فلولا هذا لما اكترث المسلمون بعلو القيم الأخلاقية الإسلامية (يعني في هذا الزمان). فالله يستعمل الماسونيين لخدمة ذلك المقصد، وهو يسند هذه المهمة إلى حظرَت الخضر عليه السلام.

قلت: هذا الكلام حق يراد به باطل عظيم، وهو شبيه ببدعة الاستدلال بالقدر! فالرجل يريد أن يصل من إثبات إرادة الله الكونية وحكمته في ابتلاء الموحدين بالمشركين والوثنيين ودفعه الناس بعضهم ببعض، إلى تسويغ الانخراط في الأشنطة السرية لبعض تلك الطوائف والنحل الوثنية، بدعوى أن هذا من شأنه أن يفضي إلى خير عظيم في آخر الزمان! وما مثل ذلك إلا كمن يقول: لا بأس بأن ننخرط في نشاط عصابات المافيا أو أن نتعاون معها، لأنها لولا وجودها وانتشارها في الأرض ما أدرك المسلمون خطورة الجريمة وما عظمت لديهم القيمة الأخلاقية لتعاليم الدين الحنيف، وما أدركوا أهمية عمل رجال الأمن! ولا شك أن الرجل يدرك أن هذا التلبيس بخلط الإرادة الكونية بالإرادة الشرعية في مسألة الحكمة من وجود المفسدين في الأرض ومن شدة بأسهم وبطشهم في تقدير الله تعالى في خلقه، لا يوصل لتسويغ دخوله في دين الماسونية وانضمامه إلى محافلهم ورتبهم وطبقاتهم، فزين له شيطانه أن يستند إلى خرافة قبورية بشأن الخضر عليه السلام، ألا وهي اعتقادهم أنه لا يزال حيا وأن له نشاطا في عالمنا واتصالا بأولياء الطرقيين المزعومين، وبعامة الرسل والأنبياء والأقطاب والأبدال .. إلخ! [127] فليكن هذا هو نشاطه إذن، وليكن من نفس بابة خرق السفينة الذي جاء الخبر به في القرآن، ولم يدرك موسى في حينه حكمة الرب جلّ وعلا من تكليفه به! ولا بأس كذلك بتصوير الماسونيين – من هذا المدخل الشيطاني - على أنهم سبب كل خير أتى به المرسلون في تاريخ العالم، وإن كان من طريق غير مباشرة! فمن لم يقبل فكرة الانضمام

إلى الماسونيين على أساس أن شرهم وإفسادهم في الأرض هو سبب حصول الخير العميم ولو بعد حين، فليقبلها على أساس أن الخضر قد رسم خطة لا نعلمها ليجعل بها الماسونيين وأعمالهم طريقا للإعداد لمجيء المهدي، فمن ذا الذي يكره أن يكون جزءا من "خطة الخضر عليه السلام" وأن يعمل تحت تدبيره، حتى إذا ما ظهر المهدي في آخر الزمان كان هو سببا من أسباب تمكينه؟! فمن لم تعجبه هذه الذريعة ولا تلك، فليتأمل إذن فيما سيجلبه له الانضمام إلى تلك المنظمات السرية من مال وجاه وسلطان ونساء .. إلخ، لعله يطمع ويرغب، أو ليتأمل فيما قد يجلبه عليه الوقوف في طريق تلك المنظمات من خطر وتهديد لعله يرهب!

ولا يخفى ما في كلام الرجل من تناقض فجّ، إذ يقرر في مواضع أن الماسونية كلها شر ولكنه شر لابد منه، وفي مواضع أخرى يقرر أن المؤمنين منهم بالله (في زعمه) هم أخوة لنا وأن الانضمام إليهم في أعمالهم وخططهم، جهاد في سبيل الله! يقول:

> لو اتحد المسلمون على محبة بعضهم البعض، فلن يتهددهم الرأسماليون ولا الماسونيون ولا أي قوة من قوى إبليس. لا شيء من ذلك سيهددهم. وسيفشل الماسونيون الملحدون، وسينفتح الطريق أمام الماسونيين المخلصين (!!).

قلت: فما صورة ذلك الاتحاد الذي يفضي في النهاية إلى زوال خطر الماسونيين من طريقهم؟ صورته أن يتبعوا أوكتار وفرقته الماسونية في مسعاهم حتى يتحقق للماسونيين "المخلصين" مبتغاهم! يقول:

> لذا يتعين على المسلمين أن يكون لديهم حرص شديد على الاتحاد حول حظرت المهدي عليه السلام. فقد بين الله لنا علاج تلك المآسي والمفاسد التي نعاني منها في هذا العالم. وبين لنا ما سيفعله الماسونيون، وكيف نصلح الفساد الذي أحدثه الماسونيون والأشرار (ويقصد الماسونيين الملحدين كما هو واضح)، وذلك بالاتحاد حول حظرت المهدي عليه السلام. وعليهم كذلك أن يتحدوا حول المسيح عيسى عليه السلام في العالم النصراني. فمن اعتقد أن المهدي خرافة ووهم فلابد أنه يعتقد أن الماسونيين على حق، وأعني بذلك الماسونيين الملحدين. أما إن كان مؤمنا بكلام النبي، فلو اجتمع مع المسلمين حول طريقة المهدي فستمطر علينا الرحمات وسيتمكن الإسلام فورا من السيادة على العالم. وكذلك سيفرح الماسونيون ويرضوا، وسيفرح الصهاينة ويرضوا، والجميع سيندفعون للدخول في الإسلام! فعلى قادة العالم الإسلامي أن

يتوحدوا، بما فيهم قادة الشيعة وقادة الجعفرية والوهابية. فلنتحد جميعا على طريق المهدي. فبمجرد أن يحصل هذا الاتحاد على طريق المهدي، فستنتهي الماسونية من فورها!

وفي حلقة أخرى بترايخ (5 نوفمبر 2011 الميلادية) سأله أحدهم هذا السؤال: "هل يوجد ماسونيون يؤمنون بالله؟" فأجاب قائلا: "بالطبع، يوجد ماسونيون مؤمنون مخلصون، وماسونيون لادينيون. وأنا إنما أجاهد في سبيل دعوة الماسونيين اللادينيين ليصبحوا مؤمنين! كما أجاهد في سبيل تحويل أولئك المؤمنين إلى مسلمين صادقين متواضعين، ولا أستثني من دعوتي أحدا. لا أحد ينبغي أن يُدفع جانبا. فالله الأعظم لم يقل حتى في فرعون إنه يجب استبعاده (أي من أمة الدعوة). بل خوطب ودُعي حتى آخر لحظة." اهـ.

قلت: أين يا كذاب دعوتك الماسونيين إلى الإسلام؟ متى وأين خاطبتهم بالتوحيد وببطلان كل ما عدا ملة التوحيد التي جاء بها محمد بن عبد الله، ونهيتهم عن الكذب والتدليس على الناس وتلبيس الأديان والملل بعضها في بعض؟ متى حذرتهم من الشرك الذي هم عليه؟ لم ولن تفعل وما كنت لتفعل، وإنما طلبت منهم أن يدخلوك أنت في دينهم واقعا وتحقيقا، مخاطبا إياهم بوحدة الأديان وبتساويها جميعا في المنزلة واتفاقها في "طريق المهدي" المزعوم! فلما عرضوا عليك دينهم قبلته منهم فأدخلوك في صفوفهم وترقيت في درجاتهم الكهنوتية حتى صرت من كبرائهم، لقصد عندهم من ذلك أنت تعلمه! فمعلوم أن القوم لهم شروط صارمة في قبول من يجعلونه ماسونيا، فلولا أنهم يعلمون أن دينك الذي تدعو إليه هو أحسن ما يمكنهم أن يطمعوا في تحويل المسلمين إليه من الماسونية المقنعة بقناع الإسلام، ما قبلوك عضوا في محافلهم، فضلا عن أن يرقوك إلى تلك الدرجة عندهم! وكل من لديه أدنى دراية بحقيقة الماسونية يقطع بأنه لا يصير الرجل ماسونيا منخرطا في طقوس القوم وعباداتهم إلا بمفارقة ملة الإسلام بالضرورة! فهي ليست ناديا ترفيهيا أو مشروعا خيريا أو نحو ذلك، وإنما هي ملة وثنية مكتملة الأركان، بعقائد وعبادات ومعبد ومذبح وطقوس وكهنوت ومراسم وشعائر .. إلخ! حتى النصارى يُكفرون من يسمي نفسه "ماسونيا نصرانيا" ويرمونه بالهرطقة والثنية وعبادة الشيطان (وقد مر معنا كلام بعضهم في ذلك)، فكفاك كذبا وتلبيسا على السفهاء قاتلك الله! ما ظن عاقل في رجل يُظهر الإسلام، ثم يبلغ عند رؤوس الكنيسة النصرانية أن يقبلوا منه دينه بل ويمنحوه رتبة القمص عندهم (مثلا)، ثم تراه يأتي المسلمين بقوله: "إنما فعلت ذلك حتى أدخل إلى كنائسهم وأديرتهم وأخطب فيهم فأسمِعَهم دعوة التوحيد"؟ هل في ردة مثل هذا وكفره توقف

أو تردد؟ [128] رجل تعمد وتنصر وصار راهبا قسيسا حتى يدعو القساوسة في الأديرة إلى الإسلام!! فأي استهانة بعقول الناس هذه، وأي إله هذا الذي تدعو إليه يا أوكتار لعنك الله؟ ليس هو الله رب العالمين قطعا، إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وعيسى ويحيى ومحمد بن عبد الله، عليهم وعلى سائر النبيين صلاة الله وسلامه! وإنما هو "المهندس الأعظم" المعبود الماسوني الذي يعتقد أوكتار أن الطوائف كلها والملل كلها ستتفق على عبادته – كل منهم على دينه وطريقته، وكل منهم يسميه بما يدين به من أسماء الإله ولا إشكال - في محبة وسلام ووئام تحت سيادة "المنتظر" الذي سيقبل منهم تلك الأديان كلها، كما في اعتقاد الماسونيين! [129]

والمتتبع لكلام الرجل يجد أن إفراطه في عقيدة المهدي إنما يرجع إلى ماسونيته بالأساس! فنحن المسلمين نؤمن بأن الله تعالى قد أخبر نبيه بأخبار ونبوات عن أشراط الساعة، منها ظهور رجل صالح من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، واسمه على اسمه، يجتمع عليه المسلمون وترجع الإمامة في زمانه خلافة راشدة على منهاج النبوة، وأن المسيح عليه السلام سيصلي خلفه وسيقضي في الناس بالإسلام تحت إمامة المهدي. هذه النبوة بعينها جاء بها الأنبياء والمرسلون في جملة أشراط الساعة، كل منهم في أمته، فمن تلك الأمم من غلا وأفرط وبدل الدين والملة حتى صار من جملة عقائدهم الوثنية عبادة ذلك المهدي وانتظاره وجعله مدار الملة وعمود الدين، ومنهم من غلا وأفرط في الجهة المقابلة فكذب بتلك النبوات كلها وسفهها وأسقطها جملة واحدة! فنحن المسلمين لا ننتظر المهدي ولا ننتظر المسيح عليه السلام ولا ننتظر أحدا أصلا، وإن كنا نؤمن بما جاء به الخبر في نزول المسيح في آخر الزمان وفي ظهور المهدي! فلا يترتب على ذلك الاعتقاد عندنا عمل أو حكم مخصوص، فضلا عن أن يصبح "الانتظار" عبادة والعمل في سبيل "تمهيد الأرض لمجيء المنتظر" رأس الدين وذروة سنامه! وإنما ترى ذلك عند الوثنيين ومن سلك سلكهم ودار في مدارهم ككثير من طوائف أهل الكتاب وكالرافضة وبعض الفرق الباطنية القبورية المنتسبة إلى الإسلام، ومنها هذا الرجل وطائفته الماسونية الكمالية المتأسلمة!

ولا شك أن طريقه إلى إيهام السفهاء بأن الإسلام لا يتعارض مع أي شيء يدعو الناس إليه أو يأمر أتباعه به داخل تنظيمه السري، إنما هو القرمطة على النص بالتحريف والتأويل بالهوى والمزاج كما هي طريقة سائر الطوائف الباطنية والجهمية والمتفلسفة! والمتتبع لكلام الرجل في فضائيته التركية وفي لقاءاته مع من استضافوه في بعض الفضائات الأخرى يقطع بأنه ليس هو من كتب تلك الكتب الكثيرة المنسوبة إليه، بل يقطع بأنه لو

حاول حتى أن يقرأها فلن يقدر على ذلك أصلا! فنحن إذا بينا فساد المنهج الطبيعي والكلامي المستعمل في تلك الكتب بإجمال، فإنما نرد بذلك على مؤسسته بأسرها وعلى فريق الكتاب والمحررين الذين استعملهم الرجل تحت الاسم المستعار "هارون يحيى" لا عليه هو وحده. بل لعل الردّ يكون موجها بذلك إلى المنظرين واللاهوتيين النصارى الذين نقل أتباعه ومؤلفوه عنهم بالأساس!

وقد وقفت كذلك على ما قيل إنه تقرير المحققين من النيابة والشرطة التركية خلال الثمانينات والتسعينات من القرن الميلادي الماضي في اتهامات أخلاقية ومالية وُجهت إليه (كالدعارة واتخاذ المحظيات والابتزاز وغيرها)، وفيها ما قيل إنه اعترافات لبعض المنشقين عن جماعته السرية. ومع أن الرجل ينفي هذه الاتهامات كلها جملة وتفصيلا على موقعه، إلا أن منهجه المبثوث في كتبه ودروسه وموقعه نفسه وكلامه على برنامجه الفضائي فيه التصريح العلني بأنه يرأس طائفة دينية سرية! وهي طائفة ماسونية تبطن الزندقة والكفر المحض، وتُظهر في نفس الوقت نداءها بالدعوة الإسلامية المتحضرة المعتدلة الوسطية التي تحارب التشدد والتطرف والرجعية .. إلخ، وتدعو إلى المصالحة والموالاة التامة مع كافة اليهود والنصارى في العالم (وهو سبب اختياره الجمع بين اسم النبي هارون عليه السلام والنبي يحيى عليه السلام في ذاك الاسم المستعار الذي ينشر تحته مؤلفاته هو وأعضاء جماعته) وتستعمل "العلم الحديث" في محاربة الإلحاد!

والظاهر أن الماسونية العالمية – التي اتخذت من ذاك الزنديق المخبول بوقا لتحقيق أهدافها – قد باتت ترى نشر المذاهب التصميمية النصرانية والترويج لمنظريها بين جميع أهل الملل في هذا الزمان، حتى ترى المسلم (على سبيل المثل) وقد أصبح يتلقى دينه واعتقاده في كثير من الغيبيات عن لاهوتي نصراني أو متكلم يهودي، تحت ذريعة الاشتراك في مجابهة الإلحاد واستعمال العلم الطبيعي الحديث في إثبات الخلق والانتصار لحدوث العالم "ووجود الخالق"، وهو لا يرى في ذلك بأسا! فلا شك أن جميع أهل الملل – خلا الطبيعيين نفاة الصانع على اختلاف نحلهم وفلسفاتهم – يتفقون على وجود رب خالق بالغيب، وعلى أن السماوات والأرض وما فيهما مخلوقة كلها، ويتفقون على ضرورة مجابهة الإلحاد والملاحدة! وفي جهالة العامة والدهماء من أهل تلك الملل، لن يبالي الناس بمن يقيم برهانا نظريا لإثبات الخلق: من أي ملة هو ولأي دين ينتمي، وعلى أي أساس فلسفي يقيم برهانه، ما دام البرهان نفسه قد لقي قبولهم وإعجابهم! [130] وهذا حاصل بالفعل ونراه في كثير من المنتديات على الشبكة العنكبوتية، إذ ترى

العامة وأشباههم يتوافرون على ترجمة كتب اللاهوتيين النصارى الطبيعيين المعاصرين والنقل منها والاستناد إليها في الرد على الملاحدة العرب، وتراهم ينقلون مناظرات ومحاضرات وكتب رؤوس اللاهوت النصراني المعاصر أمثال "ويليام لين كريك" و"جون لينوكس" و"مايكل بيهي" وغيرهم، مع التعليق – على استحياء - على ما قد يظهر لهم من فساد اعتقاد اللاهوتي في بعض المواضع! فالذي يظهر من ذلك الدعم المعلن الصريح من المنظمات الماسونية لمؤسسات "هارون يحيى"، أن تلك المسألة لها في تقديرهم أثر بالغ في إذابة الأديان في بعضها البعض على النحو الذي يستهدفونه، فلينتبه لهذا، والله المستعان لا رب سواه!

تصريحه بوحدة الوجود وعدمية العالم خارج الذهن.

وللرجل مواضع شتى في كتبه ينتصر فيها لهذا الاعتقاد، يلبسه بلبوس العلم الحديث ونظريات الطبيعيين، مع زعمه في الوقت نفسه بأنه على اعتقاد أهل السنة والجماعة! ونكتفي هاهنا بموضع واحد منها [131]! ففي كتابه المسمى "خديعة التطور" (وهو من أكثر كتب الرجل انتشارا بين العامة وأشباههم والله المستعان!)، يتفلسف أوكتار – على عادته - في إطار مسعاه الحثيث الذي لا يخلو منه كتاب من كتبه في بث عقيدة وحدة الوجود (التي بلغ في تقريرها والتصريح بها حدا لم يجرؤ عليه شيخه الزنديق محيي الدين بن عربي نفسه!)، فيقول تحت عنوان: "نسبية الزمن وحقيقة القدر" [132]:

> يتضح لنا من كل ما سبق أنه لا يوجد في الواقع "مكان ذو ثلاثة أبعاد"، وإنما هو حكم ينبع تماما من الإدراك الحسي ومن الشعور، وأن المرء يقود حياته كلها في "اللامكان"، وتوكيد عكس ذلك ما هو إلا إيمان بالخرافات بعيد عن المنطق والحقائق العلمية، حيث لا يوجد دليل واضح على وجود عالم مادي ذي ثلاثة أبعاد. وتبطل هذه الحقيقة الفرضية الأولى للفلسفة المادية التي تشكل الأسباب لنظرية التطور، والتي تفترض أن المادة حقيقة مطلقة وأبدية، أما الفرضية الثانية التي تعتمد عليها الفلسفة المادة فهي كون الزمن حقيقة مطلقة وأبدية، وهذه أيضا خرافة مثل السابقة.

قلت: ويقصد من قوله "كل ما سبق"، ما قدم به قبل ذلك من تقرير عقيدة وحدة الوجود عند شيوخه، حيث قال:

> لقد نجح بعض المؤمنين بالله والفلاسفة في فهم هذه الحقيقة على مدار التاريخ. وقد أدرك بعض مفكري الإسلام مثل الإمام "رباني"، و"محيي الدين بن عربي"، و"مولانا كامي"، هذه الحقيقة من آيات القرآن الكريم وبإعمال عقلهم وتفكيرهم. وقد توصل بعض فلاسفة الغرب أيضا إلى الحقيقة نفسها من خلال العقل والمنطق. وقد كتب

الإمام رباني في رسائله أن الكون المادي بأسره هو وهم وخيال وأن الكائن الوحيد ذا الوجود المطلق هو الله: "إن الجوهر الذي خلق منه الله هذه الكائنات هو العدم، بل خلق الله الكون من أحاسيس وخيالات وهي ليست لها طبيعة مادية. وفي الحقيقة، لا يوجد شيء في الخارج سوى الكائن الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى."

لقد أوضح الإمام رباني أن كل ما يشاهده الإنسان ما هو إلا وهم خيال وليس له أصل مادي في الخارج. إن دائرة التخيل تنتقل في عقولنا فقط ونحن نراها بمقدار ما تنتقل، ولكن بالعين التي يرى بها عقلنا. وخارج هذا المحيط، يبدو لنا أننا نرى ولكن بأعيننا التي خلقها الله في رؤوسنا. ولكن الأمر ليس كذلك بالفعل، فهى ليس لها كيان مادي ولا يمكن اقتفاء أثرها في الخارج. فليس هناك ما يمكن أن نراه. حتى عندما نرى انعكاس وجه شخص ما في المرآة، فحتى هذا لا أساس له في الخارج. ومما لا شك فيه أن ثبات هذه الصورة التي نراها وانتظامها هو في خيالنا فقط. والله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم بواطن الأمور.

لقد توصل مولانا كامي إلى الحقيقة نفسها التي اكتشفها من خلال آيات القرآن وبالتفكير العقلاني المنطقي. كما كتب مفكرون عظماء أمثال رباني أنه ربما لم يكن من الحكمة إطلاع البشر على هذه الحقيقة حيث إن معظمهم لن يستطيع فهمها والاقتناع بها. وفي عصرنا هذا الذي نعيش فيه، أصبحت هذه الحقيقة ثابتة وتستند إلى الدلائل والبراهين بفضل إثبات العلم لها. إنها المرة الأولى التي تثبت فيها هذه الحقيقة بها الشكل القاطع والواضح والصريح الذي حدث في عصرنا هذا. ولهذا سيشهد القرن الحادي والعشرين نقطة تحول تاريخية عندما يدرك البشر جميعا الحقائق الإلهية وينقادون إلى طريق الله. فالقرن الحادي والعشرين يشهد زوال معتقدات القرن التاسع عشر – المعتقدات المادية – وفناءها في غياهب التاريخ، وسيدرك البشر وجود الله وخلقه، وسيفهم الجميع حقائق مثل انعدام المكان والزمان، وستتحرر البشرية من حجب القرون الماضية والخدع والخرافات التي تحيط بها. وليس لهذا المسار المحتوم أن تؤثر فيه أي كائنات وهمية.

وكلام الرجل فيه إجمال وفيه حق يراد به باطل شنيع وكفر محض! فقوله "لا يوجد في الواقع مكان ذو ثلاثة أبعاد"، إن كان يريد منه القول بأن مفهوم المكان نفسه مفهوم ذهني مجرد وليس شيئا حقيقيا خارج الأذهان (وإنما هو ما يطلق على نوع من أنواع العلاقات بين الأشياء الوجودية في الخارج)، وكذلك مفهوم الأبعاد الثلاثة في اللغة وفي الرياضيات، فصحيح إجمالا، ولكن

واقع الأمر أنه يقصد نفي الموجودات الواقعية في الأعيان فيما عدا ذات رب العالمين سبحانه، ليحيل تلك الموجودات كلها إلى أوهام وخيالات في الإدراك الذهني! فيكون المكان والزمان على ذلك تصورين ذهنيين لصفات وخصائص موجودات خيالية متوهمة في الذهن، وليسا تصورين ذهنيين لصفات وخصائص ولعلاقات بين موجودات واقعية خارج الذهن كما هو الصحيح عند سائر العقلاء! ولكن لغلو الرجل وإغراقه في عقيدة وحدة الوجود الوثنية، أبى إلا أن يتخذ من نفي الواقع الخارجي كله جملة واحدة وإحالته إلى الوهم الذهني الصرف = سلاحا لإسقاط المادية المعاصرة والرد على غلو أصحابها في المادة بنفيهم الغيب وتكذيبهم بما وراء الطبيعة.
لذا يقول: "وأن المرء يقود حياته كلها في اللامكان"، وهو كلام تغني حكايته عن تكلف إبطاله!
ولهذا كان من المضحك والمخزي حقا أن ترى من هكذا عقيدته (وهي ضرب من المثالية الطبيعية شديدة الغلو في تصور حقيقة الواقع Extreme Scientific Idealism لم يعتنقه من الفلاسفة إلا ثلة أصبحت تعد في كثير من الدوائر الأكاديمية المعاصرة من جملة المرضى النفسيين!)، يروم الانتصار لها باستعمال نظرية يمكن اعتبارها من أشد النظريات الطبيعية المعاصرة إغراقا في الواقعية الطبيعية Scientific Realism (أعني نظرية النسبية التي تحول الذهنيات المحضة إلى عينيات خارجية، وكذلك ميكانيكا الكم التي تحول الاحتمالات الذهنية إلى أحوال وجودية متباينة حاصلة كلها في نفس الوقت للجسيم الواحد Superimposed states)! هذا مثال باهر لسذاجة وسطحية كثير من المتكلمين المعاصرين من المنتسبين إلى الإسلام في فهم وتصور نظريات الطبيعيين! ففي الوقت الذي أخرج فيه أينشتاين الزمان والمكان من تجريدهما المعنوي في الأذهان ليجعلهما موجودا واقعيا مركبا خارج الذهن يسمى "بالزمكان"، ينكمش ويتمدد وينحني ويؤثر في الأجسام الواقعية تأثيرا جعله هو حقيقة الجاذبية ميتافزيقيا، جاء هذا الرجل ليتلقف بعض كلام أينشتاين نفسه بغية الانتصار به لعقيدة إنما هي في واقع الأمر الطرف الغالي في الجهة المقابلة لغلو أينشتاين في تصور الزمان والمكان، إذ تدفع بالموجودات الواقعية كلها من خارج الذهن حيث هي إلى الخيال المجرد والوهم المحض، حتى لا تترك في الواقع خارج الأذهان إلا ذات الله جل وعلا وحده، على قولهم "لا موجود بحق إلا الله"، كما في قوله في نفس الكتاب (ص. 236): ".. وهو إثبات أن العالم الخارجي كيان وهمي. إن هذا الموضوع هو أساس فهم وجود الله وإدراكه وخلقه لكل شيء، والإيمان بأن الله هو الكائن الوحيد الموجود وجودا مطلقا. ومن يتفهم هذا الأمر يدرك أن العالم ليس كما يظنه البشر. فالعالم ليس كيانا مطلقا له وجود حقيقي كما يظن هؤلاء .. "، إلى آخر ذاك الهراء!

من المهم في هذا السياق أن نبين للباحثين المسلمين المنهج الصحيح في التعامل مع ما يعده الخلقويون أدلة على صحة نظرياتهم في إثبات "المصمم". فلا شك أنه عندما يأتيك أحدهم بمثال المحرك الخلوي Flagellum Motor – مثلا – ويقول إن ما فيه من إبداع وضبط دقيق للوظيفة الجزيئية بحيث لو نزعنا أي جزء منه لم يقم بوظيفته، ثم أخذ يقارن وظائف أجزاء ذلك المحرك بمحركات البشر، يريد أن يظهر حكمة الله جل وعلا وعلمه وعظيم خلقه، فإن هذا عمل طيب لا بأس به، بل إنه عمل مندوب مطلوب، يدخل في عبادة التفكر في خلق الله جل وعلا، ومما يظهره الله للناس من آيات في الأنفس والآفاق. فإلى هذا الحد، يكون الكلام متوجها إلى حقائق جلية ظاهرة، فيكون مبناه على دعاوى مشاهدة Observational Claims وإثبات مقتضيات صريحة لتلك المشاهدات، وليس على دعاوى تأويلية للمشاهدات Interpretational Claims تتخذها سندا لنظرية غيبية معينة. فعندما يأتي بيهي بهذا المثال، ثم يقول إنه دليل على إثبات "المصمم الذكي" كآلية إضافية للاليات الداروينية في نشأة الأنواع الحية والنظم البيولوجية في هذا العالم، يحاول أن يثبت أنها تمتاز عن غيرها من النظم الحيوية بأنها لا يمكن أن تكون قد ترقت من أصل فاقد لبعض أجزائها التي لا تعمل ولا تقوم بوظيفتها إلا بها، فهذا النوع من الدعاوى التأويلية هو ما نمنع من التقاطه من تلك الكتب ونشدد في المنع، وهو ما سلكه بيهي نفسه في استعماله هذا المثال في كتبه، يجعله دليلا على صحة نظريته الطبيعية في نشأة الأنواع بالطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي والتصميم الذكي! وقد تقدم أن النظرية فاسدة باطلة من مبدأ التنظير نفسه، ولا يجوز قبولها أو الانتصار لها!

فلا يجوز للمسلم أن يتخذ من آية من آيات الله الباهرة في خلقه الدقيق، مستندا لإثبات صحة نظرية غيبية ما، أيا ما كان موضوعها، ومهما كان فيها من إثبات الصانع أو المصمم الذكي أو المعماري الأعظم أو نحو ذلك، ومهما كان الدراونة الدهريون ناقمين عليها محاربين أصحابها! فمعلوم أن العقلاء يقرون – إقرارا فطريا بدهيا – بأن سبب وجود هذا العالم وكونه على ما هو عليه لا على غير ذلك، إنما هو خالق حكيم يخلق ما يشاء ويختار، ولا يضع الشيء إلا في موضعه الصحيح، سبحانه وتعالى. فإذا سقنا إلى الناس بعض آيات الله في خلقه فإنما نسوقها من أجل التذكير وإحضار تلك الحقيقة البدهية في أذهان وقلوب المخاطبين، وليس من أجل أن نجعلها دليلا نظريا لإثبات وجود الباري نفسه من الأساس لدى السامعين، بناء على قياس غيبي ما! فإنها بذلك تتحول – بالضرورة – من كونها تلك الآية الباهرة الظاهرة

الجلية، إلى أن تكون مشاهدة تتنازعها نظريتان تأويليتان متساويتان في مبدأ الطرح العقلي نفسه ومبدأ الإثبات والنفي المعرفي، إحداهما تثبت صانعا بالغيب، والأخرى تنفيه! وإذا بما يفترض أن يكون آية جلية ظاهرة لا تترك العاقل إلا مقرا بعظمة ربه سبحانه وتعالى شاهدا له بالربوبية واستحقاق الألوهية وحده لا شريك له، إذا بهذا الشيء يتحول إلى مادة للجدال والأخذ والرد في الطريق النظري المسلوك رجاء إثبات دلالته على المخلوقية! وقد كان ذلك تحقيقا مع مايكل بيهي في هذا المثال تحديدا، إذ جادلة عليه الباحث الدارويني التمهيدي الكاثوليكي كينيث ميلر جدالا طويلا توصل منه – بمقاييس التجريبيين في هذه القضية، ومعاييرهم المعرفية التي سلم بها بيهي مبدئيا وألزم نفسه بها – إلى إسقاط نظرية التصميم الذكي وإلزام أصحابها بتركها والاكتفاء بالآلية الداروينية المحضة التي هي عند ميلر وغيره كافية لتفسير كافة صور الحياة على الأرض بلا استثناء!

فعندما نستخرج هذا المثال من كتاب بيهي، فعلينا أن نستخلصه من كل حجاج ينتصر به لنظرية التصميم الذكي ID Theory ومفاهيمها الكلية الداروينية التي أطلنا النفس في بيانها فيما مر معك، إن أردنا أن نعرضه للناس كآية من آيات الله في خلقه! فقد تحدى الله تعالى المشركين في القرآن بأن يخلقوا ذبابا، فإذا نحن عرضنا دقة تلك الآلات المذهلة في بناء الخلية الحية جزيئيا، عرضا نكتفي فيه بالمشاهدات المجردة ومقتضياتها البدهية المباشرة، فلا شك أنه سيكون في عرضنا ذاك ما ينصر ذلك التحدي القرآني ويبين أن البشر لن يستطيعوا أن يخلقوا موتورا خلويا واحدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا! ولا شك أن من المقتضيات المباشرة لما نشهده من نظام دقيق مركب في عمل كل مخلوق من مخلوقات الله في الأرض، بداية من الخلية الأحادية نفسها، ووصولا إلى النظام الحيوي بكليته، الموزون على الأرض بميزان دقيق لا ينخرم كما بيناه في محله، لا شك أن من مقتضيات ذلك الإحكام البالغ أنك لو قدرت فقد أي جزء منه على مستوى النوع الحي (أي أن يخلق النوع الحي وهو فاقد لجزء من أجزائه التي هو عليها الآن)، مع بقاء جميع عناصر النظام الأخرى كما هي (وأعني بالنظام هنا النظام الحيوي الكلي والنظام البيئي الذي يحتويه)، فلابد أن يتخلف النظام عن القيام بوظائفه وغاياته التي خلق من أجلها! ولابد أن يترتب على ذلك ما لم يكن في إرادة صانع النظام ولا حكمته فيما صنع! فإن قدر أن خلق نوع البشر – مثلا – بذراع واحد لا بذراعين، أو بذراعين ولكن من غير أن تكون أصابع الإبهام في يد الإنسان قابلة لمواجهة بقية الأصابع Opposable، أو بثلاثة أصابع لا بخمسة، فإنه يقينا لن يقوم بالغايات والمقاصد التي خلقه الله من أجلها في هذه الأرض! بل قد ذهب بعض البيولوجيين إلى أنه لولا الإبهام القابل للمقابلة هذا، ما نشأت للبشر حضارة أصلا! ونشأة الحضارة جزء من مقصود الخلافةِ في الأرض وإعمارها وابتلاء بني آدم بها كما هو معلوم. فلأننا

نقضي ببدهية أن يكون للبشر خالق بالغيب له غاياته وحكمه من كل شيء ركبه في خلقته، علمنا من ذلك ما علمنا، وجهلنا منه ما جهلنا، فإننا لا نختزل وظيفية أجزاء النظام الحيوي في مجرد الصلاحية للبقاء Survivability ونشر الجينات في الأرض! ولهذا عندما يتكلم بيهي عن النظم غير القابلة للاختزال، يجعلها قسيما لنظم أخرى قابلة للاختزال (على حسب الأسطورة الداروينية في ظهور الحياة في صور منحطة ثم ترقيها بزيادة التعقد Complexity)، فإننا لا نقبل منه هذا التقسيم (الذي كان هو طريقه التجريبي لإثبات دعواه من الأساس كما مر معك بيانه)، ولا نستعمل الأمثلة التي ضربها بيهي حتى لنقرر المعنى الصحيح فيما يتعلق بالتعقيد والاختزال، ألا وهو أنك إن قدر لك أن عرفت وظيفة ما من وظائف النظام الحي، سواء كان عضوا من الأعضاء البارزة تشريحيا أو كان ذلك على مستوى النشاط البيوكيميائي الحيوي في الخلية، فلابد أنك إن فككت شيئا من أجزاء ذلك النظام التي هي من ضروريات القيام بتلك الوظيفة، فلن يقوم النظام بها! وإذن فلا يعقل أن يكون قد خلق أول ما خلق للقيام بتلك الوظيفة، وهو مع ذلك فاقد لذلك الجزء الذي لا تقوم الوظيفة إلا به، إلا أن يكون خالقه جاهلا لا يدري ما يصنع! وأما إن كان النوع لا يحصل له حياة أو بقاء أصلا إلى بوجود جزء ما، فلا شك أنه لا يعقل أن يكون قد خلق أول ما خلق وهو فاقده، لأنه إذن لا يصير نوعا! وهذا المعنى وسابقه من البداهة والظهور بما لا يحتاج إلى تقرير، ولا نحتاج إلى استكشاف ما يسمى "بالماكينات الجزيئية" حتى نبينه، بل يكفي للعاقل أن ينظر إلى نفسه في المرآة أو أن ينظر في يديه وأصابعه حتى يدرك كيف يكون حاله لو كتب الله عليه فقد شيء من أعضاء جسده! فليس في خلق الله تعالى ما يقبل الاختزال (بهذا المعنى التصميمي الذي طرحه بيهي)، من تعقيد أو غيره، إلا إن قدر أن خلق الرب نظاما جديدا بوظيفة جديدة لا علاقة لها بالنظام الأول إلا أنها تشبهه مع فقد جزء من أجزائه! ولكن بيهي خصص بهذا المعنى البدهي نوعا من أنواع النظم الحيوية بعينه حتى يضيف آلية "التصميم" إلى آليات داروين، وهذا منه اختزالية طبيعية مردودة كما بينا Naturalist Reductionism.

وقد ذكر بعض الخلقويين في مصنفات التصميم الذكي أن في الخلية الحية الواحدة من أمثال تلك الماكينات الجزيئية وما ينتقل فيما بينها من معلومات في اللحظة الواحدة ما لو أراد البشر أن يأتوا بنظيره لما كفتهم الأرض كلها محلا لبناء ما يلزم بناؤه من مصانع وآلات لمحاكاة ولو شطر يسير من تلك النظم المذهلة! وقد استفاضت كتبهم بالأمثلة على ذلك، وهو صحيح ولا شك، نافع للناس في التذكير بالله تعالى وبعظيم صنعه الذي لا تخفى آياته عن العاقل الصادق في كل مخلوق يحيط بالإنسان في هذا العالم! ولكن عندما يقارن بغيره من بدائع صنع الله في خلقه، بغية بيان أنه يمتاز عنها بظهور علامات "التصميم" عليه، خلافا لغيره من النِظم الحيوية ِوالتشريحية،

فهذا انتصار لنظرية لاهوتية طبيعية باطلة لا يجوز أن نقبلها أو أن نروج لها! أو بعبارة أخرى، هو إذن تأويل فاسد للمشاهدات الصريحة لا يجوز أن نتلبس به في مقام تقرير الحق وبيان إحكام الرب جل في علاه في صنعه وتدبيره!

فالمطلوب، أيها القارئ الكريم، بل الواجب في هذا المقام أن نتعلم ألا نخلط بين التقريرات الصريحة لمسائل ظاهرة بالمشاهدة الجلية المباشرة، التي تستحضر المعاني الفطرية في نفس السامع بكل قوة، وبين تنظيرات الخلقويين المستعان فيها بنفس تلك المشاهدات كدليل على صحتها!

وإذا كان هذا يقال في مستندات الخلقويين في علم الأحياء والبيولوجيا الجزيئية والكيمياء الحيوية، فإنه يقال نظيره في موضوع علم الفلك! فإن فيه كذلك فرعا (ألا وهو علم الكونيات أو الكوزمولوجيا) قد تخصص أصحابه في بحث قضية النشأة التي هي عند المسلمين من أهل السنة قضية غيبية محضة لا يوصل إلى استكشافها بالعقل ولا بالرأي والقياس! فإذا عمد الخلقويون إلى محاولة استعمال المشاهدات الفلكية والفيزيائية كدليل على صحة نظرية طبيعية بديلة أرادوا أن يثبتوا بها أنهم مخلوقون مربوبون، فإننا نرد ذلك عليهم ولا نقبله منهم، وذلك بأن نستخرج الدعاوى الحسية الثابتة بالمشاهدة المجردة المباشرة، وما تقتضيه تلك المشاهدة اقتضاء منطقيا صريحا، نفصل ذلك عن زبالة التأويل والتنظير الطبيعي عند الخلقويين في نفس الأمر.

خذ على سبيل المثل مسألة الضبط الدقيق لثوابت هذا العالم. فالمقصود بالمشاهدات المجردة الصريحة في هذه المسألة هو مثلا حقيقة أن الأرض لو جاوزت درجة حرارة الجو فيها حدا معينا، مع بقاء كافة المتغيرات الأخرى وسائر نظم العالم وسننه على ما هي عليه، لاحترقت الأرض بما فيها، ولو نزلت عن حد معين لتجمدت! هذه مسألة بدهية يمكن تصورها دون الحاجة إلى الاستناد إلى تأويلات الفلكيين والكونيين وغيرهم، ولا يحتاج العاقل إلى أكثر من تقريرها على هذه الألفاظ حتى يظهر له وجه العناية الإلهية في خلق الأرض وبث الحرارة فيها! ومنه كذلك قولك إن القوة التي تدفع الأجسام إلى الأرض دفعا (المسماة بالجاذبية)، لو بلغت أن تكون أعظم من مقدار معين، مع بقاء جميع المتغيرات الأخرى على ما هي عليه، لما أمكن للناس أن تخطو على الأرض خطوة واحدة ولا أن تنتقل من أمكانها! ولو صارت أضعف من قدر معين لساح الناس في جو الفضاء ولما استطاعوا أن ينتفعوا بشيء مما خلقه الله لهم في الأرض! وانتبه إلى قيد مهم وضعناه إذ قلنا (مع بقاء كل شيء آخر في نظام العالم كما هو)، فإنه من المتصور أن يغير الله تعالى المسافة بين الأرض والشمس مثلا، ويغير – مع ذلك – من درجة حرارة الشمس، فلا يحصل ارتفاع في درجة الحرارة أو انخافض يلمسه الناس، بل يبقى الوضع على الأرض – في حدود تجربتنا البشرية -

على ما هو عليه! وكذلك في الجاذبية، فقد تتضاعف، وفي نفس الوقت تتغير قوة البناء الجسدي للإنسان وقدرته على إحراق الطاقة عند الحركة، فلا يكاد يشعر بشيء، وتبقى الأوزان في تقديره كما هي وكأن شيئا لم يكن! فالرب تعالى يضبط نظام العالم ضبطا شاملا على ما يريد ويختار كما في قوله تعالى: ((الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)) [الفرقان : 2]، وقوله تعالى: ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : 68] فلا نفرض تغير شيء منه عما خلقه الله عليه – حتى نقرر ونذكر الناس بذلك التقدير الإلهي الشامل السابغ - إلا مع فرض بقاء كل شيء آخر على ما هو عليه، حتى يمكن تصور الإفساد المترتب على ذلك الاختلال في نظام العالم، وحتى نبين أن الرب جل شأنه له الحكمة البالغة والتقدير السابغ الذي لا يخرج منه شيء من أمر السماوات والأرض، وأن جميع الأسباب لابد وأنها راجعة إليه وحده لا شريك له، لأنه لا قيام للعالم ولا بقاء لنظامه إلا بهذا! فلو أنه سبحانه شاء – من قبل - أن يخلق شيئا على خلاف ما سبق أن اختاره سبحانه من صفته التي عهدناه عليها، لفعل ولما أعجزه شيء، ولما جاز لأحد من الفيزيائيين أن يتنطع ويقول إنه إذن ما كانت لتنشأ على الأرض حياة (كما هي طريقة أصحاب المبدأ الأنثروبي)، بل لسبب لذلك في الخلق والتدبير الإلهي وفي سنن الكون من أسبابه ما لا يحيط بعلمه أحد سواه! كل أسباب العالم بيده وجميع نظمه من صنعه وتدبيره، وقد اختار أن يجعلها على ما عهدنا منها، ولو شاء لأجراها كلها على خلاف ذلك ولم يعجزه ذلك سبحانه. وهذا المعنى كما ترى، لا يحتاج تقريره إلى دراية بالفيزياء أو الفلك أو بشيء من نظريات القوم وحساباتهم! بل هو معنى بدهي فطري واضح، يظهر للعامة كما يظهر للخاصة، ولهذا يؤسس عليه الرب في القرآن عند مخاطبته مشركي العرب كما في قوله جل شأنه: ((أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ . نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذكَّرُونَ . أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ . لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)) [الواقعة : 58 - 76]

ونظير ذلك – في الجلاء والوضوح - ما في قوله تعالى: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً)) [الفرقان

: 45] فالله تعالى يتفضل علينا بحقيقة ظاهرة جلية لا تخفى على ذي بصر، ألا وهي مبدأ امتداد الظل وانتقاله، ووجه المنة والفضل فيها أنه مما يحصل به المنافع الجمة للناس (انتقال الظل وامتداده على ما نراه من أمره)، ولو شاء سبحانه لأجرى نظام العالم كله على بقاء الظل والضوء على ما هما عليه بلا انتقال، ولا ندري – إذن – كم من "قوانين الفيزياء" و"الكيمياء" و"الأحياء" التي نعهدها كان سيلزم أن يكون على خلاف ذلك! الأمر كله بيده، سبحانه لا مستكره له ولا يضطر إلى خلق دون خلق، ولا إلى فعل دون فعل! فليس في المحاججة والتذكير بهذه الحقائق الجلية تأويل أو استعانة بنظريات أو فلسفات كونية أو فلكية أو نحوها كما ترى، وإنما هي الحقيقة الصريحة الواضحة، التي يحصل منها بإذن الله، المقصود من التذكير والمحاججة دون فتح الأبواب للجدال والمماحكة ودون تلبس بنظريات لا ينتبه المسلم للوازمها! فإذا جئنا لتأكيد هذا المعنى بمشاهدات الفيزيائيين والطبيعيين في تقدير الحد الأدنى لليونة الزرع حتى يصلح لأن يكون طعاما لنا ولأنعامنا – مثلا – وكيف أنه لو كان أخشن من هذا فضلا عن أن يكون حطاما لما انتفع به الناس، فهذا استئناس لا بأس به، وهو مما يقدر على حسابه التجريبيون. وإذا جئنا بمشاهداتهم كذلك في بيان درجة الملوحة والحموضة التي لو جاوزها الماء لما استطاع البشر أن يشربوه ولكان في شربه ضرر لهم، وبينا أن ملوحة الماء الذي نشربه لا ضرر منها البتة، كان جيدا كذلك، ونظائر ذلك كثيرة عند التجريبيين، وكلها مما يدخل في جملة آيات الله التي حاجج الله بها المشركين في كتابه.

فأي نوع من أنواع الاستدلال هذا؟ هذا استدلال بمشاهدات صريحة لا تحتاج إلى تأويل، ترجع إلى أمور بدهية استفاضت عادة الناس بها، أما أن نقول – مثلا - عند إحضار معنى الضبط الدقيق لنظام العالم إلى ذهن المخاطب بالدعوة: لو كانت الجاذبية أعظم من هذا، ما نشأت الحياة على الأرض، أو ما نشأت الأرض نفسها أو نحو ذلك من رجم بالغيب وعدوان على سلطان رب العالمين، فلا يجوز ذلك ولا يقبل! لماذا؟ لأن هذا الزعم مبناه على كوزمولوجيا الطبيعيين وأسطورتهم في مسألة النشأة، وهي عندنا ميثولوجيا مردودة لا نقول بها أصلا، كما بسطنا الكلام على هذه القضية في آلة الموحدين.

هم كأنهم يقولون إن الحياة إنما نشأت على الأرض بسبب أن قصة نشأة الكون كانت على نحو كذا وكذا، ولو لم تكن كذلك ما نشأت! وهذا منهم كذب وافتئات على رب العالمين، مبناه خرافة عظيمة بشأن مسألة النشأة لا نقبل منهم طريقتهم في بنائها من الأساس! فلا هم يعلمون كيف خلق الله الحياة، ولا يتصورون من الحياة إلا هذا النوع الذي خلقوا في هذا العالم ليجدوه جاريا في الأرض من حولهم، ولا يملكون طريقا لتصور تلك الحوادث التي خلق بها هذا النوع ولا توصيفها من الأساس، ومع ذلك تراهم يشترطون

على الله الشروط في كيفية إعداد العالم من أجل تكون فيه "حياة"، ومن أجل أن يكون صالحا "لنشأة الحياة"، ثم يأتي المسلم الجاهل يلتقط هذا الكلام يجعله من أدلة "الضبط الدقيق" وهو لا يدري ما يقتضيه من الضلال المبين، بل ومن أسباب انتقاد الدهرية الطبيعيين لدعاوى المبدأ الأنثروبي وما يتعلق به! فالواقع أن النظرية الغيبية في أصل العالم إنما وضعت بأن زعم أصحابها أن العالم جرى نظامه على نحو كذا وكذا باطراد في الماضي السحيق، فبأي سلطان إذن يأتي أحدهم ليقول إنه لو جرى تاريخ الكون على غير هذا الترتيب لما نشأت الحياة على الأرض؟؟ إذا كان من الواضح أنه لو كان العالم الآن على خلاف ما هو عليه، وجاء من يمدد ويطرد نظامه الحالي إلى الماضي فلابد أنه سيصل إلى نظرية أخرى بشأن أصله ونشأته بطبيعة الحال، وستكون مناسبة كذلك لوصوله إلى هذه الحال المغايرة التي فرضناه عليها بالضرورة، فما معنى ذلك المبدأ الدهري عند أصحابه وما قيمته إذن؟؟ أيا ما كان عليه حال العالم الآن وأيا ما كانت طبيعة الحياة التي هو عليها، بل وحتى إن قدرنا أن لم تكن عليه حياة البتة، فطريقة الطبيعيين في تصور أصل العالم ونشأته، مع تكذيبهم بالغيب وما فيه، هي التي جعلت كونه على ما هو عليه ضرورة فزيقية Physically necessary ما كان من المتصور أن يقع غيرها، في ظل قوانين الطبيعة كما يجدونها!

ولهذا قررنا أن ما يسمى بالمبدأ الأنثروبي باطل لاستناده إلى الدهرية المهجية Methodological Naturalism في بناء الدعاوى بشأن الغيب المحض، وبسطنا الكلام على ذلك في "آلة الموحدين"، فلا يجوز للمسلم الذي يريد أن يقرر المعنى البدهي الذي ذكرناه آنفا (ألا وهو ضبط الرب جل وعلا وتقديره المحكم لكل شيء خلقه)، أن يأتي من حسابات الطبيعيين ودعاواهم بما يقوم على كوزمولوجياهم أو بما يقتضي إثبات شيء من خرافات النشأة عندهم أو مما تكلفوه من صور العدوان العريض على غيب السماوات والأرض (ككلامهم في حدود الكون وحجمه وهيئته الكلية ونحو ذلك)، والله الهادي إلى سواء السبيل.

موضوعات المجلد

Notes

[←1]

في مناظرة عقدها اللاهوتي الأمريكي ويليام لين كريغ سنة أربعة عشر وألفين من الميلاد 2014 تحت عنوان "الإله والكوزمولوجيا" مع الكوزمولوجي الطبيعي شون كارول S. Carroll، حاول كريغ أن يثبت أن الكوزمولوجيا الحديثة تقتضي إثبات الإله، فذكر فيما ذكر المبدأ الأنثروبي القاضي بأن الحياة ما كانت لتنشأ على الأرض لو لم تكن قصة نشأة الكون على ما كانت عليه، وهو ما يسمونه بالضبط الدقيق من أجل ظهور الحياة Fine Tuning for life، يجعله من جملة الأدلة على وجود الباري من الكوزمولوجيا المعاصرة! فأجابه كارول عن هذه الجزئية بجواب اختار كريغ في رده أن يهمله بالكلية، لأنه لا خروج له منه إلا بإسقاط اللاهوت الطبيعي كله من أوله لآخره! إذ قال ما حاصل معناه: لماذا تصرون على إلزام الرب الذي تؤمنون به بألا يخلق الحياة إلا تحت تلك الظروف بالذات التي انتهت إليها الكوزمولوجيا المعاصرة، فتقولون إنه لو لم يخلق الكون على هذا النحو بالذات لما ظهرت الحياة؟؟ ألستم تؤمنون بأنه قادر على كل شيء؟ فما الذي يعجزه عن أن يخلق الحياة بناء على ثوابت أخرى بالكلية وقصة نشأة مخالفة تماما إن شاء ذلك؟؟ ثم أضاف إضافة أصاب بها كبد الحقيقة إذ قال: هذا التقييد الذي جاء به المبدأ الأنثروبي لا قيام له بالأساس إلا على الفلسفة الطبيعية Naturalism، ولا ينهض به اعتقاد مثبتة الإله Theism أمثالكم! فلو صدق كريغ لأعلن بطلان استناده إلى الكوزمولوجيا الدهرية (التي هي تفصيل اعتقاد الطبيعيين في غيب السماوات والأرض وأصلهما ومآلهما) من أجل أن يثبت الرب الذي يزعم أنه يؤمن بكونه موصوفا بجميع الكمالات منزها عن جميع النقائص! ولكن هو لا يبالي بصفة الرب الذي يثبته من ذلك الطريق، فاللاهوت الطبيعي غايته ومنتهاه أن يلزم اللاهوتي الخصم الدهري بالقول بأن ثمة "صانعا" ما، تقتضي نظرياته الطبيعية التي يعتقد في صحتها إثباته والاعتراف به، وانتهت القضية عند هذا الحد! فإن تطرق الجدال إلى صفاته، لم يجد إلا سلوب الفلاسفة وتعطيلاتهم لخدمة البرهان الطبيعي نفسه لا غير! فهل كنا نتوقع من كريغ أن يقول إنه لا يعنيه ما يقتضيه المبدأ الأنثروبي من تنقص لقدرة رب العالمين واستكراه له في خلقه وتدبيره، وأنما يريد من خصمه أن يعترف بأن ثمة صانعا ما بصرف النظر عن صفاته؟ أبدا! ولو فعل لانكشف للجميع فساد مسلكه اللاهوتي ومنهجه في الانتصار لدينه، والله المستعان!

حتى عندما ذكر كارول أنموذج هارتل هوكينغ الكوزمولوجي القائل بكون انتفاخي لا بداية له في الماضي، لا فردية ولا غير ذلك، في مقام تقرير أن الكوزمولوجيين ليسوا متفقين على أن القول بالانفجار العظيم يقتضي إثبات سبب أول متقدم عليه، لا طبيعي ولا غيره، أجابه كريغ بكل أريحية بأنه حتى على ذلك الأنموذج المنغلق على نفسه تمام الانغلاق إن قدرنا صحته، فإنه لا يقتضي إثباته نفي السبب الغيبي الإلهي، وإنما يقتضي نفي "تدخل" الإله بالغيب في جريان حوادث الكون بعدما وجد (بصرف النظر عن طبيعة السببية التي أدت إلى وجوده)! والإله الذي "يتدخل" Interventionist Deity هذا ليس هو ما يريد أن يثبته في تلك المناظرة على أي حال، وإذن فلا يرد هذا الاعتراض على موقفه! فتأمل إلى أي حد يصل اللاهوتي الطبيعي في تعطيل ربه عن صفاته من أجل أن ينتصر على خصمه الدهري في المناظرة، وإلى الله المشتكى!

[←2]

وهذا الكتاب في الحقيقة هو أخبث كتب الدكتور إلى الآن، وأغرقها في التأصيل الفلسفي للربوبية الطبيعية Naturalistic Deism والاتحادية الطبيعية Naturalistic Pantheism على تداخل بينهما يجمعه اصطلاح من نقل عنهم من ربوبية واتحادية الفيزيائيين في قولهم بالطبيعية التأليهية أو الدينية Theistic Nantrualism كما ترجمها الدكتور، وكما صرح في هذا الكتاب أخيرا بأنها هي دينه الذي يدعو إليه! والكتاب هو آخر فصل في مشروعه الخبيث في أسلمة النحلة التطورية المعاصرة، وهو حجر الزاوية في مشروعه "الفكري" كما صرح بذلك في غير مناسبة! وقد كنت أود أن أتوسع في الرد عليه في هذا الكتاب بتتبع فقراته والتعليق على فصول كاملة منه كما سلكته في كتابه "كيف بدأ الخلق" وغيره، لولا أنه أصدره وأنا أوشك أن أتم كتابي هذا، ولست أحب أن أضيف مجلدا كاملا إلى كتاب دسم قد بلغ حجمه عدة مجلدات بالفعل، لا سيما وقد طال انتظار إخواني من طلبة العلم وفقهم الله تعالى لصدوره! فلعلي أكر على هذا الكتاب الخبيث في كتاب مستقل للرد عليه مستقبلا بحول الله وقوته!

وحسبي في هذا المقام أن ألتقط منه بعض المواطن أعقب عليها لبيان ما انتهى إليه الرجل من نحلة فلسفية مخالفة لدين المسلمين، تعد بحق آية فيما يصل إليه الإنسان من ضياع إذا ما أغرق في الجهمية الطبيعية كما أغرق فيها هذا الرجل، ودليل حي على شدة الداعي لتحرير موقف أهل السنة والجماعة الدقيق والمفصل من ضروب البحث الطبيعي التي غاص فيها الدكتور برأسه حتى انتهى إلى تلك النهاية!

[←3]

كتأويلهم كل صخرة مدببة يعثر عليها بجوار رفات قرد من القردة المعدودة في سلف الإنسان على أنها آلة صيد!

[←4] وهو من المنتمين لطائفة من النصارى تقول بالأرض الشابة Young Earth Creationists، ولا تؤمن بالتطور أصلا، بل يرى أن نظريته تلك تبطل مبدأ التطور كله من أساسه، وتقدم القوانين الطبيعية التي تنفيه Refuting Laws for the Darwinian Theory.

[←5]

وفي هذا الكلام جواب لمن يقولون إن العيب المنافي للكمال ثابت في الخلق، بما يحصل كثيرا من ظهور أفراد في نوع من الأنواع تعاني من "عيوب خلقية" يتفق العقلاء على إثبات العيب فيها! فالحق أن ثبوت تلك المعايب حجة عليهم لا لهم كما يوهمون أنفسهم! فهم يريدون الاستناد إلى العيوب الفردية في تجويز النقص النوعي الكلي، وهذا غير لازم في حق الصنعة البشرية، فكيف بصنعة من شهدت له البداهة والفطرة بأنه كامل العلم والحكمة وجوبا وضرورة؟؟ فإذا كانوا ما أثبتوا العيب في الفرد المعين إلا بمقارنته بالأنموذج الأكمل لأفراد نوعه، الذي ما عرفوه ولا تصوروه إلا باستقراء أفراد ذلك النوع نفسه، فبأي مستند وبأي قياس يبلغ أحدهم أن يقول إن صفة النوع نفسه وهيئته النوعية معيبة من حيث الأصل ويعوزها التحسين والتطوير حتى تكون أنسب للغاية التي من أجلها خلق ذلك النوع؟؟ هذا حكم لا يطلقه، كما بيناه في غير موضع، إلا من تحقق فيه شرط علمي واجب، ألا وهو العلم الكامل بوظيفة كل جزء قدره (ولا نقول صممه) الصانع في بنية وهيئة النوع نفسه، وبجميع الغايات والمقاصد التي من أجلها خلق كل جزء من أجزاء تلك الهيئة والصفة النوعية على ما نجده عليه، مع العلم الكامل بكل ما هو ممكن عقلا من طرق تحقيق تلك الغايات والمقاصد، بما يلائم ما للصانع من مقاصد وغايات أخرى لجميع ما خلق من مخلوقات في البيئة التي صنع ذلك النوع بعينه من أجل أن يعيش فيها، وفيما وراء ذلك مما يجب أن يحيط به علمه بوصفه هو صانعه جميعا!
فبإيجاز يقال إنه يجب أن يتحلى الإنسان بكمال العلم Omniscience على الأقل، (أي يكون لديه على الأقل جميع ما لدى الرب الباري من علم) حتى يكون له الحق في انتقاد الصفة والهيئة النوعية التي يخلق الله عليها هذا النوع أو ذاك، كقول الدراونة مثلا بأن في العين البشرية (هكذا!) عيبا "تصميميا"! وهذا محال ممتنع بداهة وضرورة!
فتأمل كيف بلغ الكبر بهؤلاء الجحدة الملاعين أن نازعوا رب العالمين ربوبيته وعلمه ولا حول ولا قوة إلا بالله! قاسوا الرب على أنفسهم وصنعته على صناعاتهم وأفعاله على أفعالهم وضربوا له الأمثال! فصدق الذي قال فيهم: ((وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)) [يس : 78] فالحمد لله الذي من علينا في كتابه بمثل قوله: ((فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)) [النحل : 74]، فبه وبغيره من كلام رب العالمين تحصل السلامة من ذلك الكبر والعمى لمن أراد الله له السلامة، نسأل الله العافية!

[←6]

قال الدكتور عمرو شريف في مداخلتين له في مناقشة مع أحدهم على صفحته الرسمية على الفيس بوك:

جميع علوم النشأة (نشأة الكون والحياة والإنسان) ليست علوماً تجريبية، بل تعتبر علوماً تاريخية! لذلك فإن علم البيولوجيا اسمه (التاريخ الطبيع Natural Histiry) وهذه العلوم التاريخية لا تقوم على المنهج التجريبي، لكن على ما نسميه (المنهج الاستردادي) الذي يرجع بالحوادث للوراء للوصول إلى أفضل التفسيرات. لذلك، فإن من يطلب دليلاً تجريبياً على نظرية التطور - مثلاً - فهو لا يدري شيئاً عن أنواع العلوم ولا طبيعة أدلتها...

ثم قال:

التطور لا يخضع للمنهج التجريبي لكنه علم يقوم على الرصد لما تطرحه علوم مختلفة، ثم الربط بين هذه المرصودات للوصول إلى أفضل التفسيرات لوجود ما تم رصده. لذلك فالتطور يتبع (المنهج الاستردادي) الذي يسعى وراء أفضل التفسيرات. ومن ثم: يتم " البرهنة " على التطور من خلال انسجام المكتشفات الجديدة مع هذا التفسير ويتم " تكذيب " التطور من خلال تعارض المكتشفات مع هذا التفسير ويقوم " الأقران والنظراء " بتقييم المؤيدات والمعارضات، والحكم على صحة النظرية أو كذبها...

قلت: صدق الذي قال: "الأعور في جزيرة العميان ملك!"! نقول ابتداءً والله المستعان إن نفي الدكتور اسم "العلم التجريبي" عن "علوم النشأة" فيه إجمال فاحش يستوجب التفصيل، كما في قوله "لا يخضع للمنهج التجريبي"! فإن كان المقصود بقوله "العلم التجريبي" وقوله "يخضع للمنهج التجريبي" أي ليس فيه أو ليس عند أصحابه إلا التجريب والرصد الممنهج، فنفي ذلك حق ولا شك، بل ليس في العلوم التي تطبق الطريقة التجريبية أو المنهج التجريبي ما يصح أن يقال إنه "علم تجريبي" أو "يخضع" للمنهج التجريبي على هذا المعنى! وأما إن كان المقصود من النفي في كلام الدكتور أن المنهج التجريبي القائم على جمع المشاهدات (سواء في المعامل أو في المراصد أو في البيئة المبحوثة) وتأويلها لاختبار صحة الفرضيات، ليس هو منهج الاستدلال الأول عند التطوريين فهذا باطل ولا شك، ولا يمكن أن يقبله منه أحد من أصحاب تلك الصناعة! بل جميع استدلالاتهم مدارها على تطبيق الطريقة الإمبريقية إجمالا! وإنما نعيب عليهم تطبيقها في غير محلها وفي مطلب لا يجوز وضع الفرضيات التفسيرية فيه أصلا ومن الابتداء!

وأما ما سماه الدكتور بالمنهج الاستردادي، يقصد به التماس أحسن التفاسير لتلك المغيبات التاريخية، فليس منهجا Method (بمعنى ترتيب معين من الإجراءات والخطوات البحثية) قد اصطلح أصحاب تلك النوعية من العلوم على اتباعه في أبحاثهم، وإنما هو طريقة من طرق التعقل Mode of Reasoning يقال لها Abductive Reasoning (وهو القسم الثالث من قسمة ثلاثية لأنواع التعقل وضعها المنطقي الأمريكي تشارزل ساندرز بييرس ثم صارت هي المعتمدة عند المناطقة اليوم: الاستنباط والاستقراء والتفسير)، ومنها ما يسميه فلاسفة العلم بعملية استنباط أفضل التفاسير Inference to Best Explanation التي يستعملها الدراونة استعمالا فاسدا! فهم يستعملون المنطق التفسيري في الافتراض، ويطبقون الطريقة التجريبية في الاستدلال! أما أن يقال إنهم لا "يخضعون للمنهج التجريبي" وإنما "للمنهج الاستردادي"، فهذا تحكم بالاصطلاح وكلام غير صحيح بالمرة.

وللفائدة فإن تلك القسمة البالية لمناهج البحث التي استخرج منها الدكتور مصطلح "المنهج الاستردادي" هذا، قسمة واهية على انتشارها في الأدبيات العربية "لمنهجية" البحث العلمي، وجريان كثير من أساتذة الجامعات عندنا عليها، وأنا ممن يحذرون منها طلبة الدراسات العليا عندنا في مقررات منهجية البحث العلمي في الجامعة، إذ تجعل أساليب العمل العقلي مناهج بحث علمي Research Methods، فترى أحدهم يكتب في وصف منهجه العلمي أو طريقته البحثية في مقدمة الرسالة: استعملت المنهج الاستقرائي في جمع المادة العلمية (يعني مراجعة الأدبيات Literature Review!!)، ثم منهج التحليل المقارن في المقارنة بين نظرية كذا ونظرية كذا (وهو أيضا مما يدخل تحت مراجعة الأدبيات!)، ثم منهج كذا ومنهج كذا .. إلخ، مع أنه ليس من ذلك شيء يصح أن يقال له "منهج" أو طريقة بحثية أصلا! ومع ذلك، فعلى التسليم بكونها مناهج، فلا ينطبق ما يسمونه "بالمنهج الاستردادي" على طريقة التطوريين، هذا يقصدون به قياس ما في الحاضر على نظيره مما كان في الماضي للتنبؤ بالمستقبل على سبيل الاسترداد، وإنما ينطبق عليها خليط بين ما يقولون له "المنهج التاريخي" و"المنهج التجريبي" و"المنهج الوصفي" و"المنهج المسحي" و"المنهج الفلسفي" و"المنهج الاستقرائي" و"المنهج الاستنباطي"! وإن شئت أن تجعل من قراءة الأدبيات واستعمال باحث قوقل على الإنترنت منهجين، فلابد أنهم "يخضعون" لهما كذلك!

[←7]

من العجيب حقا أن هذا الرجل (فيرنر غيت هذا) يعمل مهندسا، ومع ذلك يعتبر تلك التجربة الذهنية دليلا على أن "المعلومات لا وزن لها ولا ثقالة"! فليس هو فقيرا في فلسفة العلم وحسب، بل إنه كذلك فقير في الهندسة التي يفترض أنها مجال اختصاصه!

[8←]

تأمل سوء أدب الفلاسفة في الكلام على رب العالمين، وقل الحمد لله على نعمة الإسلام والسنة!

[←9]

ولا يزال الدكتور يدندن في كل مناسبة بمسألة "خارج الزمان والمكان" هذه، فصدق ابن القيم رحمه الله إذ قال في شفاء العليل (ص. 318): "والأقوال التي يجحد بها المتكلمون الضروريات أضعاف أضعاف ما ذكرناه. فهم أجحد الناس لما يعلم بضرورة العقل، وكيف يصح في عقل سليم سميع لا سمع له، بصير لا بصر له، حي لا حياة له، أم كيف يصح عند ذي عقل، مرئي يرى بالأبصار عيانا لا فوق الرائي ولا تحته، ولا عن يمينه ولا عن شماله، ولا خلفه ولا أمامه أم كيف يصح عند ذي عقل إثبات كلام قديم أزلي لو كان البحر يمده من بعده سبعة أبحر وجميع أشجار الأرض على اختلافها وكبرها وصغرها أقلاما يكتب بها لنفدت البحار وفنيت الأقلام ولم يفن ذلك الكلام، ومع هذا فهو معنى واحد لا جزء له ولا ينقسم، والنهي فيه عين الأمر، والنفي فيه عين الإثبات، والخبر فيه عين الاستخبار، والتوراة فيه عين الإنجيل وعين القرآن، وذلك كله أمر واحد إنما يختلف بمسمياته ونسبه، وقد أطلق على هذا جمع عظيم من العقلاء وكفروا من خالفهم فيه واستحلوا منهم ما حرمه الله. وهؤلاء الجهمية يقولون إن للعالم صانعا قائما بذاته ليس في العالم ولا في خارج العالم، ولا فوق العالم ولا تحته، ولا خلفه ولا أمامه، ولا عن يمينه ولا عن يسرته، ولا هو مباين له ولا محايث له، فوصفوا واجب الوجود بصفة ممتنع الوجود، وكفروا من خالفهم في ذلك واستحلوا دمه وقالوا ما يعلم فساده بصريح العقل، ولو ذهبنا نذكر ما جحد فيه أكثر الطوائف الضروريات لطال الكتاب جدا." اهـ.

[←10]

ومع ذلك، يصر الدكتور – في تناقض فجّ! – على أن المعلومات هذه إنما هي نتاج الرب الذي نعبده نحن المسلمين، وليست هو نفسه!! قال في نفس الصفحة: "أذكرك قارئي الكريم بما توصلنا إليه معا عند دراستنا لنظرية المعلومات الكونية من أن هذه المعلومات تحتاج إلى مصدر ذكي غير مادي، يتناسب في علمه وذكائه وقدرته مع كم المعلومات التي أبدعها." اهـ.

[←11]

قال (ص. 78): "انظر إلى قول الفيزيائي الكبير ريتشارد فينمان الذي يتبنى هذا الموقف: إذا قدر لكل ما لدينا من معلومات علمية أن يتلاشى، وألا تتبقى منها للأجيال التالية إلا جملة واحدة، ما هي الجملة الأجدر بالبقاء؟ إنها بلا شك جملة الفرضية الذرية The Atomic Hypothesis التي تتبنى أن كل شيء مصنوع من الذرات، تلكم الجسيمات الصغيرة تدور في حركة دائمة، يجذب بعضها بعضا إذا تباعدت وتتدافع بعيدا حتى لا تتلاقى. إن هذه الجملة تحمل كما هائلا من المعلومات عن العالم." ثم علق قائلا: "أعجب من هذا الموقف المغرق في التحيز للمادية، بالرغم من أن الجملة الأخيرة من مقولة فينمان تصرح بأنه ما زال هناك شيء هائل عظيم وراء المادة، ألا وهو المعلومات!" اهـ.

قلت: فينمان يتكلم – كما ترى – عن البناء النظري لتصور الفيزيائيين المعاصرين للعالم، يقول إنه لو قدر لنا أن جاء علينا عصر درس لدينا ذلك التصور وضاع من بين أيدينا جميع ما شيدناه فيه من نظريات وقوانين وكذا، فإن كان من رجاء لأن يبقى منها شيء ولا يندثر، فهو يرجو أن يكون أصل المبدأ الذري نفسه (الفرضية الذرية Atomism)! فالكلام ليس فيه إغراق في المادية ولا مادية أصلا، لأن الرجل لا يتكلم عن الواقع الوجودي نفسه، وإنما يتكلم عن معارف البشر فيما يسمى "بالمعلومات العلمية" أي الطبيعية!

صحيح إنه جار في إثباته المذهب الذري على طريقة ديموكريتوس وغيره ممن أسسوا الأكاديمية الطبيعية وطريقتها القائمة على تعميم الأقيسة الطبيعية على جميع أنحاء العالم (والقياس هنا هو القول بتركب موجودات العالم من جسيمات دقيقة)، لكن هذا إنما يظهر لنا تلبسه بالنحلة الطبيعية، وليس المذهب المادي! ولكن لأن الدكتور متذبذب بين من يجعلون المعلومات شيئا وجوديا عينيا خارج الذهن، ومن يجعلونها هي طبائع الأشياء نفسها وقوانينها السببية، تراه يحمل كلام الرجل على التقرير الأنطولوجي لا التقرير الإبتسمولوجي! أي، يجعل النفي في كلام فاينمان نفيا وجوديا لا نفيا معرفيا كما هو ظاهره! فالمعلومات عند الدكتور ليست هي المادة والطاقة وغيرهما من موجودات العالم، ولا هي الطبائع المركبة في تلك الموجودات، ولا السنن السببية التي تلازم تلك الطبائع، ولا هي العلم بذلك في نفس العالم به، وإنما هي شيء وجودي "غير مادي" يتصف به "الكون" كصفة ذاتية سابغة! ولهذا يقول "هناك شيء هائل عظيم وراء المادة، ألا وهو المعلومات"، ينسب ذلك إلى مفهوم كلام فينمان، وكأنما كان الأحرى بفينمان أن يقول: إن قدر أن اختفت جميع موجودات العالم (المادية)، فلن يبقى في الوجود إلا "المعلومات"! فهي على مقتضى ذلك موجود مبثوث في العالم كله، وهي في نفس الوقت ما وراء العالم، الذي لا يبقى غيره إن قدرنا زوال العالم بأسره! فإذا كان الإله عنده موصوفا بأنه "غير مادي"، فأي شيء بقي إلا أن تكون "المعلومات" هي ذات الإله الطبيعي الاتحادي الذي يثبته أولئك الطبيعيون غير الماديين الذين تشيع الدكتور باعتقادهم الدهري؟؟

قد بينا في غير موضع أن بين الطبيعية Naturalism والمادية Materialism عموم وخصوص، فإذا كان كل مادي طبيعيا، فليس كل طبيعي ماديا بالضرورة! وهذا ظاهر جلي في اصطلاح الدكتور نفسه، إذ ينسب أولئك الذين نقل عنهم في كتابه هذا إلى الطبيعية غير المادية، يسميهم بالطبيعيين غير الماديين! فليت شعري هل الطبيعية التي ينسبها إليهم هنا إلا تلك النحلة الفلسفية التي إن سألتهم عن أصل أصولها لقالوا إنهم يقصدون بها القول بأنه لا موجود إلا الطبيعة أو الكون وما فيه؟؟ سلمنا بأنك أبطلت المادية يا دكتور، فماذا عن الطبيعية؟؟ بأي عقل ودين أقررت أصحابها عليها؟؟

[←12]

قال الدكتور في كتابه "المعلوماتية" في حاشية على إحدى الصفحات (ص. 68): "ثبت أن للراصد واختياراته دورا في تشكيل صورة الواقع المرصود، أي أن الراصد سبب وراء صورة الطبيعة، ومن ثم يكون وراء تفاعل مكوناتها وسريان أحداثها." اهـ. قلت وهذا شرك ولا شك، إذ يجعل من الإنسان شريكا للباري في خلق حوادث العالم، وهو شريك لا يدرك ولا يشعر بأنه يخلق ما يراه وما يرصده بمجرد حقيقة أنه يرصده!! وهذا الاعتقاد (تأويل كوبنهاغن) لا تخلو الأكاديميات الطبيعية الغربية من فيزيائيين طبيعيين دهرية يرفضونه ويحكمون بسخافته! فسبحان الله، تأمل كيف أبى ربك إلا أن يلبس هذا الفيلسوف المستكبر (عمرو شريف) بجملة من أعظم عقائد الدهرية الطبيعيين سخافة وسفاهة وخفة في العقل، جزاء وفاقا، ولا يظلم ربك أحدا!!

والعجيب أنه يقول في نفس الكتاب (ص. 83): "ونحن لا نرى ضررا في المادية المنهجية. بل ونحبذ بشدة أن يظل المنهج العلمي منهجا ماديا، لا يقبل التفسيرات الميتافزيقية، حتى لا تعوقه عن البحث في الآليات الفيزيائية للظواهر." اهـ. قلت: فما هي المادية المنهجية؟ هي أن يلتزم الباحث التجريبي بالبحث عن نوع التفسيرات المحسوسة فقط لجميع ما يبحثه في معمله من ظواهر محسوسة، ولا يتجاوز ذلك. ونحن نسأل الدكتور، هذه النظريات التي جاء بها، سواء التصميم الذكي أو المعلوماتية أو الكون الحاسوبي أو حتى دعوى أن الإله هو المرجح الكوانطي، وأن الواقع يكون "احتماليا" قبل الرصد، هذا الهراء العريض، أي شيء هو إن لم يكن تفسيرا طبيعيا ميتافزيقيا؟؟ بل أي شيء هو القول بالانفجار العظيم والقول بتطور سائر الأنواع من أصل مشترك إن لم يكن تفسيرا ميتافزيقيا؟؟ وكيف يظل المنهج العلمي التجريبي منهجا ماديا (أي مقصورا على ما هو محسوس وحسب، بالقوة أو بالفعل، سواء في الاستقرء أو في التفسير) والحال أنك تقبل من الطبيعيين فرضياتهم التفسيرية المغرقة في الميتافزيقية والغيبية المحضة، بل تأتي بها على أنها "البرهان العلمي" لإثبات الربوبية؟! سبحان الله!

اعلم يا دكتور أن القوم ما جوزوا اختراق تلك القضايا الغيبية المحضة بالتفسير الطبيعي والافتراض القياسي، إلا لأنهم يؤمنون – وجوديا – بأنه ليس في الغيب إلا نظير ما في الشهادة! لولا هذا الأساس الأنطولوجي الدهري الصرف للطبيعية المنهجية عندهم (وأقول الطبيعية وليس المادية، وانتبه للفرق!) ما اجترأ سفيه منهم على أن يشبه الكون بأرضه وسماواته وما فيه، بحاسوب كمومي عملاق!! فبالله لا تحدثنا عن قبولك المادية المنهجية وأنت متلبس من حيث لا تدري ولا تشعر بأنطولوجياهم التي أسسوا عليها تلك المنهجية! وإلا فما هو مفهوم التفسيرات الميتافزيقية عندك، ومتى يكون الفرض فرضا ميتافزيقيا ومتى يكون فرضا فيزيائيا، إذا كنت قد قبلت منهم جميع ما وضعوه من فروض تفسيرية في غيب الزمان والمكان على أنها فيزياء، لا لشيء إلا لأنهم حشروا في تلك الفروض كلمة "ذكاء" وكلمة "وعي" وكلمة "غير مادي" ونحو ذلك؟؟! بل وقبلت منهم – من قبل ذلك – جميع ما اخترموا به غيب النشأة والخلق الأول من فروض تفسيرية لا لشيء إلا لأن تلك الفروض قد صارت اليوم عندهم محل إجماع أكاديمي لا يقبلون فيه النزاع؟! والله لا نقبل أن يقال إن العلم الطبيعي ينبغي أن يكون مقصورا على التفسير الفيزيائي دون الميتافزيقي حتى نستفصل عن كلا المفهومين، ثم نقرر موقفنا المنهجي مما يريدون "بالتفسير الفيزيائي" و"بالمادية المنهجية" بكل حزم، وإلا كنا كالإمعات نتبع كل ناعق!

يجب أن يفهم الدكتور وأتباعه أن المنهج المعرفي لا يقوم عند صاحبه إلا على جملة من المسلمات (الاعتقادات الكلية) الوجودية الغيبية! فمن خالفنا في تلك المسلمات فلا يجوز أن نقبل منه منهجه المعرفي بحال من الأحوال! وقد بينا في غير موضع من هذا الكتاب أن الأكاديمية الطبيعية الغربية إنما قامت على جملة من مسلمات الفلاسفة الدهرية الذين أسسوها في اليونان قبل ثلاثين قرنا! وهي تلك المسلمات التي يأتي على رأسها الاعتقاد بأن غيب السماوات والأرض كشهادته، لابد أن يكون مبنيا كله نفس البناء، ومكونا من نفس العنصر الأساسي، وخاضعا لنفس النظام السببي الكوني!

هذه المسلمة إنما يقبلها من لا يؤمن بالغيب ولا يرى فيما وراء العالم ربا له وجود عيني خارج الذهن، وله سلطان بالغيب فيما وراء تلك السماء المنظورة على كل شيء، سلطان لا نظير له فيما نشهد وما نحس! فمن لم يؤمن بهذه المسلمة الوجودية، فلن يخضع نفسه لضرورة تلقي الخبر المعرفي بذلك الغيب العظيم من الوحي المنزل على نبي من أنبياء الله! بل لابد أن يجعل الغيب كالشهادة، ساحة مفتوحة لقياس ما فيه على ما في العادة، إذ لا طريق لالتماس المعرفة عند الإنسان فيما سوى الخبر السماوي إلا القياس! وإذن فلن يكون للغيب مفهوم عنده (وجوديا) إلا ما يمليه عليه هواه، وما تقتضيه أقيسته! لذا كان مصدر التلقي المعرفي عند المسلمين فيما وراء ما يطاله حسنا وعادتنا من الخلق الغيبي، إنما هو الخبر من الوحي لا غير! فهو أمر لا يعلمه أحد من البشر من طريق القياس، وإنما يعلم من طريق الوحي على نبي من الأنبياء! فإن لم يرد الخبر، وجب الإمساك والتفويض!

أما عند الدهرية والفلاسفة الذين أسسوا الأكاديمية الطبيعية الغربية، ولم تزل جارية على منهجيتهم الكلية إلى اليوم، فلا خبر ولا وحي ولا شيء من ذلك أصلا، وليس وراء العالم إلا نظير ما في العادة منه، فلا غرو أن تطلب المعرفة بما وراء المحسوس (مما لا يرجى التوصل إلى إدراكه بالحس يوما من الدهر) بالقياس على ما في العادة! فبناء على الاعتقاد الوجودي في تلك القضية، يتحرر مفهوم "المادة" ومفهوم الطبيعة وما وراءها ومفهوم الفزيقا والميتافزيقا والحد الفاصل بينهما (وجوديا أولا ثم معرفيا)، وتتحرر المنهجية المعرفية الطبيعية نفسها Philosophy / Epistemology of Science، وتتقرر حدود الطريقة التجريبية عند أصحابها! ولهذا قلنا في آلة الموحدين من قبل ثم في هذا الكتاب، إن نظريات الطبيعيين في مسألة النشأة ليست "علما" أصلا وإنما هي ميثولوجيا أصحاب الملل الطبيعية Naturalist Mythology، فبينما نقبل علم الكيمياء أو علم ديناميكا الموائع – مثلا – كعلم طبيعي وتجريبي نافع لا غبار على تطبيق الطريقة التجريبية في موضوعه، ترانا نرد – وبكل صرامة - البيولوجيا التطورية والكوزمولوجيا من حيث مفهوم العلم ومصادر التلقي المعرفي في أصل موضوعهما نفسه! فمن لم يحرر هذه المسألة العقدية والمنهجية الخطيرة تحريرا دقيقا، فليس له أن يكلمنا معاشر المسلمين عن وجوب اقتصار "المنهج العلمي" Scientific Method على التفسير الفيزيائي دون الميتافزيقي، وعن الضرر المعرفي والخلل العقدي الذي يحصل من الخلط بينهما، والله المستعان لا رب سواه!

[←13]

*The fundamental quantity **information is a nonmaterial** (mental) entity. It is not a property of matter, so that purely material processes are fundamentally precluded as sources of information.*

[←14]

ومع ذلك، قال الدكتور عمرو في "المعلوماتية" في إطار استعراضه نظرية غيت، وبيان الشروط والموانع التي بها يصح عنده أن يقال في أي "تتابع مجهول من الرموز" إنه يمثل شفرة "لمعلومات كونية" (ص. 111): "أما الموانع، التي إذا وجدت في تتابع من الرموز استبعدنا أن تكون شفرة لمعلومات كونية، فهي: 1) إذا أمكن تفسير وجود التتابع بشكل كامل من خلال المستويين الفيزيائي والكيميائي، فذلك يعني أن مصدرها مادي. 2) إذا كانت هناك علاقة فيزيائية ذاتية inherent أو تشابه بين الرموز وبين الواقع الذي تمثله، كالصوت الذي ينتج عن سقوط الصخور، فهذا الصوت ليس رمزا مجردا، بل هو يعكس الواقع نفسه. 3) إذا كان واضحا أن تتابع الرموز عشوائي تماما: 1 2 6 5 7 10 11 4 3." اهـ. قلت: أولا: قوله "إذا أمكن تفسير وجود التتابع بشكل كامل من خلال المستويين الفيزيائي والكيميائي" يقتضي تجويز أن يكون في العالم ما ليس من خلق الله تعالى، وإنما يتعلل تعللا سببيا تاما (أو ما يسميه بالتفسير بشكل كامل!) بما سماه بالمسوتيين الفيزيائي والكيميائي، دون أن يكون له سبب أو تفسير وراء ذلك! وهو يجوز ذلك بالفعل بدليل أنه يفرق بين ما سماه "بالتتابع المجهول من الرموز" الذي "يمثل شفرة لمعلومات كونية" والتتابع الذي لا يمثل تلك النوعية الخاصة من المعلومات! ونحن نقول إن من اعتقد أن في العالم شيء ليس من خلق الله تعالى أو ليس له إلا الأسباب الفيزيائية أو الكيميائية وحدها، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه!
ثانيا: لا يخفى ما في النقطة الثانية من تحكم في تعريف الرمز لا مستند له ولا وجه! وإلا فما أسهل أن يقال إن ذلك الصوت المذكور إذا تلقته الأذن، فإنه يترجم عبر العصب السمعي إلى إشارات ترمز له، ويصبح في العقل فيما بعد مرتبطا بتصور ذهني يرمز له، وذلك كله مما تتسع له كلمة "رمز" في اللغة!
ثالثا: ما معنى "عشوائي تماما"؟؟ لا خالق له؟؟ لا يجوز للمسلم بحال من الأحوال أن يعتقد أن في العالم شيء "عشوائي تماما" على هذا المفهوم "الكوني" الذي يتكلم عنه الدكتور وأستاذه غيت! يضرب الدكتور مثلا في حاشية الصفحة يبين لك تأثره في هذا الكلام بفلسفة ديمبسكي في إثبات التصميم الذكي كما سيأتي استعراضها لاحقا بحول الله تعالى، فيقول: "مثال ذلك، الموجات التي استقبلها الفلكيان البريطانيان Rell & Hewish عام 1967، والتي اعتبرت في البداية إشارات من كائنات فضائية ذكية (الأقزام الخضر). ثم ثبت أن لهذه الرسالة مصدرا ماديا تم اكتشافه فيما بعد، وهو النجوم النابضة Pulsars." اهـ. قلت: كما لا يخفى فإن الحكم بأن تلك الموجات صادرة من كذا وليس كذا، هو ترجيح تحكمي محض لا يستند (في تطبيق المنطق التفسيري الاستبعادي Eliminative Abduction) إلى خبرة أو عادة! ثم على التسليم بأن المصدر هو ما يسمى بالنجم النابض هذا، فما معنى أن يكون "مصدرا ماديا"؟ ألا يكون كذلك ماديا إن قدر كونه صادرا عن كائنات فضائية؟ فإن قال إنه يكون ماديا ولكن يصاحبه أو يحايثه أمر غير ماضي إضافي وهو المعلومات "غير المادية" في أذهان الفضائيين، قلنا: سلمنا، فكان ماذا؟ هذا مخلوق وذاك مخلوق، وليس أحدهما بأدل على خالقه من الآخر!

[←15]

قال في "المبرهنة" الثامنة Theorem 8 (ص. 65): "إذا ما تم تعريف شفرة ما Code من طريق الاتفاق العمدي Deliberate Convention (أي الاتفاق بين المصدر والمتلقي)، فإنه يجب أن يُتلزم بها بكل صرامة فيما بعد it must be strictly adhered to". اهـ. ثم قال في التاسعة: "إذا كانت المعلومات لتفهم، فلابد أن تكون الشفرة المعينة الخاصة بها معلومة لكل من المرسل والمستقبل" اهـ. قلت: ومن الواضح ابتداء أننا لم "نتفق" مع رب العالمين على أن نلتزم نحن وهو بلغة طبيعية كونية نتبادل "المعلومات" في الطبيعة باستعمال شفرتها، سبحان الله وتعالى عن ذلك! ولكن هو يريد أن يحول جميع النظاميات الطبيعية القابلة للتشفير (مبدئيا) إلى "لغات" قياسا على لغة البشر، حتى يصل إلى أن يقول إنها لابد لها من "مصدر عاقل" تنشأ عنه! من هنا جاءت جميع تعريفاته (مبرهناته) تأصيلا لذلك القياس!

[←16] ووالله ما هذا إلا الرد على رؤوس أقلام في بدع هذا الرجل وضلالاته التي تطفح بها كتبه، لا سيما في كتابه الأخير "المعلوماتية" الذي يحتاج إلى عدة مجلدات لتفنيد جميع ما فيه من ضلالات، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←17]

يواصل الدكتور في ذلك المقطع فيقول:

جال في خاطري هذا الكلام، إن الصراع صراع أيديولوجيات بتاع توماس كون، في حوار، لما دار حوار مع أحد الأصدقاء الأفاضل اللي بيتبنوا التوجه الخلقوي، اللي هو المعارض للتطور البيولوجي، والذي يرى أن خلق الإنسان تم خلقا مباشرا من طين بيدي الله عز وجل، في حواري مع الصديق على الصفحة، على صحفتي في الفيس بوك، والحوار امتد، وأنا أشرح في أدلة علمية، وهو يشرح في أدلة علمية معارضة، و إلى آخره، وبعدين في الآخر قال لي إيه؟ قال شوف بقى يا دكتور عمرو، الموضوع في الحقيقة وبصراحة مش أدلة علمية ولا قوية ولا أدلة علمية ضعيفة، سيبك من الكلام ده! الموضوع بصراحة إن أنا مش مستعد أتقبل نظرية قالها الرجل الأبيض! يقصد طبعا الرجل الأوروبي! الذي استعمر بلادنا وأذلنا و.. و.. إلى آخره! أنا أسقط من يدي وقتها! يعني القضية بقى.. آه وأضاف طبعا، "وأنا لو عملت كده، أبقى يعني بتبع القردة والخنازير وأقبل أن أكون .. وعبد الطاغوت، وأقبل أن أكون ألعوبة في أيديهم، و .. و.. إلى آخره"، يا الله! كما أقول لكم، أسقط في يدي! يعني القضية وأنت شاغلني وشاغلين الإعلام وشاغلين المكتبات بكتب تعارض التطور، بدعوى وجهات نظر علمية، وأنت القضية الأساسية عندك، قضية إنك واحد موقف أيديولوجي من الحضارة الغربية، لربما أنا أعارضها زيك بالظبط، وربما أكثر منك، إنما يصرح هكذا، أنا اعتبرت دي يعني هي الفاصلة وخاتمة الحوار بيني وبينه...

قلت: هذا المثال يؤكد – أولا – أنك يا دكتور إنما فهمت من كتاب توماس كون نقيض مقصوده! ثم إنه يظهر – ثانية – أنك من ضعف حجتك في الخصومة، لم تجد إلا أن تتعلق بكلام أكاد أجزم بأن صاحبه ما أراد به هذا الذي تقول، إذ قد قدمت الكلام ببيان أنه قد طال الحوار بينك وبينه في تبادل "الأدلة" و"الأدلة المعارضة"، فدل على أن الرجل – ولا ندري من هو – كان في الأصل يتكلم بما يعده دليلا، بل وتعده أنت كذلك دليلا! فأي شيء يلجئ من كانت هذه بضاعته لأن يسلك ذلك المسلك الفاضح (كما صورته) في مناظرة علنية؟ ثم إنك – ثالثا - إنما تعلقت بهذا الذي تزعم أنه قاله حتى تسقط به موقف جميع من يخالفونك في بدعتك التطويرية على أنهم ليسوا إلا أصحاب مواقف فردية ناقمة على الغرب والحضارة الغربية لا أكثر ولا أقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله! سلمنا بأن هذا المجهول الذي لم تعينه، كان جاهلا لا يدري ما يخرج من رأسه، فأي دليل يكون في ذلك على أن مخالفيك كلهم "شغلوك وشغلوا الإعلام والمكتبات بكتب تعارض التطور" بدعوى المخالفة العلمية بينما هم في الحقيقة لا شيء معهم إلا كراهية الغرب أو "الموقف الأيديولوجي من الحضارة الغربية"؟؟ هذه من أسخف صور مغالطة مهاجمة رجال القش أو خيال المآتة Strawman Fallacy كما تسمى في كتب المناطقة المعاصرين (حيث يسفَّه موقف المخالف ويصوَّر كذبا على صورة لا يحتاج السامع إلى أكثر من أن يتصورها على ما هي عليه حتى يجزم بوهائها وبطلانها، مع أن الواقع على خلاف ذلك)، وكذا مغالطة المحاجة بتجهيل الخصم Argumentum ad Hominem، حيث يتخذ من جهل الخصم دليلا على بطلان المذهب الذي ينتصر له!

[←18] وليس التاسع عشر، إذ لم تعرف كوزمولوجيا النشأة التطورية وفكرة موت الإنتروبي هذه قبل القرن العشرين!

[←19]

ينتهي الدكتور في الفصول الأخيرة من كتابه هذا إلى اختراع جواب جديد في باب الحكمة والتعليل، أو إن شئت، ثيوديسا ربوبية تطورية، يجعلها ردا على ما يسمى بمشكلة الشر عند الدهرية، مع أنها في الحقيقة ليست إلا احتجاجا بالجهل الدهري على إثبات مزيد من الجهل الدهري (الاحتجاج بالفوضى والعشواء الوجودية التي كان يزعم الدكتور في كتبه الأولى أنه يرفضها ويسقطها من نظرية داروين، على صحة الميثولوجيا الطبيعية التطورية التي يعتنقها، مع جعل ذلك جوابا عن معضلة الشر نفسها)! فهو استدلال يؤسسه على فلسفته الربوبية الاتحادية الطبيعية التطورية المؤسلمة هذه التي لفق بعضها في بعض تلفيقا في هذا الكتاب وما سبقه من كتبه، فيقول بما حاصله أن الكون لابد أن يكون قد خلق انبثاقا من أصول فوضوية منحطة، كما هو اعتقاد مثبتة الصانع من الطبيعيين التطوريين، حتى يكون لوجود الشرور والمكاره في العالم سبب وتفسير معقول! وإذن يلزمنا تصحيح الأسطورة التطويرية الطبيعية في الخلق الإلهي وإلا ما وجدنا تفسيرا معقولا! ويجري ترتيب المسألة عنده كالتالي:

- لو قدر أن كان نظام العالم محكما تام الإحكام، يخلق كل شيء فيه من أول يوم على أتم وأحسن ما يرام، كما هو اعتقاد من سماهم الرجل بالخلقويين، لما كان من المتصور وقوع الكوارث الطبيعية والشرور والمكاره والمفاسد البتة، فضلا عن أن تكون هي الأصل الغالب في العالم....... (1)
- لكن الحال أن الأمر في العالم كما وصفنا... (2)
- إذن لابد من كون الأصل في العالم الفوضوية والعشواء الوجوديين، وأن يكون الخلق الإلهي تدخلا وتحسينا وتطويرا، بما يحصل به التوسط بين الفوضى المحضة والانضباط التام، لا بما يحصل به الانضباط والإحكام التام، على حسب اعتقاد التطوريين المتألهين! .... (3)

فالمقدمة الأولى (1) ظلمات بعضها فوق بعض! فهي تبدأ بتجويز دخول الفوضوية وسوء الضبط وسوء الإحكام على صنعة رب العالمين في السماوات والأرض، وهذا كفر قولا واحدا، ونقض صريح لقوله تعالى: ((صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)) الآية [النمل : 88] وقوله: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7] قوله: ((وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)) الآية [الفرقان : 2] وقوله: ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ)) [الملك : 3] وغير ذلك! ثم تقرر اعتقادا مفاده أن الكوارث الطبيعية والشرور والمكاره كلها إنما هي أمور عشوائية خارجة عن إرادة الباري وخلقه وتقديره، وهو اعتقاد دهري أصالة، انتقل إلى النصارى وإلى الجهمية القدرية الغلاة، الذين أوجبوا على الباري ألا يخلق إلا ما هو محبب للناس (أو ما يرونه هو الأصلح لهم)، بناء على أصل "العدل" المزعوم عندهم! فهو لا يريدها ولا يخلقها، وإنما "يتدخل" بتغييرها ومقاومتها فيخلق هو الخير ويترك الشر ليخلقه غيره، أو ليخلق نفسه بنفسه جريا بالعشواء التي تسيرها قوانين الطبيعة، سبحان الله وتعالى عن تلك الثنوية المجوسية علوا كبيرا!

وأما النتيجة، فتحكم بالتفسير ينافي الفطرة ويناقض أصول الملة الحنيفية، إذ يزعم أنه لا تفسير لوجود الشرور إلا وجود قدر من العشوائية وقلة الضبط والتنظيم في العالم، يعد هو نفسه وجودها ضرورة حتى يكون نظام العالم على ما نراه فيه من أمور يستحسنها! وما ذاك إلا لأن العقل والبداهة والفطرة توجب أن يكون ذلك كله راجعا لحكم وغايات كبرى، وكل حادث يجري في العالم على وفق علل وحكم وغايات، علم من علم وجهل من جهل، فلا يجوز أن يقال إنه فوضوي أو عشوائي! فقوله بالفوضوية والعشوائية واللاغائية الملازمة لمبدأ النشأة التطورية الكوزمولوجية والجيولوجية والبيولوجية، وجعله ذلك تفسيرا لتلك الظواهر المكروهة المذكورة ونحوها، على أساس أنها لو لم تجعل كذلك لما استقام أمر العالم، هو إثبات للغائية والحكمة المنافيان للعشوائية والفوضوية و"لعدم الإحكام التام في خلق النظام" الذي يزعمه التطوريون! وإذن يكون الكلام إثباتا للعشوائية الوجودية ونفيا لها في نفس الأمر، وهو تناقض ظاهر!

ثم يقال: ما وجه التعارض بين الإحكام التام في الخلق من أول يوم، وبين كون العالم على ما نراه اليوم من اجتماع لنوع حوادث التفكك والتشتت والانتشار والدمار من جانب، ونوع حوادث النشأة والتنظيم والخلق الجديد لكل ما هو نافع ومفيد، من الجانب الآخر؟؟ البداهة تقضي بأنه لو لم يكن خلق العالم تام الإحكام من أول يوم، لما استقام ذلك الميزان الدقيق الذي عبر عنه رب العزة بنحو قوله: ((وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) [الذاريات : 49]، وإذن لما قامت للعالم قائمة أصلا! فإذا خير المسلم بين قولين، أحدهما يثبت خالقا يخلق عالما تام الاتزان والإحكام من أول يوم، يتوسط بين أقطاب مخلوقة تتجاذب الموجودات المخلوقة فيه (كالخير والشر، والحياة والموت، ونشأة النظام المعين وتفككه .. إلخ)، فلا يغلب أحدها على الآخر إذا غلب في موضع دون موضع إلا بإذنه وبما لا يحصل منه إلا أوفق الآثار وأليقها بغايات الباري جل شأنه فيما يخلق، والثاني يثبت صانعا يتعمد ألا يتقن صنعته حتى لا "يموت" فيها التنوع، ولا يعرف طريقا لإحسان الخلق كله من أول يوم دون أن يعجز عن الإتيان بما يريد في ذلك الخلق (وهو تناقض كما بينا)، فسيختار القول الأول لا محالة، وإلا نقض أصل دينه وإسلامه، وانتهى إلى عبادة صانع قد يكون هو أكمل منه علما وحكمة، نسأل الله السلامة!

فالمسلم يؤمن برب ركب في العالم تلك المكاره والمنغصات من أول يوم تركيبا هو الأحسن والأكمل في تحقيق مقصوده من خلق السماوات والأرض، ولم يزل يأمر بتكوينها الواحدة تلو الأخرى كما يأمر بالمحببات جميعا، بينما يؤمن الطبيعي المتأله كالدكتور عمرو (ربوبيا كان أو اتحاديا أو كليهما معا) برب بذر بذرة قانونية عليا في محل ما قبل نشأة الكون، ثم تركها لتنشئه بفوضوية وعشوائية مطردة إلا في المواضع التي "تدخل" هو فيها تدخلا يضمن توجيه عملية التطور المزعومة إلى حيث يريد! فسبحان الله وتعالى عما يقول علوا كبيرا! لم يزل رب العالمين يخلق البراكين – مثلا – من أول يوم بعد تمام خلق العالم وإلى أن يرث الأرض ومن عليها، فلم تكن في يوم من الأيام هي الأصل في جميع جبال الأرض – مثلا – ثم تطور حال العالم فاقتصرت على الجبال البركانية التي نعرفها اليوم! هذه أسطورة من ميثولوجيا قوم لا يقدرون الله حق قدره!

قال (ص. 449): "وتتماشى النظرة المعلوماتية المتزايدة بعمق مع قصة الطبيعة كما يطرحها العلم، وكما يقبلها التصور الديني. ذلك أن النظرة الحديثة للعلوم الطبيعية تتبنى أن الكون هو قصة متسلسلة متطورة يتم كشفها تدريجيا وليست موجودا ثابتا لا يتغير. وفي الحقيقة إن الحياة والخبرات الواعية للحيوانات، ثم العقل والوعي الإنساني بالذات وبالوجود، وما ترتب على ذلك من إبداع، هي ظواهر جديدة كل الجدة، وذلك يعني أن تطور العالم كان تطورا

انبثاقيا Emergent أو تطورا خالقا creative وتعتبر (عدم القابلية للتنبؤ) هو المقياس الذي نحكم به على الانبثاق والإبداع الجديد. ويتأرجح الوجود بين رتابة الانضباط الزائد وبين الفوضى ذات المعنى، وكلاهما غير قدار وحده على إنشاء وجود مثل وجودنا. ومن ثم فإن البدائل العقلية عن البنية الحالية لكوننا هي عالم يقتله الروتين الميكانيكي أو عالم تعصف به الفوضى. خلاصة الأمر أن المعلوماتية لا تتطلب عدم وجود الخروج عن النظام على الإطلاق (معضلة الشر) كما يتصور الماديون. كما تتبنى مفهوم التصميم الذكي الخلقوي الذي لا يقبل عدم الانتظام. وحيثما استبعد عدم الانتظام تستبعد الأحداث الجديدة، وحيثما يستبعد الجديد يستبعد الكون المدهش، ويستبعد كذلك الإحساس المتحدي بالحقيقة والمعنى النهائيين." اهـ.

قلت: فإذا تبين لك ما قدمنا بيانه، ظهرت لك حقيقة المذهب الذي يرمي إليه الدكتور من قوله: "وتتماشى النظرة المعلوماتية المتزايدة بعمق مع قصة الطبيعة كما يطرحها العلم، وكما يقبلها التصور الديني."! قوله: "وتعتبر (عدم القابلية للتنبؤ) هو المقياس الذي نحكم به على الانبثاق والإبداع الجديد" قلت: فمن المشار إليهم في "نحكم" هذه؟ ليس يراد بها المسلمون قطعا! وإنما المراد بها أهل تلك الملة الطبيعية التي يدعو الدكتور إلى طائفة من طوائفها! ذلك أن الانبثاق نفسه بالمفهوم الذي ذكره الدكتور إنما هو اعتقاد الطبيعيين ودينهم، وليس من دين المسلمين. وأما الإبداع الجديد، فإذا كان المراد منه خلق الأنواع الجديدة، فمتى وقع للطبيعيين رؤية نوع جديد وهو يخلق، حتى يقولوا إن عدم قابلية الشيء للتنبؤ بظهوره قبل أن يظهر تدل على أنه نوع جديد؟؟ ما معنى "قابلية التنبؤ" وعدم قابلية التنبؤ في هذا السياق أصلا، ومن أين جاء بها الدكتور؟؟ الرجل ينقل من المصادر التي ينقل منها دون أن يتكلف – غالبا – تحرير معاني المصطلحات التي يترجمها، دع عنك أن يتأمل في معقوليتها فضلا عما إذا كان يصح للمسلم اعتقادها أم لا يصح!!

نحن المسلمين لا نفرق بين أنواع المخلوقات في الكمال والإتقان، ولا نرى البساطة والتعقيد الداروينيين معيارا لذلك كما في نحلة الدكتور، بل نبرأ إلى الله من تلك الطريقة وأصحابها ولا كرامة! فهم لما كانوا يؤمنون بأن الأصل في الطبيعة العشواء المحضة، والإهدار المحض، والإنتروبي الكونية المتزايدة المزعومةCosmological Rise in Entropy، كان ظهور النظام الموصوف عندهم بأنه "جديد" أمرا مخالفا "للتنبؤ"! أي أنهم لما استقرؤوا العشواء بزعمهم، ورتابة القانون الطبيعي في وهمهم، كان ظهور النوع الجديد في كل حالة يظهر فيها في أسطورتهم التطورية، أمرا قليل الاحتمالية للغاية إذا ما قورن بما كان عليه الأمر قبل، فكان ذلك – عند مثبتة الصانع منهم – دليلا على ضرورة وجود منبع كوني لتلك المخالفات غير المتوقعة للنمط العشوائي المزعوم، وللشذوذات المتوافرة عما زعموا أنه هو نظام العالم! فبالله هل هذا هو دين المسلمين؟؟ فقول الرجل: "وحيثما استبعد عدم الانتظام تستبعد الأحداث الجديدة" هو قول مغرق في جهالة الدهرية الطبيعيين الذين جعلوا عدم العلم علما بالعدم، وجعلوا جهلهم بالنظام عدما للنظام في الخارج في نفس الأمر! وإلا فالعقلاء مطبقون على أن "الأحداث الجديدة" هذه كما يسميها، إن كانت من صنع الباري فلا شيء يلجئه سبحانه إلى أن يجعل العالم "غير منظم" أو غير تام الضبط في نظامه من أجل أن يحدثها حيثما يشاء وقتما يشاء كيفما يشاء إذا أراد! هذا الجهل والطعن العظيم على جناب رب العالمين، مرجعه إلى قياس الماكينة الذي هو أساس الانغلاق السببي الدهري اللابلاسي، الذي هو من أركان عقيدة الدكتور من حيث يزعم أنه لا يقول به، والله المستعان!

فإذا فهمت هذا المعنى، لم تعجب إطلاقا من أن تكون "الفوضى الخلاقة" Creative Chaos والخلق المنبثق من العشواء الوجودية Random Generated Creation هو اعتقاد الدكتور ومن نقل عنهم! فالكون عنده ليس إلا ماكينة عملاقة لا تزال العناصر الأولية للمادة أيا ما كانت Fundamental Elements of Matter تتحرك فيها حركة عشوائية وتسلك سلوكا عشوائيا محضا، تحت القوانين الطبيعية الأزلية (البدئية أو العليا كما يسميها) التي أنتجت بدورها القوانين الفيزيائية المعروفة لدينا، ولا يزال صانع الماكينة "يتدخل" من آن لآخر لإحداث حوادث معينة (في حدود ما يسمح به نظامها نفسه من أنواع الحوادث) تسير بالماكينة في جهة تخدم ظهور الإنسان وتكليفه بالخطاب الإلهي! فالأصل في الماكينة المزعومة جريان نظامها على حركات عشوائية، إلا ما يختار الصانع أن يتدخل ليوجهه إلى وجهة مخصوصة! وإذن فالمتوقع – على دينه – أن يكون العالم مشوها متهالكا متفطرا متساقطا من حيث الأصل، إلا ما يزعم هو بأقيسته "التصميمية" المتهافتة أن الصانع قد تدخل ليجعله على ما هو عليه! فسبحان الله وتعالى علوا كبيرا على ما يعتقده هذا الرجل في حق ربه وباريه، وعلى ما يلزم من عقيدته من لوازم في حقه سبحانه! ((وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [الزمر : 67]

قال ناقلا كلاما لكارل بوبر في بيان المقصود بمسألة التنبؤ هنا (ص. 444): "في بداية التكوين، لم يكن في الوجود إلا عنصرا الهيدروجين والهيليوم. في ذلك الوقت لم يكن بمقدور عالم ملم بقوانين الطبيعة السارية آنذاك (لو افترضنا وجوده) أن يتنبأ بخصائص العناصر الأثقل التي لم تظهر بعد، ولا مجرد أن يتنبأ بظهورها، كما لم يكن بمقدوره التنبؤ بخصائص أو حتى بظهور أبسط الجزيئات المركبة من العنصرين كالماء. بعد ذلك ظهرت في الكون بشكل متتال مركبات وظواهر جديدة تماما، منها تكون المركبات العضوية البسيطة من العناصر الكيميائية، ثم تكون مركبات الحياة (جزيئات البروتين والرنا RNA والدنا DNA وأيضا السكريات والدهون)، ثم ظهرت الكائنات وحيدة الخلية، ثم الكائنات عديدة الخلايا، ثم حدث الانتقال من التكاثر اللاجنسي إلى التكاثر الجنسي، ثم الترقي في سلم التطور البيولوجي ونشأة الأصناف الأكثر تعقيدا من الكائنات النباتية والحيوانية، ثم ظهور الوعي البدائي في الحيوانات العليا، وأخيرا نشأة الإنسان الحديث بما يتمتع به من وعي خاص وقدرات عقلية متميزة. إني أرى أن ظهور هذه المركبات والظواهر كان أمرا غير متوقع على الإطلاق، ويستحيل التنبؤ به من خلال معرفة تركيب وتفاعل جسيمات المادة، لقد كانت كل خطوة انبثاقا جديدا Emergent Phenomenon بالمقارنة بالخطوة السابقة لها." اهـ. قلت: هذا من بوبر تقرير للعشواء الوجودية التي زعم الدكتور أنه يكذبها ولا يقول بها، وجعل محاولة إبطالها (مع تصحيح خرافة التطور) محورا لبعض كتبه السابقة! يتأمل بوبر في بديع صنع العنصر العشوائي الوجودي في كل من الأسطورة الكوزمولوجية والأسطورة البيولوجية على السواء، وكيف أن تراكم النقلات العشوائية التي لم تزل يتفق لأنساق المادة وقانونها أن تنشئ منها شيئا نافعا، مرة بعد مرة، يورث في نهاية المطاف – بسبب تلك العشوائية نفسها – أنواعا من الموجودات ما كان من الممكن لأي باحث أن يتنبأ بها مهما أعطيته من معطيات الواقع الطبيعي المحسوس في مبتدأ النشأة التطورية المزعومة!

إن المفهوم الذي يقرره الدكتور في كتابه هذا للتوازن، هو مفهوم مغرق في المغالطة والتناقض والثنوية الشركية! فعندما يقال إن الفوضى تتوازن في صنعة صانع ما، مع الانضباط الزائد، على حد عبارة الدكتور، فإن هذا لا يكون إلا تناقضا فجا بالضرورة! ذلك أن الفوضوية لا تكون إلا خروجا على سلطان ذلك الصانع، إذ الفوضوية تعني عدم الغاية، وعدم الغاية إما أن يكون ناشئا عن عدم علم أو عدم قدرة أو عنهما جميعا، وإذن تصبح الطبيعة شريكا للباري في خلق العالم، تخلق له ما عجز هو عن خلقه أو لم يشمله علمه، سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا! فلإن قيل إنها (أي الفوضى المزعومة عند التطوريين ومخانيثهم) إنما جعلت كذلك من أجل أن تتوازن مع قسيم لها في بنية العالم، لم يجز أن توصف بأنها فوضى، وهذا واضح! ولكن لأن الرجل تشرب باعتقاد من قرأ لهم من الطبيعيين الغربيين، أصبحت النظامية والانتظام والقانونية السببية في العالم مرادفا عنده للرتابة الآلية المحضة، عديمة الغاية، جريا على مبدأ السببية الطبيعية المغلقة في المذهب الطبيعي! فإذا كان جنس الأسباب لا يكون إلا راجعا إلى الطبائع المركبة في مادة العالم، فلا يكون النظام الطبيعي إذن إلا نمطا ميتا رتيبا لا إبداع فيه ولا ثراء ولا تنوع ولا مقصد من ورائه ولا شيء مما يوجب عند البشر ذلك الانبهار الفطري بصنعة رب العالمين، إذ لا يكون في أسباب الحوادث ما يوجب شيئا من ذلك أو يفضي إليه! ولهذا اضطر الطبيعيون لأن يدخلوا عنصر العشواء الوجودية لتكون منبعا لذلك التنوع والثراء الواسع في الخلق الذي لا يتصور لديهم تعلله بجملة القوانين الطبيعية الصارمة وحدها! وإذن فالعالم مركب في هذه الميتافيزيقا العصرية المتهافتة من جواهر دفعها محرك أول عشوائي محض للانطلاق في جميع الجهات، ثم لم تزل الطبائع المركبة في تلك المادة تولد من تلك الحركة كل شيء! فما كان راجعا لسبب ما فسببه القانون الطبيعي ولابد، وإلا فالعشواء المحضة! ومن رحم هذين العنصرين الكليين للتصور الدهري لحقيقة العالم، خرجت نظرية داروين نفسها، فاعتمدت القانون الطبيعي الصارم الأعمى الرتيب في آلية الانتخاب، والعنصر العشوائي الفوضوي العبثي في آلية الطفرة، وهو ما تضافر في بناء أسطورة الأصل المشترك!

تأمل قول الدكتور تحت عنوان "كون معلوماتي متوازن" (ص. 442): "يرصد كل عالم حقيقي أن الوجود يتأرجح بين رتابة الانضباط الزائد وبين الفوضى غير ذات المعنى، وكل منهما غير قادر وحده على إنشاء وجود مثل وجودنا. ومن ثم فإن البدائل العقلية عن البنية الحالية لكوننا هما عالم يقتله الروتين الميكانيكي، أو عالم تعصف به الفوضى. لذلك فإن الطرح المادي الميكانيكي المتطرف، السائد في العالم الأكاديمي، والذي يتبنى أن الكون يتبع مفاهيم التطور الحتمي هو طرح متوهم، لا علاقة له بكوننا. وبالمثل فإن فكرة التصميم الذكي الخلقوي هي نمط من الحتمية الإلهية التي تعجز عن الإجابة عن تساؤلات العلم، وهي أيضا قاصرة دينيا لعجزها عن تفسير ما يقع في الطبيعة من كوارث." اهـ. قلت: ليس هذا المذكور أمرا "مرصودا" وإنما هو وهم إلحادي محض! وليس الذي "يرصده" عالما حقيقيا، وإنما هو متعالم مفتون بنظريات الملحدين، غارق في الفتنة بها إلى شحمة أذنه، وهو مع ذلك يزعم أنه يفحم الملحدين ويهدم عليهم إلحادهم، والله المستعان! الصانع الذي يخلق عالما يتأرجح بين الفوضى والانضباط يا دكتور، ليس هو الرب الذي يؤمن به المسلمون، فانظر من أي دين جئت أنت به!

الرجل يختزل معنى الانضباط النظامي في الرتابة وعدم التغير، ويجعل التغير والتجدد مرادفين للفوضى، ثم يأتي بهذين المفهومين الميتافزيقيين الفاسدين ليقول إن ما نراه في العالم من توازن بين الرتابة والتغير، وبين اطراد العادة وانخرامها، وبين السكون والاستقرار الطبيعي والفوران الكارثي الطبيعي، إنما هو توازن بين الانضباط الكوني الصارم الذي يؤمن به المسلمون، وبين الفوضى المحضة التي يثبتها الطبيعيون! فبهذا يلتمس الدكتور عقيدة يتوسط بها بين دين المسلمين ودين الدهرية في مسألة الانضباط والفوضى، لعله يتمكن من إقناع عامة المسلمين من الشباب الذين غرر بهم واستخف عقولهم، بأن الحق الذي جاء به الإسلام إنما هو وسط بين كمال الخلق المطلق من أول يوم، الذي لا متسع فيه للتطور، ولا يترك شيئا بلا معنى أو غاية أو انضباط، وبين العشواء الوجودية السابغة المطلقة التي تستغرق العالم كله عند نفاة الصانع فلا تترك منه شيئا! فإذا به يبتدع دينا جديدا يثبت فيه صانعا مشوها ناقصا، هو إلى إله أينشتاين وسبينوزا وأنتوني فلو أقرب منه إلى إله المسلمين!

فإذا كان المقصود مما يسميه الدكتور بالحتمية الإلهية، التي هي بزعمه " تعجز عن الإجابة عن تساؤلات العلم، وهي أيضا قاصرة دينيا لعجزها عن تفسير ما يقع في الطبيعة من كوارث"، هو أن الرب سبحانه ما ترك شيئا في هذا العالم إلا خلقه من أول ما خلقه على أكمل ما يكون وأحسن ما تحصل به الغايات المقصودة من خلقه (بما في ذلك ما نكرهه وما نستقبحه من مصنوعاته سبحانه من كوارث وأسقام وأوجاع وغيرها)، فلا يقع في ملكه شيء إلا بقدر ولحكمة وغاية لديه سبحانه، فهي إذن دين المسلمين الذي لا قيام لأصل الإسلام إلا به، والذي أثبت الدكتور أنه من أجهل خلق الله به! وإذن فلا وسط بين "الحتمية الإلهية" و"الحتمية التطورية" كما يسميها، إلا الكفر والإلحاد الربوبي أو الاتحادي أو ما شاكلهما من مذاهب الطبيعيين المتألهين المعاصرين! هذا، أيها القارئ المحترم، الغيور على دين المسلمين، هو منتهى سعي الدكتور في نفي العشواء الوجودية عند من سماهم بالدراونة: القول بأن "الكون معلوماتي متزن"، أي أن فيه الفوضى الوجودية عديمة المعنى وفيه كذلك الانضباط الرتيب الذي يجعل منها فوضى خلاقة عبر بلايين السنين! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

والظاهر أن الرجل لما أدرك أن عقيدته محشوة بالتناقضات، طافحة بالمغالطات، قرر أن يسلك مسلكا خبيثا في تجاوز ما هو ظاهر جلي لدى مخالفيه وأتباعه من تلك التناقضات، فذهب في مقطع فيديو نشره على موقعه على اليوتيوب بعنوان "تقبل التعارض"، إلى الزعم بأن الإنسان الناضج والسوي نفسيا هو الذي لا يمانع من وقوع التناقض (الذي يسميه تلبيسا بالتعارض) في بعض اعتقاداته، فمثلا لا مانع من الجمع بين إيمان ديني مفاده أن الإنسان خلق خلقا مباشرا بيد الله في الجنة، و"معرفة" علمية مفادها أن الإنسان تطور داروينيا من أصول منحطة في الأرض، على أساس أن الدين له منهجه وأدلته ومقاصده، والعلم له منهجه وأدلته ومقاصده، وكلاهما متغير بتغير أفهام الناس وتباين عقولهم، فلو تمسك أحدهم بأن ما في عقله هو الحق القاطع وما عليه غيره باطل، فسيصاب بالأمراض النفسية لا محالة!

فالذي يعجز عن الجمع بين التطور والنص الديني، فلا عليه أن يقول إذا سئل عن عقيدته: الدين يقول بكذا، و"العلم" يقول بكذا، ولا ندري حاليا كيف الجمع بينهما، لكن لعل الأمر يتيسر في المستقبل، وانتهت القضية وزال الإشكال! بهذا يرتاح الطرفان ويزول النزاع والمشاحنة ويصبح "البحر طحينة" كما يقولون! ويقال لهذا الهراء إن الإنسان الذي يقبل أن يكون اعتقاده متناقضا هو المريض السفيه حقا، وليس الذي يمنع التناقض ويتخلص منه بأن يقبل ما كان أقوى في الدلالة إن وقع التعارض، ويرد ما يخالف ذلك، أو يتوقف ويقول لا أدري، إن كان الأمر مما يتصور فيه جواز ومعقولية التوقف! أما أن يقال إن الجمع بين اعتقاد مفاده أن أول البشر خلق من ذرية القردة العليا، واعتقاد مفاده

أنه خلق بيد الله من طين، جائز ولا إشكال فيه، والذي يصر على تقديم أحد القولين على الآخر هذا غير ناضج فكريا، فهذه سبة في حق العقل والعقلاء كافة، لا ينبغي أن يقبلها أحد من الناس! فإن أبى الدكتور إلا التعلق بنظريات النفسانيين، فنقول له لا بأس! ففي علم النفس الاجتماعي Social Psycholohy نظرية لليون فستينغر يقال لها Cognitive Dissonance، أو الاضطراب المعرفي، تعد فيه تلك الحالة البائسة التي وصفها الدكتور، حالة مرضية، لا يجد الإنسان منها مخرجا إلا بترك أحد النقيضين، أو بالتفلسف للجمع بينهما، جريا على ما تحمله عليه أهواء نفسه وميولها، فيما يسمى بالعقلنة Rationalization!

والشاهد على ذلك، أيها القارئ الكريم، مسلك الدكتور نفسه في جميع مؤلفاته! فما هي إلا رحلة طويلة بالغة التنطع والعبثية في محاولة الجمع بين نقيضين ظاهرين للخلق كافة إلا للدكتور وأتباعه: الاعتقاد بإله المسلمين، كامل الصفات الذي لا يتطرق إليه النقص بحال، ولا يقع حادث في العالم إلا بأمره المباشر وتقديره التام، وإله داروين الربوبي الذي خلق العالم ثم ترك الأنواع الحية تتولد من بعضها البعض تطورا من أصول فوضوية منحطة، "بآليات" الطبيعة! ولهذا لم يكد الرجل يكتب صفحة واحدة إلا سطر في آخرها ما ينقض أولها أو يشوش عليه! فمن كان هذا دأبه ومسعاه، وما به عرفه الناس وعليه تابعه من تابعه، فلا عجب أن تبلغ به المكابرة والتسويغ والتلبيس (العقلنة) ذلك المبلغ! أوَيتصور أو يرجى لمثله بعدما صار "فيلسوف الأطباء" و"رائد التجديد العلمي والديني" و"جراح الإلحاد" وغير ذلك مما لقبوه به، أن يأتي في يوم من الأيام ليقول: أنا مخطئ، وما كان لي أن أتبنى مبدأ التطور من أصل مشترك، وأنا راجع عن ذلك؟؟ كيف و"مشروعه الفكري" كله من أوله إلى آخره يقوم على أسطورة التطور الطبيعي (الكوني والبيولوجي)؟؟ هذا أقرب إلى المحال إلا أن يشاء الله! أما سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم: "سيخرج في أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصحابه، لا يبقي منه عرق ولا مفصل إلا دخله!"؟! سلم يا رب سلم!

[←20] قال (ص. 61): "كذلك فإن فيزياء الكوانتم لا تعني الخلط بين العلم والدين، لكنها قد تشير إلى آلية مذهلة يستخدمها الإله الخالق للكون في تسيير شئون الوجود." اهـ. قلت: تأمل كيف يتكلم الرجل - على طريقة الفلاسفة – عن رب العالمين وكأنما يتكلم عن مهندس ميكانيكا أو عن مدير مصنع أحذية، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! يا هذا، ربك الذي خلقك لا "يستخدم" لأنه سبحانه ليس في حاجة إلى ما "يخدمه" حتى يطلب ذلك بالاستخدام! هذا ما ينتهي إليه المتفلسفون في الميتافزيقا والغيبيات المحضة على طريقة الدهرية الطبيعيين، قياس باريهم سبحانه على أنفسهم وتشبيه أفعاله بأفعالهم، ووصفه بأقبح الصفات، ولا حول ولا قوة إلا بالله!
وقال كذلك (ص. 87): "الطرح الديني، الذي تأرجح بين المحافظة على دور الإله التقليدي في الوجود، وبين حصر المادية في العالم الفيزيائي والمحافظة على دور الطرح الديني في جوانب حرية الإرادة وبقية الملكات الدينية." اهـ. قلت: والآن يتكلم عن ربه وكأنه ممثل في مسرحية، يلعب فيها دورا "تقليديا" عند أهل الأديان التي تثبته!! ويجمل كلام جميع أهل الملل، ومنهم المسلمون، فيما سماه بالطرح الديني، ووصفه بأنه يتأرجح!! وقال (ص. 192): "ومن ثم نقصد بهذين الفصلين إلى أن نتعرف في كوننا على المايسترو وعلى الأوركسترا، أو قل على المخرج وعلى فريقه من الممثلين والفنيين." اهـ. قلت: وهنا يصف رب العالمين بالمايسترو الذي يقود فريق الموسيقيين، والمخرج الذي يقود الممثلين!! فبالله هل هذا من كلام المسلمين؟؟ نسأل الله السلامة!

[←21]
سئل بول ديفيز في لقاء تلفزيوني أجراه معه روبرت كوون R. Kuhn المفكر والكاتب الأمريكي، عن مفهوم الإله God لديه، فقال:

> عندما كنت صبيا، كان لدي تلك الصورة المشهورة للإله، ككائن خارق في السماء أو فيما وراء الكون، كساحر كوني يمكنه أن يحضِّر الكون إلى الوجود Conjure the universe into being، فكان وجوده داخل الزمان، وكان يشهد الحوادث وهي تحدث، ويتدخل من وقت لآخر لإحداث المعجزات. فلما صرت عالما طبيعيا Scientist، أبغضت تلك الفكرة. كرهت فكرة أن قوانين الطبيعة يمكن أن تعطل أو تعلق بصورة ما أو بأخرى، وكذلك فكرة أن الإله مجرد قوة أخرى من قوى الطبيعة، حيث تجد الجاذبية وتجد القوة الكهرومغناطيسية، و.. آه وهناك كذلك الإله، من وقت لآخر!! يحرك الذرات بقوى إضافية، ثم يختفي لفترات زمانية طويلة. وأعتقد أن هذه الفكرة تسيء إلى الثيولوجيين كذلك، فكرة أن الإله هو كائن ينشط على فترات، فيتدخل من آن لآخر، كنوع من السحرة، يسمح للكون بالخضوع لقوانينه الخاصة، ولكن من آن لآخر يتلاعب به tinkers with it، كمتلاعب كوني Cosmic tinkerer.. أمر شنيع! ولكن لدينا فكرة أكثر رقيا للإله، ككائن غير متزمن timeless، هو الأساس الذي تنبع منه عقلانية الكون. وهذه الفكرة لها جاذبية عظيمة، وأظن أن كثيرا من الفيزيائيين يعتقدونها على الحقيقة، وإن لم يكونوا يستعملون كلمة God. فهم يعتقدون أن قوانين الفيزياء بصورة ما أو بأخرى مضمونة في الكون بصورة مطلقة وأنها مربوطة بصورة ما، وليست طافية بحرية، وإن لم يكونوا على دراية بماهية ذلك الرابط أو الضامن تحديدا!

قلت: هذا هو الإله الذي يثبته ديفيز، أو يجوز ثبوته! فلا أدري والله أين وصف الرجل نفسه بأنه "لاأدري"، وإن كان قالها، فكيف يكون مراده بها أنه لا يدري هل الإله الذي نعبده نحن المسلمين – مثلا - موجود أم لا؟! الرجل يقطع بأن الخالق الحكيم العليم الذي خلق العالم كله بقدرته، وهو الآن شهيد ورقيب عليه، يتصرف فيه كيف يشاء من غير تقيد ولا خضوع للسنن التي ركبها فيه، هذا الخالق غير موجود! بل هو أسطورة من أساطير الأولين! لماذا؟ لأنه يكره – بزعمه - فكرة أن يكون ثمة كائن غيبي يملك أن يعطل قوانين الطبيعة إذا شاء، ويحدث الخوارق والمعجزات! فلماذا كرهها؟ يقول إن انضمامه إلى زمرة العلماء الطبيعيين هو الذي حوله من قبول ذلك الخالق إلى رده وبغض مجرد فكرة وجوده! فأينما تكلم هذا الرجل عن الإله، فهو يقصد إله سبينوزا الدهري، بصورة ما أو بأخرى، ذلك الإله العدمي الذي هو – عند ديفيز - في الحقيقة وفي منتهى الأمر، شيء طبيعي محض كامن في داخل الكون نفسه لا خارجه، غير متقيد بالزمان (على المفهوم الأينشتايني للزمكان) لم يزد على أن كان هو منبع المعلومات التي ابتدأ بها القانون الأول للعالم، ثم أخذت في التنامي والتكاثر والتطور حتى خلقت الحياة على الأرض! فما هي المعلومات هذه؟ ليست إلا القوانين الطبيعية نفسها، التي تعمل عمل الحاسوب في فرض نظامها ونشره في العالم! فبالله هل هذه نظرية تثبت بها ربوبية الله رب العالمين؟؟ وهل هذا كلام من يصلح أن يحال عليه الناس ليروا كيف يبطل دين الملحدين، وليروا كيف أن "العلم" يثبت لربنا الذي نعبده – نحن المسلمين - أنه الحق وحده لا شريك له؟
نعوذ بالله من الخذلان!
وفي مقال له على صحيفة الغارديان تحت عنوان "نعم الكون يبدو وكأنه مضبوط Fixed، ولكن هذا لا يعني أن الإله هو الذي ضبطه."، ذكر ديفيز مسألة الضبط الدقيق Fine Tuning وكيف أنها قد أصبحت ملاذا رائجا لدى الخلقيين والثيولوجيين لإثبات الإله، ثم ذكر جواب الأكوان المتعددة Multiverse، وقرر أن كلا الموقفين لا يعجبانه، لماذا؟ لأنه سواء الموقف الثيولوجي أو موقف ميتافزيقا الأكوان المتعددة، فكلاهما يلتمس أمرا خارجا عن هذا الكون الذي نعرفه، ولذا فكلاهما – في زعمه – يفتح باب التسلسل! فكما أن القول بأن الكون يلائم الحياة على الأرض تلك الملاءمة التامة بسبب أن الخالق جعله كذلك، يفتح السؤال: فمن الذي خلق الخالق، فكذلك القول بأكوان متعددة فيها نظام كلي أو قوانين عليا Meta-Laws هي التي أنتجت قوانين كوننا هذا، يفتح باب السؤال: فمن أين جاءت تلك القوانين العليا نفسها؟ فما الحل وما المخرج في عقيدة ديفيز الإلحادية الطبيعية الصرفة؟
المخرج، كما بين في المقال، هو أن نغلق باب التطلع إلى تفسيرات لوجود الكون ولكونه على ما هو عليه، خارج الكون نفسه، وأن ننخرط في كوزمولوجيا الكون الحاسوبي المعلوماتي عنده وعند سيث لويد، فنؤمن بأن الكون الذي لم يزل "يحسب" نفسه بنفسه، لم يزل تتراكم المعلومات في مادته عبر بلايين السنين من التطور الكوني المزعوم، حتى اتفق له أن بلغت قوانين الفيزياء فيه أخيرا مبلغا من التطور سمح بظهور الحياة وانضباطها! فإذا سئلنا عن منبت "البذرة المعلوماتية" الأولى التي تطورت ذلك التطور العجيب، وعن منبت المبدأ الحاسوبي المزعوم نفسه، قلنا لا ندري، ولكن لعل العلم يكشف ذلك غدا، كما يجيب الدراونة كل من سألهم عن منبع الحياة نفسها! وإذن ننتهي في جواب السؤال: من أين جاءت القوانين المنضبطة وذلك الانضباط نفسه، إلى القول بأن الكون هو الذي أنبتها ذاتيا من داخله بآليات حاسوبية تطورية! وإذن تصبح "الطفرات الحاسوبية" عند هذا الفريق من التطوريين الكوزمولوجيين، هي نظير "الطفرات الجينية" عند التطوريين البيولوجيين، ويكتمل التأسيس الدهري الطبيعي لأسطورة التطور في مسألة النشأة Evolutionary Origins على نحو منغلق سببيا على الكون وما فيه، كما اتفق لأسطورة التطور البيولوجي من قبل! ويصبح لدى الملحد المعاصر – أخيرا – ما يغنيه عن التطلع إلى علة غائية خارجة عن هذا العالم نفسه، تفسر كونه على ما هو عليه، لا الإله، ولا الأكوان المتعددة، ولا القوانين العليا، ولا شيء من ذلك!
فبالله هل هذا اعتقاد من يصح أن يوصف بأنه "لاأدري"؟؟ أي شيء هذا الذي يزعم الدكتور أنه "لا يدريه"؟؟ وما معنى "لاأدري" عنده أصلا؟ الرجل أشد إغراقا في الطبيعية الدهرية وفي التأصيل والاختراع الكوزمولوجي لعقائد الإلحاد، من سائر الملاحدة العرب الذين يدعوهم الدكتور لقراءة مؤلفاته، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فهل فهم الدكتور كتب هذا الرجل قبل أن يستحسنها؟؟
تأمل قول الدكتور (ص. 196): "ينبغي أن ندرس القضية دراسة منصفة موضوعية، لذلك لن أناقشها بمنظور المتدينين، بل بمنظور محايد، وقد يتطلب ذلك اللجوء إلى طرح اللاأدريين الحقيقيين، المتحررين من شبهة الهوى والتحيز، وقد اخترت منهم الفيزيائي النظري الكبير بول ديفيز. دعنا نرى كيف ينظر بول ديفيز لمعضلة حقيقة الوجود." اهـ. قلت: بول ديفيز متحرر من شبهة الهوى والتحيز؟؟ الذي يقول إنه لا يدري هل هو مخلوق أم لا، وهل له رب يقوم بأمره وبأمر العالم وما فيه أم لا، هذا يتصور فيه التحرر من شبهة الهوى والتحيز؟؟ فبأي شيء يخرج العقلاء من هذه القسمة الضيزى إلا بأن أهل الملة الوحيدة المثبتة للباري كامل الصفات المنزه عن النقائص كلها، المستحق للعبادة والتأليه، يدخلون في سلة "المتدينين" الذين ترد عليهم شبهة التعصب والهوى، كما ترد على الملحدين الغلاة

المصرحين بنفي الصانع؟؟ وأي دين يكون عليه من يجعل اللاأدرية هم الوسط المنزه من تلك الشبهة بين هذين الطرفين؟؟ ما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!
يجب أن يفهم أتباع الدكتور ومريدوه (أو "رفقاؤه في رحلة العقل" كما يسميها في صفحته على الفيس بوك) أن دينهم وأصل إسلامهم نفسه على خطر عظيم، وأن تلك النظريات التي جاء بها في كتبه، لا سيما كتابه الأخير هذا، إن كان فيها حجة لأحد، فإنما هي حجة للملاحدة قطعا لا عليهم، وهي توطئة لأسلمة الإلحاد وتلبيس الدين الطبيعي بدين المسلمين، وليس محاربة الإلحاد ومكافحته كما يوهم الدكتور نفسه ويوهمهم! فما أسعدهم بكتبك وأهنأهم بفلسفتك يا دكتور، ويا له من خذلان، والله المستعان!

[←22] ونحن نجد في خبرتنا البشرية حالات كثيرة يكون فيها الشيء الملاحظ المشاهد قابلا للتفسير بأكثر من سبب كلها تفضي إلى نفس ذلك الأثر بحذافيره، فنحتاج إلى الاستعانة بمشاهدات أخرى وبمحصول الخبرة الاستقرائية في الربط بين تلك المشاهدات جميعا ربطا سببيا، وقد بسطنا الكلام على ذلك في الباب الثاني من هذا الكتاب فلا نعيد.

[←23]

وعلى أثر التشيع بميتافزيقا البارادايم الدارويني وتعريفاته الكلية، قد بتنا اليوم يقال لنا عند هؤلاء الأذناب "خلقويين"، فما أشبه الليلة بالبارحة!

[←24]
وإذا كان بعض علماء الأزهر الشريف قد تساهلوا مع ما حرره الدكتور عمرو في كتبه القديمة من أقوال وعقائد وأفكار، على أساس أنها مؤلفات أستاذ جامعي معروف بمحاربته الإلحاد، فأرجو أن يكون كتابه الأخير هذا قد كشف لهم حقيقته، والوجهة التي هو ماض إليها!

[←25]

هذه الدعوى، دعوى أن الإله هو المرجح الكمومي لكل شيء، وأن العالم لا تقع فيه جميع الاحتمالات معا وإنما يقع منها احتمال واحد فقط في كل حالة من حالاته، ليست من كيس باسل الطائي، بل قد تكلفها بعض اللاهوتيين الطبيعيين من النصارى من قبل على أن تكون برهانا لإثبات الصانع من طريق مسألة الرصد الكمومي، وقد تكلمت عليه في غير هذا الموضع، ونضيف هاهنا أنه مناقض لمفهوم القياس نفسه عند الفيزيائيين! ذلك أن القياس Measurement الأصل فيه هو ذلك التدخل البشري المباشر في النشاط تحت الذري باستعمال أدوات معينة من أجل رصد ما يجري فيها، وهو ذلك التدخل الذي ثبت بالتجربة، وكما عبر عنه فيرنر هايزنبرغ بمبدئه المعروف، أنه لا يقع إلا أحدث تغييرا في نفس الظاهرة المراد رصدها لا محالة! فإذا كان هذا هو القياس، فأين ومتى على مذهب أصحاب هذا البرهان يقع "القياس الإلهي" لأي عملية من عمليات عالم الكم؟؟ وإذا كان الله يرصد كل شيء في كل لحظة، ولا يخفى عليه مثقال ذرة وما تحتها، فمتى وأين تحصل موجة الاحتمالات الوجودية المزعومة "قبل الرصد"؟؟ هذا تشبيه أفعال من أسخف ما أنت راء عند اللاهوتيين (ومن تبعهم من المتكلمين)! الله تعالى لا "يقيس" يا هؤلاء، وإنما أنتم من تقيسون وترصدون على تلك الطريقة الاقتحامية التي أوقعتكم في حيص بيص!

فإذا كان تأويل بور وهايزنبرغ لتأثير عملية الرصد هذه على الواقع الوجودي للحالة الكمومية المتعرضة للرصد، مداره على عملية القياس البشري المعملي هذه، فإذا انتفت تلك العملية عن الباري، فبأي شيء يقال إن "رصد" الإله هو الذي يرجح كون الأشياء على ما هي عليه؟؟ بل يلزم بور وصاحبه أن يعتقدا أن الأصل في الواقع عدم القياس وعدم الرصد (بهذا المعنى)، إلا فيما يحصل له القياس والرصد في المعامل، وهو ما يقتضي بقاء العالم في عماء وفوضى احتمالية واجتماع كل شيء بنقيضه، فلا يمتاز حي من ميت (كما في قطة شرودينغر) ولا ساكن من متحرك، ولا قائم من نائم ولا شيء من شيء من خلافه على الإطلاق، إلا حيث يحصل القياس المعملي الذي به تنهار موجة الاحتمالات! أي أن يبقى العالم كله موجة احتمالات وجودية عملاقة لا مرجح لها إلا ما يقع في معاملهم من رصد وقياس من آن لآخر! وأما أصحاب البرهان اللاهوتي القائم على ذلك التأويل الخرافي، فعلى مفهومهم للقياس، وتسويتهم بينه وبين إبصار الرب، فيلزمهم إبطال موجة الاحتمالات هذه بالكلية وألا يكون لها وجود البتة، على أساس أن العالم كان ولم يزل "مرصودا" من أول يوم تحت عين الباري، وإذن فكل ما يقع فيه فهو واقع "بعد الرصد" لا قبله، وإذن فلا معنى لادعاء أن يكون للراصد البشري ذلك التأثير الذي يزعمونه، ولا حصول "لانهيار الدالة الموجية" على الإطلاق!

يا دكتور باسل ويا دكتور عمرو، هذا التأويل الهايزنبرغي البائس السخيف لميكانيكا الكم، أمسى كثير من الفيزيائيين أنفسهم يخجلون منه ولا يقولون به (وانظر إن شئت نقد شون كارول له في مناظرته مع ويليام لين كريغ)، لا سيما بعدما وجد الطبيعيون في تأويل العوالم المتعددة متمسكا للرد على استعمال المخالفين لنظرية الضبط الدقيق الكوزمولوجية! فهذا الذي تسلكونه من تلبيس العقائد بعضها ببعض، لا يرتضيه منكم أهل الإسلام ولا أهل الملل الطبيعية، والله المستعان!

[←26]

خذ على سبيل المثال قوله في كتاب المعلوماتية هذا (ص. 462): "خرج أنتوني فلو من رحلته العلمية والفلسفية بما أسماه "الحد الأدنى للصفات التي ينبغي أن يتسم بها السبب الأول"، وجاءت هذه الصفات مطابقة تماما لما تطرحه الديانات عن الإله"! اهـ. قلت: وهذا تصحيح ظاهر لعقيدة فلو في صفات الباري وأفعاله، وهذا باطل عظيم ولا شك لما سبق أن بيناه في موضعه من هذا الكتاب من عقيدة الرجل الربوبية المحضة، وفيه كذلك ادعاء أن جميع "الديانات" تشترك في وصف الباري بتلك الصفات التي حررها فلو، وهو كذب وجهل! ونظيره قوله في نفس الكتاب (ص. 454-455)، بعدما نقل كلاما للرجل فيه تقرير لبعض صفات الصانع الذي يثبته: "هذه هي صفات الإله المرسل لمنظومة التواصل الثلاثية كما أدركها العقل الفلسفي في أصفى تجلياته. ولا أحسب هذه الصفات تختلف قيد أنملة عما وصف به ربي عز وجل نفسه في كتبه السماوية. فعندما قرأت هذه الصفات لأول مرة كما أدركها سير أنتوني فلو، خلت كأني أقرأ شرحا لسورة الإخلاص، حيث يقول ربي عز وجل ((قل هو الله أحد (1) الله الصمد (2) لم يلد ولم يولد (3) ولم يكن له كفوا أحد)) (سورة الإخلاص). فسبحانك ربي، ما أصدق عطاءات العقل والعلم، إذا صدقت النية في البحث عن الحق." اهـ. قلت: الله أكبر! بهذا لا يصبح اعتقاد "السير أنتوني" في صفة الباري اعتقادا صحيحا وحسب، بل إنه لا مانع إذن من أن يرجع إليه المسلمون يعاملونه معاملة الشرح لسور القرآن، يعتمدوا "عطاءات العقل والعلم" التي وقعت له، وصدق النية في البحث عن الحق الذي تحلى به (بزعمه)، حتى يأخذوا الدين والاعتقاد عنه، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولا بأس بأن يكتشفوا أن الرجل انتهى في "إخلاصه" هذا و"صدق نيته" و"تجلياته الفلسفية الصافية" تلك، إلى تسفيه الإسلام ونبي الإسلام وشتم الرب الذي يعبده المسلمون! فلسان الحال يقول: الرجل "مجتهد" أصاب وأخطأ، وله رأي يحترم ما دام قد أثبت أخيرا ربا صانعا للعالم، كما هو مطلوبنا من خطاب الملحدين، وإن كان لم يوفق لصحيح الدين، فلا تتشددوا ولا تتشنجوا! ونقول: لا بأس، إذن فلن تغضب يا دكتور إن قلنا: نسأل الله أن يحشرك يوم القيامة مع السير أنتوني فلو، الباحث الصادق "المؤمن" الذي "اجتهد" فأخطا حيث "اجتهدت" أنت فأصبت!

[←27] قال في كتاب المعلوماتية (ص. 421): "هل يمكن دينيا وعلميا قبول مفهوم "الطبيعية الدينية Theistic Naturalism" الذي يتبنى النظر إلى قوى الطبيعة وقوانينها باعتبارها آليات الإله في خلق (الكون؟) وإدارته؟ ونعالج هذا المفهوم في إطار العلاقة بين العلم والدين في ضوء المعلوماتية في ثلاثة فصول." اهـ. قلت: هذا هو الدين الذي يدعو إليه الدكتور، فتأمل أيها القارئ الكريم! فهو الآن يصرح بأنه من المقبول دينيا وعلميا القول بالطبيعية الدينية المعاصرة كما التقطها من تلك الكتب التي غرق فيها وفي النقل عنها، ولا عجب! وبما أنه يصرح في نهاية الكتاب بأنه إنما نقل أكثره، حتى إنه لينقل فصولا بأكملها، من كتب أولئك الذين سماهم خلال عرضه مادة الكتاب، ويأتي ليحيل على تلك الكتب صراحة، فهو يدعو قارئه بذلك لأن يتلقى النحلة الطبيعية من أولئك تلقيا مباشرا كما تلقاها هو منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

[←28]

تأمل كيف لا يبالي الدكتور بما ينقله عن سفهاء الطبيعيين هؤلاء من عباراتهم الساخرة في وصف رب العالمين، وتشبيهاتهم الماجنة الهازئة اللاعبة، كتشبيه هذا المجرم ديفيز ربه – في صورة هزلية رائجة في أدبيات هؤلاء - بالسلحفاة الكبرى فوق برج السلاحف! والكتاب مشحون بنظائر تلك السفاهة والوقاحة، وكأن الرجل ما زاد على أن ترجم نصوص هؤلاء الذين نقل عنهم من غيرما اكتراث بما فيها من شتم لربه، فحسبنا الله ونعم الوكيل!

[←29]

وهذه الفكرة (فكرة أن وجود الإله كراصد Observer هو الضامن لوجود كل شيء)، قد تبناها بعض اللاهوتيين النصارى المعاصرين ممن اعتنقوا تأويل كوبنهاغن لميكانيكا الكم، وجعلوا منها برهانا على وجوده، فيه شبه من كلام الدكتور عمرو في جعله الرب سبحانه هو "المرجح" لموجات الكوانطا الاحتمالية! قالوا إذا كانت الجسيمات لا تتخذ لمواضعها وسرعاتها وحركاتها وصفا تتعين فيه وجوديا إلا بأن يرصدها راصد، وبما أن الوقع الخارجي يظل موجودا حتى وإن يم يرصده أحد من البشر، لزم أن يكون ثمة راصد مطلع على كل شيء، تترجح به جميع أحوال الجسيمات الكوانطية طوال الوقت، ومن ثم لزم ثبوت الباري، الراصد المطلق!

[←30]

وقد رأينا كيف أنه لا يتكلم باسم الإسلام أصلا، ولا يدعو إليه على الحقيقة، وإنما يتكلم باسم "المتدينين" الذين هم عنده كل من يثبتون صانعا ما، أيا ما كانت ملتهم! وإنما يستعمل نصوص الكتاب والسنة عند مخاطبة المسلمين ولهذا صرح في غير مناسبة بأنه يجالس الملحدين من النصارى كذلك، يدعوهم للرجوع إلى إثبات الصانع! فماذا بعد؟ يرجعون إلى الكنيسة على دين الربوبية الاتحادية الطبيعية التي كشف الرجل عنها في كتابه الأخير، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←31]
من بلايا هذا الزمان أن أصبح ما يسمى بعلم الأعصاب كلأ مستباحا لكل من هب ودب، ينشر أحدهم كتابا يزينه بصور ملونة للمسح المخي Brain Scans يزعم وجود الروابط بينها وبين سلوكيات معينة وأفكار معينة عند من أجرى عليهم تلك المسوحات، ثم يقول إنه استطاع أخيرا أن يتوصل إلى أجوبة كافة الأسئلة الوجودية الكبرى من طريق علم الأعصاب Neuroscience! وإذا بنا نرى المقطع اللغوي Neuro هذا يركب على كل شيء تقريبا! إلى حد أن تجد من يكلمك عن علم الأعصاب الأخلاقي Neuro-ethics كسام هاريس مثلا، حيث يسعى لتأسيس مذهبه الإنساني الدارويني وقيمه الأخلاقية كلها على مخرجات البحث في علم الأعصاب، و"التفسير العلمي" لميل الناس إلى كذا وكذا! بل وجدنا من يتكلم عن علم الأعصاب السياسي Neuropolitics فيسعى إلى تفسير المواقف السياسية للجمهوريين الأمريكيين – مثلا – من خلال تتبع العلاقات بين أفكارهم وسلوكياتهم وبين نشاط النيورونات في أمخاخهم! فلا نعجب إطلاقا عندما نرى من يخرج علينا باصطلاح Neurotheology أو علم اللاهوت العصبي، يقصد بذلك دراسة صفات الباري (ووجوده نفسه من الأساس) كما يستشعرها أصحاب التجليات الصوفية، ومحاولة الوصول إلى حقائق دينية وجودية (كمحاولة الدكتور عمرو نفي العشوائية وجوديا عن نشأة المخ نفسه بإثبات الغائية الإلهية من وراء خلق تلك التجارب الصوفية والتجليات وخلق الطريق إليها في وجود البشر)!

فقد ذكر المؤلفان الذان نقل عنهما الدكتور مبحثه هذا، في كتاب لهما بعنوان "لماذا يظل وجود الإله ملحا على عقولنا؟" Why God Won’t go away، أن ما سمياه بعلم اللاهوت العصبي هو طريق يطمعان من خلاله للتوصل أخيرا إلى ما سمياه بالثيولوجيا العليا Megatheology التي تقدم التفسير الطبيعي والبيولوجي المتكامل لجميع نقاط الاتفاق والاختلاف بين أهل الملل، وتقدم لهم جميعا الأساس العلمي التجريبي الذي يمكنهم به أخيرا أن يؤسسوا عقائدهم الغيبية على "أساس علمي"، وعلى استعمال صحيح لتلك المواضع من المخ التي يحصل للإنسان "الاستنارة" Enlightenment من تشغيلها! فقالوا ما معناه أننا إذا فهمنا – مثلا – لماذا يرى أهل الأديان (أو على حد عبارتهما: يستشعرون) أن الإله هو سبب كل شيء، وما الذي يجري في أمخاخهم وأجهزتهم العصبية حال مرورهم بذلك الشعور، وقارنا ذلك بما يجري في أمخاخ من ينكرون تلك الفكرة حال إنكارهم لها مثلا، لاستطعنا أن نفسر كلا الموقفين تفسيرا بيولوجيا يصلح أن يكون هو نفسه أساسا لموقف ديني ثالث بشأن المسألة برمتها (من الناحية الوجودية)! فصحيح أنهما يريان أن العلم الطبيعي لا يوصل منه إلى ترجيح وجود تلك الكيانات الغيبية التي يزعم الصوفية من أهل الملل أنهم يرونها ويتعاملون معها تعاملا مباشرا، كل منهم بحسب دينه، إلا أنهما يريان أن فيما تفيد به أبحاثهما وغيرهما في ذلك المجال ما يكفي لاكتشاف الطريق إلى تحقيق أرقى وأسمى "التجارب الروحية" التي يمكن أن يحتاج إليها الطبيعي الدهري في يوم من الأيام! "فوحدة شهود" الصوفي الدهري الطبيعي Naturalist Mystic هي نفسها وحدة شهود الصوفية المسلمين، وهي نفسها وحدة شهود الهندوس والبوذيين وكهنة التبت، وقد انتهى هو أخيرا إلى إثبات كونها تجربة بيولوجية محضة لا تحتاج إلى دين معين حتى تتحصل للإنسان إذا طلبها! ويبقى الباب مفتوحا لمن أراد أن يعتقد أن جميع ما يزعمه أهل الأديان الوثنية من تأويلات غيبية لما يحصل لهم من تجارب إدراكية في تلك الأحوال "الخاصة" إنما هو نشاط مخي وعصبي محض لا حقيقة له في الخارج، قد اتفق لهم أن ترقى نظام كهرباء وكيمياء أعصابهم وجملة النظام الحيوي في أمخاخهم داروينيا على نحو يحققه لهم! وكأنما يقولون لأقرانهم من الدهرية الطبيعيين: إذا كانت تلك الأسئلة الوجودية الكبرى تنشأ عن حالات معينة من الوعي والإدراك في المخ، واكتشفنا أن ثمة حالات أخرى تشعر الإنسان وكأنما تحصل أخيرا على جوابها، فلتكن هي إذن جوابها، وليقم الدين كله على ذلك الأساس، بصرف النظر عن نظام الاعتقاد الذي يصاحب حالات التأمل العميق تلك ويوصل صاحبه إلى "الاستنارة الصوفية" Mystical Enlightenment! وبذلك يكون أندرو نيوبرغ هذا وأصحابه قد أسسوا لدين طبيعي جديد، يعلم صاحبه – على الأقل – الأسباب البيولوجية لتلك الحالة لديه ولدى غيره من أهل الملل، ثم له أن يعتقد ما يشاء في الأسباب الغيبية وراء تلك الأسباب البيولوجية، إن كان ولابد فاعلا! ولربما أفادهم هذا، وهم الدهرية الملحدون، في أن يخترعوا عقاقير معينة بحيث إن تعاطوها، هيأوا لأنفسهم نظير تلك الحالة الشعورية التي يمر بها الصوفية من أهل الملل فيما يقال له وحدة الشهود، دون أن يكون لديهم اعتقاد غيبي معين ملازم لتلك الحالة، وهو ما به يرجو هؤلاء أن يشبعوا رغبة الملحدين الدهرية في التلذذ بتلك التجارب الشعورية (أو الروحانية كما يسمونها) كما يتلذذ بها أصحابها من أهل الملل!

[←32]

وهذه الشبهة الوثنية الهندوسية القديمة لا يجاب عنها بأكثر من أن يقال: إذا كانت البداهة توجب لعلة هذا العالم التي رجحته على عدمه أو على غيره، أن تكون خالقا عليما حكيما بالغا الغاية في كمالات الخالقين أولي الحياة والعلم والإرادة والقدرة، فهي كذلك توجب له ألا يرضى من مخلوقاته إذا كلفهم وخيرهم في الفعل والترك إلا أن يعظموه غاية التعظيم ويوقروه غاية التوقير، وينزلوه منزلته الصحيحة اللائقة به، فلا يسبوه ولا يشتموه برفع بعض خلقه إلى منزلته سبحانه! لهذا كان توحيد الألوهية هو غاية التوحيد ومقصود الرسالات والنبوات كافة، وموضوع كل كتاب أنزله الرب جل شأنه على أمة من الأمم أو بعث به رسولا من الرسل، والمقصد الأعلى من كل شريعة أنزلها على عباده، ولهذا كان مما يرده ويمجه العقل الصحيح الصريح وتأباه الفطرة السوية أشد الإباء، أن يُظن بصانع السماوات والأرض ومليكهما وخالق كل شيء جل شأنه وتقدس اسمه، أنه قد يقبل من بعض خلقه دينا لا يوحد فيه بما هو أهله، ولا ينزل منزلته اللائقة به! يخلق ويرزق ويدبر الأمر ويمسك بزمام الأسباب كلها من أولها إلى آخرها، ثم يعبد بعض خلقه (الذين لا تتقلب أنفاسهم في صدورهم والدماء في عروقهم إلا بسلطانه) بعضا من خلقه من دونه ويعظموهم التعظيم الذي لا يليق إلا به، فبأي عقل يظن به أن يرضى بذلك، وأي شيء يكون ذلك الظن إذن إلا تنقصا منه وقياسا له على المخلوق المضطر لقبول الإساءة البالغة في مقابل إحسانه السابغ على من أحسن إليه؟ هذا محال ممتنع في البداهة، وهذه هي الحقيقة البدهية التي كرهها هؤلاء أعظم الكراهة، فزينت لهم شياطينهم كل سبيل من سبل السفسطة واللجاجة من أجل التشغيب عليها والفرارمما تقتضيه في حق أحدهم، والله المستعان!!

سبق أن بينا في غير موضع حقيقة أن التلازم بين معنى الحدوث Occurance / Event ومعنى الإحداث Agency ومعنى السببية Causation متقرر في الفطرة واللغة على نحو لا يلجئ إلى الاستدلال، بل ولا يلجئ إلى تكلف التصريح بالإثبات اللفظي كحقيقة معرفية (أي لا يحتاج العاقل إلى أن يستخرج من نفسه عبارة عن ذلك المعنى يقررها في ذهنه أو يخاطب بها غيره)! فإذا سمع العاقل سوي النفس عن شيء ما أنه قد "حدث" Happened فإن أول ما يطرأ في ذهنه بداهة هو السؤال "لماذا حدث؟" ويقترن به السؤال "من الذي أحدثه؟" أو "من الذي جعله كذلك؟"! ترى شيئا من موجودات العالم من حولك على صورة تعجبك، فتجد نفسك محمولة فورا على الثناء على من أحدثه، دون أن تتوقف ولو للحظة لتفكر فيما إذا كان له محدث Agent قد صدر عن مشيئته وقدرته أم لا، فضلا عن أن تبلغ بك السفسطة وسخافة العقل الفلسفي أن تتساءل عما إذا كان قد حدث أصلا أم لم يزل على ما هو عليه من الأزل! هذه الحقيقة الكلية من بدهيات العقل، كما أن إثبات الباري جل شأنه من البدهيات الفطرية المستقلة عنها! أي أننا لا نرتب إحداهما على الأخرى في معرفتنا كبشر أسوياء، فنقول على طريقة الفلاسفة والمتكلمين: بما أن كل حادث لابد له من محدث، والعالم حادث، إذن فلابد للعالم من محدث! ليس إثباتنا الباري جل شأنه بالغيب مسألة نظرية مفتقرة إلى استدلال أو مقدمات تترتب عليها، تماما كما أن العلاقة بين الحدوث والإحداث (لابد لكل حادث من محدث يرجحه على خلافه وعلى عدمه) التي قامت عليها المقدمة الأولى لبرهان الحدوث عند أصحابه، علاقة بدهية ضرورية! وليست تلك العلاقة المعنوية بين الحدوث والإحداث بأكثر جلاء أو ضرورية أو بداهة في عقول الأسوياء من البشر، من القول بوجود الباري جل شأنه، بل لعل العكس هو الصحيح! فإذا كان من السفاهة والسفسطة أن تتخذ إحدى القضايا البدهية الصحيحة بنفسها لا بغيرها، مقدمة لإثبات صحة قضية بدهية صحيحة بنفسها كذلك، فكيف إذا كانت القضية المراد إثباتها، أظهر وأكثر تمكنا من فطرة الإنسان وقربا إلى نفسه وذهنه من تلك القضايا المتخذة كمقدمات لإثباته؟؟! هذا خلف في العقل مبين!

ولا نلتفت لسفسطة الفلاسفة الدهرية الذين يقولون إن اعتقادنا بالتلازم بين معنى الحدوث ومعنى الإحداث هو اعتقاد راجع إلى طفولتنا العقلية التطورية حيث كان الإنسان يميل إلى تشخيص كل شيء ونسبة كل حادث من حوادث الطبيعة إلى شخص فاعل على سبيل التمثيل البشري Anthropomorphism، وهو ما بدوره أفضى إلى نشأة الاعتقاد بوجود شخص خالق ورازق وقائم بأمر العالم! هذا كلام من يصرون على مغالبة الفطرة والبداهة بفرض غيبي قياسي واه، يقتضي إثباته الذهاب بمبدأ البداهة نفسه ومن ثم بمصداقية العقل في جميع أحكامه بلا استثناء! فحقيقة أن البشر يجدون في أنفسهم بداهة أن لكل حادث محدثا، وأنه لا يقع في العالم حادث إلا لابد له من مشيئة وقدرة ينتهي إليها تعليله ويكون بها ترجيحه على ما سواه، مهما طالت سلسلة الأسباب التي أفضت في النهاية إليه، هذه يصر الدهري على تفسيرها باستعمال نظرية لو سلمنا لهم بصلاحيتها لتفسير البدهيات الفطرية عامة، للزم إسقاطها هي نفسها، إذ لا يبقى ثمة أساس في العقل للوثوق بصحتها هي نفسها، ولا بغيرها من الدعاوى المعرفية عند الإنسان والحالة هذه! إن كنا كلما زعمنا البداهة والضرورة في قضية من القضايا، جاءنا من يقول إنها لا بدهية ولا فطرية ولا شيء، وإنما توهمناها كذلك لأن عقولنا قد تطورت داروينيا لتوهمنا بذلك حتى ننجو من مخاطر الوحوش الضواري في بداية تطور النوع، فلابد أن يتسلسل ذلك المنطق حتى يأتي على أصول الاستدلال لأثبات تلك النظرية نفسها بالإبطال، أيا ما كانت أدلتها عند أصحابها، فلا يبقى في العقل من أساس للقول بها هي نفسها، فضلا عن استعمالها في تفسير ما يفسرونه بها، فتأمل!

وليس الشأن فقط في كونها تهزم نفسها بنفسها Self Defeating، ولكن في بطلان أصولها العقلية الكلية التي قامت عليها، وفي بطلان دعوى التمثيل البشري نفسها في إثباتنا تلك المعاني! فعندما نقول إن السماء تبدو مرتبة على الأرض، وكل ما في الأرض يبدو مخلوقا في محله الصحيح، لغايات وحكم يظهر لنا منها ما يظهر ويخفى ما يخفى، فليس منبع ذلك عندنا أننا نقيس نشأة العالم وبناءه على ما هو عليه، على إنشائنا نحن ما ننشئ وصناعتنا ما نصنع! بل البداهة والضرورة تقضي بأن العالم يبدو مخلوقا لأنه مخلوق بالفعل، ويبدو محكم الضبط والترتيب لأنه كذلك حقا، ويبدو أن لكل شيء فيه حكم وغايات ونظم تحكمه لأن هذه هي حقيقة حاله، ويرجع كل ذلك بالضرورة إلى خالق حكيم يتقن الخلق والضبط والإحكام، لأن التلازم بين تلك المعاني تلازم بدهي لا انفكاك للعقل منه، وليس لأننا نقيس! وإنما يقع القياس عندما يتكلف أحدهم تفسير الكيفية التي حصل بها ذلك الخلق والتدبير والإحكام، يقع عندما نتكلف وصف وتفصيل صفة الخلق وأفعال الخلق، لا مجرد إثباتها للباري الذي نثبته بداهة وضرورة! فنحن وإن كنا نتصف بمعنى الخالقية والصانعية والفاعلية، إلا أن عقولنا نفسها التي نسبت تلك المعاني نفسها إلى رب العالمين، تأبى علينا أن نقيس أفعاله وحكمه وكيفيات تلك الأفعال في الخلق والإنشاء والتدبير الإلهي على ما يكون منا نحن إذا صنعنا ما نصنع! ولهذا قرر أئمتنا إن الاشتراك المعنوي في بعض الصفات لا يقتضي الاشتراك في كيفياتها وحقائقها، بل تكون تلك الكيفيات في كل ذات موصوفة بتلك المعاني المشتركة، على ما يليق بتلك الذات!

ثم إن سلمنا تنزلا بأن مرجع تلك المسألة عندنا هو القياس التمثيلي كما زعموا، فالقوم يعتنقون مذهبا في إثبات الموجودات الغيبية ونفيها مداره على الفرض القياسي. فبناء على ذلك المذهب، فرضوا هم أن يكون السبب الأنطولوجي في وجود تلك النزعة عندنا (تلك الفطرة والبداهة اللغوية التي بها حكمنا بأن لكل حادث محدثا وبأن لنا رب خلقنا وصورنا على أيما صورة شاء، وهو يقوم بأمرنا بما شاء كيفما شاء) أو تفسيرها العلمي كما يسمونه، هو

الطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي، فما دليلهم على صحة ذلك الفرض وعلى أي شيء قاسوه؟ على مشاهدات داروين وغيره في نشوء التغيرات الجينية في إطار النوع الحي الواحد سواء للتكيف Adaptation أو على أثر الانتخاب الصناعي Artificial Selection من طريق التناسل الانتخابي Selective Breeding! فهل سبق لهم أن شاهدوا نوعا مخلوقا تنشأ فيه بداهات عقلية بنظير تلك الحوادث التي قاس القوم عليها جميع فرضياتهم في بناء النظرية نفسها! الجواب: لا! فإذا كانوا قد اختاروا هذا القياس تحكما، قلنا – على مقتضى منهجهم الفاسد – أن نختار في المقابل أن نقيس السبب الأنطولوجي الغيبي في وجود تلك النزعة عندنا على فعل فاعل ذي إرادة، يختار أن يركب في صنعته من الآلات والوظائف ما يشاء. وإذن فليس في المشاهدات ما يرجح أي الفرضين على الآخر، وليس لهم أن يكذبونا أو يردوا علينا قياسنا (إن سلمنا تنزلا بمسألة القياس هذه، وبصحة استعمال ذلك المنهج الفاسد في تلك البابة)! فإن قالوا إن فرضنا أبسط من فرضكم، وفيه حمولة أنطولوجية أثقل، قلنا فكان ماذا؟ أين ما يدل العقل على كون الفرض التفسيري "الأبسط" أرجح من الفرض "الأعقد" لزوما؟! وهم في وهم وخرف في خرف وتحكمات منهجية ما أنزل الله بها في العقل من سلطان! والعاقل صحيح العقل سليم الفطرة لا يلجئه شيء إلى النظر في هذه القضية أصلا، فضلا عن أن يخوض مع أولئك السفهاء في شيء من سفسطتهم عليها!
والنقض نفسه يتجه إلى زعم بعض أصحاب الكهانة العصبية (الإغراق في التأويل الغيبي والخرافي للعلاقات المشاهدة بين أنشطة النيورونات العصبية في المخ)، أمثال الهندي الأمريكي الملحد راماشاندران V.S. Ramachandran (الذي يثني عليه الدكتور في كتابه "الوجود رسالة توحيد" وعلى منهجه ثناء عطرا) وغيره، أن السبب في كون الأصل في البشر قلة التناسق الداخلي بين مفردات اعتقاداتهم Internal Incoherence (أي كون بعضها يناقض بعضا) هو أن المخ البشري لم يتطور داروينيا على نحو يضمن لها التناسق أو يجعله هو شرط عملها في بناء آحاد العقائد والدعاوى المعرفية، وإنما تطور على نحو يجعل الأنشطة العقلية (المزعوم حصولها كلها في المخ وانحصارها في عمل مجموعات عصبية Neural Modules تعمل بالتوازي مع بعضها البعض)، لا ضمان لحصول التناسق المنطقي فيما بين نشاطين منها (الذي غايته عندهم أن يكون تزامنا واتصالا عصبيا بين مجموعتين!) إلا أن يكون لذلك التناسق ثمرة تطورية معينة تقتضي انتخابه! وإذن فالأصل في عقولنا العشوائية المحضة، وألا نثق في شيء من ثوابت المنطق في أمخاخنا إلا ما كان منها له ثمرة تطورية توجب انتخابه طبيعيا! وهذا باطل قطعا، ويقتضي إسقاط أصول النظرية نفسها لأنه ليس في مسالك الاستدلال القياسي المتبع فيها ما له أي علاقة بالسلوكيات التي تساعد البشر على التناسل وحفظ النوع، وإذن فلا يجوز لهم أن يثقوا في قدراتهم العقلية التي أوصلتهم إلى القول بتلك النظرية نفسها! ولا في القول بأن النشاط العصبي هو نفسه النشاط العقلي، وليس أثرا ماديا عضويا من آثاره في المخ (وهو على أي حال قول لا أساس له البتة إلا محض الاختزال والتحكم، عند من يتبنون المذهب الأحادي في العلاقة بين العقل والجسد Monism).
والخلاصة أننا معاشر العقلاء نعلم أننا مخلوقون مربوبون نحن وعالمنا بكليته، وأننا يقوم بنا وبعالمنا رب بالغ المنتهى في العظمة والقدرة والحكمة، قيوم لا شريك له ولا كفء ولا ند ولا مثيل، نعلم ذلك كما نعلم أن لكل سبب مسببا ولكل حادث محدثا، وكما نعلم أن الواحد نصف الاثنين، وكما نعلم أننا أولاد آبائنا وأمهاتنا لا أننا نحن من ولدناهم، وكما نعلم أن الماضي الذي نجده في ذاكرتنا قد وقع حقا وأننا مررنا بحوادثه حقا لا وهما ولا تخيلا، وكما نعلم أننا إذا أحدثنا شيئا ما، كنا نحن من أحدثه وكان حدوثه أثرا عن فعلنا، لا أنه حدث من تلقاء نفسه وتوهمنا نحن أننا فعلناه، وكما نعلم أن الواقع الخارجي وعقول البشر الآخرين من حولنا موجودة في الخارج على الحقيقة كوجود عقولنا، لا أنها وهم لدينا، وهكذا! ولهذا يحق للعقلاء إذا مروا بأمثال تلك الدعاوى السوفسطائية السخيفة التي قررها هؤلاء المردود عليهم يريدون إسقاط جميع صفات الذوات والأفعال عن رب العالمين ليحيلوه إلى شيء عدمي متوهم لا استقلال له ولا انفصال عن غيره من الموجودات، يحق لهم أن يمروا عليها مرور الكرام، وأن يضحكوا ويهزأوا بأمثال تلك العقول الواهية إن كانوا ولابد معقبين! وأن يعتبروا بما تبلغه الأهواء في قلب الكافر الجاحد من مبلغ ينطمس معه كل عقل وكل منطق، وتنتقض عليه أولى بدهياته، ويقولوا: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله!

[←33]

مررت فيما مررت به على الشبكة باعتراض بعض رقاق الدين من الحزبيين ومن شاكلهم على حدتي وشدتي على من أرد عليهم من جهمية أهل القبلة المعاصرين، ولربما كرهوا أن أسميهم بالجهمية أصلا، ولست أتوقع إلا أن يقابلوني بنظير ذلك إذا وقفوا على ردي هذا على الدكتور عمرو شريف، والله المستعان! فلهؤلاء أقول: اتقوا الله في دين المسلمين وفي عقيدة أهل السنة! فإن لم تجدوا في أنفسكم من العلم بعقيدة المسلمين ومن الصدق لله جل وعلا في الذب عنها والانتصار لها صيانة لدين المسلمين، فخير لأحدكم أن ينشغل بغير ذلك الباب! من كان ذا كتابة ونشر وتأليف في مسألة الإلحاد هذه، وكان إذا نظر في حال نفسه وجد أن الذي يدعو إليه الملاحدة ليس هو الاعتقاد المحرر في أمهات كتب عقيدة السلف رضي الله عنهم، وليس هو المنهج الذي جرى عليه الدين والعلم بين أيدي الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، فلا خير في دعوته ولا ترجع على دين المسلمين إلا بالدمار من حيث يحسب أنه يحسن صنعا! فلا يقولن قائلكم: إن الدكتور صاحب فضل عظيم في تتويب كثيرين من الإلحاد وإرجاعهم لحظيرة الدين، فإذا كان الدين الذي يرجع إليه هؤلاء هو وحدة الوجود الطبيعية الجهمية، فليس هو دين الإسلام أصلا، وخير للمسلمين أن يترك هذا الرجل من دعاهم ليهلكوا على الإلحاد من أن يكثر بهم سواد الزنادقة والمبتدعة الذين يفسدون على المسلمين دينهم من حيث لا يشعرون! فافهموا هذه القضية يا هداكم الله وأنزلوها منزلها الصحيح، حتى يتبين لكم سبب الشدة والحزم في الرد، والحرص على تنفير العامة من مؤلفات الدكتور وأمثاله، والله الهادي إلى الرشاد!

والله لا يصدق المرؤ ولا يخلص الدعوة لله جل وعلا حتى يكون حرصه على حماية دين المسلمين من التبديل والتحريف والإفساد أعظم من حرصه على حماية أفذاذ من مرضى القلوب والمفتونين من أن يصرحوا بخلع ربقة الإسلام من أعناقهم والتحول إلى الدهرية والإلحاد! ما حاجتنا إلى من يحول هؤلاء من الإلحاد إلى دين فاسد محرف وهو يقنعهم – مع ذلك – بأن ما يقدمه لهم هو سبيل السلامة الوحيد في هذا العصر من الدهرية والإلحاد؟ وأي قيمة أو كرامة يراها أهل السنة لرأس من رؤوس أهل الأهواء وأئمة الزنادقة، حتى يعظموه لمجرد أنه يحجز أتباعه عن التلبس بالدهرية والإلحاد؟! يا أخي دع من يلحد من هؤلاء يصرح بإلحاده حتى يعرفه الناس، ولا تجعله فتنة للمسلمين يفسد عليهم دينهم من حيث لا يشعرون! علموا المسلمين السنة ومنهاج النبوة والتوحيد الخالص وربوهم على ذلك تربية ربانية من الصبا، تسلم لكم عقولهم وقلوبهم بإذن الله تعالى من الفتنة بزبالة الملاحدة الطبيعيين وشبهاتهم مهما تعرضوا لها، ويصبح بينهم وبينها جدار من فولاذ لا يستطيع دعاة الإلحاد ظهورا عليه ولا يستطيعون له نقبا! أما أن يترك الشباب وتترك قلوبهم وعقولهم لتنشأ على روايات "الخيال العلمي" وأفلام هوليوود، وعلى كتب الدهرية الطبيعيين المتدثرة زورا وكذبا بدثار "العلم الحديث"، تتشربها تشربا، ثم إذا ما ألحدوا أو مالوا إلى الإلحاد، دعاهم أستاذ جامعي من أساتذة العلوم التجريبية إلى دين خليط هجين يشبع لهم أهواءهم الفلسفية الطبيعية في أمور الغيب ولا يخالفهم فيها، مع كونه في نفس الوقت يثبت صانعا ما، يجعله هو الرب الذي جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة إليه، فوالله ليس في قلبه غيرة على السنة ولا صدق في ابتغاء ما عند الله تعالى، من تبين له ذلك الخبَث والعفن والضلال البعيد على نحو ما تبين لنا، ولم يرفع لواء الجهاد بالقلم ضد أصحابه، يقمعهم قمعا بما هم أهله ولا يخشى في الله لومة لائم، نسأل الله السلامة من كل هوى!

[←34]

ولا عبرة بقول الدكتور في بعض المواضع بأن وحدة الوجود من عقائد الوثنيين وأنها مخالفة لعقيدتنا، فالعبرة بالحقائق لا بالأسماء، وما أسهل أن يقول المشرك لست مشركا، والمبتدع لست مبتدعا، ولكن أنتم لم تفهموا كلامي! فلابد أن يكون فهمه لوحدة الوجود التي ينفيها عن نفسه فهما فاسدا، لأن كلامها يثبتها! وهذا ما نراه تحقيقا في كتاباته. فخذ على سبيل المثال قوله في "الوجود رسالة توحيد"، في معرض كلامه على اسم الله الباطن (ص. 311): وقد انحرفت بعض العقائد بثنائية الظاهر والباطن، فتبنت الهندوسية (وبعض ما اشتق منها من عقائد) "مفهوم وحدة الوجود"، الذي يرى في الوجود ظاهرا لباطن هو ذات الموجد الأول، أي أن الموجد والموجودات شيء واحد ذو وجهين." اهـ. فعندما نرى الدكتور يغرق في مسألة الوجود المطلق ونفي التعدد والكثرة، ينقل إلينا كلام الصوفية القبوريين في وحدة الشهود التي هي مشاهدة وحدة الوجود تحقيقا، ندرك أنه يختص في المعنى المنفي لوحدة الوجود، صورة خلاف التي هو عليها بالضرورة! فيرفض جعل وحدة الوجود وجودا ثنائيا من ظاهر وباطن، وإنما هو وجود واحد متوحد، حقيقته أنه لا فرق فيه بين موجود وموجود أصلا، فلا ظاهر ولا باطن إلا ما تدركه أذهاننا من إدراكات تجعل الوجود المطلق موجودات متعددة!

[←35]

يرد الدكتور هذه الشبهة بجواب هو في نفسه شبهة، والله المستعان! يقول: "ولا شك أن هذا التأويل عار تماما من الصحة، ذلك للأسباب الخمسة التي ذكرناها آنفا، بالإضافة إلى سبب شديد الأهمية وهو أن وحي أصحاب الديانات السماوية يحمل عادة تصورا متكاملا واضحا للعقيدة والشريعة، يتنزل مجزءا ومتنوعا ومترابطا ومتماسكا وبعبارات بليغة على مدى فترة طويلة، ويجتمع فيها التواصل البصري والسمعي والشعوري. أما الهلاوس المرضية فتأخذ شكلا متكررا لمعنى مبهم في هيئة واحدة (بصرية أو سمعية)، هذا بالإضافة إلى أن تلك الهلاوس لا يتبقى منها مع الوقت إلا شذرات غير متماسكة." اهـ. قلت: فأما الأسباب الخمسة فقد بينا أنها ليس فيها حجة البتة، وأن مرجعها إلى معيار السلامة النفسية Normalcy عند الدهرية الطبيعيين العلمانيين! وأما قوله إن وحي "أصحاب الديانات السماوية" يحمل عادة تصورا متكاملا واضحا للعقيدة والشريعة، يتنزل على فترات طويلة، فهل من المتصور – من حيث المبدأ – أن تشتبه علينا دعوى متنبئ كاذب بدعاوى الأنبياء الصادقين، وقد علمنا بالضرورة أن الله تعالى قد ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم؟ فإن قال إن هذه الشبهة لا ترد علينا نحن وإنما ترد على غيرنا من أهل الملل، الذين يراد صيانتهم من أدعياء النبوة ودعوتهم إلى الدين الحق، قلنا فالعبرة إذن بموضوع الدعوة نفسها، فالحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم تعرف صحته وسلامته من الكذب والخرافة بمجرد سماعه! ولن يعتقد إنسان نظير ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا لزمه اتباعه، ولو زعم أنه قد أرسل بنفس دعوى التوحيد التي جاء بها محمد فهو كاذب قطعا، لأنه إذن يكون مكذبا لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الحق الجلي الواضح، الذي فيه تقرير أنه عليه السلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا نبي بعده! أما تلك الشقاشق التي تكلم بها الدكتور في محاولة وضع معايير شكلية للتفريق بين النبي الصادق والنبي الكاذب فكلام فارغ لا قيمة له، ولا يمتاز به حق من باطل، ولو أراد أحدهم أن يطبقه على أي متنبئ كاذب من المعاصرين ما أعجزه ذلك!

[←36]

ينقل الدكتور هذا الكلام (كما عزاه في الحاشية) من كتاب لجيمس أوستين هذا عنوانه "زن والمخ" Zen and Brain، وفيه يفرغ الكاتب وسعه في محاولة وضع التفاسير "العلمية" لأحوال كهنة البوذيين المنتمين إلى ملة الزين Zen التأملية البوذية اليابانية التي ينتمي هو إليها! فقال: "ناقش جيمس أوستن تجاربه الصوفية في كتاب Zen and brain، نشرته دار نشر معهد ماسشوستس للتكنولوجيا عام 1998 في 844 صفحة." اهـ. قلت: إذن فأنت يا دكتور تعترف بأن الصوفية والوثنيات الشرقية كالهندوسية والبوذية والزين والتاو والجانية وغيرها، كلها ملة وثنية واحدة، وإن اختلفت الأسماء! فإذا كان هذا البوذي متمتعا بنفس التجربة الدينية الروحية التي يتمتع بها الصوفي المنتسب إلى قبلتنا، ويعتقد فيها نفس ما يعتقده الصوفي المنتسب إلى قبلتنا، فلابد أن يكون كلا الرجلين على دين واحد على التحقيق! وهذا هو ما يريد الوثنيون من هندوس وبوذيين وغيرهم ممن ينقل عنهم الدكتور بكل أريحية في هذا الباب، أن ينتهوا إلى إثباته على أي حال: أن الأديان كلها طرق مختلفة توصل إلى نفس النهاية، لأن المعبود فيها إنما هو كيان تجريدي عدمي محض على الحقيقة، لا يريد من خلقه (إن جاز وصفهم بأنهم خلقه أصلا) أن يعبدوه أصلا، ولا يبالي على أي دين يهلك الناس!

[←37]

والظاهر أنه قرأ تلك الكتب، لأنه ينقل منها في كثير من المواضع دون عزو!

[←38]

في وهمه وظنه، وفي مسعاه المخزي هو من شاكلهم لتقرير الحدود الفاصلة بين ما هو غيب وما هو طبيعة باستعمال المنهج الطبيعي الدهري نفسه!

[←39]
قال: "هناك رأي بأنه إذا استطاع أي شخص الوصول للحكمة من وجود الكون وكيف وجد، فإن الكون – من أجل الحفاظ على أسراره – سيختفي على الفور، وسيتم استبداله بكون أكثر غرابة وإبراكا، وأكثر استعصاء على الفهم، وهناك رأي يقول بأن هذا هو ما حدث بالفعل." اهـ. قلت: فخبرني بربك ما وجه الإتيان بنقل كهذا في مفتتح فصل في كتاب لكاتب مسلم، يفترض فيه أنه مكافح للإلحاد؟

[←40]

إذ ليس منهم من يذكر كيف ولا متى كان ابتداء إدراكه هو لنفسه وذاته في بداية نمو مخه وجهازه العصبي، وليس منهم كذلك من يملك أن يسأل صبيا حديث الولادة عما يشعر به وما يدركه وما لا يدركه من الموجودات من حوله! فاقتحام تلك المرحلة من نمو الإنسان بالتنظير السيكولوجي إنما هو ضرب من الكهانة على أحسن الأحوال!

[←41] اللهم إلا في لفظة "بقيعة" التي لا تألفها آذان أهل هذا الزمان ولا يجري استعمالها على ألسنتهم! والقيعة جمع قاع وهي الصحراوات، أي كسراب بالصحراء.

[←42]

هذه الرواية لا سند لها!

[←43]
وهذا من التناقض، نظرا لكون الدكتور من نفاة الصفات، المغرقين في تعطيل الفلاسفة كما بينا! فأي صفة من صفات الذات هي تلك التي تنكشف في ذلك في اعتقاده دون أن تنكشف جميع الذات، وأنت لا ترى للرب دخولا تحت معاني الزمان والمكان أصلا؟

[←44]

وهو في الحقيقة مما يكشف للقارئ المتخصص في منهجية البحث التجريبي وفي فلسفة العلم الطبيعي، حجم الأزمة الميتافزيقية الكاسحة التي تعاني منها الأكاديميات الطبيعية المعاصرة، لا سيما في علم الفيزياء وفروعه! فعندما يصبح على هذا القدر من السهولة لمتفلسف من المتفلسفين، سواء كان أستاذا جامعيا في الطب أو في الفلك أو في أي علم من العلوم التجريبية، أن يقول: ها نحن قد دخلنا المعمل فنظرنا فاكتشفنا بالتجربة أن الموجودات كلها في الحقيقة موجد واحد، وأن الله هو الموجود المطلق الذي لا وجود بحق لشيء سواه، فهذه ولا شك أزمة معرفية كبرى، قد حملت كثيرا من فلاسفة العلم في النصف الثاني من القرن الميلادي العشرين على نسف فكرة حصول التطور العلمي Scientific Progress نفسها من الأساس، وعلى الجنوح إلى نسبية الحقيقة! فلا شك أنك عندما يكون منبت الدعاوى الأنطولوجية عندك (الدعاوى الوجودية) هو الافتراض القياسي التحكمي في الغيبيات المطلقة Presumptuous Analogies for Metaphysical Hypothesis، تقول بقياس من الأقيسة، إن العالم بكليته يتكون من كذا وكذا وهيئته كذا وكذا والنظام الكوني الذي يحكمه من أوله لآخره هو كذا وكذا، فلن تجد في الأرض ما يحجزك، من حيث منهجية النظر نفسها، عن الإتيان بالفرضيات التفسيرية وبتأوليات المشاهدات على أيما وجه يشبع هواك! وإذن تصبح الآلة التي بين يديك (التي تسميها تلبيسا بالطريقة العلمية Scientific Method، وكأن ما سواها من الطرق والآلات جهل وتخلف)، آلة لإنتاج الخرافات والأساطير بحسب الهوى والمزاج، وليس آلة لإنتاج المعرفة على أيما وجه كانت!

فعندك أنت أن العلم التجريبي حسم المسألة أخيرا وقضى على "شبهة التعدد في الموجودات"! وعند غيرك أن نفس "العلم" قضى على شبهة الوجود الغيبي الفائق للطبيعة Supernatural Existence وأثبت أن جميع ما يحسبه أصحابه تجربة فردية تجاوزية Transcendental Experience ليس في الحقيقة إلا جملة تأثيرات كيميائية وكهربية على مواضع معينة من أمخاخهم، يمكن إحداثها بسهولة باستعمال بعض العقاقير أو المحفزات الكهربية! وعند غيركما (كالمخرف الهندوسي الأمريكي ديباك شوبرا مثلا) أن نفس "العلم" قد أثبت أخيرا أن الموجودات كلها – على استقلالها وجوديا - تشترك في وعي كوني مطلق واحد Universal Consciouness وإن بدا لنا بادي الرأي أن أكثر الموجودات لا وعي لها! وعند غيركم (كهارون يحيى الاتحادي تلميذ ابن عربي) أن العلم نفسه قد أثبت أخيرا أن تخريفة الأخوين (سابقا، وحاليا الأختين!) واتشوسكي مؤلفي ثلاثية أفلام المصفوفة (ماتريكس) بشأن الواقع الخارجي لم تكن بعيدة عن الواقع، إذ الرب عنده خلقنا أمخاخا في زجاجات Brains in Vats ثم أدخل إلينا إشارات كهربية أوهمتنا بوجود هذا الواقع الخارجي الذي نعرفه! وعند آخرين أن العلم نفسه قد أثبت أخيرا أن الوجود مركب مما لا يتناهى عدده من العوالم المتوازية المتحايثة التي يختلف كل عالم منها عن الذي يليه اختلافا دقيقا!

فعلى مذهبك يا دكتور، ما المرجح بين تلك الدعاوى، وعلى أي أساس يقال بمبدأ الإثبات والنفي نفسه فيما تذهبون إليه جميعا، وما معنى أن يكون الإثبات قد حصل "أخيرا" وكأنه أمر قد انصرم وانتهى الناس إلى قطع النزاع فيه؟ ما دام منهجكم جميعا هو الزج بآلة البحث التجريبي في الغيبيات المحضة، فلا فضل لمذهب أحدكم على مخالفه، ولا مسلك للاستدلال يقرب من الأذهان السوية عند أي منكم مهما تكلفتموه!

[←45]

قال تعالى: ((يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ)) الآية [الزمر : 6]، فذاك قوله "خلقكم أطوارا". ومن لا يدري كيف يفسر القرآن بالقرآن، فلا يجوز لمثله أن يتكلم في كتاب الله أصلا، ولكن صار الدين لعبة كل لاعب ومطية كل راكب، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←46]

ومثال العشوائية المنظمة هذه (الذي يبين لك تصورها عند الطبيعيين أتم ما يكون البيان) هو لوغاريتمات التوليد العشوائي Random Generators التي يصممها المبرمجون أحيانا في بعض برامجهم الحاسوبية، والتي استعملها ريتشارد دوكينز قديما في بيان كيف يمكن أن تؤلف لفظة انكليزية صحيحة من تكرار النقر العشوائي لقرد من القردة على لوحة المفاتيح، في إطار رده على دعوى امتناع أن يأتي القرد برواية لشيكسبير ولو أقعدناه ليضرب على لوحة المفاتيح أبد الدهر! فالعشوائية في ذلك التصور محكومة بنظام يفرز نوعا من الحوادث الموصوفة بالتنوع والتغير العشوائي إفرازا مطردا أولا، ثم يقرر أي شيء من تلك المخرجات العشوائية يستحق البقاء عليه إذا ظهر وأيها يستحق الإهمال ثانيا. بيد أنها تبقى، مهما حكمها نظام العالم، عشوائية وعبثا في الخلق والإحداث ونقصا في الحكمة لا ينسبه إلى رب العالمين إلا دهري جاحد! قال تعالى: ((وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)) [الأنبياء : 16] وقال جل شأنه: ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)) [المؤمنون : 115]

[47←]

http://www.ideacenter.org/contentmgr/showdetails.php/id/1203، في 20 من محرم 1436، 13 نوفمبر 2014.

[←48]

ويُقصد بالتشغيل البحثي أو التشغيل التجريبي: تصميم العملية البحثية نفسها التي يتم بها "تشغيل" المتغيرات التي قام الباحث بتعريفها تعريفا تشغيليا يجعلها قابلة للقياس Measurable. ففي هذه الحالة يلزم الباحث أن يميز الخاصية المحددة في المخلوق التي يراها دليلا على كونه من صنع "مصمم" مريد مختار (على حد تعبيره واصطلاحه)، وقد وقع اختيار دمبسكي ورفاقه على "التعقيد" Complexity ليكون دليلا على ما يريد (وهو ما يعني أن ظهور التعقيد قد أصبح دليلا على حصول الاختيار الحر "أو الذكي على حد عبارته"). ثم اضطر كذلك – بموجب المنهج التجريبي نفسه – إلى تعريف ذلك "التعقيد" تعريفا قابلا للقياس والتقدير الاحتمالي الموضوعي Objective Probabilisitic Estimate، حتى يتحقق شرط البحث التجريبي (كمنهج) في إمكان أن يراجع الأقران من الباحثين صاحبَ البحث بتكرار تجربته نفسها واختبار دقة نتائجه التي خرج بها، وهو ما يسمى بقابلية التكرار Reproducibility. وقد بينا باستفاضة في غير موضع بطلان وعدم مشروعية استعمال المنطق الاحتمالي فيما يتعلق بمسألة أصل العالم وخلق السماوات والأرض وما بينهما، لاقتضاء ذلك التطبيق – بمجرده – التسليم بمقدمات المنطق الاحتمالي نفسه التي لا تسري إلا على ما يمكن إدخاله تحت العادة الحسية، ومن ثم جواز قياس الشبيه منه على شبيهه!

[←49] وقد بينا في غير موضع أن مطلق وهن الفرضية التفسيرية لا يقتضي بطلانها وعدم إفادتها المعرفة ولو بدرجة من درجات الظن، إلا إن كان لدى الناظر ما يوجب ردها وإبطالها، سواء لفساد منهج النظر فيها من الأساس أو لقوة ما يخالفها من مثلها في نفس الأمر.

[←50] ونقول "تبدو بلا وظيفة قياسية" ولا نقول "تبدو عشوائية" كما استجازه الماديون والطبيعيون لأننا لا ننفي عنها مطلق الوظيفية والغائية عند صانعها سبحانه، وإنما نتكلم عن العجز البشري عن معرفة الحكم والغايات الإلاهية ووظائف بعض المخلوقات في نظام العالم باستعمال طرائف القياس والاستقراء (التي لا نملك غيرها في مثل ذلك، لغياب النص الإلهي المباشر المخصوص في نفس الأمر). أما "العشوائية" فوصف يلحقه أصحابه بالصنعة الإلهية نفسها بمجرد ثبوت ذلك العجز المعرفي في حقهم بإزائها، وهو تحويل للفجوات المعرفية الذهنية إلى فجوات نظامية في الواقع الخارجي نفسه، على مغالطة الطبيعيين المشهورة التي حذرنا منها في "آلة الموحدين" وغيره مرارا وتكرارا، فانتبه.

[←51]

وقد بسطنا الكلام على فساد المقدمات الأولى لتلك النوعية من المباحث، بل وفساد منهج الاستدلال نفسه عند أصحابها في "آلة الموحدين"، والله الموفق المستعان.

[←52]

وأرجو التروي في تأمل هذه المسألة لأن فيها إلزاما محكما لا فكاك منه للدراونة التصميميين هؤلاء. فعندما نتكلم عن مطلب إثبات وجود "مصمم ذكي" ثم ننظر في آحاد الموجودات لنفرق بالقياس الإمبريقي بين ما يبدو منها وكأن له "مصمما ذكيا" وما لا يبدو كذلك (كما في مثال أبحاث SETI)، فقد أسقطنا بالضرورة المقدمة المطلقة التي تنص على أن كل ما حدث بعد أن لم يكن، وجب – وأكرر "وجب" - أن يكون مفتقرا إلى محدث فاعل مريد (ولا نقول "ذكي"!) هو الذي اختار أن يحدثه كما أحدثه ووقتما أحدثه (بصرف النظر عن طبيعة نظامه وهيئته وتركيبه ووظيفته وغير ذلك مما يظهر لنا في حدود علمنا البشري القاصر من وظائفه وأغراضه عند صانعه)! ذلك أنهم جعلوا هذا الفاعل المريد في منتهى أسباب العالم = هو ذاك المصمم الذكي "الممكن (أي الذي يجوز في العقل أن يوجد كما يجوز ألا يوجد)" الذي قاسوه على مخلوقاته من حيث لا يشعرون! فكان لزاما أن يتحول الخلق إلى "نظرية ظنية" بين أيديهم (ومن ثمّ أصبح يقال لهم "الخلقيون"!)، لأنهم جعلوا الخلق نظرية تفسيرية إمبريقية (وبالغوا في التزام المنهج التجريبي في ذلك كما سنرى)، تماما كما يسعى المحقق الجنائي – مثلا – في إثبات أن بعض الآثار تدل تجريبيا (بالترجيح الاحتمالي) على أن الجاني الفلاني هو الذي ارتكب تلك الجريمة لا غيره! فهو يملك قاعدة معرفية بطرائق الجناة المحتملين (المشتبهين) ومسالكهم في ارتكاب هذا الصنف من الجرائم، من واقع خبرته البشرية واستقراءاته الفردية، التي مكنته من الوصول إلى الحكم بقياس الأفعال، على أساس من التسليم المبدئي بمقدمة أولى مفادها ورود الإمكان العقلي لأن يكون الفاعل هو أي واحد من أولئك المشتبهين. هذا هو مقتضى تطبيق المنطق التجريبي والاحتمالي في تلك القضية، فتأمل!

هذه التناقضات لا ينتبه إليها اللاهوتيون النصارى (ومن تابعهم من المتكلمين من أهل الملل الأخرى بطبيعة الحال) لأن مدخل المحاججة نفسه (الذي هو مدخل علمي اللاهوت والكلام وما في حكمهما للانتصار للعقائد الإلهية والغيبية) قد أسقِطت فيه بداهة مخلوقية البشر وحولت (بمقتضى فتحها للمناظرة والجدال كما اشترط الفيلسوف الملحد) إلى مسألة نظرية يرد عليها الاحتمال وتحتاج الأقوال فيها إلى نظر واستدلال وموازنة وترجيح احتمال جائز على احتمال جائز مقابل (كما هو مبدأ نظرية الاحتمالات نفسها)! فإذا كان المدخل هو التسليم للخصم الملحد بشرطه المعرفي الكلي ابتداء، كيفما كان ذلك الشرط (حتى يصبح للمناظرة ثمرة معرفية يمكن الاتفاق عليها أصلا!)، فلا إشكال عند اللاهوتي – والمتكلم تبعا – في أن يتكلم في سياق ما ببرهان الوجوب والإمكان القديم، عندما يكون خصمه فيلسوفا يطالبه بمقدمات منطقية من ذاك الصنف، وأن يتكلم في سياق آخر مع فيلسوف آخر ببرهان "التصميم الذكي"، عندما يكون شرط ذلك الفيلسوف استعمال المنهج الطبيعي والقياس التجريبي، فلا يقبل المعرفة من طريق غيره! فهل وجود الباري أمر يُفتقر فيه إلى المعرفة المكتسبة أصلا (بمعنى أن العلم بوجوده يكتسب في النفس من بعد جهل) حتى يسلم المتكلم هذا التسليم الانبطاحي للملحد بشرطه في نوع الدليل الذي يطلبه، ومن ثم يستجيز أن يطرح وجود خالقه ومصوره للإمكان والاحتمال العقلي، ومن ثم تجد ما عده ضرورة عقلية في برهان من البراهين، يتحول إلى معلومة استقرائية قياسية في برهان آخر، ولا إشكال ما دام الخصم يقبل ذلك؟ أبدا ولا شك!

ولكن هذا هو مدخل ومبنى علم الكلام نفسه في كل زمان كما بينا: ركوب ما يعظمه فلاسفة العصر (أو ما يسمونه "بلغة العصر") من صور التنظير الكلي ومداخل بناء المعارف ومصادر تلقيها، وجعل ذلك النوع من التنظير مدخلا لاصطناع "دليل" نظري لوجود الصانع كما يحب أولئك الفلاسفة ويشترطون! فإن كان الفيلسوف الجاحد المكابر يحب المنطق الأرسطي، خوطب به، وإن كان يحب الطبيعيات والتجريبيات، جيء بها، وهكذا! المهم أن نبين له أننا قادرون على مجادلته بنظرياته نفسها التي استكبر بها هو وأقرانه على الناس، حتى أصبحت هي شرط العلم وباب المعرفة في زمانه، وإلا لحقنا العيب والشين وقيل لنا "أنتم سفهاء مقلدون في إيمانكم من ضعف عقولكم، ونحن لا نؤمن إيمان السفهاء!"، ونحن نقول: فلتهنأوا إذن معاشر المتكلمين بإيمان الفلاسفة الذي ارتضيتموه وجعلتموه هو كمال العقل والإيمان، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←53]

قال الدكتور عمرو شريف في التعليق على هذا المثال في كتابه "كيف بدأ الخلق" (ص. 223): "تصور أن إيلي وزملاءها في مركز أبحاث SETI قد استقبلوا تكرارا لتتابع قصير (غير معقد) من الأرقام الأولية (2،3،5) مثلا، هل تستطيع إيلي أن تدعي أن هذه الإشارات صادرة من ذكاء خارج الأرض؟ بالتأكيد لا، فهذه الإشارات ليست معقدة بالقدر الذي يمنع تكرارها بالصدفة. وقد حدث بالفعل أن رصد العلماء مثل هذه الإشارات عدة مرات، ولم يدع أحد منهم أن ذلك يعكس ذكاء. أما تكرار تتابع طويل من الأرقام الأولية من 2-101، فشيء آخر." اهـ. قلت: "بالتأكيد لا"؟؟ سبحان الله! فمن أين يأتي اشتراط مقدار التعقيد اللازم إدراكه في الشيء من أجل أن يثبت للشيء أن له صانعا مريدا حكيما؟؟ تلك الموجات التي رصدها أولئك السفهاء خفاف العقول، واستبعدوا أن تكون منبعثة من شيء صنعه "ذكاء فضائي" لا لشيء إلا "لبساطتها" Simplicity أو للدقة عدم اتصافها بما يكفي من "التعقيد"، ألا يرد أن تكون بساطتها تلك مقصودة لأنها أنسب ما يلائم وظيفة معينة تراد منها عند من بعثها؟؟ ذاك الراسل اليوفو المتحرم الذي يفترض فيه إرسال الموجات في الفضاء الخارجي، من أين لكم العلم بأنه يجب أن يكون حريصا على أن يراسلكم برموز لغوية أو شفرات رياضية؟؟ أنتم فرضتم تحكما أنه إذا أرسل موجات كهرومغناطيسية في الفضاء الخارجي فلابد أن تكون رسالة مشفرة تفهمونها أنتم بالقياس على شفراتكم أنتم، فمن أين لكم بذلك الشرط؟؟ وما الذي يمنع من أن يكون وراء كل موجة تتلقونها على مراصدكم ما لا ينحصر من التفاسير الغيبية بشأن مصدرها البعيد، إذا ما تحررنا من ذلك الشرط؟؟

ثم يجب في هذا المقام أن نسأل الدكتور: تلك الإشارات التي لا يزال "العلماء" (كما يسمون أنفسهم، ويسميهم أذنابهم من أهل قبلتنا) يرصدونها على الوصف الذي ذكرته، فلا يدعون أنها "تعكس ذكاء"، هل تنسبها أنت إلى خلق الله تعالى وتدبيره أو تنسبها إلى خالق غيره؟؟ إن قلت أنسبها إلى خلق الله تعالى لأن كل شيء عندي من خلق الله تعالى وتدبيره، قلنا لك: فهل الله عندك يخلق من المخلوقات ما لا يوصف "بالتصميم" ولا "بالذكاء"، وإنما بالفوضوية والعشواء؟؟ إن قلت نعم، خرجت من الملة قولا واحدا! وإن قلت لا، قلنا: فما معنى نفي "المصمم الذكي" عن تلك الأشياء التي هي في نظرك "أقل تعقيدا" من الشرط الذي شرطته، في مقام محاولة إثبات أن غيرها من المخلوقات الموصوفة بذلك التعقيد وبغيره من الصفات، هي من صنع "مصمم ذكي"، يفترض أنه في دينك هو الله رب العالمين؟؟ لا قيام لدعواك فيما تريد إثباته إلا على أساس التسليم المبدئي بالعشواء الوجودية، وبأنها هي الأصل في إحداث حوادث العالم، حتى يتأسس على تلك المقدمة تمييز الأشياء الموصوفة بمثل ما ذكرته من الصفات، بأنها ليست عشوائية، بل توصف دون غيرها بأن وراءها خالقا بالغيب هو الذي أحدثها (أو "مصمما ذكيا"!)، فتأمل!

آفة هذا الباب، أيها القارئ الكريم، أن أصحاب نظرية التصميم الذكي يعلمون أنهم إن عاملوا مفهوم العشواء فيما يتعلق بمخلوقات الله تعالى على أنها عشواء معرفية Epistemic Randomness لا غير، أي لا حقيقة لها إلا أن تكون جهلا منا نحن بوظائف الشيء المخلوق ومقاصد الباري منه ومن أجزائه التي يتركب منها، مع الجزم بثبوتها في نفس الأمر، فلن يكون من وجه لاتخاذ علامات وصفات مميزة للتفريق بين ما يرجع وجوده إلى "التصميم الذكي" وما لا يرجع وجوده إلى التصميم، لأنهم إذن يلزمهم أن يقولوا إن جميع ما في الحشوة الحية من أنواع وأعضاء حية ونظم حيوية وغير ذلك، هذا كل شيء منه مخلوق لغاية وقصد وتعليل سابق عند خالقه، علمنا من ذلك ما علمنا وجهلنا ما جهلنا، وإذن فلن يتحصل لهم شيء يقدمونه للدهرية الطبيعيين الدراونة على أنه دليل إمبريقي على أن من المخلوقات أو النظم الحيوية ما يرجع السبب في كونه على ما هو عليه لا على غيره إلى كونه من خلق "مصمم ذكي"! من هنا اضطر القوم لإثبات العشواء الوجودية Ontological Chance / Randomness التي جعلها داروين أساس النشأة في كل نوع حي وفي كل وظيفة عضوية حيوية تظهر على الأرض، حتى يقولوا إن مشاهداتهم الإمبريقية (بوصفهم علماء بيولوجيا جارين على الطريقة المعتمدة أكاديميا، وقائلين بالبارادايم السائد بين البيولوجيين) قد دلتهم أخيرا على أن بعض المخلوقات الحية أو النظم الحيوية لا يمكن أن يفسر وجودها أو نشأتها بآليات داروين! فكان الاستدلال المنشود هو أن يؤتى بمخلوقات يوافقون على تفسير نشأتها بآليات داروين العشوائية، ثم تقارن تلك المخلوقات بنظم حيوية أو مخلوقات أخرى، تتصف بصفات يقال فيها إنها لا يمكن أن تفسر نشأتها بآليات داروين، ومن ثم تخرج الدعوى التصميمة مخرج "النظرية البيولوجية" Biological Theory التي لا تصادم البارادايم التطوري السائد Evolutionary Paradigm، بل تضيف إليه!

ولهذا لا يأتينا من يقول إن هؤلاء إنما اضطروا إلى سلوك ذلك المسلك بالنظر إلى أن الأكاديميات العلمية التي ينتسبون إليها لو قالوا فيها إن الإله هو الذي خلق لما قبلوا منهم، لا يأتينا من يدفع عنهم بهذه الذريعة إلا قلنا له: أنت لا تدري عن أي شيء تتكلم، فاتق الله! ما كان من شيء يلجئهم لسلوك ذلك المسلك الخبيث في إثبات "مصمم" بالتأسيس على الملة الداروينية، لو كانوا أصحاب قصد ديني أو كانت غايتهم الانتصار لإثبات الرب الذي يؤمنون به في دينهم! فكيف وهم لا يملون من التصريح، المرة بعد المرة، وفي كل مناسبة، بأنهم ليسوا طائفة دينية، ولا يبالون أي صفة يوصف بها ذلك الصانع الذي يثبتونه، وأنهم لا اعتراض لهم على النشأة الداروينية العشوائية إلا في تلك النظم الحيوية التي زعموا أن مشاهداتهم تدلهم على قصور النظرية عن تفسيرها؟؟

وعلى عادته في التقاط العقائد بلا تمحيص، وترقيع النظريات في بعضها البعض بفهم سطحي للغاية، يتابع الدكتور عمرو هؤلاء في عشوائيتهم الوجودية متابعة تامة، وهو يزعم – مع ذلك – أنه قد تمكن أخيرا من تنقية نظرية داروين من عنصر العشواء الوجودية الذي تعاني منه! يقول (ص. 224): "تنشئ الصدفة أحيانا أشياء "شديدة التركيب" بل و"شديدة الجمال"، انظر مثلا كيف تكون المنظر الطبيعي الذي تراه: ما إن هطل المطر حتى أنبتت البذور التي وقعت على الأرض مصادفة، فخرجت الأشجار والحشائس والأزهار، ثم جذبت هذه النباتات الفراشات بديعة الألوان. إن تشكل هذا المنظر شديد التركيب والجمال، تم بالصدفة ولم يتم بالتصميم عن قصد (بالمعنى الذي نطرحه)." اهـ. قلت: هذا تقرير لاعتقاد الملاحدة الطبيعيين الذين لا يثبتون سببا فيما وراء تلك الأسباب التي ذكرها الدكتور! فالعبارة فيها نفي للقصد والغاية عن نشوء ذلك "المنظر الطبيعي" الذي نراه، ولا يغني عنه شيئا استدراكه بقوله "بالمعنى الذي نطرحه"، ولا حول ولا قوة إلا بالله! فالله تعالى في دين الدكتور لم "يقصد" أن يخلق منظرا طبيعيا شديد التركيب وشديد الجمال، وإنما اتفق بالصدفة أن نتج ذلك المنظر عن التولدات السببية الناشئة عن تقلب مادة العالم في حركة عشوائية تحت ثلة من القوانين الطبيعية المطردة (بحسب مبدأ السببية اللابلاسية المغلقة الذي زعم الرجل أنه بريء منه)! فالرب غايته عنده أن يكون هو خالق القوانين الطبيعية والمادة التي تجري عليها، هذا هو ما قصده الباري وشاءه وعلمه، أما أن ينشأ المنظر الطبيعي الجميل، بحيث يكون من غايات خلقه عند الباري أن يكون جميلا في عين الناظر البشري، فليس هذا مقصودا لديه، كما يقصد "المصمم" البشري إلى تصميم عمل يقصد في تصميمه أن يجعله جميلا شديد الجمال، فسبحان الله وتعالى علوا كبيرا عما يصف هذا الرجل ومن تابعهم وتشرب بكلامهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

الله تعالى يقول: ((وَهُوَ الَذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)) [الأعراف : 57]، وأما الدكتور، فكل هذا ليس من فعل الله تعالى عنده، وإنما تحركت الرياح في اعتقاده صدفة، وتحرك السحاب على أثر ذلك صدفة، ونزل المطر تبعا حيث نزل صدفة، فأنبتت البذور الأشجار صدفة، حتى انتهى ذلك كله إلى خلق تلك الصورة الجميلة التي نراها بالصدفة، في إطار النظام الطبيعي الذي خلقه الله في اعتقاده قصدا و"تصميما"، فبالله هل هذا هو دين المسلمين؟؟ حسبنا الله ونعم الوكيل!

والظاهر أنه استشعر أن في الأمر فسادا كبيرا، بدليل استدراكه بقوله "بالمعنى الذي نطرحه"، ثم قوله لاحقا: "إن هذه البلورات (بلورات الثلج) نتاج القوانين، وهو ما نصفه هنا أنه نتاج الحتمية Necessity. لا شك أن الخالق عز وجل قد وضع سمات "التصميم Design" في قوانين الطبيعة، لكن التصميم الذي نعنيه هو ما يشبه عمل المهندس الذي يصمم عمارة أو يخترع آلة، نحن نعني التصميم المباشر المقصود وليس القوانين التي يستعملها المصمم في تنفيذ أفكاره. إذاً فمن أجل أن نزعم أن شيئا ما قد تم تصميمه عن قصد، لابد أن نستبعد كلا من "الصدفة- Chance" (التي استبعدها التعقيد المتفرد) و"الحتمية – Necessity". اهـ. قلت: ما معنى أن يكون "التصميم" المراد هو التصميم المباشر المقصود، إذا كان الحال أنك تنسب ما سواه إلى الصدفة؟؟ يعني لو سألناك الآن هل الله تعالى أراد أن يخلق كريستالات الثلج على النحو الذي ذكرته، وكانت إرادته في ذلك شاملة كل ما يكون لدى الصانع الحكيم من حكم وثمرات تحصل من ذلك المصنوع إذا ما تم صنعه، أم لم تكن كذلك، فبأي شيء تجيب؟ إن قلت نعم كان الأمر كذلك، قلنا فما الفرق إذن في معنى الخلق والبرء والتصوير ومعنى خضوع المخلوق لغايات وحكم وعلل وإرادات الباري جل شأنه، بين ما تعده أنت "مصمما" وما تعده "غير مصمم"؟؟ إن قلت لا فرق، رددنا عليك بكلامك نفسه الذي تثبت فيه الصدفة منشئا لتلك الأشياء "غير المصممة"، وتنفي القصد الإلهي من وراء جعلها على ما هي عليه كما مر! فبالنظر إلى الصفة التي يكون عليها ما تنفي أنت عنه معنى التصميم، يتضح أنه هو هو ما ينفي عنه الدراونة الدهرية معنى الخلق الإلهي بالكلية، يرجعونه إلى العشواء والفوضى الوجودية! أي أنه لا يكون الخلق إلا تصميما عند من يقولون بنظرية التصميم الذكي، وما لم يوصف بأنه "مصمم" لم يوصف بأنه مخلوق، لأنه لا يظهر أصلا ما يدعوهم لنسبته إلى صانع ما! ولهذا جعل دمبسكي وأصحابه النشأة الحيوية نتاجا لخصلة من ثلاث: إما العشواء، وإما القانون الطبيعي، وإما التصميم الذكي، ثم أخذوا يتفلسفون على خلق الله تعالى يجعلون بعضه قد خلقته العشواء، وبعضه قد خلقه القانون، وبعضه يثبتون فيه أنه "مصمَّم بذكاء"، فلا يقولون – إن قالوا - إن الخلق الإلهي قد حصل لشيء من ذلك إلا للصنف الأخير، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وهم مضطرون إلى ذلك التفريق الوجودي الأنطولوجي كما تقدم، لأنهم إن قالوا إن الأقسام الثلاثة مخلوقة كلها لرب العالمين، ولا فرق بينها في هذا المعنى، انقطع الطريق دونهم لإثبات وجوده وخالقيته باستعمال المقارنة الإمبريقية بين أنواع المخلوقات كما هو المسلك المختار لدى المتألهين منهم، فيما يسمى ببرهان التصميم الذكي! وإن قالوا إن الأشياء المنسوبة في أصلها إلى العشوائية مخلوقة، تناقضوا، إذ لا يكون الخالق إلا صاحب قصد وإرادة وتدبير وغير ذلك مما سموه إجمالا "بالتصميم"، ولا يتصور ثبوت شيء من تلك المعاني فيما هو منسوب إلى العشواء! وإن قالوا إن القانون الطبيعي هو طريق للباري في الخلق، لزمهم أن يجعلوا كل ما يأتي من طريق القوانين الفيزيائية الحاكمة لعملية التطور البيولوجي مخلوقا، وإذن يذوب التفريق الذي يقوم عليه تنظيرهم بالكلية، ويصبح موقفهم موقفا دينيا صريحا، خلافا لما أرادوا أن يكون عليه وضع دعواهم! من هنا جاء جعلهم مبدأ الخلق والصنع لغاية Teleological Creation قسيما كليا للعشواء والقانون، فتأمل!

ثم إن القول بأن الكريستالات الثلجية إنما نشأت نتاج ضرورة Necessity (بالنظر إلى كون القانون قد تسبب في كونها على ما هي عليه)، هو قول من يجعلون القانون الطبيعي تعليلا تاما Complete Causation لما ينشأ عنه من حوادث وآثار سببية في العالم! فهؤلاء إنما تأتي الضرورة عندهم من نفي الغيب بالكلية وقصر السببية على الطبيعة وما فيها! فإذا قال التصميمي بتلك الضرورة يثبتها في نشأة بعض المخلوقات دون بعض، تناقض بالضرورة!

والقصد أن بدعة الدكتور عمرو في محاولة التفريق بين معنى الخلق الإلهي ومعنى التصميم الذكي عند أصحاب تلك النظرية، رجاء التوصل إلى خلط تلك النظرية بدين المسلمين بادعاء وجود علاقة عموم وخصوص بين معنى التصميم ومعنى الخلق، بدعة باهتة متهافتة لا تغني عنه شيئا، ولا تدفع عنه ما نلزمه به من لوازم دهرية طبيعية، والله المستعان!

[←54]

Dembski, W. (ed.). *Mere Creation: Science, Faith and Intelligent Design.* Downers Grove, Ill.: Intervarsity Press. 1998, pp. 98

[←55]

Ruse, Michael, 'Creationism', *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* (Summer 2014 Edition), Edward N. Zalta (ed.), URL = <http://plato.stanford.edu/archives/sum2014/entries/creationism/>

[←56]
الذي يؤمن بأن الطفرة العشوائية الداروينية – مثلا - صفة أنطولوجية للنظام البيولوجي نفسه خارج الذهن، وأنها هي منبع النظام والقانون وكافة المعلومات الحيوية التي تتوارثها كافة أنواع المخلوقات في العالم، كما هي عقيدة الدراونة في حقيقة الصدفة!

[←57]

Dembsky, W. *‘The Design Inference: Eliminating Chance through Small Probabilities’*, New York: Cambridge University Press, 1998

[←58]

ومع ذلك، قال الدكتور عمرو شريف في كتابه "كيف بدأ الخلق" تحت عنوان "إله سد الثغرات أم علم سد الثغرات" (ص. 252-253): "كثيرا ما يتهم الدراونة أنصار التصميم الذكي بأنهم يستعملونه كأداة لسد الثغرات، وأنهم كلما واجهوا أمرا لم يستطع العلم المادي أن يفسره نسبوه إلى الإله، ويضيفون أن العلم سوف يكتشف لاحقا التفسيرات العلمية المادية لهذه الأمور. ويصف الدراونة الاستدلال بوجود التصميم على وجود الإله الخالق بأنه دليل مبني على العجز عن تفسير بعض الظواهر الطبيعية، أي أنه "دليل مبنى على الجهل"، ويستندون في ذلك إلى القاعدة المنطقية بأنه "لا ينبغي أن نتخذ من غياب الدليل دليلا". ونجيب على هؤلاء بأن رفض أنصار التصميم الذكي للوقوف عند التفسيرات المادية ليس رفضا مبنيا على نقص في المعرفة العلمية (رفض عن جهل) ولكنه (رفض عن علم)." اهـ.

قلت: ليس في البابة شيء مبني على العجز عن التفسير البتة، فافهم هذا! فلا الدراونة الدهرية يعجزهم اختراع تأويلات غيبية توافق فلسفتهم، ولا الدراونة التصميميون أو التطويريون يعجزهم ذلك! فلا ينتهي هؤلاء ولا هؤلاء، من أثر الأصل المنهجي الطبيعي والفلسفة الداروينية التي تشبعوا بها جميعا، إلى علم في ذك الغيب المحض ولا إلى دعاوى ترقى – ولو من بعيد - لأن يقال لها "معرفة" أبدا! وإنما يصطنع كل فريق منهم لنفسه من الاعتقاد الغيبي المركب المفصل ما يشبع لهم أهواءهم، ففرقة تختار أن تجعل الهيئة التي عليها جميع النظم الحيوية دليلا على تطورها العشوائي من نظم أخرى أقل فيما يظهر لهم فيها من أعضاء ووظائف، ويجعلون جهلهم بما يجهلونه من الوظائف والغايات دليلا على عدمها، ثم تأخذ في تأويل جميع المشاهدات على ما يخدم ذلك الاعتقاد، وفرقة تختار أن تجعل بعض التفاوتات في درجة الدقة النظامية و"التعقيد" الحيوي دليلا على خصوصية بعض النظم "المبهرة" (!!) بالخلق المستقل، خلافا لأصل التطور الذي ارتضوه تفسيرا لما سوى ذلك من تفاوتات في "التعقيد"، ثم تتخذ من نفس المشاهدات دليلا على ذلك! وفريق ثالث يلتقط ميثولوجيا التطور من أصل مشترك كما هي ثم يقول لكل شيء قال القوم فيه إنه "عشوائي"، بل هو "إلهي" أو "موجه"! فما الذي عند هؤلاء وهؤلاء وأولئك من حقائق حسية صريحة؟ ليس لديهم إلا التشابه بين الأنواع الحية والنظم الحيوية الدقيقة (في الهيئة الخارجية والبنية الداخلية والخلوية والجينية) مع التفاوت في بعض الوظائف وفي عدد الأجزاء والأعضاء وأنواع الأنسجة الحية التي يتركب منها كل نوع وكل نظام. فإذا تنازعت تلك الفرق في "الأدلة" التي ترجح أحد المذاهب على الآخر، فلن يأتوا في البابة إلا بالدور المنطقي والاستدلال بمحل النزاع لا محالة! يقول أحدهم لخصمه: أنت عاجز عن استيعاب جميع المشاهدات بالتفسير الذي فرضته، وقد جئتك أنا بما يفي بذلك فاتبعني، فيرد عليه خصمه فيقول بل تفسيرك أنت قاصر لا يصح ولا يكفي وتفسيري أنا هو الأوعب، أو يقول أحدهم لخصمه، ليس ما عندك علم طبيعي، وإنما هو أيديولوجيا دينية متطرفة، فيجيبه خصمه بعكس ذلك، فيمضي النزاع على تلك الوتيرة الفارغة دون أن يلتفت أي منهم إلى كونهم جميعا في أصل ذلك الضلال الذي تنازعوه ومصدر ذلك الهذيان الذي جاؤوا به، سواء على التحقيق، لو كانوا يعقلون! وما كانوا ليلتفتوا، لأنهم أهل أهواء كلهم من أولهم إلى آخرهم، نسأل الله السلامة!

[←59]

Paley, w. ‘Natural Theology, or Evidence of the Existenct and Attributes of the Deity, collected from the appearances of nature’, UK: Oxford University Press, (1804/2006), pp. 1

[←60]

مرجعه إلى مقدمات وكليات فلسفية أخرى لا يزال النزاع جاريا بينهم على بعضها والاتفاق منعقدا على البعض الآخر، على تفاوت بين أفرادهم في مقداره، في أخذ ورد وجدال سرمدي لا ينتهي حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا!

[←61]

Darwin, F (ed.). *'The life and letters of Charles Darwin'*, Vol. 1, UK.: Dodo Press, 1887, pp. 256

[62←]

يقول داروين في رسالته إلى "جون لوبوك" (السابق ص. 17): "لست أحسب أني أعجبت في يوم من الأيام كإعجابي بكتاب بيلي "الثيولوجيا الطبيعية". إنني أكاد أحفظه عن ظهر قلب."

[←63]
فيما يسموه "بالمتشابهات الكونية"! ألم يسمع هؤلاء الإخوة هداهم الله قول ربهم جل وعلا: ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ)) [الملك : 3]؟ فلا العين ترى ولا العقل السوي يجيز الزعم بأن في مخلوقات الله ما يشبه أن يكون صدفة أو عشواء أو غير مخلوق كما تزعمه الدهرية واللاهوتيون الطبيعيون على أثرهم، حتى يقال إننا نحتاج إلى حمل المتشابه على المحكم حتى يتبين لنا فصل المسألة، ومن زعم ذلك فقد خالف صريح القرآن ولا حول ولا قوة إلا بالله!

هذا – أيها القارئ الكريم - ما جناه علينا منهج المتكلمين في التسليم لنعاج الإلحاد وخراف الدهرية بمقدماتهم المعرفية الكلية كما تكلفه اللاهوتيون الطبيعيون المعاصرون من أهل الكتاب! وهو بالضبط ما يريده فلاسفة الدهرية في كل عصر ومصر: أن تصبح البدهيات الضرروية الفطرية موارد اشتباه بين "الدليل" و"الدليل المقابل"، بما يحوج العاقل إلى حمل "المتشابه" على "المحكم" حتى تتحصل لديه المعرفة بأن الله هو خالق كل شيء، ثم ينفتح الجدال الفلسفي الطبيعي في شروط الإحكام والاشتباه وضوابطه ومرجعياته، التي تؤول في النهاية إلى أصول هذه النظرية أو تلك في ميتافزيقا الطبيعيات، التي يضطر المتكلم إلى اعتناقها حتى يتمكن من تأسيس دعواه بأن الأمر "محكم" وليس "متشابها"!

فكما زعم هؤلاء أن لديهم الدليل "العلمي" على أن في العالم "مصمما ذكيا" وإن كان أكثره "يبدو وكأنه" غير مخلوق، فكذلك جاء عندنا من يتابعهم بتلك الفلسفة، فتسمعه يقول: احملوا المتشابه الكوني على المحكم الكوني، لعلكم ترون الخلق في تلك الأشياء التي تبدو وكأنها فوضى لا خلق فيها ولا حكمة ولا تعليل، كما رأيتموه (بالتنظير الميتافزيقي) فيما عددناه من "المحكم"! وبذلك تصبح السماوات والأرض وما فيها من نظام تصرخ النفس والفطرة بعظمته وكمال صنعة الباري فيه، أو على الأقل تصبح بعض الأشياء المخلوقة في هذا العالم (ببداهة وضرورة العقل السوي) تعامل وكأنها شيء مجهول الأصل والمصدر، لا ندري من أين أتى ومن صنعه، فندعو الناس إلى أن يستعملوا قياس المجهول على المعلوم والغائب على الشاهد حتى يتبين لهم أن صانعه هو الذي صنع غيره مما نتفق على أنه مصنوع!

يقول قائلهم: إذا كنا تكلفنا ذلك النظر في النصوص الشرعية فلماذا لا نتكلفه في المشاهدات الكونية، والمصدر واحد في المجالين؟ والجواب أن هذا قياس باطل ولا شك. فالذي نزّل النص الشرعي جعل منه المحكم والمتشابه ليبلتي الناس بتأويله، وهي حكمة صرّح بها في القرآن واضحة جلية سبحانه وتعالى كما في قوله: ((هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ)) [آل عمران : 7]، وعليه يصبح الإنسان مكلفا بحمل المتشابه من النصوص (فيما يرد فيه أن يكون المعنى متشابها لغة) على المحكم حتى يزول التشابه بذلك ويتحقق الفهم الصحيح، فالله تعالى يخبرنا بأن من النصوص ما يحتمل أكثر من معنى، فيحتاج إلى التأويل حتى يُعرف المعنى الصحيح ويُجتنب المعنى الفاسد، وهو أمر يشهد به رب العالمين ويقرر حكمته والمسلك الصحيح في التعامل معه! أما ما في السماوات والأرض من ضبط الخلق والإحكام الشامل السابغ فحقيقة بدهية فطرية لا تحتاج إلى استدلال أو تأويل أصلا حتى تظهر، وهو ما جاء النص بمصداقه كما بينا! ولولا أنها حقيقة بدهية ما قام للمنطق الاستقرائي نفسه أي أساس في عقول البشر أصلا، وهؤلاء الإخوة يعلمون ذلك جيدا!

وقد يقول قائلهم: ولكن نحن لا نقصد أنها متشابهات في نفس الأمر، وإنما نقصد أنها متشابهة في دعوى الدهرية المردود عليهم، كما هو موقفنا من إثبات وجود الباري بالدليل النظري، فلا نرى وجوده سبحانه وتعالى قضية متشابهة في نفس الأمر، وإنما نتنزل مع الدهرية حتى نبين لهم أن العقل لا يخدمهم فيما يريدون! ويقال في جواب ذلك: إنه تقرير لمكمن المرض المعرفي في علم الكلام نفسه، كما جهدنا في بيانه في هذا الكتاب! فعندما يأتيك فيلسوف أنت تعلم أنه جاحد مستكبر، كاذب على نفسه وعليك وعلى الناس كافة، في ادعائه أنه لا يجد في نفسه ما به "يعرف" أنه مخلوق، وأن العالم كله من حوله مخلوق مربوب على نظام محكم دقيق، يطالبك بأن تقدم له "دليلا نظريا" من جنس ما تُكتسب به المعارف النظرية في إثبات تلك الحقيقة الفطرية البدهية، التي يجدها الأطفال في نفوسهم كغيرها من المعارف الفطرية بمجرد أن يعرف الواحد منهم يمينه من شماله، فإذا بك تجيبه إلى ذلك الشرط الفاسد المفسد طواعية، فأنت وهو سواء – إذن – في الجناية على عقول الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والنتيجة الحتمية لانفتاح الجدال النظري بين الفريقين، أن يصبح النظر في وجود الصانع وحدوث العالم = أول واجبات المكلفين كما عند المتكلمة المتقدمين، لأن المتكلم يكره أن يبدو عاريا عن "الدليل العقلي" الذي يثبت به وجود باريه (بحسب مفهوم الفلاسفة الدهرية في زمانه لنوعية تلك المعرفة التي اختاروا جحدها والتكذيب بها، ولمنطق الاستدلال بعموم)، فيتهم إذن من فوره بأنه مقلد ضعيف العقل والنظر، يؤمن إيمان العامة والسفهاء! هذه التهمة هي ما منه يفر المتكلمون في كل زمان، من فتنتهم ببضاعة الفلاسفة، تلك الفتنة التي بها نشأت كافة الفرق الكلامية في تاريخ الأمم، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا لالله.

فنحن نقول وبكل حزم: ليس لشيء مما تقع عليه حواسنا من موجودات العالم أن يشتبه علينا "تأويله" بين أن يكون مخلوقا من مخلوقات الله جل وعلا وأن يكون عشواء لا صانع لها أو نتاجا لقانون طبيعي أعمى لا قائم عليه! لأن العاقل سوي النفس لا يحصل لديه المعرفة بأن العالم مخلوق من طريق التأويل! فمن كان مريضا مفتونا بتلك الفلسفات الساقطة فليعالج بصده عنها بمجملها، أما ذلك الشرط الدهري الطبيعي الفاسد في الإثبات والنفي عند فلاسفة العصر، فما انساق متكلمة زماننا للتسليم لهم به (أعني نظرية "المتشابهات الكونية" المزعومة هذه) إلا كما انساقت المتكلمة الأولون من قبل للتسليم للدهرية الأولين بأن حدوث العالم يفتقر إلى برهان أرسطي! والقول بخلق بعض العالم كالقول بخلق كله: ضرورة بدهية لا يماري فيها إلا مكابر كذاب! ولا يحتاج عاقل إلى إثبات خلق البعض أولا حتى يثبت حلق الكل بالقياس! ولكن وجب تكلف التنظير الميتافزيقي لإتيان الخصم المتفلسف بما يشترط وما يريد، فهو (أي التنظير الدافع لذلك الاشتباه الكوني المزعوم) تنظير وقياس واجب عندهم ولا شك، كما يجب تمحيص الأدلة في صفة الصلاة والطهارة مثلا! ومن تتبع كلام متكلمة العصر يجد تكلف ذلك الاستدلال عندهم من "واجبات الوقت" والثغرات الواجب سدها، ولو كفرض من فروض الكفايات، لنفس السبب الذي به أوجب المتكلمون الأوائل النظر لإثبات حدوث العالم، لعل كلاب الدهرية المعظمين بين الناس ترضى عنهم وتقول: نعم، هؤلاء عندهم بضاعة عقلية وعلمية تليق "بلغة العصر"، فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فاللهم إليك نشكو عجز ووهن وخوار كثير ممن تصدروا للدعوة إليك والانتصار لدينك، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

[←64]

ومنها أنه خلق العالم وخلق البشر فيه ثم تركهم ليخلقوا هم أفعالهم، فلا يوصف بأنه خالق أفعالهم وجميع ما يجري في عالمهم من حوادث، فهو (أي "بيلي" ومن وافقه) لا يؤمن بالقضاء والقدر وإنما ينسب إلى الرب العلم بحوادث العالم دون أن يكون هو خالقها جميعا ومقدرها جميعا. ولهذا سهل على متكلمة النصارى المعاصرين ابتلاع أساطير الدهريين المعاصرين في مسألة نشأة السماوات والأرض وما بينهما وأصبحوا يعتقدون أنه خلق العالم بأحداث تجري على نوع القانون الطبيعي تارة (الذي ارتضوا جعل وجوده وعمله سابقا على حدوث سببه!)، وعلى العشواء تارة أخرى، ثم تركه لتجري حوادثه تبعا لذاك النظام الطبيعي أو لتلك العشواء التي يعتقدها الطبيعيون ويفسرون بها نشأته، إلا بعض الحالات التي "يتدخل فيها" من آن لآخر تدخلا مخصوصا على خلاف الأصل، ليخلق شيئا معينا أو يحدث معجزة ما! ولم يجد القوم ما يمنعهم من القرمطة على نصوص كتبهم (لا سيما كتاب الخلق في العهد القديم) حتى حملوا أكثرها على المجاز، خدمة لذلك المعتقد الطبيعي الجديد في قضية الخلق والنشأة.

[←65]

ولا شك أن القياس ممتنع من بابه ابتداءً، مع التسليم بأن للباري جل وعلا حكمة بالغة وخير راجح في علمه وتقديره لا يتحقق إلا بهذا، وهو أمر لا نسلم به في أفعال أحد من المخلوقين أصلا، بما فيهم الأنبياء والمرسلين الذين لا تقتضي عصمتهم امتناع ورود الغلط والمعصية في حقهم (بما يليق بنبوتهم وعصمتهم في التبليغ كما يثبتها لهم أهل السنة والجماعة)! ولا يشترط العلم بالحكمة والتعليل التفصيلي لكل صورة من صور الشر في مفعولات الرب جل وعلا حتى يقطع بهذه الحقيقة البدهية إلا سفساط ملحد، ينصب نفسه حاكما على ربه كما يحكم على مخلوق من آحاد المخلوقين فيشترط العلم والإحاطة بغاياته وحكمه وعلله حتى يبرئه من التهمة، سبحانه وتعالى علوا كبيرا!

ولا يقال في هذا المقام: ولكن ألسنا نستعمل القياس العقلي في استكشاف بعض سنن الله تعالى وقوانينه السببية التي أودعها في خلقه، بل وفي ترجيح بعض حكمه في التشريع وفيما قضى من تقدير رباني في بعض حوادث التاريخ؟ فلماذا لا تمنعون ذلك كله على أنه من القياس الممنوع في الغيبيات ومن تشبيه الأفعال والعلل؟ فجواب هذا الكلام أن العبرة في القياس بنوع المقيس ونوع المقيس عليه وعلة الشبه، هل من تلك الأقسام الثلاثة للقياس ما يوصف بأنه خارج عن دائرة الإدراك العقلي (الذي لا يعمل في اكتساب المعارف إلا بالسمع أو القياس بأنواعه)؟ فالذي يقيس مخلوقا بمخلوق أو تشريع رباني بتشريع رباني مثله (بجامع العلة المحكمة) حتى يستنبط سنة الرب جل وعلا في ذلك، فهذا لا يزيد على استظهار ما جعله الله من سنن ماضية سواء في الخلق أو في التشريع بقياس بعضها على بعض، وجمع الأشباه والنظائر إلى بعضها البعض كما هي فطرة النفس السوية في تتبع ذلك وبحثه، وليس في أقسام القياس إذن ما هو غيبي مطلق التغييب. وكذلك عندما يترجح بالقياس الصحيح أن شيئا قد كان يكرهه الناس من أقضية الله تعالى في خلقه في بعض أحداث التاريخ قد جلب للمسلمين من الخير ما لم يكونوا يحتسبون (كما استظهره العلماء فيما رجع على المسلمين من خير عظيم من أثر فتنة الصحابة بعد موت النبي عليه السلام، الذي منه على سبيل المثل اضطرار العلماء للاجتهاد في تمحيص الرواة وحفظ الحديث)، فهذا مما يتحرك فيه الناظر مستصحبا بدهيات الفطرة وقطعيات الدين من كمال حكمة رب العالمين ورجحان الخير في كل ما قضاه الملك جل وعلا من حوادث العالم، سواء ظهر بعض ذلك له أم لم يظهر! فلا يزيد عمل القياس العقلي على استجلاء بعض وجوه الخير إن أمكن ذلك، حتى يكون في ذلك زيادة لإيمان المؤمن ويقينه، وإلا فالمعرفة بالله تعالى عنده تبقى كما هي، لا تنقص ولا يهتز الإيمان في نفسه من أثر ذلك. ولا يترتب على ذلك نقل بعض صفات المخلوق إلى الخالق لأن الخالق وصفاته ليس هو المقيس في مثل ذلك أصلا، وإنما هي بعض أفعاله تقاس على بعضها الآخر تحت معنى محكم (علة الشبه) بما لا يقتضي شيئا من مشابهة المخلوقين!

أما عندما يكون الناظر طامعا في إثبات بعض صفات الله نفسها (ككونه حكيما عليما عادلا) أو إثبات وجوده أو إثبات أنه هو صانع العالم أو بعض ما فيه، من طريق القياس العقلي في المحسوسات (سواء بالاستنباط أو الاستقراء أو الاستنتاج التفسيري) وكأن المطلوب إكساب النفس بسبب لتحصيل المعرفة (دليل قياسي حادث) بكونه خالقا أو بكونه حكيما من الأساس، كما هو مسلك اللاهوتيين والمتكلمين بعموم، فإن ذلك يلزم منه النقص والتشبيه والقياس الفاسد بالضرورة، بمقتضى عناصر القياس نفسه، لأنه يقيس صفة الرب الباري جل وعلا على صفات الصانعين المخلوقين، وعلله على عللهم وحكمته على حكمتهم، حتى يثبت للباري الفاعلية (الخالقية) والحكمة والعلم كما أثبتها للصانع المخلوق، مع أن العقل يقطع بأن الله تعالى لا ندّ له ولا نظير ولا شبيه، وأن حكمته لا تقاس على حكمة المخلوقين وعلمه لا يقاس على علمهم وأفعاله لا تقاس على أفعالهم في تفصيل أوجه الخير والشر فيها وفي تفصيل الوظيفة والغاية والقصد والنظامية وغير ذلك مما التمس الخلقيون قياسه بالتفريق بين شيء ينسبونه إلى صنعته وشيء لا ينسبونه إليه (كما يقال في الصانع المخلوق إن بعض الحوادث من صنعه وإحداثه وإرادته وبعضها مما لا سلطان له عليه)، فلينتبه لهذا!

[←66]

ومن المضحك المبكي في طريقة اللاهوتيين أني مررت على كلام بعضهم يرد على اعتراضات "هيوم" على نوع البراهين التليولوجية الطبيعية بإجمال، فقالوا إنها اعتراضات من الجهل arguments from ignorance، إذ نحن اليوم نعلم من طريق علم الفيزياء (يقصدون فكرة المبدأ الأنثروبي ونظرية الانفجار الكبير) ومن طريق علم الأحياء (يقصدون نظرية التصميم الذكي) من "أدلة الخلق" ما لم يكن يعلمه أحد في زمان هيوم، وإذن فدعواه أنه لا دليل على الخلق والضبط وحسن الصنعة في بناء العالم = دعوى مردودة في هذا الزمان، ولم يكن له في زمانه أن يجعلها دليلا على عدم الخلق والضبط والإحكام في بناء العالم!

http://www.godandscience.org/evolution/hume_vs_paley_watchmaker.html

قلت: هذا والله من أشد الكلام سفاهة على الإطلاق! ولازمه أن جميع من آمنوا بالله ورسله (بما فيهم أتباع المسيح الذين يزعم هؤلاء أن آباء الكنسية قد تعلموا على أيديهم) قبل ظهور تلك النظريات لم يكن لهم عقل ولا نظر وإنما قلدوا تقليد العميان! فتأمل كيف أحكم "هيوم" خناق سفسطته على رقبة القوم (ومن قلدوهم عندنا) حتى سلموا له (من غير تصريح) بأصله الأول الذي مفاده أن السببية (ومن ثم حدوث العالم) لا تعرف في بداهة العقل ولا يثبتها أي دليل، وهو الكلام الذي تأسس عنده بأكمله على دهريته وإلحاده وجحده خالقه وباريه من الابتداء! فالآن، بدلا من أن يقرعوا الرجل على رأسه ويعظوه في نفسه (أو من قال بقوله)، تراهم يقولون له: صدقت، لم يكن عند الناس في زمانك من الأدلة ما يكفيهم لقبول دعوى حدوث العالم ومخلوقيته، ولكن جهلك بأدلة الخلق لا يسوغ لك اتخاذه دليلا على عدم الخالق! ولا أرتاب في أن من فتنتهم تلك الطريقة الكلامية العفنة سيأتي الواحد منهم على هذا الكلام ويقول في نفسه (وهو يرى أنه الناظر الذكي الألمعي!): "صدقوا، فإن عدم العلم ليس علما بالعدم!"

فأي علم وأي جهل هذا الذي تتكلمون فيه يا مساكين، أنتم ومن تكلفتم الرد عليهم، وقد جعلتم موضوع ذلك الجهل المزعوم = مخلوقيتكم نفسها؟ أي عاقل هذا الذي "يجهل" أنه مخلوق مصنوع، ويجهل أنه له ربا يرزقه الهواء الذي يتنفسه ويحرك ذاك القلب الذي ينبض في صدره من غير كسب منه ولا فعل، حتى يقال له: لا بأس عليك إن عدمت الدليل على مخلوقيتك، ولكن لا تقل إن في جهلك "حجة" على من عندهم "العلم" بمخلوقية العالم وما فيه، لأن المثبت أعلم من النافي والجاهل ليس يملك حجة على من يدعي العلم؟ هذا الكلام يقال عند سؤال السائل عن دعوى بعض الناس وجود سفينة قديمة غارقة في قاع المحيط في مكان ما (مثلا)، أو وجود جزيرة مفقودة عند القطب الشمالي لم ترصدها الأقمار الصناعية، أو وجود "إبريق" يدور حول الأرض في مدار ثابت (كما في المثال السخيف الذي ضربه "برتراند راسل" لمسألة "العلم" و"الجهل" بوجود الباري)، فيكون أحدهم مطالبا بتقديم "الدليل" على صحة دعواه! أما هذه المسألة فهي من البدهيات والضروريات الأولى، التي لزمكم من إحالتها إلى النظريات المكتسبة ما غرقتم فيه وأغرقتم أتباعكم من مصائب الفلاسفة حتى تلبستم بسفسطة هيوم نفسه وبعض مقدماته وأصوله الكلية من حيث لا تشعرون! والآن أصبحتم تحاولون إثبات أساس المنطق الاستقرائي في العقل البشري (ألا وهو العلم الفطري في نفس الإنسان بمخلوقية العالم وانتظامه على تقدير رباني متين) باستعمال المنطق الاستقرائي نفسه، فتأملوا إلى أي سفاهة جركم طمعكم في انتحال الطبيعيات طريقا "لإثبات" وجود باريكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله! هيوم لم يكن يعلم أن العالم مخلوق؟ الله أكبر! لعله مات معذورا بجهله إذن، وبشعوره أن الكون لا يبدو "كالساعة" التي ضرب بها "بيلي" المثل على أنواع "المصنوعات"، من شدة خفاء الدليل وصعوبة فهم المسألة، أو من قلة إلمامه بالطبيعيات النيوتونية والإلهيات الأرسطية في زمانه (على طريقة الجاحظ ومن وافقه في إعذار من "لم يظهر له الدليل" على وجود الله)! نسأل الله السلامة!

[←67] وقد اخترنا أن نسميها بالصدفة الأنطولوجية أو الوجودية لأن الماديين (والخلقيين تبع لهم) يطلقون كلمة صدفة ويريدون بها نفي التعليل والقصد والتدبير الغيبي في الواقع الخارجي نفسه كما بينا، وليس نفي إحاطتنا المعرفية بتلك الأمور مع إثبات أو حتى تجويز وجودها في الأعيان.

[←68]

المصدر السابق، ص. XI

[←69]
وقد بسطنا الكلام وفصلناه في مفهوم الاحتمالات عند الفلاسفة المعاصرين في موضع آخر من هذا الكتاب.

[←70]

والذكاء له معنى لغوي ومعنى اصطلاحي. والعبرة في المعنى الاصطلاحي (وهو المراد من هذه الترجمة لكلمة Intelligent على أي حال وليس المعنى اللغوي المعجمي) بالمعنى المراد عند الخلقيين من التركيب نفسه "التصميم الذكي" Intelligent Design والفاعلية الذكية Intelligent Agency، وليس من لفظة "ذكي" عند انفرادها في اصطلاح النفسانيين أو غيرهم. وقد بينا ذلك فيما تقدم بما نرجو أن فيه الكفاية لكل مؤمن عاقل، ولله الحمد أولا وآخرا.

[←71]

التي تعني تحويل معنى الصدفة من وصف يتعلق بحالة المعرفة Epistemological condition إلى وصف يتعلق بالواقع المراد تحصيل المعرفة به Ontological Condition، فبدلا من أن يكون وصف الحادث بأنه وقع مصادفة، معبرا عن جهل الإنسان بالأسباب والعلل والتراتيب السابقة على الحادث المحسوس، وإنما اتفق له التعرض لذلك الحادث محل الوصف اتفاقا بلا ترتيب منه أو دراية بأسبابه، فإنه يصبح عند الدهرية الطبيعيين معبرا عن كون ذلك الحادث لا ترتيب ولا تقدير ولا عاملية Agency وراءه على الإطلاق، لا من الإنسان ولا من خالق الإنسان، وهذا باطل قطعا لأننا معاشر المسلمين إن نفينا العاملية عن أنفسنا أو عن أمثالنا من البشر العقلاء، فإننا لا ننفي الترتيب والتقدير الإلهي السابق لخلق كل حادث من حوادث هذا العالم، فلا ننسب العشواء ولا الصدفة لأي حادث من الحوادث نسبة وجودية كما هو صنيع هؤلاء. وما من شك في أن الخلقويين التصميميين يلزمهم نسبة الصدفة الوجودية هذه إلى النظام الحيوي نفسه كتفسير لنشأة أكثر الأنواع الحية في الأرض، بمقتضى قبولهم آلية داروين المسماة بالطفرة العشوائية من حيث الأصل! فهم كما ترى لا ينفون العشواء نفيا مطلقا، وإنما يقيدونها بما لا يرونه موصوفا بعلامات "التصميم الذكي"، التي منها بحسب بيهي مسألة التعقد غير القابل للاختزال! فإن قالوا إن العشوائية المزعومة هنا إنما يراد بها عندهم أن الرب قد خلق قوانين ونظم طبيعية تجري بلا "تدخل" منه، لتنتج في محصولها وبعد بلايين السنين، ما أراده من قبل من أنواع المخلوقات، قلنا إن مجرد حصر الفعل الإلهي في "التدخل" Intervention هذا من لوازم ومقتضيات اعتناقهم الأصل الدهري (الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism) في تصور ذلك الأمر الغيبي المحض، الذي هو في الأصل من أخص خصوصيات الربوبية (فعل الخلق الإلهي). فلو كان الأمر عندهم كما يقولون، فليست الطفرات عشوائية إذن (كما هي عند داروين وأتباعه)، وإنما هي "تصميم ذكي" كذلك، وإن كان "الذكاء" فيه يظهر عبر بلايين السنين، وهو ما يعتقده القائلون بالتطور الموجه! وإذن فما معنى إثبات التصميم الذكي كقسيم أو آلية إضافية للطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي؟؟ لا معنى على الإطلاق، وهو إذن تفريق بين متماثلين! ولكن واقع الأمر أن التصميميين يوافقون داروين في معنى الطفرة العشوائية، وإنما يقيدون حصولها في الخارج بأنها ما "لا تظهر عليه علامات التصميم"!

ونحن نسألهم: أحقا لا ترون في غير تلك النظم الحيوية التي وصفتموها "بالتصميم" أي علامات للخلق والتدبير الإلهي؟ بئس المذهب وبئست النحلة تلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←72]

ويستعمل اسم "الجهمية" أحيانا في الإشارة إلى طائفة كلامية معينة من غلاة المتكلمة المعتزلة المعطلة الذين عطلوا صفات الله تعالى كلها، وأجمع أهل السنة على تكفيرهم، غير أننا لا نستعمله في هذا الكتاب إلا على المعنى الأول الأشمل، فلينتبه لهذا.

[←73]

وهو لازم منهجي قلّ منهم من ينتبه إليه! فإذا كانت أصولك الكلية – أيها المسلم العاقل - تقضي بأن النظرية كلها تقوم على الخرافة الدهرية والتناقض العقلي المحض في مفهوم العشواء الوجودية ومفهوم الانتخاب والترقية والأرجحية الاحتمالية والاستمرارية الطبيعية ونحو ذلك، التي بناء عليها استجاز القوم استعمال المنهج التجريبي في بناء أسطورتها من الأساس بجميع تفاصيلها، فما معنى أن تشتغل بالتنقير على فجوات التسلسل الأسطوري الذي غاص فيه القوم، تطالبهم باستكمال النقص هاهنا ومعالجة الخلل ها هنا، على اعتبار أنهم إن لم يوفقوا في ذلك فقد ثبت بطلان نظريتهم؟؟ هذا منهج من يتفق معهم في أصول التنظير نفسه في تلك القضية، بل ويظهر منه أنه لا يمانع من قبول نظرية داروين نفسها لو جاء في يوم من الأيام من يجيب أمثال تلك التحديات الخرقاء التي ظنوا أنهم يحاججونهم بها! فنحن نسألهم: كيف بكم لو ابتلاكم رب العالمين غدا بظهور بقايا وحفريات لأصناف من القردة هي أقرب شبها إلى الإنسان مما يعرفه الطبيعيون اليوم (وهذا وارد ولا شك وليس في المنقول ولا في المعقول ما يمنعه)؟ إن هم عدوها هي "الحلقة المفقودة" التي تشترطونها عليهم فما جوابكم أنتم إذن؟ ترى النزاع يجري في التأويلات المبتذلة من كلا الجانبين لتلك المشاهدات ونحوها بما لا تجد معه مفرا من الحكم بأن كلا الفريقين قد اتفقا في التسليم بأن نوع النظر التجريبي Scientific Method هو الطريق إلى تحصيل المعرفة بأصل خلق الإنسان وأصل خلق جميع المخلوقات في هذا العالم ولا حول ولا قوة إلا بالله! فمن أين جاء هذا التسليم والانقياد الأعمى إلا من اضطرار اللاهوتي الطبيعي النصراني (والمتكلم تبع له) للالتزام بشرط الملحد في مصادر المعرفة ومعاقد الأدلة حتى يتواضع المجرم الملحد (البروفيسور المرموق في جامعة كذا وكذا!) ويتنازل ويقبل مناظرته؟ فنحن نقول: يا عباد الله، ليس كل ما يثار من اعتراضات على دعاوى الملاحدة يصلح أن يتخذه المسلم ردا عليهم! أتراكم تريدون هداية الناس إلى الحق حقا كما تزعمون، أم أن غاية المراد لديكم إحراج الملحد وإرباكه وإسكاته عند المناظرة، لبيان التفوق عليه في "العلم" و"العقل"؟ المسلم العاقل الفطن، السالم من تلك الأهواء الخفية، الذي استقر منهج السلف في سويداء قلبه (سواء أدرك أصول التنظير الطبيعي وحدود أدوات التجريب والاستنتاج بتفسير المشاهدات والمحسوسات، أو لم يدرك)، سيقطع ذاك الطريق الفاسد في بيان بطلان النحلة الداروينية من بابته ويهدم بنيانه من قواعده بوجيز العبارة وبليغ البيان ويقف عند ذلك، ولا يتكلف من الخوض في تلك الزبالة بالبحث في هذه الحفرية أو تلك، وفي هذا البحث التجريبي أو ذاك، ما لا يزيد المسلمين إلا غرقا وافتتانا بطريقة بحثية تجريبية باطلة ساقطة من أساسها! لكن هذا هو الشأن في المسلم العاقل الفطن سوي النفس صحيح الفطرة، وأما المتكلم المفتون فشأن آخر، والله المستعان!

[←74]

هذه المشكلة يتعرض لها الدراونة بالمناسبة في كل مرة يزعمون العثور على ما يبدو وكأنه من بقايا نصل حجري لرمح "بدائي" كان يستعمله "الهومينيد" المزعوم الذي عثروا على ضرس من أضراسه مع قطعة من عظم الحوض وقطعة من عظم الساق! وهو ما أعده ضربا من ضروب البارايدوليا Pareidolia في تأويل الأشكال والهيئات غير ذات الغرض الإنساني في صنعها (كشكل السحابة أو قطعة الحجر الغشماء أو نحوها)، على ما يوافق ميل النفس (كما يزعم النصارى – مثلا – أنهم رأوا ظهورا للعذراء في شكل سحابة، أو يزعم جهلاء المسلمين أنهم رأوا ثمرة بطيخ كأنها منقوش عليها لفظ الجلالة أو نحو ذلك)! فما سرح باحث الأحثاء (باليونتولوجي) بخياله الخصب في تجميع بقايا العظام واستكمال هيكلها على النحو الذي يخدم به نظريته (كأن يدعي أنها بقايا كائن وسيط بين القردة العليا والإنسان)، إلا سهل عليه – ولا شك – أن يتأول أي قطعة صخر مدببة يجدها إلى جوار تلك الجيفة على أنها "نصل رمح حجري" من صنعه! فما دام يتكلم عن أدنى مستويات التعقيد في الصنع البشري (بالنظر إلى أنه يبحث عن أدنى أسلاف البشر عقلا في أسطورته)، فلو أنه زعم أن قطعة حجر صماء لا هيئة لها تقاس على شيء من صنع البشر أصلا، إنما كان يستعملها ذلك الهومينيد المزعوم في إلقائها على رأس فريسته عند الصيد (مثلا)، فلن يسأله أحد من الناس: ما دليلك على هذا التفسير! سيعرض الأمر في سياق الاكتشاف العلمي المذهل وسيجد أهل الأهواء في نفوسهم ما يحملهم على قبوله كما هو بلا تردد! ثم لا تلبث إلا قليلا حتى ترى وسائل الإعلام تنشر صورا ورسومات تخيلية للهومينيد المزعوم وأسرته والكهف الذي كانوا يعيشون فيه .. إلخ، وربنا رأيت رسما يتخيله وفي يده قطعة الحجر تلك يقذفها على فريسته! فهل من مانع منهجي يمنعهم في إطار منظومتهم الاعتقادية من تخيل "سيناريو" كهذا؟ هم لم يسبق لهم أن رأوا هذا الصنف المزعوم من المخلوقات أصلا، ومع هذا فتحوا الباب لخيالهم لتأويل جميع المشاهدات بما يصوره لهم كما هو في خيالهم، فما الضابط المنطقي الاستقرائي الذي يحكم تلك التأويلات عندهم ومن أين جاؤوا به؟ لا شيء إلا الوهم المحض والخرافة المحضة!

[←75]
مع أنها في واقع الأمر مؤسسة عليها مكملة لها، وليست بديله لها كما بينا! فالقائمون على تنظير فكرة التصميم الذكي لم يزعموا ولم يجرؤوا أصلا على ادعاء أن نظريتهم تحل محل نظرية داروين! وإنما زعموا أنها تقدم تفسيرا لبعض الظواهر المعينة التي لا تفسرها نظرية داروين، أو لا يظهر لهم أن نظرية داروين يمكن أن تفسرها! وقد أجاب الدراونة بما لذ وطاب من أشكال التفسيرات المخترعة التي اشترطها عليهم القوم وانتهت القضية! لذا من الجهل العميق أن نرى بعض شباب المسلمين يسارعون للانتصار لتلك النظرية على ظنهم أنها تقدم "بديلا علميا" لنظرية النشوء والارتقاء، وأن هذا هو سبب ضراوة حرب الملاحدة ضدها في أمريكا! أبدا، ما لهذا حاربوها! وإنما حاربوها لأسباب سياسية واجتماعية محضة، ألبسوها لباس الحفاظ على العلم وصيانته من كل فلسفة دخيلة عليه! فهم يعلمون أن من ورائها دعما سياسيا وماديا كبيرا من كثير من أصحاب النفوذ النصراني اليميني المتطرف في أمريكا، وأنها – من أجل ذلك – باتت يروج لها بين العامة في أمريكا على أن أعداءها إنما يحاربونها لعلمهم بأنها تقدم بديلا علميا يحرج الداروينيين و"يدمر نظرية داروين" وأنه "قد يغير خريطة العلم الطبيعي" ... إلخ!

وأما مسألة "البديل العلمي" هذه، فقد بينا باستفاضة أن العلم في تلك القضية الغيبية لا يؤخذ من استقراءات الطبيعيين وتفسيراتهم أصلا، وإنما يؤخذ من النص المعصوم وحسب! فلا هذه النظرية ولا تلك ولا أي نظرية طبيعية في هذه القضية يصح أن تنسب إلى "العلم" أصلا!

[←76]

ولا ينبغي أن يماري عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر في أن فعل خلق السماوات والأرض وما انطوى عليه من أحداث = هو من أخص خصائص الربوبية، وإلا لزمه اعتقاد الشريك والندّ لرب العالمين في القدرة على خلق السماوات والأرض وما بينهما، فتأمل!

[←77]

ومع هذا قد رأينا من متكلمة هذا الزمان من أهل قلبتنا من اجتمع لديهم القول ببطلان نظرية داروين جملة وتفصيلا، مع الانتصار لنظرية التصميم الذكي كما هي عند بيهي، معا في نفس الوقت، من غير أن ينتبهوا إلى أن القول ببطلان نظرية داروين من أصولها الأولى يفضي بالضرورة إلى القول ببطلان التصميم الذكي من أصوله الأولى كذلك (وهو ما عليه أهل السنة في تلك القضية: أن كلا النظريتين كفر وإلحاد، ولا يجوز للمسلم أن ينتصر لأي منهما، ولا أن يتكلف أو يقبل أي تنظير طبيعي في تلك البابة الغيبية المحضة من الأساس)! يجب أن يفهم إخواننا أن نظرية "التصميم الذكي" ليست في مثل سهولة ووضوح قول القائل: "تأملوا في هذا التعقيد الشديد والدقة البالغة، كيف يُعقل أن يكون ذلك النظام المحكم قد جاء إلى العالم صدفة بلا خالق؟ هذا محال!" ولو أن بيهي وأصحابه توقفوا على هذا القدر من المحاججة لقبلناه منهم ولا شك، لأن من بداهة العقل ما يقتضي ظهور الغائية (التليولوجية) في جميع ما تقرر لدينا أنه نظام له عمله السببي في الواقع المشاهد من حولنا! ولكن القوم لا يقفون عند هذا القدر، ومن السذاجة والجهل المبين ادعاء أن نظريتهم تتنصر لهذا المعنى البدهي الواضح، مهما زعموا هم ذلك في أوساط اللاهوتيين والمتدينين!

[←78]

ويتحفظ بيهي من تلك الفكرة بأنها تقابلها بعض العقبات (يقصد استشكالات زملائه الفيزيائيين على فكرة السفر عبر الزمن نفسها)! ويصرح بما معناه أنه لولا أن كان هو نفسه من الروم الكاثوليك لما التزم القول بأن المصمم هو الإله الذي يعبده! فهو يريد التصريح بأن المصمم المزعوم إنما هو جزء من النظام الطبيعي في الحقيقة، ولكن لا مانع من اعتقاد كونه "ماورائيا" Supernatural / Transcendental لمن أراد ذلك! والعجيب والطريف في نفس الوقت، أن الدراونة – على الرغم من كل هذا – لا يزالون يتهمونه وأصحابه بأنهم قد أدخلوا الماورائيات The Supernatural إلى العلم الطبيعي، لدرجة أنهم قدموهم للمحاكمة لسعيهم في تعليم نظريتهم جنبا إلى جنب مع نظرية داروين في مدارس أمريكا! فبالله أي ماورائيات هذه التي أدخلوها وهم في الحقيقة ملتزمون بجميع مقدمات التجريبيين الماديين في قضية الأصل والنشأة (وعلى رأسها شرط داروين نفسه) في تحويلهم الماورائيات والغيبيات كلها إلى طبيعيات وتجريبيات، تخضع للاستقراء والقياس على المحسوسات، إلى الحد الذي صرحوا فيه بأنهم لا مانع عندهم من اعتقاد أن "المصمم الذكي" هذا إنما هو "اليوفو" أو المسافرون عبر الزمن أو جميع ذلك، إن ثبت في يوم من الأيام من طريق البحث التجريبي؟؟

والقصد أنه سواء بحثنا في عقائد الدراونة أو الخلقيين، فلن نجد إلا أن كلتا الطائفتين فرقتان فلسفيتان خرافيتان تشتركان في كثير من الأصول الإلحادية الكلية (التي يأتي على رأسها إثبات "الصدفة الوجودية" ونفي الغائية والسببية عن القانون الطبيعي نفسه)، ولا يجوز أن نقبل نحن المسلمين دعوى أي من الطائفتين انتسابها إلى "العلم" أو "البحث العلمي" أصلا (على مفهومنا نحن للعلم التجريبي وللعلم بعموم، لا على مفهوم أولئك الطبيعيين الماديين)! وهو ما يعني أنه بخلاف ما يظنه كثير من المتكلمين من أهل القبلة، فإن طائفة التطويريين أو القائلين بالتطور الموجه Guided Evolution تعد أخف ضلالا وإغراقا في مسلمات النحلة الطبيعية المعاصرة من الخلقيين القائلين بالتصميم الذكي! ذلك أن التطويريين يزعمون معقولية رفع العامل العشوائي الوجودي من نظرية داروين، ويرون جواز اعتقاد صحة الأسطورة الداروينية في أصل الأنواع من غير أن يلزمهم التسليم بأصولها الفلسفية الكلية (وهو أمر بينا بطلانه في هذا الكتاب وفي غيره). أما أصحاب "التصميم الذكي" فيعتنقون أصول المنطق الارتقائي الدارويني ويسلمون بمبدأ الصدفة الوجودية أو العشواء Randomness كخاصية أصيلة في الواقع نفسه، وبأن القانون الطبيعي لا يُنسب إلى سبب غيبي أصلا! فهم يعتنقون الارتقاء الدارويني بتمامه غير منقوص، وإنما يضيفون إليه القول بأن بعض النظم الحيوية في هذا العالم لها "تعقيد مخصوص" ظهر فيها تبعا لصنع "مصمم ذكي" له غاية وهدف، فلا تعزى للتطور الدارويني. ولهذا يتناقض تناقضا جذريا كل من يزعم أنه يؤمن "بالتطور الموجه" و"بالتصميم الذكي" معا في نفس الوقت! دع عنك مناقضة كلتا النظريتين لاعتقاد كمال العلم والحكمة والقيومية في الرب تبارك وتعالى وتفرده بخلق كل شيء وتقدير كل شيء. ولذا أيضا نقول إنه إذا كان من العجب أن ترى مسلما ينتصر لإحدى هاتين النظريتين متوهما أنه بذلك ينصر عقيدة المسلمين، فمن أعجب العجب أن تراه ينتصر لكلتا النظريتين معا في نفس الوقت، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←79]

والمعنى نفسه نعترض به على كل من جعل نحلته القرمطة على النصوص والتلاعب بالتأويل حتى يثبت اعتقاده الغيبي البدعي الذي لم يعرفه السلف! يقول: ما دامت اللفظة في الآية أو في الحديث تسمح بهذا التأويل، فلا مانع من حملها عليه، بل يصبح هو المتعين لأن مذهبي الغيبي في الإلهيات أو في الطبيعيات يقتضيه (وهو ما ينزل عنده منزلة القطع العقلي، ثم يجري به على قانون الرازي في التأويل)! وهذا من أبطل الباطل، لأنه كما لا يجوز الاستدلال بالخلاف لتسويغ التخيير أو الانتقاء بالهوى من بين الأقوال، أو لتسويغ إحداث قول جديد في مسألة قديمة، فكذلك لا يجوز الاستدلال بقبول اللفظ لتأويل جديد، كطريق لتسويغ حمله على وجه جديد لم يقل به أحد من المسلمين من قبل قط، انتصارا لعقيدة غيبية حادثة ما أنزل الله بها من سلطان! سلمنا بأن اللفظ يقبل – لغة – أن يدخله تأويل جديد، فكان ماذا؟ هذا لا يغني المسلمين عن طلب العلم بالمعنى الحق الذي يجب عليهم اعتقاده والمصير إليه في نفس الأمر، يطلبونه من نفس المشكاة التي تلقوا منها النص نفسه! وإلا، فلا فرق بين تأويل وتأويل، من تلك التأويلات التي تجيزها اللغة فيما يرون، وإذن فلا قيمة للنص ولا حجية تبقى فيه أصلا عند العقلاء، بل يكون وجوده كعدمه! وكذلك يقال في المشاهدات الحسية، عندما يكون التفسير المفترض لها تفسيرا غيبيا محضا (لم نشهده بحواسنا ولا يقع نظيره تحت حسنا)، فيجوز عقلا أن تكون جميع الأنواع قد خلقت من نوع واحد، كما يجوز أن يتكون قد خلقت نوعين نوعين، ويجوز أن تكون قد خلقت من الماء بكلمة التكوين، أو أن تكون قد خلقت من الماء على مراحل، تخلق الحيتان في البحر أولا، ثم الطيور في السماء، ثم الدواب على الأرض، أو العكس .. إلخ! فإذا كان الحادث نفسه (حادث نشأة الأنواع الحية كلها بعد أن لم تكن) لم نشهده وهو من نوع لم نشهد له نظيرا في تجربتنا بالضرورة (إذ مهما شهدنا فإنما نشهد تغيرات في أنواع قائمة)، فأي شيء يرجح هذا التفسير أو هذا الفرض على ذاك من طريقهم؟ لا شيء على الإطلاق! فسماحية التأويل أو قابلية التأويل للمشاهدات الحسية، وإن كثرت، على وفق هذه النظرية أو تلك، لا دلالة فيها ولا ترجيح ولا فرقان البتة! وكذلك قال في الكيفيات والأسباب التي بها تنوعت الأنواع وتعددت على الأرض من أول يوم ظهر فيه النوع الحي! هذا أيضا غيب محض، ومهما وضعت فيه الفرضيات فلا رجحان لشيء منها على غيره من طريق المشاهدة! ولهذا نقول إن اشتراط داروين ظهور المشاهدة التي لا تقبل التأويل على وفق نظريته كشرط لإبطالها Falsification criterion هو من داربون مكر ودهاء، وإلا فهو جهل وخفة عقل!

[←80]
A set of Individuals closely resembling each other

[←81] ولا أدري ما الذي منعه منه في الحقيقة، لعله كان قد تربى على قضايا المساواة بين البيض والسود أو تأثر بدعاوى سياسية معينة أو نحو ذلك. وهي على أي حال مسألة من المسائل التي قد تبحث في إطار تاريخ العلوم وسوسيولوجيا العلم History and Sociology of Science، وليست مما يعنينا هاهنا أن نقف فيها على قول أو مذهب!

[←82]

وللفائدة فقد وضع الأحيائيون تعريفات أخرى لمصطلح "نوع" Species حاولوا بها الخروج من إشكالية كون النوع مجرد تقسيم معرفي أداتي انتقائي صرف Instrumental Classification لمجموعات المخلوقات الحية المتقاربة في جملة معينة من الصفات، وجعله توصيفا لمجموعة من الخصائص الطبيعية المميزة في الأعيان، التي يتفق عليها الأحيائيون اتفاقا موضوعيا! بمعنى أن يكون لديهم تعريف لا يقبل المخالفة أو التخطئة، وأن يكون ذلك التعريف جزءا أساسيا من البارادايم الدارويني لا ينفك عنه! وإلا فمن الواضح أنه إن جاز أن يكون تعريف النوع بالتشهي والتحكم، أو بصورة أداتية انتقائية كما سلكه داروين نفسه في كتابه، فلن يستقيم للدراونة شيء من مزاعمهم بشأن أصول الأنواع والعلاقات الرابطة وراثيا فيما بينها! فمن مذاهبهم في تعريف "النوع" بيولوجيا (كما أوجزه مايكل روز في كتابه: البارادايم الدارويني The Darwinian Paradigm: Essays on its History, Philosophy, and Religious Implications) تعريف إرنست ماير Ernst Mayr وآخرين للنوع بناء على قابلية التزاوج والتناسل، فهو كل مجموعة من المخلوقات الحية يمكن لأفرادها أن تتناسل فيما بينها، ولا يمكنها التناسل خارجيا (مع أفراد المجموعات الأخرى). ولكن هذا التعريف يقتضي ألا يكون النوع الجديد إلا بالغا من الاختلاف الجيني عن أصله ما يكفي لمنعه من أن يتناسل مع ذلك الأصل أو من أن ينحدر فرد منه عن فرد من ذلك النوع الأصل بصورة مباشرة. وهذا يقتضي كما لا يخفى إسقاط استدلال الدراونة (على التسليم تنزلا بأصل قياس الغائب على الشاهد في تلك القضية الغيبية المحضة) بما سموه بالترقي الدقيق Micro-evolution (وهو ما حقيقته عمليات التغير الجيني التي تطرأ على أنواع المخلوقات الدقيقة كالباكتيريا ونحوها من باب التكيف Adaptation) لإثبات حصول الترقي العظيم Macro-Evolution، ذلك أننا لم يسبق لنا أن رأينا نوعا ما لا في الباكتيريا ولا في غيرها تجري على ذريته سلسلة من التغيرات الجينية تباعا إلى الحد الذي ينشأ معه نوع جديد غير قادر على التناسل مع الأصل الأول الذي انحدر عنه في ابتداء تلك السلسلة، أو بالأحرى، غير متصور فيه أن ينشأ عن الأصل الأول الذي بدأت منه السلسلة نشأة مباشرة! تتغير الصفات والجينات مهما تتغير، ولكن يبقى ذلك كله محصورا في إطار النوع الواحد بناء على هذا التعريف التناسلي! ثم إنه كذلك يفسد عليهم استدلالهم بأي حفرية من الحفريات يجعلونها نوعا وسيطا بين نوع ونوع، إذ ما أدراهم هل كان بوسع ذلك المخلوق صاحب تلك الرمة أن يتناسل مع أشبه المخلوقات الأخرى به (ومن ثم يصبح على تعريفهم نوعا مستقلا) أم لم يكن؟ مبدأ الاستدلال بالمستحاثات أو المكتشفات الحفرية قائم كله – كما لا يخفى – على تعريف داروين نفسه للأنواع، وليس على هذا التعريف! ولا شك أن تعريف داروين للنوع كان يتمتع بقدر من الإجمال بحيث لا تظهر فيه تلك المشكلة! كل هذا نقوله بالتسليم تنزلا بصحة مبدأ التنظير نفسه، فلينتبه لهذا.

وعند طائفة أخرى من الدراونة، يعرف النوع تعريفا ارتقائيا، بالنظر إلى عملية الارتقاء نفسها. قال عالم الإحثاء جي جي سيمبسون G. G. Simpson: "النوع الارتقائي Evolutionary Species هو سلالة Lineage من المخلوقات الماضية في الترقي بصفة مستقلة ومنفصلة عن غيرها من السلالات، وفي إطار دورها الخاص وسماتها الخاصة في العملية الارتقائية" اهـ. وهذا التعريف محاولة لتجاوز مشكلة تأثير التعريف على أصل النظرية ومفاهيمها البارادايمية الأولى، بأن يستصحب فيه التسليم بمعنى الارتقاء نفسه، لا أن يكون معنى الارتقاء هو الذي يسلم في تحريره بمعنى النوع الحيوي! فهو أولا يخرج من إطار تعريف النوع على أنه صفة مشتركة بين أفراد مجموعة من المخلوقات قائمة في الأعيان في نفس الوقت، ليجعله صفة مشتركة بين أفراد سلالة طويلة من المخلوقات بعضها من نسل بعض! وهو ما يرجع به في النهاية وعند التدبر إلى تعريف ماير وأصحابه، إذ ما وجه الاستقلال في السلالة المعينة إلا أن يكون هو امتناع التناسل الخارجي لأيما سبب كان؟ لن نسمح لكم بهذا المهرب السهل من أزمة التعريف ومقتضياتها على البرادايم الدارويني! وإلا فما أسهل أن يقال إن النوع هو ذلك الشيء الذي أجرى عليه داروين نظريته، وتنتهي القضية!!

وعند طائفة رابعة يظهر تعريف مداره على البنية الجينية Genetic Structure، فيجعل النوع هو تلك المجموعة من الأفراد التي تتصف جيناتها بصفات مشتركة، وتنفصل هيكلة جيناتها عن هيكلة الجينات عند الأنواع الأخرى بفواصل أو فجوات ظاهرة. ولكن هذا التعريف يعاني من نفس ما يعاني منه التعريف الأول المورفولوجي، وللسبب نفسه! إذ لا شك أن الأنواع المختلفة اختلافا كبيرا في البنية الجينية، ستكون مختلفة اختلافا كبيرا في المورفولوجيا والهيئة العامة بنفس المقدار، والعكس بالعكس! فأين ذلك الحد الصريح الذي يرفع الإجمال في مقدار الاختلاف، ويغلق باب الجدل في حدود النوع الحي، ويمنع المخالفين من أن يقولوا للدراونة: هذا ليس نوعا جديدا، وإنما هو اختلاف في إطار النوع الواحد؟

المشكلة كما تلمسها من كلام "روز" في الكتاب المذكور في تلك القضية، هي أن تعريف الأنواع عند البيولوجيين يرجع في النهاية إلى التحكم والاختيار الفردي Subjective Kinds لا إلى صفات موضوعية صارمة في الواقع الخارجي المراد تصنيفه وتقسيمه! أي لا يصح على مذهبهم (أو على الأقل على مذهب روز) اعتقاد أن الطبيعة تخلق النوع نوعا وتفرق بينه وبين غيره من الأنواع بفوارق موضوعية عرفها من عرفها وجهلها من جهلها! وإنما الأنواع كلها عندهم ليست إلا تقسيما تنظيريا لواقع يرونه متميعا غاية التميع، متداخلا غاية التداخل! من هنا يسلك روز مسلك فلاسفة "ما بعد الموضوعية" Post-positivist approach محاولا التوصل إلى اختيار مذهب ميتافزيقي كلي في مفهوم الصنف أو النوع Natural Kind بحيث يكون ملائما للبارادايم الدارويني كما هو، حتى ينتهي إلى تأسيس اعتقاد معرفي متناسق فلسفيا Self-consistent يرتضيه لنفسه كفيلسوف دارويني أكاديمي! وهذا من آفات مدرسة ما بعد الوضعية كما بسطنا الكلام عليه في موضعه من هذا الكتاب! فهم لا يعنيهم حقيقة الواقع كما هو في الخارج (سواء اعتقدوا أن له حقيقة موضوعية في الخارج أم لم يعتقدوا ذلك)، بقدر ما يعنيهم التوصل إلى بناء معرفي متناسق داخليا وخارجيا مع جملة الاعتقادات التي يعتقدها الفيلسوف الطبيعي بشأن الواقع الخارجي، بما في ذلك مبادئه الميتافزيقية وعقائده الغيبية بطبيعة الحال. فهو في كتابه المذكور لا يريد أن يقول لأقرانه من الدراونة: عندكم مشكلة خطيرة في مسألة التعريف، وهي مشكلة جذرية تهدد أصل البارادايم الدارويني نفسه، فانتبهوا! وإنما يريد أن ينتهي إلى اختيار مذهب ميتافزيقي كلي يتجاوز به المشكلة بالكلية، ليقول لأقرانه: لا يسعكم إن أردتم السلامة من التناقض مع البقاء على الدراوينية، إلا أن تعتنقوا هذا المذهب!

[←83]
ولهذا نقول إنه عندما يقول أمثال ذاك الشاب المهرج الذي سمى نفسه "بالدحيح" – مثلا - إن "عين الإنسان فيها عيب"، فهذا القول باطل بالعقل والنقل جميعا، بل إنه كفر مستقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ذلك أنه يناقض صريح القرآن، كقوله جل شأنه: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)) [السجدة : 7] وقوله: ((صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)) الآية [النمل : 88] وقوله: ((مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)) الآيات [الملك 3-4]، وقوله: ((إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)) [القمر : 49] وقوله: ((خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)) الآية [الفرقان : 2] وقوله: ((قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)) [طه : 50] وقوله: ((وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)) [الأعلى : 3]، فالذي يقول إن الرب جل في علاه خلق نوعا حيا فيه عضو معيوب في أصل خلقته، أي لا يولد فرد من أفراد ذلك النوع إلا والأصل فيه أن يكون مصابا بذلك العيب، ناقصا في أصل خلقته، يحتاج إلى تعديل حتى يقوم بالوظيفة التي يزعم ذلك الناقد أنها هي ما خلق ذلك العضو من أجله، فقد أثبت النقص في علم رب العالمين وخلقه والعوار في صنعته، وناقض صريح القرآن، سبحان الله وتعالى على ما يقولون علوا كبيرا! ويقال لهؤلاء: يا سفهاء، أنتم أجهل من أن تحكموا على بعوضة في خلق الله جل وعلا، إن في أعضائها نقصا، أو لو كان نوع البعوض مخلوقا على نحو كذا أو نحو كذا لكان أحسن، ولو سلبت البعوضة أحدكم شيئا من على قفاه والله ما شعر به ولا دراه ولا استطاع أن يستنقذه منها البتة! ففي أي شيء أنتم، وأي كبر هذا الذي يعمي تلك القلوب الخبيثة، نسأل الله السلامة؟ هل أشهدكم رب العالمين على جميع مقاصده وغاياته من خلق كل جزء من أجزاء العين البشرية، حتى يتخذ أحدكم نفسه حكما على خلق العين، يقول إنها لو كانت على نحو كذا أو كذا لكانت أحسن؟؟ أحسن على أي اعتبار ولأي غاية وبأي معيار؟

أنت حين تنتقد تصميم مهندس من المهندسين، تراجعه فيه فتخطئه وتقول، لو فعل كذا لكان أحسن، أو لا وجه لوضعه هذا الجزء في هذا الموضع أو نحو ذلك، فإنه يجب أن يتحقق فيك أنت في الابتداء شرطان لا يحق لك في العقل أن تتسنم ذلك النقد حتى تستوفيهما، ألا وهما التشبع بالعلم والخبرة اللازمة للإتيان بذلك النوع من التصاميم أولا، والإحاطة التامة بالتصميم محل النقد والمراجعة، من حيث أهدافه العامة والإجرائية والتفصيلية عند المصمم، ومن حيث الكيفية التي يعمل بها ذلك التصميم على المستويين الكلي والجزئي ثانيا. لا يقبل منك مهندس من المهندسين أن تنقد عمله أو تراجعه عليه حتى يتحقق فيك هذان الشرطان! أن تكون قرينه في الصنعة Peer وأن تكون ملما إلماما تاما بتفصيل التصميم الذي صممه والأهداف والغايات التي أرادها منه، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره! فهل أنتم، يا من تفلسفتم تبعا لأستاذكم داروين - عامله الله بعدله - في الكيفية التي خلق بها كل كائن حي وكل عضو من أعضائه، هل أنتم يتحقق فيكم هذان الشرطان، أنكم قرناء للباري تعلمون كعلمه، وأنكم أصحاب إحاطة علمية كاملة بغاياته ومقاصده سبحانه من خلق العين في الإنسان، حتى يستجيز التافه منكم أن ينصب نفسه حكما على أجزاء العين البشرية، يزعم أن فيها نقصا في هذا وعيبا في ذاك؟؟ ألا لعنة الله على المتكبرين! والله لو لم يكن من مقصود لدى رب العالمين في صنعه ما صنع في العين البشرية من مواضع زعمتم أنتم بجهلكم وسفاهتكم أنها ناقصة معيبة، إلا أن يستدرجكم أنتم إلى هذا الحكم المهلك ليرديكم به يوم القيامة، لكفى بها حكمة و"وظيفة" من وظائف العين البشرية، فالحمد لله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا!

[←84]

حتى الكائن أحادي الخلية الذي حاول القوم أن يضعوه في أصل الشجرة الأسطورية المزعومة بوصفه أقل الكائنات الحية في عدد الأجزاء الظاهرة التي يمكن تقسيمه إليها كأعضاء مستقلة Distinct Organs، فظنوه مجرد قطعة جيلي صغيرة تسبح في المياه، هذا الكائن قد اكتشف المعاصرون فيه من الوظائف الحيوية الدقيقة والقدرة على تغيير وظائف أجزائه وعلى نسخ نفسه عند التناسل بالانقسام ما يجب أن يحيله إلى كائن لا يقل "تعقيدا" عن الإنسان نفسه، إن لم يكن يفوقه في ذلك المعنى! فإذا كانت الأنواع تترقى بتراكم الطفرات عبر ملايين السنين في حوضها الجيني، فكم هو محصول الطفرات التي يمكن للدارويني أن يزعم (على عادتهم في الافتراض الخيالي المحض) أنه قد حصل لذلك النوع الأدنى الذي جعلوه السلف المشترك لجميع الأنواع الحية على الإطلاق، ألا وهو الكائن أحادي الخلية؟ وإن لم يكن قد اكتسب تلك الصفات المذهلة بالطفرات فكيف؟ لو كان بيهي وأصحابه توقفوا عند هذا الإلزام، لكان مسلكهم مقبولا في الرد على الدراونة، ولكان في كلامهم حجة في نقض المفاهيم الكلية الأولى للبارادايم الدارويني نفسه، كتفريف "التعقد" ومعنى كل من الانحطاط والترقي البيولوجيين! ولكنهم استغلوا تلك المشاهدات الحديثة التي لم يقف عليها داروين ومعاصروه في بناء الخلية الحية، ليضيفوا إلى المفاهيم والآليات التفسيرية الداروينية المعتمدة عند البيولوجيين، آلية جديدة سموها "بالمصمم الذكي"، فجاؤوا بنظرية لا تقل فسادا عن نظرية خصومهم، فلا للعلم أضافوا ولا للدين انتصروا، وصاروا خصوما للموحدين المؤمنين بالرب الخالق جل شأنه كما صاروا أعداء لنفاته سواء بسواء، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←85]

http://vedicsciences.net/articles/intelligent-design.html, retrieved on March 28th, 2018

[86←]
وقد نقل الدكتور عمرو شريف مغالطة بيهي المنهجية هذه في كتابه "كيف بدأ الخلق"، حذو القذة بالقذة، وانتصر لها من غير تدبر ولا إدراك لمقتضياتها. فقال (ص. 252) في مقام تقرير الطريق "العلمي" التجريبي لإبطال نظرية التصميم الذكي: إن إثبات خطأ التصميم الذكي كمفهوم علمي يتم عن طريق إثبات إمكانية بزوغ نظام معقد غير قابل للاختزال دون اللجوء إلى الذكاء، وقد تمت هذه المحاولات بالفعل وثبت فشلها." اهـ. قلت: هذا كذب! فالدكتور يعلم كما نعلم وفرة وكثرة ما نشره الدراونة الدهريون من تفسيرات داروينية جارية على شرط داروين نفسه، في تلك المسائل التي تحداهم بها بيهي! فكيف "ثبت فشلها" في نظره يا ترى؟؟ يقول: "إن التصميم الذكي يمكن إخضاعه للتقويم العلمي بشكل أكبر من التطور الدارويني. فلقد عجز الدراونة عن طرح تصور معقول (مجرد تصور) لخطوات نشأة سوط البكتيريا دون اللجوء للتصميم الذكي." اهـ. قلت: بل جاؤوا في ذلك من التفسيرات بما قبله منهم أقرانهم وأقروهم عليه، ولست أراني مضطرا للنقل منها ولا للإحالة على مصادرها التي يفترض في مثل الدكتور أن يكون قد مر عليها! فكيف انتهى منها إلى القول بأنهم "عجزوا عن مجرد التصور" لخطوات النشأة، هذا والله من أعجب العجب! يقول: "إن الوجود يبدو مصمم Designed لأنه بالفعل مصمم، وعلى من ينكر ذلك أن يقدم الدليل على خطأ ما هو ظاهر أمامنا. عليهم أن يثبتوا أن الكائن الذي ينبح ويبدو ككلب ليس كلبا، وليس علينا أن نثبت أنه كلب، يكفي أنه يبدو هكذا!" قلت: فبالمثل يقول خصومك يا دكتور: إن الأنواع الحية تبدو وكأنها تطورت عشوائيا، لأنها بالفعل تطورت عشوائيا من أصل مشترك! وعلى من ينكر ذلك ... إلخ"! بل أتدري يا دكتور من أقرب من قال بهذا المعنى؟ إنه أنت نفسك في هذا الكتاب نفسه، حين استنكرت على من سميتهم بالخلقويين زعمهم بأن الإنسان لا يبدو وكأنه تطور من أصل تشاركه فيه جميع أنواع القردة، ولا يكفي التشابه الظاهري في إثبات ذلك، فقلت ما معناه إن الله ما كان ليخدع الناس جميعا ويستدرجهم لاعتقاد النشأة التطوري! فهل العالم يبدو وكأن الأنواع نشأت من أصل مشترك كلها، أم يبدو وكأنها خلقت استقلالا على تشابه فيما بينها تفسره عوامل وظيفية وغائية؟؟ فما كان طريقك في الترجيح هنا فهو طريق خصومك في مسألة ما إذا كان العالم يبدو مخلوقا أو يبدو غير مخلوق، سواء بسواء!

[←87]

If it could be demonstrated that any complex organ existed, which could not possibly have been formed by numerous, successive, slight modifications, my theory would absolutely break down. But I can find out no such case.

[←88] اللهم إلا في ثلة من الأعضاء التي سموها بالمخلفات العضوية Vesitigial Organs وزعموا أنها ليست إلا بقايا داروينية لأعضاء أخرى كانت لها وظائف معينة في أسلاف تطورية ثم تغير الهيكل الوظيفي ففقدت وظيفتها، وهو ما يوافقهم عليه بيهي وأصحابه دونما تحفظ أو اعتراض!

[←89]

قال (ص. 228 – 229) تحت عنوان "دفاع الدراونة": "حاول الدراونة التملص من مفهوم "التعقيد غير قابل للاختزال" بوصف آليات تسمح بنشأة الأنظمة المعقدة تدريجيا عن طريق الانتخاب الطبيعي. وقد طرحوا لذلك ثلاث آليات: الآلية الأولى الطريقة المباشرة: في هذه الآلية، يقوم الانتخاب الطبيعي بتحسين نظام أبسط يعمل بالفعل. أي أن سوط البكتريا كان موجودا بصورة أبسط ويؤدي وظيفته، ثم يأتي الانتخاب الطبيعي ليحسن من مكونات هذا النظام حتى يصل إلى درجة التعقيد التي نراها، مع بقاء الوظيفة كما هي (وهي دفع البكتريا في الماء). هناك مشكلتان تعجز هذه الآلية عن تفسيرهما: - كيف ظهر النظام الأبسط إلى الوجود؟ - ما الحاجة لإجراء تعقيدات في نظام أبسط يقوم بنفس الوظيفة؟!" اهـ.

قلت: لا يخفى على عاقل، أن السؤال: "كيف ظهر النظام الأبسط للوجود"، وارد على كل ما زعمه التطوريون سلفا تطوريا لنوع من الأنواع، لا لشيء إلا لأنه على تعريفهم المتحكم "أبسط" Simpler! فهو وارد عليك أنت أيضا يا دكتور عمرو في كل عضو وافقتهم على أنه كان "بسيطا" ثم "تعقد"! وسيأتي معك بسط الكلام في مسألة البساطة والتعقيد، ومسألة تعريف العضو والوظيفة العضوية في البرادايم الدارويني في هذا المبحث. أما السؤال "ما الحاجة لإجراء تعقيدات في نظام أبسط يقوم بنفس الوظيفة؟"، فهو وارد كذلك على كل ما اعتقدت أنت تطوره من سلف متقدم عليه، دون أن يكون ذلك التطور مفضيا إلى تغير نوعي ظاهر في الوظيفة أو في جملة الوظائف الحيوية التي تقوم بها أعضاؤه، وهذا في تفصيل ميثولوجيا التاريخ الطبيعي كما تؤمن أنت بها كثير مستفيض، بل هو الأصل في الطفرات الوراثية، التي ما زدت أنت على أن سميتها بالإلهية أو الموجهة بدلا من "العشوائية"! التطور الدارويني الذي بنيت عليه أسطورة التاريخ الطبيعي من أولها إلى آخرها، ليس فيه اعتبار لحاجة ولا لداعي ولا لغاية ولا لمصلحة ولا لشيء من ذلك! وإنما هي طفرات تظهر تباعا عبر الأجيال، بحيث إذا أضافت شيئا ما للمخلوق، واتفق له أن كان قادرا على التكيف والتكاثر والانتشار، فإنه ينتخب ليبقى ويورث تلك الإضافة لذريته من بعده، وإلا هلك وضاعت معه الطفرة فصارت كأنها لم تكن! فإن اتفق أن كانت الطفرة مقدمة لسلسة من التغيرات الجذرية في البنية العضوية والوظيفية للمخلوق، صار في نقطة ما على تلك السلسلة نوعا جديدا (مع ما في ذلك من طفرات تنشئ النظام الحيوي الجديد كله على مرة واحدة كما يبدو أنه وقع لكل نظام يعتبره الدكتور "نظاما معقدا غير قابل للاختزال")، وإلا أحدثت الطفرات تنوعات محدودة في إطار النوع الواحد. والسؤال الآن: أليس هذا هو مفهوم التطور Evolution كما تؤمن أنت به يا دكتور؟ إن قلت لا ليس هو، قلنا لك: فكيف إذن تؤمن بأن التطور الموجه هو الذي ينشئ الأنواع الجديدة؟؟ وما معنى "التطور الموجه" إذن؟؟ ليس للنشأة التطورية مفهوم إلا هذا، موجهة كانت أو غير موجهة، مصممة كانت ثمراتها أو غير مصممة! وإن قلت نعم هو مفهوم التطور كما أعتقده، قلنا لك: فما "الحاجة" الداعية لإجراء أي تعديلات على الإطلاق، سواء أحدثت نوعا جديدا أو بقيت في إطار النوع الواحد؟؟ هل هذا سؤال تيليولوجي Teleological Question (سؤال عن غاية عند صانع غيبي) أم سؤال تفسيري Explanatory يطلب التفسير الطبيعي للمسألة لا أكثر؟ إن كان الأول فلا جواب له من طريق من سميتهم بالدراونة ولا من طريقك أنت، ولا يجوز (أصلا) أن ينسب إلى رب العالمين "الحاجة" في صنعه ما يصنع جل شأنه! وإن كان الثاني، فأنت ملزم فيه بما ألزمت به الدراونة الدهرية سواء بسواء، فتأمل!

ثم قال: "الآلية الثانية: الأسلاف المتحورة: يرى بعض الدراونة أن الانتخاب الطبيعي اختار آلية أبسط تستخدم في وظيفة أخرى وأجرى عليها تعديلات وتعقيدات لتنتج سوط البكتريا. وقد اختاروا لذلك المضخة التي تستخدمها بكتريا الطاعون في ضخ بعض السموم في خلايا الضحية. وإذا كانت هذه المضخة تتكون من عشرة أنواع من البروتينات موجود مثلها في سوط البكتريا، فعلى الدراونة أن يقدموا تصورا لكيفية إضافة عشرات الأنواع الأخرى من البروتينات التي يحتوي عليها السوط، ذلك بالإضافة إلى وضع آليات ومراحل تغير الوظيفة حتى تتحول المضخة إلى سوط. ويري بيهي أن العكس هو الأرجح، أن نقول إن بعض أجزاء سوط البكتريا (الأعقد) قد استخدمت لإنتاج المضخة (الأبسط)، إنه "انحدار Devolution" وليس تطورا Evolution." اهـ. قلت: لا بأس، ولكن عليك أنت أيضا يا دكتور، أن تقدم تصورا لكيفية إضافة عشرات بل مئات من النظم الحيوية الوظيفية إلى الخلية الأحادية الأولى التي تقوم بجميع الوظائف الحيوية الأساسية، حتى صارت كائنا متعدد الخلايا، لكل مجموعة من الخلايا فيه نوع مستقبل ووظيفة مستقلة، وأن تمدنا بآليات تغير الوظيفة في ذلك التحول التطوري من سلفنا الأول المزعوم! وعليك كذلك أن تقدم تصورا مفصلا للكيفية التي بها انضاف الريش (ذلك النظام العضوي المعقد) إلى ذراع الديناصور ليصيره جناحا، وبيان بمراحل تغير الوظيفة لذراع الزاحف حتى تم تحوله إلى جناح طائر! وعليك أن تقدم تصورا مفصلا للكيفية التي بها تحول أصبع الإبهام في أول سلف من أسلاف الإنسان ظهر فيه هذا الأمر، بالتحوير العضلي والعصبي والعظمي، إلى أن صار إبهاما قادرا على مقابلة كف اليد Opposable Thumb، وتبين مراحل التحول الوظيفي في استعمال اليد نفسها من السلف المنحط إلى الخلف المتطور، وكيف صارت يدا قادرة على الكتابة وممارسة المهام الدقيقة للغاية، بعد أن كانت خطافا يتعلق به مخلوق ما على الأشجار ويتلقط به الثمار! إلى غير ذلك مما هو على عقيدتك، تعقيد ناشئ بالتطور من سلف دارويني أقل تعقيدا! فإن قلت إن هذا كله لا يلزمني، قلنا: لزمك إذن الخروج من مفهوم التطور كله من أوله إلى آخره! ولا أدري كيف خفي عليه افتقار ترجيح بيهي إلى أي أساس من الاستقراء أو من العادة، كما يفتقر ترجيح خصومه في نفس الأمر إلى أي أساس!

ثم قال: "الآلية الثالثة: التجميع: في هذه الآلية يتم تجميع أجزاء كانت موجودة فعلا وتخدم وظائف أخري من أجل القيام بوظيفة جديدة، تماما كما نأخذ أجزاء من سيارة وقارب ودراجة لنصنع منها طائرة. وإذا كانت هذه الآلية ممكنة عقليا فإنها مستحيلة عمليا، ولو حصلنا على الطائرة فلن يعود الفضل إلى الصدفة، ولكن إلى ذكاء المهندس المصمم أولا، ثم إلى ذكاء صانع القطع الأولية ثانيا! ونفس الشيء ينطبق على السوط البكتيري ذي الأجزاء شديدة التعقيد مذهلة التناغم. وتقيم "لين مارجوليس – Lynn Margulis" عالمة البيولوجيا التطورية الشهيرة والمهتمة بنشأة الحياة، هذه الآليات الثلاث وتقول: إن الدراونة لم يقدموا تصورا مقبولا لنشأة سوط البكتريا. إنهم لم يجدوا مفرا من استخدام ألفاظ مثل "وفجأة ظهر"، و"ولد"، و"طفا"، و"قفز" و"بزغ" ..، كيف؟ لا تفسير." اهـ. قلت: بنفس هذا المنطق يمكننا أن نحكم "بالاستحالة العملية" كما سماها الدكتور، على جميع تفصيلات أسطورة السلف المشترك التي يؤمن هو بها! فما من خطوة من خطواتها إلا يرد عليها نفس الاعتراض بأنها "مستحيلة عمليا"! ثم إنه يرجع وينقض دعوى الاستحالة العملية هذه بقوله "ولو حصلنا على الطائرة فلن يكون إلا بفضل المصمم"! حيرتنا يا دكتور! يجوز عندك وقوع ذلك أم لا يجوز؟؟ إن منعته لزمك ما تقدم، وإن جوزته، نقضت غزلك ولزمك قبول رد "الدراونة"

على بيهي، فتأمل! على كلامك هذا يلزمك قبول النشأة التدريجية لتلك النظم المعقدة كلها، تلك النشأة التي يعترض خصوم بيهي على نظريته بإثباتها، تقبلها أنت ثم جعلها من جملة صور "الذكاء"! وهذا كما لا يخفى هدم لنظرية التصميم الذكي، إذ حينئذ لا يكون ثمة قيمة البتة للاعتراض بمسألة التعقيد غير القابل للاختزال، إذ على هذا يصبح من الجائز أن يقال: كل تعقيد قابل للاختزال، ولكنه خلق بطريقة لابد فيها من "الذكاء"! فأي القولين هو الأرجح؟ القول بجعل موتور الفلاجيلا هذا نظاما معقدا لابد وأن يكون قد خلق على نفس التعقيد وبنفس الوظيفة من أول يوم، ويكون تعقيده غير القابل للاختزال دليلا على "التصميم الذكي"؟ أم القول بجعله نظاما معقدا قد خلق على أجزاء مختلفة الوظيفة مصممة كلها بذكاء بحيث تركب فيما بعد لتنشئ نظام الموتور البروتيني هذا، ويكون ذلك الاختزال نفسه دليلا على "التصميم الذكي"؟؟ أي المذهبين ترجح يا دكتور، وأهم من هذا: بأي شيء ترجح بينهما، إن كنت فاعلا؟؟ وهم في وهم وخيال في خيال، وافتيات على الباري لا وزن له في سوق المعارف البتة!

وعلى هذه الوتيرة، فكل ما يأتي به الباحثون في معاملهم ودراساتهم الميدانية من مشاهدات بيولوجية (تشريحية أو جزيئية أو غيرها)، يصبح عند التطويري – لا بشيء إلا بالدعوى المجردة - تطورا موجها، سواء كان موضوع التطور "معقدا" أو "غير معقد"، ويصبح عند التطوري التصميمي "مصمما" إن كان "معقدا" وإلا كان عشوائيا، ويصبح هو نفسه عند التطوري الدهري فوضويا لا غاية له ولا صانع له، ويرد على الجمع – إذن – اعتراض الباحثة التي نقل الدكتور كلامها بأن الموضوع ليس إلا دعاوى وأسماء ومصطلحات تقال، وصدقت! وهنا ينكشف لك تكافؤ الاستدلال ووهاء القاعدة المنهجية الكلية التي يقف عليها طوائف الدراونة كافة (الدهرية والتطويرية والتصميمية) في الافتراض والتنظير، وأنها لا علاقة لها بالعلم التجريبي الصحيح، إلا كعلاقة التنجيم بأصول علم الفلك، أو السيمياء بأصول علم الكيمياء، والله المستعان! فالتطوريون أيها القارئ الكريم، على اختلاف نحلهم، سواء منهم نفاة الصانع أو مثبتته، وسواء منهم المنتسبون إلى ملة كتابية أو من لا يثبتون للباري رسلا أو كتبا أو نبوات، ليسوا على التحقيق إلا طوائف دينية فلسفية معاصرة، يستعمل كل فريق منهم آلة العلم التجريبي استعمالا يبرأ منه العلم ويبرأ منه التجريب ويبرأ منه العقل نفسه، حتى ينتهي إلى تقرير ما يوافق هواه من أساطير غيبية محضة يعقد عليها نفسه ويبني عليها وعلى ما يزعم أنه "أدلتها" دينه ودين أتباعه، بما يرجو أن يخدم هواه وطمعه في المنزلة التي يرد أن ينزلها بين الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

والعجيب أن الدكتور يصر على أن ما جاء به بيهي في مسألة "التعقيد غير القابل للاختزال" كلام علمي متين، قابل للتمحيص العلمي، مع أنه هو نفسه أسقطه من حيث لا يشعر كما مر معك، في مقام الرد على مخالفيه! والأعجب أنه يقول في مقام نقد من سماهم بأصحاب مذهب التصميم الذكي والخلق الخاص، أنهم عندما ينسبون نشأة جميع الأنواع إلى الفعل الإلهي المباشر، فهم بذلك يقتحمون الغيب، ولا يقدمون مادة يرتضيها الوسط "العلمي" الذي لا يقبل التفسيرات الغيبية! فخبرني بربك كيف لا يكون ادعاء التطور من سلف مشترك تفسيرا غيبيا، واقتحاما لنفس الغيب الذي اتهمت هؤلاء يا دكتور بأنه قد اقتحموه؟؟ وما معنى "الغيب" عندك أصلا، وكيف ومتى تكون الدعوى غيبية، ومتى لا تكون كذلك؟؟ هذا هو بيت القصيد أيها القارئ الكريم، ولب البدعة والضلالة التي عليها سائر الجهمية الطبيعيين المعاصرين، فتأمل!

يقول في سياق انتقاء كلام بعض من ينقل عنهم تفصيل مذهبه في التطور الموجه، تحت عنوان "آلية التطور الموجه" (ص. 236): "يأتي الآن دور سؤال شديد الأهمية، ما هي الآلية التي استخدمها المصمم الذكي في توجيه التطور؟" ونحن نسأله: أليس هذا سؤالا عن أمر مطلق التغييب؟؟ كيف تتصورون لعقولكم وخبراتكم البشرية وعادتكم فيما شهدتموه من أحوال العالم أن تمدكم بأساس يوصلكم بالقياس إلى معرفة الكيفية التي بها خلق الله جميع الأنوع الحية على الأرض؟! نعوذ بالله من كبر الفلاسفة!! لا عجب والله من أن يخزيكم رب العالمين بأن يجعلكم تنتسبون إلى نسل القردة، وكفى به خزيا لو كنتم تعقلون! يقول الدكتور: "لا شك أن العلماء المهتمين بمفهوم التطور الموجه لم يتوصلوا بعد إلى الإجابة عن هذا السؤال، ويرجع ذلك (في تصوري) إلى أسباب أهمها: أن الأمر شديد التعقيد، وأنه يتداخل مع المفاهيم الغيبية" اهـ. قلت: يقول هذا الكلام، ثم تراه يواصل فيقول "ويدور التصور المبدئي لهذه الآلية حول أحد احتمالين"، فلا يبالي الدكتور بأن الموضوع "يتداخل مع المفاهيم الغيبية"! فهلا تفضل علينا الدكتور تكرما، وبين لنا ماذا يقصد بالضبط من قوله "يتداخل مع المفاهيم الغيبية"؟؟ ما هي تلك المفاهيم وما وجه كونها "غيبية" في اعتقاده؟؟ هذه قضية منهج وقضية مصادر تقلي، وهي في ما يبدو فرقانه هو نفسه بين ما يعد موضوعا للعلم الطبيعي وما يعد موضوعا للدين! فما قيمة كتب الدكتور كلها من أولها إلى آخرها إذا كانت تخلو من تحرير واضح لتلك القضية الخطيرة ولحدودها وضوابطها الشرعية والعقلية لديه؟؟

والطريف أنه لم يزل يصدع رؤوسنا بأن التطور الموجه فيه ما يخلص التطور من "الداروينية"، ويخلص الطفرة من العشوائية، ومع ذلك تراه يقبل نظرية مفادها أن التطور الموجه يحدث من خلال "(طفرات) في جينوم الخلية الحية نتيجة لتعرضها لعوامل فيزيائية وكيميائية، كالإشعاع ونقص أو زيادة الأوكسجين أو الحرارة المرتفعة أو المواد الكيميائية وغيرها" فبالله أي فرق إذن بين هذا وبين التطور الدهري، الذي يرجع أصحابه الطفرات العشوائية إلى تلك الأسباب نفسها؟؟ يقول: "وينبغي أن تحدث هذه التغيرات بإحكام شديد، ومن ثم بتوجيه من قبل مصمم ذكي، حتى تنتج هذا التنوع الهائل في الكائنات الحية، وتنتج كذلك هذا التوافق الذي ذكرناه بين جنسي النوع الواحد وبين كائنين وثلاثة كائنات من أنواع مختلفة." اهـ. قلت: هذا كله جار عند مخالفيك من الدراونة على تفسيرات أخرى هي أليق بأصل فكرة الطفرة والانتخاب الطبيعي والمنهج الدهري الذي تأسست عليه تلك الفكرة الشيطانية عند داروين! فبأي "دليل علمي" (على مفهومك أنت وأمثالك وشرطكم للدليل العلمي) يترجح القول بفاعل "ذكي" من الخارج يوجه جميع الحوادث في الطبيعة وما تخضع له من قوانين طبيعية بحيث تنتج هذا الذي ذكرت؟؟ لا مرجح على الإطلاق، إلا إيمانك (الذي لم يأت من طريق تلك النظريات كما لا يخفى) بوجود صانع غيبي ما، يقوم على أمر العالم كله، بصورة ما أو بأخرى! فمهما جاء الطبيعيون الدهرية بنظريات في تلك الغيبيات المحضة، وصار عليها اتفاقهم الأكاديمي في عصر من الأعصار، قبلتها أنت منهم ضرورة، ثم قلت "لابد أن يكون ذلك كله من ضبط وإحكام وفعل الإله الذي أومن به"، ومن ثم رحت تؤسس اعتقادك في صفة وفعل الإله بناء على ذلك! فأنت وأمثالك أصحاب اعتقاد طفيلي، يتطفل على نظريات الدهرية ومناهجهم في ابتداع العقائد في الغيبيات والإلهيات، يسقط القيمة المعرفية للنص الديني لصالحها، ويحيل الموقف منه إلى تقليد من لم تكن له حيلة إلا أن يقلد الأولين على فهمهم له (حتى حصل له العلم – من غير مشكاة النبوة – بمعناه، فسلم أخيرا من الجهل والتقليد الذي كان عليه الصحابة والسلف!)، ثم يأتي ليقول إن كلامه يهدم الدهرية ويقي المسلمين من غوائلها! بل والله ما من طريق يوصل إلى الدهرية أقصر من هذا الذي جئتهم به أنت وأمثالك يا دكتور، ولا حول ولا قوة إلا بالله! وهو – مع ذلك – طريق قد زخرف وزين للناس على أنه طريق

الوقاية من الإلحاد والبعد عنه، فوالله لا يكون ذا عقل فضلا عن العلم بدين الله تعالى، من يماري في زعمنا أن مثل ما جاء به هذا الرجل، هو أخطر على المسلمين بأضعاف مضاعفة مما في تصانيف من يصرحون بالدعوة إلى نبذ الدين وإلى الإلحاد الصريح أمثال دوكينز وأصحابه ممن انتصب في نفوس المسلمين بغضهم والنفور منهم!

يقول هذا أمر غيبي، ثم يقتحمه بالتنظير ولا يبالي، فإذا كان ما مر هو الاحتمال الأول، فما هو الاحتمال الثاني؟ نظرية تغرق الباري في التصور الربوبي الذي أسس له داروين نفسه، إذ يقول: الاحتمال الثاني أن المصمم الذكي وضع الجينات المطلوبة لنشأة الكائنات المختلفة بشكل خامل في الخلية الأولى التي تطورت عنها باقي الكائنات، ثم يقوم المصمم الذكي من خلال العوامل الطبيعية بتنشيط بعض هذه الجينات في الوقت المناسب. ويطرح الدكتور حسين أحمد أمين أستاذ جراحة المسالك البولية في مصر، نظرية جديرة بالتأمل، تتبنى هذا الاحتمال ويطلق عليها اسم "نظرية تثبيط وتحفير الجينات". اهـ. قلت: لا أدري ماذا أصاب أساتذة الجراحة في بلدنا المبتلى، حتى أصبحوا يؤلفون الكتب في ذلك الهراء، ولا حول ولا قوة إلا بالله! الذي وضع هذه النظرية، كيف لم يلتفت إلى أن خلاصتها وحاصلها القول بأن الخلق الإلهي لم يكن إلا إنشاء شريط وراثي معقد فيه جينات نائمة في الخلية الأولى المزعومة، ثم تركه لعوامل الطبيعة ولقوانين الفيزياء والكيمياء لتنشط ما تنشط وتثبط ما تثبط، في كل عصر بحسب ظروفه؟؟ والله ما كان داروين نفسه ليحلم بفكرة أكثر تحقيقا لعقيدة الربوبية المحضة Deist من هذه، والله المستعان! نقول للدكتور حسين هداه الله كما قلنا لصاحبه، يا دكتور دع عنك هذا، واشتغل بالمسالك البولية التي أنت أستاذ فيها، لعل الله ينفع بك!

[←90]

وهو ما تناقضة مجرد فكرة أن الأصل في الأنواع الحية كلها أنها تنشأ نشأة عشوائية محضة مفتقرة لأسباب البقاء، إلا ما يتفق بالصدفة المحضة أن تتولد فيه بالطفرات ما يجعله مؤهلا للتكيف والبقاء والتناسل، فيصير نوعا يبقى في الأرض! فنحن المسلمين نقطع بأن العالم لم يخلق عبثا، وليس فيه شيء خاضع للعشواء والفوضى، وإنما هو نظام محكم دقيق، لم يخلق منحطا ثم ترقى، ولكن خلق على أكمل ما يحصل به المقصود من خلقه من أول يوم، منضبطا من أوله إلى آخره على حكم وغايات لا يحيط بعلمها إلا باريه سبحانه، علمنا منها ما علمنا وجهلنا ما جهلنا، ولا يهلك فيه نوع من الأنواع الحية بسبب كونه جاريا على غير ضبط أو تقدير لأسباب البقاء فيه كنوع، سبحان الله وتعالى عن ذلك الجهل والعجز علوا كبيرا، وإنما يهلك النوع الحي لأن الرب سبحانه قضى بمشيئته أن يجري عليه من أسباب الفناء ما يهلكه فلا يبقي له أثرا، فيقع عليه ذلك القضاء الإلهي من غير أن ينهار النظام الحيوي وسلاسل الطعام Foodchains والتوازن البيئي والحيوي العام Biological / Ecological Equilibrium (الذي تتوازن فيه نسب الميلاد ونسب الهلاك لأفراد كل نوع مع ما هو مطلوب لبقاء نوعه وبقاء الأنواع التي تتغذى عليه والتي يتغذى هو عليها، ومع موارد البيئة المحلية التي هو مستقر فيها، ومع دورة المياه والموارد المادية التي تربط تلك البيئة المحلية بنظام الأرض بصفة عامة)، لا على مستوى المحلة المعينة التي يحدث فيها ذلك ولا على مستوى النظام الحيوي بكليته Biosphere، وهو ما لم يكن ليحدث ولا ليبقى معه شيء على الأرض البتة لو قدر أن كان هلاك النوع أو انقراضه، أو حتى زيادة معدل التناسل والتكاثر فيه أو انخفاضه، حادثا عشوائيا من حيث الأصل، كما هي فلسفة الصراع من أجل البقاء والانتخاب الطبيعي خاصة، والعشواء الوجودية المحضة عامة! هذه مسألة بدهية لا تحتاج إلى بحث نظري ولا إلى إثبات إمبريقي، ويكفي العاقل أن يتدبرها ويتأملها من غير كلفة ولا عناء، حتى يتبين له من فوره بطلان فكرة الانتخاب الطبيعي وتلك العشواء القانونية الوجودية المزعومة Lawful Radomness التي زعم داروين أن الأنواع الحية تخضع لها، وبها تحدث وتتراكم المعلومات الجينية في البيوسفير Bioshpere! حسبك أن تتأمل إن شئت في الجرذان وحدها، وكيف أن الزوج الواحد من ذلك القارض الحقير (الذي لا يجاوز عمره السنة الواحدة) قد ينتج – بحسابات أولية سهلة – نصف مليار جرذ في ثلاث سنوات فقط، إن قدر أن لم يكن في النظام الحيوي بكليته ذلك التوازن الذي به يمنعه رب العالمين من غزو الأرض وإهلاكها في بضع سنوات!

فالسؤال الذي نحتج به على الدراونة في هذا الباب، بما فيهم بيهي وطائفته، فهو هذا: لو كان الأصل في نظام العالم هو العشواء الوجودية المحضة، أو العشواء القانونية كما تعتقدون، وأن الطبيعة العمياء إنما تنتخب ما يتفق له اتفاقا أن يولد وفيه من مؤهلات البقاء ما يصيره نوعا مستقرا Species، أفكان يوجد في الأرض من الأسباب ما يضبط كل نوع من الأنواع الحية في محلته البيئية وفي إطار المنظومة الحيوية والبيئية الكلية للأرض بجملتها، على هذا النحو المحكم الدقيق الذي يمنع من وقوع تلك الحوادث الفوضوية التي هي ما يتوقع حدوثه إن قدر أن لم يكن ثمة ذلك التوازن الكلي الذي يقوم عليه رب حكيم عليم يضع الشيء في محله بلا زيادة ولا نقصان، يخلق كل شيء فيقدره تقديرا؟ ونخص الدكتور بيهي صاحب نظرية التعقد غير القابل للاختزال بهذا السؤال: لماذا لم تقرر فكرتك هذه على مستوى النظام الحيوي بكليته كما قررتها على المستوى الجزيئي الدقيق في الخلية الحية؟ أليس الذي خلق هذا هو الذي خلق ذاك؟ أليس الذي وضع كل جزء من أجزاء الماكينة الجزيئية بحيث لا تقوم بوظيفتها المقصودة منها إلا به، هو نفسه الذي ركب في الكائن الحي (تشريحيا) كل عضو من أعضائه بحيث لا يقوم جسده بوظائفه المقصودة منه إلا بوجوده كما هو، وهو نفسه الذي ركب كل نوع من الأنواع في البيئة التي ركبه فيها ونشره فيها نشرا بحيث لا يكتمل قيام المنظومة الحيوية بكليتها في تلك البيئة بل في الأرض كلها بالوظائف المقصودة من خلقها إلا بكونها على النحو الذي هي عليه؟ اللهم بلى! فما هو جوابك على مستوى النظام الجزيئي البيوكيميائي يا دكتور بيهي، فهو جواب العقلاء من أتباع المرسلين على المستويين التشريحي والإكولوجي الكلي، وغير ذلك من مستويات أو مقاييس الخلق الإلهي في السماوات والأرض! نقول ليس في جسد الفرد المنتمي إلى أي نوع حي عضو من الأعضاء إلا إن قدر فقده، لزم أن يتخلف الجسم عن بعض وظائفه التي هي من خصائص ذلك النوع، حيوية كانت (على تعريفك للوظيفة الحيوية أيا ما كان ذلك التعريف) أو غيرها، ومن أجلها صوره باريه على تلك الصورة (نوعا) لا على غيرها، كما أنه ليس في الخلية الحية ماكينة جزيئية أو نظام بيوكيميائي إلا إن قدر افتقاره إلى جزء من الأجزاء المركبة فيه، لزم تخلفه عن القيام بالوظيفة المقصودة منه والغاية التي من أجلها صور الرب ذلك النظام على تلك الصورة!

وكذلك يقال على مستوى النظام الحيوي بجملته Biosphere، فهو نظام مخلوق متقن على تركيب مخصوص، فليس فيه نوع حي إلا إن قدر عدمه وفقده من المحلة التي هو فيها، مع بقاء بقية أجزاء وعناصر النظام في تلك المحلة وفي الأرض بعمومها كما هي، لزم ألا يقوم النظام الحيوي بوظائفه التي خلقه الله من أجلها، بل ولربما انهار النظام بكليته! فلا يقضي رب العالمين بانقراض نوع من الأنواع على أثر إفساد بني آدم في الأرض أو غير ذلك من الأسباب التي لا يحصيها غيره جل شأنه، إلا لزم أن يقضي معه من التغير في الأسباب والنظم الحيوية العامة في تلك المحلة وربما في الأرض بكليتها ما لا يحصيه أحد سواه جل شأنه، حتى يبقى ذلك التوازن الكلي المحكم قائما. فلا يتصور – مثلا – أن يأتي يوم تنقرض فيه تلك الأنواع التي جعلها الله سببا في انضباط معدل التكاثر للجرذان حيث تفشو في إطار تلك الحدو التي لا يتحول معها الجرذ إلى وباء ماحق، يقضي على المنظومة الحيوية كلها من أولها إلى آخرها، لا يتصور أن تنقرض تلك الأنواع من غير أن يحدث في النظام الحيوي من التغيرات ما يمتنع معه وقوع ذلك التكاثر العشوائي غير المنضبط، بل يقع ذلك وجوبا بترتيب رباني محكم دقيق، هو نفس ذلك الترتيب الذي ضرب له بيهي مثلا عندما قال إن تحويل ماسك الكرافات إلى مصيدة فئران يتطلب من إدخال التعديلات الدقيقة على أجزاء ذلك الماسك ما لا يتصور وقوعه بالطفرات العشوائية، وليس الأمر مقصورا على إضافة قطعة واحدة بطفرة ما! فلعله يحدث من التعديل الجيني على النوع نفسه ما يغير من معدل التناسل، أو يقلل من عدد المواليد في عمر الأنثى الواحدة، أو يفشو فيهم مرض ما يقلل من تكاثرهم، أو يحصل من قلة الطعام في المحلات التي هم فيها ما يلجئهم للانتشار في محلات أخرى يتعرضون فيها لظروف بيئية تقلل من فرص التناسل .. إلخ! فالأمر أوسع من أن تحيط عقولنا بأسبابه! وقد شوهد بالفعل أنه كلما زادت معدلات مواليد الجرذان في محلة ما، زادت فيها معدلات الموت والهلاك في نفس الوقت! وغير ذلك من أسباب ضبط التوازن الحيوي الكلي، مبثوث في كل زاوية من زواياه لمن تأمل، صارخ في وجه كل عاقل بحكمة الرب سبحانه وكمال خلقه، بما يخلب الألباب ويأسر القلوب السوية الصحيحة، كذاك "التعقد" الذي نراه تحت الميكروسكوب الإلكتروني في النظام الجزيئي في الخلية الحية سواء بسواء! ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)) [الملك : 3-4] ومع ذلك، فلن ترى بيهي يجرؤ على الكلام بهذا المعنى، لأنه إذن يكون كلامه هادما لأصول نظرية داروين كلها، وهو ما لا يريده ولا يتصور الذهاب إليه، والله المستعان!

[←91] ويمكن تسميتهم بالدراونة الابتدائيين Initialist Darwinists بالنظر إلى اعتقادهم في فعل الخلق الإلهي، مع كونهم ارتقائيين أقحاح Evolutionists بالنظر إلى موقفهم من ميثولوجيا النشأة الطبيعية.

[←92]

There is grandeur in this view of life, with its several powers, having been originally breathed by the Creator into a few forms or into one; and that, whilst this planet has gone cycling on according to the fixed law of gravity, from so simple a beginning endless forms most beautiful and most wonderful have been and are being evolved

[←93] ولا أدري حقيقة من أين تأتي ترجمة هذا المصطلح بالربوبي أو الربوبية، لا سيما إذا علمنا أن هؤلا يعطلون الرب عن سائر صفات الربوبية (على الاصطلاح الشرعي)، اللهم إلا ما يزعمونه من كونه قد "تسبب" في ابتداء قصة الخلق بصورة ما، لا أكثر ولا أقل، من غير قصد ولا إرادة ولا علم ولا فعل ولا حياة ولا شيء من ذلك!

[←94]

But I own that I cannot see, as plainly as others do, & as I should wish to do, evidence of design & beneficence on all sides of us. There seems to me too much misery in the world. I cannot persuade myself that a beneficent & omnipotent God would have designedly created the Ichneumonidæ with the express intention of their feeding within the living bodies of caterpillars, or that a cat should play with mice. Not believing this, I see no necessity in the belief that the eye was expressly designed. On the other hand I cannot anyhow be contented to view this wonderful universe & especially the nature of man, & to conclude that everything is the result of brute force. I am inclined to look at everything as resulting from designed laws, with the details, whether good or bad, left to the working out of what we may call chance. Not that this notion at all satisfies me. I feel most deeply that the whole subject is too profound for the human intellect. A dog might as well speculate on the mind of Newton

[95←] التي فيها من الحكم ما لا يشترط على رب العالمين أن يبينها له حتى نؤمن به ربا عليما رحيما قديرا حكيما يضع الشيء في موضعه! وإنما ركب الله في البشر من الفطرة ما يقطع به العقل بداهة وابتداء بأنه سبحانه لا يظلم بذلك الشر كله من خلقه أحدا، وأن استلاب بعض الفضل وحجب بعض النعمة لا يكون ظلما أبدا لمن وقع عليه ذلك من أفراد الخلق، مهما ترتب عليه من الكراهة والألم لذلك المخلوق ما ترتب! فإنه ليس لأحد من خلق الله حق عليه سبحانه في أن يجعله على أحسن ما يحب ذلك المخلوق لنفسه ويشتهي، ولا يجب على رب العالمين أن يجعل الخلق جميعا على أحسن ما يحبه كل واحد منهم لنفسه! ولم يكتسب أحد من خلقه الحق في الوجود نفسه، ولا في شيء من أعضائه، حتى يكون استلاب ذلك كله منه سبحانه ظلما له! ولا يشترط لحصول كمال الرحمة والحكمة في الرب جل وعلا أن يكون خلق كل مخلوق على أحسن ما يحب لنفسه هو تدبيره وتصريفه لأمر خلقه! وهذا المعنى بدهي للغاية، لا يحتاج إلى بيان، ولا يماري فيه إلا مجرم جاحد!

[←96]

ولو تتبعنا فلسفة البوذيين والهندوس لوجدنا أنهم إنما انتهوا إلى الاتحادية والقول بأن الرب هو كل شيء، من أثر كوزمولوجياهم الدهرية المحضة التي جعلت العالم (الجانب المادي منه والروحي الغيبي على السواء) هو كل ما هنالك، وهو قديم أزلي لا بداية له، ودائم أبدي لا نهاية له، ولا يزال يجري على دورات وحلقات تتابعية في التنامي والتناقص كما زعموه في ميثولوجياهم (أو للدقة: كوزمولوجياهم). وقد كانت فلسفات هؤلاء هي المدخل الذي دخلت منه (ولا تزال تدخل على صور متجددة) عقائد وحدة الوجود والاتحاد والحلول إلى طوائف أهل القبلة من الصوفيين الغلاة وعبدة القبور، على أثر دخول الإسلام إلى بلاد الهند خاصة، والشرق الآسيوي عامة.

[←97]

ولا شك أنه ما من ماكينة يصنعها الإنسان إلا لزم بالبداهة أن يكون هو من جملة أسبابها الخارجة عليها، غير المنحصرة في نظامها وما تتركب منه، ثم إنها كذلك تخضع لنظام العالم وحوادثه الخارجة عنها، ومادتها التي تتركب منها لم تأت إلا من مادة العالم .. إلخ، فلا يمكن في العقل أن يقال في أي ماكينة من صنع الإنسان إن سببيتها مغلقة عليها على هذا المعنى الاختزالي الفاسد! ومهما صنع الإنسان ماكينة محكمة الصنع تامة الضبط، تجري على نظام دقيق بالغ الدقة، فسيكون ثمة أحوال لتلك الماكينة لا يمكنه التنبؤ بها، تجري عليها لأسباب ما كان يتوقعها! ومع هذا، زعم القوم ذلك التصور الفاسد للماكينة بشرية الصنع، ثم قاسوا عليها نظام العالم نفسه بكليته!

[←98]

As Cited by Silver, Mitchell (2006) *A Plausible God: Secular Reflections on Liberal Jewish Theology*, New York: Fordham University Press, pp. 8

[←99] ويسمونه أحيانا باللاهوت الليبرالي Liberal Theology، كما سماه ميتشل سيلفر نفسه في كتابه المومى إليه! وهذا من أعجب العجب ومن إضافة اللفظ إلى نقيضه Oxymoron، فإن علم اللاهوت موضوعه تقرير الاعتقاد في الإله، وتقرير ما يريده ذلك الإله من مكلفيه! وأما الليبرالية ففلسفة مدارها على التحرر Liberation من قيود الاعتقاد في الإله ومن تكاليفه وشرائعه! فهذا كالذي يتكلم عن علم موضوعه اللاهوت اللالاهوتي Atheological Theology!

[←100]

The metaphorical or pantheistic God of the physicists is light years away from the interventionist, miracle-wreaking, thought-reading, sin-punishing, prayer-answering God of the Bible, of priests, mullahs and rabbis, and of ordinary language. Deliberately to confuse the two is, in my opinion, an act of intellectual high treason.

[←101]

يقول بعض أصحاب ذلك الدين، على صورة من صوره، في موقع من مواقعهم على الشبكة ما ترجمته أن الكون "هو الذي خلقنا، وهو الذي يحفظنا ويقيمنا، وهو الذي يدمرنا ويفنينا. فهو قديم وعميق فوق قدراتنا الحسية على الاستكشاف، وبديع فوق قدرتنا على الوصف بالكلمات، وهو معقد فوق قدرتنا على الإحاطة من طريق العلم Science." اهـ. قلت: فإن لم يكن هذا تأليها للطبيعة على دين من يرى أنه لا موجود في الخارج إلا الطبيعة، يتخذونها ربهم من دون الله، فليس في الأرض شرك إذن!

[←102]

وما من شك في أن القول بخالق يسمع دعاء من يدعوه بالغيب من خلقه، فيجيبه بما يحب أن يجيبه به، وينزل الكتب ويرسل الرسل حتى يعلم من يحب من خلقه ما يحب منهم أن يتقربوا به إليه، وهو مع ذلك يفرح بتوبة عبده المذنب وإنابته إليه بالغيب، ويغضب من معاصي العصاة وجرائم المجرمين، ولولا حكمته السابقة التي اقتضت أن يجري قلم التقدير على إنظار الخلق وإمهالهم إلى يوم الحساب لما حلم عليهم ولما صبر كما في قوله عليه السلام: "مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ. يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ" وإنما يصبر سبحانه لحكمة بل حكم شتى ويحلم بعلم، وهو الحكيم العليم، فلا شك أن القول بصانع هذه صفته، هو مقتضى الفطرة والبداهة والعقل الصريح، لأنه أكمل من ضده كما هو ظاهر! فالذي يخلق مخلوقا حكيما لابد بالبداهة أن يكون أحكم منه، والذي يخلق مخلوقا عليما لابد أن يكون أعلم منه! وإذا كان المخلوق المتصف بالحياة أكمل من المخلوقات الجامدة التي لا حياة فيها، فلابد أن يكون خالق النوعين أكمل منهما جميعا! ولهذا فإن العقل لا يجد مناصا من الحكم بأن يكون الصانع الذي يثبته بالغيب كائنا له حياة وإرادة وعلم وحكمة وفيه أكمل ما يكون من صفات الموجودات الموصوفة بذلك كله على سبيل الاشتراك المعنوي. وهي إرادة وعلم وحكمة يترجح بها بالضرورة كل ما قد خُلق بالفعل على خلافه مما كان ممكنا بالقوة، لحكم علمنا نحن منها ما علمنا وجهلنا ما جهلنا، ويترجح كل حادث من حوادث العالم على خلافه مما كان جائزا عقلا أن يحدث (أو لا يحدث) في محله!

فإذا تأملنا في ذلك المعنى، وفي حقيقة البعث بعد الموت التي نجد العلم بها مركبا في فطرنا، بل وفي معنى الموت نفسه، وجدنا أن الفطرة كذلك تقضي بأن يكون لدى الباري الحكيم العليم الذي خلق بني آدم في هذا العالم، مقصودا مفصلا من تلك الفترة المؤقتة التي يقضيها الإنسان في هذه الحياة ثم ينهيها بالموت، ومقصودا مفصلا من كون آدم وذريته قد خلقوا على أحسن تقويم، وعلى خلاف ما عليه الأنواع الأخرى من صفة الهيئة والبنيان والتركيب! فإن الذي ميز الإنسان بما ميزه به عن غيره من أنواع المخلوقات، لابد وأن له في ذلك مقصود يمتاز عن مقاصده من خلق غيره من دواب الأرض، وإلا فبأي شيء ترجح خلق الإنسان على تلك الصفات خاصة، التي لا تجدها في غيره من أنواع المخلوقات؟ فما هو ذلك المقصود وما تفصيله؟ هذا ما يأتي به الوحي على رسل الله جل وعلا، ولا يعرف إلا من طريقه! لكنا نقطع ابتداء من قبل الشرع بأن صانعنا ما خلقنا عبثا! هذه مسألة معلومة عند بني آدم بالفطرة والبداهة، فلا تحتاج إلى برهان أو استدلال! ولهذا قال جل شأنه مشنعا على نفاة البعث من المشركين: ((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)) [المؤمنون : 115] وقال سبحانه: ((أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)) [القيامة : 36]، ثم قال: ((أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى)) [القيامة : 37-38]، فذكر المخاطبين بآيات عنايته تعالى وتقديره المحكم البالغ، وقيامه على أمر الإنسان في أطوار خلقه، ليحضر إلى نفوسهم المعنى الكلي الذي يشتمل على تلك الآيات وغيرها من آيات الرحمة ببني آدم، ألا وهي عدم تركه بلا أمر ولا نهي ولا تكليف!

ولهذا نقول – معاشر أهل السنة – إن إرسال الرسل في بني آدم (سواء في الدنيا أو في عرصات الآخرة لأهل الفترة) وإن كان من الفضل والمنة الإلهية على الثقلين جميعا، إلا أنه كذلك من مقتضيات حكمة الله تعالى البالغة، إذ يتم بالتكليف أولا ثم الحساب والجزاء، المقصود الإلهي من خلق نوع الإنسان والحكمة منه. وأما أن يقال إن الله تعالى "يجب" عليه أن ينزل الكتب ويرسل الرسل، فهذا لفظ مجمل لم يأت في الكتاب والسنة ولم يتكلم به الصحابة والسلف فلا نثبته ولا ننفيه! وإن خوطبنا به استفصلنا عن معناه وجوبا. فإن كان المراد منه أن الله لا يفعل إلا ما هو أصلح للعبد، ولا يليق به إلا ذلك، فهذا وجوب باطل مردود قطعا، فالله تعالى لم يخلق بني آدم من أجل ألا يفعل بأحدهم إلا ما هو "أصلح" له، أو ما هو "أحب" إليه، وإنما خلقهم ليبتليهم بالغيب كافة، ثم ليبعثهم ويحاسبهم كافة، لا يستثنى من ذلك أحد! فجعل شطرا منهم مهيئين بتهيئة مخصوصة تجتمع لهم بها أسباب الفوز برحمته الخاصة سبحانه والفوز بالجنة، وشطرا مهيئين بتهيئة تجعلهم من أهل اللعنة والسعير، نسأل الله السلامة، كما صح من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلق آدمَ ، ثمَّ أخذ الخَلقَ من ظهرِه ، وقال : هؤلاء إلى الجنَّةِ ولا أُبالي ، وهؤلاء إلى النَّارِ ولا أُبالي ، فقال قائلٌ : يا رسولَ اللهِ فعلى ماذا نعمَلُ ؟ قال : على مواقعِ القدَرِ" اهـ. (صححه الألباني في الصحيحة #48)، فإن كان هذا هو المقصود من الوجوب، فهو باطل قطعا!

وكذلك إن كان المقصود أن الرب لا يملك إلا أن يرسل الرسل، أو أنه مضطر – سبحانه – لأن يرسل الرسل، فهذا كسابقه بل هو أظهر منه في البطلان والفساد! فالله تعالى ليس فوقه من يجبره أو يضطره إلى شيء سبحانه، ولا من يحمله على ما يكره، ولا من يؤاخذه بما يفعل، ولو شاء لأهلك من في الأرض جميعا، من غير أن يكون ظالما بذلك! ((إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً)) [النساء : 133] ولولا أن كتب على نفسه – سبحانه – وسبق منه القول بأن يمهل الثقلين جميعا إلى يوم لا ريب فيه، ما منعه مانع من إزالة الأرض والسماوات وما بينهما وإبدالهما بغيرهما بكلمة واحدة الآن وفورا، سبحانه وتعالى! ولولا أن كتب على نفسه ألا يعذب حتى يرسل رسولا، كما في قوله جل شأنه: ((وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)) الآية [الإسراء : 15] وقوله: ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)) [القصص : 59] وقوله: ((رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً)) [النساء : 165] أي لئلا يأتي من بني آدم يوم الحساب من يقول إذا أدخله الله النار: "يا رب ما جاءني منك من خبر ولا بشارة ولا نذارة ولا تكليف ولا شيء، فعلام العقوبة وفيم أدخلتني النار؟"! فإن كان ممن حضره الخبر برسول في الدنيا، فهو مجوج به، وإلا فهو محجوج برسول يدعوه إلى تكليف إلهي مخصوص في عرصات الآخرة، فإن خضع وأجاب نجى وإلا هلك! فإن قالوا إن المقصود بالوجوب ليس أن ثمة من يوجب عليه من فوقه أو يفرض عليه فرضا سبحانه، وإنما المقصود أنه واجب عقلا (في حقه بوصفه الصانع القديم واجب الوجود كامل الصفات) ألا يكون منه إلا ذلك، أي إلا أن يرسل رسلا للبشر كافة في الحياة الدنيا، فلا يموت إنسان إلا وقد بلغته رسالة رسول من الرسل، قلنا إن هذا باطل من وجهين، فأما أولهما فهو أنه لم يقع! أي لم يقع أن الناس ما مات منهم أحد إلا وقد بلغته قبل موته ولابد رسالة رسول من رسل الله! فمجرد وجود أهل الفترة واقعا ينقض عليهم ذلك الوجوب الذي يزعمونه، أو يلزمهم إن أبوا إلا القول به، بأن ينسبوا ربهم إلى النقص سبحانه، إذ جاء بما لا يليق به ولا يتصور منه! وأما ثانيهما فهو أن هذا راجع إلى مسألة وجوب الأصلح الراجعة إلى قاعدة العدل عند المعتزلة، وقد مر بك إبطال ذلك.

أما إن قالوا إن المراد بوجوب إرسال الرسل عندنا هو أن الله لا يليق به إلا أن يرسل رسلا في الدنيا، كما في قوله: ((إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ)) [فاطر : 24]، على أساس أن مطلق حصول التكليف لبني آدم في الدنيا، هو من مقتضيات الحكمة الإلهية في خلق النوع نفسه، بصرف النظر عن تفاوت أفراد النوع البشري في بلوغ رسالة التكليف إليهم وقيام الحجة بها عليهم من عدمه، فيقال إن موقفهم هذا موافق لما عليه أهل السنة من كون إرسال الرسل في الأرض وقيامهم بالشارة والنذارة من مقتضى الحكمة الإلهية وأن تخلفه عن البشر في الدنيا بإطلاق هو عبث وهمل ننزه الله عنه! ولكنه كما ترى ليس وجوبا منطقيا (على اصطلاح الفلاسفة) بمعنى أنه يمتنع في العقل أن يخلق سبحانه بشرا على صفتنا في عالم كعالمنا من غير أن يرسل إليهم في الحياة الدنيا رسلا مبشرين ومنذرين! فإن العقل يجيز في حقه جل شأنه أن يخلق عالما كعالمنا وبشرا أمثالنا، ومع ذلك يجعل لخلق بني آدم حكمة أخرى وغاية أخرى، فيجعل من حوادث ذلك العالم ومن أنواع المخلوقات الأخرى التي ركبها فيه ما يناسب تلك الغاية الأخرى، بحيث إذا أفنوا جميعا أعمارهم في الأرض، نقلهم إلى دار أخرى يبلتيهم فيها أولا ثم يخلد بعضهم في الجنة وبعضهم في النار! فما الذي يُدري المتفلسفين والمتكلمين عن أمر عالمنا هل هو من ذلك الصنف (المخلوق لتلك الغاية الأخرى) أم من غيره، إلا أن يكون النص هو مرشدهم ومستندهم؟ والقصد أنه لا مدخل لادعاء الوجوب العقلي المطلق في هذه المسألة، ولا يُحكم به إلا تحكما وتأليا على الله تعالى! فإن كان المراد بالوجوب ما حررناه من اقتضاء الحكمة الذي علمناه بالعقل والنقل معا، وليس الوجوب العقلي على الاصطلاح الفلسفي، فالمعنى إذن صحيح، ولكن نكره العبارة بالوجوب لما تقدم بيانه، وإنما يقال إن إرسال الرسل من مقتضيات الحكمة الإلهية من خلق النوع البشري في الأرض، ثم نقف عند ذلك ولا نزيد، والله أعلم.

ولا شك أنه من أسخف وأخبث ما يكون أن يستدرج المسلمون لمراء ومكابرة سمجة مع الدهرية اللادينيين إذ يقول أحدهم في كذب ظاهر على نفسه وعلى الناس إن الله لم يرسل رسولا قط، أو ليس فيما يجد مع من زعموا أنهم رسله ما ينصر دعوتهم! فترى المسلم يلجأ عند مخاصمة ذاك المكابر الكذاب إلى إثبات وجوب إرسال الرسل على الله تعالى بما يقتضي أن إسماع ذلك المكابر وإقامة الحجة الرسالية عليه قبل موته هو أمر واجب على الله عقلا، أو يلجأ إلى إثبات أن مطلق وجود الرسل والرسالات في بني آدم هو أمر واجب على الله عقلا، على اصطلاح الفلاسفة، بحيث لو تخلف عنه للزمت نسبته إلى النقص سبحانه! فصحيح إن مطلق إرسال الرسل في الدنيا هو مما تقتضيه الحكمة الإلهية، وحصول مقتضيات الحكمة الإلهية واجب عقلا، لمطلق كونها من حكمة الرب المقرونة بالقدرة الإلهية السابغة، إلا أنه لا استقلال للعقل بالحكم بذلك الاقتضاء نفسه من الأساس، بل تجتمع الفطرة بالتجربة الحسية بالسماع من الوحي، لتُحقق في النفس القطع بأن إرسال الرسل هو من مقتضيات الحكمة الإلهية في خلق بني آدم، وأن عدمه بإطلاق يعد ضربا من العبث أو الهدر أو السدى يتنزه الله عنه! فالمحاججة في المسألة إنما تحصل بإثبات الوقوع لا بإثبات الجواز أو الوجوب، إن كان هذا هو مقصود من يتكلمون بهذه العبارة المجملة المذمومة "وجوب إرسال الرسل"! والوقوع ثابت عند كل من سبق منه سماع آية واحدة من آيات القرآن، معجزة خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم التي لا تدانيها معجزة، فتأمل!

[←103]
ولا يجوز أن يقال إن الله "يعرف" وإنما يقال "يعلم" لأن المعرفة في اللغة تكون في نفس صاحبها بعد عدمها، إما لعدم نفسه بالكلية أو لعدم المعرفة نفسها ثم حصولها اكتسابا، والله أعلم.

[←104]

وهذا المسلك في تطبيق الاحتمالات الرياضية فاسد عقلا كما بيناه في "آلة الموحدين"، إذ لا يبلغ الإنسان أن يكون لديه أساس معرفي لتطبيق نظرية الاحتمالات حتى تكون لديه خلفية من المشاهدات المستفيضة واستقراء الأشباه والنظائر، فيما يجري جميعه على أمور توصف أولا بأنها ممكنة عقلا، وثانيا بأنها مما يقع تحت الحس والتجربة البشرية (بالفعل أو بالقوة). فعندما نقول – مثلا – إن احتمالية سقوط الكرة إلى أعلى لا إلى أسفل إذا تركناها معلقة في الهواء، تكاد تقترب من الصفر، فإننا ما بلغنا أن نحكم بهذا الحكم إلا استنادا إلى تجربة حسية مستفيضة في حالات السقوط الحر Free Fall، تجعلنا نرجح بالتوقع التكراري Frequency Prediction أن تكون الواقعة محل البحث على صفة كذا لا على صفة كذا. أما والحال أننا لم نشهد في حياتنا كونا يخلق من "فردية" بالتمدد والانتفاخ أو بغير ذلك، وما شهدنا يوما من الدهر نظيرا لشيء من تلك الحوادث الطبيعية التي تفنن الطبيعيون في افتراضها بمحض الخيال في أسطورة النشأة عندهم، فعلى أي أساس يقال إن هذا الحادث نسبة أرجحيته الاحتمالية هذا كذا أو كذا، إلا التوهم والرمي في عماية؟ هذا على التسليم بأن القصة نفسها تقوم على أساس مقبول عقلا، لا أنها تدعي نشأة النظام بلا منشئ! فلما استجاز القوم تطبيق المنطق الاحتمالي في تقديرات الزمان في تلك القصة، قالوا إن وقوع الحادث الشاذ غير المألوف قد دلت تجربتنا الحسية وعادتنا المستفيضة على كونه ضعيف الاحتمالية للغاية! فلا يصاب الرجل بصاعقة البرق حال تجواله في الطريق – مثلا – ولو لمرة واحدة على امتداد عمره إلا باحتمالية ضئيلة. ولكن إن قدرنا أن تضاعف عمره مئة ضعف أو ألف ضعف مثلا، فلا شك أن الاحتمالية ستزيد، بالنظر إلى كثرة مرات التعرض للظروف التي يمكن فيها – إمكانا عقليا وفزيقيا على السواء – أن تصيبه الصاعقة. فلما كانت إصابة الإنسان بالصاعقة تعد – على دينهم الطبيعي – مسألة عشوائية محضة Chance event، بل تعد المثال الأشهر للحوادث العشوائية عندهم، فبالمثل وبالقياس، قالوا إن كل حادث من حوادث النشأة العشوائية كذلك (بزعمهم) في تاريخ الكون، تتضاءل احتمالية حدوثه كلما تقاصر عمر الكون، وتتزايد كلما استطال. ومن ثم توجه الطبيعيون في شتى المجالات ذات الصلة توجها بارادايميا عاما، للإتيان بفرضيات في جميع مفاصل البناء التنظيري تناسب ذلك المطلب، بما في ذلك فرضياتهم في أساليب تقدير الأعمار والامتدادات التاريخية الطبيعية تناسب ما أرادوه من تطويل عمر الأرض إلى أقصى حد ممكن! ومن هنا جاءت النظرية التي عليها وضعت فرضيات أدوات القياس الزماني Dating Methods وصممت لتلائمها، فأصبحت تفيد بأزمان تناسب التصور المراد إثباته!

[←105]

وهذا كذب صراح! فإنك إذا رجعت إلى الكتاب المذكور، فلن تجد ذلك القول فيه البتة، بل تجده يقيم الأدلة من القرآن ومن كلام المفسرين على أن الله تعالى إنما خلق الأنواع الحية استقلالا، كل نوع على حدة، وليس "بالنشوء" بعضها من بعض، ثم يقول إن هذا هو ظاهر النصوص الذي لا محيد عنه إلا بالدليل القاطع المنصرم، ولا مصير إلى ذلك من طريق أصحاب النظرية أصلا! بل قال كلاما كليا ينقض أدلة القوم التي كانت عليها النظرية في زمان داروين، وتلك التي يستندون إليها اليوم، وكل ما يمكن أن يأتوا به في يوم من الأيام، نقضا نوعيا لا أدري كيف لم يفهمه الدكتور، وكيف – مع مروره عليه – نسب الرجل إلى تلك "القلة" التي يزعمها، إذ قال في نفس الكتاب المحال عليه: "والأدلة التي تذكرونها في كتبكم على النشوء ما هي إلا ظنون وفروض لم تخرج من دائرة الاحتمال الذي يسقط به الاستدلال" اهـ. ونحن نقول: هذا على التسليم بأن أصل الدعوى التفسيرية نفسه (معنى التطور عند داروين) صحيح عقلا، فكيف وهو فاسد في أصل القياس نفسه؟ فهي (أي تلك الأدلة) أحط منزلة هي أحط منزلة على الحقيقة من تلك التي أنزلها إياها الشيخ، ومع ذلك فحتى لو كانت على ما قال الشيخ، فلا تفيد بشيء البتة ولو ملأتم الأرض بها وطبقتم السماء، بل تظل النظرية كلها بجميع تفصيلاتها وهما كبيرا لا يخرج عن دائرة الاحتمال، على التسليم بصحة المنطق الذي قام عليه بناء الفرضيات فيها!

[←106]

قال محمد رشيد رضا رحمه الله في "المنار" عند قصة آدم عليه السلام: "فإن القصة لم ترد في القرآن كما وردت في التوراة التي في أيدي أهل الكتاب - حكاية تاريخية - وإنما جاء القرآن بموضع العبرة في خلق آدم واستعداد الكون لأن يتكمل به، وكونه قد أعطي استعدادا في العلم والعمل لا نهاية لهما ليظهر حكم الله ويقيم سننه في الأرض فيكون خليفة له، وكونه لا يسلم من داعية الشر والتأثر بالوسوسة التي تحمل على المعصية. ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره، لم يبين الزمان والمكان كما بين في سفر التكوين، وكان بيانهما سببا لرفض الباحثين في الكون وتاريخ الخليقة لدين النصرانية؛ لأن العلم المبني على الاختبار والمشاهدة أظهر خطأ ما جاء من التاريخ في التوراة، ووجدت للإنسان آثار في الأرض تدل على أنه أقدم مما حددته التوراة في تاريخ تكوينه، فقام فريق من أهل الكتاب يركب التعاسيف في التأويل، وفريق يكفر بالكتاب والتنزيل ". اهـ.

قلت: الزعم بأن القرآن إنما يُقص فيه القصص على وجه العبرة دون غيره قول غير صحيح! بل جاء القرآن بالقصص من أجل العبرة والعظة، وكذلك من أجل بيان الحق والنبأ الحق فيما اختلف فيه الأولون! فمن مقاصد القصص في القرآن تقرير الحق في أمر الغيب الماضي، الذي أفسده أهل الكتاب وغيرهم وجاؤوا فيه بالأساطير والأباطيل بعضها فوق بعض طبقات، ومنها تسلية محمد صلى الله عليه وسلم بما صنعه الله تعالى بالأمم السابقة التي تأبت على أنبيائها ورسلها، وبأن نصر الله قريب، ومنها محاجة أهل الكتاب بإتيانهم بمصداق ما بين أيديهم من الحق، كما في قوله جل شأنه ((وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ)) [البقرة : 41] وقوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ)) [الشعراء : 197] ومنها بيان ما أخفوه وحرفوه من كلام الله في كتبهم، كما في قوله تعالى: ((وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً)) [النساء : 157]، ومنها جعل أمة الرسول الخاتم شهيدة على ما قبلها من الأمم، كما في قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري: "يُدعى نوحٌ يومَ القيامَةِ، فيقولُ: لبَّيك وسَعْدَيك يا ربِّ، فيَقولُ: هل بلَّغتَ؟ فيقولُ: نعَم، فيُقالُ لأمَّتِه: هل بلَّغَكم؟ فيَقولون: ما أتانا مِن نَذيرٍ، فيقولُ: مَن يَشهَدُ لك؟ فيقولُ: محمَّدٌ وأمَّتُه، فيَشهَدون أنَّه قد بلَّغ؛ {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143]؛ فذلك قولُه جلَّ ذِكرُه: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143[، فلو لم يكن هذا كله مقصودا من القصص ما جاء القرآن بروايته على ما جاء فيه من التفصيل، ولاكتفى بالإجمال!

فعلى هذا يكون أكثر ما جاء به القرآن من تفصيل في تلك الأخبار والأنباء حشوا لا داعي له، كما حكم صاحب المنار – عفا الله عنه - على ما وقع في كتاب الخلق عند أهل الكتاب من بيان الزمان والمكان بتفصيل خلا منه كتابنا! فهو يصرح بالسبب الذي حمل النصارى على إسقاط "تاريخية" أخبار الخلق عند أهل الكتاب، وحمله هو على موافقتهم في ذلك، فيقول: "لأن العلم المبني على الاختبار والمشاهدة أظهر خطأ ما جاء من التاريخ في التوراة، ووجدت للإنسان آثار في الأرض تدل على أنه أقدم مما حددته التوراة في تاريخ تكوينه" قلت: فكذلك قد وجد أصحاب "العلم المبني على الاختبار والمشاهدة" آثارا في الأرض للإنسان استدلوا بها على أنه لم يوجد في التاريخ شخص اسمه آدم أصلا، وإنما نشأ النوع البشري نشأة تطورية منحطة من أشباه القردة وأسلاف الخنازير! فعلى هذا الكلام، يلزم تكذيب تلك القصة في القرآن كما كذبها النصارى في العهد القديم ولا فرق!

ولا شك أن لفظة "التاريخ" في قوله: "ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين" لفظة مجملة للغاية، وإلا فلنا أن نسأله، هل قوله تعالى: ((الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)) الآية [الأنعام : 1] تاريخ أم ليس بتاريخ؟ هل واقعة الخلق وواقعة الجعل المذكورتان في الآية تاريخ أم ليستا بتاريخ؟ وقوله تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ)) الآية [الأنعام : 73] وقوله: ((إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)) الآية [الأعراف : 54] وقوله: ((إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ)) الآية [التوبة : 36] وقوله: ((وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء)) [هود : 7] وقوله: ((مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ)) الآية [الكهف : 51] وقوله: ((خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)) [لقمان : 10] وغير ذلك من نظائره التي تملأ القرآن، هذه على عبارة الشيخ غفر الله له، تاريخ أم ليست بتاريخ؟؟ فلإن قال إنها تاريخ، بطلت عبارته بالضرورة لأن تقرير ما يجب أن يعتقده المكلف في صفات الربوبية وأفعالها من مهمات الدين قطعا! وإن قال ليست بتاريخ، مع ما هو ظاهر من كونها وصفا لوقائع وحوادث وقعت في الماضي تحقيقا، فما التاريخ إذن، إن لم يكن هو الخبر بما وقع في الماضي؟؟

والقصد أن الشيخ محمد رشيد رضا عفا الله عنه كان في تلك الفترة من حياته يحاول محاولة المستميت أن يلتمس طريقا لتلبيس مذهب شيخه محمد عبده في التفسير بمذهب أهل السنة، ويجعله أشبه بطريقة علماء التفسير المعتبرين في مصنفاتهم، إذ تراه ينقل عنه عقب تلك الفقرة مباشرة، نقل الموافق المقر، قوله: "وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا: إن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض؛ لأنه يعمل باختياره ويعطي استعدادا في العلم والعمل لا حد لهما، هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء في هذه الأرض وانتفاعه به في استعمارها، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله - تعالى - في ذلك، وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التي هي مثار التنازع والتخاصم، والتعدي والإفساد في الأرض، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري" اهـ. قلت: فعلى هذا المسلك الباطني الخبيث، الذي اجتهد الأستاذ محمد رشيد رضا – رحمه الله وغفر له - في تحسينه وتزيينه في ذلك الكتاب (قبل أن

يمن الله تعالى عليه بالتسنن في آخر أيامه)، فلا حد ولا نهاية لما يمكن أن يخترعه الناس به من دعاوى بشأن المراد من كلام رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ونقول وبالله التوفيق: لا شك أن ادعاء كون قصص القرآن مما لا حقيقة له في التاريخ من حيث مطابقته الواقع، هذا تكذيب لله تعالى لا يخفى ولا يلتبس على عاقل، إذ الأصل فيمن يخبرك بخبر من أمر الماضي أن يكون مقررا (بمجرد الإخبار) لما يزعمه حقا مطابقا للواقع، ما لم يصرح بأنه يختلق القصة اختلاقا للتمثيل والعبرة ونحو ذلك، فإما أن يكون صادقا فيما يخبر به فنقبل منه أو يكون كاذبا فنرد عليه، أو يكون مجهول الحال فنتوقف في خبره! وإن المرأ ليعجب من أولئك اليهود والنصارى الذين اخترعوا هذه الدعوى بشأن قصص كتاب الخلق عندهم، إذ ظنوا بذلك أنهم يبرئون كتابهم من رواية الكذب! ذلك أن النص صريح غاية الصراحة في الإخبار التاريخي بشأن الماضي وما جرى فيه، حتى إنه يقرر الوقائع بذكر عدد السنوات المنصرمة بين كل واقعة والتي تسبقها، ذكرا صريحا لا التباس فيه! فعندما يؤتى بذلك كله ويقال إنه ليس خبرا مطابقا للواقع وإنما هو من باب التمثيل القصصي الخيالي، فهذا تكذيب محض للكتاب وتسفيه لصاحبه مهما زعموه غير ذلك!

وكذلك عندما يحدثنا الرب تبارك وتعالى في كتابه بخبر من أمر الماضي البعيد قد غاب عنا ولم نشهده، يقرره تقرير العليم الشهيد الخبير بما كان على وجه التحقيق، ثم يخرج من يقول: هذا كله من باب التمثيل الخيالي وليس تقريرا لحقائق تاريخية، فأي شيء يكون هذا إن لم يكن تكذيبا صريحا لرب العالمين؟؟ لا نحتاج إلى أن ننقل مثل قوله تعالى: ((ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)) [آل عمران : 44] وقوله تعالى: ((تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)) [هود : 49] وقوله تعالى: ((ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ)) [هود : 100] وقوله تعالى: ((وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)) [هود : 120] وقوله: ((ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)) [يوسف : 102] وقوله: ((كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً)) [طه : 99] وقوله: ((وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ)) الآية [المائدة : 27] وقوله: ((أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)) الآية [التوبة : 70] وقوله: ((نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)) [الكهف : 13] وقوله: ((إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ)) الآية [الأنعام : 57] وقوله: ((إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)) [النمل : 76] وقوله: ((وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً)) [النساء : 157]، إلى غير ذلك مما يصرح الرب فيه بأنه يقص الحق ويأمر نبيه بأن يتلو على قومه النبأ الحق، سواء اختلف فيه بنو إسرائيل من قبل أم لم يقصه أنبياؤهم عليهم أصلا! لا يقص الله قصصا إلا بالحق، موعظة وذكرى للذاكرين، ولا يخبر الرب بأمر يقول قال فلان أو فعل كذا وكذا، أو كان كذا وكذا، إلا وهو صادق بالضرورة، سبحانه وتعالى، من غير أن نلتمس تصديقه لنفسه وتقريره أن ما يقول هو الحق المطابق للواقع في نفس الأمر، سبحانه وتعالى علوا كبيرا!

[←107]

قال الإمام بن باز رحمه الله تعالى في جواب سؤال وجه إليه عن دعوى أن أصل الإنسان قرد: "لكن يجب أن يؤمن العبد أن خلق آدم غير خلق القردة، وأن أصل آدم هو أصله الذي هو عليه الآن وليس أصله قردًا ولا غيره، بل هو إنسان سوي على خلقته المشاهدة، فالقول بأن أصله قرد قول منكر وقول باطل، بل لو قيل بكفر صاحبه لكان وجيهًا. فالأظهر والله أعلم أن من قاله مع علمه بما جاء به الشرع أنه يكون كافرًا؛ لأنه مكذب لله ورسوله، مكذب لكتاب الله في خلق آدم ، نعم."

المصدر: الموقع الرسمي للشيخ رحمه الله، على هذا الرابط:

https://binbaz.org.sa/fatwas/7143/%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AF-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%AF%D8%A7%D8%B1%D9%88%D9%8A%D9%86

[←108]

في مقال له بعنوان "هل يتعارض القرآن مع النشأة التطورية للإنسان؟" (في جريدة "الحوار المتمدن" العلمانية اليسارية)، نقل الدكتور محمد باسل الطائي فقرة من تفسير ابن كثير رحمه الله لقوله تعالى ((لقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون)) (الحجر 26)، فيها ذكر لقول ابن عباس ومجاهد وقتادة بما حاصله أن الصلصال هو التراب الرطب الأملس المنتن، ثم قال: "ما نؤشره هنا أن معنى الحمأ المسنون يحتمل أن يكون هو التراب الندي النتن القديم. وهذه المعاني هي في أصول كلمتي صلصال وفخار" ثم ساق كلاما لابن فارس في المقاييس، وعقب على ذلك كله بقوله: "من الواضح توافق النص القرآني في نشأة الحياة مع ما تقترحه البايولوجيا التطورية. فإذا كانت الكائنات قد تطورت عن أخرى وحيدة الخلية، أو عن المحاليل العضوية وتراب الأرض، فهاهي إذن يسميها القرآن الحمأ المسنون." اهـ. قلت: أي كائنات هذه التي تطورت من محاليل عضوية، وأين في القرآن وفي معنى الصلصال في الآية ما يفهم منه ذلك؟؟ الآية تقرر أن الله تعالى خلق الإنسان تحديدا من صلصال هذه صفته! أي أن أول البشر خلق بالتحويل من مادة الصلصال المسنون! فكيف وبأي عقل يكون ذلك موافقا "لما تقترحه البايولوجيا التطورية"؟؟ سبحان الله!

[←109]

قال الدكتور الطائي في المقال المشار إليه أولا تعقيبا على هاتين الآيتين الكريمتين:
"نلاحظ هنا أن أمر الله للملائكة بالسجود للإنسان معلق على شرط تسويته والنفخ من روح الله فيه بقوله ف(إذا). أي أن سجود الملائكة تال للخلق ومشروط بالتسوية والنفخ. وهذا أمر مهم يتوجب الانتباه إليه. وفي التسوية يورد الحافظ ابن كثير في تفسيره ما يفيد أن معناها هو أن يجعل مشية الإنسان مستقيمة على قدميه، فيقول: "وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجة عن بشر بن جحاش قال: بصق رسول الله في كفه ثم قال: يقول الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق؟ وأنى أوان الصدقة؟". اهـ.
قلت: تأمل العجمة الفاضحة، وقل لي بربك كيف لمثل هذا أن يستجيز ما استجازه من مزاحمة أهل التفسير! ليس في الأثر الذي أورده ابن كثير ما يفيد بأن المراد هو ترقية الإنسان من نوع منحط في الهيئة والتقويم، إلى نوع مستو معتدل! الحديث يخاطب أفراد النوع البشري، فيربط في حقهم بين لفظة "سويتك" ولفظة "عدلتك" كما في قوله تعالى: ((الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ)) [الإنفطار: 7-8]، فالله تعالى يكون منه ذلك في خلق كل إنسان في بطن أمه، أيا ما كانت الصورة التي يركبه عليها، إلا من اقتضت مشيئته أن يخصه – ابتلاءً - بنقص في الهيئة والصورة! وكذلك قوله "مشيت بين بردين" أو "بين برديك" أي مشيت مفاخرا بالثياب ونحوها، وللأرض منك شكوى من جهلك ومعصيتك! فليس فيه ما يوحي ولو من بعيد بأن المراد أن آدم عليه السلام إنما سويت قامته وصورته ليمشي على قدمين بعد أن كان سلفه من ذوات الأربع!! هذا اعتقاد كفري بإجماع المسلمين، وليس له إلى نصوص الوحيين من مدخل!
وقال في نفس المقال في قوله تعالى: ((فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)) [الصافات : 11]: "يقول ابن كثير: "قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض وقال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة هو اللزج الجيد وقال قتادة هو الذي يلزق باليد"، وهنا الإشارة في الآية بليغة من حيث أن أول الخلق كان ماء وطين، وهذا إنما يتفق إجمالا وليس على نحو التفصيل بالضرورة مع نشأة الحياة الأولى بحسب التصور المعاصر الذي جاءت به العلوم الأحيائية." اهـ. قلت: أولا: التصور هذا لم "تأت به العلوم الأحيائية"، وإنما جاء به إمام فلاسفة الدهرية الطبيعية في القرن قبل الماضي، تشارلز داروين! ثانيا: ما معنى "يتفق إجمالا وليس على نحو التفصيل بالضرورة"؟؟ وهل خالف مسلم من المسلمين من زمان النبي عليه السلام وأصحابه وإلى يوم الناس هذا في أن المراد هنا هو خلق آدم عليه السلام وتصويره من الطين اللازب؟؟ فإن سلمنا أن كانت هذه الآية من المتشابه، فالقرآن طافح بالمحكم الذي يضبط الفهم فيها، مما عليه إجماع المسلمين سلفا وخلفا، والقائل بخلافه ناقض لمعلوم من الدين بالضرورة! فدع عنك هذا العبث والتلاعب بكتاب الله تعالى فإنه لن يغني عنك شيئا!

[←110]

ولهذا لا تزال ترى كتاب أدب ما أسميه بالخيال الدهري (ويسمونه بالخيال العلمي) يتفننون في توهم ما يمكن أن ينتقل إليه نوع الإنسان مستقبلا من "ترقي"، وكيف أنه قد تظهر فيه من الصفات ما يحيله إلى نوع أقوى يدخل في صراع مع نوعنا الحالي Homo Sapiens على موارد الأرض فيقهره ويتفوق عليه (كما في قصص X-Men على سبيل المثال، حيث يتنبؤون بظهور طفرات تحيل أصحابها إلى بشر خارقين لديهم قدرات تصيرهم إلى ما يشبه آلهة الإغريق)!! وقد مر بك في هذا الكتاب نقل تصريح الدكتور عمرو شريف باعتقاده أن التطور لم ينته ولم يتوقف، وإنما لا يزال ماضيا، ولا تزال دواعيه تظهر، على الرغم من توصل البشر لكثير من أسباب الرخاء والراحة والاستقرار الاجتماعي والسلامة من ضغوط الانتخاب الطبيعي التي كان يتعرض لها أسلافنا بزعمهم!

[←111]

ومما تجدر الإشارة إليه ها هنا أنه ليس للمخالف في هذه المسألة سلف يرجع إليه إلا المتكلمون وأهل الأهواء أمثاله! فإنه لم ينشأ الخلاف القديم في تلك المسألة في دائرة أهل السنة، أو فيما بين أهل السنة، وإنما بين المتكلمين وأهل السنة. ولن تجد قائلا بهذا القول من أهل السنة إلا أن يكون مخطئا أو جاهلا! قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: " الْجَنَّةُ الَّتِي أَسْكَنَهَا آدَمَ وَزَوْجَتَهُ، عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: هِيَ جَنَّةُ الْخُلْدِ " انتهى من " مجموع الفتاوى " (4 /347)، ولا شك أن السبب في ذهابهم هذا المذهب يشبه سبب ذهاب هؤلاء الجهمية المعاصرين إليه، إذ لم يحدث في الأمة زيغ وانحراف عن ظواهر النصوص التي لم يعرف عن السلف فهمها إلا على وجهها الظاهر (ولا تطلق لفظة "الجنة" بغير إضافة في الكتاب والسنة إلا أريد بها جنة الخلد كما هو واضح)، إلا بداعي الهوى والحرص على تلبيس نصوص الكتاب والسنة بلبوس عقائد غيبية حادثة اخترعوها أو التزموها من أثر نظريات غيبية أغرقوا فيها، والله المستعان!

[←112]

وإن كان لا يرى صحة الآثار الرافضية والصوفية في تلك المسألة، إلا أنه لا يرى مانعا من إثباتها أو على الأقل تصحيح ما جاءت به من النص على بشر قبل آدم عليه السلام!

[←113]

قال الدكتور عمرو شريف في حاشية في كتابه "خرافة الإلحاد" (ص. 178):

ورد مفهوم التطور في كتابات كثير من العرب قبل دارون بما يقرب من ألف عام. منها كتابات ابن خلدون (1332-1406م)، وابن مسكويه (932-1030م)، ورسائل إخوان الصفا (القرن التاسع الميلادي)، والجاحظ (776-868م) الذي ذكر في كتابه الحيوان أن الكائنات تتصارع فيما بينها من أجل البقاء، وأن البيئة تؤثر في الكائن الحي، فتحدث فيه تحولا وتجعله نوعا آخر، أي أن بعضها يشتق من بعض. لقد توصل هؤلاء إلى "مفهوم التطور" من تأمل آيات القرآن الكريم وتأمل ما في الكائنات الحية من آيات. وقد كان طرح هؤلاء لهذا المفهوم واضحا قويا مصحوبا بالاستدلالات المقنعة، مما حدا العالم والكيميائي والفيلسوف والمؤرخ الأمريكي "جون ويليام درابر John William Draper" (1811-1882م) المهتم بالتطور البيولوجي إلى الحديث عن "نظرية التطور المحمدية Mohammedian Theory of Evolution" التي سبقت نظرية دارون بأكثر من ألف عام، وقد طرح فهمه هذا في كتابه "تاريخ الصراع بين الدين والعلم History of Conflict Between Religion and Science".

قلت: قول الدكتور "لقد توصل هؤلاء إلى مفهوم التطور من تأمل آيات القرآن الكريم وتأمل ما في الكائنات الحية من آيات" كذب صريح! فإنه ليس في هؤلاء الذين ذكرهم من معتزلة وفلاسفة وروافض وغيرهم ممن اتفق لهم أن تكلموا بقريب من بعض المعاني التي جمعها داروين في نظريته (ولم يقولوا مع ذلك بالتطور الدارويني كما بينا)، من استدل ولو بآية واحدة من آيات القرآن للانتصار لدعواه! وإنما ابتدع الدراونة من بني جلدتنا في هذا العصر ما يدعوه من تأويلات جهمية للقرآن انتصارا لنظرية داروين بعدما قبلوها على أصول أصحابها في إثباتها! وسواء هؤلاء أو من ذكرهم الدكتور من جهمية القرون السالفة، فالجميع لا يقرر اعتقاده إلا بناء على النظر الفلسفي! يتفلسف أحدهم في الغيب ما يحلو له أولا، ثم يأتي إلى النصوص في الكتاب والسنة لينظر أيها يجري على وفق فلسفته فيقبله، وأيها يخالفها فيرده أو يتأوله! بيد أن هؤلاء المذكورين من العقلانيين المتقدمين لم يكونوا في موضع يلجئهم لتأويل القرآن انتصارا لتلك الشطحات عندهم، فإنما هي تأملاتهم في بعض أنواع الحيوانات والجمادات وأوجه الاتفاق والاختلاف في أحوالها لا أكثر ولا أقل، من غير أن يبلغ أي واحد منهم أن يحولها إلى "آلية طبيعية" لنشأة جميع الأنواع الحية! خلافا للدراونة من أهل القبلة الذين تشكل تلك القضية (قضية النشأة) بالنسبة لهم أصلا عظيما من أصول الدين، لوقوعها في صدر النزاع مع دهرية العصر من الطبيعيين!

ولا شك أن من نسب إلى محمد صلى الله عليه وسلم قولا بتطور الأنواع في أصل خلقتها فهو كاذب عليه وهو يعلم! ولا نأخذ ديننا واعتقادنا – نحن المسلمين – فيما جاء به الكتاب والسنة في أمر الخلق والنشأة من الفلاسفة والزنادقة، دع عنك المشركين الغربيين!

[←114]
والرجل في الحقيقة أبدى امتعاضه خلال الحلقة من تنقير الناقدين عليه في أمثال هذه المسائل، يريد تلبيسهم بتهمة التفاهة وخفة العقل! ولا شك أنك لو انتقدت أستاذا في علم الكيمياء مثلا في محاضرة من محاضراته لكونه رفع المفعول ونصب الفاعل أثناء الشرح، فأنت تنتقده في مسألة لا تأثير لها على العلم الذي يتكلم فيه من حيث هو، ولا نقول إن نقدك تافه أو يدل على خفة عقلك، فلا شك أن اللحن اللغوي مشين للمتلبس به أيا ما كان الموضوع الذي يتكلم فيه، ولكن يقال إن النقد غير وارد على موضوع الدرس أو المحاضرة نفسه، أو غير مؤثر في المحتوى العلمي الذي يقدمه المحاضر، ما دام الطلبة يفهمون كلامه. أما عندما يأتيك رجل يحاضرك عن البيولوجيا، ثم تراه يخطئ أخطاء لا يقع فيها طالب ثانوي عام، أو يتكلم في القرآن وتأويله، يدعونا إلى تقرير الموقف الصحيح من فهم كلام ربنا، وهو لا يكاد يقرأ آية واحدة كما هي في كتاب الله، ولا يجيد لسان العرب، فهذا لا يقال لمن ينتقده عليه أنت تافه أو أنت تتصيد الهنات والهفوات، فدعك من ذلك وخذ المحتوى العلمي! هذه أخطاء تفضح صاحبها وتدل دلالة واضحة على أنه غير مؤهل أصلا للكلام في ذلك العلم الذي جاءنا بالكلام والتأصيل فيه، وليس معه فيه إلا الجهل!

[←115]

ويمكننا أن نتحف الدكتور زيدان في هذا المقام بحجة ناقضة لنظرية داروين نفسها من مسألة نشأة اللغة هذه وحدها، سمها إن شئت بالحجة ضد الداروينية من نشأة اللغة، أو الحجة اللغوية أو الحجة من اللغة أو نحو ذلك، فنقول بالترتيب التالي:

(1) اللغة هي كل ما يتواصل به أفراد النوع الواحد فيما بينهم، وهي كذلك كل ما يوصل به إلى بلورة الأفكار في النفس والعبارة عنها.

(2) لا يولد المولود من أي نوع إلا ليتعلم طريقة والديه في التواصل بالضرورة، ويكون ذلك بمجرد متابعته التواصل الطبيعي الجاري بينهما كيفما كان.

(3) لا يمكن أن تنشأ اللغة بالطفرة في نوع لا لغة له، أو يتواصل بغير لغة، لأن صاحب الطفرة إذن يتعلم من أبويه ما يجدهما عليه من طريقة للتواصل تقوم مقام اللغة (إذ الفرض أنهما من نوع قد قام واستقر بدون لغة)، وإذن ينشأ مستغنيا عنها كما استغنيا عنها من قبل، ولا يحصل داع لابتدائها أصلا!

(4) وإذن فلا طريق لظهور اللغة (أو منطق التواصل في النوع الحي، أيا ما كانت صفة ذلك المنطق وثراؤه من فقره) إلا أن تكون تعليما مباشرا لأول فرد في كل نوع، من خالق ذلك النوع وحده لا شريك له! ثم يعلمها ذلك الفرد ذريته من بعده، فلا ينشأ النوع إلا ولغته الأولى (على الأقل) معه، مركبة فيه تركيب العقل نفسه.

(5) وهو ما يتحصل منه بطلان نظرية التطور نفسها بالضرورة، إذ لا يمكن مع ما تقدم إلا أن يكون النوع الحي المتحرك المتناسل مخلوقا بقدرته المنطقية اللائقة به مركبة فيه، وبمنطقه الذي علمه الله له بكيفية غيبية هو أعلم بها سبحانه. وإذن فلا نشوء لتلك الأنواع بالترقي وإنما بالخلق من مادة ميتة، ثم تعليمها وهدايتها لما يصلح به أمرها.

وأقول لسنا معاشر المسلمين في حاجة إلى برهان كهذا ولله الحمد، ولا يحتاج إليه العاقل أصلا، فإن أصل النظرية ساقط ابتداء عند كل عاقل يحترم عقله ولا يتظاهر بفهم النظرية والانتصار لها طمعا في ثناء "النخبة المثقفة" وخوفا من نقمتهم! وقد أطلنا النفس في بيان أن مبدأ الارتقاء في الخلق Evolution نفسه ساقط بالعقل والبداهة، بداية من أصل المنهج الدهري الذي قامت عليه الدعوى ووصولا إلى حقيقة مفهومها والتعريفات البارادايمية الكلية التي بنيت بها النظرية، وإنما أردت أن أسوق إلى الدكتور ومعجبيه في هذه الحاشية ناقضا إضافيا على هرائهم ينقض عليهم النظرية برمتها، من باب التنفل لا غير، ومن باب الزيادة في بيان خفة عقول دراونة أهل القبلة، حتى من كان منهم منسوبا إلى الفلسفة والفلاسفة! فليس القارئ في حل إن أخذ هذا البرهان يطرحه بين أيدي الدراونة يجادلهم عليه، والله المستعان!

[←116]

قال الدكتور عمرو شريف في مقدمة كتابه الأخير "المعلوماتية برهان الربوبية الأكبر" (ص.12): "وإذا كان من الحيوانات ما هو قادر على إصدار الأصوات، فليس منها ما هو قادر على الكلام بالمفهوم الإنساني." اهـ. قلت: فهل وقف الرجل على حديث سلميان عليه السلام والهدهد في القرآن؟؟ وهل كان تعليم سليمان ودواد عليهما السلام منطق الطير والدواب إلا تعلما للغة بالمفهوم الإنساني؟؟ لو كانت تلك الدواب لا تملك – من الأساس - طريقا للربط بين الموجودات الخارجية وبين أصوات أو حركات أو محسوسات معينة تصدر عنها بحيث يفهمها أقرانها من نفس النوع، لما علم الله سليمان منطقها ليفهمها، ولما سمع النملة وهي تخاطب النمل بكلمات فهمها بعدما علمه الله منطقها، أي بعدما علمه تمييز الكلمة عما سواها (صوتا كانت أو غير ذلك) والربط بينها وبين معناها المتفق على إرادته عند ذلك النوع من أنواع النمل! ولو لم يكن هذا هو المراد بمنطق الدابة أو منطق الطير، أفكان يحصل بين أفراد النوع الواحد منها ولو أدنى نمط من أنماط التعايش، لا أقول على مستوى الجماعات بل حتى على مستوى الفرد الواحد في النوع الواحد وغيره من أفراد النوع؟؟ أفكان يصح إذن أن يقال فيها إن الله قد خلقها "أمما أمثالنا"؟؟ سبحان الله! يا دكتور الطبيعيون الدهرية جهال، وجهلهم هو أشد أنواع الجهل المركب تركبا، فهم لا يثبتون إلا ما يقع تحت عادتهم، يقيسون كل شيء عليه مهما كان موضوع القياس مغيبا عنهم محض التغييب، ثم يكذّبون بما لم يحيطوا بعلمه من خبر المرسلين ولما يأتهم تأويله، هذه دهريتهم المعرفية ومصادر التلقي فيها، فما دينك أنت وما مصادر التلقي المعرفي لديك؟؟

[←117] وقد ألقت السلطات التركية القبض على الرجل مؤخرا، في مواجهة مسلحة مع حراسه في قصر من قصوره في اسطنبول!

[←118]
و"هارون يحيى" هذا في واقع الأمر عنوان لجماعة كاملة وفريق ضخم من الكتاب والمحررين وليس اسما مستعارا لعدنان أوكتار نفسه، وهو أمر صرح به بنفسه في بعض اللقاءات التلفزيونية.

[←119] وأغلب الظن أنه (أي عمرو خالد) استهدف تلك الفئة بالذات لمطامع حزبية سياسية محضة، تكشَّف بعضها في السنوات الأخيرة بتحوله إلى العمل السياسي الديموقراطي الصرف بعد الثورات المصرية، تحت راية جماعة شباب "صناع الحياة" التي كان قد صرح من قبل في بعض المؤتمرات الغربية بما معناه أنه قد أعدها الإعداد اللائق لتلقي الفلسفة الديموقراطية في إطار ديني شرعي تعبدي، عامله الله بعدله وبما يستحق!

[←120] ففي مقطع من مقاطع الفيديو على موقعه الرسمي يقرر أن الحجاب فريضة أمر بها القرآن، وفي مقطع آخر يزعم أن الله لم يأمر النساء إلا بستر صدورهن لأنهن كن يكشفنها حال عملهن في البيوت، أما غطاء الرأس (الذي هو مفهومه للحجاب) فلم يذكر في القرآن بأمر ولا بنهي على حسبه، فإن شاءت المرأة أن تلبسه فهو حسن وإلا فلا شيء عليها!

[←121] وقد أسس منظمة كاملة في سنة 1995 سماها "بمنظمة حماية القيم الوطنية"، بغرض الانتصار لمبادئ وفلسفة "مصطفى كمال أتاتورك" العلمانية في إنشاء الدولة التركية الحديثة، والترويج لدعوى أنها هي الإسلام الصحيح وأنها هي الدولة الإسلامية المنشودة التي "سيرأسها" المهدي في آخر الزمان رئاسة ديموقراطية! فالخلافة التي يحلم بها الرجل هي في الحقيقة سلطنة تركية شعوبية كمالية ديموقراطية علمانية محضة! وقد وصفه بعضهم وصفا صحيحا بأنه يروم "أسلمة دولة أتاتورك"، و"أتركة" الخلافة الراشدة التي نص النبي عليه السلام على عودتها في آخر الزمان!

[←122]

وعنوان ذاك المقطع على اليوتيوب: Harun Yahya (Adnan Oktar) is a 33rd Degree Freemason (Grandmaster)، على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=9VzVN_7vo9k، دخلت عليه في 15 من محرم 1436، 8 نوفمبر 2014. ووالله ما كنت لأصدق أن أسمع خطبة لرأس من رؤوس المحافل الماسونية الدولية تبث من منبر رجل يزعم أنه داعية إسلامي، حتى رأيت ذلك بعيني رأسي وسمعته بأذني في ذلك المقطع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ومن آيات نفاق هذا الرجل وتلاعبه بعقول الناس، وتلبسه بالدعوة إلى القول ونقيضه معا (كما دعا من قبل لمحاربة العلمانية الكمالية، ودعا في نفس الوقت لاعتناق الفلسفة الكمالية في بناء الإمبراطورية التركية التي يحلم بها، وكما أظهر في بعض المواضع نقمته على الصهاينة ومؤامرات الصهاينة، وأظهر في مواضع أخرى رغبته في تعليم المسلمين في كل مكان أن يحبوا جميع أهل الكتاب على السوية كإخوانهم وألا يفرقوا بينهم!)، أنه في لقائه مع قناة الجزيرة قال بالحرف الواحد: "أنا ضد الماسونية، كما أني ضد الماركسية والفاشية، وكذلك الصهيونية! ينبغي علي أن أقاوم أي فكرة تهدف إلى التحكم في العالم كله، وترفض الأديان الأخرى، وتدعي حاكمية دين واحد"! وفي مقطع آخر من برنامجه على قناته الفضائية الخاصة، زعم أنه إنما قبل الترقي إلى درجة السيد العظيم في الماسونية حتى يتمكن من مخاطبة رؤوس تلك المجامع والمحافل الماسونية بالدعوة إلى الإسلام والقرآن داخل تلك المحافل نفسها، وحتى يقبلوا منه دعوته هناك! فكأنه يريد أن يوهم المغفلين من أتباعه بأن رؤوس المحافل الماسونية لم يمنحوه تلك الرتبة العظيمة فيما بينهم وما منوا عليه به من أوسمة وميداليات وشهادات ودرجات لكونه على نحلتهم ومنهجهم وخطتهم ولكونه قد أسس بالفعل مجمعه الماسوني الخاص في تركيا بأمولهم ودعمهم، ولكن لأنه هو الذي مكر بهم واستدرجهم بعلمه الواسع بالماسونية في كتابه الذي كتبه عنهم، حتى يدعوهم إلى الإسلام داخل محافلهم الماسونية!! ولا بأس بأن يدعوهم للظهور في قناته الفضائية – كما فعل في المقطع المذكور أعلاه - لينشروا دينهم وأفكارهم عبر منبره الخاص وليصدِّق على كلامهم ويحتفي بهم ويحتفوا هم به كرأس من رؤوس الماسونية الكبار، ثم لو سألته عن ذلك وعن محله من "مشروعه الدعوي" لقال لك إن هذا من تأليف القلوب!! ولا عجب، لأنك لو تأملت في حقيقة الإسلام الذي يدعو إليه لوجدته هو النحلة الماسونية بعينها، التي اتفق مع القوم اتفاقا علنيا على أصولها الكبرى!

[←123]
وعلى طريقة أهل البدع، يأتي الرجل إلى متشابه القرآن ليؤوله على هواه ومزاجه. فيؤول قوله تعالى: ((وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً)) [النساء : 159] على أن المقصود أن أهل الكتاب كلهم سيؤمنون به بعد نزوله الثاني في آخر الزمان، فمن كان نصرانيا فسيبقى نصرانيا مع إيمانه به ولا إشكال (لأنه يؤمن في دينه بأن المسيح سينزل نزولا ثانيا)، ومن كان يهوديا فسيعتبره هو المسيح المنتظر من بني إسرائيل الذي ينتظره اليهود ولا إشكال، وسيقرهم المسيح جميعا على ذلك الاعتقاد، فتتوحد الأديان كلها في "الإيمان به"! وهذا جهل مبين ولا شك، بل كفر محض وتحريف لكلام رب العالمين لا يقبله عاقل! كيف يقبل مسلم لديه مسكة من عقل أن المسيح سيأتي آخر الزمان ليقر النصارى على عبادتهم إياه من دون الله، وأن هذا عنده سيكون هو الإيمان به المطلوب من تلك الطائفة؟! من الواضح أن أوكتار لا يرى بأسا بعبادة النصارى المسيح ابن مريم من دون الله، وأنه يصحح دين النصارى على ما هو عليه الآن، وإلا ما زعم أن المسيح سيقبله منهم في آخر الزمان، والله المستعان!
وهذه عقيدة الماسونيين الذين يصرح بانتسابه إليهم كما سيأتي: تصحيح جميع الملل المتألهة والتسوية بينها.
ونقول: لا شك أن المقصود بقوله تعالى: "ليؤمنن به" أن من يبقى من أهل الكتاب في دولته فلن يكون إلا مسلما موحدا مؤمنا بأنه رسول من رسل الله تعالى، وأنه على الإسلام على دين محمد صلى الله عليه وسلم، وهو ما يعني بالضرورة أن من كان قبل نزول المسيح نصرانيا فلن ينطبق عليه هذا النص بعد نزول المسيح، إلا بأن يكفر بإلهية المسيح المزعوم وبالثالوث والفداء والصلب وغير ذلك من عقائد النصرانية ويؤمن بأن المسيح عبد الله ورسوله وأن محمدا عبد الله ورسوله، ومن كان قبل نزول المسيح يهوديا فلن ينطبق عليه هذا النص بعد نزول المسيح إلا بأن يشهد بنبوة المسيح وببراءة مريم الصديقة من تهمة الزنا التي يرميها بها اليهود، ويقبل منه دين محمد ابن عبد الله الذي جاء به! والنصوص في السنة مطبقة على هذا المعنى، أنه عليه السلام لن يقبل إلا الإسلام أو القتل، وأنه سيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية (وعدنان أوكتار على علم بهذا النص تحديدا، إذ سمعته يذكره في لقاء تلفزيوني أجري معه في فضائية من الفضائيات)!

[124←]
http://harunyahyaa9.blogspot.com/2012/07/freemasonry.html، دخل عليه في 21 من محرم 1436، 14 من نوفمبر 2014

[←125]

وهي طوائف وهمية لا حقيقة لها، اختلقها الرجل وأصحابه من رؤوس المجامع الماسونية الأخرى لتكون هي محور كل حملة يود الاشتراك فيها مع "الإسلاميين" في الهجوم على "الماسونيين" (بهذا الإطلاق)، ليكون هذا هو العدو الماسوني المشترك بينه وبينهم! والواقع أن كل الماسونيين ملاحدة لا دين لهم، فهم ما بين لاديني قائل بوحدة الأديان ونسبية الأخلاق، فلا يبالي على أي ملة يجتمع الناس، ما داموا يتحركون على وفق فلسفته هو الأخلاقية والسياسية، وملحد يرى أن للدين فائدة في ترويض الجماعات البشرية وتحقيق السعادة والإشباع النفسي والاجتماعي لعموم البشر!

ومنشأ الملل الماسونية في الأصل (على ما يترجح عندي) كان هو اجتماع أتباع بعض الملل الوثنية القديمة التي كانت تعبد الشيطان (في إطار ميثولوجيا خرافية في الأعم الأغلب) وتدين بتعظيم الشهوات الجسدية وإشباعها غاية الإشباع، على إنشاء مجتمع سري قد ألجأتها الظروف التاريخية والسياسية إلى التخفي فيه بطقوسها وعباداتها، وإلى التماس كل وسيلة من أجل إغراق المجتمعات البشرية في شهواتها حتى يحصل لهم التمكين والظهور من جديد، بما في ذلك معالجة نصوص أهل الأديان الأخرى بالتأويل تارة والتحريف تارة، لاستغفال الجهلاء والحمقى حتى يكونوا طريقا لتحقيق تلك الأهداف.

ولا يزال لبعض الطقوس والرموز الشيطانية الوثنية وجود في شعائرهم وتقاليدهم الدينية كما يعلمه من طالع أحوالهم، وإن كانت قد أفرغت - في عمومها - من مضمونها الميثولوجي الوثني في القرون الأخيرة لتحل في محلها الفلسفة العلمانية التنويرية المعاصرة بمنظومة قيمها الأخلاقية المعاصرة التي تأتي على رأسها العدالة الاجتماعية والمساواة وحرية الفكر والإخاء الإنساني... إلخ. وهم متفقون على تسمية إلههم "بالمعماري الأعظم"، الذي يعتقدون أنه خالق العالم ومصدر الأديان كلها، وأنه لا يريد من البشر إلا السعادة والترف والتلذذ بالحياة مع السعي في بناء العالم وتشييده وزخرفته لتحقيق غاية السعادة والتناغم الوثني مع الطبيعة، وذلك في إطار أي دين يختارونه لأنفسهم، بما لا يتعارض مع العبادة المشتركة بين أعضاء المحفل بطبيعة الحال! لذا فهم لا يرون بأسا باستعمال أي نص ديني أو شعيرة دينية من أي ملة من الملل المتألهة في التعبد له والتقرب إليه، طالما كانت تلك العبادة مما يشبع رغبات ذلك المتعبد الروحية والمعنوية! ويكون عندهم محببا مقربا ولا شك، كل من كان سالكا في طريقتهم ونظامهم خادما لغاياتهم وخططهم، سواء أدرك هو ذلك الأمر من نفسه أو لم يدركه. ولهذا فلا بأس عندهم (بل يجب) أن يظل الرجل متمسكا بإظهار دينه الأصلي (بمعنى مجموع شعائر العبادة والطقوس والنسك التي يظهرها بين أقرانه من أهل دينه) مع انضمامه إليهم وترقيه في الدرجات الكهنوتية فيما بينهم.

من هنا توهم بعض السفهاء أن الرجل قد يكون ماسونيا ونصرانيا في نفس الوقت، أو ماسونيا ويهوديا في نفس الوقت، أو كما يزعم هذا الزنديق أوكتار: ماسونيا ومسلما في نفس الوقت، وهذا باطل كله ولا شك، وكفر بواح يقطع بفساده وبطلانه كل من له أدنى دراية بحقيقة ما يسمى "بالماسونية"! فالماسوني لا يكون ماسونيا حتى يشهد على نفسه بقبول عقائد القوم في الإله "المعماري" وفي الغاية التي من أجلها خلق البشر، وفي استواء الأديان كلها لديه في خدمة تلك الغاية، تحت سيادة الدين الماسوني نفسه، بنصوصه وطقوسه وأسراره ونظامه الكهنوتي، وهي عقائد من قبلها أو حتى توقف في شركيتها وفي كفر من يقبلها فقد خرج من ملة الإسلام قولا واحدا وبلا توقف!

يقول أحد المنشقين الأمريكيين عن طائفة ماسونية تدعى "ماسونيون من أجل المسيح" Masons for Jesus (أي أن أصحابها يعتقدون أن أعمالهم وممارساتهم وطقوسهم الماسونية من شأنها أن تعجل بنزول المسيح وتمهد له الطريق، كما هو اعتقاد أوكتار في عمل طائفته فيما يسميه "بطريق حظرَت المهدي") في مقال بعنوان "لماذا يسمى الماسونيون إلههم باسم المهندس الأعظم للكون":

> لنفرض أن جماعة من الوثنيين اجتمعوا وقرروا إنشاء ناد للرجال، وقرر كل واحد منهم منفردا أن يبدأ كل اجتماع من اجتماعات النادي بصلاة للشيطان الذي يعبده. فقد يتفقوا جميعا على تلك العبادة المشتركة إجمالا، ولكن ستواجههم مشكلة ولا شك في اختيار اسم الإله المعين الذي يجتمعون جميعا على التوجه إليه بالصلاة! فالهندوس مثلا سيرغبون في الصلاة لإلههم فيشنو، وكذلك أهل كل ملة وثنية سيرغبون في تعيين إلههم عند الصلاة والدعاء باسمه المتداول بينهم. ولكن لن يكون من الممكن أن يتفقوا على اسم أحد تلك الآلهة الوثنية ليصلوا له جميعا في ناديهم ذاك من غير أن يكون في ذلك تفضيل لأحد الأديان على الآخر! ثم إنهم لو استعملوا اسما من الأسماء الوثنية الواضحة لذلك المعبود فسيجدوا صعوبة بالغة في استدراج حتى أكثر النصارى جهلا ورعونة لينضموا لذلك النادي ولينخرطوا معهم في تلك العبادة (وهو بالضبط مراد تلك الشياطين التي يعبدها الوثنيون)! ولكن لو أنهم اختاروا اسما محايدا كأن يسموه "الخالق العظيم راعي الكون"، ليفتتحوا جميع صلواتهم به، فسيرضي بذلك جميع الوثنيين ولا إشكال! ولكن هل هم بذلك يعبدون إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إله الإنجيل؟ أبدا! وإنما يعبدون شياطينهم (على الطقوس التي شرعتها تلك الشياطين).

قلت: فتأمل كيف يدرك الكاتب النصراني حقيقة كون ذلك الخلط والعجن بين الملل شركا وكفرا بالضرورة، ولا يعبأ بذلك ذاك الزنديق المجرم أوكتار ولا يبالي، وهو – مع هذا – معدود عند كثير من جهلة المسلمين داعية إلى الله وعالما من علماء المسلمين، والله المستعان لا رب سواه!

ويواصل الكاتب قائلا:

> الآن تخيل لو أن بعض الهندوس اتفقوا على تغيير الاسم الذي يخاطبون به معبودهم من "فيشنو" إلى "الراعي والخالق الأعظم للكون". فمهما اتفقوا على تغيير الاسم الذي يستعلمونه لمخاطبة ذلك الشيطان، فستظل عبادتهم جارية على طقوس الوثنيين. فإن غيرنا اسم الشيطان الذي يعبدونه، أفيكون مقبولا حينئذ للنصراني أن يشارك في تلك الشعائر التعبدية الهندوسية؟ ولو أن الهندوس اتفقوا على أن النصراني لو اشترك معهم في تلك العبادة فسيسمحون له بأن يوجه الخطاب بها إلى فيشنو ولكن تحت اسم المسيح، أيحيلها ذلك إلى عبادة نصرانية؟ لو مع مر الزمان تزايدت أعداد من يسمون أنفسهم بالنصارى ممن يشاركون في تلك العبادة، وتناقصت أعداد الهندوس حتى لم يبق منهم رجل واحد ينسب نفسه إلى غير النصرانية، أفيجعلها هذا عبادة نصرانية؟ فالآن، كيف يكون هذا المثال مختلفا عما نراه في تلك النوادي الوثنية؟ بالطبع سيزعم النادي أن نشاطه ليس نشاطا دينيا، ولكن هل تصبح عبادة الشياطين من خلال تلك الصلوات والطقوس، أقل وثنية من حقيقتها، بمجرد إطلاق الزعم بأنها ليست دينا؟

فنحن نقول إن المحافل الماسونية مدارها – بناء على الأصل الفلسفي الوثني الذي نشأت عليه تاريخيا - على فكرة "الديموقراطية الدينية" (ولا أرتاب في أن الفلسفة الديموقراطية السياسية نفسها تمتد بنسب إلى أصول الملل الماسونية القديمة، ولكن هذا شأن يحتاج إلى مجلد منفصل)، أو بالأحرى ما يمكن تسميته: "بالنسبية الدينية"، بمعنى

أننا مادمنا كلنا نتفق على عبادة الرب الخالق (زعموا)، فلا فرق بين دين ودين من تلك الأديان التي تزعم أنها تعبده: كلها حق وخير عنده وكلها ترضيه وتوصل إلى محبته على السواء! فلا مانع من أن نشترك كلنا في التعبد له بطريقة نتفق عليها، وبأن نعمل على إذابة تلك الفوارق بين الأديان التي تجعل أصحابها يكفر بعضهم بعضا ويزعم كل واحد منهم أنه لو مات على دين بخلاف دينه فلن يكون له عند الرب إلا العذاب وبئس المصير!

هذه النحلة الماسونية هي المنبع التاريخي – عند التحقيق – لدعاوى "وحدة الأديان" التي يخرج علينا بها أناس من المنتسبين لهذه الملة أو تلك من آن لآخر. وهي تدور على إطلاق شبهة سخيفة مفادها أننا ما دمنا نعبد كلنا ربا واحدا، هو صانع هذا العالم، فما المانع من أن نتفق كلنا على عبادته بصورة محايدة يقبلها جميع أهل الأديان ويتفقون عليها فيما بينهم، فلا يبقى فيما بين تلك الأديان أي عداوة أو منافسة ولا يصبح لدى أتباع دين من الديانات اعتقاد بأن دينه "أفضل" من دين غيره من أهل الملل الأخرى، أو أنه قد "احتكر الحقيقة" وأنه هو الطريق الوحيد لإرضاء "المعماري الأعظم خالق الكون"؟

ولذا فالماسونية هي أيضا منبع دعاوى بعض الزنادقة من المنتسبين إلى الإسلام تصحيح دين النصارى، والتفريق بين أهل الكتاب وعموم المشركين في اعتبار أهل الكتاب ناجين في الآخرة إن ماتوا على ما هم عليه، بخلاف غيرهم من المشركين، وترويج فكرة أن مجرد القول بأن النصارى كفار هو من التكفير المذموم، الذي يستوي في الميزان بتكفير المسلم بغير وجه حق! وحتى في إطار المنتسبين إلى الدين الواحد، تجد دعاوى التسوية بين الطوائف والفرق مهما عظمت الاختلافات العقدية والمنهجية الكلية بينها، ودعاوى التهوين من تلك الاختلافات وتهميشها بين تلك الفرق، ترجع في أصلها عند التتبع إلى جماعات سرية مشبوهة في الأعم الأغلب، تجعل السعي الخفي في سبيل التمكن من حكم العالم والسيادة عليه هو رأس الدين والملة، كما ترجع أكثر هذه الدعاوى بين أهل القبلة إلى جماعة "الإخوان المسلمين" مثلا، وما ينتهجونه من ضلال مبين تحت اللفظ المجمل في قاعدتهم المشهورة "نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه"!

والقصد أن أمثال تلك الدعاوى الساعية إلى إذابة الأديان والملل والنحل في بعضها البعض، وإسقاط مبدأ الولاء والبراء على أساس ديني والقضاء عليه في جميع الأديان، كلها ترجع في أصلها الأول – فيما لا أجد بين يدي صارفا عن اعتقاده - إلى عمل المحافل الماسونية ومسعاها الشيطاني الخبيث، ومن تأثر بها وبمنهجها من طوائف أهل الملل وجماعاتهم وأحزابهم.

ولا شك أن البداهة تقتضي أن أي جماعة تكون هذه هي غايتها الكلية ويكون هذا هو مطمعها الاعتقادي النهائي، فلابد وأن يكون طريقها إلى بلوغه هو التفنن في ألوان الكذب والخديعة والتدليس في سبيل تحريف كافة الأديان – بلا استثناء - على أصحابها! إذ كيف يتحول أهل الأديان كلها إلى قبول التسليم لمنهج ديني واحد عالمي يعيش أصحابه تحت سيادة يرتضونها لأهل ذلك الدين العالمي، مع بقائهم جميعا – في نفس الوقت – على النسبة إلى أديانهم، إلا بتحريف تلك الأديان كلها؟ ها أنت ترى عدنان أوكتار يصرح بأن جماعته في حقيقتها تعد "محفلا ماسونيا إسلاميا"، ولا يرى مانعا من ذلك، وإن كان من حماقته لا يدري أن اعترافه بمسألة السعي في "تعديل وتغيير تاريخ العالم" هذه، و"تمهيد البلاد والمجتمعات لمجيء المهدي" إنما هو اعتراف ضمني كما أشرنا آنفا بجنس النشاط السري المشين (كالمؤامرات والرشاوى والابتزازات والتهديدات واستدراج الناس بشهواتهم، لا سيما شهوتي السلطة والنساء .. إلخ) الذي جرت العادة على ألا يعمل حزب من الأحزاب السرية في سبيل نوال تلك الأهداف السياسية والاجتماعية الشيطانية الكبرى إلا من طريقه!

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المبحث الموجز أنه من الغلط ومن الحماقة اعتقاد أن دعوى تآمر أصحاب تلك المحافل واستعمالهم أخبث الوسائل وأحقرها للضغط على صانعي القرار السياسي لخدمة أهدافهم، وسعيهم الخفي في سبيل توجيه الفكر والاعتقاد السائد في أي بلد من البلدان إلى الوجهة التي يطمعون فيها، إنما هو ضرب من التنظير التآمري المفرط في تحميل القرائن والمشاهدات من التفسيرات ما لا تحتمله! فنحن ما جئنا بهذه الدعوى (أعني دعوى التآمر الخفي واستعمال أخبث الوسائل الخفية لتحقيق أغراض القوم ولخدمة مطامعهم) من وهمنا ولا من خيالنا، وإنما جئنا بها من عقائدهم ومناهجهم المعلنة، ومن منظومتهم الأخلاقية التي يصرحون بها، ففهمناه من كلامهم بدلالة التصريح تارة وبالاقتضاء تارات وتارات! فهذا عدنان أوكتار التركي رأس من رؤوسهم، يصرح بلا مواربة ولا خفاء بأن لهم أتباعا في كثير من الحكومات وأن لهم أعمالا وجهودا في توجيه الساسة ورواد الفكر والثقافة والإعلام إلى تحقيق أهدافهم ومطامعهم التي تتعلق باعتقادهم في نهاية الزمان، وبأن المحافل الماسونية الأخرى تدعمهم في ذلك غاية الدعم! وحتى لو لم يصرحوا بشيء، فمعلوم بالضرورة أن كل طائفة من طوائف أهل الباطل يمكر رؤوسها مكر الليل والنهار حتى يكون لهم من الظهور في الأرض ما يطمعون فيه، سواء كان اجتماعهم ومكرهم في إطار نادٍ سري أو جماعة خفية أو في إطار مؤسسة دينية علنية، كما في قول الملك جل وعلا: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)) [الأنعام : 123]، فمطلق القول بمكر أهل الباطل وتآمرهم لمصلحة باطلهم، سنة كونية ماضية وليس "نظرية مؤامرة"!

وإنما يجنح الكلام إلى الإفراط والجهالة والتنظير الغالي، عندما يغلو المرء في تلك الطوائف السرية وفي عملها، فينسب إليها من أعيان الأعمال والأحداث (التاريخية أو السياسية أو نحوها) ما لم يثبت بالدليل المعتبر أنه من ثمار مكرها وتآمرها، بل لعله يبالغ في أمرها (أي تلك الطائفة) حتى يعتقد أنها هي التي تحكم العالم بأسره وتسيطر على كل قرار سياسي وعلى كل منبر إعلامي .. إلخ، وهو ما قد يوقع صاحبه في الشرك من حيث لا يشعر! فإنه ليس لطائفة واحدة من طوائف البشر أن تبلغ هذا النفوذ السابغ والتأثير الشامل على دول العالم كلها في السر والخفاء أصلا مهما عملت، لاقتضاء سنة الله الكونية في خلقه أن تختلف المصالح والأهداف باختلاف الملل والنحل والعقائد بين الطوائف والجماعات والأحزاب، وهو ما يعني بالضرورة أن يكون التنافس على السيادة والسلطان في الخفاء كما هو في العلن وفيما يظهر للناس سواء بسواء، بل أشدّ وأبلغ!

ولا ينبغي أن ننسى أن فكرة إحكام هذه الجماعة أو تلك سيطرتها على دول بأسرها في السر والخفاء، بل قدرتها على "تغيير مسار التاريخ" (هكذا، كما يزعم أوكتار في كلامه عن عمل محافل "الماسونيين المؤمنين"!) إنما هي من صنف الدعاية التي تود وتحب كل أقلية من الأقليات الدينية أن توهم به أهل الأديان الأخرى (وهو ما تطمع في تحقيقه واقعا بالفعل: أن يكون لها السيادة الخفية على المجتمع الذي تعيش فيه)، حتى تنال حصانة اجتماعية ولا تستضعفها الطائفة الأكثر عددا في البلاد، وذلك على أساس من الترهيب الفكري والتخويف من مجرد فكرة التعرض لأحد من المنتمين إلى تلك الأقلية بشيء مما يكره! ولهذا كنا ولم نزل إلى اليوم نرى بين أهل الأقليات الدينية في أي بلد من البلدان كثرة ووفرة في أصحاب المال والجاه والنفوذ (فيما أصبح يسمى مجموعه "باللوبي")، فهو مطلب كبير يحرص رؤوس تلك الملل على غرسه في ضمائر أتباعها كطريق لتأمين بقاء الطائفة واستمرار وجودها وحصانة المنتسبين إليها عبر الأجيال، فلا تكون قلة أعدادهم سببا في إغراء مخالفيهم على اقتلاعهم وإفنائهم في يوم من الأيام. فإن لم يكن الخروج من الاستضعاف بالظهور العلني بالسلطان والحكم، فليكن إذن بما سوى ذلك، كل أهل ملة بما تجيزه لهم ملتهم! وإذن يبتلى أهل الحق بأهل الباطل حتى إن الابتلاء بهم ليأتيهم من كل جانب، فمن غفل

عن دينه فلا يدري على أي ملة يموت! أليس قد قال رب العزة تبارك وتعالى: ((الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)) [الحج : 40]!

[←126]

"حظرت" هذه كلمة تركية بمعنى سيادة أو فخامة أو نحو ذلك، وهي عند الأتراك مرتبطة بتعظيم الشخصيات الدينية على الأخص. والظاهر أن لها اتصالا بلفظة "حضرة" العربية، ولعل الأتراك نقلوها عن ذلك الأصل العربي، والله أعلم.

[←127]

والدليل على بطلان هذا الاعتقاد في حياة الخضر عليه السلام ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " صلّى بنا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ ليلةٍ ، صلاةَ العشاءِ ، في آخرِ حياتِه . فلما سلّم قام فقال " أرأيتَكم ليلتَكم هذه ؟ فإنَّ على رأسِ مائةِ سنةٍ منها لا يبقى ممن هو على ظهرِ الأرضِ أحَدٌ. " واللفظ في الحديث عام في كل من كان على ظهر الأرض في تلك اللحظة، ولا يخصّص النص العام إلا بنص، وليس ثمة مخصص في شأن الخضر، فثبت أن الزعم بحياته الآن خرافة محضة، والله أعلم.

دع عنك أن اعتقاد كونه مخططا ومدبرا لما تجري عليه محافل الماسونيين من خطط حقيقته تكفير نبي من أنبياء الله (على القول بنبوة الخضر وهو الصحيح) إذ يضع الخطط للماسونيين الوثنيين، أو ادعاء أن الله تعالى قد أمر نبيا من أنبيائه بتلقي العلم ببعض حكمه وتقديراته جل وعلا عن زنديق يدعي الصلاح والديانة مع أنه في واقع الأمر زنديق ماسوني وثني! فحقيقة هذا الاعتقاد الكفر المحض على كلا التقديرين، والله المستعان!

[←128] وقد كنت كتبت مقالا قديما في بيان عقيدة هذا الرجل ونشرته في بعض المنتديات قبل بضع سنوات، فجعلته كله في بيان قوله بوحدة الوجود وبأن الواقع وهم لا حقيقة له خارج الأذهان، ولو كنت أعلم يومها ما أعلمه اليوم من حال الرجل لذكرته ولصرحت بمناطين – على الأقل – لتكفير هذا الزنديق: القول بوحدة الوجود، وإعلان الانخراط في الملة الماسونية والترقي في درجاتها الكهنوتية، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله!

[←129]

ولن يقبل من أهل الأديان أديانهم الشركية ويقرهم عليها في أشراط الساعة إلا الأعور الدجال في الحقيقة، فهو مسيحهم الذي ينتظرونه، الذي سيُظهر الله لهم على أيديه من الخوارق ما يفتنهم به (من فرط غلوهم فيه)، وهو من ستتبعه تلك الفرق كلها تحقيقا (أو ما يبقى منها يوم ظهوره، وما يتفرع عنها مما لا يعلمه إلا الله)، بما فيها فرقة عدنان أوكتار الماسونية أو ما تصير إليه يومئذ، فتأمل!

[←130]

ومن ذلك ما تراه عند المتكلمين الحزبيين في محافلهم ومنتدياتهم من اختلاط الجهمي المعتزلي والأشعري والخارجي القطبي ومن يزعم أنه "سلفي"، بل والقبوري الاتحادي الماسوني الزنديق، كلهم لا يرون بأسا في "التعاون" على محاربة الإلحاد، معتقدين أن ضرر البدعة إن وقع (وهو واقع قطعا لا محالة) فهو أهون من ضرر الإلحاد، وأن صيانة الناس عن مفارقة الملة بالكلية مقدمة عند التزاحم على صيانة الناس من التلبس بالبدع! فمتى حصل ذلك التزاحم أصلا حتى تُعقد الموازنة على هذا النحو الفاسد، ويقال مثل قول بعضهم: "ليس لدينا اليوم في الساحة من يحارب الإلحاد كمحاربة هارون يحيى وعمرو شريف وغيرهما"؟؟ ومن الذي قال إن هذا مما يجوز أن تنصب فيه تلك الموازنة أصلا؟ أي مسلم عاقل هذا الذي ينصب الموازنة بين ترك بعض السفلة المغرقين في الأهواء من أهل القبلة بعدما وقعوا في الردة والإلحاد (مع التواصي باعتزالهم وترك مجالستهم، وتعليم عامة المسلمين ما به تميل نفوسهم عن الطمع في مطالعة تلك الزبالة الفلسفية السوفسطائية من الأساس، وتعليم كل فئة منهم ما يكفيها ويناسب حالتها بعينها لدفع أي اشتباه)، وبين فتح الجدال الكلامي الفلسفي العلني مع المرجم من هؤلاء بين أيدي جماهير المسلمين وتشجيعهم على مجالسته ومجادلته والتعرض لزبالته وزبالة المتكلمين من أهل الطوائف المخالفة باختلافها (بل والملل) في الرد عليه، بدعوى حاجة الأمة لتكاتف المسلمين من جميع الطوائف للوقوف على ثغر "ملف الإلحاد"؟ بل هذا والله شر عظيم لا يعلم مداه إلا رب العالمين!

ولقد كنت أتساهل في نشر مقالاتي في بعض المنتديات التي لا تنضبط لدى القائمين عليها تلك القضية الخطيرة، محتسبا نية الإصلاح ما استطعت والنصح وتغيير المنكر ما وسعني، حتى هداني ربي بفضله ومنته لترك تلك المنتديات على الشبكة العنكبوتية فرارا من تلك الخصلة الحزبية التي يختلط فيها الحابل بالنابل تحت شعار "نتعاون على ما اتفقنا عليه" الإخواني الماسوني، نسأل الله العافية! فلا شك في أن تصفية اعتقاد المسلمين من بدع المتكلمين القدماء والمعاصرين على السواء، وتحصينهم من منهج الكلام نفسه في تلقي المعرفة، لا يصح لمسلم مستقيم في منهجه صحيح في عقله أن يرجو الوصول إلى تحقيقه مع كونه في نفس الوقت منخرطا في اختراع الجديد من مداخل الرد الكلامي على الملاحدة، مع قوم أكثرهم لا يميزون يمينهم من شمالهم في منهج السلف وعقيدة أهل السنة، وهم مع ذلك مندفعون في الكتابة والتأليف والنشر والتعليم في قضايا لم يتكلف أكثرهم الحدّ الأدنى الواجب حتى من القراءة فيها واستكمال التصور بشأنها، وتراهم يقال فيهم العالم فلان والأستاذ فلان والشيخ فلان وهم يقبلون! ومنهم من يزكيه عامة المريدين والمعجبين بنسبته إلى السلفية على ما هو ساقط عنده من أصول أهل السنة التي ما تعلمها من مصادرها من كتب السلف يوما من الدهر، وعلى ما فيه من أخلاط المناهج والعقائد والبدع، سواء في مصادر التلقي (تقديم "العقل" و"العلم الطبيعي" على النقل) أو في الأسماء والصفات أو في الأسماء والأحكام وقضايا الإيمان والإمامة أو في ذلك كله جميعا ولا حول ولا قوة إلا بالله! مع أن الغالبية العظمى من الفرق الضالة التي نشأت وتكاثرت في تاريخ الأمة إنما كان وراء ظهورها – بالأساس – ما كان من العامة وأشباههم من أنصاف المتعلمين من تنكب المنهج الكلامي والتساهل في مسألة "الرد على الدهرية" هذه، بل إن كل من لديه أدنى دراية بمنشأ علم الكلام نفسه في تاريخ المسلمين يعي هذه المسألة جيدا، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد كان القوم يجمعون العامة وأشباههم للخوض في مناظرة الدهرية وأهل الملل، متفقين على جعل "العقل" (وهو في هذا السياق: ما يقبله الخصوم ويوافقونهم عليه من نظريات فلسفية سواء في الإلهيات أو الطبيعيات كما بينا في هذا الكتاب) المستند الأوحد في دعوة كل طائفة منهم إلى الإسلام، معتقدين أن جميع الطوائف من أهل القبلة من شأنها أن تتفق على تلك النظريات والمقدمات، بدعوى أن العقل السوي يقتضي قبولها والتسليم بها أصلا، وأنها من ثمّ توصل كافة أهل الملل والنحل والفلسفات إلى إثبات الباري إن سلموا بها، وهي بدعة أنكر عليها السلف رحمهم الله أشد النكير، وهي منبت علم الكلام بجميع ما ظهر تحت عباءته من بدع الطوائف والفرق عبر القرون، ومن نزاعات تلك الطوائف فيما بينها وتكفير بعضهم بعضا إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما جهدنا في بيانه في هذا الكتاب بحول الله وقوته! خذ على سبيل المثل هذه الرواية التي ذكرها الذهبي رحمه الله في السير (ج 12، ص 289) قال: "قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ الوَلِيْدِ: سَمِعْتُ أَبَا مُحَمَّدٍ بنَ أَبِي زيدٍ يسألُ ابنَ سعدى لَمَّا جَاءَ مِنَ الشرقِ: أَحَضَرتَ مَجَالِسَ الكَلاَمِ؟ قال: مرتين ولم أعد، فَأَوَّلُ مَجْلِسٍ جمعُوا الفِرقَ مِنَ السُّنَّةِ، وَالمبتدعَةِ وَاليَهُوْدِ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوْسِ وَالدَّهريَّةِ، وَلِكُلِّ فرقَةٍ رَئِيْسٌ يَتَكَلَّمُ وَينصرُ مَذْهَبَه، فَإِذَا جَاءَ رَئِيْسٌ قَامَ الكلُّ لَهُ, فَيَقُوْلُ وَاحدٌ: تنَاظرُوا وَلاَ يحْتَجَّ أَحدٌ بكتَابِهِ وَلاَ بنبِيِّهِ, فَإِنَّا لاَ نصدِّقُ بِذَلِكَ، وَلاَ نُقِرُّ بِهِ، بَلْ هَاتُوا العَقْلَ وَالقيَاسَ، فَلَمَّا سَمِعْتُ هَذَا لَمْ أَعُدْ ثُمَّ قيل لي: ههنا مَجْلِسٌ آخرُ لِلْكَلاَمِ، فَذَهَبتُ فَوَجَدْتُهُم عَلَى مِثْلِ سيرَةِ أَصحَابِهِمْ سوَاءً، فَجَعَلَ ابْنُ أَبِي زيدٍ يتعجَّبُ، وَقَالَ: ذَهَبتِ العُلَمَاءُ, وَذهبتْ حُرمَةُ الدِّينِ." اهـ. قلت: فهذا أثر سلفي في ذم مجالس الكلام! وأذم منها منتديات الكلام ولا شك، التي يفتح فيها الباب لكل ملحد وكل مشرك أن يأتوا ليتناظروا "بالعقل وحده" في الانتصار لمللهم، لأن المجالس المشار إليها إذا انفضت لم يبق لها أثر إلا ما أحدثه أصحابها في نفوس وعقائد من حضروها! وأما المنتديات الحوارية، فإن جميع ما يجري فيها من مناظرات وخصومات يبقى محفوظا على الشبكة يقع فيه كل من اتفق له أن عثر عليه عبر آلات البحث، إلى أن يشاء الله، والله المستعان!

[←131] وقد كنت نشرت على الشبكة العنكبوتية قديما مقالا كاملا في بيان عقيدة وحدة الوجود عند هارون يحيي، أورده بتمامه في الباب الخامس من هذا الكتاب لمن أراد مطالعته.

[←132] النسخة المترجمة من الكتاب على موقعه الإلكتروني على الشبكة، وهي بعنوان "خديعة التطور: الانهيار العلمي لنظرية التطور وخلفياتها الأيديولوجية" ترجمة "سليمان بايبارا"، ص. 238